مُصطفى أمين

صَاحِبُ الجَلَالَة الحُبّ

دار الجيل
بيروت - لبنان

١٤١١هـ - ١٩٩١م.

دار الجيل
للنشر والتوزيع والطباعة
ص.ب : ٨٧٣٧
بيروت - لبنان

- ١ -

دق الجرس في مكتب سكرتير رئيس الديوان الملكي، وهرول الأستاذ أبو السعود ياسين، يضع طربوشه بسرعة على رأسه، ويزرر جاكتته وهو في طريقه إلى الباب، ثم عاد بعد دقيقة وقال للأستاذ درويش مخلص رئيس تحرير «آخر خبر» الذي كان يجلس على كنبة من الجلد في مكتب السكرتير: إن معالي رئيس الديوان الملكي في انتظارك.

وقام الأستاذ درويش ومشى وراء السكرتير، وانحرف على يمين الغرفة في ردهة مفروشة بالبساط الأحمر، ومزينة بالصور الزيتية الكبيرة. وبعد سبع خطوات، دق السكرتير على باب غرفة مغلقة، ثم فتح الباب، وانحنى، ودعا درويش للدخول.

ودخل درويش غرفة كبيرة جداً، في يسارها مكتب صغير، وقف وراءه ابراهيم حمدي باشا رئيس ديوان الملك فاروق، بوجهه الأحمر، وشعره الأبيض، وقامته الفارعة، وعلى شفتيه ابتسامة ترحيب. وصافحه رئيس الديوان بحرارة ودعاه إلى الجلوس وهو يقول:

- ماذا جرى يا درويش، هل من المعقول أنه عندما أقترب أنا من القصر، تبتعد أنت عن القصر؟

وابتسم ابراهيم باشا ابتسامته الساخرة وقال وقد بدا حاجباه الرماديان خشنين أكثر من المعتاد:

- لقد عينت في هذا المنصب منذ وقت غير قصير. وخلال هذه المدة جاءني كل الصحافيين يهنئونني بالمنصب. وأنت الوحيد الذي لم يهنئني. حتى خصومي من الوفديين جاءوا لتهنئتي وأنت صديقي القديم لم تحضر لزيارتي، ولم تتصل بي، ولم تطلبني في التليفون، مع أنك كنت قبل ذلك لا تكف عن زيارتي والاتصال بي. كنت صديقي وأنا نائب، صديقي وأنا في المعارضة، صديقي وأنا وزير. . فما بالك انقطعت عني؟

قال درويش:

- الواقع أنك تستحق التعزية على هذا المنصب، لا التهنئة!

قال ابراهيم باشا وهو لا يزال يبتسم:

- كان واجبك إذن أن تحضر لتعزيتي، إن واجب الصديق أن يكون أول من يقف بجوار صديقه عندما يقع في كارثة!

قال درويش:

- خشيت أن أصدمك برأيي. إنني أؤمن أنك آخر من يصلح لهذا المنصب. . أنت كنت زعيم الشباب في ثورة ١٩١٩، وهذا المقعد الذي تجلس عليه يحول الثائر إلى سياسي. أنت كنت من أعظم خطباء الحركة الوطنية، وهذا المقعد يستوجب أن يكون

شـاغله أبكم لا يتكلم. . أنت رجل صريح، تتكلم وكأنك تخطب، وتتحدث وأنت جالس في صالونك كأنك تواجه الجماهير الحاشدة.

هذا المقعد يستلزم المداورة والمناورة. والهمس والدس.

الجدران هنا لها آذان. . الموظفون لا يحملون في جيوبهم أقلام الحبر، بل الخناجر والسكاكين. . لا عمل لهم إلا تدبير المقالب. . كل واحد منهم يريد أن يصعد على جثة زميله. . لعبتهم المفضلة أن يتآمروا على واحد منهم ويذبحوه. وبعد أن يتأكدوا أنه أسلم الروح يخرجون مناديلهم ويجففون دموعهم السخينة. . كل واحد منهم مثل الممثل السينمائي القديم لون شاني، له ألف وجه ووجه. . وجه يقابل رئيسه به، ووجه ثان يقابل مرؤوسه به، ووجه ثالث يقابل الناس به، ووجه رابع يقابل الملك به.

وفي كل وجه لسان مختلف، ما يقوله في مواجهتك غير ما يقوله في ظهرك، وما يقوله للناس خلاف ما يقوله للملك، وما يقوله لمرؤوسه ضد ما يقول لرئيسه. . كلهم يجيدون الانحناء أمامك، وكلهم يجيدون الطعن في الظهور.

فيهم عدد صغير من الناس الطيبين، لا حول لهم ولا قوة، دخلوا القصر ولا يعرفون باب الخروج. فالدخول في خدمة القصور صعب، ولكن أصعب منه الخروج. . إن الذي يستقيل من القصر تحل عليه اللعنة، يطارد في كل مكان يذهب إليه، يتبعه عدم الرضا السامي كظله. . والطريقة الوحيدة لمن يرغب أن يخرج من القصر أن يطرده الملك أو يموت. . وهذا جو لا أرضاه لك. . فلا هو يصلح لك ولا أنت تصلح له.

واختفت الابتسامة من وجه ابراهيم حمدي باشا، وقال في رنة حزن وكأنه يرسل زفرة:

ـ اكتشفت بعد تعييني في هذا المنصب كل ما قلته لي، وأكثر مما قلته لي. ولكن لماذا لم تحذرني قبل الآن من هذا الهول؟

قال درويش:

ـ وهل استشرتني قبل أن تقبل هذا المنصب؟.

وضحك ابراهيم باشا حمدي وقال:

ـ وهل تظن أن الملك استشارني قبل أن يعينني في هذا المنصب. لقد فوجئت به كما فوجىء سائر الناس. وطبعاً لن تصدق هذا. إن صديقي محمود باشا رئيس الوزراء يتصور أنني اتفقت مع الملك على أن أتولى هذا المنصب وراء ظهره. وهو معذور في هذا التصور، ولكن الله يعلم أنني فوجئت بتعييني. .

قال دوريش وهو غير مصدق:

ـ ولكن، ألم يجس الملك نبضك قبل تعيينك؟ ألم تر علامات أو إشارات بأنك ستتولى هذا المنصب، الذي غير طريق حياتك؟

قال ابراهيم باشا:

ـ حدث أن ذهبت مرة وأنا وزير للعدل بالنيابة لتقديم مصطفى مرعي بك للملك، لمناسبة تعيينه مستشاراً بمحكمة النقض، وجلسنا مع الملك وتطرق الحديث عن ثورة سنة ١٩١٩، وسأل الملك عما كان يفعله الجهاز السري للثورة، فروينا له بعض قصص كفاح الجهاز السري ضد الانجليز. . ولم يجر بيننا وبين الملك

حديث آخر في أي شأن من الشؤون السياسية.

ثم حدث بعد وقت أن زارني اسماعيل شيرين بك زوج الأميرة فوزية أخت الملك وأهداني كتابين، وأثناء الحديث قال إن الملك يعجب بي، وأنه قال إنني أحسن من يتولى رياسة الديوان. ولم أهتم بهذا واعتبرته كلاماً على سبيل المجاملة، ولم أتصور أن الملك يفكر في تعيين حزبي لرياسة ديوانه..

وبعد أيام كان شريف صبري باشا يقيم حفلة في سرايه بجاردن سيتي لمناسبة عيد ميلاد الملك، وكانت أم كلثوم تغني فيها. وفوجئنا بحضور الملك: وجلس معنا، ثم التفت إلى الموجودين وقال لهم: هنئوا ابراهيم باشا. فقد أصدرت أمراً ملكياً بتعيينه رئيساً للديوان!

ودهشت عندما سمعت هذا، ولم يصدق أحد من الموجودين أنني لم أعرف من قبل بهذا الاختيار، ولا أظن أن أحداً سوف يصدق هذه الحقيقة.. بل إن رجال القصر نفسه يتصورون أنه كان بيني وبين الملك اتصالات سرية قبل تعييني رئيساً للديوان!

ثم عاد ابراهيم باشا يقول وهو يحاول أن يستر عتابه بابتسامة:

ـ ألا ترى من حقي أن أنتظر من أصدقائي أن لا يتركوني وحدي في هذه الغابة؟.

وقبل أن يجيب درويش مخلص دق جرس التليفون.

ورفع ابراهيم باشا سماعة التليفون.

ولاحظ درويش أن وجه ابراهيم باشا امتقع. تحول لونه الأحمر

إلى لون أزرق، ثم قال وكأنه يتنهد حسرة:

ـ ولكن ألا يرى جلالة الملك أن نبلغ هذه المسألة إلى رئيس الوزراء، وأن نسأله رأيه في هذا الأمر الخطير قبل اتخاذ هذا الإجراء؟

ثم مضت فترة صمت، وبعدها وضع ابراهيم باشا سماعة التليفون على الآلة، وازداد لون وجهه امتقاعاً، كأن كارثة قد وقعت..

وتحرك فضول الصحافي في درويش مخلص فسأل ابراهيم باشا في لهفة عما حدث؟

وأجاب ابراهيم باشا:

ـ تصور أن الملك أمر بأن يدخل الجيش المصري غداً إلى فلسطين، وعندما قلت إن هذه مسألة خطيرة تستوجب أن يستشير الملك رئيس وزرائه، أو على الأقل يبلغه نبأ هذا القرار، كان الرد أن الملك هو القائد الأعلى للقوات المسلحة وأنها من اختصاص الملك لا رئيس الوزراء، وأن الملك لا يريد أن يعلم رئيس وزراء مصر بأن الجيش المصري سيدخل فلسطين لأن هذا سر حرب لا يجوز أن يعلم به رئيس الوزراء.

قال درويش في دهشة:

ـ إن الدستور ينص على أنه لا يجوز للملك أن يرسل قوات مصرية إلى خارج الحدود إلا بعد استئذان البرلمان.

قال ابراهيم باشا وهو يضرب كفاً بكف:

ـ إذا كـان الملك لا يريـد أن يستشير رئيس وزرائـه، فهل يقبـل باستشارة البرلمان؟

قـال درويش وقـد أخـرج علبـة سجـائـره، وتنـاول سيجـارة وأشعلها:

ـ ولكن، لماذا لم تقل للملك إنك تريـد أن تقابله فـوراً وتناقشـه في هذه المسألة؟

قال ابراهيم باشا:

ـ إن الملك هرب مني حتى لا يقابلني!

قال درويش:

ـ ألم يكن الملك هو الذي يكلمك في التليفون الآن؟

قال ابراهيم باشا في حسرة وأسى:

ـ إن الـذي كـان يكلمني الآن هـو أحمد حسني خـادم الملك النـوبي. . تصـور أن الملك يـأتمن خـادمـه عـلى سر دخـول الجيش المصري إلى فلسطين ولا يأتمن رئيس وزرائه!

وأمسك ابراهيم باشا التليفون وأدار رقماً.

وسأله درويش:

ـ ماذا تفعل؟

وتوقف ابراهيم باشا عن إدارة باقي الأرقام وقال:

ـ سأتكلم مع محمود باشا رئيس الوزراء وأبلغه بقرار الملك بـدخول

الجيش المصري إلى فلسطين. .

قال درويش:

ـ ولكن، ألم يطلب الملك أن لا تقول شيئاً لرئيس الوزراء؟

قال ابراهيم باشا:

ـ نعم، طلب ذلـك. . ولكني إذا لم أبلغ رئيس الوزراء بـدخول الجيش المصري فسوف يقدم استقالته من الوزارة، وستحدث أزمـة وزارية في الوقت الذي تدخل جيوشنا الحرب.

ومضى ابراهيم باشـا يدير الرقم السري، وعنـدما سمـع صوت رئيس الوزراء قال له:

ـ مسـاء الخير يـا دولة البـاشـا. إن جـلالـة الملك طلب مني أن أستأذن منك في أن يدخل الجيش المصري غداً إلى فلسطين. .

ومضت فـترة صمت. . . ودرويش يحاول أن يفهم مـاذا يقـول رئيس الوزراء في تعبيرات وجه رئيس الديوان.

ومضى وجه ابراهيم باشا يمتقـع أكثر وأكـثر، ثم قال وهـو يومىء برأسه:

ـ سأجيء الآن لمقابلة دولته في البيت.

ووضع ابراهيم باشا السماعة وهو يقول وكأنه يسبح في دوامة:

ـ قال لي محمود باشا أنـه إذا دخل الجيش المصري فلسـطين فهو يستقيل من رئاسة الوزارة. . إنه ثائر لأن هذه المسألة لم تعرض أولاً على مجلس الوزراء، ولم تعرض على مجلس النواب في جلسة سرية.

ويقول إنه لن يقبل بأن يمكث ساعة واحدة في الوزارة وإنـه سيجمع أوراقه الخصوصية ويعود إلى بيته.

تصور ماذا كان يقول محمـود باشـا لو عـرف أن الملك أمر بعـدم إخبـاره إطلاقاً بدخـول الجيش المصري، لو علم بـأن خادمـه يعرف السر، وغير مصرح لرئيس الوزراء أن يعرف السر!

وسكت ابراهيم باشـا قليلاً، ثم قـال وكأنـه يدق جـرس الخطر منذراً بحرب أخرى ميدانها قصر عابدين:

ـ ولكن، كيف أقول للملك إن رئيس الوزراء قرر الاستقالة إذا دخـل الجيش المصري إلى فلسـطين، مـع أن المفـروض أن رئيس الوزراء لا يعرف بدخول الجيش!

قـال درويش وهو ينـظر إلى وجـه رئيس الـديـوان الملكي الـذي ابيّض لونه فجأة:

ـ المفـروض أن لدى رئيس الـوزراء البوليس السيـاسي، ولـديـه مصـادر معلومات متعـددة، وأن إعداد جيش للتحرك لا يمكن أن يبقى سراً على دوائر الأمن. . .

قال ابراهيم باشا أنه سيتصل بالملك فوراً ويـطلب مقابلته. . .

وأمسـك ابراهيم بـاشا التليفـون، وطلب من عامـل التليفـون أن يوصله «ببولـك» الملك. وهو الاسم الـذي كان يـطلق على الجنـاح الذي يقيم فيه الملك بالقصر. .

ورد محمد حسن شماشرجي الملك على ابراهيم باشا.

وقال رئيس الديوان الملكي:

ـ أريد أن أتصل بجلالة الملك فـوراً. . ثم وضع ابـراهيم باشـا سماعة التليفون بعصبية وقال:

ـ تصور أن محمد حسن يقـول إن الملك منع أن يتصـل به أحـد لأنه يعقد اجتماعاً سرياً خطيراً مع أكبر حمار في الدولة!

وضحك درويش وسأله:

ـ من هو أكبر حمار في الدولة؟

وكأن درويش حار في أي من الحمير يقصد رئيس الديوان الملكي لكثرة من يعرفهم من حمير!

قـال ابراهيم بـاشا بـاشمئزاز:

ـ كيف تكون صحافياً كبيراً ولا تعرف أكبر حمار في الدولـة؟ إنه الأمير عادل عمرو الذي يعتبره الملك خبيره العسكري الذي يعتمـد عليه في الخطط الحربية!

وضرب درويش كفـاً بكف لأن الأمير عـادل ليس أكـبر حمـار في مصر، وإنما أكبر حمار في العالم!

ووضع ابراهيم باشا طربوشـه على رأسـه وقال لـه وكأنـه طبيب إسعاف يذهب لإنقاذ مريض على وشك الموت:

ـ تعـال نذهب لنقـابل محمـود باشـا في داره. . إما أن أستـطيـع إقناعه بالعدول عن الاستقـالة، وإمـا أن أستقيل معـه، ونترك البلد للأمير عادل عمرو!

وصرف ابـراهيم بـاشـا سيـارة القصر الملكي. . وركب بجـوار درويش مخلص في سيـارتـه، وذهبـا إلى بيت محمـود بـاشـا رئيس الـوزراء في منزلـه بمصر الجديـدة. ودخلا إلى البيت فـوجدا محمـود باشا جالساً في مكتبه الصغير في الـدور الأول، وقد ارتـدى جلابيـة

من الحرير وفوقها عباءة سعودية من صوف الجمل. .

وصافح محمود باشا صديقه ابراهيم باشا مصافحة باردة، وهو يقول منفجراً:

ـ هذا لعب أطفال. . إنني لا يمكن أن أشترك في عملية لعب أطفال!

ثم قال لدرويش وهو يصافحه ويدعوه للجلوس في أحد المقاعد في الغرفة ذات الأثاث المتواضع:

ـ لن أعطيك الاستقالة، إلا بعد أن أتصل أولاً بالملك. إنني رجل أحب النظام. . ولا أقبل الخروج على النظام حتى وأنا أستقيل!

وأمسك محمود باشا الورقة التي أمامه، ووضع نظارته على عينيه، وبدأ يقرأ نص الاستقالة، بصوت هادىء حازم ليس فيه أثر للتردد أو الإحجام:

«إن القضية المصرية تتلخص بأننا نطلب جلاء القوات البريطانية عن قناة السويس، لأن الجيش المصري قادر أن يدافع وحده عن مصر. والإنجليز يعارضون الجلاء بحجة أن الجيش المصري غير قادر على الدفاع عن القناة. وهذه وجهة النظر التي اختلفنا مع الإنجليز بشأنها في مجلس الأمن. فإذا حدث أن هزم الجيش المصري في فلسطين فإننا بذلك نعطي للإنجليز حجة لرفض الجلاء عن بلادنا. .

«ودخولنا حرب فلسطين بدون استعداد يعرض قضية الجلاء للخطر.

«وأنا أيدت دخول قوات غير نظامية، ووافقت على منح إجازة للضباط والجنود المصريين لتكوين فرق فدائيين. ولكن هذا شيء، وهزيمة الجيش المصري في فلسطين شيء آخر.

«ثم إن هذه المسألة ليس من حق الملك وحده أن يبت فيها. إنها مسألة تتعلق بمصير البلاد كلها وبمستقبلها. والوزارة نفسها لا تستطيع أن تبت وحدها برأي في هذا الموضوع الخطير، بل يجب استشارة البرلمان والمعارضة في هذا الشأن، حتى تتخذ البلد قراراً إجماعياً واحداً، فإذا قررت أن تدخل الحرب دخلت بكامل صفوفها، وإذا رأت أن مصلحتها في عدم الدخول قبل الاستعداد الكامل، اتخذت الخطوات لتأمين هذا الاستعداد.

«ولما كنتم جلالتكم لم توافقوا على هذا الرأي الذي سبق أن عرضته على جلالتكم فأتشرف بتقديم استقالتي من رياسة الوزارة».

وقال ابراهيم باشا وهو ينقل بصره بين تمثال سعد زغلول النحاسي الصغير الموضوع على مائدة في غرفة المكتب، وبين وجه محمود باشا الجامد كالتمثال:

ـ إنني أوافق كل الموافقة على هذا الرأي، وهو رأيي أيضاً، ولكنني أخشى أن تكون استقالة الوزارة يوم دخول الجيش إلى فلسطين طعنة في ظهر الجيش، يستفيد منها اليهود ويتصورون أننا نوافق على إقامة دولتهم، الأمر الذي يقويهم في الرأي العام العالمي. . إنني أفضل أن تبقى في مكانك، وبعد أن تنتهي المعركة تقدم استقالتك، وسوف أتضامن معك وأقدم استقالتي. .

ولم يقتنع محمود باشا بهذا الرأي. فقد كان يكره المساومة في كل

شيء حتى في السياسة!

وبعد مناقشة طويلة اقترح درويش مخلص أن يدعو النقراشي زملاءه الوزراء ويستشيرهم في هذه الخطوة الخطيرة، فإذا كان محمود باشا أخذ على الملك أن يتخذ مثل هذا القرار دون أن يستشير الوزراء، وهذا حق، فإن الحق أيضاً يقتضي بأن يستشير رئيس الوزراء زملاءه قبل أن يتخذ قراره الخطير في مثل هذه اللحظات العصيبة.

ودعا محمود باشا زملاءه الوزراء إلى اجتماع عاجل في داره وعرض عليهم قراره بالاستقالة.

ورأت الأغلبية أن الاستقالة ستكون طعنة في ظهر الجيش، وأن من واجب محمود باشا أن يبقى، ثم يقدم استقالته من الوزارة، بعد انتهاء هذه المعركة.

ولكن محمود باشا أصر على أن يكتب إلى الملك خطابه كما هو، وأن يقول في ختامه أنه مستقيل من الوزارة، ولكنه يبقى مؤقتاً إلى أن تنتهي المعركة، فوافق الوزراء على هذا الحل...

وكانت التقارير التي لدى الملك من مختلف البلاد العربية تؤكد أن إسرائيل ليس لديها قوة حربية، وإنما هي عدة عصابات مسلحة، وأنه لا يكاد الجيش المصري يدخل فلسطين حتى تستسلم هذه العصابات.

وكان زعماء العرب الذين يقابلون الملك يؤكدون له أن الجيش المصري سوف يستطيع أن يقضي على العصابات الاسرائيلية في بضع ساعات. وكان الملك متحمساً لدخول الحرب، يصدق ما

يقال له عن قوة الجيش المصري، وضعف العدو، وتلقى الملك رسائل من البلاد العربية تبايعه الزعامة، وتنادي به امبراطوراً للعرب، وخليفة للمسلمين..

وعندما تحدث الملك قبل أن يصدر قراره إلى رئيس الوزراء عن أحلامه الامبراطورية وقدرة الجيش المصري على سحق العدو، وجد محمود باشا رئيس الوزراء غير متحمس لهذه الفكرة..

وتضايق الملك من ضيق عقل رئيس وزرائه، وقال إنه أصغر من الموقف الكبير الذي قرر اتخاذه، وإنه كان رجلاً جريئاً في شبابه، ولكن تقدمه في السن جعله رجلاً متردداً في عصر لا يعرف إلا الجرأة والإقدام.. وعندما ذهب ابراهيم باشا رئيس الديوان في اليوم التالي إلى القصر، وقابل الملك، وسلمه خطاب رئيس الوزراء، قرأ الملك الخطاب بابتهاج، وقال إن محمود باشا وفر عليه مؤونة إقالته.. وإنه يرى قبول استقالته فوراً، وتأليف وزارة عسكرية برئاسة الفريق محمد حيدر باشا وزير الحربية تتولى قيادة البلاد أثناء المعركة..

وبذل ابراهيم باشا مجهوداً حتى أقنع الملك أن ليس من المصلحة تغيير الوزارة في أول المعركة، وأن هذا سوف يضعف الموقف، ولن يقويه، ووافق الملك بعد تردد على قبول اقتراح ابراهيم باشا بالإبقاء مؤقتاً على وزارة محمود باشا ولكنه قال:

- ولكن عندما تبدأ الانتصارات فسوف أغير محمود باشا، لأن ليس من حقه أن يشارك في ثمرات نصر كان يعارض فيه..

ودخلت قوات الجيش المصري إلى فلسطين..

وكتب درويش مخلص في جريدة «آخر خبر» يحذر الشعب من الإغراق في التفاؤل، والاعتقاد بأن مهمة الجيش المصري هي نزهة في فلسطين، بل إن العدو قوي ومستعد ومسلح، وإن المعركة طويلة تحتاج إلى عرق ودم ودموع!

وقرأ الملك مقال درويش وهاج، واتصل تليفونياً بابراهيم باشا، وقال له:

- يجب تقديم درويش للمحاكمة.. إن مقاله اليوم فيه إضعاف لقوة الجيش المعنوية.. كيف يقول إن العدو قوي؟. إن هذه خيانة عظمى تستوجب محاكمته فوراً!

قال ابراهيم باشا:

- إن درويش يريد أن يشحن العزائم حتى لا نستهين بالعدو.

قال الملك ساخراً:

- ولكن العدو ضعيف جداً.. كل التقارير تقول ذلك..

قال ابراهيم باشا:

- وما المانع أن يقال إن العدو قوي، وإننا انتصرنا عليه، بدلاً من أن نقول إنه ضعيف وإننا هزمناه؟!

واقتنع الملك عندئذ بأنه لا داعي لتقديم الصحافي درويش إلى محكمة الجنايات، ولكنه طلب من ابراهيم باشا أن يستدعيه ويسأله كيف يقول هذا الكلام الفارغ!

واتصل ابراهيم باشا بدرويش في جريدته وأبلغه غضب الملك

على مقاله، وقال درويش إنه يريد أن يقابل رئيس الديوان.

وذهب درويش إلى ابراهيم باشا، ودفع إلى رئيس الديوان الملكي ببرقية جاءته من مراسل الجريدة في نيويورك جاء فيها أنه علم من الدوائر المطّلعة في وزارة الحربية الاميركية أنهم في دهشة للمعلومات الخاطئة التي لدى الدول العربية عن ضعف تسليح الجيش الاسرائيلي، فإن معلومات وزارة الحربية الاميركية تؤكد أن أسلحتهم أقوى من أسلحة الجيوش العربية، وأن الضباط الاسرائيليين هم ضباط اشتركوا في الحرب العالمية الثانية، وأن فيلقاً إسرائيلياً كاملاً اشترك في حرب الصحراء مع مونتجمري، وفي إيطاليا.

وأرسل ابراهيم باشا برقية المراسل إلى الملك فما كاد يقرأها حتى قال إنها كلام فارغ، وإن المقصود بها تخويف مصر، حتى لا تشترك في حرب فلسطين. وصدر أمر للرقابة بمنع نشر البرقية..

جلس درويش في مكتبه بجريدة «آخر خبر» يجرع فنجاناً من القهوة ويدخن سيجارته وكأنه يحاول أن يهدىء أعصابه ويخدرها. إن الأزمات تحيط به من كل مكان. والأزمات في حياة الصحافي هي أيام سعد يصول فيها ويجول، والهدوء السياسي أشبه بالموت. فتصبح زيارة الصحافي لرجال السياسة أشبه بزيارة القبور.

إن الموتى لا يتكلمون. ولكننا ونحن نجلس إلى جوار قبورهم كأننا نتبادل معهم الذكريات؟. والصحافي لا تهمه الذكريات. المهم هي أخبار اليوم وأخبار الغد. ودرويش يشعر أن لديه محصولاً ضخماً من الأخبار يكفي أن تعيش عليه جريدته عدة شهور، ضربات صحفية تحتل العناوين الضخمة الحمراء للصفحة الأولى

لعدة أعداد من الجريدة، ولكنه لا يستطيع أن ينشر ما لديه من أخبار وأسرار، لأنه ائتمن عليها، وأنه لو أراد أن يشير إليها من بعيد دون أن يبيح الأسرار حذفها الرقيب، فقد فرضت الرقابة على الصحف لمناسبة دخول الجيش المصري إلى فلسطين. وأصبح للرقيب مكتب في الجريدة.. لا تنشر كلمة إلا بعد أن تمر عليه ويوقع عليها بإمضائه.

ولكن أهم شيء استلفت نظر درويش هو العلاقات بين رئيس الوزراء وصديقه القديم رئيس الديوان الملكي. لم يدهش درويش لأن الملك يأتمن خادمه على أسرار الدولة العليا ولا يأتمن رئيس وزرائه.

ولم يدهشه أنه لا يستطيع رئيس ديوان الملك مقابلة الملك ليناقشه في مسألة خطيرة كدخول الجيش المصري إلى فلسطين.

ولم يدهشه أن يستقيل رئيس الوزراء لأن الملك خالف الدستور ورفض أن يستشير البرلمان ومجلس الوزراء.

كل هذا لم يكنْ غريباً عليه، ولكن الغريب ما لاحظه وهو يجلس يسمع المناقشة بين محمود باشا رئيس الوزراء وصديقه الحميم ابراهيم باشا رئيس الديوان الملكي. كان يعرف أن صداقة وطيدة تربط الرجلين. صداقة بدأت سنة ١٩١٩ ودعمها كفاحهما المشترك، والسجون التي دخلاها، وحكم الإعدام الذي صدر على رئيس الديوان، وحكم الإعدام الذي طالبت النيابة توقيعه على رئيس الوزراء عندما قدمته إلى محكمة الجنايات، بتهمة تدبير اغتيال الانجليز أثناء الكفاح المسلح للثورة.

ولكن درويش لاحظ أن محمود باشا لم يكن يتحدث مع ابراهيم

كصديقه القديم. كان يتحدث معه كأنه رئيس الديوان، وهو رئيس الوزراء. كان رئيس الديوان في معسكر، ورئيس الوزراء في معسكر آخر. كأن ابراهيم باشا هو مندوب الملك الخصم، وليس صديق الكفاح، وزميل الصراع المرير، ورفيق المقصلة والزنزانة وقفص الاتهام في محكمة الجنايات!

ووجد درويش نفسه يقارن بين ثلاثة توائم يظن الناس أنهم متشابهون صورة وشكلاً وتفكيراً وملامح وتصرفات. أحمد باشا الذي رأس الوزارة قبل محمود باشا، ومحمود باشا صديقه العزيز الذي كان لا يفارقه أبداً، وابراهيم باشا رئيس الديوان الذي كان يعتبره أحمد باشا ومحمود باشا ابنهما الروحي وخليفتهما.

لقد اشترك الثلاثة في الثورة، في الجهاز السري الذي لعب دوراً خطيراً في نجاح ثورة سنة ١٩١٩، وأوقع هزائم مذهلة ببريطانيا التي كانت في ذلك الوقت أقوى امبراطورية في العالم، الدولة التي لا تغيب الشمس عن أملاكها..

كان أحمد باشا هو عقل الجهاز السري، وكان محمود باشا هو ضميره، وكان ابراهيم باشا هو لسانه!

كانت مهمة أحمد باشا أن يدبر خطط الهجوم على الإنجليز، وكانت مهمة محمود باشا أن ينظم خلايا الفدائيين، وكانت مهمة ابراهيم باشا أن ينظم إضرابات الطلبة والعمال ويخطب في الأزهر، ويقود المظاهرات في الشوارع التي تنقلب إلى معارك بين الشعب وجنود الاحتلال يسقط فيها القتلى والجرحى بالمئات!

وانتهت الثورة، وبقي التوائم الثلاثة يحتفظون بصفاتهم التي اكتسبوها في الجهاز السري، دون أن يتبدلوا أو يتغيروا بتبدل

الظروف وتغير الزمان. ومهما تولوا من مناصب كبيرة، أو ارتفعت رتبهم أو تقدم السن بهم، فإنهم لم يتبدلوا.. بقي أحمد باشا العقل المدبر.. وبقي محمود باشا الضمير المتيقظ.. وبقي ابراهيم باشا اللسان الفصيح!

عندما كان أحمد باشا يفكر في اتخاذ قرار كان يسأل نفسه ماذا يفعل السياسي الفرنسي كليمنصو لو كان في مكانه. ماذا يفعل تشرشل وروزفلت وستالين. وعندما كان محمود باشا يواجه نفس المشكلة كان يسأل نفسه ماذا يفعل سعد زغلول لو كان مكانه. وعندما يواجه ابراهيم باشا نفس المشكلة كان يسأل نفسه كيف يدافع عن قراره أمام الشعب بخطاب بليغ؟

كانت عقلية أحمد باشا تقدمية عالمية، وكانت عقلية محمود باشا وطنية تاريخية، وكانت عقلية ابراهيم باشا شعبية جماهيرية. كان أحمد باشا يتصرف كأنه أستاذ في الجامعة، ومحمود باشا كأنه ناظر مدرسة، وابراهيم باشا كأنه زعيم للطلبة.

كان العقل متجدداً، خلاقاً متسامحاً. وكان الضمير متشدداً، لا يكف عن المحاسبة، قليل الرضا كثير التأنيب، يحكم على كل فرد بمقدار إخلاصه لثورة سنة ١٩١٩، يختار أصدقاءه كأنه يختار خلية سرية، يشترط في كل نصير له أن يكون فيه أخلاق الفدائي، بريء مثله، متجرد مثله، نظيف مثله. ليس له علاقات غرامية. لا يعرف السهرات الحمراء. لا يقبل توبة رجل خرج عن الصف في أثناء الثورة. لا يثق برجل تردد في أن يقوم بواجبه في أثناء المعركة.

ومن أجل هذا كان أصدقاؤه قليلي العدد، وكان كثيرون يتهمونه بضيق الأفق. فإننا نتعذب عندما نلتقي بضمائرنا مرة كل يوم.

ولكننا نتعذب أكثر إذا عشنا مع ضمائرنا في كل لحظة من لحظات الليل والنهار.

أما اللسان فكان منطلقاً. لا يهمه أن يفرز أعضاء المظاهرة قبل قيامها، فيفرز المؤمنين عن أنصاف المؤمنين، ويبعد الذين اعتبروا المظاهرة زفة، ويحتفظ بالذين اعتبروا المظاهرة معركة حياة أو موت. إن كل ما يهمه أن تكون المظاهرة كبيرة، وأن يصبح صوتها كالرعد يزلزل المقاعد تحت المحتلين، ويهز المدافع في أيدي الأقوياء.. إن أصوات الضعفاء تنصهر في أصوات الأقوياء. إن حماس المظاهرة يحول الجبان إلى شجاع، والمتردد إلى مقدام، والصوت الهامس إلى زئير..

وكان العقل والضمير واللسان تكمل بعضها. فإن الحركة السرية بلا عقل تتحول إلى حركة مجنونة، والحركة السرية بلا ضمير منظم تتحول إلى فوضوية، والحركة السرية بلا لسان تتحول إلى مخلوق أبكم.

وعندما مات أحمد باشا بقي الضمير واللسان، فتوقف انطلاق الحركة، بقيت لها طهارتها الثورية ولسانها الفصيح، ولكن فقدت انطلاقها. وعندما أصبح ابراهيم باشا رئيساً للديوان، بقيت الحركة ضميراً بغير لسان!

وكانت الأحزاب والمشتغلون بالسياسة يعتبرون تعيين ابراهيم باشا صديق محمود باشا وساعده الأيمن رئيساً للديوان، تقوية ضخمة لوزارة محمود باشا، فقد كان الملك قبل ذلك يحرص دائماً أن يختار رئيس ديوانه من الرجال الذين لا يحبهم رئيس وزرائه، ولكنها أول مرة يختار فيها الملك أقرب المقربين لرئيس الوزراء

ليجعله رئيساً للديوان.. فهل هناك ثقة أكبر من هذه الثقة التي غمر بها الملك رئيس وزرائه محمود باشا؟

ولكن محمود باشا وحده كان يعتقد أن تعيين ابراهيم باشا في هذا المنصب هو تجريده من يده اليمنى.. إن الملك قطع ذراع رئيس الوزراء ووضعها في يد رئيس الديوان. فأصبح رئيس الوزراء بلا ذراع، وأصبحت الذراع المقطوعة موضوعة في كرسي الديوان بلا حراك!

ومضى درويش يقلب البرقيات والتقارير التي يتلقاها من مندوبيه العديدين الذين أوفدتهم الجريدة إلى جبهة القتال..

إن تصريحات كل رؤساء الدول العربية مليئة بالتفاؤل.. إن الجيش المصري يسير في أرض فلسطين كما تسير السكين في قطعة الزبد.. كل يوم تجيء أنباء انتصارات.. كل يوم يرتفع العلم المصري فوق بلد جديد في فلسطين.. كل الأنباء تؤكد أن الجيش المصري أصبح يقترب من مدينة تل أبيب..

ها هي المعلومات المؤكدة تثبت أن الملك كان بعيد النظر عندما أصر على دخول الجيش المصري إلى فلسطين، وعندما داس بقدمه على نصائح رئيس وزرائه واعتراضاته، ثبت أن حرص محمود باشا الذي ورثه من عمله الفدائي في ثورة سنة ١٩١٩ هو أشبه بالفرملة!

إن الضمير في الإنسان هو أشبه بالفرملة في السيارة، ولكن إذا بقيت الفرملة تعمل باستمرار، توقفت السيارة عن الانطلاق.. وعندما أهمل الملك الفرملة، انطلقت السيارة من نصر إلى نصر وأصبحت على أبواب تل أبيب..

وفجأة، دق جرس التليفون وقال سكرتير التحرير أن هناك رسالة هامة وصلت من محمد حسين مندوب الجريدة في جبهة القتال.. وطلب درويش من سكرتير التحرير أن يحضرها على الفور..

وتصفح درويش الرسالة ولم يصدق عينيه..

إنها رسالة مختلفة عن الرسائل الوردية التي اعتاد أن يتلقاها في أيام القتال الأولى..

إن الرسالة تقول إن الموقف العسكري خطير، وإن الجيش المصري ترك وراءه عدداً من المستعمرات اليهودية لم يقتحمها.. وإن هذه المستعمرات بدأت تتحرك، وتنقض على الجيش المصري، وتقطع عليه مواصلاته وإمداداته، وإن الأسلحة التي يستعملها العدو أسلحة متفوقة على الأسلحة القديمة التي يستعملها جيشنا.. وإن الموقف العسكري ينذر بكارثة!

وما كاد درويش ينتهي من هذه الرسالة، حتى طلب محمود باشا في مكتبه برياسة الوزراء وسأله:

ـ كيف الحال؟

قال محمود باشا:

ـ كما توقعت تماماً.. زفت وقطران!

- ٢ -

رقدت شريفة عارية في مغطس الماء الساخن، تنظر إلى جسدها الأبيض الذي يغطيه الصابون وهي تحلم.

كان النور الداخل من نافذة الحمام يسقط على جسمها الجميل بأشعته المتموجة، وكأنها ذراع حبيبها عزيز تحاول أن تضمها، وكان الماء الأخضر هو قميص نومها يمنع أصابع عزيز أن تلمس جسدها الملتهب.

وراحت شريفة ترتب فقاقيع الصابون، التي تتكون ثم تذوب، وتكبر ثم تتضاءل، وتبرز فوق الماء الصافي ثم تغوص فيه، وأحست بأن هذه الفقاقيع أشبه بالشبان الذين كانوا يحومون حولها قبل أن تعرف عزيز، وتحبه وتتزوجه.

ودفعت المياه بكفها، وكأنها تجهز على بقية فقاعات الصابون التي لا تزال تقاوم وترفض أن تذوب. وعندما كانت تنجح في أن تلطم إحدى الفقاعات كانت تحس برضا، وكأنها تلطم واحداً من هؤلاء الشبان، الذين أرادوا أن يفتحوا قلبها المغلق، إلى أن عثر عزيز على المفتاح!

وأخذت شريفة تلمس بأصابعها الماء الساخن الذي ينبعث من الحنفية النيكل، ثم ترتد أصابعها عندما تشعر بلسعتها. إن الماء الساخن لذيذ. ولكنه ليس فيه سخونة قبلات عزيز، إنه يطبطب على جسدها. ولكن ليس فيه حرارة أصابعه.. إنه يغطي صدرها، ولكن ليس فيه النشوة اللذيذة التي تحس بها عندما يغطي عزيز صدرها بصدره.

إن كل شيء في الحمام يذكرها بعزيز. المغطس الذي يحتويها يذكرها بعزيز وهو يحتويها. البلاط الأبيض الذي يغطي الجدران يذكرها ببياض قلبه. الدوش الساخن يذكرها بغضبه. الدوش البارد يذكرها بالكلمات التي يرد بها على قلقها عليه، ولهفتها عندما قرر أن يتطوع في حرب فلسطين. حتى الصابونة التي كانت في يدها، وتزحلقت في قاع المغطس، وراحت تبحث عنها تذكرها بعزيز.

إن عزيز.. كان في يدها وفجأة لم تجده. قال لها إنه مسافر إلى فلسطين في مهمة تستغرق يومين، والآن مضى على غيابه أكثر من شهرين كاملين.. شهران تعيشهما شريفة في وحدة وقلق وحرمان. كلما اشتاقت إليه دخلت إلى الحمام. لعل المياه تطفىء شوقها. ولكن المياه الساخنة تزيد لهيبها، والمياه الباردة تزيد برودة وحدتها. وهي ترقب الماء وهو يختفي، وتتصور أن هذه المياه هي أيامها الحلوة، وأن الاختفاء هو الحرب التي تبتلع كل شيء حتى الأحلام!

واستطاعت شريفة أن تجد الصابونة التي راوغتها، وأخذت تدعك الصابونة في جسمها الناعم، وترقب رغوتها، وتفكر في قصة حبها لعزيز.

لقد كانت شريفة أجمل فتاة في شارع الملك بحدائق القبة. كان طلبة المدارس يطوفون حول بيتها وكأنها أمنية الحب التي يحلمون بها.. كانت تسمع الصفافير تنبعث من شفاههم عند خروجها لتركب سيارة المدرسة، أو عند عودتها، وكأن هذه الصفافير هي السلام الملكي الذي يحيي الملوك عند ذهابهم وإيابهم.. كان أولاد الجيران يقفون في النوافذ والشرفات ساعات طويلة بانتظار لحظة تطل فيها من نافذة بيتها. فيتنهد بعضهم، ويحملق بعضهم،

ويبتسم بعضهم ، وشريفة تنظر إلى هذه القلوب الراكعة أمامها بغير اهتمام ولامبالاة.

كان يسعدها أن كل أولاد الحي يحبونها، وينظمون فيها القصائد، ويلقون في حديقتها رسائل الحب، ويستجدون نظرة من عينيها، ولكنها لم تشعر أن واحداً منهم يستحق أن يخفق قلبها من أجله. كانت تنظر إليهم كأولاد مراهقين.

إنها لا تريد أن تحب شاباً في سنها. عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها كانت تبحث عن شاب في الخامسة والعشرين، وعندما أصبحت في السابعة عشرة بدأت تحلم برجل في الثلاثين. وعندما وصلت إلى سن العشرين اعتقدت أن الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يفهمها هو الذي تجاوز الأربعين. ولكنها كانت تصاب بخيبة أمل دائماً عندما ترى أن الذين يحاولون أن يدخلوا قلبها هم دائماً شبان صغار يتصورونها صغيرة مثلهم، تافهة مثلهم.

إنها لم ترد حباً له بنطلون صغير، إنما أرادت حباً كبيراً ببنطلون كبير. رجل تسجد له، لا شاب يركع أمامها. عاشق تجري وراءه، لا عاشق يقف ساعات في النافذة ينتظر منها أن تجود عليه بنظرة خاطفة. كانت تحلم برجل قوي، عملاق، يخرج لها من الغابة، وهو عاري الصدر يشدها من شعرها ويجرها على الأرض إلى كوخ في الغابة، وينهال عليها ضرباً وصفعاً، ثم بعد ذلك يأخذها بين ذراعيه ويقبلها ويعانقها!

ولكن شبان شارع الملك كانوا يبذلون جهدهم في تصفيف شعورهم، وفي العناية بهندامهم، وفي تمثيل الرقة والضعف والخضوع والاستسلام. لم يفكر واحد منهم أن يجذبها من شعرها الأصفر ويجرها وراءه على الأرض، وهو يمسح بها اسفلت شارع

الملك. لم يفكر واحد منهم أن ينهال عليها ضرباً.. لو فعل ذلك لارتمت بين ذراعيه وأسلمت قلبها له، واختارته بغير شريك ملكاً على فؤادها.

ولكن شريفة حمدت الله على أن شاباً واحداً من هؤلاء لم يفطن إلى نقطة الضعف فيها. لم يعرف أن القلعة التي أمامه فيها حجر واحد وسط كل صخور الجرانيت الصلبة الصامدة. لو أنه لمس بأصابعه هذا الحجر الواحد، لانهارت جدران القلعة كلها وأصبحت بغير أسوار ولا أبواب!

وبقيت قلعة شريفة صامدة. السهام تتكسر أمام أبوابها، والقلوب تتحطم على جدرانها، ومواكب العشاق عاجزة عن اقتحامها، إلى أن سكن أمامها عزيز شوقي علاء الدين الطالب في الكلية الحربية. وعندما انتقلت أسرة عزيز وسكنت في الدور الثاني في العمارة التي تواجه بيتها اعتقدت شريفة أن عزيز شوقي سينضم إلى طابور المعجبين. سيقف في نافذة الشقة كما يفعل باقي شبان الجيران، سينتظر موعد عودتها من المدرسة، سيحاول أن يلفت نظرها بإشارات صبيانية، سيرسل خادمته لتلقي خطاباً غرامياً في حديقة دارها.

ولكن عزيز شوقي خيّب أملها. إنه لا يرفع رأسه أبداً وينظر إلى نافذتها. إنه لا يقف في شرفة منزله، ولا يطل من النافذة، ولا يحوم حول البيت، ولا يصفر بشفتيه عندما تخرج من البيت أو تعود إليه.

وتضايقت شريفة من هذا الشاب الجامد الذي لا يغازلها. هذا الشاب الأعمى الذي لا يرى جمالها الفتّان. هذا الشاب البارد الذي لم يصرعه شعاع عينيها ولا كهرباء شفتيها ولا صاعقة فتنتها وجاذبيتها وروعتها.

وتصورت في أول الأمر أنه لم يرها. وأن بقاءه في الكلية الحربية كل أيام الأسبوع ما عدا بعد ظهر الخميس ويوم الجمعة هو الذي منعه أن يتعرف بشباب شارع الملك، ويعرف منهم أن شارع الملك سمي بهذا الاسم لأن ملكة الجمال شريفة تقيم فيه!

وقررت شريفة أن تلفت نظر عزيز إليها، حتى إذا صعق بجمالها، وفتن بقوامها، وجن بشعرها الذهبي، وانضم إلى طابور العشاق، أقفلت في وجهه خشب النافذة، وتفرجت عليه وهو يتعذب ويتأوه ويستجدي كما يفعل شباب شارع الملك من العشاق المهزومين!

وأصبحت شريفة تنتظر ظهر يوم الخميس بفارغ الصبر، فإذا وصلت بها سيارة المدرسة إلى باب بيتها أسرعت تعدو إلى غرفة نومها في الدور العلوي، وتخلع يونيفورم المدرسة، وترتدي أجمل ثيابها، وتسدل شعرها الذهبي على كتفيها، وتقف في المرآة تعدل من ثوبها حتى يبرز صدرها، وتختار الابتسامة التي سترسمها على شفتيها عندما يراها عزيز.

ثم تعدو إلى النافذة لتقف بجوارها في انتظار وصول عزيز شوقي، وهو يرتدي بذلة طالب الكلية الحربية، ويحمل في يده العصا ذات الرأس الفضية التي يتصور طلبة الحربية وهم يحملونها أنهم يحملون صولجان الملك!

ولكن عزيز يمشي أمام باب بيتها على الرصيف الآخر دون أن يرفع رأسه إلى نافذتها. كأنه لا يشعر بوجودها. كأنه لا يعرف أنها أمضت ساعات تنتظره. كأنه لا يعرف أنها أمضت وقتاً أمام المرآة تتزين له وتستعد لهذا اللقاء.

وبدأت شريفة تتشاءم من فساتينها. إنها لن ترتدي فستانها الأخضر لأنه لم يلفت نظر عزيز. إنها لن ترتدي فستانها الأصفر لأنه شؤم لم يحضر عزيز يوم الخميس الذي ارتدته فيه، لا بد أنهم حبسوه في الكلية الحربية في ذلك اليوم ومنعوه من الخروج. لقد ارتدت كل فساتينها في كل أيام الخميس دون أن يرفع عزيز مرة واحدة عينيه نحو نافذتها!

وبعد أن كانت شريفة تريد أن تلفت نظر عزيز لتغلق في وجهه النافذة، أصبحت تشعر أنها تريد أن تلفت نظره لكي تبدأ معه علاقة، لن تتعدى الإشارات بالأيدي من النافذة.. ثم أصبحت تتمنى أن تتحدث إليه.. ثم أصبحت تتمنى أن تقبله!

وتحاول شريفة أن تقنع نفسها بأن هناك مثلاً يقول «من القلب للقلب رسول» ومعناه أن عزيز لا بد أن يشعر بنبضات قلبها. ولكن يبدو أن رسول شريفة تاه في الطريق وضل عن عنوان قلب عزيز!

ورأت شريفة أن تخطو خطوة أوسع.. فقررت أن تنتهز لحظة مرور عزيز بقرب نافذتها وتصيح بصوت عال منادية خادمتها «هنية».. لا بد أن صوتها الموسيقي سيلفت نظر عزيز.. وسيرفع عينيه ليرى الفتاة التي تنادي بهذا الصوت الملائكي، وعندئذ يبهره جمالها، وتبتسم له، وتبدأ القصة!

وقامت شريفة بمغامرتها، وصاحت تنادي «هنية.. هنية.. هنية» ولكن عزيز مضى في طريقه دون أن يرفع رأسه إلى نافذة شريفة!

وتقف شريفة ساعات طويلة في النافذة، وترى عزيز في بعض

الأحيان يدخل غرفته، ثم يتجه نحو النافذة، وتسرع دقات قلبها، وتتهيأ لتبتسم له، ثم تفاجأ به يمد يده، ويغلق خشب النافذة، دون أن يرفع عينيه إلى ناحيتها، وتتسمر في مكانها. وتبقى واقفة تنتظره أن يفتح النافذة من جديد، ثم ترى سيارة تقف أمام باب عمارة عزيز، وفيها بعض طلبة الكلية الحربية. إنهم يدقون كلاكسون السيارة باستمرار وكأنهم ينادون عزيز، وأحد الطلبة يتطلع إلى ناحية شريفة، وتتسع حدقتا عينيه انبهاراً بجمالها، ثم ترى باقي زملائه يخرجون رؤوسهم من السيارة وينظرون إليها بإعجاب، وتبقى رؤوسهم معلقة إلى أن ينزل عزيز وينضم إليهم ويشيرون إلى شريفة بأصابعهم، وتتوقع شريفة أن يرفع عزيز رأسه نحوها ولكنه لا يفعل!

وتشعر شريفة بغيظ منه. إنها أحبت شاباً وخالفت القاعدة التي وضعتها لنفسها. وأحبت شاباً أعمى لا يرى، شاباً أطرش لا يسمع، شاباً لا إحساس فيه، لأنه لم يشعر بوجودها!

وتعتقد شريفة أن عزيز شاب مؤدب خجول. لا بد أنه يخاف من النساء. لا بد أنه يرتعد إذا تكلم مع امرأة. لا بد أنه شاب خام لا تجارب له. وقد كانت من أماني حياتها أن تحب رجلاً له تجارب، ذواقة في اختيار النساء، فارساً له جولات وصولات في ميدان الهوى والغرام. ولكنها خرجت عن الخطة التي وضعتها لنفسها. إن رأسها هو الذي وضع الخطة، وقلبها هو الذي ثار عليها. رأسها هو الذي وضع قواعد وشروط الحبيب الذي عاشت تحلم به، وقلبها هو الذي خرج على كل القواعد وداس على كل الشروط..

وزاد تصميمها على أن تخرج هذا الراهب من صومعته. إن

حواء استطاعت أن تخرج آدم من الجنة، فهل تعجز حفيدتها أن تخرج عزيز من خجله وحيائه وخوفه من الناس؟ لقد استعانت حواء بتفاحة واحدة لتحقق هدفها.. شريفة ليست لديها تفاحة واحدة فقط، ان لديها صندوق تفاح. يتمثل في جمالها وجاذبيتها وقوامها وفتنتها وشهادة كل شبان شارع الملك.

وذات يوم كانت شريفة تزور حكمت الشواربي ابنة خالتها. وهناك التقت بسعيد توفيق ابن عم حكمت، وهو طالب في الكلية الحربية. وكانت شريفة تحب خفة دمه وتهريجه، إنه يحمل دائماً معه آخر نكتة، وبعض النوادر التي يرويها هامساً تحمر لها خدود الفتيات الصغيرات، ولكن شريفة كانت تحب أن تسمع هذه النكت الوقحة التي كان سعيد يجيد إلقاءها وتصويرها. وداعبته شريفة وقالت له وهي تضحك:

ـ أين تعلمت قلة الأدب يا سعيد؟

قال سعيد بسرعة:

ـ في الكلية الحربية يا أفندم.. إنها إحدى المواد الأساسية. وقد كان ترتيبي الأول!

ورأت شريفة أن هذه فرصة مناسبة لتجمع معلومات عن جارها عزيز شوقي فقالت له:

ـ كذاب يا سعيد.. إنني أعرف طلبة في الكلية الحربية مؤدبين لا يعرفون كلمة وقحة واحدة، خجولين تحمر وجوههم إذا رأوا فتاة؟

قال سعيد:

ـ لا يمكن يا أفندم . . مثل هذا الطالب يطرد فوراً . . لأنه بذلك يخالف الضبط والربط!

قالت شريفة تتحداه :

ـ إن جارنا الذي يسكن أمامنا طالب في الكلية الحربية وهو مثال الأدب والحياء!

قال سعيد توفيق :

ـ لا يمكن أن يكون طالباً في الكلية الحربية . . لا بد أنه طالب في كلية الشريعة بجامعة الأزهر!

قالت شريفة :

ـ إنه يرتدي بذلة ضابط!

قال سعيد توفيق :

ـ بالضبط . . هو طالب التدريب العسكري في كلية الشريعة بالأزهر أو ربما في كلية أصول الدين . . أما الكلية الحربية فمستحيل!

قالت شريفة :

ـ لا . . إنه طالب في الكلية الحربية إسمه عزيز شوقي علاء الدين، وقهقه سعيد توفيق وهو يقول :

ـ عزيز شوقي؟ إن هذه أحسن نكتة سمعتها . . إنها نكتة الموسم، عزيز شوقي خجول ومؤدب؟ إننا نسميه في الكلية «أبو عزيز المعري».

قالت شريفة في اهتمام :

ـ هل هو شاعر مثل أبي العلاء المعري؟

وضحك سعيد توفيق وقال :

ـ إننا نسميه المعري لأنه أسرع طالب عندنا في الكلية في تعرية البنات . . لا يكاد يخرج في سيارة أحدنا مع فتاة، حتى يكون استطاع بعد خمس دقائق أن يجردها من كل ثيابها . . إنه أسرع رجل في العالم في تعرية النساء . . أصابعه لها عيون، تعرف أماكن كل الأزرار السرية، والمشابك الخفية في ثوب المرأة . . والمهم أن المرأة لا تشعر بأصابعه وهو يفعل كل هذا. إنه يقبلها في شفتيها بينما أصابعه تعمل بسرعة فائقة في فك ما استعصى من المشابك والأزرار والدبابيس ولا تكاد تنتهي القبلة حتى تكتشف المرأة أنها عارية تماماً!

وحملقت شريفة في سعيد توفيق وقالت له :

ـ هل يخرج عزيز علاء الدين مع نساء فاسدات!

قال سعيد توفيق :

ـ لا سمح الله . . إنهن عادة سيدات شريفات، طاهرات، محافظات، محجبات، مصونات، إلى أن يقبلهن عزيز علاء الدين . . وبعد القبلة تحدث المأساة!

وتظاهرت شريفة أنها تضحك، ولكنها كانت تضحك ضحكة عصبية هستيرية. ثم ادعت أن بطنها آلمتها من كثرة الضحك على نكت سعيد توفيق، واستأذنت في الانصراف، وهي تغلي من

الغضب والغيظ وتحدث نفسها وتشهق وتقول:

ـ الخائن! السافل! المجرم! لا يرفع عينيه إلى نافذتي! ويفك أزرار ومشابك ودبابيس النساء الفاجرات؟ في الكلية الحربية اسمه أبو عزيز المعري، وفي شارع الملك اسمه عزيز علاء الدين المغطي.. عزيز علاء الدين الخجول.. عزيز المؤدب.. صاحب الفضيلة عزيز شوقي.. لن أحبه بعد الآن.. لن أقف له في النافذة.. لن أنتظره بعد اليوم!

وفي يوم الخميس التالي كانت شريفة واقفة في نافذتها تنتظر قدوم عزيز من الكلية الحربية!

ورأت شريفة عزيز قادماً على الرصيف المقابل، وعندما وصل إلى أمام العمارة التي يسكن فيها رفع رأسه تجاه نافذتها وابتسم.

وبهتت شريفة. لقد تجمدت في مكانها. كانت تريد أن تغلق في وجهه خشب النافذة لم تطاوعها يداها. كانت تريد أن تنسحب من النافذة فلم تطاوعها قدماها. كانت تريد أن تكشر فلم تطاوعها شفتاها. إنها وقفت كتمثال جامد من الجرانيت، لا يتحرك، ولا يقطب جبيناً، ولا يبتسم، ولا يغطي وجهه بكفيه!

ثم رأت شريفة عزيز يقطع الشارع الذي يفصل بين رصيف عمارتها ورصيف بيتها، ويتجه نحو سور حديقة بيتها، ويرمي بسرعة ورقة ملفوفة في الحديقة، ثم يمشي دون أن يشعر به أحد.

لقد عاشت شريفة أسابيع تحلم بهذه الابتسامة، وتتمنى هذه الرسالة. ليته ابتسم لها قبل أن تعرف حقيقته. ليته كتب لها الرسالة قبل أن تكتشف أنه خدعها بأدبه وحيائه. أما الآن وبعد أن

عرفته على حقيقته، فهي لن تنزل لتلتقط رسالته. ومن يظنها عزيز؟ أيظن أنها إحدى الساقطات اللواتي يخرج معهن في السيارات، ويخلع ملابسهن وهو يقبلهن؟.. لا.. إنها لا يمكن أن تلوث أصابعها الطاهرة برسالة رجل فاجر. ستترك الرسالة ملقاة على أرض الحديقة حتى تحملها الريح، أو حتى يجيء عامل الحديقة في الغد ويحملها مع أوراق الزبالة ويلقي بها في صفيحة الزبالة! كأنها بذلك تلقي عزيز.. في صفيحة القمامة.. إن هذا هو المكان الذي يليق به وليس قلبها. لو انطبقت السماء على الأرض فلن تنزل إلى الحديقة وتأخذ الرسالة!

وتبقى شريفة دقيقة واحدة متمسكة بقرارها، جازمة في إصرارها، ثم ترى أنه يحسن بها أن تنزل إلى الحديقة وتلتقط الرسالة خشية أن تقع في يد أمها أو أبيها. ولكنها لن تقرأ الرسالة، سوف تمزقها دون أن تقرأها.

وتنزل شريفة إلى الحديقة، وتتظاهر أنها تقطف بعض الورود، ثم تتجه إلى الورقة المطوية، وتحني رأسها وهي تنظر حولها لتتأكد أن احداً لا يراها، ثم تلتقط الورقة.. ولكنها تعدل عن تمزيق الورقة في الحديقة، إنها تخشى أن تطل والدتها وتراها وهي تمزق الورقة وتسألها عنها، سوف تصعد بها إلى دورة المياه، وتمزقها هناك، وتشد عليها السيفون، وبذلك يزول كل أثر لها!

إنها رسالة قذرة من رجل قذر. وخير مكان تودع فيه هو التواليت!

وتخبىء شريفة الرسالة في صدرها، وتصعد درجات السلم، وهي تلوم نفسها أنها وضعت رسالة هذا الشاب القذر في صدرها

بقرب قلبها. كان يجب أن تدوسها في حذائها. إن مكانها في حذائها لا في صدرها، ثم تدخل الحمام، وتقفل بابه بالمفتاح، وتخرج الرسالة بيد مرتعشة، ولكنها لا تمزقها إلى قطع صغيرة، وإنما تقرر أن تقرأها أولاً ثم بعد ذلك تمزقها وتلقيها في التواليت وتشد السيفون!

وتفتح الورقة المطوية، وهي تسمع دقات قلبها تتتابع بسرعة وتقرأ:

«**عزيزتي شريفة...**

إنك أعجبتني.. أعجبتني من اليوم الأول الذي سكنت فيه أمامك.. ولكنني ترددت أن أحادثك لأنني ظننت أنك في الرابعة عشرة من عمرك.. وأنا أكره البنات الصغيرات.. ولكني علمت أنك في التاسعة عشرة، ولهذا بادرت بالكتابة إليك.

سأقابلك اليوم أمام باب نادي سباق الخيل في مصر الجديدة في الساعة السادسة مساء.

أبو عزيز المعري..

ملحوظة: لا تخافي على ملابسك ودبابيسك ومشابكك وأزرارك لقد حرصت على أن تكون المقابلة في الشارع العام.. حتى تطمئني!»

وما كادت شريفة تنتهي من قراءة الخطاب حتى احمر وجهها غضباً.. يا له من شاب مغرور.. أيتصور أنني أرضى أن أخرج معه؟ أيظن أنني إحدى بنات الشوارع يغازلني الساعة الرابعة ويحصل على موعد مني في الساعة السادسة؟ إنه يجب أن ينتظر

سنوات وسنوات حتى أقابله، السنة الأولى نتبادل الإشارات من النوافذ. السنة الثانية نتبادل الخطابات الرسمية. السنة الثالثة نتبادل الخطابات الذاتية. السنة الرابعة أخرج إلى الشارع ويمشي ورائي دون أن يحدثني.. السنة الخامسة نتكلم ونحن نمشي في الشارع.. السنة السادسة سأجعله يمسك يدي. السنة السابعة سأتركه يقبلني. السنة الثامنة سأقبله!

إنه شاب مغرور لم يقل في خطابه أنه أحبني.. لم يقل إنه سهر الليالي يفكر في.. كل ما قاله أنني أعجبته.. أيظن هذا المجنون أنني أخرج مع شاب لا لشيء إلا لأنني أعجبته؟

هذا الشاب الوقح الذي يقول إنه تصور أني في الرابعة عشرة من عمري.. هل هو أعمى؟ ألا يرى أنوثتي؟ ألا يحس بجاذبيتي؟ إنه لم يتحرك إلا عندما روى له زميله سعيد توفيق الحديث الذي جرى بيني وبينه في منزل ابنة خالتي.. لقد بلغت به الوقاحة حد أن يوقع خطابه باسم «المعري» كأنه يعترف بكل اتهامات سعيد توفيق.. لا يحاول إنكارها.. لا يحاول أن يقول إن زميله كان يمزح معي.. كأنه فخور بهذا الإسم الفاجر!

لن أرد عليه.. سوف أتركه ينتظر أمام باب نادي السباق.. سوف أبقى أنتظر وراء النافذة حتى يعود من الانتظار الطويل مهزوماً، قانطاً، يائساً، وأتفرج على أسرع رجل في تعرية النساء، وهو يحمل هزيمته فوق رأسه!

ولكن هذا الرأي القاطع لم يعش إلا خمس دقائق، وقررت شريفة أن ترحم عزيز من ذل الانتظار، وخرجت إلى النافذة، فوجدته مطلاً من نافذته، فأشارت له بإصبعها علامة أنها لن تحضر

في الموعد وأغلقت النافذة . .

وأطلت شريفة من وراء النافذة فوجدته لا يزال واقفاً يبتسم. ثم رأته قبل الموعد بربع ساعة يغادر البيت ويتجه نحو مصر الجديدة.

وارتدت شريفة ملابسها بسرعة، وقررت أن تذهب إلى مصر الجديدة، وترقبه من بعيد، لترى في ملامح وجهه الخيبة والهزيمة عندما يكتشف أنها لم تحضر في الميعاد . .

ولكن شريفة بدلاً من أن تقف بعيداً عن باب نادي سباق الخيل، لتراقب خيبة عزيز، وجدت نفسها تتجه إليه وتصافحه، وتمشي بجواره في شارع نادي السباق . .

وقال لها عزيز:

ـ أنا كنت واثقاً أنك ستحضرين!

قالت تتحداه:

ـ إنني إلى اللحظة الأخيرة كنت مصممة على ألا أحضر . . وقد حضرت لأقول لك إنني أرجوك أن لا ترسل لي خطابات، ولا تقف في النافذة لتغازلني . .

قال عزيز لها بهدوء:

ـ إنك أبلغتني الرسالة . . ويمكنك أن تنصرفي الآن!

ولكن شريفة لم تنصرف، بل إنها مدت يدها وأمسكت بيده، وكأنها خافت أن ينصرف عنها!

ومنذ ذلك اليوم ويد شريفة في يد عزيز . . أحبها، وخطبها، وتزوجها . . وفي ليلة الزفاف رفض أن يجردها من ملابسها، وأصر على أن تتولى هي بنفسها خلع ملابسها، لأنه أقسم أنه لن يجرد امرأة من ملابسها بعد الزواج!

واضطرت شريفة أن تخلع ملابسها!

وتغير عزيز بعد الزواج. إن الحب خلقه من جديد. عاد خجولاً مهذباً كما تصورته شريفة. أصبح يؤدي الصلوات في أوقاتها. كرّس حياته كلها لبيته ولعمله. أصبح زوجاً نموذجياً، وضابطاً نموذجياً. إنه يتفانى في كل شيء يحبه، وهو يحب الجيش. ويعشق حياة الجندية. ويدمن على قراءة الكتب العسكرية الجديدة، وعندما تقرر أن يتطوع عدد من الضباط في حرب فلسطين كان هو أول المتطوعين.

وعاد إلى شريفة من معسكره في ألماظة وقد امتلأ بالسعادة والهناء حتى اعتقدت شريفة أنه نال ترقية استثنائية رفعته من رتبة الصاغ إلى رتبة البكباشي . .

ولكنه قال لها وهو يأخذها بين ذراعيه ويقبلها:

ـ جاءتني ليلة القدر . . لقد اختاروني للقيام بعملية فدائية في فلسطين.

وجزعت شريفة. إنه لم يمض على زواجها من عزيز سوى أربعة شهور لم تفترق عنه يوماً واحداً . . وقد كانت دائماً تحمد الله على أنها تزوجت ضابطاً بعد أن انتهت الحرب العالمية، وعم السلام العالم، والصحف تقول أنه لن تقوم حرب قبل مائة سنة!

وطمأنها عزيز بأن المهمة سوف تستغرق يومين!

ومضى اليومان. . ومضى أسبوعان. . ومضى شهران. . ولم يعد عزيز.

إنها سعيدة اليوم لأنها تلقت منه رسالة بأنه سيعود اليوم. . وسيبقى معها ٢٤ ساعة ثم يعود إلى الميدان من جديد!

لقد كانت تود لو جاء وبقي بجوارها. . ولكنها تعلم الآن أن الجيش المصري كله دخل فلسطين. . ليس زوجها وحده. . كل ضابط من هؤلاء له زوجة مثلها يحبها وتركها وراءه. .

وهي فخورة بأن زوجها بطل. . لأنه سبق كل هؤلاء. . استقال من الجيش ليفتح الطريق للجيوش الرسمية. .

ستمضي معه ٢٤ ساعة. لن تتركه دقيقة واحدة. ستحاول أن تشبع جوعها، ستحاول أن تطفىء ظمأها، ستحاول أن تنسى أن هذه الأربع وعشرين ساعة ستنتهي في الساعة الخامسة والعشرين.

سوف لا تبكي عندما يتركها كما بكت في المرة الماضية.

إن البلد كله يحارب، وهي ليست أقل شجاعة من الزوجات الأخريات. لن تحدثه عن آلامها في وحدتها. لن تحدثه عن شقائها وهي بعيدة عنه. إن الأربع وعشرين ساعة أقصر من أن تمضيها في الدموع، ستمضيها كلها تضحك معه، تلاعبه، تضمه إلى صدرها. . .

إنها الآن تستحم لأجله. . كأنها تتطهر لصلاة جديدة!

وخرجت شريفة من المغطس، ومدت يدها وأمسكت بالمنشفة

الكبيرة ولفتها حول جسدها، وراحت تجفف الماء المتساقط. .

ثم أمسكت بمنشفة أخرى صغيرة، ولفتها فوق شعرها، وجعلتها أشبه بعمامة كبيرة. .

ثم فتحت الباب وهي تدندن موسيقى أغنية أم كلثوم «أنا في انتظارك». .

وسمعت طرقاً على الباب. .

وحارت ماذا تفعل وهي شبه عارية، واتجهت إلى الباب وسألت دون أن تفتح عن الطارق. .

فأجاب صوت أجش: أنا عامل التلغراف أحمل برقية.

وانقبض قلب شريفة. .

وأسرعت تضع ثوباً تخفي فيه جسمها العاري، ثم وضعت روب دي شامبر فوق الثوب، ونزعت العمامة التي على رأسها، واتجهت إلى الباب وفتحته وقالت للعامل في جزع:

ـ خير؟

وقال عامل التلغراف وهو يسلمها التلغراف المغلق:

ـ إن شاء الله خير. .

وأغلقت الباب، ووقفت لحظة مترددة كأنها لا تعرف هل تفتح التلغراف أم تبقيه مطوياً، ثم فتحت البرقية فوجدتها من زوجها. . يقول فيها «آسف لن أحضر اليوم. . سأحضر في الأسبوع المقبل».

وتنفست الصعداء. خاب أملها أن عزيز لن يجيء اليوم بعد أن

استعدت للقائه، ولكنها فرحت أن ظنونها لم تتحقق. لم يجرح. لم يقتل. المهم أن يعيش.. حتى إذا بقيت ذراعاها مفتوحتين في انتظار لقاء يتحقق!

ودخلت شريفة مطأطئة الرأس إلى غرفة نومها. ونظرت بحسرة إلى مكان عزيز على الفراش. هذا المكان الذي سيبقى خالياً فترة أخرى. نظرت بحزن إلى الملاءات النظيفة وأكياس المخدات التي وضعتها على الفراش لمناسبة قدوم عزيز. نظرت بحسرة إلى الشبشب الذي أعدته له بجوار السرير. نظرت بعذاب إلى البيجاما الحريرية المعلقة التي صنعتها بيدها في فترة غيابه وقررت أن تفاجئه بها. أحست أنها معلقة مثل هذه البيجاما. فارغة مثل هذا الشبشب، خالية مثل مكان عزيز على الفراش.

كم هي في أشد الحاجة الآن إلى أصابع عزيز تمسح شعرها الذهبي. هذه الأصابع التي تحب حاضرها وتكره ماضيها. وتشعر في بعض الأحيان برغبة أن تضع هذه الأصابع في فمها وتعض عليها بأسنانها عقاباً لها على الأزرار والمشابك، التي كثيراً ما لامستها.. هذه الأصابع التي تحس وهي تلمسها أنها تعبث بأوتار جسدها فتخرج منه أنغاماً راقصة مثيرة.

ستنتظر أياماً أخرى دون أن تحس بهذه الأصابع التي فيها خشونة ونعومة، فيها كهرباء.. أو لعل الكهرباء هي في جسدها وأصابع عزيز تعرف أماكن مفاتيح الكهرباء!
وتنهدت شريفة وراحت تتحسس بأصابعها جسمها وكأنها تبحث عن مفاتيحها الكهربائية فلا تجدها. إن جسدها مظلم، روحها معتمة، قلبها حالك السواد، لأن أحداً غير عزيز لا يعرف كيف يدير مفتاح الكهرباء.

كم يغيرنا الحب. شريفة التي كان لا يرضيها شيء، ولا يعجبها شيء، ولا يملأ عينيها رجل، استطاع رجل واحد أن يغير بها ويبدلها ويرضيها ويسعدها. رجل ليس فيه صفة واحدة من الصفات التي كانت تحلم بها وهي تستعرض مواكب الشبان التي تمر تحت نافذتها في شارع الملك. كانت تتمنى أن تتزوج أستاذاً في الجامعة أو عميداً لإحدى الكليات، وإذا بها تتزوج من ضابط شاب. خطبها وهو ملازم ثان، وتزوجها عندما حصل على رتبة الصاغ، كانت تريده عملاقاً همشرياً يملأ صدره شعر أسود كثيف، يترك شعره بغير حلاقة كرجال الغابات المتوحشين، وإذا بها تحب شاباً رقيقاً، أنيقاً، متوسط الطول، يلعب بأصابعه في خصلات شعرها، ولا يجذبها منه بعنف، ويجرها وراءه إلى كوخه البعيد.

والحب غيَّر عزيز علاء الدين أيضاً.. كان أصدقاؤه قبل زواجه يقولون إن اسم علاء الدين ليس مقصوداً به الدين الحنيف، وإنما مقصود به شارع عماد الدين حيث تنتشر المراقص والنوادي الليلية والكباريهات. وأكدوا لأهلها أنه آخر رجل يصلح للزواج، وأنه لا يستطيع أن يخلص لامرأة واحدة أكثر من ٢٤ ساعة.. وأنه دخل الكلية الحربية لا ليحارب في ميدان القتال، وإنما ليحارب في ميدان الغزل والحب والغرام.

وصممت شريفة في وجه معارضة أسرتها، وصممت على أن تتزوج الرجل الذي تخصص في تعرية النساء، وإذا بالحب يصنع منه معجزة لم تخطر على بالها. تحوله من النقيض إلى النقيض، من شاب فاجر مستهتر عابث إلى شاب متدين مستقيم، كأنه وجد في شريفة وحدها كل ما كان يبحث عنه في أجسام النساء بعد أن يجردهن من ملابسهن!

وتحس بأن الشوق إلى عزيز يأكلها.. متى تنتهي الحرب؟ ومتى يعود؟ إلى متى يطول انتظارها؟ كأنها أمضت طول حياتها في الانتصار. انتظرت رجل أحلامها ثم انتظرت في النافذة عزيز علاء الدين، ثم ها هي تنتظر عودته من حرب فلسطين.

كم تكره هذه الحرب وتمقتها. إن الحرب لم تعلن على اليهود، إنما أعلنت عليها.. لكي تنتزع رجلها منها، لكي تذيقها الحرمان والوحدة والعذاب..

وأحست شريفة بخجل من نفسها. تذكرت أنها ليست وحدها التي تنتظر. إن ألوفاً غيرها من الزوجات والحبيبات والأمهات والبنات ينتظرن مثلها.. يتعذبن مثلها.. يشتقن إلى أحبائهن مثلها.. إن عزاءها أن عزيز يحارب من أجل قضية حق وعدل.. من أجل الدفاع عن وجود شعب شقيق يريد الغريب أن يشرده من بيته وأرضه ووطنه.. من أجل حق ملايين العرب في الحياة.. إن عزاءها أن الجيش الذي يمشي زوجها في مقدمة صفوفه يكتسح العدو. يسجل كل يوم نصراً، يحقق لعزيز الحلم الذي كان يتحدث عنه باستمرار، أن يكون لمصر جيش حقيقي، يحارب دفاعاً عنها، لا أن يقتصر على السير في موكب المحمل، وعلى تشييع جنازات الأمراء ورؤساء الوزارات!

سوف يعود إليها عزيز، يعود بطلاً.. وقد حقق أحلامه وأحلام الشعب الذي أصبح يضع كل آماله في الجيش. إن الجيش هو الذي سيحرر فلسطين. الجيش هو الذي سيوحد البلاد العربية. الجيش هو الذي سيطرد الاستعمار من كل أرض عربية. الجيش هو الذي سيخرج الإنجليز من مصر. أصبح الناس كلهم يحبون

الضباط ويكرهون السياسيين يؤمنون بالحرب ويسخرون بالمفاوضات. كلما تقدم الجيش المصري خطوة في أرض فلسطين أحس كل مصري كأنه يتقدم خطوة في طريق المجد والحياة.

وعادت شريفة تفكر في أصابع عزيز من جديد. ترى ماذا تفعل هذه الأصابع الآن. الأصابع التي طالما تحسست خصلات شعرها، التي طالما عبثت بمفاتيح الكهرباء في جسدها. إنها الآن تمسك قنبلة. أو تقبض على مسدس، أو تضغط على زناد مدفع رشاش!

وتمنت أن تجد هذه الأصابع أمامها لتقبلها.. ولتعضها!

- ٣ -

كان الليل يلف مدينة رفح بغلالة سوداء. كل شيء فيها أسود متجهم منقبض حزين، كأنها مدينة هجرها سكانها، أو كأنها مدينة الأموات والقبور.

الطرقات خلت من المارة. فوانيس الشوارع مطفأة. نوافذ البيوت مغلقة. السيارات تمشي في الظلام بغير أن تضيء أنوارها كأنها عميان يتحسسون طريقهم بصعوبة وعناء. المباني الصغيرة المتناثرة هنا وهناك بدت قديمة متداعية. في جدرانها شقوق طويلة بفعل الأمطار، وكأنها دموع سقطت من عيني رجل شقي، معذب، فتركت في وجهه الشقوق والتجاعيد. بيوت من الطين مسقفة بألواح من الصفيح، أكواخ قاتمة بلون الوحل، أو مسقفة بقش أشجار اللوز، أو مغطاة بأغصان الجازورينا وحطب أشجار المشمش.

لا أحد يستطيع أن يدخن سيجارة بسبب الإظلام التام الذي فرضته الحرب. سكون مطبق لا يعكره إلا صوت حارس الليل، وهو يصيح بصوت كئيب: قف، من أنت؟ ويجيبه صوت هامس بكلمة السر، فيفتح باباً من الأسلاك الشائكة، وهو لا يزال ممسكاً بيده الأخرى مدفعه الرشاش.

وفي غرفة ببناء شبه متهدم، كان في زمن بعيد أحد معسكرات الجيش البريطاني، ثم تركه الانجليز بعد أن جردوه من كل شيء جعله يسمى بناء، وجاء سلاح المهندسين المصري على عجل، ووضع له أبواباً ونوافذ وسقوفاً جعلته يبدو كرجل فقير يرتدي ثوباً مرقعاً، بألوان مختلفة، وبخرق من أقمشة متباينة. كل ضلفة نافذة تختلف عن الضلفة الأخرى. كل ضلفة باب لا علاقة لها بالضلفة الأخرى. جزء من البناء بالطوب، وجزء منه بالأحجار، وجزء منه بالخشب وجزء بألواح خشبية، وجزء خامس بألواح الصفيح.

في هذه الغرفة كان يجلس الأمير عادل عمرو مساعد القائد العام للجيش المصري في فلسطين، وحوله عدد من كبار الضباط يقدمون له تقاريرهم الأخيرة عن الموقف العسكري وعن الكارثة التي بدأ يتعرض لها الجيش المصري..

وتطلع الأمير عادل إلى وجوه كبار الضباط. إنهم يشبهون بعضهم في أن كل واحد منهم له كرش كبير، وكل واحد يضع على كتفه سيوفاً وتيجاناً ونجوماً، كل واحد منهم يعلق على صدره أشرطة تشير إلى الأوسمة والنياشين التي يحملها. ولكنهم يختلفون فيما عدا ذلك.

اللواء حمادة باشا له وجه ذئب وأذنا حمار، وصوت يشبه فحيح

الأفعى، وأنف كأنف الببغاء، وشعر ناعم أبيض كشعر الفأر الأبيض. إنه أشبه بحديقة حيوانات مجتمعة في رجل واحد!

واللواء سعدون باشا وجهه يشبه فرشاة الشعر، ورقبته رفيعة كرقبة زجاجة الكولونيا، وشاربه أشبه بفرشاة الأسنان، وحواجبه كأسنان المشط، ورأسه الصغير على جسمه الطويل تجعله أقرب إلى الأنبوبة التي يوضع فيها كريم الحلاقة. وهو بأناقته يجعله يبدو كرف للتواليت ازدحمت عليه الفرش والأمشاط وزجاجات الروائح العطرية ومختلف أنواع الكولونيا واللوسيون!

والأميرالاي شعبان بك شعيب أو «شين شين» كما يحلو للأمير عادل أن يسميه، أصلع ضخم. لا يكاد يجلس على مقعد حتى ينهار تحته. وهو يفزع من صوت طقطقة الكرسي أكثر مما يفزع من صوت قنابل المدافع، وهو يمضي وقته يتحسس المقعد، ويقوم ويقعد، يتأكد من متانة المقعد، خشية أن يتحطم، ويقع على الأرض، وهو حريص على كرامته يخشى أن يضحك منه الموجودون في الغرفة. وهو رجل مكسور الجسم. خلقه الله على هيئة دوائر وأبى أن يضع في رسمه أي شيء مربع أو مستطيل.. وجهه ككرة القدم، فمه ككرة التنس، عيناه ككرة البلياردو، أفكاره العسكرية قديمة كالكرة الشراب!

وكان الأميرالاي عباس بك الشمردلي ممثل سلاح التموين وخدمة الجيش، هو الضابط الكبير الوحيد بين الموجودين الذي يمثل بشكله وملامحه السلاح الذي يمثله، وهو سلاح التموين. كان يجلس منفوشاً كالديك الرومي، وكان في صوته مأمأة عجيبة تشبه مأمأة الخرفان، وكان يطير من موضوع إلى موضوع كالحمامة، وكان

يهرب من المسؤوليات كالأرنب، ويمشي بخطوات كالأوزة؛ وله أنف طويل كأنف البطة!

وكان رأسه صغيراً كرأس الدجاجة.. وكان بديناً كالعجل.. وهكذا اجتمعت فيه أصناف اللحوم والطيور والدواجن.. حتى العصافير. فقد ظهر في جبهته أثر وشم عصفورة حاول كما يبدو أن يزيله بماء النار بعد أن أصبح من كبار ضباط الجيش، ولكن بقي من العصفورة رأسها وذيلها!

والأميرالاي عباس بك في مجموعه أشبه بالجردل الذي يوضع فيه تموين الجنود، ولو أن سلاح التموين وزع عباس بك على الجنود بدلاً من جردل اللحم، لما شعروا بأي فرق في الشكل أو الطعم!

وكان الضباط الكبار وهم يرون الأمير عادل يستمع إليهم ويتطلع في وجوههم ويهز رأسه، يتصورون أنه يوافق على الآراء التي يعرضونها.

ونظر الأمير عادل إلى ساعته، ثم إلى الخرائط الحربية المبعثرة على مكتبه، وكلها تشير بسهام إلى الأماكن الموجودة فيها المعسكرات الاسرائيلية في فلسطين، ثم قال للضباط العظام:

ـ أرجو أن تتركوني الآن وحدي لأضع خطة الهجوم على العدو. إن لدي بعض الأفكار الجريئة سوف تؤدي حتماً إلى استسلام العدو..

وقام الضباط العظام، وحيوا الأمير عادل بالتحية العسكرية، وانصرفوا ليتركوا الأمير يضع الخطة التي ستكسب بها مصر الحرب.

كان الأمير عادل يرتدي الملابس العسكرية الخاصة بميدان

القتال، وكان على كتفيه سيفان متقاطعان من الذهب الخالص، مما يدل على أنه يحمل رتبة اللواء في الجيش المصري. وكان الملك قد اختار اثنين من أقاربه، وعينهما ضابطين في الجيش المصري، ليوثق علاقته بالجيش، وليستطيع السيطرة عليه.

فقد كان أحمد حسنين باشا رئيس الديوان صاحب سياسة توثيق علاقة الملك بالشعب، وكان يرى أن محبة الشعب وحدها هي السياج الذي يحمي الملك، وهي القلعة التي لن تسقط طالما بقي الملك في داخلها. ولكن بعد وفاة حسنين ظهرت نظرية جديدة بأن الشعب تخلى عن الملك عندما وقع حادث ٤ فبراير، وأحاطت الدبابات الانجليزية بقصر الملك وفرضت عليه النحاس باشا رئيساً للوزارة.

لقد تصور الملك يومها أن الشعب سيخرج في مظاهرات دامية تحتج على هذا العدوان، وفوجىء بمظاهرات تخرج وتهتف بحياة بريطانيا. وضباط الجيش وحدهم هم الذين ثاروا واحتجوا وهددوا بالتمرد.

ومن هنا بدأت الدعوة إلى أن يعتمد الملك على الجيش وحده. وقاوم حسنين باشا هذا الاتجاه إلى أن مات، وعندما مات تشجع أصحاب دعوة الاعتماد على الجيش، وبدأ الملك يهتم بالجيش اهتماماً خاصاً. وتصور أنه لو عين اثنين من أقاربه ضابطين في الجيش أن يزيد هذا التعيين من صلته بالضباط ومن قربه إلى الجيش.

وكان أن عين الملك إسماعيل شيرين بك زوج أخته الأميرة فوزية ضابطاً ومنحه رتبة القائممقام. وكان اسماعيل معروفاً بأخلاقه

الطيبة، وكراهيته للدس والنميمة، وصراحته مع الملك. ولهذا لم يرتفع شأنه في صلة الملك بالجيش، وكان عمل اسماعيل أقرب إلى الأمور السياسية منه إلى الشؤون الحربية.

أما الأمير عادل فقد كان قد درس الشؤون الحربية، واستطاع أن يكسب ثقة الملك، حتى أنه عندما أمر الملك بأن تتحرك قوات الجيش المصري لتدخل فلسطين، استشاره هو ولم يستشر رئيس الوزراء، واختاره معاوناً للواء الموادي قائد الجيوش المصرية، وأمره بأن يكون رئيس غرفة العمليات في المعركة.

وكان الأمير عادل قد نجح في إقناع عدد من كبار الضباط بعبقريته، فتوسط لهم في الترقيات، وحصل لهم على العلاوات والامتيازات، واستطاع بنفوذه أن يوفدهم في مهمات إلى الخارج، تمكنهم من شراء أجهزة الراديو الحديثة، والنظارات الامريكية الحديثة، وآخر موضات الفساتين لزوجاتهم. وعندئذ آمن كبار الضباط بأن الأمير عادل قائد موهوب، وعسكري عبقري وأن فيه صفات من صفات الإسكندر الأكبر وخالد بن الوليد ونابليون بونابرت وغيرهم من القواد العظام.

وهكذا، عندما خرج كبار الضباط من غرفة اللواء الأمير عادل كانوا واثقين ومطمئنين إلى أن القائد العبقري سيفاجئهم بخطة حربية جديدة لتنظيف الجيوب التي تركها الجيش المصري في تقدمه نحو تل أبيب.

وكان كثيرون من صغار الضباط الذين ليس فيهم اسكندر أكبر أو خالد بن الوليد، أو بونابرت يشعرون أن هذه المستعمرات الاسرائيلية ستكون شوكة في جنب الجيش، إذا لم يحطمها الجيش

قبل أن تطول مواصلاته. وقد تنقض عليه في أية لحظة، وتحول النصر السريع إلى هزيمة ساحقة، وستجعل الزحف المنظم إلى تل أبيب تقهقراً غير منتظم نحو القاهرة.

وما كاد كبار الضباط يغادرون الغرفة، حتى طوى الأمير عادل الخرائط التي أمامه، ثم دق الجرس واستدعى ياوره الصاغ عبدالمنعم بيومي وقال له هامساً، وقد ظهرت على وجه الأمير علامات الخطورة والجدية:

ـ سأكلفك يا عبدالمنعم الآن بمهمة خطيرة جداً. مهمة سرية. سأضع تحت تصرفك طائرة حربية تطير بها إلى القاهرة فوراً. مهمتك أن تبحث عن بيت في منطقة نائية في ضواحي القاهرة. بيت يكون بعيداً عن العيون والأنظار. بيت جميل أنيق يليق بعالم ألماني كبير اتفقنا معه على أن يحضر سراً من ألمانيا ـ وسوف يصنع لنا قنبلة ستكون حاسمة في هذه الحرب. وقد اشترط علينا العالم الألماني أن نؤمن حياته. إنه يخشى أن يعرف العدو مكانه، ويعرف أنه يعمل في خدمتنا، فينسفون البيت بمن فيه، وينسفون العالم الألماني وزوجته. إنها مهمة خطيرة على درجة كبيرة من السرية. لا أريد أن يعرف مخلوق بمكان البيت. لا أريد أن يشعر إنسان في القاهرة. إيجار البيت يكون باسم مستعار. أثاث البيت تشتريه باسم مستعار. التليفون الذي يركب في البيت باسم مستعار. لا أحد في الحكومة يعرف ما تفعل. كل الاعتمادات اللازمة سأدفعها لك من خزانة المصاريف السرية الخاصة بحملة فلسطين. أريد بيتاً ممتازاً يبهر الخبير الألماني وزوجته. قصر في صورة بيت صغير.

ثم قام الأمير إلى خزانة صغيرة في الغرفة، وفتحها، وأخرج عدداً من رزم أوراق البنكنوت ودفعها إلى الصاغ عبدالمنعم، وهو يقول:

ـ هذه عشرة آلاف جنيه لنفقات المهمة. يجب أن يكون البيت جاهزاً خلال أسبوع واحد.

قال الصاغ عبدالمنعم وهو يزم شفتيه:

ـ ألا يمكن تأجيل المهمة ٢٤ ساعة؟ إنني كنت سأقوم الآن على رأس قوة من الضباط والجنود الفدائيين لنحاول أن نفك الحصار على قوة الصاغ عزيز علاء الدين، التي يستعد الجيش الاسرائيلي للانقضاض عليها.

قال الامير عادل غاضباً:

ـ هل جننت؟ ممكن لأي ضابط آخر أن يقود هذه القوة.. أما أنت فالضابط الوحيد في الجيش الذي أثق به لهذه المهمة السرية الخطيرة.. إن موقف الجيش كله في خطر.. وهذه القنبلة سوف تغير سير الحرب.. يجب أن تنتهي منها خلال أسبوع واحد!

قال الصاغ عبدالمنعم بيومي في دهشة:

ـ كيف أستطيع أن أفعل كل هذا خلال أسبوع واحد؟

قال الأمير وهو يضع يده على كتفه:

ـ ولهذا اخترتك لهذه المهمة، لأنني أعرف أنك الضابط الوحيد الذي يفعل المستحيل. ولكي أريحك، سأجعل المدة عشرة أيام فقط. لا دقيقة واحدة أكثر من عشرة أيام. كل تأخير في التنفيذ سيكون له نتائج خطيرة.. إن المسألة مسألة حياة أو موت.

ثم تقدم الأمير نحو باب الغرفة وفتحه فجأة، وأطل خلفه، ليتأكد أن أحداً لا يسمع الحديث الذي يجري في الغرفة، ثم أغلق

الباب، واقترب من عبدالمنعم وهمس في أذنه وكأنه يقبله ويقول:

ـ هل تقسم بشرفك العسكري بأنه مهما حدث لن تخبر أحداً بهذا السر؟

قال عبدالمنعم بيومي وهو يخرج المصحف من جيبه:

ـ أقسم على القرآن وبشرفي العسكري ألا أبوح بهذا السر لمخلوق.

قال الأمير عادل، وهو يخفض من همساته أكثر ويتلفت حوله:

ـ إن هذا العالم الالماني سيصنع لمصر قنبلة ذرية صغيرة. تصور ماذا سيفعل اليهود عندما نلقي على تل أبيب قنبلة ذرية..

بهت عبدالمنعم وهو يسمع كلمة قنبلة ذرية وقال:

ـ قنبلة ذرية للجيش المصري.. والجيش لا يجد الآن ما يكفيه من القنابل العادية والديناميت والرصاص.. إنها معجزة تهبط من السماء في غير عصر المعجزات.. إنني مستعد أن أموت في هذه المهمة!.

وابتسم الأمير وقال:

ـ إن المعجزة لن تجيء من السماء.. وإنما من ألمانيا.. ومن..

ثم أشار إلى رأسه وابتسم ابتسامة كبيرة لها معنى! وأمسك الأمير عادل سماعة التليفون وطلب أن يتحدث إلى قائد الطيران في مطار العريش..

وما كاد الأمير يسمع صوت قائد الطيران حتى قال له بحزم:

ـ أريد أن تعد فوراً أسرع وأكبر طائرة في السلاح، وتوضع تحت تصرف الصاغ عبدالمنعم بيومي، ليسافر بها إلى القاهرة في مهمة خطيرة وسرية. سيصل الصاغ عبدالمنعم إلى مطار العريش خلال ٢٥ دقيقة. ويجب أن تطير الطائرة بعد نصف ساعة.

قال قائد الطيران:

ـ إن الطائرة الوحيدة الصالحة لمثل هذه الرحلة ستقوم بعد خمس دقائق تحمل مدافع ميدان وذخائر إلى قوة الصاغ عزيز علاء الدين المتقدمة التي يحاول العدو حصارها وإبادتها.

وصرخ الأمير عادل عمرو في قائد الطيران بعنف:

ـ المهمة التي يسافر من أجلها عبدالمنعم أهم ألف مرة من حصار قوة عزيز علاء الدين. أطلب طائرة أخرى من القاهرة لتتولى مهمة إلقاء الأسلحة والذخائر للقوة المحاصرة. أصدر أمراً بأن تنزل المدافع والذخائر ليستقل عبدالمنعم الطائرة إلى القاهرة فوراً.

قال قائد الطيران وهو يعض شفتيه:

ـ أمرك يا سمو الأمير..

وأسرع قائد الطيران يصدر أوامر مستعجلة إلى هيئة الطيارين بأن يخلوا الطائرة من المدافع والذخائر.. وأن يستعدوا للسفر إلى القاهرة بالصاغ عبدالمنعم بيومي خلال ربع ساعة.

وحمل الصاغ عبدالمنعم بيومي مبلغ العشرة آلاف جنيه ووضعه في حقيبة، واتجه إلى سيارة الأمير واستقلها، وطلب أن تتقدمه

سيارة جيب مسلحة، وتمشي وراءه سيارة جيب مسلحة تتولى الحراسة.

وانطلقت السيارات الثلاث إلى مطار العريش.

ووجد عبدالمنعم في المطار قائد الطيران في استقباله، وصحبه إلى الطيارة التي بدأت تدور في اللحظة التي وضع فيها عبدالمنعم قدمه على سلم الطائرة.

وتحركت الطائرة على الفور، وجلس عبدالمنعم في مقعده وقد احتضن الحقيبة في يده. وبدأت العواصف تلعب بالطائرة، ثم انفتح سقف الطائرة، ودخل ريح بارد قذف عبدالمنعم من المقعد وألقى به على أرض الطائرة، وأسرع الطيار ومساعده يحاولان إصلاح السقف. وبعد جهد عنيف ومحاولات متكررة أمكن إعادة السقف إلى مكانه.

وقال قائد الطائرة وهو يتنفس الصعداء:

ـ إننا نجونا من الموت بأعجوبة!

ولم يخف عبدالمنعم قبل اليوم من الموت. إنه أمضى حياته يبحث عن الموت. إنه دخل الجيش ليموت. وسافر إلى فلسطين ليموت. ولكنه الآن فقط لا يريد أن يموت. يريد أن يعيش حتى يرى القنبلة الذرية التي ستسقط على إسرائيل. ستنتقم للأطفال الذين ذبحوا. للنساء اللاتي فتحت بطونهن بالسكاكين. لمئات الألوف الذين شردوا من بيوتهم وأوطانهم. إنه يريد أن يعيش ليشارك في هذه المهمة السرية الخطيرة التي أؤتمن وحده، دون ضباط الجيش المصري عليها!

وهبطت الطائرة في مطار ألماظة العسكري حوالى الفجر. وركب عبدالمنعم سيارة تاكسي، وطلب من السائق أن يتجه به إلى حي الدقي حيث يسكن، ليرى زوجته بثينة ويقبل أولاده صبحي ورياض وفهمي. سيفاجىء زوجته في غرفة نومها، سيعانق أولاده قبل ذهابهم إلى روضة الأطفال. ولكنه ما كاد يقترب من ميدان الدقي حتى عدل عن الذهاب إلى بيته. إن واجبه أولاً، وبعد ذلك زوجته وأولاده وطلب من سائق التاكسي أن يمضي إلى الجيزة.

وفي ميدان الجيزة استبدل التاكسي، وركب سيارة تاكسي أخرى ليضلل عملاء العدو وجواسيسه إذا كان واحد منهم يتتبعه في مهمته السرية الخطيرة. وشاهد عدة بيوت خالية في الجيزة. ثم استبدل السيارة واتجه إلى المعادي. ثم استبدل السيارة واتجه إلى ضاحية الزيتون والمطرية ومصر الجديدة. ولكن البيوت التي رآها لم تعجبه. البيوت الجميلة محاطة ببيوت أخرى، والبيوت النائية غير لائقة بعالم ألماني كبير.

ثم اتجه إلى ضاحية الأهرام، وبحث، وبحث، وبحث. وأخيراً وجد بيتاً أول الطريق الصحراوي بين مصر والاسكندرية، يملكه أحد الكويتيين وتفرج على البيت فوجده عبارة عن غرفة نوم ضخمة مساحتها ثمانية أمتار في خمسة أمتار، وصالة واسعة وحمام فاخر، وصالون يطل على حديقة كبيرة مساحتها أربعة أفدنة، والبيت بعيد عن الطريق العام. مختف وراء تلال من الرمال. إن هذا البيت يصلح للخبير الألماني، وهذه الحديقة يمكن أن يقيم فيها الخبير مصنعاً صغيراً ليصنع فيه القنبلة الذرية. والأشجار العالية تخفي البيت فلا تستطيع طائرة استكشاف أن تعرف أن في هذه المدينة الواسعة بيتاً يقيم فيه أحد.

واستأجر عبدالمنعم البيت بعد أن ادعى لوكيل الثري الكويتي أنه الدكتور يسري عبدالحميد الطبيب الأخصائي في علم الباتولوجيا!

وكان عبدالمنعم قد قام ببعض زيارات لألمانيا وإيطاليا وفرنسا وسويسرا، واستطاع أن يلتقط من هذه الزيارات ذوقاً سليماً في اختيار أثاث البيوت وفرشها، وقد أراد أن يجعل بيت الخبير الألماني قطعة من ألمانيا. .

واشترى للبيت موقداً للبوتاجاز، وفرناً كهربائياً، وغسالة كهربائية للأطباق، ومكنسة كهربائية، بحيث يجعل المنزل مريحاً للعالم الكبير.

واشترى باراً فاخراً نصبه في صالة البيت، وجعل للبار أزراراً كهربائية، إذا ضغطت على زر الويسكي أضاء الرف الذي عليه زجاجات الويسكي، وإذا ضغطت على زر العرق أضاء الرف الذي يحمل زجاجات العرق. وملأ البار بأفخر أنواع الخمور. بيرة من ألمانيا، فودكا من روسيا، نبيذ من فرنسا، ويسكي من انجلترا، عرق من لبنان.

واشترى قطع أثاث من مختلف محلات الأثاث، من كل محل قطعة.

واستطاع أن يحول البيت النائي إلى قصر من قصور الأحلام. كان إيجاره ٤٠ جنيهاً في الشهر، ولكنه بعد أن أنفق عليه العشرة آلاف جنيه حوله إلى قصر يساوي مائة ألف جنيه على أقل تقدير.

كان عبدالمنعم يعود إلى بيته كل ليلة بعد منتصف الليل مرهقاً، متعباً منهوك القوى، فيجد زوجته ساهرة تنتظره، وأولاده الثلاثة

نائمين. ويستيقظ في الصباح ويرى أولاده دقائق قليلة قبل ذهابهم إلى روضة الأطفال، ثم يخرج من البيت ليتم المهمة السرية الخطيرة المكلف بها.

ولقد كان يفكر أحياناً في صديقه عزيز علاء الدين. زميله في الكلية الحربية وزميله في الوحدة. ترى ماذا فعل؟ هل نجا من الحصار؟ هل قتلوه؟ هل أسروه؟ هل وصلت إليه النجدة في الوقت المناسب؟ هل أمكن إسقاط المدافع والذخائر إليه بالباراشوت؟

وخطر بباله أن يذهب إلى بيت عزيز ويقابل زوجته شريفة ويطمئنها عليه. ولكنه لم يجد وقتاً ليقوم بهذه المجاملة لزوجة صديقه. إن المهمة سلبت كل وقته واحتلت كل ساعات نهاره وليله.. إنه لم يجد وقتاً لزوجته هو. زوجته الفاحمة الشعر، الباسمة الثغر، التي طبع على شفتيها الضاحكتين قبلات سريعة كأنه يلصق طابع بريد. زوجته الرقيقة الدقيقة التي لم يجد وقتاً ليطوقها بذراعيه كما تمنى.

إن الحياة الزوجية ترف ومتعة وهناء، ولكنها ليست من حق الجندي المحارب في الميدان. إنه لا يستطيع أن يرقد بجوار زوجته على فراش وثير في وقت يرقد زملاؤه على الرمال والصخور يرون الأفاعي والحشرات بدلاً من الأحلام.

إنه لا يستطيع ولا يطيق أن يحتوي زوجته بين ذراعيه وهو يشعر أنه لا يستطيع أن يملأ عينيه بجسد زوجته الفاتن، وهو يتصور عيون زملائه تملؤها رمال الصحراء وتجعلها حمراء بلون الدم.

إنه كان يشعر في اللحظات القليلة النادرة التي كان بجوارها بقلق شارد، كأنه هرب من الميدان إلى فراشها، كأنه يستكثر أن

يقتطع هذه الدقائق من ساعات يومه التي كرسها كلها لإتمام مهمته السرية الخطيرة.

وأحس عبدالمنعم بنشوة ألم كأنه رجل اجتمع فيه الفشل والنجاح في وقت واحد. نشوة أنه نجح كضابط في مهمة خطيرة، وألم لفشله كزوج وعاشق وحبيب.

كان يرى في عيني زوجته أسئلة قلقة، حائرة. كأنها تفسر ابتعاده عنها بأنه لم يعد يهواها، كأنها تتصور أن نار المعركة أخمدت نار حبه. ولكنه يحبها ويعبد عمله. يهواها ويقدس المهمة المكلف بها. وهو عندما يعود من عملية تأثيث بيت الخبير الالماني بعد منتصف الليل يحس كأنه يحمل أثاث البيت كله على رأسه. يشعر بالإرهاق والتعب.

إن أكثر ما يرهقه أنه يتكتم كل حركة يقوم بها، يتستر ويتخفى، ويلف ويدور قبل أن يتجه إلى المكان النائي البعيد الذي اختاره ليكون بيت ومعمل العالم الذي سيصنع لنا القنبلة الذرية.

وعبدالمنعم لا يستطيع أن يعتذر لزوجته عن تصرفاته الغريبة بحقيقة مهمته. إنه يكتفي بالصمت وهي تسلقه بعباراتها الساخرة عن أثر انفجارات القنابل في رجولة الرجال!

ولكن زوجته بثينة معذورة. إنها لا تعرف ما هي الحرب. مثلها مثل ملايين من سكان القاهرة. لقد كان يمشي في شوارع المدينة أثناء بحثه عن أثاث بيت الخبير الألماني ويصاب بالذهول. الأرصفة مزدحمة بالمارة يمشون كسالى، يدندنون بأغاني الحب، ويعاكسون النساء، ويضحكون بقلوب خالية من الهموم. كأنهم لا يشعرون

أنه على بعد ساعات منهم الألوف من أبنائهم وأخوتهم يموتون ويتعذبون ويشقون.

رأى السيارات الفارعة الضخمة تركب فيها سيدة جميلة بمفردها أو كلب كبير، أو مربية تحمل طفلاً.. وهم في الميدان يبحثون عن سيارات تنقل الجنود والمؤن فلا يجدون.

رأى مداخل دور السينما وقد احتشدت أمامها طوابير المتفرجين، وتطلع عبدالمنعم إلى لافتة كهربائية فوق إحدى دور السينما التي ازدحم أمامها جمع غفير فرأى أنها تعرض فيلم «السابحات الفاتنات» بطولة الممثلة اليهودية استر وليامز التي تظهر في الفيلم نصف عارية! وعجب عبدالمنعم.. إن الإسرائيليين يبقرون بطون نسائنا في فلسطين، ونحن نصفق لامرأة اسرائيلية في القاهرة.

ورأى المتاجر الأنيقة بأضوائها التي تخطف الأبصار، وقد ازدحمت البضائع في واجهاتها، والفتيات يمشين في أثواب موضة الشوال وكأنهن يرقصن. كل شيء في الشوارع أنيق، مصقول، فاخر، ضاحك، لاعب. وأحس عبدالمنعم بحسرة أنه في مدينة الملاهي، وليس في مدينة تحارب. كان الشعب يلعب وهو يحارب، كأنه في إحدى أرجوحات مدينة الملاهي تعلو به إلى السلام فيضحك، وتهبط به إلى حياة الحرب فيصرخ ضاحكاً، لأنه يعرف أن الأرجوحة لا تلبث أن تعلو به إلى السلام من جديد!

وشعر عبدالمنعم بكراهية للمدينة اللاهية. واعتقد أن المدينة تلهو لأن الحكومة تلهو. لو أن الحكومة جادة في الحرب لطبعت كل شيء في المدينة بطابع الجدية والحرب والقتال. وأحس بكراهية للسياسيين الضعفاء الذين يحكمون بلاده.

وضحك ساخراً عندما تصور لو أن مشروع القنبلة الذرية كان في يد السياسيين.. كانوا سيقتلونه في اللجان الحكومية، فإذا بقي على قيد الحياة أمضى السنوات الطويلة ينتقل بين مجلس الشيوخ ومجلس النواب، نواب يؤيدون ونواب يعارضون، وزراء يثنون على المشروع وزعماء يهاجمون المشروع. وقد تنتهي الحرب مع إسرائيل قبل أن ينتهي البرلمان من اتخاذ قرار في هذا الموضوع الخطير.

وإذا حدثت المعجزة ووافق البرلمان فستبدأ مناقشات الميزانية.. وزارة الحربية تدرج الاعتماد، ووزارة المالية تعارض في إدراج الاعتماد، ويحتكم الوزيران إلى رئيس الوزارة فيوافق على الاعتماد بعد تخفيضه. ثم يعود الاعتماد إلى مجلس النواب ليتعثر من جديد، ثم يفقد إحدى قدميه، ويسير وهو يعرج إلى مجلس الشيوخ.

ويختلف مجلس الشيوخ مع مجلس النواب، ويعقدون مؤتمراً برلمانياً، وفي أثناء ذلك تسقط الوزارة، فيبدأ المشروع بدخول الحلقة المفرغة من جديد.

أما عندما تصبح المسألة في يد قيادة الجيش وحده فإن رجلاً واحداً يصدر أمراً، فيسارع الكل إلى تنفيذ القرار بلا مناقشة وبلا سفسطة. فقرار صنع القنبلة الذرية لا يعرف به إلا ثلاثة: الملك والأمير عادل وعبدالمنعم.

وفتح الاعتماد اللازم لشراء بيت الخبير لم يستغرق سوى المدة التي فتح فيها الأمير عادل الخزانة وأخرج أوراق البنكنوت. وبذلك أمكن كتمان كل شيء، وأصبح من المستحيل على عملاء العدو أن يعرفوا بالمشروع الخطير، وتعذر على الإنجليز أن تتسرب إليهم أخباره، فيقيموا العراقيل في طريق التنفيذ.

وتنهد عبدالمنعم وتصور له أن الأمير عادل أو ضابطاً مثله هو الذي يرأس الحكومة في هذه الظروف الخطيرة. . كان يستطيع أن يصنع في دقائق ما عجز عن صنعه السياسيون في سنوات. . كان قادراً أن يخلق هذا الشعب من جديد في أربع وعشرين ساعة. يحوله كله إلى جيش يحارب. يصدر قراراً بأن يرتدي الشعب كله الزي العسكري. يجعل كل فرد من الشعب يأكل نفس الطعام الذي يأكله الجندي في الميدان. لا مآدب فاخرة. لا سيارات فارعة. لا سابحات فاتنات. لا أزياء فاجرة. لا لهو ولا عبث ولا مجون. كأن البلد كلها تمشي بخطوات عسكرية على قرع طبول الحرب. لا تلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار.

وبهذا وحده نستطيع أن نكسب الحرب كل حرب. بهذا وحده نستطيع أن نقضي على الروتين والمناقشات والخلافات والعبث في وقت خطير عصيب. .

واستطاع عبدالمنعم أن ينهي مهمته في سبعة أيام. وذهب إلى مطار ألماظة يبحث عن مكان له في طائرة حربية مسافرة إلى العريش.

وفوجىء بالطائرة الكبيرة التي حملته إلى القاهرة في المطار. وفوجىء بالطيار يقول له إن الطائرة لم تتحرك منذ هبوطها به من أسبوع، وإن القيادة أمرت بأن تبقى الطائرة تحت تصرف الصاغ عبدالمنعم، ولا تتحرك إلا إذا جاءت به إلى العريش.

وسأل عبدالمنعم الطيار إذا كانت طائرة أخرى قد طارت إلى العريش لتقوم بمهمة إلقاء الذخائر والمدافع إلى قوة الصاغ عزيز علاء الدين المحاصرة، فأجاب الطيار أنه لا يعلم شيئاً لأنه أمضى

الأيام السبعة مرابطاً في المطار، يأكل في المطار، ويبيت في المطار!

وعجب عبدالمنعم لهذا الاهتمام بحيث تخصص له طائرة خاصة وتبقى عاطلة سبعة أيام في وقت يحتاج فيه العريش إلى كل طائرة في ميدان القتال، وأرجع هذا الاهتمام إلى الأهمية الكبرى التي تعقد على مهمته السرية.

ووصل عبدالمنعم إلى رفح، ودخل على الأمير عادل في غرفته بالقيادة فوجده مجتمعاً بعدد من كبار الضباط.

وما كاد الأمير يلمح عبدالمنعم داخلاً حتى التفت إلى كبار الضباط وقال لهم:

ـ أرجوكم أن تتركوني الآن، لأن ياوري يحمل رسالة مستعجلة من القاهرة.

وخرج كبار الضباط وقد فهموا أن الصاغ عبدالمنعم يحمل رسالة سرية من الملك إلى صديقه ومستشاره الأمير اللواء.

وما كاد الأمير ينفرد بعبدالمنعم حتى قال له في لهفة:

ـ هل أنجزت المهمة؟

قال عبدالمنعم وهو يحيي الأمير التحية العسكرية.

ـ كل شيء جاهز يا افندم. . لم تبق إلا القنبلة الذرية!

وأجلسه الأمير إلى جانبه، وطلب منه أن يروي له بتفصيل كامل، وبكل دقة، مكان البيت، ووضعه، وأثاثه، وهل توفرت فيه كل وسائل الأمن.

وقدم عبدالمنعم تقريراً كاملاً عن البيت. وصف بناء البيت المصنوع من الطوب الأحمر، وصف السقف المبلط بالقرميد الأحمر، وصف الشرفة التي تطل على الحديقة. وصف المشروبات التي ملأ بها البار، وصف البار وأزراره الكهربائية، وصف النافذة الهائلة من الزجاج الملون التي أشبه بلوحة فنية رائعة والتي ترتفع فوق البار..

وقام الأمير عادل من مقعده، ومد يده وصافح الصاغ عبدالمنعم وهو يقول له:

ـ إنك فعلت اليوم شيئاً عظيماً.. إني سألتمس من جلالة الملك الإنعام عليك بنجمة فؤاد الأول العسكرية.

وكانت نجمة فؤاد الأول تمنح للعسكريين الذين يقومون ببطولات خارقة في ميدان القتال.

وأحس عبدالمنعم بفخر وزهو وهو يسمع طلب الإنعام عليه بنجمةفؤاد العسكرية التي تمنح للأبطال..

ولكنه تذكر بطلاً.. بطلاً قام ببطولات خارقة في ميدان القتال.. هو صديقه الصاغ عزيز علاء الدين.

وسأل عبدالمنعم في لهفة:

ـ هل استطاعت القوة التي أرسلتموها أن تفك الحصار عن الصاغ عزيز علاء الدين؟

وبدا كأن الأمير قد نسي في غمرة التفكير بالقنبلة الذرية كل شيء عن قوة الصاغ عزيز علاء الدين المحاصرة بقوات اليهود.

فقال وكأنه تذكر شيئاً قد نسيه:

ـ نعم.. نعم.. الصاغ عزيز علاء الدين.. لا أظن أن القوة التي أرسلناها استطاعت الوصول إليه..

قال عبدالمنعم في ذعر:

ـ وهل لم ترسلوا له الذخائر والمدافع التي طلبها؟

قال الأمير:

ـ لا.. لم نجد طائرة تحمل هذه الذخائر والمدافع التي طلبها.. لأن الطائرة الوحيدة التي تصلح لهذه المهمة كانت معك!

قال عبدالمنعم:

ـ ولكني لم أكن في حاجة إليها.. لقد بقيت في مطار ألماظة سبعة أيام بلا عمل!

قال الأمير في دهشة لجهل عبدالمنعم:

ـ إنك لا تقدر أهمية مهمتك الخطرة... لقد كنت مستعداً من أجل هذه المهمة أن أجعل كل طائرات سلاح الطيران الملكي تنتظرك!

وعاد الأمير يضع يده على كتفي عبدالمنعم ويقول:

ـ إنك قمت بعمل كبير.. عمل عظيم.. المهم أن الحكومة لم تشعر بأي شيء، أليس كذلك؟

قال عبدالمنعم:

ـ حتى زوجتي لم تعلم بأي شيء.. حتى صاحب البيت الذي استأجرناه.. إنه يتصور أنه أجره للدكتور محمد..

وضحك الأمير وقال:

ـ الدكتور محمد؟ اسم لطيف الدكتور محمد.. سيصبح اسم العملية السرية «الدكتور محمد».

ثم أمسك الأمير عادل بسماعة التليفون وطلب اللواء الموادي القائد العام، وأبلغه أنه مضطر إلى السفر فوراً إلى القاهرة لأن جلالة الملك استدعاه إلى مقابلة، وأنه سوف يستقل الطائرة الحربية التي وصلت الآن من القاهرة.

ثم وضع سماعة التليفون وقال لعبدالمنعم:

ـ يجب أن نعود فوراً إلى القاهرة.. يجب أن نشرع فوراً في العمل.. إن المسألة أصبحت قضية حياة أو موت.. كل ساعة تأخير سوف تكلفنا غالياً.

قال عبدالمنعم وصوته يختنق من الغيظ واللوعة:

ـ وعزيز علاء الدين!؟ إن سموك لم تصدر أوامر بإرسال قوة جديدة لمحاولة فك الحصار عنه، ولم تصدر أوامر بإرسال الأسلحة والذخائر بالطائرة إليه!

قال الأمير وهو يضع قبعته الملونة باللون الأحمر على رأسه:

ـ عزيز علاء الدين يستطيع أن ينتظر.. ولكن القنبلة الذرية لا يمكن أن تنتظر.. إن الحرب لا قلب لها!

وأراد الصاغ عبدالمنعم أن يتكلم، ولكن الكلمات ماتت على شفتيه، لأن الأمير مشى بخطوات سريعة إلى الباب وتركه وحده.. ووضع عبدالمنعم قبعته على رأسه وأسرع يلحق بالأمير..

ـ ٤ ـ

هبطت الطائرة الحربية الضخمة في مطار القاهرة، ونزل الأمير عادل عمرو، ووراءه الصاغ عبدالمنعم، ووجد الأمير صفاً من كبار الضباط والطيارين في انتظاره، فصافحهم وكان يشعر كل واحد أنه صديقه الحميم، والرجل الذي يعتمد عليه دون سواه.

وكان كبار الضباط يكرهون بعضهم ويحبون الأمير، ويشك كل واحد منهم في زميله ويثقون كلهم في الأمير. إن كل واحد مدين بنظاراته الاميركية وبالراديو الحديث في بيته وآلة الغسيل الكهربائية ورحلاته إلى الخارج وفساتين زوجته التي اشتراها بالعملة الصعبة إلى عطف الامير.

وكانت سيارة الأمير الكاديلاك السوداء الكبيرة تقف في انتظاره قرب الطائرة، فاستقلها وإلى جواره الصاغ عبدالمنعم.

وتحركت السيارة متجهة إلى قصر صاحبها في ضاحية الزيتون. ولكن الأمير طلب من السائق أن يتجه أولاً إلى بيت الصاغ عبدالمنعم في الدقي.

واعتقد عبدالمنعم أن هذه إشارة عطف من الأمير. إنه عرف أن عبدالمنعم لم يرَ زوجته وأولاده إلا بضع دقائق طوال الأسبوع الذي أمضاه في القاهرة منهمكاً بالمهمة السرية!

ولكن ما كادت السيارة تقف أمام بيت عبدالمنعم في الدقي، حتى فوجىء عبدالمنعم بالأمير ينزل من السيارة ويقول للسائق: انتظرنا في وزارة الدفاع.

ودعا عبدالمنعم سمو الأمير ليصعد إلى شقته المتواضعة، ولكن

الأمير قال إنه يريد أن يركب سيارة عبدالمنعم الأوستن الصغيرة، لأنه يجب أن يذهبا أولاً إلى بيت الهرم لمعاينته حتى يبدأ عمل الخبير الألماني فوراً.

وقاد عبدالمنعم سيارته الصغيرة، وإلى جانبه الأمير الذي خلع وهو في السيارة القبعة والجاكتة العسكرية، وبقي بالقميص والبنطلون. ثم أوقف السيارة وتولى قيادتها بنفسه، وطلب من عبدالمنعم أن يخلع الجاكتة حتى لا يعرف أحد أنهما من ضباط الجيش.

ووصلت السيارة في طرق متعرجة إلى بيت الهرم، وما كاد الأمير يشهد البيت، ويعاين أثاثه، ويطوف بأرجائه، ويتوقف أمام أناقة غرفة النوم، ورشاقة البار الكهربائي العجيب، ويتأكد من انعزال البيت عن الناس، حتى مد يده إلى ياوره الشاب مصافحاً وقائلاً:

ـ إنك يا منعم قدمت أكبر خدمة للجيش المصري!

ثم أمسك الأمير بالتليفون، وأدار رقماً، وتحدث إلى رجل، وأعطاه عنوان البيت، والطريق الذي يسلكه في الحضور.

وسأل عبدالمنعم الأمير في دهشة:

ـ هل يتكلم الخبير الألماني اللغة العربية؟

وقال الأمير، وهو يضحك، إنه كان يتحدث مع صديقه، فوزي بك صلاح الدين مدير إدارة الأمن العام، وإنه دعاه كي يعاين البيت بنفسه من وجهة نظر الأمن، وخاصة أنه لا يريد أن يتحمل وحده مسؤولية قرار خطير كهذا تتوقف عليه سلامة الخبير الكبير وحياته!

ثم دعا الأمير ياوره عبدالمنعم للانصراف فوراً لأنه لا يصح أن

يراه مدير الأمن العام فيبلغ الملك أن ياور الأمير يعرف المكان السري الذي اختير للخبير، مع أنه المفروض أن لا يعرف هذا المكان سوى خمسة أشخاص فقط هم الملك والأمير ومدير الأمن العام والخبير الألماني في صنع القنابل الذرية وزوجة الخبير.

وانصرف عبدالمنعم بسرعة لأنه يعرف أن فوزي بك هو عين الملك، وأنه يبلغه بكل شاردة وواردة بما يسمعه ويراه..

وفي اليوم التالي كان الصاغ عبدالمنعم في مكتب سكرتير وزير الحربية ليسأل عن آخر أخبار صديقه وزميله الصاغ عزيز علاء الدين، وهل استطاعت قوته أن تنجو من حصار اليهود، فقيل له إن المعلومات انقطعت عن عزيز، وإن اللاسلكي الذي كان معه توقف عن إرسال الإشارات.. وإن الطائرات المصرية التي حاولت استكشاف مكانه قوبلت بوابل من المدفعية المضادة فلم تستطع الوصول إلى مكان الحصار.

ثم رأى عبدالمنعم باب مكتب الوزير يفتح ويخرج منه مدير المكتب ويقول له همساً بأن أمراً صدر الآن بنقل الأمير عادل عمرو من ميدان القتال في فلسطين إلى وزارة الحربية في القاهرة، على أن يتولى إدارة العمليات الحربية من القاهرة!

وفوجىء عبدالمنعم بأمر آخر بنقله هو الآخر من ميدان القتال إلى القاهرة، على أن يلحق بمكتب الأمير عادل.

وعجب عبدالمنعم أن يدير الأمير من مكتبه في القاهرة عمليات حربية تجري في أرض فلسطين.. ولكنه اعتقد أن المقصود بهذا الأمر الغريب هو تغطية المهمة السرية الخاصة بالإشراف على عمل الخبير الألماني الذي سيصنع القنبلة الذرية!

ثم جاء أحد الضباط يجري، وأخبره أن الأمير عادل يبحث عنه في كل مكان، وأنه يجلس في غرفة بجوار غرفة مكتب رئيس هيئة أركان حرب الجيش.

وأسرع عبدالمنعم إلى الأمير الذي قال له إنه قلب الدنيا بحثاً عنه، ليبلغه أمرين خطيرين، الأول هو تهنئته بثقة جلالة الملك، فإن الملك عرف أنه هو الذي اختار هذا البيت النموذجي لمهمة الخبير السرية، وأنه أعجب بالسرية والكتمان في بلد لا يمكن أن تكتم فيه الأسرار، وأنه هو الذي أمر بنقله إلى القاهرة ليشرف على راحة الخبير، لأن جلالته أصبح يشعر أن الصاغ عبدالمنعم بيومي أصبح أهلاً لثقة جلالته.. والأمر الثاني أنه مطلوب منه أن يشتري من مطعم ارميتاج عشاءً فاخراً لخمسة أشخاص، وأن يحمله إلى بيت الهرم. على أن يغادر البيت قبل الساعة السادسة مساء! لأن الأوامر تقضي بأن لا يرى عبدالمنعم الخبير الألماني، ولا يراه الخبير الألماني!

وسأل الأمير عن مفتاح البيت، فقدم له عبدالمنعم مفتاحين. فأخذ الأمير مفتاحاً وطلب من ياوره أن يحتفظ بالمفتاح الآخر. وطلب منه أن يعود إلى بيت الهرم في صباح اليوم التالي مع جندي يثق به، فينظف البيت، ثم يغلقه وينصرف. ثم عاد يشدد عليه بأن يغادر البيت قبل الساعة السادسة مساء.

وذهب عبدالمنعم إلى البيت يحمل الطعام الذي أوصى به الأمير، فوجد أن زجاجة ويسكي من الزجاجات التي وضعها على البار كانت فارغة.. ولكن زجاجات البيرة بقيت كما هي. ودهش عبدالمنعم لهذا الخبير السكير الذي يشرب زجاجة ويسكي في ليلة

واحدة، وتساءل كيف يشرب الخبير الألماني الويسكي؟ والمعروف أن الألمان يشربون البيرة؟ وتصور عبدالمنعم أن الخبير هرب بعد الحرب من ألمانيا إلى انجلترا وهناك أدمن على شرب الويسكي.

وفي اليوم الثالث طلب إليه الأمير عادل أن يذهب إلى البيت ومعه عشاء لخمسة أشخاص، وأن يترك البيت قبل الساعة السادسة مساء.

وبعد أن انتهى عبدالمنعم من وضع الطعام في الفريجيدير، أراد أن يجرب النور في البار الامريكاني. وضغط على الزر الخاص بالويسكي فلم يضيء النور تحت زجاجات الويسكي. وعرف عبدالمنعم أن ماساً حدث في السلك الكهربائي، وكان خبيراً في الكهرباء، فبدأ يصلح الكهرباء.. ثم نظر إلى الساعة فوجد أن الوقت قد سرقه، وأن الساعة أصبحت السادسة مساء، فأسرع يغادر البيت، ويقفل الباب، ونزل إلى الحديقة متجهاً إلى سيارته التي أخفاها وراء البيت.

وفجأة رأى سيارة صغيرة تدخل من باب الحديقة، فانزوى مختبئاً خلف شجرة، فإن أوامر الأمير صارمة في أن لا يراه الخبير الألماني.

وما كاد عبدالمنعم يطل داخل السيارة حتى رأى القنبلة الذرية.. القنبلة الذرية التي ستكسب لنا حرب فلسطين.. القنبلة الذرية التي طار من أجلها من ميدان القتال في فلسطين إلى القاهرة.. القنبلة الذرية التي حرم على نفسه بسببها أن يرى زوجته وأطفاله.. القنبلة الذرية التي أنفق عليها عشرة آلاف جنيه من أموال حملة فلسطين.. القنبلة الذرية التي كاد يفقد حياته من أجلها عندما انفتح سقف الطيارة.. القنبلة الذرية التي من أجلها ترك الأمير مقر

القيادة في رفح ليطير إلى القاهرة.. القنبلة الذرية التي ترك بسببها صديقه الصاغ عزيز علاء الدين وقوته بلا ذخيرة ولا مدافع ولا نجدة ليحاصرها اليهود!

كانت القنبلة الذرية الراقصة ببا فهمي!

الراقصة التي تفننت في كشف صدرها وبطنها وظهرها وساقيها.

التي تظهر في أفلام الدرجة الثالثة التي لا تعرض إلا في سينما أوليمبيا وإيديال والسيدة، ويسمونها راقصة الإغراء!

إن الممكن لهذه الراقصة أن تثير شاباً مراهقاً لم ير امرأة من قبل، ومن الممكن أن يجد قروي ساذج في شعرها الأشقر، وفي لحمها الأبيض، وفي صدرها الكبير، وفي بطنها العاري المتماوج، ما لم يجده في الفلاحات السمراوات ذوات الشعر الأسود المجعد والصدور الملساء، والجلاليب السوداء التي تغطي الأقدام.

ولكن كيف يمكن لراقصة فاشلة أن تسيطر على عقل الأمير عادل عمرو، وتجعله يعرِّض مستقبله للخطر، وسمعته في الجيش للدمار، واسمه لتلوكه الألسنة، بل تجعله يجيء بها ويفقد عقله ويشغل نفسه أثناء القتال بوضع خطة حربية للعثور على جرسونييرة لها، في الوقت الذي تصور عبدالمنعم وباقي ضباط أركان حربه أنه يضع خطة الهجوم على المستعمرات الاسرائيلية.

ثم كيف استطاعت هذه الراقصة التافهة التي تتقاضى عشرة جنيهات عن الليلة الواحدة أن تجعل الأمير يتحول إلى لص يسرق عشرة آلاف جنيه من أموال الدولة ليؤثث لها جرسونييرة وعشاً للغرام؟

إن الأمير عادل عمرو قد جن ولا شك.. إنه شاب تتمنى كثيرات من بنات المجتمع وسيداته أن يتعرفن إليه.. إن لقبه ومركزه الكبير وسلطاته في الجيش تستطيع أن تجذب إليه كثيرات من النساء المتسلقات للوصول إلى أصحاب المجد والسلطان.

صحيح أنه يبلغ الأربعين من عمره، ولكنه يفيض صحة وحيوية ونشاطاً. صحيح أن زوجته الأميرة نانوس ويسمونها الأميرة نانوسة بدينة جداً، وليست فيها مسحة من جمال، وهي امرأة مسرفة، متلافة، يشكو منها الأمير باستمرار، ولكن كل هذا لا يشفع للأمير بأن يعشق راقصة من الدرجة الثالثة.

إذا كان ولا بد أن يعشق الأمير فنانة، ففي إمكانه أن يعشق ممثلات أجمل كثيراً من الراقصة ببا، وأشهر منهن، وكل واحدة منهن يسعدها أن يحبها أمير كبير مشهور يتلي الملك مباشرة في الأهمية بالأسرة المالكة، وله نفوذ في الدولة، وهيلمان في الجيش.

إن بعض الملوك والأمراء وأصحاب الملايين يحبون «الرمرمة».. يشعرون أحياناً برغبة في أن يتركوا مأدبة فاخرة في القصر الملكي ليأكلوا صحن كوارع في سيدنا الحسين.. أو يملون طبق فول مدمس من مطعم التابعى، أو يأكلون طعمية في شارع بين الصورين.. كل هذا معقول ومغتفر. ولكن ماذا يقول الناس لو رأوا أميراً كبيراً جالساً على الرصيف يأكل طعمية، في الصباح وفي المساء، وفي كل يوم؟ قد تكون معدة الأمير لا تهضم إلا الطعمية، ولكن هذا لا يبرر أن يستأجر بيتاً ينفق عليه عشرة آلاف جنيه من أموال الدولة لا لشيء إلا أن يأكل طعمية.. طعمية يشتريها الناس بالملاليم ويدفع فيها سموه الألوف!

وتـذكر عبـدالمنعم أن الأمير أحب قبـل ذلك المـطربـة السـوريـة إجـلال شوقي. وهي مـطربة جميلةٍ لهـا صوت جميـل وقوام جميـل. وظهرت في إذاعة القاهرة، وشقت طريقها في السينـما. وكان الأمـير يلتقي بهـا من وقت لآخـر بعيـداً عن العيون والأرصـاد، ولكن المطربة إجـلال كانت تفاخر بعلاقتها بـالأمير، وكـانت تهدد مـوظفي الإذاعة بالفصل من وظائفهم إذا لم يذيعوا أغانيها كما يذيعون أغاني أم كلثوم. . .

ووصل النبأ إلى الأميرة نانـوسة زوجـة الأمير، فشكت إلى الملك، وهـددت بعمل فضيحـة، وخشي الملك على سمعـة صديقـه الأمـير عادل عمرو، وبعد أن تأكد أن الأمير بدأ يمل المطربة إجـلال، وأنه أصبح يخشى على مركزه في الجيش، وهـو المركـز الذي يعمـل الملك باستمرار على تقويته. عندئذ أمر الملك وزير الداخليـة بعدم تجـديد إقامة المطربة إجلال في مصر، فعادت إلى سوريا.

ولكن، مـا أكبر الفـرق بينهما، المـطربة إجـلال فنانـة وببـا غـانيـة. إجلال فيها من اسمها نصيب من الجلال، ومركز ببا بين الراقصات مثل مركز مدينة ببا بين المدن الكبيرة في المملكة! إن كثيرين في مصر لا يعرفون أن بين راقصات المملكة راقصة اسمها ببا فهمي.

المطربة إجلال فيها شيء من أصالة الفنانة، تحرص على كـرامتها في تـواضع. تجيـد بعض اللغات الأجنبيـة ولا تستعـرض علمهـا. ترتدي الملابس الأنيقة ولا تتهتك. ولكن ببا تبدو منفوخة وعندما تتكلم تعرف على الفـور أنها راقصة من شـارع محمد عـلي. عندمـا تتكلم تشير بيديها وذراعيها وحواجبها وعينيها وكأنها تردح. وعندما ترتدي معطفاً من الفرو الثمين تبدو فيه كأنه ملاءة لف!

وتـذكـر عبـدالمنعم أنها كـانت عشيقـة للمـلازم الثـاني محمـود السمهـري الضابط بسـلاح الإشارة، وكـان محمود يخجـل أن يسـير معها في شارع، ويأبى أن يظهر بجوارها في مكان عام.

وكانت تطارده في كل مكان.

والتجـأ محمود السمهـري إلى عبـدالمنعم وطلب نقله حتى يهـرب من ملاحقتها. هل من المعقول أن يهرب منها ملازم ثان، ويلاحقها لـواء، وصـاحب سمـو، وصـاحب أكـبر نفـوذ في البلد بعـد ملك البلاد؟

مـرت هذه الخواطر كلها بسرعة على ذهن عبدالمنعم وهـو يرقب الراقصة ببا توقف سيارتها خلف بعض الأشجار العالية في الحديقة، وتصعد درجات سلم البيت، وتفتح الباب بمفتاح.

وشهق عبـدالمنعم. إن الأمير سلمهـا مفتـاح البيت. . إن هـذا دليـل يؤكد أن الـراقصة ببـا أصبحت العشيقة الـرسميـة لـلأمـير. ونكسَّ عبدالمنعم رأسه وكأنه رأى جنازة صديقه الأمير تشيع أمامه. ومضى يتسلل خلف الأشجار، في طريقه إلى المكان الذي أخفى فيه سيارته وراء البيت.

وفجأة سمع صوتاً يناديه بدلال: يا منعم!

وتلفت عبدالمنعم حوله في دهشة، فوجدها واقفة في الشرفة التي في أعـلى السلم تناديـه هـو. . كيف عـرفت أن اسمـه عبـدالمنعم؟ وتسمـر في مكانـه ولم يتحرك. . والتقط أنفاسه . . ثم عـاد يتسلل وراء الأشجار. ولكنها عادت تناديه:

ـ تعال يا منعم. . لا تهرب مني يا منعم!

وتوقف عبدالمنعم، واحمر وجهه، وأحس بالخجل.. واتجه نحوها وهو يتعثر، ورأسه منكس إلى الأرض. وصعد درجات السلم. ووقف أمامها وهو منكس الرأس بلا حراك..

ومدت إليه ببا يدها وهي تقول في ابتسامة حلوة:

ـ لا أعرف كيف أشكرك يا منعم.. إن ذوقك هائل في اختيار البيت.. إن طريقتك في تأثيث البيت رائعة، جنان.. لقد قلت للدكتور محمد أن عبدالمنعم لا يستحق كلمة شكر، إنه يستحق قبلة!

وتراجع عبدالمنعم إلى الخلف وكأنه أحس بأن الراقصة ببا تريد أن ترشيه بقبلة لكي يوافق على علاقتها بالأمير.

وأحس بالضيق.. إن الأمير أخبر ببا فهمي بكل شيء.. أخبرها بالاسم السري «الدكتور محمد».. وأخبرها عن مهمته السرية، المهمة التي كان يزهو بأنه قام بها خير قيام.. المهمة التي استحق من أجلها نجمة فؤاد العسكرية.. لقد أصبح بطلاً لأنه فرش عش غرام أنيقاً لصاحب السمو الأمير عادل عمرو.. يا للعار الذي يشعر به التاجان الذهبيان المستقران على كتفيه!

وأحنى عبدالمنعم رأسه خجلاً من عاره.. من نفسه.. من فضيحته..

ولكن ببا تصورت أن عبدالمنعم خجل من الثناء الذي غمرته به فمضت تقول:

ـ إن ذوقك يا منعم ذوق فنان.. إن الفنان لا يفهمه إلا فنان مثله.. لقد قلت للدكتور محمد إنه دائماً يعرف كيف يختار..

أليس كذلك يا منعم؟

وأحس عبدالمنعم بإهانة بالغة... إذا كان دليل حكمة الأمير في الاختيار أنه اختار ببا عشيقة له، فلا بد أنه أسوأ ياور يمكن أن يختاره سمو اللواء الأمير!

ولم يجد عبدالمنعم كلمة يقولها للراقصة ببا. كان يشعر أنه يكره ببا، ومدينة ببا، ومديرية بني سويف التي فيها مدينة ببا، والوجه القبلي كله.. ولكنه يشعر أنه يكره نفسه أكثر مما يكره الراقصة ببا فهمي، يحتقر نفسه، يحتقر نجمة فؤاد العسكرية، يحتقر التاج الذي وضعوه على كتفيه!

وضحكت ببا ضحكة وضعت فيها كل ما تعلمته في فن الإغراء وقالت:

ـ لم أكن أعرف أن ضباط الجيش تحمر وجوههم خجلاً إذا تحدثوا إلى سيدة محترمة...

وضغطت على كلمة «محترمة» وكأنها تذكره بمركزها الجديد. ثم ضحكت ساخرة:

ـ على كل حال، هذا دليل على أن الدكتور محمداً عرف كيف يختار.. إن الدكتور محمداً رجل غيور.. وقد اختار ياوراً يخاف وهو يتحدث إلى السيدات!

وتمتم عبدالمنعم بكلمات غير مفهومة، واستأذن، وانصرف وهو يتعثر في طريقه.

لم يستطع عبدالمنعم أن يعود إلى بيته.. مضى بسيارته يجري في

شوارع القاهرة على غير هدى. كان يسوق السيارة كالمجنون..

إنه لا يريد أن يعود إلى بيته، كأنه خجل من أن ترى زوجته وجهه، أن تقرأ في ملامحه منصبه الجديد. كان يطمع أن يكون قائداً فأصبح قواداً.. قواد على كتفه تاج إشارة إلى أنه قواد ملكي!

مهمته أن يعد الجرسونييرة للأمير. أن يعد المشروبات لعشيقة الأمير. أن يقدم الطعام في عش الغرام.

لو أن الطائرة سقطت به لما كان شهيداً من أجل فلسطين، بل لأصبح شهيد عش الغرام، شهيد بيت الدنس والفجور..

وتذكر عبدالمنعم صديقه الصاغ عزيز علاء الدين. ما أبشع الفرق بين جندي يهدم قلعة العدو، وجندي آخر يبني قلعة للفجور.. جندي يحمل القنبلة والمدفع الرشاش، وجندي يحمل طعام المحبين وخمور العشاق.. جندي يحرس موقعاً وجندي يحرس فراشاً!

لا شيء ينقذه من هذا الخزي والوحل إلا أن يذهب في اليوم التالي إلى قصر الملك ويعيد له نجمة فؤاد العسكرية التي أنعم بها عليه.. ويكتب خطاباً يفضح فيه هذا الأمير المتهتك اللص، الذي حوّل قيادة الجيش إلى فراش غرام!

وتردد عبدالمنعم بيومي أن ينظف نفسه من الطين، ويلقيه على رأس الأمير. إن الأمير عادل وقف بجواره عندما دبر له البكباشي حامد السيوفي مؤامرة للقضاء عليه عندما قدم للمخابرات الحربية بلاغاً يقول فيه إن عبدالمنعم بيومي يدبر انقلاباً عسكرياً ضد الملك. إن كل أصدقائه تخلوا عنه، وتركوه وحده يواجه العاصفة.

إنه لم يكن يدبر انقلاباً. كل ما حدث أنه سمع أن اسماعيل صدقي باشا وبعض الساسة يعارضون دخول الجيش المصري إلى فلسطين، فقال إن من رأيه أن يذهب هو وعدد من الضباط ويغتالوا الزعماء!

قال ذلك في لحظة حماس.. في دردشة مع زملاء.. لم يكن قد وضع خطة.. ولم يكن ينوي أن يفعل شيئاً من هذا.

ولكن البكباشي حامد السيوفي الذي كان يكرهه لخلاف حدث بينهما في العمل، وانتصر عبدالمنعم عليه في هذا الخلاف، انتهز الفرصة ليدمر عبدالمنعم، فاستعان باثنين من صغار الضباط الضعفاء من محاسيبه، وجعلهما يقرران أن عبدالمنعم تحدث معهما في خطة مؤامرة لقتل الزعماء وعزل الملك.. وهو شيء لم يقله عبدالمنعم على الإطلاق.

وقامت الدنيا وقعدت. وذهب عبدالمنعم وقابل الأمير عادل عمرو وأبلغه الحقيقة بكل صدق وأمانة. فقال له الأمير: إن هذا ليس خيانة. إنه عمل وطني... أنا من رأيي أيضاً قتل صدقي باشا وجميع الزعماء السياسيين لأن لا فائدة منهم على الإطلاق.

وذهب الأمير عادل بنفسه إلى الملك، وأكد له أن التهمة كاذبة، واستصدر أمراً من الملك بحفظ التحقيق بعد أن كان وزير الحربية قد قرر تقديمه إلى محكمة عسكرية. وهكذا أنقذه الأمير من السجن ومن الطرد من الجيش. فكيف يجيء اليوم ويكافىء الأمير على موقفه النبيل معه، بفضحه والتشهير به وباتهامه أنه سرق أموال الجيش ليعد جرسونييرة في الهرم للراقصة ببا فهمي وأنه استعمل

طائرة حربية أثناء المعركة ليسافر فيها ياوره إلى القاهرة لاختيار مكان الجرسونيرة؟

وأحس عبدالمنعم بأنه ممزق بين واجبه نحو وطنه، وبين واجب الوفاء للرجل الذي وقف بجواره في محنته ونصره على الذين ظلموه وزيفوا ضده تهمة باطلة هو بريء منها.

ولكن هل يجهل الملك ما يفعل الأمير؟ لو أنه يجهل فلماذا نقل الأمير من ميدان القتال في فلسطين إلى القاهرة؟ لماذا نقل إدارة العمليات من أرض المعركة إلى ديوان الوزارة؟ لماذا وضع كل هذه الأموال الطائلة تحت تصرفه؟

ولو أن الملك لم يجهل ألم يبلغه فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام الذي يحضر كل ليلة إلى بيت الهرم، ويمضي السهرة مع الأمير وعشيقة الأمير؟ ولو أن فوزي بك أخفى هذا عن الملك بحكم صداقته الوطيدة بالأمير، وقدم عبدالمنعم هذه المعلومات الخطيرة للقصر، سيحيلها الملك إلى وزير الحربية، وسيحيلها وزير الحربية إلى البكباشي حامد السيوفي مدير التحقيقات في الوزارة، الذي يكرهه، والذي لفق له قبل هذه المرة تهمة المؤامرة الكاذبة. إن البكباشي السيوفي سوف ينتهز هذه الفرصة الذهبية، ويقول إن هذا البلاغ يؤكد نوايا عبدالمنعم بيومي الشريرة ضد الملك والحكم الملكي، وإنه قدم هذا البلاغ ليشهر بالأسرة المالكة، وإن هذا البلاغ جزء من مؤامرة مقصود بها إثارة الجيش أثناء معركة فلسطين وهذا يثبت جدية مؤامرة عبدالمنعم التي كشف عنها البكباشي السيوفي، ولولا سذاجة الأمير عادل عمرو وطيبة قلبه لما وقف بجوار هذا الضابط المتآمر!

إذن فليسكت. ولكنه لا يستطيع أن يسكت.. إن قلبه يأكله.. إن ضميره يعذبه.. إن رأسه يكاد ينفجر.. إن واجبه أن يصارح الأمير عادل برأيه.. إن واجب الصديق إذا أخطأ صديقه أن ينصحه، ثم يحذره، ثم ينذره، ثم يردعه.

وذهب في صباح اليوم التالي إلى مكتبه في وزارة الحربية ينتظر قدوم الأمير.

وعند الظهر سمع جرس الأمير يستدعيه. فقرر أن يدخل إليه ويصارحه بالحقيقة، الحقيقة البشعة..

واستقبله الأمير وهو يضحك ويقول!

- ما رأيك في القنبلة الذرية يا عبدالمنعم؟!

قال عبد المنعم بوجه متجهم:

- إنها ليست قنبلة ذرية.. إنها رصاصة فقط. رصاصة مضروبة!

قال الأمير في دهشة:

- رصاصة مضروبة؟

قال عبدالمنعم:

- نعم، رصاصة مضروبة.. رصاصة مستعملة.. رصاصة لا تصلح!

قال الأمير:

- إن بعض الناس لا يشعرون بأنهم أصيبوا بإشعاعات القنبلة

الذرية إلا بعد عشر سنوات.

قال عبدالمنعم في حزم:

- ولا بعد مائة عام.. إنك وحدك الذي أصبت بالإشعاعات الذرية.. وإنني أخشى أن تدمرك هذه الإشعاعات..

قال الأمير في تضرع:

- إنني أحبها يا عبدالمنعم.. وهي تحبني.. تحبني كما لم تحبني امرأة من قبل!

قال عبدالمنعم محتجاً:

- إنها لا تحبك.. إنها تحب مالك.. إنها إحدى الباحثات عن الذهب..

لقد كانت طول حياتها تبحث عن مغفل يحبها فلم تجد.. وأخيراً وجدتك!

ولم يغضب الأمير للإهانة التي وجهها له الضابط الصغير.. إننا عندما نخطىء نتحمل إهانات لا نتحملها ونحن على حق.. إننا نحاول أن نقلب الخطأ إلى حق، ولكننا ونحن نفعل ذلك نعرف أننا لسنا على صواب.

وعندما نحب ندافع عن حبنا.. لا لأن عقلنا يكذب علينا، بل لأن قلوبنا تكذب على عقولنا، وتحاول أن تخدعها وتخدع الناس!

وهكذا اندفع الأمير عادل يدافع عن حبه.. وكأنه يدافع عن كرامته، وكأنه يريد أن يقنع نفسه قبل أن يقنع عبدالمنعم بأنه ليس مغفلاً.

واستطرد الأمير يقول في انفعال:

- ربما بحثت ببا عن الذهب عند سواي، ولكنها لم تبحث عن الذهب عندي.. إنها لم تطلب مني شيئاً.. إنها قالت لي إنها تريد أن تعيش معي على لقمة خبز وقطعة من الجبن. إنها تثور علي بسبب الطعام الكثير الذي تجيء أنت به كل ليلة.. إنها تقول إن هذا بذخ لا تقبله.. إنها لا تريد أن أنفق عليها مليماً واحداً.. إنها لو كانت غنية لتولت هي الانفاق على بيت الهرم.. تصور أنني اشتريت لها عقداً من اللؤلؤ فرمته في وجهي.. تصور أنني تركت لها ورق بنكنوت بألف جنيه، فأمسكت ببا عودا من الكبريت وخيرتني بين أن أسترد مبلغي أو تحرقه أمامي، فاضطررت أن أسترد المبلغ، هذه السيدة الفقيرة تفعل هذا بينما الأميرة نانوسة زوجتي لا تكاد تراني حتى تقول لي «هات فلوس».. أولادي لا يقبلونني إلا ليقولوا لي «هات فلوس».. كل حياتي لم أسمع من حولي إلا من يقول لي: «هات» «هات» «هات».. أصبحت أشعر كأنني مصرف.. كأنني خزينة بنك لا عمل لها إلا صرف الشيكات.. ولكن هذه هي المرأة الوحيدة التي لم تطلب مليماً مني، والتي ترفض أن تأخذ مليماً.. إنها المرأة الوحيدة التي تحبني لشخصي، لا لمركزي، ولا للقبي، ولا لأموالي.. إنها كثيراً ما تقول لي «أنا أحب كل شيء فيك ما عدا أمرين اثنين أنك أمير.. وأنك غني.. ولو كنت أفندياً عادياً لأحببتك أكثر، ولو كنت فقيراً لعبدتك.. ولكنك أمير وغني، ولهذا سأعجب بك فقط»!

قال عبدالمنعم:

- أظن أنني سمعت هذا الكلام من ببا نفسها في فيلم كوميدي اسمه «الراقصة والمليونير»!

قال الأمير معترضاً:

- إن ببا نوع من النساء لا تعرف قيمته إلا إذا عاشرته. إلا إذا اقتربت منه.. إنها لوحة فنية خالدة!

قال عبدالمنعم:

- إن اللوحة الفنية الخالدة لا تشعر بقيمتها إلا إذا ابتعدت خطوات عنها، ولكن اللوحة الفنية المغشوشة لا تشعر بجمالها إلا إذا اقتربت منها!

قال الأمير:

- إنها لم تغشني.. إنها قالت لي في أول علاقتنا إنها لا تحبني.. إنها أول امرأة في حياتي صدمتني بصراحتها!

قال عبدالمنعم:

- إنها خطة وضعتها بإحكام للإيقاع بك!

قال الأمير غاضباً:

- خطة؟ أنا الذي وضعت الخطة وليست هي.. لقد قابلتها مصادفة في شقة فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام. وعندما عرفت أنني الأمير عادل عمرو، ابتعدت عني، وجلست في مقعد بعيد عن مقعدي، وتجاهلتني.. وأدهشني تجاهلها لي، وانتقلت وجلست إلى جوارها.. ووجدتها تتحدث في موضوع لم يخطر على بالي.. تصور أنها جلست تتكلم عن الفيلسوف الألماني أشبنجلر وعن آرائه، وقالت أنها تقرأ كتاباً عن فلسفته.. ولم أكن في حياتي سمعت عن أشبنجلر هذا، فجلست أمامها معجباً بهذا العلم وهذه

الثقافة.. تصور راقصة تتحدث عن أشبنجلر بينما الأميرة نانوسة زوجتى لا حديث لها إلا عن العفاريت والجان.. لقد قالت لي إنها كانت ترقص في حفلة عمتي الأميرة شويكار وإنها عندما رأت زوجتي بجواري تصورت أنها عمتي الأميرة شويكار التي تبلغ من العمر سبعين سنة.. وعندما عدت إلى قصري ونامت بجواري زوجتي شعرت أنني نائم بجوار عمتي.. وأن زوجتي أصبح عمرها فعلاً سبعين سنة.. وعندما مدت زوجتي أصابعها وراحت تمسح شعري أحسست بملل ونفور واشمئزاز كأن عمتي تغازلني.. وحدث مرة أن سألتني عن اسم زوجتي فقلت اسمها «الأميرة نانوسة».. وضحكت ببا وقالت: ظننت أن اسمها الأميرة جاموسة.. وعندما عدت إلى بيتي وجدت زوجتي نائمة في الفراش، وتأملتها ببدانتها فوجدتها فعلاً تشبه الجاموسة.. كيف عشت معها عشرين سنة دون أن أكتشف أنها صورة طبق الأصل عن الجاموسة. واستطاعت ببا بنظرة واحدة لها في حفلة الأميرة شويكار أن تجد الوصف الكامل لها وكأنها التقطت لها صورة فوتوغرافية.. ومن يومها أصبحت لا أسمي الأميرة نانوسة إلا باسم الأميرة جاموسة!

قال عبدالمنعم في دهشة:

- يبدو أن الراقصة ببا نومتك تنويماً مغناطيسياً.. إنها وجدتك صيداً ثميناً، فركزت عليك كل تجاربها وخبرتها في الرجال لتجذبك. إن الغانية هي أشبه بأستاذ في علم النفس!

قال الأمير في تهكم:

- نعم، اجتهدت أن تجذبني.. ركزت تجاربها لاصطيادي..

إسمع يا منعم.. إنني عندما طلبت منها في المرة الأولى التي التقيت بها عند فوزي بك صلاح الدين أن أقابلها قالت لي إنها لا تستطيع أن تقابلني إلا في العام المقبل، لأنها مشغولة في هذا العام.. كان ذلك في شهر اكتوبر من العام الماضي.. وتصور أنني اضطررت أن انتظر شهور اكتوبر ونوفمبر وديسمبر حتى التقيت بها في شهر يناير.. تصور امرأة تجعل أكبر أمير في مصر ينتظر ثلاثة شهور حتى يقابلها.. لو كانت باحثة عن الذهب لأسرعت ترتمي في أحضاني.

قال عبدالمنعم:

ـ هذا أسلوب الفنانة التاجرة الشاطرة لرفع سعر البضاعة.. عندما يجيء منتج من أغنياء الحرب ليتفق مع راقصة من الدرجة الثالثة تبدأ حديثها عادة بقولها أنها مشغولة وعندها عدة عقود مع عدة أفلام.. والمسكينة مضى عليها سنوات لم تظهر في فيلم واحد، ولكنها بهذه الطريقة تبهر المنتج الساذج.

قال الأمير كمن جرح في شعوره وقلبه:

ـ لا إنها ليست تاجرة، وليست شاطرة، وليست راقصة درجة ثالثة.. إنها فنانة راقية! أنظر الفرق بينها وبين المطربة إجلال.. سألتها متى نستمتع بالخروج معاً؟ وتصورت أنها ستقول في الأسبوع القادم، أو غداً، فإذا بها تقول لي «الآن».. إجلال تقول لي: الآن، وتصرف بما ليس تصرف التاجرة التي تريد أن تخطف أي زبون وتسرع في عقد أي صفقة! إنها سيدة ممتازة، ممتازة.. إنها ليست وحدها الممتازة.. إن أمها مدام زليخا هانم فنانة عظيمة وسيدة ممتازة وشخصية قوية..

قال عبدالمنعم وهو يضحك ضحكة عصبية مفتعلة:

ـ هل عرفت آمها أيضاً.. مدام زليخا هانم؟ إنك يا صاحب السمو مريض بحمى الحب. درجة حرارتك ٤١ ونحن في هذه الحرارة نهذي ولا نعرف ما نقول.. لا فائدة من مناقشتك وأنت في أقصى درجات الحب.. سيجيء يوم تبرد الحرارة وتفهم ما أريد أن أقول، وتقتنع بأن هذه الراقصة لا تصلح لك ولا لمركزك في الجيش. ولكن، لا فائدة من إقناعك الآن وقد وصلت إلى قمة الحب.. بعد ذلك سيبدأ الحب في الانحدار!

قال الأمير كأن لسانه يتحرك بحركة آلية:

ـ أقصى درجات الحب.. قمة الحب؟ إنك لا تعرف الحقيقة.. إنني لا زلت في أول درجات الحب.. في سفح الحب.. إن بيا لها كلمة مأثورة وهي أن الحب مملكة فيها رتب وألقاب كالرتب والألقاب الموجودة في المملكة المصرية.

عندما تولد علاقة بين رجل وامرأة تبدأ المرأة باحترام الرجل ولا تحبه ولا تعشقه. وهو في هذه الحالة «حضرة المحترم».. ثم بعد ذلك تعز المرأة رجلها ولا تحبه ولا تعشقه.. وهو في هذه الحالة «حضرة صاحب العزة».. ثم بعد ذلك تسعده بلطفها وظرفها وقبلاتها وعناقها، وهو في هذه الحالة «حضرة صاحب السعادة».. ثم بعد ذلك تستسلم المرأة للرجل تجعله حاكماً على قلبها وجسدها فيترقى رتبة ويصبح اسم «حضرة صاحب الدولة».. ثم ترتفع به إلى درجات عالية من الهناء واللذة وتسمو به إلى سماء المتعة، وعندئذ يصبح اسم العاشق «حضرة صاحب السمو».. ثم يتحول حب المرأة إلى عبادة فيصبح الرجل إلهاً للمرأة، وهنا فقط يصل الرجل إلى أقصى درجات الحب، إلى قمة الحب.. ويصبح اسمه

«صاحب الجلالة».. إنه الحب الذي يشترك فيه العقل والجسم والروح والإحساس.. حب يملك كل حواسك.. حب يستعبد كل شيء فيك.. حب يحكمك ويسيطر عليك، ويميتك ويحييك، ويسعدك ويشقيك، ولهذا يسمونه «صاحب الجلالة الحب»!

قال عبدالمنعم ساخراً:

ـ وفي أي درجة من درجات مملكة الحب وضعتك الراقصة ببا فهمي يا افندم؟

قال الأمير متحسراً:

ـ لا زلت في رتبة «حضرة المحترم» لا زلت أفندي في مملكة الحب! ولكني واثق أنني بعد وقت قليل سوف أصبح صاحب الجلالة!

وضحك عبدالمنعم وهو يقول:

ـ أخشى أن تصبح صاحب جلالة في جمهورية ببا فهمي..

ـ ٥ ـ

جلست ست زليخا القرفصاء، فوق فراشها، وربطت منديلاً فوق شعرها المصبوغ بلون الحناء، وكشف قميص نومها عن ساقين غليظين تشبهان أرجل مائدة الطعام من الطراز الإنجليزي، ولحمها اللين يتدلى من معصميها، والخطوط السوداء التي رسمتها بالكحل تحاول جاهدة بغير فائدة أن تخفي التجاعيد المتشابكة تحت عينيها.

وكان أمامها مقعد فرشت عليه جريدة «الأهرام»، ووضعت

فوقها أعواد الملوخية، بينما استقرت على الأرض أمام الفراش «حلة» تلقي فيها أوراق الملوخية التي تقوم بقطفها.

وكانت ست زليخا تبدو سعيدة على غير عادتها، هي التي بطبيعتها تحب النكد.. فقد ولدت في نكد، وعاشت في نكد، وتزوجت في نكد، وترملت في نكد، وربت أولادها وبناتها في نكد أيضاً، ولكنها اليوم سعيدة، تدندن بصوت يشبه رنين القدح المكسور أغنية قديمة تقول:

البحر ماله بيضحك ليه؟
وانا نازلة أدَّلع أملا القلل
ماشي كده وعينه مني..
وعامل انه مخاصمني...
وكل يوم يسأل عني...
وانا نازلة أدَّلع أملا القلل!

وتدخل الخادمة فريدة، ويعبس وجه ست زليخا، كأن فضولياً قطع حفلة الطرب الغنائية التي أقامتها أمام حلة الملوخية، فيعود لوجهها عبوسه القديم وتلتفت إلى الخادمة في غضب تسألها: ماذا جرى يا بنت الكلب؟

وتقول الخادمة فريدة في جزع:

ـ إن السباك واقف على الباب يقول إنه جاء لإصلاح سيفون دورة المياه.

وتصرخ ست زليخا في فريدة وتقول لها:

ـ من طلب سباكاً!؟ إن سيفون دورة المياه على ما يرام..

وتنصرف فريدة في هلع، بينما تلاحقها شتائم زليخا إلى أن

تختفي من البـاب، عنـدئـذ يختفي النكـد من وجــه ست زليخا، وترتسم عليه من جديد علامات السعادة والرضا والهناء.

وتعود تغني «وانا نازلة أدلع أملا القلل» وتفكـر في ابنتها ببـا التي حملتها في بطنهـا وهي جنين، وحملتهـا على كتفهـا في «حي البغالـة» وهي طفلة وحملت همـومها وهي كبـيرة، إنها ليست أمها فقط، إنما مستشارتها وكاتمة أسرارها، تأتمنها على أنباء مغامراتها وأخبار قلبها.

إنها لم تقـل لابنتهـا ببـا «لا» أبـداً.. إنها ليست أمـاً فقط، ولا كاتمة أسرارها فقط، بل المعجبة رقم واحد بالراقصة ببا فهمي. إنها تؤمن أن ابنتها أعظم راقصة في العالم، وأجمل امرأة في العالم، ولكن الشبان في هذه الأيـام عميان لا يبصرون، والجمهـور انحط مستواه فلم يرتفع إلى مستوى الفن الذي تجسـد في ابنتها.

إنها دائمـاً تؤمن بـأن ابنتهـا عـلى حق في ما تفعله، ولكن عشـاقها أنـانيون يغـارون عليها، يـريدون أن يحتكـروهـا وحـدهـم للتمتع بجمال الـوردة الجميلة الناضرة، وأن يحتكـروا شم عبيرهـا، ويريدون أن يمنعوا باقي الناس من أن يستمتعوا بالنظر إلى أروع مـا خلق الله من جمال.

وأزواج ببا الثلاثة رجال خائنون، غادرون، لا وفاء لهم ولا ذمة ولا ضمـير.. كلهم كذابـون، مختلقون، أدنيـاء، لأنهم اتهمـوا ببـا بـأنها تخونهم مـع رجال آخـرين. وهم الذين دفعـوهـا إلى الخيـانـة وأرغموها عليها ببخلهم وغيرتهم العمياء.. وبعدم فهمهم للمـلاك الذي تزوجوه!

لقد كانت ست زليخا تقول دائماً إن ابنتها ببا صاحبة أجمل وجه في العـالم، وصاحبـة أسوأ حظ في العـالم. إن سوء بخت ابنتهـا من

الرجال كـان يعكر عليهـا صفو حيـاتها. كـانت دائماً تـدعو الله أن ينهي هذا الحظ المنكود، هذا البخت المائل.

كانت تردد قول نجيب الريحاني في إحدى مسرحياته بأن أبا فـراس له نظرية بأن كل إنسان يولد بحظين: حظ سيىء مدته ثلاثـون سنة، وحظ طيب مدته ثلاثون سنة، وإذا بدأ بثـلاثين سنـة من الهناء انتهى بثـلاثين سنـة من الشقاء وإذا بـدأ بثـلاثـين سنـة من العـذاب انتهى بثـلاثين سنـة من الهناء. وبقيت ست زليخـا تنتظر بفـارغ صبر بلوغ ابنتها ببا سن الثـلاثين لتبـدأ السعادة والهنـاء. ولكن استمر العـذاب والشقاء، كأن أبا فراس يصدق ابنتها عندما تدعي أن عمرها أقل من ثلاثين سنة فيمنع عنها القسط الذي استحقته من الهناء..

وكثـيراً مـا رددت ست زليخـا مثـلاً شعبيــاً سمعتـه من الممثلة المشهورة زينب صدقي يقول: «الناس خيبتهـا السبت والحد.. وأنـا خيبتي مـا وردت على حـد».. وخيبة ببـا لم تكن يومـاً واحداً، ولا أسبوعاً واحداً، ولا عاماً واحداً، بل عمرها كله!

ثم بلغت ببا الخامسة والثلاثين من عمرها وتعرفت بالأمير عـادل عمرو.. وعندئذ فقط بدأت تحقق نظرية أبي فراس!

وعادت ست زليخا تغني في ابتهاج:

لبست له البدلة البمبي
قلعت له البلدة البمبي
يا ريت حبيبي كان جنبي
وانا نازلة أدلع أملا القلل
لبست له أخضر في أخضر

ورحت له امشي أتمخطر
واللي جرى أخطر وأخطر
وانا نازلة أدلع أملا القلل

وما كادت ست زليخا تتجلى في غنائها للأغنية القديمة، حتى دخلت الخادمة فريدة تقول:

ـ السباك يرفض أن يمشي من الباب ويقول إنه لا بد من إصلاح سيفون دورة المياه..

ورمت ست زليخا أعواد الملوخية من يدها وصرخت في الخادمة فريدة:

ـ أنا قلت لك أن السيفون في حالة جيدة، ولا نريد سباكاً.. ألم تفهمي يا بنت الكلب؟

وجرت الخادمة في فزع ورعب، وسباب ست زليخا يجري وراءها. ومضت ست زليخا تستأنف وصلة الطرب وتدندن «وأنا نازلة أدلع أملا القلل»..

وعادت ست زليخا تفكر في علاقة ابنتها بالأمير عادل، ونظرت باحتقار إلى صفحة جريدة «الأهرام» التي تغطيها أعواد الملوخية.

وذكرتها جريدة «الأهرام» بموقف الصحف والمجلات من ابنتها وتجاهل الصحافة لها. إن المجلات تنشر على غلافها صور ممثلات قبيحات الوجوه ولا تنشر صور ببا الجميلة. هل ستجرؤ الصحف على تجاهل ابنتها بعد أن أصبحت عشيقة الأمير؟ إن ابنتها أعظم راقصة في مصر، وأعظم ممثلة في مصر، ومع ذلك لا يعرض المخرجون على ابنتها إلا الأدوار الصغيرة في الأفلام الفاشلة.. فهل

سيجرؤ المخرجون بعد اليوم أن يطلقوا على هند رستم لقب ملكة الإغراء؟ إن أكبر نجمة سينمائية في مصر تحب مخرجاً أو منتجاً أو صحافياً أو فناناً ولكن واحدة منهن لم تستطع أن تصل إلى صاحب سمو.. أمير.. أكبر أمير في الدولة بعد الملك.. أمير يحب الفن.. ويجيد العزف على البيانو.. أمير يحب ببا.. أمير يحب أم ببا ويسميها مدام زليخا هانم!

وعادت ست زليخا تقطف أوراق الملوخية وتغني أغنية قديمة:

اللي بحبه دا دلعه يجنن
يضرب بيانو وأنا أدندن
هاتي لي حبيبي يا نينة الليلة!

وتبتسم ست زليخا، وتذكر مؤلف الأغنية الأستاذ محمد علي لعبة الذي كان يسكن بجوارها في البغالة منذ ثلاثين سنة. كأنه كان يقرأ الغيب عندما نظم هذه الأغنية الشعبية، كأنه توقع أن ابنتها ببا ستحب رجلاً يجيد العزف على البيانو، ويتوقع أن ست زليخا ستنال حبه وإعجابه، وتصبح وسيطة بينهما في تدبير مواعيد الغرام!

وتمر على ست زليخا قصة غرام الأمير بابنتها، وكيف دخلت ذات صباح غرفة نومها، وجلست على طرف فراشها، وفي عيني ببا بريق السعادة الذي لم تره ست زليخا أبداً في عيني ابنتها، يومها قالت ست زليخا في لهفة:

ـ هل عرضوا عليك الدور الأول في فيلم كبير؟

وأجابت ببا وهي تضحك:

ـ الدور الأول فعلاً معروض علي الآن.. أكبر دور قمت به في

حياتي.. إنه ليس دوراً تمثيلياً، إنه دور حقيقي، دور في الحياة، الدور الأول في مصر!

وتأملتها أمها بعينيها الحائرتين، إنها لأول مرة في حياتها لم تفهم كلام ابنتها. إنها لأول مرة تسمع عن دور حقيقي. منذ أن كبرت ابنتها وهي تعيش في تمثيل مستمر. رقصها تمثيل، ظهورها في السينما تمثيل، عملها تمثيل، حبها تمثيل، حتى زيجاتها الثلاث كانت تمثيلاً في تمثيل.. كانت ببا دائماً تمثل أدواراً ناجحة في روايات فاشلة.. ولكن هذا التمثيل لم يكن له أي علاقة بالحقيقة. كان حبها دائماً أشبه بالأفلام الساقطة لا يستمر عرضها أكثر من أسبوع واحد. وزيجاتها الثلاث لم تستمر في مجموعها استمرار فيلم «فاطمة» لأم كلثوم. ولكن ببا تحدثها عن فيلم سوف يستمر عرضه طول الحياة.. إنه أكثر من فيلم. إنه حقيقة.. ولكن منذ أن كبرت ببا واكتملت أنوثتها لم تر ست زليخا الحقيقة أبداً!

يومها فهمت ببا حيرة أمها وقرأت في عينيها دهشتها فقالت لها:

ـ لقد وجدت كنزاً، كنزاً كالذي كنت تتحدثين عنه في الحواديت التي كنت ترويها لي وأنا طفلة.. كنزاً حقيقياً وليس وهماً ولا تمثيلاً ولا خيالاً. كنزاً من دمٍ ولحم!

واحتجت ست زليخا وقالت:

ـ إن الكنز لا يمكن أن يكون فيه دم ولحم.. فيه ذهب وماس وزمرد وياقوت.. نحن لدينا ما يكفينا من الدم واللحم!

قالت ببا وهي تحتضن أمها وتضمها إلى صدرها وتقبلها:

ـ كنز في جيب رجل.. ولكن الرجل نفسه كنز أيضاً!

قالت ست زليخا متحسرة:

ـ إن الرجال الذين وقعوا في حبك كانوا كلهم أشبه بصناديق القمامة.. قد نجد فيها بقايا الطعام، ولكننا لم نجد فيها أبداً لا ذهباً ولا زمرداً ولا ياقوتاً!

قالت ببا:

ـ هذه المرة وجدت كنزاً حقيقياً. أنت تعرفين أنني امرأة لها تجارب، أفرق بين الماس الحقيقي والماس الفالصو. لست فتاةً طائشة ساذجة. هل حدث مرة أن قلت إنني عثرت على كنز؟ كنت دائماً أعطي الرجل درجة من عشر درجات، وكأنني معلمة أصحح كراريس التلاميذ. كنت أقول دائماً إنهم كلهم أصفار.. ثلاثة منهم فقط قلت إن كل واحد منهم يستحق درجتين من عشر درجات وتزوجتهم الثلاثة!

ولكن هل حدث أن قلت لك إنني قابلت رجلاً أو عرفت رجلاً أو أحببت رجلاً يستحق عشرة على عشرة، يستحق الدرجة النهائية؟ لم أقل هذا أبداً. ولكنني أقول لك هذا اليوم إنني عرفت أميراً.. أميراً حقيقياً.. يجري في عروقه الدم الأزرق.. إنه أمير غني.. أمير له نفوذ.. كنز يا أمي.. كنز!

وفتحت ست زليخا عينيها وفمها في ذهول وقالت:

ـ أمير؟ أمير؟ أمير سعودي؟ أمير كويتي؟

قالت ببا في زهو:

ـ لا، أمير مصري.. ثاني أمير في المملكة بعد الملك.

وامتلأت عينا ست زليخا بدموع الفرح واحتضنت ابنتها في حب وفخر واعتزاز، ورفعت عينيها إلى السماء وقالت وهي لا تكاد تصدق أذنيها:

- ألف رحمة عليك يا سيدي أبو فراس.. الفاتحة لسيدي أبي فراس..

وعادت ست زليخا فجأة من ذكرياتها إلى أحلامها وراحت تغني من جديد:

- البحر ماله بيضحك ليه؟ وانا نازلة أدلع أملا القلل!

ثم استأذنت ست زليخا من أحلامها الوردية، وعادت إلى ذكرياتها القريبة يوم قالت لها ابنتها ببا إن الأمير سوف يحضر إليها في البيت.. وانه يريد أن يقابل ست زليخا. ونبهت ببا على أمها أن تتظاهر بأنها لا تعرف أنه أمير.. لأنها أفهمت الأمير أنها أخفت عن كل إنسان علاقتها به، وأنها تتظاهر بأنها تحب طبيباً اسمه الدكتور محمد. وانه يجب على أمها أن لا تناديه إلا بالدكتور محمد، ولا تتحدث عنه إلا باسم الدكتور محمد.

وجاء الأمير في إحدى الليالي، وقد وضع على عينيه نظارة سوداء كبيرة، وارتدى معطفاً رفع ياقته وغطت جزءاً كبيراً من وجهه.

وقدمته ببا إليها بأنه الدكتور محمد.. وأجادت ست زليخا تمثيل دورها،. حتى أنها أخفت ذعرها عندما أمسك الأمير بيدها وطبع عليها قبلة.

واستطاعت ست زليخا أن تندمج في الدور، وانتهزت الفرصة وراحت تشكو للدكتور محمد من مرض الروماتيزم الذي أصاب

ساقيها، وعرَّت له ساقها ليكشف عليها. وتظاهر الأمير أنه يفحصها، ووعدها بإرسال دواء لها، وفعلاً أرسل لها في اليوم التالي دواءً للروماتيزم.

وخرج الأمير من البيت مقتنعاً تمام الاقتناع بأن ست زليخا تعتقد أن اسمه الدكتور محمد!

وأحست ست زليخا، وهي تتذكر كيف استطاعت أن تخدع الأمير، وتمثل دور الأم الساذجة، الطيبة، المتدينة، المحافظة، وعجبت كيف أن المخرجين الأغبياء الذين كانوا يترددون على بيت ببا لم يكتشفوا مواهبها التمثيلية وعبقريتها المسرحية، ولم يستفيدوا بها في الأفلام.. وتحسرت ست زليخا على شبابها الذي أضاعته هدراً في تربية أولادها، وفي طهي الطعام وغسيل الملابس ومسح البلاط!

ومضت ست زليخا تغني «البحر ماله بيضحك ليه؟» وتعيد الأغنية وتدندن وتهمهم بصوتها المشروخ. ودخلت ببا، وقد ارتدت ثوباً أنيقاً ضيقاً كشف عن جزء كبير من صدرها وقالت إن لديها موعداً مع الدكتور محمد الساعة السادسة!

ووقفت ببا أمام المرآة في غرفة أمها تتأمل في إعجاب جمالها وأناقتها وفتنتها وسحر إغرائها.. فقد كان الإنسان الوحيد الذي تعشقه وتحبه وتهواه وتخلص له هو ببا فهمي وحدها!

ونظرت أمها في إعجاب وراحت تغني:

الساعة كام يا سي محمد!
الوقت راح يا الله نروَّح!
يا خوفي لا بابا يسألني

واقول إيه لو يسألني؟
الساعة ستة وزيادة
وحياة عيونك بزيادة
هوه احنا خدناها عادة؟
الوقت راح يا الله نروح!

وضحكت ببا وقالت لأمها وهي تقاطع إيقاعها الملح، المقلق، الذي يشبه رنين القدح المكسور:

ـ لا داعي لهذه الأغاني التي تعلمتها يا ماما في حي البغالة.. المفروض بعد أن عرفت الدكتور محمد أن تغني أغاني الأوبرا.

ودقت ست زليخا يدها على صدرها في فزع وقالت:

ـ أغاني أوبرا.. مالها أغاني حي البغالة؟ كأنها ألفت خصيصاً للدكتور محمد.. ألا تقول الأغنية «الساعة كام يا سي محمد؟» إنها أغنية حشمة.. تحض البنت على أن لا تتأخر عن الساعة السادسة مساء.. بينما أنت موعدك يبدأ مع الدكتور الساعة السادسة مساء.. كانت أغاني زمان فيها فكرة وهدف ونصائح.. وليست مثل أغنية أم كلثوم التي تقول «سلوا كلبي»! تريد أم كلثوم منا أن نسأل كلبها.. هل هذا كلام؟

قالت ببا وهي تضحك لجهل أمها:

ـ إن أم كلثوم تقول «سلوا قلبي».. لا «سلوا كلبي»!

قالت ست زليخا محتجة:

ـ سلوا قلبي. سلوا كلبي.. كله واحد! كلام لا معنى له.. ولا أحد يستطيع أن يفهمه.. إن هذا الكلام الفارغ من أغاني زمان:

«تعال يا شاطر نروح القناطر».. و«ارخي الستارة اللي في ريحنا أحسن جيراننا تجرحنا».. و«بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة».. هذا كلام مفيد له معنى.. فيه كلام عن الرحلات.. وفيه نصائح عن ضرورة قفل النوافذ حتى لا يجرحنا الجيران.. وفيه تعليمات للمحبين عن الوقت الذي يحلو فيه الهوى والغرام.. إنما لا «سلوا قلبي».. ولا «ريم على القاع»، ولا كلام نحوي لا معنى له!

قالت ببا تحذر أمها وهي تدق الأرض بقدمها في عصبية:

ـ إياك أن تقولي هذا الكلام أمام الدكتور محمد.. المفروض أننا أسرة مثقفة متعلمة.. إن الدكتور محمد مبهور من قراءاتي وسعة اطلاعي..

قالت ست زليخا وهي تهز رأسها موافقة:

ـ أنا لا أفتح فمي أمامه. سأحاول أن أتذكر اسم الفيلسوف شبراخيت الذي مكثت ساعة تعلميني اسمه فلم أذكره!

قالت ببا وهي تغرق في الضحك:

ـ إن اسم الفيلسوف اشبنجلر.. وليس شبراخيت!

قالت ست زليخا وقد خالجها إحساس غامض بجهلها:

ـ شبراخيت.. شبلنجة.. لا أعرف.. المهم أنني عندما نسيت اسمه فضلت أن لا أتحدث عنه وتحدثت عن مرض الروماتيزم!

قالت ببا وهي تقبلها استعداداً للانصراف إلى موعد الغرام:

ـ اسم الفيلسوف يا ماما.. اشبنجلر.. احفظي اسم «ايش»

واسم «بنجر» يبقى هذا هو الفيلسوف!

قالت ست زليخا وهي تتفحص ثوب ابنتها وتعدله لها من ناحية كتفها:

ـ أنا لا أستطيع في هذا السن أن أحفظ هذه الأشياء.. ألا يوجد عندك فيلسوف اسمه بسيط.. اسم له قيمة مثل سي محمد.. سي ابراهيم.. سي علي.. إنما رجل يبقى اسمه شي.. حاه!؟! فعلاً نحن الآن نعيش في آخر الزمان!

وانصرفت ببا وهي تصفر بفمها لحناً امريكياً يقول «هيا بنا نتسكع في شارع أصحاب الملايين» وعادت ست زليخا تغني من جديد «البحر ماله بيضحك ليه»!

وأقبلت الخادمة فريدة تقول إن السباك عاد من جديد وهو يقول إنه سمع بأذنه صوت السيفون الخسران في دورة المياه، وإنه مصمم على إصلاح السيفون.

وانحنت ست زليخا وأمسكت فردة الشبشب، وجرت بها خلف فريدة التي أطلقت ساقيها للريح!

وقد كان السباك معذوراً في إصراره المستمر على ضرورة إصلاح السيفون الخسران، فقد كان صوت ست زليخا وهي تغني يرن، ويحدث صوتاً رتيباً مملاً نشازاً كصوت السيفون الفاسد في دورة المياه!!

ولم تذهب ببا إلى الأمير عادل عمرو مباشرة كما قالت لأمها. لقد ركبت سيارتها واتجهت بها إلى شارع قصر النيل، وأوقفتها أمام إحدى العمارات، ودخلت المصعد، وضغطت على زر الدور

الثالث، ثم اتجهت إلى ممشى طويل في نهايته باب مكتوب عليه «مكتب سامي كامل الأسيوطي ـ مؤلف السيناريو».

وضربت بإصبعها على زجاج الباب ثلاث ضربات، وانفتح الباب، وخلف الباب وقف شاب أسمر طويل القامة يرتدي قميصاً ببنطلون، وأمسك ببا من يدها، وأقفل الباب، ثم مشى بها من الردهة وضمها بين ذراعيه وهو يقبلها وهي تحاول أن تتملص من شفتيه، بينما تندفع بجسدها نحوه، فتثيره بجسدها أضعاف ما أثارته بشفتيها.

لقد أحبها سامي في يوم من الأيام حباً جنونياً، عندما وضع سيناريو فيلم «الراقصة والمليونير» الذي ظهرت فيه ببا. ولكن الفيلم سقط في قائمة الأفلام واستقر في الذيل، وبسقوط الفيلم سقط سامي كامل الأسيوطي في قائمة عشاق ببا واستقر في الذيل، ورضي سامي بحظه في الحب كما رضي بحظه في الأفلام. وتحول من بطل قصة حب إلى متفرج على قصص الحب. تستشيره ببا في مغامراتها الغرامية وأزماتها العاطفية، وتدفع ثمن الاستشارات قبلات وعناقاً.. فإذا كانت الأزمة كبيرة اضطرت ببا أن ترفع قيمة الاستشارة!

وكان سامي شاباً مثقفاً يقرأ كثيراً، ويكتب كثيراً. ولكنه سيىء الحظ دائماً. نصوصه تضيع دائماً في مكاتب المخرجين، فإذا ساعده الحظ وعثروا عليها أخرجوها بعد أن يضعوا أسماءهم عليها ويحذفون اسم سامي كامل الأسيوطي، بحجة أنه اسم غير موسيقي لا يجذب الشباك!

وقبل سامي كامل مرغماً هذا المصير، أن يبيع إنتاجه للمخرجين بالملاليم ويبيعونه هم لشركات السينما بمئات الجنيهات. وكانت ببا تمر

على سامي في مكتبه مرة كل شهرين. . ولكنها في الشهور الأخيرة بدأت تتردد عليه باستمرار، فترد عليه كل يوم يكون بينها وبين الأمير عادل موعد غرام. . لقد أشركته في سيناريو حبها للأمير!

قالت له إنها لا تريد أن تكتفي بإثارة الأمير بحركة جسدها الراقص، بجسمها وهو ينحني وينثني، ويهتز ويتلفت، ويلف ويدور. . إنها قادرة أن تعبر عن نفسها بجسدها. . إن جسدها هو لسانها الذي ينطق ويتكلم، ويغني ويقنع، ويناقش ويفحم. ولكنها تريد أن تعري عقلها كما تعري جسدها. . أن تجعل في عقلها إغراء تحتضنه الرؤوس، كما جعلت في جسدها إغراء يحتضن العيون.

تريد أن تبدو راقصة متعلمة مثقفة تختلف عن باقي الراقصات والفنانات. . تريد أن تبهر الأمير بعلمها: تجعله يشعر وهو نائم إلى جوارها أنه ليس نائماً فقط بجوار راقصة فاتنة جميلة، بل هو نائم أيضاً بجوار دائرة المعارف البريطانية!

إن الأمير جاهل لم يتعلم. فإذا أحس أنها تفوقه علماً وثقافة يتضاءل أمامها، ولا يعود يشعر أنه أعلى منها مركزاً وجاهاً ولقباً، بل يحس أنه قطرة في بحر علمها.

إنها تريد أن يبحث لها سامي عن كلمات براقة ينسخها من الروايات الأجنبية، كلمات رائعة تضمنها حوارها مع الأمير. كلمات تهزه، وتهز أصدقاءه وتشعرهم أن معهم امرأة غير عادية تفوقهم علماً وثقافة واطلاعاً!

إنها تريد كلمات من عينة الكلمات التي كان يقولها يوسف وهبي في رواية «أولاد الذوات» مثل «الشرف مثل عود الكبريت ما يولعش الا

مرة واحدة». . هذه الجملة الخالدة فقدت قيمتها بعد اختراع الولاعات. . ولكنها عاشت وعاش الناس يرددونها!

تريد كلمات مثل كلام يوسف وهبي لزوجته الأجنبية في رواية الذبائح: «احنا بنكتب من اليمين للشمال وأنتم بتكتبوا من الشمال لليمين». صحيح أن هذه الجمل الخالدة لم تعد تثير الآن إلا البوابين، ولكن أعز صديق للأمير لا يزيد ثقافة عن عم ابراهيم بواب عمارتها في الدقي. عم ابراهيم يحرس عمارتها، وفوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام يحرس الدولة. مهمة الاثنين واحدة. عقلية الاثنين واحدة. ليس في بيت فوزي بك كتاب واحد سوى قانون العقوبات، وليس في قصر الأمير كتاب واحد سوى دفتر التليفون!

إنها تريد من سامي أن يكتب لها سيناريو. يعد لها حواراً على لسانها تقوله في مقابلاتها مع الأمير. أن يكتب في السيناريو بجوار العبارات الرنانة ملخصاً عن كتاب جديد عن تاريخ فيلسوف لتبهر الأمير وأصدقاءه باطلاعها الواسع وبأنها امرأة تختلف عن كل النساء اللاتي عرفهن.

وأعجب سامي كامل الأسيوطي بالفكرة وتحمس لها. . وكان يكتب في كل يوم سيناريو لقاء بين الراقصة والأمير. ويضع في شفتيها الحكم الخالدة عن الحب والتضحية والأخلاق والوفاء.

وكانت ببا تجيء كل يوم قبل لقائها بالأمير إلى مكتب سامي، وتدفع له مقدماً ثمن السيناريو، ثم تبدأ في حفظ دورها وكأنها تستعد فعلاً للقيام بدور أمام الكاميرا. كانت تقف وتقعد، وتتقدم وتتراجع، وتميل برأسها، وتنفخ دخان سيجارتها، وتضحك وتمسح دموعها. وتبتسم وتتعذب. وكانت هذه البروفة تساعدها على أن

تقوم بدورها أمام الأمير. وكانت تتفوق وتتألق وتندمج في دورها أمام الأمير حتى سحرته، وسحرت أصدقاءه الجهلاء وفي مقدمتهم فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام.

واستطاعت ببا في كل لقاء مع الأمير وأصدقائه أن تبهرهم بحديث عن أديب عالمي، أو فيلسوف عبقري، أو مفكر كبير..

وسار كل شيء على ما يرام، إلى أن حدث يوم كانت ببا تجلس على مائدة العشاء وعن يمينها الأمير عادل، وعن يسارها فوزي صلاح الدين، وأمامها اللواء سعدون باشا واللواء حماد باشا وهما من أصدقاء الأمير المقربين.

وكان صديقها سامي كامل الاسيوطي أعد لها سيناريو هذا المساء عن أن تتحدث عن الكاتب الامريكي الشهير سنكلير لويس، الذي تقرأ له الآن قصته (دودز ورث) التي نالت جائزة نوبل في الأدب. وكان أول أمريكي نال هذه الجائزة العالمية الكبرى.

وأنه ولد في مدينة سوك سنتر بولاية مينيسوتا بالولايات المتحدة. وكيف أن قصصه هزت أمريكا، فقد كان يسخر منها، ويهزأ من طريقة الحياة فيها ويهاجم عقلية الأمريكيين. كان يجد وهو يسخر. ويعبث وهو يتحدث في أمور يعتبرها الأمريكي مقدسة لا يجوز فيها المزاح. كان أحياناً لا يكتب بالقلم وإنما يكتب بالسكين، كان لا يصف الناس إنما يضعهم على المشرحة. يفتح عقولهم ويخرج أفكارهم، يفتح بطونهم ويخرج ما سرقوه من أموال الفقراء وما بلعوه من أموال المساكين. يمزق ملابسهم ويعريهم للناس بكل خطاياهم وجرائمهم!

كان كل كتاب يصدره لا يحدث ضجة في أمريكا، وإنما يحدث

زلزالاً فيها. يهز الناس بعنف. يلقيهم من فراشهم. يخرجهم من بيوتهم هائمين على وجوههم كان إذا كتب قصة جلس الناس يناقشون فيها، ويتجادلون في ترجمة اسم كل شخصية من شخصيات القصة إلى رجل يعرفونه في حياتهم العامة. ثم بعد ذلك يكتشف كل قارىء أنه شخصية في القصة. إن المؤلف رسمه بالكاميرا في قصته. وهذه هي صورته الفوتوغرافية بكل دقائقها وملامحها وخطوطها وتجاعيدها.

ويحس كل قارىء بأن المؤلف يسخر منه هو. ويهزأ منه هو. فيثور على المؤلف، وهو في الواقع يثور على نفسه، على واقعه، على الحياة التي يعيش فيها، ولا يعرف فيها، ولا يعرف أنه يعيش فيها.

إننا في مصر نحتاج لمؤلف موهوب يرسمنا، لنرى أنف نا على حقيقتها، لأننا نجهل أنفسنا، المرايا التي نرى أنفسنا فيها تخدعنا لأنها تجاملنا بإخفاء عيوبنا وتخدعنا بتكبير محاسننا!

وانتهت ببا من إلقاء دورها كما حفظته كلمة كلمة كما كتبه صديقها سامي كامل الأسيوطي مؤلف السيناريو. توقفت في المواقف التي طلب منها أن تتوقف فيها. خفضت صوتها في الجمل التي أشار عليها أن تخفض صوتها وهي تنطلق بها. رفعت نبراتها في العبارات التي أشار عليها سامي بأن تضغط عليها وهي تتحدث بها. ابتسمت حيث يجب ان تبتسم. قطبت وجهها في المكان المقرر العبوس. ألقت الجملة الأخيرة بلهجة درامية مؤثرة.

وتلفتت حولها فوجدت أن كل الجالسين حولها ينظرون إليها بإعجاب، وذهول وتقدير وانبهار..

ولكنها اكتشفت بعد انتهاء دورها أنها أخطأت خطأً واحداً في

إلقاء الدور الذي حفظته عن ظهر قلب..

كان الخطأ بسيطاً..

فقد قالت إن اسم المؤلف الامـيركي العظيم هـو سوك سنتر وإن المدينة التي ولد فيها هي مدينة سنكلير لويس!

بينما أن سوك سنتر هو اسم المدينة، وسنكلير لويس هو اسم المؤلف العظيم..

وحمدت ببا الله على أن النظارة الذين سمعوها تؤدي هذا الدور الخالد في بيت الهرم لم يتبينوا هذه الغلطة..

فقد كانوا كلهم عم ابراهيم بواب عمارتها.. كانوا كلهم من البوابين أو كالبوابين!!

- ٦ -

جلس عم ابراهيم بواب العمارة التي تسكن فيها الراقصة ببا في حي العجوزة، على مقعد من الخشب أمام باب العمارة، وفوق رأسه عمامة بيضاء كبيرة.

وإذا كان القدماء يقيسون ما في رؤوس الناس بحجم عمائمهم، فإن من الواجب أن يكون في رأس عم ابراهيم من العلم أكثر مما في رأس العالم أينشتين، وأن يكون في رأسه من علوم السياسة أكثر مما كان في رأس السياسي الداهية مترنيخ، وأن يكون في رأسه من المعلومات الحربية وفن القتال أكثر مما كان في دماغ الماريشال روميل الذي دوخ جيوش الحلفاء في الصحراء.

وكان عم ابراهيم يضع ساقاً فوق ساق، إظهاراً لأهميته، وإعلاناً عن أنه بواب أكبر عمارة في الحي.. وكان في يده اليمنى منشة يطرد بها الذباب، ويهش بها الباعة المتجولين، وفي يـده اليسرى كوب صغـير من الزجاج، امتلأ بالشاي الثقيل الساخن، يشفط منه فيحدث ضجة لا تقل عن ضوضاء المرور في الشارع المزدحم بالمارة والسيارات.

وكان يجلس بجوار عم ابراهيم بعض أصدقائه ومحبيه من بوابي الشارع، واختار كل واحد منهم مقعـداً يستطيع أن يرقب منه باب العمارة التي يحرسها، وفي الوقت نفسه يستمتع بحديث عم ابراهيم عن السياسة العليا..

إن عقلية البوابين تختلف عن عقلية باقي الناس. البواب يهتم بحراسة العمارة وأمنها، والسكان يهمهم وصول المياه واستمرار عمل المصعد وعدم انقطاع الكهرباء. كل ما يهم البواب نظافة السلالم، ونظافة بلاط المدخل، ونظافة الرخام الذي يزين جدران مدخل العـمارة. ما دام كـل شيء يلمع ويـبرق في هـذه الأمكنـة الثـلاثـة فـإن الدنيا بخير، والعمارة بخير، والسكان بخير، لا يهم إذا انقطعت المياه عن الشقق أو إذا تشققت جدران الغرف، أو إذا تعطل المصعد، المهم أن تلمع السلالم، ويلمع بلاط المدخل، ويلمع رخام الجدران!

والبواب يشعر بعد فترة من عمله أنه أصبح صاحب العمارة. أليس هو الذي يقبض الإيجـار، وهو الذي يسلم السكان الإيصالات، وهو الذي يتلقى شكاويهم، وهو الذي يوبخهم إذا تأخروا في الدفع، ويلاحقهم إذا زاغوا في أول الشهر؟ إنه هو الذي يقبض على اللصوص الذين يدخلون من الباب الأمامي. أما

اللصوص الذين يدخلون من الباب الخلفي، أو يتعلقون بمواسير المياه فهذا أمر خارج عن اختصاصه!

ويتصور أنه وهو جالس على مقعده أمام باب العمارة يعرف ما يدور في كل غرفة. يعرف الزوج المستقيم الأمين، من الزوج الخائن الفاسق... فبشري أفندي عبدالمسيح الذي يسكن في غرفة واحدة في الدور الأرضي زوج مستقيم، أمين، شريف، يتحلى بأخلاق الملائكة لأنه يدخل من باب العمارة في موعد انصراف الدواوين، ولا يخرج من العمارة إلا في موعد دخول الوزارات في الصباح.

أما درويش مخلص الساكن في الدور السادس فهو زوج خائن وشيطان رجيم ويعود إلى العمارة كل ليلة بعد منتصف الليل، ويوقظ عم ابراهيم من أحلامه السعيدة، ويمشي على أطراف أصابعه، ويفتح باب شقته بهدوء حتى لا يوقظ زوجته المخدوعة فتعرف أن زوجها عاد من ليلة حمراء.

وعم ابراهيم يعرف البنت الشريفة من البنت المتهتكة. البنت الشريفة تقفل كل النوافذ، والبنت المتهتكة لا تحلو لها المذاكرة إلا في النافذة!

وعم ابراهيم يعرف أن الخادمة نفيسة التي تعمل في الدور الخامس خادمة قليلة الأدب، عديمة الحياء، لأنها تصر على استعمال المصعد، وتترك بابه مفتوحاً، وتلوث بشبشبها المتسخ بتراب الشارع بلاط المدخل الذي جعله عم ابراهيم يلمع كصدر ست ببا الراقصة، بينما يعرف عم ابراهيم أن الخادمة سعدية التي تعمل في شقة الصحفي درويش مخلص فتاة مؤدبة، ملاك من السماء، لأنها برغم وجود شقتها

في الطابق السادس، تصعد من سلم الخدم، وترفض أن تستعمل المصعد.

ولكن عم ابراهيم العالم ببواطن الأمور، والذي يعرف كل ما يجري في كل غرفة من العمارة بدقة وتفصيل، لا يعلم مثلاً أن الأمير عادل عمرو يحضر لمقابلة الراقصة ببا المقيمة في الطابق الرابع، قبل أن يهيىء لها بيتاً في ضاحية الهرم.. كان يتصور أن الأمير هو طبيب يعالج محمد بك سعيد أحد أعيان أسيوط الذي يتردد على القاهرة من وقت إلى آخر. وكان عم ابراهيم يحب الدكتور محمد لأنه يعطيه نصف ريال في كل مرة يفتح له باب المصعد، ويصحبه إلى شقة محمد بك سعيد.

وكان نصف الريال هذا كفيلاً لأن يشتري للأمير عادل عدة أرطال من الأخلاق الحميدة، والصفات النبيلة، والسجايا الكريمة، وعدة كيلوجرامات من العفة والفضيلة والعطف على الفقراء والمساكين.

ولم يكن عم ابراهيم يتصور أن محمد بك سعيد هو اسم مستعار للواء سعدون باشا أحد كبار ضباط الجيش، وأن الأمير عادل يدخل شقته، فيبقى عدة دقائق، يهبط بعدها على قدميه إلى شقة عشيقته الراقصة ببا فهمي!

ولم يكن عم ابراهيم يعرف كذلك أن الساكن الفاسد، الفاجر، درويش مخلص هو رئيس تحرير جريدة «آخر الأخبار» الصباحية، وأن عمله يقتضيه أن يبقى في مكتبه بالجريدة إلى ما بعد منتصف الليل عندما يبدأ بطبع الجريدة. وكان عم ابراهيم لا يعرف أن الزوج المستقيم الأمين الذي يجيء إلى العمارة ساعة انصراف الدواوين هو بشري عبدالمسيح الرسام بمصلحة المساحة الذي استأجر هذه

الغرفة ليقوم فيها بعملية تزييف أوراق البنكنوت.

وكان عم ابراهيم لا يعلم أن الخادمة المؤدبة سعدية التي تصر على الصعود على سلم الخدم لم تكن تفعل ذلك استجابة لتعليمات عم ابراهيم وتنفيذاً لأوامره الصارمة، وإنما لأنها تحب الأسطى مرسي الطباخ في الطابق الأول، فكانت تمر على مطبخه، في صعودها ونزولها من سلم الخدم، وتتزود منه بقبلة خاطفة أو عناق سريع. . ولكن عم ابراهيم البواب كان واثقاً ومؤمناً ومتأكداً من أنه يعرف كل ما يجري في العمارة من أسرار وأخبار ومفاسد وشرور وعبادة وصلاة، على أنه لم يكن يعرف شيئاً على الاطلاق!

وكان عم ابراهيم راضياً عن نفسه كل الرضا. إن المهمة التي يقوم بها يومياً في تلميع بلاط المدخل أهم من مهمة المهندس الذي صمم العمارة. والجهود الجبارة التي يبذلها في غسل السلم يومياً أشقى من مهمة المقاول الذي بنى العمارة. وعملية مراقبة المصعد ومنع الخدم من ركوبه ومنع الباعة المتجولين من مضايقة أصحاب الشقق تحتاج إلى كفاءة وعبقرية وذكاء ودهاء وكياسة وسياسة وفطنة وحكمة لا تتوفر في المهندسين الذين قاموا بتركيب مصعد العمارة.

إن من مزايا الجهل أنه يصور لنا أن كل عمل تافه نقوم به أنه عمل خطير، وأن من السهل بناء عمارة، ولكن من الصعب تلميع رخام السلالم. . وهكذا توحي لنا عبقرية الجهل بخطورة ليست فينا، وصفات ليست لنا، وتجعلنا نسخر من كل عالم حقيقي، ونهزأ بكل خبير، ونحتقر كل رأي أعلى من مستوى تفكيرنا.

وعندما كان عم ابراهيم جالساً مع زملائه البوابين يستمع إلى الحاج ياسين بواب عمارة الشبراويشي وهو يمسك بالجريدة ويقرأ لهم فيها

اخبار الحرب في فلسطين، كان عم ابراهيم يقاطعه بعد كل سطر، ويحلل ويستنتج، ويضيف أشياء ليست مكتوبة في الجريدة، ولكن يؤكد أنه سمعها من الصاغ عزيز علاء الدين الذي يسكن في الدور السادس.

وهكذا كان عم ابراهيم يخترع أسلحة غير موجودة، ويبتكر خططاً حربية لم تخطر على بال القائد نابليون بونابرت، ويكبد العدو خسائر لم تذكرها الجريدة، ويبالغ في قواتنا، ويحط من قوة العدو. فإذا اعترض الحاج ياسين بأن هذا الكلام ليس مكتوباً في الجريدة، اتهم عم ابراهيم الجريدة بأنها خائنة. وأنها تأخذ أموالاً من اليهود لتخفي هذه الانتصارات. وكان عم ابراهيم مقتنعاً بأن الوطنية الحقيقية هي أن يتحدث عن انتصارات لم تقع، ويباهي بهزائم ألحقناها بالعدو قبل أن تحدث لأن هذا يرفع من روح الجيش المعنوية فيحقق الانتصارات التي قال الشعب إنها حدثت، حتى يثبت الجيش أن الشعب لا يكذب ولا يبالغ!

وكلما قرأ الحاج ياسين مقالاً حماسياً التهبت مشاعر الجالسين، وأثنوا على وطنية الكاتب، فإذا قرأ مقالاً مدروساً لكاتب يحذر من الانسياق في تفاؤل كاذب، انقلبت سحناتهم وقالوا إن الكاتب لا بد أن يكون يهودياً مستتراً تحت اسم مصري، وراحوا يذكرون أن القوات العربية سوف تدخل تل أبيب خلال ساعات.

ولم يكن اجتماع البوابين أمام باب العمارة أكثر جهلاً من اجتماع يعقد فوقهم في شقة اللواء سعدون باشا الذي يعرفه عم ابراهيم باسم محمد بك سعيد. إن سعدون باشا اختار هذه الشقة في نفس العمارة التي تسكن فيها الراقصة ببا فهمي، لكي يستعملها الأمير

عادل كمحطة له، فيدخل الأمير شقة سعدون باشا إلى أن يغلق عم ابراهيم باب المصعد، ويهبط به، وعندئذ يفتح الأمير الباب بهدوء، وينزل على أطراف قدميه إلى شقة ببا. .

وكان سعدون باشا سعيداً بهذه الخدمة الاستراتيجية التي قدمها لصديقه الأمير عادل، ويشعر أنه بهذه الخدمة التكتيكية يخفي هدفاً هاماً عن أنظار العدو. . والعدو هو الشعب المصري طبعاً!

وعندما استأجر الأمير بيت الهرم شعر سعدون باشا بحزن شديد وأسى بالغ، كأنه فقد موقعاً حربياً، فقد قطعة ثياب عسكرية رائعة، كان سيقفز منها بلا شك إلى رتبة فريق!

ولكن الأمير عادل، لحسن حظ سعدون باشا، لم يستغن عن خدماته، فقد كان يضطر إلى استعمال شقة سعدون باشا كلما اضطر لزيارة ببا زيارات خاطفة!

وكان سعدون باشا يؤمن أيضاً بنظرية عم ابراهيم البواب في أثر اللمعان في تقدم الأمم. كان في كل عمل قيادي يتولاه، حريصاً على أن يلمع جنوده أزرارهم النحاسية، وأن يلمعوا أحذيتهم، وأن يلمعوا أرقامهم النحاسية، وأن يلمعوا أحزمتهم، وأن يلمعوا بنادقهم، وأن يلمعوا حرابهم وسيوفهم. وأن يبدو كل شيء في ثكنات جنوده يلمع ويبرق ويضيء. وفي الثكنة التي يشرف عليها سعدون باشا، كان يسارع ويأمر بدهان الجدران الخارجية بطلاء لامع جديد، ويفرش الأرض بالرمل الأحمر اللامع، ويدهن أحجار رصيف الطرق بلون أبيض ولون أسود، ويحرص على أن تلمع الأحجار. فإذا جاء زائر عظيم بهره لمعان كل شيء في الثكنة. بريق كل شيء في الجدران الخارجية والمظاهر الخارجية، فيكتفي برؤية

الجدران ولا يرى ما خلف الجدران، ويقنع برؤية الأسلحة اللامعة ولا يهتم إذا كان الجنود يعرفون طريقة استعمالها أو لا يعرفون، واعتقد الزائر العظيم على الفور بأن سعدون باشا ضابط لامع، وقائد لامع، وعسكري لامع.

ولو أن الزائر العظيم وجد وقتاً ليسأل الجندي كيف يستعمل البندقية اللامعة التي يحملها على كتفه، لفوجىء بأن هذا الجندي لم يطلق هذه البندقية في يوم من الأيام. ولو أنه سأل عن عدد ساعات التدريب على الأسلحة لفوجىء بأن الجنود يدربون يومياً على دهان الجدران وتلميع البلاط وتلميع الأسلحة. . وأن عقولهم مظلمة لا تلمع، وأرواحهم باهتة لا تبرق، وحالتهم المعنوية شاحبة ليس فيها أثر للمعان أو بريق!

وكان سعدون باشا جالساً مع بعض أصدقاء الأمير في انتظار فراغه من لقاء الراقصة ببا. لقد أخبره الأمير بالموعد، واستأذن هو وأصدقاؤه وأخبروا مساعديهم أنهم مدعوون لمؤتمر حربي هام. . وها هو الأمير الذي وعد بأن لا يبقى مع ببا أكثر من خمس دقائق لم يلحق بهم، قد تأخر ساعتين:

وخشي سعدون وهو ينظر إلى ساعته أن يتحدث عن تأخر الأمير، فرأى أن من الأسلم أن يتحدث عن تأخر مصر، إن سبب تأخرها أن كل شيء فيها قديم، باهت، لا يلمع، وأنه إذا استطعنا أن نجعل مصر تلمع، انتقلت مصر من دولة صغيرة إلى دولة كبيرة، دولة عظمى تضم الدول العربية والإسلامية في امبراطورية واسعة مترامية الأطراف. . وكان سعدون باشا يتصور أن الدولة هي «حذاء» فإذا جعلناه يلمع بدهنه بالورنيش، تحول الحذاء إلى طائرة نفاثة!

وكان سعدون باشا يقول إن مصر لا تصلح لها إلا وزارة عسكرية، كل وزرائها من اللواءات، وزارة جد لا تعرف المزح. تعلق المشانق للمعارضين، وتملأ السجون بالمخربين. وبذلك تختفي الضوضاء التي يحدثها الحكم البرلماني. وتمنع أهل الفكر من تقرير الحلول اللازمة لحل أزمات البلاد..

وكان سعدون باشا اعتبر نفسه من أهل الفكر، بعد سماعه عدة محاضرات من الراقصة ببا عن كبار الكتاب والمفكرين التي تحفظها عن ظهر قلب من السيناريو الذي يكتبه لها صديقها سامي كاتب السيناريو. وكانت ست زليخا قد سمعت سعدون باشا وصحبه يرددون دائماً كلمة «أهل الفكر» فتصورت إنهم يقولون «أهل الفجل».. وأصبحت إذا تحدثت عنهم لا تسميهم إلا أهل الفجل!

ومضى سعدون باشا يحدث أصدقاءه أهل الفجل عن حكومة عسكرية جديدة تصلح الفاسد، وتعدل المائل، وتحول الخرائب إلى عمارات، والصحارى إلى حدائق، وتوفر المال الذي ينفق على البرلمان في شراء مدافع ودبابات وطيارات وأساطيل، وتلغي الجلاليب وترغم كل الشعب على ارتداء البنطلونات، وتمنع الشباشب والقباقيب، وتعاقب من يمشي في الشارع بغير حذاء.. وتصدر الحكومة الجديدة قانوناً يحتم على كل مصري أن يدفع للدولة قرشاً واحداً كل يوم. قرش واحد يصنع المعجزات. ولما كان عدد سكان مصر ٢٠ مليوناً، فيدخل الدولة كل يوم ٢٠٠ ألف جنيه. وهكذا تنشىء الدولة في كل يوم مصنعاً جديداً. ولما كان عدد أيام السنة هو ٣٦٥ يوماً، فسيكون حوالي أربعة آلاف مصنع بسبب زيادة السكان، وفي عشرين سنة عشرة آلاف مصنع جديد... وبذلك نصبح أغنى دولة في العالم!

ولم يستطع أحد من «أهل الفجل» الجالسين في حضرة عبقرية سعدون باشا أن يقول له إن بين العشرين مليوناً حوالي عشرة ملايين من الأطفال الذين لا دخل لهم على الإطلاق، وبينهم مئات الألوف من الأسر التي يزيد عدد أفرادها عن عشرة أشخاص، ولا يزيد دخل الأسرة عن عشرة قروش في اليوم، ولو دفعوا هذا المبلغ للحكومة لماتوا جميعاً من الجوع. ولكن أهل الفجل أحسوا وهم يسمعون آراء سعدون باشا الاقتصادية، أنهم أمام الاقتصادي العالمي الدكتور شاخت وزير مالية هتلر!

وكان سعدون باشا يشارك عم ابراهيم بواب العمارة في صفة العلم بكل شيء، فقد كان بين مناصبه الكثيرة الإشراف على المخابرات العسكرية، وكان صديقه الحميم فوزي بك صلاح الدين مشرفاً على الأمن العام. وبذلك تصور سعدون باشا أنه يعرف كل ما يجري في مصر والعالم من خبايا وأسرار.

كان يفاخر مثلاً بأنه يعلم أن للزعيم الاسرائيلي بن جوريون ابناً شاباً، ولهذا الشاب عشيقة اسمها أستير، وأنها حمراء الشعر، من أصل بولندي، وأنها كانت قبل ذلك عشيقة ليفي كوهين أحد أعضاء عصابة شترن الإرهابية، وكان سعدون باشا يفاخر بأنه يعرف عنوان الشقة التي يجتمع فيها العاشقان في تل أبيب، ويعرف أن العشيقة أستير تخون بن جوريون الصغير مع طيار فرنسي اسمه جان روميه..

كل هذه المعلومات السرية الدقيقة كانت تحت يد سعدون باشا. حتى صورة استير وقد ارتدت المايوه الفاضح الذي يكشف عن تقاطيع جسمها الشهي، المثير.

صحيح أن سعدون باشا لم تقع في يده بعد خطة بن جوريون الحربية، ولم تقع في يده خريطة للطرق التي سوف يتبعها في الهجوم، ولكن هذه مسائل سهلة إلى جوار علمه الدقيق بتفاصيل وأسرار الحياة الشخصية للأعداء.. كان يشعر أن المعلومات التي لديه لها بريق ولمعان يخطف الأبصار!

وكان فوزي بك صلاح الدين الذي يجلس معه لا يقل اطلاعاً عن سعدون باشا وفي إلمامه بالخبايا والأسرار.

كان رجاله يجيئون له يومياً بصفته مدير الأمن العام بتقارير في الحمام، وألوان الطعام التي كانت على مائدته في العشاء، وأسماء الذين ترددوا على بيته، وكم دقيقة بقي كل واحد منهم داخل البيت.

وكانوا يجيئون له يومياً بتفاصيل الأحاديث التي جرت بين مكرم باشا وجريدة الكتلة، وعن تفاصيل حادث دهس سيارة لكلب مكرم باشا في منشية البكري، وأن مكرم باشا يتهم الحكومة بأنها هي التي دبرت هذا الاغتيال.

وكانوا يقولون في تقاريرهم أن حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطني أحب سيدة يهودية وتزوجها، وأن هذا لم يمنع رئيس الحزب الوطني، من الحماس الشديد لدخول الجيوش المصرية في حرب فلسطين.

ولكن فوزي بك لم يكن يعرف أي شيء عن التنظيمات السرية التي تألفت تحت الأرض لاغتيال الزعماء المصريين.. ولم يكن يتصور أن في الطابق الذي تحته مباشرة غرفة الطالب شريف

عبدالرازق العضو البارز في مؤامرة الاغتيالات.. ولم يكن يعرف أي شيء عن النشاط الصهيوني الذي كان يقوم به اليهود في مصر، ولا عن أن أغلب الفتيات المتطرفات، وأصبحت كل واحدة منهن عشيقة شاب من الشبان المتحمسين المتطرفين.

لقد كان مدير الأمن العام يؤمن هو الآخر بأن العدو الحقيقي هو الشعب المصري، وليست جيوش إسرائيل!

ولم يكن سعدون باشا أو فوزي صلاح الدين بك يعلمان بأن عدداً محدوداً من الضباط مستاؤون من هذا الوضع، ويؤلفون تنظيماً سرياً باسم الضباط الأحرار، ويكونون خلايا صغيرة من الضباط في عدد من الأسلحة والوحدات، وأنهم يوزعون آلاف المنشورات في سرية وكتمان.

ولم يكن سعدون باشا وفوزي بك وحدهما اللذان يجهلان هذه الحقيقة الخطيرة، بل كان هناك بواب ثالث يجهل وهو عم ابراهيم بواب العمارة الذي يعتقد أنه يعرف كل الخبايا والأسرار.. كان عم ابراهيم يجهل أنه في شقة بالطابق الثاني الملازم شفيق ابراهيم حسين الذي كان عضواً في هذا التنظيم السري المجهول!

ولو أن الثلاثة العالمين ببواطن الأمور كانوا فعلاً عالمين ببواطن الأمور لعرفوا أن هذه العمارة التي تجمعهم، تجمع مصر كلها، بكل خباياها، بكل أسرارها، بكل اتجاهاتها، بماضيها وحاضرها ومستقبلها.

كانت العمارة تضم مصر بكل تناقضاتها، وخلافاتها، وأحزابها، ومزاياها، ونقائصها، وطهرها، وفسادها!

في الطابق الأول من العمارة كانت تقيم أسرة الأستاذ محمود أبو بكر المفتش بمصلحة الأموال المقررة، ومعه زوجته، وابنته وفيه، الفتاة الطويلة التي لم ير أحد من سكان العمارة وجهها أبداً.

وكان محمود أبو بكر رجلاً وقوراً في الخمسين من عمره، شديد التدين، محافظاً على التقاليد، لا يفتح نوافذ بيته المطلة على الشارع. لا تطل زوجته أو ابنته أو خادمته من شرفة البيت، لا تخرج زوجته إلى الشارع إلا وقد وضعت حجاباً أسود حالكاً سميكاً يخفي وجهها. ولا تخرج ابنته وفية إلا وقد أخفت وجهها بحجاب أشد كثافة لا تظهر منه إلا عينان صارمتان.. وقد منع الأب دخول جهاز الراديو إلى بيته لأنه يفسد الأخلاق. لا يزور أحداً ولا يزوره أحد.

وكان أبو بكر يؤمن إيماناً راسخاً بأن لا سبيل لإنقاذ مصر إلا أذا عادت إليها الحياة التي كانت سائدة في عهد الخلفاء الراشدين، فتغلق دور السينما والمسارح، وتحطم البارات، وتفرض الحجاب على النساء، وتقبض على كل امرأة مكشوفة الوجه تسير في الشارع وتزج بها في أعماق السجون، وتشترط على كل وزير أن يؤدي الصلاة في أوقاتها، وتجعل صلاة الجمعة إجبارية، وتؤلف بوليساً للأخلاق إذا ضبط رجلاً لا يؤدي الصلاة جلده البوليس خمسين جلدة في الطريق العام!

وفي الشقة المجاورة يقيم الدكتور أحمد العروسي طبيب الأمراض الصدرية بمصحة الجيزة، وزوجته الدكتورة دوريس الطبيبة بمستشفى فؤاد الأول. وكان الزوج مسلماً والزوجة مسيحية، والزوجان يعتنقان مبادىء كارل ماركس، ومن رأيهما أن إنقاذ مصر

يكون بشنق جميع رجال الدين الإسلامي ورجال الدين المسيحي في مشانق واحدة حتى يتعانق الصليب مع الهلال، وإلغاء الدين باعتباره أفيون الشعوب، وهدم كل شيء في مصر، وإعادة بنائه على أساس جديد من حكم البروليتاريا ودكتاتورية الطبقة العاملة.

وكانا يجدان لذة في إغاظة جارهما الأستاذ محمود أبو بكر وادارة أسطوانات راقصة، واقامة حفلات ساهرة لا تبدأ إلا أثناء صلاة العشاء وتنتهي بعد صلاة الفجر.

وكان من رأيهما ضرورة ذبح أسرة الأستاذ محمود أبو بكر باعتبارها من الطبقة الوسطى التي يجب ذبحها كلها، لأنها أخطر على مصالح البلاد من الاقطاعيين والرأسماليين. فالإقطاعيون سيموتون بالشيخوخة، والرأسماليون سيموتون بالسكتة القلبية، ولكن الطبقة المتوسطة هي التي ستحاول قتل ثورة البروليتاريا.

وكان يقيم معهما ولدهما كمال الطالب بكلية الهندسة، وهو شاب رياضي، يؤمن بلعبة التنس، ولا يؤمن بكارل ماركس.. وقد تأثر بمحاضرات أمه وأبيه اليومية عن ضرورة ذبح أسرة الأستاذ محمود أبو بكر، لدرجة أنه أحب ابنته وفية حباً جنونياً وتبادل معها خطابات الغرام، وهكذا جمع كيوبيد بين بنت نصير الدين وابن عدو الدين، وكانا يلتقيان دائماً من نافذة الحمام في كل من الشقتين برغم أن جميع نوافذ محمود أبو بكر المطلة على الشارع كانت مغلقة بالليل والنهار!

وفي الطابق الثاني كان يقيم الأستاذ صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة وأسرته الصغيرة المكونة من زوجة وولد وبنت في المدارس الابتدائية. وكان الأستاذ صبحي لا يقرأ في الصحف اليومية إلا

صفحة الوفيات، ويعتقد أنها الصفحة الوحيدة الصادقة في كل جريدة.

وكان يؤمن بأن أسرار الدولة كلها لا تنشر إلا في صفحة الوفيات. هذه الصفحة التي تحل له ألغاز الكلمات المتقاطعة التي لم يعرف لها حلاً. وتجيب له على الأسئلة التي رفضت الصحف أن تجيب عليها.. لماذا عينّ هذا الحمار وكيلاً لديوان المحاسبة؟! وإذا بصفحة الوفيات تجيب بعد بضعة شهور بكل صراحة على السؤال الخطير الذي بقي طوال هذه المدة يحيره بغير جواب. لقد وجد الأستاذ صبحي في خبر نعيٍ محمود عبدالعزيز الموظف بوزارة المالية أن الحمار الذي أصبح وكيلاً لديوان المحاسبة هو ابن خالة بنت عم معالي وزير المالية!

ويتساءل بعد ذلك الأستاذ صبحي في حيرة، لماذا أحيل البغل أسعد المنجوري مدير مصلحة المجاري إلى المعاش، في وقت تحتاج فيه المصلحة لأكبر عدد من البغال لتجر عربات المجاري التي تنزح مجارير الشوارع... وبعد فترة تجيء صفحة الوفيات لتحل اللغز الصعب، ويعلم الأستاذ صبحي أن البغل أسعد المنجوري هو ابن أخت أحمد باشا فهيم وزير الأشغال السابق الذي خرج من الوزارة مغضوباً عليه من الملك.. فما دام الأصل خرج من الوزارة مغضوباً عليه! فيجب أن يخرج الفرع من المصلحة التابعة لوزارة الأشغال!

وكان الأستاذ صبحي يعتقد أن محرر صفحة الوفيات هو أجرأ صحفي في مصر، لأنه ينشر الحقائق المثيرة الخطيرة التي تكشف المحسوبية في البلاد.. وهكذا يرى الأستاذ صبحي أن الطريقة

الوحيدة لإنقاذ مصر هي نشر صور أسماء جميع وزراء مصر وزعمائها في صفحة الوفيات.. وإذا لم يحدث هذا في وقت قريب فسوف يقرأ صبحي خالد اسم مصر نفسها في صفحة الوفيات!

وكانت زوجته السيدة إحسان خالد تتمنى أن يحدث في مصر أي تغيير.. لا يهمها نوع التغيير، كل ما يهمها هو التغيير كأنها ذلك الفلاح المصري الذي أراد الضابط التركي أن يعاقبه، فأدخله في غرفة فيها عدد كبير من الخوازيق، وأجلسه على خازوق في نهاية الغرفة.

وكان الفلاح المصري يصرخ ويقول: يا رب.. انقلني من الخازوق الذي في نهاية الغرفة إلى الخازوق الذي في أول الغرفة!

ودهش الضابط التركي من دعاء الفلاح الغريب، وذهب إليه وقال له:

- ألا تعرف أن الخازوق الذي في نهاية الغرفة مثل الخازوق الذي في أول الغرفة؟

قال الفلاح:

- نعم، أعرف ذلك.

قال الضابط التركي:

- إذن لماذا تريد أن تنتقل إلى الخازوق الآخر!

قال الفلاح ببساطة:

- أريد أن أستريح مسافة الانتقال بين الخازوقين!!

وهكذا كانت إحسان خالد تتمنى أن يحدث أي تغيير لتستريح في أثناء الانتقال بين الخازوقين!

ولكن في الشقة المجاورة لها كان يسكن الدكتور ابراهيم حسين الذي كان يؤمن بأن مصر تجلس على خازوق واحد هو الاحتلال البريطاني. . ولا يوجد في العالم خازوق سواه!

وكان الدكتور ابراهيم طبيباً في الحكومة أحيل إلى المعاش، وكان وطنياً قديماً من أنصار الزعيم مصطفى كامل. وكان يعتقد أن الإنجليز وحدهم هم سبب كل فساد وبلاء في مصر. هم المسؤولون عن الخلاف بين الزعماء. هم المسؤولون عن الجهل. هم المسؤولون عن الفقر. هم المسؤولون عن المحسوبية. هم المسؤولون عن ازدياد الحر الذي لا يطاق في الصيف، وعن ازدياد البرد القارس في الشتاء.

وكان ابراهيم حسين يعتقد أنه لا يكاد يخرج آخر جندي من مصر، حتى يتفق الزعماء المختلفون، ويصبح البلد كتلة واحدة، وينتهي الفقر والجهل، ويتحول كل المصريين إلى متعلمين مثقفين، ويصبح الجو معتدلاً في الصيف والشتاء، ولا يصاب الدكتور بالزكام!

أما ابنه الملازم شفيق ابراهيم حسين، فقد كان يتفق مع والده في رأيه بالإنجليز، ولكنه كان يعتقد أن الملك والأحزاب والإقطاعيين والسياسيين والرأسماليين شركاء في المسؤولية كالإنجليز. .

وفي الطابق الثالث كان يقيم المهندس لبيب برسوم وأسرته. . وكان متحمساً لحزب الكتلة الوفدية ولرئيسه مكرم عبيد باشا، وكانت زوجته الدكتورة ماري برسوم الطبيبة بمعامل وزارة الصحة، متحمسة حماساً جنونياً للسعديين ولرئيسهم النقراشي باشا. وكانا

يتشاجران باستمرار، ويتشاتمان، ويتضاربان، حتى تحسبهما جريدتين حزبيتين مختلفتين تصدران في شقة واحدة.

كان لبيب يؤمن بأن مكرم باشا هو المنقذ الوحيد لمصر، وأنه يوم أن خرج من الوفد انتهى الوفد، وكانت زوجته ماري تعتقد أن النقراشي خير رجل نزيه يحكم البلاد، والبلد في حاجة بظرفها الحاضر إلى رجل نزيه يكنس القاذورات، ويطهر الحكم من الميكروبات.

وكانت تقيم معهما في البيت ابنتاهما أميرة الطالبة الجامعية، وفوزية الطالبة بالمدارس الثانوية، وهما حائرتان بين الأبوين المتنازعين المختلفين، لا تستطيعان أن تكونا من أنصار الكتلة حتى لا تغضب أمهما، ولا تستطيعان أن تنضما إلى الهيئة السعدية فيثور والدهما، وأخيراً تحمست أميرة لفريق كرة القدم بالنادي الأهلي وتحمست فوزية لفريق فاروق (الزمالك الآن) وإذا بهما تتشاجران وتتشاتمان وتتضاربان أكثر مما يفعل أبوهما وأمهما.

ويسكن أمامهما اللواء المتقاعد حسن باشا شفيق الشركسي الأصل، والذي يعتقد أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ مصر هي أن تحكم حكماً فاشيستياً على طريقة هتلر أو موسوليني، أن يكون الحاكم شركسياً والوزراء شراكسة، والضباط شراكسة، لأن الشركس وحدهم هم الذين يجيدون فنون الحرب والقتال. ويقيم معه ولداه شامل شفيق الطالب بكلية الزراعة وعمر شفيق الطالب بكلية التجارة، وهما من هواة كرة القدم. . شامل يتحمس للنادي الأهلي، وعمر يتحمس لنادي فاروق، وإذا بشامل المتحمس للنادي الأهلي يحب فوزية المتحمسة لنادي فاروق، وبعمر المتحمس لنادي فاروق يحب أميرة المتحمسة للنادي الأهلي.

وكان الحب غريباً يجمع بين القبلات والمشاجرات، وبين العناق والخلاف، وبين الهوى والخصام!

وفي الطابق الرابع كانت تجلس الراقصة ببا مع الأمير عادل.. وفي غرفة بعيدة كانت ست زليخا مع ابنها حامد فهمي الطالب بليسانس الحقوق بجامعة القاهرة.

وكانت تقول له إن ببا تنوي أن تقدمه للأمير، شرط أن يتظاهر أنه لا يعرفه ويتصور أنه طبيب...

ويقول حامد في قلق: هل تتصورين يا أمي أن الأمير سوف يصدق أنني لا أعرف شخصيته.. هل هو مغفل؟

وتقول ست زليخا وهي تضحك:

ـ إنه ليس مغفلاً. إنه ذكي جداً، ولكن كل الرجال عندما يحبون يصبحون مغفلين، يتحولون إلى أطفال. يصدقون كل شيء. لأن سعادتهم أن يصدقوا أكاذيب عشيقاتهم. إن الرجال يخلعون ملابسهم ويخلعون عقولهم عند دخولهم فراش عشيقاتهم. ولكن المصيبة الكبرى أنهم بعد أن يغادروا الفراش يرتدون عقولهم مع بنطلوناتهم!

ويضحك حامد فهمي الذي يعرف كل شيء عن مغامرات أخته الراقصة ببا.. ويقول إنه سيحاول أن يتظاهر أمام الأمير بأنه عبيط!

وقالت ست زليخا بانزعاج:

ـ حذار أن تكون عبيطاً.. إن ببا تريد أن نبدو جميعا مثلها من أهل الفجل.. نقرأ الكتب ونحفظ الشعر ونتحدث عن الفيلسوف شبراخيت!

قال حامد وهو يضحك:

ـ إنك لم تحفظي الدرس جيداً من ببا.. اسمه الفيلسوف اشبنجلر!

قالت ست زليخا:

ـ الحمد لله.. أنا الآن أحسن كثيراً مما كنت في أول الأمر.. أتذكر عندما أصبحت ببا نجمة لأول مرة وجاء مندوب مجلة «روز اليوسف» وأراد أن يجري حديثاً معي. ولم تكن ببا موجودة، وكانت خالتك شفيقة حاضرة الحديث، وسألني المحرر: متى ظهرت لأول مرة على الآنسة ببا علامات «العبكرية»؟

قال حامد وهو يضحك:

ـ علامات العبقرية يا ماما!

ومضت ست زليخا تقول:

ـ ولم أكن سمعت في البغالة كلمة العبكرية دي.. فملت على خالتك شفيقة أسألها هامسة ما هي علامات العبكرية التي يسأل عنها.. فقالت خالتك شفيقة هامسة:

ـ لا بد أنه يقصد متى بدأ صدر ببا يكبر لأول مرة لمناسبة بلوغها؟

وثرت في المحرر وطردته من البيت وقلت له:

ـ إننا ناس مؤدبون محافظون لا نسمح بأن يسألنا أحد عن بناتنا هذه الأسئلة القليلة الأدب!

وضحك حامد وهو يقارن بين التغير الكبير الذي حدث في أمه منذ انتقالها من حي البغالة إلى حي العجوزة، وبعد أن أصبحت تعاشر أهل «الفجل» كما تحب أن تسمي أصدقاء الأمير!

وكانت الست زليخا مهتمة أيضاً بمستقبل مصر، وترى أن الطريقة الوحيدة لتقدم البلاد أن تنال ابنتها الدور الأول في جميع الأفلام الناجحة، وأن يؤمن الشعب أن حمارته العرجاء خير من حصان الغريب. . فلا يصفق الناس للكواكب الأجانب أمثال فيفيان لي وكلوديت كولبير، بل يصفقون لابنة بلدهم التي هي أجمل من أي كوكب في العالم!

وكان يسكن بجوار شقة ببا الأستاذ محمد عبدالرازق المحامي وعضو الهيئة الوفدية، وهو يؤمن بأن الانتخابات الحرة التي تجيء بالنحاس باشا رئيساً للوزارة هي التي تحل جميع مشاكل البلاد، فيخرج الإنجليز، ويحترم الدستور، وتنتهي الأزمة الإقتصادية، وتنتصر مصر في حرب فلسطين.

أما زوجته ألفت هانم عيسى ابنة عيسى باشا الوزير الدستوري السابق، فترى أن البلد تحول إلى خرابة منذ خروج والدها من وزارة الأوقاف، وأن الأمل الوحيد للبلاد أن يؤلف علي ماهر باشا صديق والدها وزارة قومية، يدخل فيها والدها وزيراً!

أما ولدهما شريف عبدالرازق الطالب في كلية الحقوق فهو يعتقد

أن أباه وأمه يخرفان بما لا يعرفان، وأن الحل الوحيد هو الاغتيالات السياسية، وقد ألف مع عدد من زملائه الطلبة خلية سرية للاغتيالات، وقررت اغتيال جميع زعماء مصر، واشتروا عدداً من القنابل، خبأها شريف في مخبأ سري أعده تحت فراشه في غرفة نومه.

وكانت فوزية ابنة المهندس لبيب برسوم المتحمس لمكرم باشا والدكتورة ماري برسوم المتحمسة للنقراشي باشا، تحب شريف الذي قرر قتل مكرم باشا والنقراشي باشا معاً. . وكانت في الوقت نفسه تحب جارها شامل شفيق الطالب بكلية الزراعة، وكان يساعدها على حب الاثنين أن مواعيد المحاضرات في كلية الحقوق تختلف عن مواعيد المحاضرات في كلية الزراعة!

وفي الطابق الخامس كانت جرسونييرة اللواء سعدون باشا التي استأجرها باسم مستعار هو محمد بك سعيد، وإلى جوارها يسكن الدكتور سعيد الشباس الأستاذ بكلية العلوم بجامعة القاهرة، وهو رجل متخصص في محاربة الجهل، ولو عرف الدكتور سعيد بآراء سعدون باشا الجاهلة التي كان يرددها في الشقة المجاورة، لما تردد أن يقتحم الشقة ويقتله رمياً بالرصاص.

وكان الدكتور رجلاً عصبياً يثير أعصابه الجهل الذي يراه في كل مكان، ومن رأيه أن البلد يحتاج إلى علماء قبل كل شيء، ويجب إرسال الزعماء في بعثة إلى انجلترا لدراسة السياسة، وإرسال الإقتصاديين إلى اليابان في بعثة ليتعلموا كيف يمكن تحويل أنقاض الإقتصاد إلى ناطحات سحاب، وإرسال قادة الجيش في بعثة إلى روسيا وأميركا لدراسة اختراعات الحرب الحديثة، ويجب إرسال

بعثة من مديري وأساتذة الجامعة إلى جامعات العالم ليتعلموا من جديد، لأن التطورات العلمية التي حدثت بعد الحرب جعلتهم متخلفين جهلاء. وجعلت شهادة الدكتوراه التي حصلوا عليها في الماضي لا تساوي شهادة الإبتدائية في عصر العلم الجديد.

وكان يكرر هذه الآراء في كل محاضرة، وكل اجتماع يعقده مجلس الكلية، حتى ضاق به عميد كلية العلوم ورجال الجامعة وقرروا أن يرسلوه في بعثة إلى القومسيون الطبي للكشف على قواه العقلية تمهيداً لإدخاله إلى مستشفى المجاذيب!

وكان للدكتور سعيد ابنة واحدة في السنة النهائية بكلية الطب اسمها جيلان. وكانت جيلان مؤمنة بالحب أكثر من إيمانها بالعلم. وكانت لا توافق على رأي والدها بضرورة إرسال الشعب المصري كله في بعثة إلى الخارج. فقد كانت تريد أن تبقى في القاهرة بجوار جارها الملازم شفيق ابراهيم حسين.

وفي الدور السادس كانت تقيم شريفة زوجة الصاغ عزيز علاء الدين لا تفارق جهاز الراديو لتسمع أخبار المعركة، وتقرأ كل الصحف باحثة منقبة عن كل كلمة عن سير المعركة. وقد جن جنونها لأن أخبار عزيز انقطعت عنها فجأة. لا هو قد جاء في إجازة كما وعدها، ولا هو يكتب لها، ولا أحد من الضباط من أصدقائه اتصل بها ليطمئنها عنه.

وكانت شريفة تفكر في مصر التي يحارب زوجها من أجلها. إن عدد الذين يتكلمون أكثر من عدد الذين يحاربون. إنها تقرأ تصريحات عن جيوش تتحرك ولا تتحرك. وعن قرارات تتخذ ولا تنفذ.

وهي تحاول أن تتابع سير المعركة فلا تستطيع. فكأننا نحارب على صفحات الصحف. أعددنا الأناشيد ولم نعد المدافع. وضعنا برنامج احتفالنا بدخول تل أبيب-والحفلة الغنائية التي ستحييها أم كلثوم، ونسينا أن نضع خطة الاستيلاء على تل أبيب!

طغت الأقوال على الأفعال. ضاعت الحقيقة في زحام المبالغات والأكاذيب. لا أحد يعرف أين زوجها. هل هو حي فتنتظره أم هو ميت فتبكيه؟. هل هو جريح تقلق عليه، أم هو أسير تكتب إليه؟. لا أحد يعرف. الحديث كله عن انتصاراتنا وهزائم العدو. لا أحد يفكر في زوجات الجنود والضباط الذين انقطعت أخبارهم. يذهبون إلى ديوان الوزارة فيهرب منهم كبار المسؤولين، أو يعتذرون بأنهم مشغولون في اجتماعات ومؤتمرات!

إن الذي ينقذ مصر هو الحقيقة. إن الاستعباد والاستعمار والاستغلال علمنا الكذب. أصبحنا نضطر أن نكذب لنعيش في ضعفنا مع الأقوياء، كان يجب أن نخدعهم لنبقى على قيد الحياة. أن نكذب عليهم لنتخلص من بطشهم وجبروتهم. ولكن الكذب أصبح إحدى صفاتنا. أصبحنا نكذب على أنفسنا، نخدع أنفسنا ونضلل أنفسنا. إذا رأينا الحقيقة ننكرها. وإذا لمسناها نعدو هاربين خوفاً منها.

إن شريفة أصبحت لا تصدق الإذاعات العربية. أصبحت تصدق الإذاعات الأجنبية بما فيها من سموم وأضاليل. ولكنها تلف سمومها ببعض الحقيقة، ولكننا نحن نخفي الحقيقة بالأكاذيب والادعاءات والمبالغات.

وتشعر شريفة بشيء من العار، هل من المعقول أنها أصبحت

من الطابور الخامس وزوجها حبيبها يحارب في فلسطين؟ هل المطالبة بالحقيقة خيانة؟ أم أن الخيانة أن تجعل الناس يعيشون على الأوهام، أن نوزع عليهم مخدرات في شكل أنباء انتصارات لم تتم ومعارك لم تحدث؟

وكان يقيم في المسكن المجاور إنسان آخر يبحث عن الحقيقة التي تبحث عنها جارته شريفة، إنه الأستاذ درويش مخلص رئيس تحرير جريدة «آخر الأخبار».

لقد بدأ يشك في البلاغات التي ترسلها له وزارة الحربية عن المعركة، إنها تخالف الرسائل التي تصله من مراسليه في ميدان القتال، ومما سمعه من محمود باشا رئيس الوزراء بأن الحال زفت وقطران. ولكن الرقيب العسكري في الجريدة يصر على أن يبرز أنباء الانتصارات التي تذكرها أنباء وزارة الحربية، ويصر على حذف كل ما يشير بأن المعارك عنيفة، وأن العدو بدأ ينقض على مؤخرة جيوشنا ويقطع عليها خطوط التموين.

إنه لا يفهم سر الإلحاح في نشر الأخبار الوردية، والمبالغة في خسائر العدو، والتهوين في خسائرنا.. إنه لا يفهم أن يقال أن بعض الجيوش العربية الأخرى تحارب وهي لا تحارب ولا تنوي أن تحارب!

إن نوري السعيد حاكم العراق الحقيقي لا يريد أن يشترك الجيش في المعركة، ويبعد الضباط المتحمسين عن قياداتهم.

والملك عبدالله يتصرف كأن لا علاقة له بالجيوش الأخرى.

وضباط الجيش السوري وجنوده قاموا بعدد من المعارك الباسلة،

ولكن ينقصهم السلاح.

إن درويش يعتقد أن الحل الوحيد لإنقاذ مصر هو حرية الصحافة. كل الأخطاء ترتكب في ظل الرقابة. كل الجرائم تتم بسبب الرقابة. لو أن الشعب عرف الحقيقة لما جرؤ أحد أن يلعب بمصيره ويعبث بمقدراته، ويغامر بمستقبله.. حرية الصحافة وحدها هي التي ستضع النقاط على الحروف، هي التي ستضيء النور في الظلام، إن تقييد الصحافة معناه تقييد أيدي الشعب فلا يتحرك، وتقييد قدميه فلا يتقدم، وتكميم فمه فلا يتكلم، ووضع عصبة على عينيه فلا يرى الخطر المقدم عليه، وسد أذنه فلا يسمع كلمات التحذير والإنذار الموجهة إليه. صحافة حرة تعني شعباً حراً وبلداً حراً.

وفي الدور السابع كان يقيم المليونير صادق عبدالعظيم تاجر الأقطان، استأجر الشقة ليقيم بضعة أيام في القاهرة. وهو مهتم بالحرب، ويتمنى أن تطول، فيرتفع سعر القطن، ويكسب مئات الألوف.

وهو يعتقد أن البلد تحول إلى مستشفى كبير للمجاذيب. إن كل شيء يسمعه اليوم في مصر يدل على أن الناس جنوا وفقدوا عقولهم. إن الحكومة تفكر في وضع قانون يمنع رجلاً واحداً أو أسرة واحدة أن تملك قرية بأكملها.

ومحمد خطاب عضو مجلس الشيوخ تقدم بمشروع قانون يطلب تحديد الملكية بحد أقصى قدره ٥٠ فداناً. وأخبار اليوم تطالب بفرض الضرائب التصاعدية. وكاتب عاقل مثل درويش مخلص كتب أمس في «آخر الأخبار» أنه لا ينقذ مصر إلا الحكم الإشتراكي.. ولقد قابل زوجته بهيجة في المصعد اليوم وسألها ماذا

يقصد زوجها بالحكم الإشتراكي، فقالت: مثل برنامج حزب العمال البريطاني. نؤمم تجارة القطن كما سوف يؤممون الفحم في انجلترا، وتصبح العمارة مثلاً ملكاً للسكان الذين يقيمون فيها ويشترك العمال في أرباح المصانع.

وكان المليونير صادق عبدالعظيم يعتبر هذه الآراء جنوناً مطبقاً، وأنها دليل لا يقبل الشك أن وباء أخطر من وباء الكوليرا بدأ ينتشر في البلاد.

وكان في كل شقة في العمارة قصة حب!

كانت وفية ابنة الرجل المتدين المحافظ محمود أبو بكر الساكنة في الدور الأول تحب جارها كمال الطالب بكلية الهندسة، وابن الدكتور العروسي الذي يطالب بإلغاء الأديان..

وكانا يلتقيان دائماً من نافذة الحمام، برغم أن جميع نوافذ محمود أبو بكر المطلة على الشارع مغلقة بالليل والنهار!

وكان الحب بريئاً طاهراً كله دموع وخفقات ونبضات.

وكانت فوزية ابنة المهندس لبيب برسوم المتحمس لحزب الكتلة ومكرم باشا، تحب الطالب شريف عبدالرازق ابن النائب الوفدي، وعضو عصابة الاغتيالات السياسية التي قررت قتل زعماء مصر وفي مقدمتهم مكرم باشا.. وكانت فوزية تلهو بحبها مع شريف، وتلهو في حبها مع شامل.

وكان الملازم شفيق ابراهيم حسين أحد الضباط الأحرار يحب جيلان ابنة العالم الدكتور سعيد. وكانت جيلان تتشاجر مع شفيق كل يوم لأنه يتأخر في العودة إلى بيته، ولا يستطيع أن يقول لها

الحقيقة. وهي أنه مشغول في اجتماعات الضباط الاحرار.. وكان حباً كله عذاب وانتظار وسهاد وقلق... فتاة تحب رجلاً بغير عنوان!

وكانت سعدية الخادمة في منزل الصحفي درويش مخلص تحب الأسطى مرسي الطباخ في شقة الأستاذ صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة. وكان حباً قوياً عنيفاً أكثر حرارة من فرن الأسطى مرسي..

وكانت الراقصة ببا تغازل أثناء دخولها وخروجها المليونير صادق عبدالعظيم، وكأنها أرادت أن تعده لساعة الضيق عندما يتخلى عنها الأمير عادل عمرو!

وهكذا كانت كل شقة تحب الشقة الأخرى، من وراء ظهر عم ابراهيم بواب العمارة العالم ببواطن الأمور والذي يعرف أن في قلب كل شاب وكل فتاة في العمارة حريقاً لم تصل إليه رائحة دخانه أو بعض لهيبه وشراره!

وفجأة اندلعت النيران في مطبخ شقة صبحي خالد، وامتدت النار من الفرن إلى الجدران، وحاول الأسطى مرسي أن يطفىء النار، ولم يستطع، فقد خرجت من نافذة المطبخ وامتدت إلى الشقة التي فوقه والشقة التي تحته.. وعلا الصراخ في كل العمارة «حريق.. حريق.. حريق.. وامتلأت العمارة بالدخان»..

وأسرع شريف عبدالرازق الطالب بكلية الحقوق يقفز درجات السلم وفي يده حقيبة. وفتحت فوزية باب شقتها في الدور الأول فوجدت شريف يجري في هلع فنسيت نفسها وجرت وراءه تناديه «شريف.. شريف.. إلى أين أنت ذاهب يا شريف»؟ ولكن

شريف لم يرد على صراخ الفتاة التي يحبها، فقد كان أول ما فعله عندما رأى الحريق أن أخرج القنابل التي يضعها في مخبأ تحت فراشه، ووضعها في حقيبة، وجرى بها خشية أن تصل إليها النيران وتفجرها وتفضح الجمعية السرية للاغتيالات.

وكان أول ما فكر فيه اللواء سعدون باشا هو كيف يخفي الأمير عادل الجالس في فراش ببا، ويخرج به من العمارة دون أن يراه أحد، فأسرع إلى شقة ببا، واقتحمها بغير استئذان، وأخذ الأمير من يده، ومضى يعدو به على درجات السلم.

أما الأستاذ محمود أبو بكر المتدين فقد جاء بالسجادة وبدأ يصلي، ودعا زوجته وابنته وفية إلى الصلاة ليوقف الله النار.

وكانت وفية تريد أن تذهب إلى شقة كمال المجاورة التي امتدت اليها النار لتساعد في إطفاء النار. ولكن والدها نهرها بشدة وأمرها بأن تقف معه لتأدية الصلاة..

ووقف الدكتور أحمد العروسي يشهد النار وهي تمتد إلى العمارة مبتسماً ثم يقول لزوجته الدكتورة دوريس فرج:

ـ ها هو حصن من حصون الرجعية يحترق...

وضحكت دوريس وقالت:

ـ البقية تأتي!

وأسرع الصحفي درويش مخلص يتصل بجريدته ويبلغها نبأ الحريق ويطلب إليها إرسال مصور.

ووقف المهندس لبيب برسوم يقول لزوجته:

ـ منذ أن خرج مكرم باشا من الحكم وكل شيء في البلد أصابه النحس!

وردت زوجته السعدية قائلة:

ـ إن هذا الحريق يؤيد نظرية النقراشي باشا بأن كل مال يجيء من الحرام لا بد أن يذهب.. إن صاحب هذه العمارة بناها من قوت الشعب ومن سرقات التموين!

وقالت الست زليخا وهي تمسح دموعها عندما دخل الدخان في عينيها وتقول لابنتها ببا:

ـ حسدونا.. حسدونا.. إنها عين الحساد!

وراح اللواء حسن باشا شفيق يصرخ ويقول:

ـ لو كان بينكم واحد فيه دم شركسي لاستطاع إطفاء الحريق!!

ووقف الدكتور ابراهيم حسين يقول:

ـ هذا يؤكد نظريتي بأن الإنجليز هم سبب كل الكوارث والمصائب. لقد أخبرني الأستاذ صبحي خالد أن الفرن سبب الحريقة، مصنوع في إنجلترا.. إن الإنجليز يقصدون إرسال أفران بشكل معين لتحرق كل عماراتنا وبيوتنا انتقاماً منا لأننا نطالبهم بالجلاء!..

أما الأستاذ صبحي خالد فكان يفكر في صفحة الوفيات التي ستظهر في اليوم التالي ويعرف منها كل أسرار العمارة!

ولكن زوجة الأستاذ صبحي اعتبرت الحريق تغيراً، وهو على كل حال خير من الحياة المملة التي تعيش فيها!

وقالت زوجة الأستاذ درويش مخلص للمليونير صادق عبدالعظيم الذي خرج إلى السلم يتفرج على النيران:

ـ ألم أقل لك؟ إن الإشتراكية هي الحل الوحيد.. إننا كلنا نقف نتفرج على النار دون أن نفعل شيئاً.. لو ان كل واحد منا يملك شقته، لاندفعنا نطفىء النار لأننا بذلك ندافع عن شيء نملكه. ندافع عن أنفسنا.. ندافع عن حياتنا.

قال المليونير ساخراً:

ـ على كل حال إن النار لن تصل إلي.. لأنني في آخر دور.

ولكن الخادمة سعدية لم تكن تملك شيئاً في العمارة.. لقد أسرعت تحمل المياه، وتقتحم اللهب وتحاول أن تطفىء النار. وحاولت بعض سيدات العمارة منعها خشية أن تحترق بالنار، ولكنها دفعتهن، وأصرت أن تشترك في عملية الإنقاذ.

وغمزت الدكتورة دوريس زوجها الدكتور أحمد العروسي المذهول من تصرف سعدية وقالت له:

ـ إنها تفعل هذا لأنها تحب الأسطى مرسي الطباخ.. وهي لا تطفىء نار العمارة لتنقذ العمارة، وإنما لتنقذ عشيقها.

قال الدكتور العروسي بمرارة:

ـ إن أخطر أعداء البروليتاريا هم الذين يخرجون عن صفوفها وينضمون إلى صفوف أعدائها..

وأقبلت سيارة المطافىء، وأرادت أن تدخل خراطيم المياه من المدخل الأمامي فاعترض عم ابراهيم البواب خشية أن توسخ أقدام

جنود المطافىء أرض البلاط اللامعة، ودرجات السلم اللامعة، ورخام المدخل اللامعة..

وأزاحه ضابط قوة المطافىءوقال له:

ـ بلاط إيه.. ورخام إيه.. ولمعان إيه؟ المهم الآن إنقاذ حياة السكان!

وتم إطفاء النيران.. وأخمدت المطافىء الحريق بسرعة هائلة..

وعاد سكان كل شقة إلى غرفهم يكملون حديثهم في كيفية إنقاذ مصر من الحريق الذي يهددها!

وعاد عم ابراهيم بواب العمارة يلمع بلاط المدخل ويلمع رخام الجدران، ويلمع درجات السلم من جديد..

ـ ٧ ـ

انتقلت الراقصة ببا إلى بيت الهرم لتقيم فيه بصفة مؤقتة، إلى أن يتم طلاء شقتها في عمارة العجوزة التي امتدت إليها النيران، فأفسدت طلاء المطبخ والحمام. وصحبت أمها ست زليخا في هذا الانتقال.

وكلف الأمير عادل صديقه اللواء سعدون باشا بمهمة استراتيجية جديدة، بأن يتفق مع مسيو ليمان مهندس الديكور الفرنسي المشهور أن يتولى طلاء شقة عشيقته الحسناء. ورأى سعدون باشا أن يجامل ببا فلم يطلب من المهندس طلاء الحمام والمطبخ اللذين أفسدهما الحريق فقط، وإنما طلب إليه طلاء الشقة كلها.

وزار مسيو ليمان الشقة ووضع تصميمات وديكورات وتغييرات، وتقدم برسومات جديدة حول فيها الشقة المفروشة بذوق حي البغالة في السيدة زينب إلى شقة جديدة مفروشة بذوق شارع الشانزلزيه في باريس، وطلب سبعة آلاف جنيه مقابل التغيير والتبديل والتجديد.

وجنت ببا بالرسومات الجديدة لشقتها، ولكنها تظاهرت أمام الأمير بالثورة والغضب والاحتجاج. . كيف ينفق الأمير هذا المبلغ الكبير في طلاء شقة؟ إنها امرأة تكره البذخ وتمقت الترف وتحتقر الإسراف. . إنها لا يمكن أن تقبل أن ينفق الأمير أكثر من خمسة جنيهات في طلاء المطبخ والحمام. إنها تحب حياة الفقر والبساطة. إنها سوف تشعر أن الأمير قد اشتراها بهذا المبلغ الطائل، سيحولها من سيدة حرة إلى عبدة من الرقيق، سينزل بها من ملكة إلى جارية. .

وتظاهرت ببا أنها تشاجرت مع أمها لأنها رحبت بهذه التغييرات الضخمة في الشقة وتحمست لها. واتهمت أمها أمام الأمير بأنها تتآمر مع الأمير ضدها ليذلها ويأسرها إلى الأبد بهذا السخاء، وهي المرأة التي لم يذلها أحد ولم يأسرها أحد من قبل!

وعندما عرف الأمير أنه سيأسر عشيقته ببا بهذا المبلغ صمم على ضرورة تنفيذ الديكورات التي اقترحها المسيو ليمان. . وعندما شعر المسيو ليمان بالمسرحية التي تقوم بها ببا عدل مشروعه ورفع نفقاته إلى عشرة آلاف جنيه!

وعندما تأكدت ببا أن المشروع بدأ تنفيذه، تظاهرت بأنها خاصمت الأمير احتجاجاً منها على إسرافه، وعلى تصوره أنها امرأة

يمكن أن يشتريها بعشرة آلاف جنيه!

ولم يشعر الأمير أن عملية إعادة طلاء بيت ببا وإعادة فرشه يكلفه كثيراً. كل ما كلفه أنه وقع ورقة بأنه يحتاج إلى مبلغ عشرة آلاف جنيه من اعتمادات حملة الجيش المصري في فلسطين!

كان الأمير عادل يشعر أن هذا مبلغ تافه مقابل النصر الذي حققه، عندما استطاع أن يقنع ببا بأن تنتقل إلى بيت الهرم بحجة طلاء بيتها. إن كل ما يهمه أن تبقى ببا في الهرم أطول مدة ممكنة حتى يبيت معها في بعض الليالي. ومن أجل هذا رحب بمشروع مسيو ليمان لتغيير الشقة وإخراجها في ثوب قشيب، لتتهيأ له الفرصة الذهبية للمبيت بين ذراعي ببا كما يشاء!

لقد حدث قبل ذلك الحريق أنه طلب من ببا أن تبيت معه ليلة واحدة في بيت الهرم، فأقامت الدنيا وأقعدتها عليه. إنه يذكر عندما طلبها من مكتبه في القيادة صباح أحد الأيام وقال لها بطريقة الألغاز التي كان دائماً يتبعها في أحاديثه التليفونية معها:

- إن صحتك في حاجة إلى عمليات تحليل وكشف كامل، وهذا يقتضي أن تمضي ليلة في المستشفى.

وصرخت ببا في انزعاج:

- هل جننت يا دكتور محمد؟. أتريد أن أمضي الليل خارج بيتي؟ إنني لم أفعل هذا في أي يوم من أيام حياتي!

وتوسل إليها الأمير في استعطاف وقال:

- أرجوك يا ببا. . لقد بذلت مجهوداً حتى استطعت إقناع الأميرة

نانوسة بأنني مسافر في رحلة إلى ميدان القتال.. وإذا لم تبيتي معي هذه الليلة فسوف أضطر أن أبيت وحدي..

قالت ببا وهي تبكي وقلبها يتقطع لأنها لا تستطيع أن تبقى ليلة كاملة بجوار حبيبها:

ـ وماذا أعمل يا دكتور؟ إنني أتمنى أكثر منك أن أذهب إلى المستشفى. إنني في أشد الحاجة إلى عمليات تحليل وكشف كامل.. ولكن الذي تطلبه شيء مستحيل.. أطلب حياتي، أطلب روحي، أطلب كل شيء إلا أن تطلب مني أن أبيت ليلة واحدة خارج بيتي..

وعاد الأمير يستعطف ويتوسل ويرجو..

ولانت ببا أمام توسلاته وقالت له:

ـ سوف أستأذن أمي.. انتظر على التليفون حتى أحصل منها على الإذن..

وتركت ببا الأمير ينتظر على التليفون ربع ساعة، ثم عادت تستأنف المحادثة وهي تبكي وتقول:

ـ لقد رفضت أمي.. ثارت في وجهي.. شتمتني.. هددت بأن تتبرأ مني.. قالت إن ليس لديها بنات يمضين الليل خارج البيت.. وأنذرتني بغضب الله الذي سوف يحل بنا.. قلت لها إنني ذاهبة إلى المستشفى. قالت: إنها ستصحبني إلى المستشفى لأنها لا يمكن أن تتركني أبيت وحدي خارج البيت..

واضطر الأمير أن يمضي الليلة وحده في بيت الهرم ومعه صديقه سعدون باشا ومنصور بك صلاح الدين يلعبون البوكر، إلى أن

أشرق الصباح وعاد إلى قصره في الزيتون لينام بعد أن روى للأميرة نانوسة زوجته قصة مخترعة عن زيارة سريعة قام بها لجبهة القتال في فلسطين..

ولكن الآن بعد أن انتقلت ببا إلى الهرم أصبح يستطيع أن يمضي بعض الليالي معها، كلما ذهبت أمها لتمضية ليلة في بيت ابنتها الصغرى زهرة..

إن الفضل لتحقيق حلمه السعيد يعود إلى مشروع مسيو ليمان بتعديل وتغيير شقة ببا بعشرة آلاف جنيه.. وما أتفه المبلغ، وما أعظم النتائج التي حققها بهذه الفكرة العبقرية..

ولكن مشكلة أخرى كانت تعكر صفو الأمير عادل وتضايقه في حياته السعيدة التي أصبحت تشبه الأحلام. كانت هذه المشكلة هي زوجته الأميرة نانوسة أو الأميرة جاموسة كما تسميها ببا!

إن من أحب الراقصة ببا لم يعد يطيق أن يقترب من زوجته الأميرة.. إنه يعطف عليها ولا يحبها.. يرثي لها ولا يكرهها.. ـ. إنها أصبحت قطعة متحركة من أثاث المنزل.. ولو أنها كانت قطعة أثاث ساكنة كالبيانو، وكالمقاعد وكالستائر، لاستطاع أن يتجاهلها. ولكنها قطعة أثاث متحرك، لها عيون، عيون كلها أسئلة، أو هو سؤال واحد توجهه إليه بعدة نظرات. كأنها تسأله بعدة لغات كأنها تسأله: أين أنت؟ لماذا لا تقوم بواجباتك الزوجية؟!

ولقد حاول أن يغمض عينيه لكي لا يرى هذه الأسئلة المسكينة فلم يستطع.. حاول أن يطفىء النور، ويغمض عينيه ويتصور أنها ببا، فلم يستطع.. حاول أن يستعيد ذكريات شبابها واللحظات

المشرقة في حياتها الزوجية، ولكنه بقي عاجزاً لا يقوى على الاقتراب من زوجته. . شرب كمية من الويسكي وذهب إليها ذات ليلة مصمماً أن يرجع ما انقطع، ولكنه وجد نفسه يتراجع أمام باب غرفة نومها ويعود إلى غرفة نومه لقد نام بجوارها عدة مرات، ولكنه أحس في كل مرة أن المسافة بينهما تزيد وتتضاعف.

إنها المرة الأولى في حياته التي تسيطر عليه امرأة واحدة. كأن ببا لها شبح خفي، يتبعه إلى فراش زوجته ويمنعه أن يخونها معها. إن ببا لم تطلب منه في يوم من الأيام أن لا يخونها. . لم تسأله عن علاقاته بالنساء الأخريات قبل أن يحبها. لم تسأله عن علاقته بزوجته. لم تطلب إليه أن يقسم أن لا يقرب امرأة، ولو كانت زوجته، كما فعلت معه المطربة إجلال. إن ببا تركته حراً يفعل ما يشاء، ومع ذلك لا يستطيع أن يخونها مع زوجته. لقد خان زوجته آلاف المرات. حدثت بينهما جفوات كثيرة، ولكنه كان دائماً يعود إليها، لم يحدث في يوم من الأيام أن رأى في عينيها هذا التساؤل الصامت الذي يعذبه ويحطم أعصابه.

إنه كلما اقترب من زوجته رأى صورة ببا. قارن بين شباب العشيقة وشيخوخة الزوجة بين النار الملتهبة والثلج البارد. بين امرأة تملأ رأسه بالنشوة، وامرأة تملأ رأسه بالصداع. بين قبلة تجعله يحس أنه طائر بجناحيه في السماء، وقبلة تجعله يصاب بالغثيان. . إنه وهو يقبل زوجته أصبح يشعر أنه يقبل عمته في شفتيها. كأنه يقبل جاموسة. وعندما يضع أصابعه على بطن ببا العاري يشعر أن في أصابعه كهرباء، كأن أصابعه سكرت وانتشت. كأن أصابعه تعزف على البيانو فيخرج لحن شائع مثير يلهب كل حواسه. ولكن عندما يضع هذه الأصابع نفسها على بطن زوجته يشعر كأنه يضع

أصابعه على بطنه هو، لا نشوة، ولا شهوة، ولا موسيقى، ولا كهرباء!

كان وهو بين ذراعي ببا يشعر أن خلايا مخه تتنشط، إن دمه يخف بين ذراعيها. لقد أصبح لأول مرة في حياته يمزح ويقول نكتاً تضحك ببا. . أصبح خفيف الروح. . ولكن بجوار زوجته أصبح متبلداً، كأنه يتحول فجأة إلى شيخ عجوز، غبي، بارد، ثقيل الدم، غليظ الروح. . إنه يترنح بين ذراعي ببا ويفيق بين ذراعي زوجته. . ببا هي الدوش الساخن، وزوجته هي الدوش البارد. . بل إنها أصبحت أسوأ من الدوش البارد، أصبحت أشبه بتيار الهواء الذي يخشى إذا اقترب منه أن يصاب بالزكام.

إنه يزهو بنفسه أمام عشيقته ويحتقر نفسه أمام زوجته. يشعر مع ببا أنه رجل عظيم، ومع زوجته أنه رجل تافه. كل شيء في ببا مشبوب، متحمس، حي، متحرك، ضاحك وباسم. . وكل شيء في زوجته فاتر، ميت، ساكن، عابس وكئيب.

ما أغرب امرأة تجعله يتصابى وامرأة تجعله يشيخ. امرأة يشعر بجوارها أنه حكيم وامرأة يشعر بجوارها أنه أحمق. امرأة مشرقة كالربيع، وامرأة كضباب الشتاء. امرأة يحس بين ذراعيها أنها حبيبته وعشيقته وصديقته ورفيقته، وامرأة أخرى يحس كأنها أخته العانس وعمته وخالته وكل ما حذرت الكتب المقدسة على الرجل أن يلمسه وحرمت أن يقترب منه!

إنه كلما نظر إلى صدر زوجته العاري تذكر الصدر الأعظم الذي كان حاكماً لتركيا في وقت من الأوقات، وكلما نظر إلى صدر ببا أحس كأن كل سنتمتر فيه يناديه ويدعوه.

إنه لا ينسى يوم قبل ببا للمرة الأولى. لقد مكث عدة أيام يتعذب بلمس يدها فقط، بإصرارها أن يقنع بالصداقة بدلاً من الحب، وفي ذلك اليوم تمنى أن يقبلها. وكانت في فمها سيجارة، كأنها فهمت عذابه وشوقه إلى القبلة، فأرادت أن تكون السيجارة المشتعلة سداً بين شفتيه وشفتيها، ورأى دخانها الباهت المتصاعد من سيجارتها يظلل وجهها ويزيده فتنة وجمالاً، ولم يتمالك نفسه، وقرب شفتيه من شفتيها، واحترقت شفته بنار السيجارة، ولكنه لم يحس باحتراق شفتيه، وإنما أحس بطعم قبلتها الساخنة! ولكنه عندما يرى زوجته وفي فمها سيجارة يتمنى أن تستبدل السيجارة بسيجار حتى تطول المسافة بينهما!

إنه يشعر وهو جالس مع ببا كأنه يغوص في مقعد مريح، ويشعر وهو جالس مع زوجته كأنه واقف على قدميه. حديث عشيقته أشبه بنزهة في حديقة غنّاء بضوء القمر، وحديث زوجته أشبه برحلة مرهقة في صحراء التيه، عشيقته كالوردة يحب أن يشمها، ويلمسها، ويستمتع بالنظر إليها، ويتلذذ بأشواكها وهي تؤلمه. وزوجته كالحشيش الأخضر يحب أن يدوس عليه بقدميه. إنها أشبه بأوراق الخريف المتساقطة، بالخضرة الذابلة، بأرض أجدبت، وخول الزمن كل ما فيها إلى خراب!

واحدة منها تضرم فيه النار، والأخرى تطفئها. واحدة تبعث كل رجولته، والأخرى تدفنها. واحدة تشعره أنه يرتدي بيجاما، والأخرى تقنعه بأنه ملفوف بكفن. واحدة تجعله يرتجف من الحرارة والأخرى تجعله يرتجف من البرد. واحدة جعلته يجد نفسه ويكتشفها، والأخرى جعلته يتوه عن نفسه، كأنه أصبح رجلاً بلا اسم ولا صناعة ولا عنوان، كأن زوجته هي التي أضاعته وعشيقته

هي التي وجدته.. إنه مع عشيقته يحس بأن الدنيا بين ذراعيه ومع زوجته يحس أنه وحده في الحياة، معزول عن العالم، مفقود ومجهول...

إن أقسى فترة تمر على المرأة هي التي تشعر فيها أنها أصبحت عديمة الفائدة للرجل. كأنها زجاجة ويسكي غالية الثمن، كانت تقف على مائدة البار في منزل صاحبها مزهوة، فخورة، يأخذ منها قطرات تنشيه وتسكره، ثم فرغ ما في الزجاجة من ويسكي، وانتهت مهمتها في البار الأنيق، وأصبحت تشعر أن مصيرها هو أن تلقى في صفيحة القمامة، أو توضع في المطبخ لتمتلىء بالغاز الرخيص!

ولقد حاول الأمير أن يطمئن زوجته. كان يمسح شعرها بيده. وكانت أصابعه تتقزز وهو يقوم بهذا العمل الخيري.. كان يتجاهل أسئلتها المتضرعة بالتحدث عن أعماله الكثيرة المتشعبة. كان يحاول أن يكون رقيقاً، ولكن رقته كانت تفضحه. كان يخدعها بالكلمات المعسولة، ولكنها كانت تفضل لو أنه شتمها بلسانه، ولامسها بجسده. كان يعرف أكثر منها أن حنانه أصبح سمجاً، وأن عواطفه أصبحت عواطف رسمية شفهية!

إن الزوجات يعتبرن العلاقة الزوجية مثل مباريات الدوري، يجب أن تتم في مواعيد معينة.. والزوجة تستعد لكل مباراة من مباريات الدوري كأنها مباراة الكأس.. تنتظرها، وتشتاق إليها، وتتعطر من أجلها، وتجلس في فراشها كمتفرج للعبة كرة القدم يتوقع مباراة الموسم.. فإذا فوجئت الزوجة بإلغاء المباراة، أو بتأجيلها، فقدت صوابها!

والزوجات عادة يصبن بعد سنوات من الزواج باحتشام، بخجل تصنعه العشرة، وهذا الاحتشام يجعلها أكثر حساسية من العشيقة، فإن العلاقة بين الرجل وعشيقته تجعل المباراة يومية أو شبه يومية، ولكن العلاقة بين المرأة وزوجها تجعل العلاقات دورية، وقد تتطور إلى علاقات موسمية!

وبعض الزوجات ييأسن من كثرة تأجيل المباريات، فيعدلن عن هواية لعبة الكرة ويهوين لعبة أخرى.. وتصبح العلاقة بين الزوجة وزوجها قاصرة على قبلة التوديع الصباحية وقبلة الاستقبال المسائية. وتشعر هذه الزوجة أنه لم يعد من حقها أن تطمع في شوق زوجها الدوري. وتحاول أن تقنع نفسها بأن زوجها هو الآخر اعتزل لعب الكرة، أو تعود نفسها على أنه يلعب في أرض أخرى.. ويحدث هذا عندما تتأجل المباريات، ثم تؤجل إلى أجل غير مسمى، ثم تلغى نهائياً!

ولكن الأميرة نانوسة فوجئت بتوقف مباريات الحب بينها وبين زوجها وجرح هذا التوقف شعورها، وحطم أعصابها، فأصبحت تتشاجر مع أولادها وتتشاجر مع خدمها، وتثور لأقل سبب.. وكل من في القصر في ذهول لحالة الأميرة العصبية، ولكن الأمير عادل كان يعرف سر ثورة أعصاب الأميرة.

وذات صباح دخل الأمير عادل عمرو إلى غرفة نوم زوجته الأميرة نانوسة، وجلس على حافة فراشها، وقبلها قبلة الصباح، وتعمد أن يطيل القبلة أكثر من المعتاد. ثم انهمرت الدموع من عينيه...

وبدا الجزع على وجه الأميرة وسألته لماذا يبكي؟

ورفض الأمير أن يقول شيئاً. وألحت الأميرة عليه أن يتكلم وقالت له في تأثر:

ـ أنا شريكة حياتك، أنا زوجتك، أنا أم أولادك، من حقي أن أعرف ماذا يبكيك؟

قال الأمير عادل وهو يجفف دموعه:

ـ إنني لم أخف عنك أي شيء في حياتي. كل مغامرة غرامية حدثت لي، حتى المغامرة التافهة كنت أعترف بها. ولكنني في هذه المدة الأخيرة أخفي عنك شيئاً حتى لا أزعجك، لأنني أخشى لو أخبرتك به أن يتضاعف انزعاجك.

قالت الأميرة في لهفة:

ـ ماذا حدث؟ هل غضب الملك عليك؟

قال الأمير:

ـ ليت الملك غضب علي.. إن غضب الملك لن يعذبني أكثر من العذاب الذي أعيش فيه الآن..

قالت الأميرة وقد شعرت أنها مقبلة على سماع مصيبة كبرى:

ـ كيف تخفي عني عذابك؟ إن واجبي أن أحمل عنك نصف هذا العذاب.

قال الأمير عادل:

ـ إنك تتحملين أغلب هذا العذاب.. تتحملينه ببطولة.. ولقد كنت قررت أن أخفي عنك كل شيء، ولكنني لم أعد أحتمل أن

أراك تتعذبين، وأنا أتعذب أيضاً. . إنني أشكو آلاماً حادة في البروستاتا. إنها آلام لا تطاق. ولقد عرضت نفسي على الأطباء، فقالوا إنها ممكن أن تتطور إلى حالة خطيرة تؤدي إلى الوفاة، وإنه يجب أن أتوقف عن أي علاقة جنسية أثناء العلاج. . ورضيت بهذا العلاج، ولكنني لم أستطع. . كنت أريد أن أخالف تعليمات الأطباء، وأجيء إليك، ولكني كنت أتوقف أمام بابك. كنت أتذكر الموت فأخاف منه، وأتراجع. . ولكنني لم أعد أتحمل هذا العذاب بابتعادي عنك. . لم أعد أتحمل هذا الجحيم. . سوف أخالف الأطباء. . وليحدث ما يحدث!

قالت الأميرة في عطف وحنان:

ـ لا يمكن أن أسمح لك بمخالفة الأطباء. . إن حياتك عندي تساوي متع الدنيا كلها. . لقد تمتعنا عشرين سنة. . إن هذه ذكرى جميلة يمكن أن نعيش عليها باقي حياتنا. . إنك لم تشقني بهذا النبأ، إنك أسعدتني. . إنني على الأقل سوف أكون مطمئنة وواثقة ومتأكدة أنك لن تقوم بمغامرات كمغامراتك المجنونة مع المطربة إجلال. .

وضمت الأميرة زوجها في حب وحنان. .

وقام الأمير عادل، وأغلق باب غرفة نوم زوجته، واتجه إلى غرفة نومه، وهو يضحك!

إنه بهذه الأكذوبة استطاع أن يجيب على كل تساؤلات زوجته الضارعة. كانت هذه التساؤلات تضايقه أشبه بعويل طفل مستمر لا يعرف كيف يسكته، أشبه بعواء كلب تحت نافذته يمنعه من النوم بهدوء.

لم يعد في حاجة بعد اليوم أن يجهد رأسه في ابتكار الأعذار، واختراع الأسباب. إن تنهداتها لن تعذبه. . إن سخريتها لن تؤلمه وتجعل جبينه يندى بالعرق. . إنه الآن يستطيع أن يخلص لبيبا بجسده كما أخلص لها بقلبه وروحه ومشاعره. . إنه استطاع أن يقنع زوجته بأن الأطباء منعوه من الاقتراب من أي امرأة، فلا غيرة بعد اليوم، ولا ملاحقة، لن تشمه زوجته عندما يعود كل ليلة إلى القصر، وهي تتظاهر بأنها تقبله، بينما هي تبحث بأنفها عن رائحة امرأة أخرى، وهو في كل مرة تقبله يشعر بنفس الذعر الذي يحس به المجرم عندما يقترب منه الكلب البوليسي.

لن تفتش زوجته مناديله وملابسه الداخلية بحثاً عن بقايا أحمر الشفاه، سيصبح في نظر زوجته ملاكاً طاهراً فوق الريب والشبهات. . سوف يعيش لأول مرة في بيته حراً بغير بوليس سري يراقب سيره ويتتبع خطواته، بغير شارلوك هولمز يكتشف جرائم الخيانة الزوجية بكفاءة كانت تذهله دائماً. .

إنه لم يستطع مرة واحدة أن يخفي علاقة غرامية عن زوجته. . كانت تفضحه شعرة شقراء تتركها امرأة على جاكتته، أو خطاب غرام تضبطه زوجته في جيبه، أو وشاية صديقة لها، أو زلة لسان صديق له أثناء تحقيق تقوم به زوجته!

وكان دائماً يستطيع أن يعالج الأزمة بأن يرضي جسد زوجته. . فإذا أسكت جسدها الذي يثرثر، استطاع أن يسكت فمها. كان قادراً دائماً أن يفعل ذلك، كأنه يسحق سيجارة من طرفها المشتعل في منفضة، ثم يشعل سيجارة من ماركة أخرى. .

كان يومها لا يفرق بين طعم زوجته وطعم عشيقته. كان طعم

عشيقته يبقى في فمه فلا يشعر بالغثيان وهو يضع سيجارة زوجته في فمه. ولكنه منذ أحب ببا لم يعد يستطيع أن يعامل جسد زوجته كأنه سيجارة يشعلها. لقد عودته ببا على نكهة معينة من السجائر، وجعلته مدمناً عليها، فإذا أشعل سيجارة أخرى سعل، وامتلأت عيناه بالدموع.

كأن الرجل يستطيع أن يرضي زوجته ويرضي خليلته. ولكنه عندما يحب يعجز عن أن يقترب من زوجته، ينفر منها، يفقد ملكة التمثيل وقدرته على الخداع.. كأن سلطان الحب تحكم في حواسه ووضع القيود في كل مكان من جسده.. كأنه مربوط بحبل سري إلى المرأة التي يحبها، لا يستطيع الفكاك منها.

إن المرأة العاهرة تسعد بأي رجل، ولكن عندما تحب رجلاً تتحول إلى آلة ميكانيكة.. تتعذب وهي تمارس مهمتها التي كانت تقبل في أول الأمر على ممارستها بلذة وشوق.. وكأن الرجل عندما يحب حباً كاملاً لا يستطيع أن يتحول إلى آلة ميكانيكية، إنه يصاب بعجز كامل.

وتتصور الزوجة في الأحياء البلدية عندما تحدث هذه الحالة لزوجها أن امرأة من الجان ربطته، فتسرع إلى المشعوذين والسحرة لتفك هذا الرباط.. ولكن الحب الحقيقي هو الذي يربط الرجل، يقيده، وعندما يضعف الحب يبطل السحر!

وأحس الأمير عادل بأن القدر يزيل كل العقبات من طريق حبه، كأنه يحالفه في معركة الهوى والغرام. إن عثوره على بيت الهرم البعيد عن العيون والرقباء كان معجزة. ونقله من ميدان القتال في فلسطين إلى القاهرة ليكون قريباً من عشيقته كان معجزة.

وأكذوبة مرض البروستاتا التي اخترعها ليحل بها إشكالات الحاضر وأزمات المستقبل أكبر من معجزة. كل هذا يدل على أن القدر يفرش طريقه بالورود بدلاً من طريق الأشواك.

حتى قيام الحرب بين العرب واليهود خدم حبه. منحه فرصاً ذهبية ليبيت خارج القصر محتجاً للأميرة زوجته أن واجبه كضابط كبير في الجيش المصري أن يطير إلى فلسطين ويرفع روحهم المعنوية.

إن ببا هي الجيوش التي يتفقدها.. قبلاته هي الطبول التي تتحرك الجيوش على دقاتها.. كل رأسه مشغول بخطط الانقضاض عليها.. اهتماماته محصورة في تموين الجيوش بشراء العشاء من مطعم الارميتاج أو مطعم اليونيون أو مطعم جروبي، وبشراء الخمور لبيت الهرم. إن أهم ما تحتاج إليه الجيوش هو التموين.. ولكن سلاح التموين أصبح يتعبه في هذه الأيام.

لقد كان يعتمد في التموين على ياوره الصاغ عبدالمنعم بيومي. ولكنه فوجىء بياوره يرفض القيام بهذه المهمة الخطيرة، ويتقدم بطلب مكتوب ليسافر إلى ميدان القتال.. وأراد الأمير أن يفهم من ياوره سر إصراره على السفر إلى فلسطين، ولكنه فوجىء به يكرر إصراره في عبارات حازمة. وعندما قال الأمير إنه يرفض الموافقة على سفره، قال الصاغ عبدالمنعم بهدوء غريب:

ـ إذن، سوف أضرب نفسي بالرصاص!

واعتقد الأمير أن ياوره أصيب بلوثة عقلية، ونصحه بأن يأخذ إجازة أسبوع يستريح فيها، ولكن عبدالمنعم أصر على أن يسافر فوراً إلى فلسطين ليموت هناك.

واضطر الأمير أن يوقع على مضض موافقته على سفر ياوره إلى فلسطين ولكنه أحس بعد أن وقع الطلب بأنه فقد بهذا التوقيع سلاحاً من أهم أسلحته في معركة غرامه مع ببا، وهو سلاح التموين!

من الذي سيتولى إحضار الطعام والويسكي والخمور إلى بيت الهرم؟

إنه لا يمكن أن يطلب من ببا أن تقوم بهذه المهمة، لأن ليس من كرامتها ولا يتفق مع مركزها كعشيقة الأمير أن تتولى مثل هذه المهمة. . .

وفكّر الأمير في الأميرالاي عباس الشمردلي ممثل سلاح التموين وسلاح خدمة الجيش في مركز القيادة في فلسطين. إنه بحكم منصبه خبير في عمليات شراء الأطعمة للجيش، وهو صديق مخلص له، فهل يوجد خير منه ليتولى هذه المهمة، بعد أن تخلى ياوره عبدالمنعم بيومي عن واجبه في هذا الظرف العصيب؟ وأبرق الأمير عادل إلى قيادة الجيش في رفح، يطلب إليها إرسال الأميرالاي عباس بك الشمردلي إلى القاهرة لمهمة عاجلة، في أول طائرة!

واستراح الأمير عادل بعد أن أصدر أمره. إن المهمة التي رفض ضابط صغير برتبة صاغ أن يتولاها، سوف يتولاها ضابط كبير برتبة أميرالاي!



استعدت الطائرة الحربية للإقلاع من مطار العريش في طريقها إلى القاهرة. أقفلت أبواب الطائرة. وبدأ الطيار يدير محركات الطائرة. وإذا بسيارة عسكرية تدخل مندفعة من باب المطار، وتتجه إلى الطائرة وتقف أمامها وينزل منها بكباشي بدين وهو يلوح بيديه

ويهرول نحو الطيار ويصيح فيه:

قف. . لا تتحرك!

ولم يستطيع الطيار أن يفهم حركات البكباشي المفزوع، فقد ضاع صوته في ضوضاء محركات الطائرة. وأوقف الطيار المحركات، وفتح باب الطائرة يسأل في دهشة:

ـ ماذا حدث؟

وقال البكباشي البدين وهو يلهث:

ـ صدر أمر بوقف سفر الطائرة وإنزال الركاب!

قال الطيار:

ـ كيف أنزّل الركاب؟. أين أضعهم؟ إنهم كلهم ضباط جرحى حملتهم سيارات الإسعاف إلى الطائرة، وانصرفت سيارات الاسعاف. .

قال البكباشي:

ـ تصرف. . هذه هي الأوامر!

قال الطيار:

ـ كيف أتصرف؟. . لقد جاؤوا إلى هنا فوق نقالات. . ولا يوجد نقالات. . وهم في حالة لا تسمح لهم بالتحرك من أمكنتهم. . يمكن لك أن تتصل بالمستشفى بالعريش ويرسل سيارات إسعاف ونقالات لحملهم. .

قال البكباشي وهو ينظر إلى ساعته:

- لا يوجد وقت لهذا.. سأحضر بعض الجنود ليحملوهم.

قال الطيار وهو يتوسل إليه:

- إنهم في حالة يرثى لها. جروحهم خطيرة. وقد عجز مستشفى الميدان عن علاجهم، وأمر بنقلهم فوراً إلى القاهرة لعلاجهم.

قال البكباشي بحزم:

- هذا ليس من شؤوني.. الأوامر هي الأوامر..

يجب إخلاء الطائرة فوراً؟

وأمر البكباشي سائق سيارته أن يذهب لإحضار بعض الجنود الذين يحرسون المطار..

وجاء الجنود، وفتح لهم الطيار باب الـطا ، وطلب إليهم أن يحملوا الجرحى برفق..

ولكن البكباشي صرخ فيهم:

- سريعاً.. سريعاً.. لا وقت عندنا!

وصعد الجنود إلى داخل الطائرة، وحملوا الجرحى، بلا عناية، وبغير رفق وبلا اهتمام كأنهم يحملون أكياساً فوق ظهورهم.

وسألوا البكباشي بعد أن هبطوا بهذه «الأكياس» من الطائرة:

- أين نضعها؟

قال البكباشي:

- ضعوها على الأرض.. ولكن أبعدوها عن الطريق حتى لا

يراها سعادة الاميرالاي!

وجاءت سيارة كبيرة تتهادى، وخلفها ثلاث سيارات تتهادى وراءها، وأسرع ضابط يفتح السيارة، وخرج منها الأميرالاي عباس بك ممثل سلاح التموين وخدمة الجيش..

ولحق به عدد من كبار الضباط الذين جاؤوا لتوديع الأميرالاي.

وقال له الأميرالاي شعبان بك شعيب أو الأميرالاي «ش. ش» وهو يضغط على يده:

- يظهر أنها مهمة كبيرة يا عباس بك، ربنا يوفقك!

وانتفخ عباس بك الشمردلي كالديك الرومي وقال:

- إنها ليست أول مهمة خطيرة يكلفونني بها!

قال اللواء حماد باشا قائد المشاة:

- لا تتواضع يا عباس بك.. إن صيغة البرقية تدل على أنها مهمة خطيرة.. خطيرة جداً.. أنت الآن أملنا كلنا.. أمل الأمة..

وتظاهر الأميرالاي الشمردلي بك أنه يعرف المهمة ويتكتم أمرها، وابتسم ابتسامة الرجل الذي يعرف كثيراً ولا يريد أن يقول شيئاً، وأقبل على كبار الضباط يصافحهم واحداً واحداً، ثم صعد إلى الطائرة ومعه ياوره، وسائق سيارته، واثنان من جنود المراسلة الذين يعملون في خدمته.

وتحركت الطائرة بسرعة تحمل الأميرالاي الشمردلي بك أمل الأمة . . لشراء الويسكي والطعام لجرسونييرة الأمير عادل عمرو في بيت الهرم!

وما كادت الطائرة تختفي في السحب، حتى هبطت طائرة حربية أخرى إلى مطار العريش، ونزل منها عدد من الضباط بينهم الصاغ عبدالمنعم بيومي، وهو يحمل حقيبة صغيرة في يده، ورأى عبدالمنعم من بعيد اللواء حماد باشا يتهيأ لركوب سيارته بعد أن انتهى من وداع صديقه الأميرالاي عباس بك الشمردلي، وأسرع عبدالمنعم لتحية حماد باشا الذي دهش لرؤية عبدالمنعم ظل الأمير عادل بغير الأمير عادل، وسأل حماد باشا بلهفة:

ـ هل الأمير قادم في الطائرة التالية؟

فأجاب عبدالمنعم أنه لا يعرف شيئاً، وأنه ترك عمله كياور للأمير وسوف يحارب في الصفوف الأمامية.

وبعد أن كان حماد باشا يهش ويبش في وجه عبدالمنعم انقلبت سحنته، وتحولت إلى سحنة رسمية، متعالية، وراح يحدثه بأسلوب الضابط الكبير مع الضابط الصغير.

وأدار حماد باشا ظهره، ولم يعرض على الصاغ عبدالمنعم أن يصحبه معه في سيارته إلى رفح، كما كان يفعل دائماً ويتشرف، حينما كان عبدالمنعم ياور الأمير عادل. ووقف عبدالمنعم مبهوتاً، وهو يرى السيارات الثلاث تنهب الأرض خارجة من باب المطار، فمشى في أرض المطار فوجد أكواماً مغطاة ببطاطين عسكرية. . وسأل أحد الجنود الواقفين عن هذه الأكوام فقال إنه لا يعرف، وأجاب جندي آخر من هؤلاء: هم الجرحى الذين أنزلوا من

الطائرة التي سافرت إلى القاهرة تحمل الأميرالاي عباس بك الشمردلي.

ودهش عبدالمنعم أن يترك الجرحى في هذه الحالة مرميين على أرض المطار، فاقترب من أحدهم، ورفع البطانية العسكرية فوجد كتلة حمراء من الدم تغطى بضمادات بيضاء ملوثة بالدم حتى اختفى كل أثر للبياض فيها، ورأى من خلال الضمادات عينين فيهما ألم صامت، فيهما صراخ بلا صوت. وتجمد عبدالمنعم في مكانه وسأل الرجل المغلف بالضمادات، وكأن كل شيء فيه ممزق ومحطم ومجروح، عن اسمه؟

قال الجريح بصوت محشرج يقطعه الأنين:

ـ الصول نجيب حلمي.

قال عبدالمنعم:

ـ أين أصبت؟

قال الجريح وهو يتأوه:

ـ خير أن تسألني أين لم أصب؟ إنني أصبت في كل مكان؟

قال عبدالمنعم:

ـ من أي كتيبة أنت؟

قال الجريح:

ـ كتيبة الفدائيين بقيادة الصاغ علاء الدين.

ومـا كاد عبـدالمنعم يسمع اسم صـديقه عـزيز عـلاء الدين حتى اتسعت عيناه وامتلأتا بالرعب والدهشة والخوف، وقال وكأنه يخشى أن يسمع رداً على السؤال الذي كان يعذبه عدة أيام:

ـ هل مات عزيز علاء الدين؟!

ـ قال الصول وهو يبكي:

ـ ليته مات. . . . لقد أصيب بشر من الموت!

وكتم عبدالمنعم صرخة تجمعت بين شفتيه وقال:

ـ أين هو؟

قال الصول:

ـ تجده هنا تحت أحد هذه البطاطين. .

وهرع عبدالمنعم إلى الأكوام المغطاة بالبطاطين. يرفع البطانية ثم يعيدها لأنه لا يجد تحتها عزيـز، وعند البـطانية الأخـيرة وجد عـزيز علاء الدين. أو بقايا عزيز علاء الدين!

وتراجعت عيناه في ذعر. وصرخ عبدالمنعم صراخاً مجنوناً:

ـ عزيز. . عزيز. . عزيز. . أنـا عبدالمنعم يـا عزيـز. . أجب يا عزيز. . أنا عبدالمنعم بيومي.

ولكن عزيز لم يجب إلا بأنين متقطع، أنين مرتعش.

وقـرب عبدالمنعم أذنـه من شفتي عزيـز ليتبين كلماتـه، ولكنه لم يسمـع إلا تأوهـات. كان كـل شيء فيه يتـأوه ويتألم ويصرخ ويتعـذب ويستغيث!

وعاد عبدالمنعم إلى الصول الأول الذي بدا وحده كـأنه الجـريح الناطق بين الجرحى الخرس، عاد يسأله كيف أصيب عزيز؟

وفتـح الصـول نجيب حلمي فمـه وقـال إنـه يـريـد أن يشرب أولاً . .

وأسرع عبدالمنعم يعدو ويـطلب من الجنود أن يـأتوا بسرعـة بماء للجرحى الذين تركوهم مهملين في أرض المطار. .

وعاد يحمل زمزمية فيها ماء، وأسرع بها أولاً إلى عزيز وقربها من شفتيـه، ولكن عزيـز لم يفتح شفتيـه، فحمل عبـدالمنعم الزمـزميـة وراح يسكب بعض ما فيها في شفتي عزيز، ثم عاد إلى نجيب وقرب من شفتيه، وإذا بنجيب يشرب كل الماء الذي في الـزمزميـة، وبعد ذلك يفتح عينيه ويتكلم:

ـ كنا تسعة عشر ضابطاً وجندياً بقيادة الصاغ عزيز علاء الدين. كـان تحت إمرته يوزباشي وثلاثـة ملازمـين وصول و١٤ جنـديـاً. وكـانت مهمتنا أن ننسف أحـد مواقـع العدو الأمـاميـة. وانتـظرنـا الليل، وزحفنا على بطوننا، وحطمنا الأسلاك الشائكة، وكنا نحمل مدفع هاون وعشر قذائف، ومدافع رشـاشة وقنـابل يـدوية صغـيرة وجهـاز إرسال واستقبال واقـتربنا من الهـدف وفجـرنـا القـذائف، ودمـرنا مـدافع العـدو، وأحدثـنا إرباكـاً في قـوات العـدو، وسقط عشرات من قتلى وجرحى اليهود. وبعد أن انتهت عمليـاتنا، بـدأنا ننسحب. وإذا بقوات العدو تحيط بنا، واستطاع الصـاغ بشجاعتـه الفائقة أن يقتحم الحصار ويشق لنا طريق الانسحاب، وذهل العدو من هـذه الحركـة المفاجئـة، وأخذ يـطلق نـيران مـدافعـه عـلى غـير هـدى. . واستطاعت قـوتنا أن تصـل إلى قمـة تـل، دون أن يقتـل

واحـدمنها، لقـد أصيب ثلاثة منهـا بالـرصـاص، وحملنـاهم عـلى ظهورنا. . لم نترك للعدو قطعة سلاح. كانت أوامر الصاغ عـزيز أن لا نطلق رصاصـة واحدة إلا لنقتـل. فإذا لم نتـأكد أننـا سنقتل فـلا داعي لأن نضيع رصاصة واحدة.

واستطعنا أن نحصن أنفسنا فوق التـل. واحتفظنـا بموقعنـا حتى الصباح، واتصلنا باللاسلكي بالقيادة وطلبنـا إليها إرسـال إمدادات أو إلقاء مدافع في موقعنا بالبراشوت، ولكن لم تجيء أي طائرة. .

وفي الصباح بدأ العدو يدفع بمجموعات تحاصر التـل. . وأصدر الصاغ عزيز أمراً بأن نتوقف عن إطلاق النار ونتظاهر بـأن ذخيرتنـا فرغت. . ونجحت الخدعة وصعد حـوالي ثلاثين جنديـاً إسرائيلياً بمدافعهم الرشـاشة، ومـا كادوا يصلون إلى أعـلى التل حتى خـرجنا إليهم وقتلناهم جميعاً، ولم يقتل منا سوى الشاويش عبـاس خضير. وقال الصاغ عـزيز إن الـذخائر والأسلحة التي استـولينا عليهـا من العدو تكفي لنصمد لليوم التالي حتى تجيء الطائرة التي تحمل لنا ما طلبنا من مدافع وذخائر. .

ولكن الطائرة المنتظرة لم تصل. وبدأت ذخائرنا تتنـاقص. ولكن العدو لم يفطن لذلك، بل تصور أننـا نخدعـه كما خـدعناه في المـرة الأولى. وبدأ الطعام ينتهي حتى أننا في اليـوم الأخير تقـاسم العشرة منا الباقون على قيد الحياة رغيفاً واحداً!

ولم يضعـف واحد منا. كـل واحد منـا شعر أنـه أصبح بـطلاً. . القيادة المؤمنة حولتنا إلى أبطال. . كان الصاغ يقول إن القـائد ليس هو الذي يصـدر الأوامر بـالهجوم، بـل الذي يتقـدم الهجوم. كـان يختار المراكز الخطرة لأكبرنا رتبة. والمراكز الأقل خطورة لأقلنا رتبـة.

كـان الخلاف الـوحيد بيننـا هو إصرار كـل واحد منـا أن يتقدم إلى الخطر.

ولاحظ الصـاغ عزيـز أننا نمضي وقتـاً نتطلع إلى السحب نبحث عن الطائرة التي سترسلها لنا القيادة. فأصدر أمـراً يمنعنا أن نتـطلع إلى السحب. قال لنا إنه لا بد أن طـائراتنـا تقوم بمهمـة أخطر من إنقاذنا. . علينا أن نعتمد على أنفسنا.

وفي اليوم الأخير جمعنا الصاغ عـزيز وقـال لنا إنـه قرر أن يـطلق علينا اسم «كتيبة الساموراي» وإن كل واحد منا هو ساموراي. .

وسـألناه مـاذا يعني بكلمة «السـاموراي»؟ قـال الصاغ عـزيز إن «السـاموراي» في اليـابان معنـاها فـارس الشرف. . الرجـل الـذي وهب حياته للمعركة، للقتـال، للموت. . الـرجل الـذي يخفي في أعماقه صفات البطولة والكبريـاء والفداء والإيمان كما تختفي خيـوط الماس في الصخور. . وعندما يفشل السامـوراي في تحقيق هدفـه لا يجـد أمامـه إلا الانتحـار. . يجلس القـرفصـاء أمام جمع كبـير من الفـرسـان والنبـلاء، ويمسـك بحـد السيف، ويشق بـطنـه طـولاً وعرضاً، ثم يضرب أحشاءه الضربة القاضية. . إنـه يغسل الهـزيمة بالدم. ونحن ليس أمامنا الآن إلا أن نتحـول إلى فرقـة انتحاريـة. ننتحر لا بطريقة الساموراي، لن ننتحر أمـام الفرسـان والنبلاء كـما يفعـل اليابانيون، وإنما سننتحـر أمام تـاريخ بـلادنا، وهـو فـارسنـا النبيل. سننتحر، إنما بطريقـة أبطال الإسلام في صدر الإسلام. . نحارب إلى أن نموت والسلاح في أيدينا. . نحارب لنمـوت. . ولن نموت وحدنا، سنأخذ معنا إلى القبر أكبر عدد من أعدائنا. إن كلمة السر للهجوم ستكون «ساموراي»!

وأمرنا بأن ننقض من أعلى التل ونهاجم القوات التي تحاصرنا، ومشى الصاغ في مقدمتنا يحمل مدفعه الرشاش وصرخ إننا جننا. وقد جننا فعلاً، ورحنا نضرب ونحن نهتف:

الله أكبر! الله أكبر! . . وجثث العدو تتساقط، وانهالت علينا النيران، ولكننا مضينا في هجومنا نضرب بجنون ونصرخ بصوت رهيب: الله أكبر! الله أكبر!

وأصبنا جميعاً. . كنا عشرة فبقي منا أربعة على قيد الحياة. . ولكننا بقينا أنصاف أحياء وأرباع أحياء. . وفرت كتيبة العدو من أمامنا، وقد تصورت أن قواتنا جاءت لنجدتنا. . وتفرق العدو في فزع وهرب، وقد اختلط صراخ «الله أكبر» بصراخ المدافع الرشاشة.

وأقبل الليل ونحن عشر جثث ملقاة على سفح التل. . ولم يبق جندي إسرائيلي واحد على سفح التل. . لقد انتصرنا ونحن موتى. وانهزم العدو وهو حي!

وأقبلت كتيبة مصرية في الصباح وفوجئت بنا.

وكانت قنبلة قد هشمت يدي الصاغ عزيز. . واستقرت ست رصاصات في جسمه. . استشهد اليوزباشي محمد فهمي، والملازمون أحمد لطفي ورفيق توفيق وكامل ميخائيل. . ولم يمت الصاغ عزيز. .

ومضى الصول نجيب حلمي يبكي ويقول:

ـ لم يمت الصاغ عزيز. . وإنما ماتت أصابعه العشر. . أصابعه

التي كانت تحمل المدفع الرشاش. . التي كانت تعزف عليه كأنه عود أو بيانو!

ما قيمة جندي بغير أصابع. . جندي بغير يدين؟. . .

قال الصاغ عبدالمنعم وهو يبكي:

ـ ولكن هل يعرف الصاغ عزيز أن أصابعه قد هشمتها القنبلة؟

قال الصول نجيب:

ـ لا يعرف. . ولكنه سيموت يوم أن يعرف. . يوم يعرف أنه لن يستطيع أن يمسك بيديه مسدساً أو قنبلة أو مدفع رشاش!

وتنهد الصول نجيب وهو يقول:

ـ لو كانوا أرسلوا لنا الطائرة التي طلبناها لما مات منا عسكري واحد. . لما أصيب منا فرد واحد. . ولكنهم قالوا لنا في مستشفى العريش إنهم لم يستطيعوا إرسال الطيارة التي تحمل لنا المدافع والأسلحة والذخائر لأنها كانت مشغولة في مهمة خطيرة جداً.

وعندما سمع الصاغ عبدالمنعم كلمة «المهمة الخطيرة» أحس أن شظايا القنبلة التي نسفت يدي عزيز علاء الدين أصابت روحه. . ودمرت قلبه. . حولته إلى أشلاء. .

وضغط عبدالعزيز بأسنانه على شفتيه وكأنه يقطعها. مشى إلى باب المطار وهو ممزق، مذبوح، كأنه هو الآخر بغير يدين، بغير ساقين. بغير رأس.

إنه مشوَّه من الداخل كزملائه المشوهين من الخارج. إنه ينزف من داخله، من صميمه، إنه قتيل وقاتل في وقت واحد. إنه بطل المهمة الخطيرة التي انشغلت فيها الطائرة لمدة أسبوع في القاهرة. المهمة التي كان ثمنها أن يخسر ١٦ ضابطاً وجندياً حياتهم، ويبقى أربعة آخرون أنصاف أحياء، وأرباع أحياء، مشوهين، ممزقين، موتى على قيد الحياة...

كل هذا من أجل البحث عن جرسونييرة للأمير عادل عمرو، ليجتمع فيها «بالقنبلة الذرية»!

وأحس عبدالمنعم بالرغبة في أن يصرخ ولكن الصرخة ماتت على شفتيه..

- ٨ -

انتهت مشكلة تموين بيت الهرم. وضع الأميرالاي الشمردلي بك خبرته وهمته وعبقريته ووقته والسيارات الحكومية التي تحت تصرفه في خدمة هذه المشكلة. وتضاعفت كمية الديوك والخرفان والفراخ والحمام التي تصل يومياً إلى بيت الهرم.

ولم تعد الراقصة تشكو من إسراف الأمير وبذخه، كما كانت تفعل عندما يجيء عبدالمنعم بالعشاء الذي يكفي خمسة أشخاص، فقد كانت أمها ست زليخا توزع الزائد من التموين على ابنها حامد، وعلى ابنتها زهرة المتزوجة من محمد أفندي زعبوط الكاتب في محكمة أمبابة الشرعية. ثم ترسل الجزء الأكبر من التموين إلى أختها نفوسة التي تسكن بجوار سوق الخضار القديم، لتتولى بيعه لحسابها للجزارين وأصحاب محلات بيع الفراخ.

وهكذا كانت الفرخة تركب سيارة حكومية من سوق الخضار القديم وتقطع ثلاثين كيلومتراً حتى تصل بيت الهرم، ثم تستقل سيارة حكومية أخرى في نفس اليوم وتقطع ثلاثين كيلومتراً أخرى إلى بيت ست نفوسه بجوار سوق الخضار، وهو شرف عظيم لم تحظ به أي فرخة من قبل أن يتولى الشمردلي بك شؤون التموين!

وهكذا بعد أن كان الشمردلي بك يبدو في نظر ببا رجلاً سخيفاً منفوخاً منفوشاً كالديك الرومي، أصبح رجلاً لذيذاً كالفرخة بالكشك.. وأصبحت ببا تشيد به أمام الأمير.. وتأسف أن ضابطاً عبقرياً كالشمردلي بك لا يزال في رتبة أميرالاي، ووعد الأمير عادل بترقية الأميرالاي الشمردلي بك إلى رتبة لواء مكافأة له على المجهود الجبار الذي يبذله القائد الهمام في حشد جيوش الديوك والخرفان والفراخ والحمام في ثلاجة الراقصة ببا!

وسمع الأميرالاي عباس بك الشمردلي بالمجد الذي ينتظره على يدي الراقصة الأميرية فضاعف من كمية التموين الذي يقدمه يومياً إلى بيت الهرم، وتضاعف عدد الفراخ التي تقطع كل يوم مسافة ثلاثين كيلو متراً بين سوق الخضار القديم وبيت الهرم ذهاباً وإياباً!

ولكن، إذا كانت الفراخ لم تقدم شكوى من طول الثلاثين كيلو متراً التي تقطعها في السيارة، إلا أن الأمير عادل بدأ يشكو من المسافة التي يقطعها بين قصره في الزيتون، وبين بيت الهرم. إنه يمضي وقتاً طويلاً في السيارة ذهاباً وإياباً، وكان يفضل لو أمضى هذا الوقت أو أغلبه بين ذراعي معبودته الحسناء.

صحيح أن البنزين الذي يستهلكه في هذه الرحلات لا يكلفه مليماً، فإن الدولة هي التي تدفعه، وصحيح أنه لا يستعمل في

هذه الرحلات سيارته الخاصة بل يستعمل سيارة حكومية باعتبار أن زيارة ببا هي من الأعمال المصلحية، ولكنه يرهق نفسه بهذا المشوار الطويل، فيصل إلى بيت الهرم مرهقاً مجهداً.. وقد سمع الأميرالاي الشمردلي بك بهذه المشكلة التي ترهق الأمير، فوضع أصبعه على بقايا وشم العصفورة التي في رأسه، واهتدى إلى فكرة جهنمية!

إن الحكومة وضعت بيوت أصحاب الملايين اليهود في مصر تحت الحراسة، بعد أن ثبت أن أغلبهم تبرعوا سراً لإسرائيل، وكانوا يمولون الدعاية الصهيونية في مصر، ولكن الحكومة اكتفت بغلق هذه البيوت التي هي أشبه بالقصور بالشمع الأحمر.

وجلس الشمردلي بك وكتب مذكرة حماسية يقول فيها إن معركة فلسطين، ودخول الجيوش العربية الحرب، يقتضي حضور عدد من قواد الجيوش العربية إلى القاهرة للتشاور معهم في المعركة. ولما كان هؤلاء القواد يقيمون في مثل هذا الظرف في الفنادق الكبرى في القاهرة، وذلك يعرضهم لتتبع جواسيس وعملاء العدو، فإن المصلحة تقضي بأن تتسلم وزارة الحربية هذه البيوت وتخصصها لضيافة القواد، وللاجتماعات السرية التي تعقد معهم. وبذلك توفر الدولة المبالغ الطائلة التي تدفعها من قوت الشعب المصري المسكين، وفي الوقت نفسه توفر السرية والكتمان لهذه الاجتماعات الخطيرة.

وطلب الشمردلي بك في ختام مذكرته أن توضع هذه القصور تحت تصرفه بصفته المسؤول عن خدمة الجيش والتموين.

وما كاد كبار موظفي وزارة الحربية يطلعون على مذكرة الشمردلي

بك حتى تحمسوا لها وتمسكوا بها وتشبثوا بضرورة الإسراع بتنفيذها، وهنأوا الشمردلي بك على وطنيته وحرصه على أموال الشعب المصري!

وصدر قرار بأن تسلم بيوت الحراسة إلى الشمردلي بك.

واختار الشمردلي بك قصر المليونير الاسرائيلي أوفاديا سالم صاحب شركة التسليفات التجارية، وهو قصر فخم أنيق في الجيزة، وكتب مذكرة بأن يوضع تحت تصرف الأمير عادل ليجري فيه الاجتماعات العسكرية بعيداً عن الرقباء والعملاء وعيون الفضوليين..

وتقدم الشمردلي بك بالقصر إلى الأمير عادل وهو يقول له:

- بهذه الطريقة يصبح لسموك قصر في الزيتون، وقصر في الجيزة، وقصر في الهرم، وتستطيع أن تقوم بمقابلاتك في قصر الجيزة، بدلاً من القيادة في القبة. فإذا أردت الذهاب إلى الهرم اختصرت المسافة إلى النصف. ويمكنك أن تقول للأميرة نانوسة في أي وقت أنك ستبيت في قصر الجيزة بسبب انهماكك في الاجتماعات. فلا تضطر في كل مرة أن تقول لها إنك مسافر لفلسطين.. وماذا يحدث لو انتهت حرب فلسطين فجأة؟

وأشرقت أسارير الأمير عادل، وأعجب بالشمردلي بك الذي لا يخطط للحاضر فقط، بل للمستقبل أيضاً.. وتذكر الأمير أنه قرأ أن نابليون عندما كان يجلس ليضع خطة معركة حربية، قال إنه لا يضع خطة المعركة الحالية فقط، بل يضع خطة المعركة التي ستليها أيضاً!

وما كاد فوزي بك صلاح الدين يسمع أن الأمير عادل استولى على قصر الجيزة، حتى قال إن الأمن العام في حاجة إلى قصرين، قصر في الزمالك وقصر في مصر الجديدة. وأسرع الأمير عادل وأصدر أمره إلى الشمردلي بالإسراع في تنفيذ طلب مدير الأمن العام لأنه يهم المجهود الحربي. وبادر الشمردلي بك إلى تنفيذ أمر الأمير.

وسمع اللواء سعدون باشا بأن فوزي بك صلاح الدين استولى على قصرين من قصور الأعداء الموضوعين تحت الحراسة، فكتب مذكرة يقول فيها إنه هو الآخر في حاجة إلى قصرين، لأنه مسؤول عن سلاح الفرسان وعن المخابرات العسكرية، واعترض الشمردلي بك بأنه ليس لديه سوى قصر واحد صالح لسعدون باشا، وقبل سعدون باشا قصراً في جاردن سيتي على مضض، وهو يهدد ويتوعد ويقول إن قصراً واحداً لا يكفي لتحقيق النصر في المعركة، وسيضطر سعادته إلى المزج بين عمليه الخطيرين اللذين يقوم بهما في مكان واحد، بينما العلم العسكري الحديث ينص على ضرورة التخصيص، والفصل بين الإدارات العسكرية المختلفة!

وعاد اللواء حماد باشا قائد المشاة من فلسطين لحضور اجتماع هام في واحد من القصور الموضوعة تحت الحراسة فقدم له الأميرالاي الشمردلي بك شقة في عمارة سيف الدين بجاردن سيتي، مكونة من أربعة غرف مفروشة فرشاً فاخراً.

وثار اللواء حماد باشا، واعتبر هذه الشقة الصغيرة إهانة لسلاح المشاة، وقال إنه من غير المعقول أن يأخذ سلاح الفرسان الذي يقوده سعدون باشا قصراً في جاردن سيتي ويأخذ سلاح المشاة شقة من أربع غرف!

وتدخل الأمير عادل عمرو ليحل الخلاف الذي يهدد وحدة

الجيش في هذا الظرف العصيب، واقتنع الأميرالاي الشمردلي بك بإعطاء اللواء حماد باشا شقة فاخرة في عمارة إيموبيليا تتألف من ثماني غرف. وتفرج حماد باشا على الشقة، وبهرته أناقة الأثاث وفخامة السجاجيد الإيرانية المفروشة على الأرض، وضخامة الثريات الكهربائية المعلقة بالسقف، فوافق على الحصول على الشقة وهو يقول إننا الآن في معركة، ومن أولى الصفات الواجبة للانتصار في المعركة صفة إنكار الذات!

وبطبيعة الحال حصل الأميرالاي الشمردلي بك لنفسه على قصر كبير من قصور الأعداء، بحجة أن سلاح التموين وخدمة الجيش يحتاج إلى مكان منعزل يباشر فيه التعاقدات السرية على التموين بعيداً عن أعين الرقباء والعملاء والجواسيس!

وبهذا التقسيم فتح الأميرالاي الشمردلي بك ميداناً ثانياً في الحرب، فقد أصبح القواد يقسمون وقتهم بين الإقامة في رفح للإشراف على المعركة، وبين الإقامة في القاهرة للإشراف على استلام القصور الجديدة. وكان كل واحد منهم سعيداً بأنه انتزع قلعة الأعداء، وسيطر عليها، ورفع علمه فوقها، بغير حاجة لأن يطلق رصاصة واحدة!

ثم حدث أن كان الأميرالاي عباس الشمردلي بك يزور بيت الهرم ليتفقد حالة التموين، وليتلقى أوامر ببا في شأن ما تريد تغييره وتبديله من ألوان الطعام.

وشكت له ببا أن سيارتها الستروين الصغيرة تسبب لها المتاعب. لقد اشترتها منذ أربع سنوات، ولم تكن سيارة جديدة، وإنما كانت «نصف عمر» وقد توقفت بها مرتين في طريق الهرم. وهي تخشى أن

يراها الناس في هذا الطريق ويتتبعوها، ويكتشفوا مكان بيت الهرم، ويعرفوا علاقتها بالأمير، وهي العلاقة التي تحرص ببا أن تبقى دائماً مكتومة عن كل الناس. .

وقالت ببا إنها لم تخبر الأمير عادل بحالة سيارتها، لأنه إذا عرف ذلك فسوف يشتري لها سيارة جديدة. وهي لا تقبل أن تكلف الأمير مليماً، ولو كانت تقبل هدايا سيارات من المعجبين بها لأصبح لديها عشرات السيارات، ولكن المسألة مسألة مبدأ، وهي مصرة على أن تصلح هذه السيارة القديمة على حسابها. وكل ما تريده من الأميرالاي الشمردلي بك أن يتولى الإشراف على إصلاح السيارة بما عرف عنه من الكفاءة والعبقرية والهمة والذكاء.

وعادت ببا تنبه على الشمردلي بك أن لا يخبر الأمير عادل بشيء عن السيارة، لأن المسألة مسألة مبدأ تحافظ عل ثر مما تحافظ على حياتها. .

ووضع الشمردلي بك أصبعه على مكان بقايا وشم العصفورة في جبهته ليبحث في رأسه عن حل لهذه المشكلة، وهي كيف يشتري سيارة جديدة لببا، دون أن يدفع فيها الأمير عادل مليماً، ودون أن تهتز مبادىء ببا التي تحافظ عليها أكثر مما تحافظ على حياتها. .

وعاد الشمردلي بك إلى مكتبه في سلاح التموين، وكتب مذكرة يقول فيها إن الجيش في الجبهة يحتاج إلى سيارات، وإن الجيوش الحديثة أصبحت كلها آلية، وإن حراسة أموال الأعداء لديها عدد كبير من سيارات الأعداء ملقاة في الجراجات بغير عمل، وإنه يقترح أن يتسلم سلاح التموين فوراً هذه السيارات لإرسالها إلى الجبهة، وإن أي تأخير في تسليمها يعرض سلامة أفراد قواتنا للخطر!

وحمل الشمردلي بك المذكرة للأمير عادل وروى له قصة سيارة الراقصة ببا الستروين، والمبدأ التي تحافظ عليه أكثر مما تحافظ على حياتها. .

ووقع الأمير فوراً على المذكرة.

وصدر قرار بتسليم جميع سيارات الحراسة إلى سلاح التموين لإرسالها إلى جبهة القتال فوراً.

وعاين الشمردلي بك السيارات، فوجد بينها سيارة فارعة كاديلاك ذات مقعدين، حمراء اللون، بعجلات بيضاء، وفيها راديو، وقد فرشت من الداخل بجلد أبيض أنيق. . وعرف أنها من طراز هذا العام، ولم يستعملها صاحبها إلا مدة ثلاثة شهور. .

وقرر الشمردلي بك أن يرسل السيارة إلى الجبهة. . جبهة الهرم. . فقاد السيارة وذهب بها إلى بيت الهرم، وما كادت ببا ترى السيارة حتى جنت بها وكأنها تقف أمام بطل كمال الأجسام في العالم!

ووعدها الشمردلي بك بأنه سيسلمها هذه السيارة خلال أربعة أيام، فقالت ببا:

ـ ولكن هذه السيارة تساوي أربعة آلاف جنيه. . وأنا قلت إني لا أقبل أن يدفع لي الأمير مليماً واحداً. .

قال الشمردلي بك:

ـ إن الأمير لن يدفع مليماً واحداً. . أنت التي ستدفعين ثمن السيارة!

وشهقت ببا وقالت:

ـ ومن أين أجيء بالمبلغ؟

قال الشمردلي بك وهو ينتفخ كالديك الرومي، ويشير إلى رأسه الصغير الذي يشبه رأس الفرخة:

ـ لقد وجدت حلاً.. سوف نأخذ سيارتك الستروين ونبيعها وندفع ثمن هذه السيارة!

قالت ببا في دهشة:

ـ ولكن سيارتي لا تساوي أكثر من مائة جنيه!

قال الشمردلي بك:

ـ وسنشتري هذه السيارة بمائة جنيه!

وتركها الشمردلي بك وعاد إلى مكتبه وكتب مذكرة قال فيها إن سلاح التموين وخدمة الجيش لاحظ بعد استلام السيارات من الحراسة على الأعداء أن بعض هذه السيارات لا يصلح للعمل في الجبهة، ولهذا فإننا نستأذن في أن نبيع هذه السيارات بثمن رمزي قدره مائة جنيه للسيارة الواحدة لأرامل الشهداء الأبطال من الضباط الذين جادوا بأرواحهم في ميدان القتال دفاعاً عن الوطن في معركة الشرف.

وقدم الشمردلي بك المذكرة الحماسية إلى الأمير عادل فوافق عليها في الحال.

وصدر قرار بالموافقة على مذكرة الشمردلي بك مع خطاب شكر وتقدير من وزير الحربية لاهتمامه بأرامل الشهداء..

وقاد الشمردلي بك السيارة الكاديلاك الحمراء إلى قصر الجيزة حيث كان الأمير عادل يجتمع ببعض أصدقائه من كبار الضباط، ودخل بها من الحديقة وأخفاها خلف القصر، ثم صعد إلى الداخل، وهمس في أذن الأمير عادل بكلمة، فاستأذن الأمير من زواره، ونزل معه إلى حديقة القصر الخلفية ليشاهد السيارة التحفة..

وأعجب الأمير بالسيارة الحمراء، ولكنه سأل الشمردلي بك:

ـ ولكن كيف نستطيع إعطاء هذه السيارة لببا.. كيف نبرر هذا التصرف في الدفاتر؟

ووضع الأميرالاي الشمردلي بك أصبعه على مكان وشم العصفورة في جبهته، وقال:

ـ كل هذه الموضوعات بحثتها قبل أن أجيء بالسيارة. إنني رجل نظامي، لا أحب أن أخالف الأوامر والتعليمات والقانون المالي واللوائح. سموك تذكر كتيبة الفدائيين التي يرئسها الصاغ عزيز علاء الدين التي قامت بعمل بطولي، واستشهد فيها ١٦ من الضباط والجنود، العملية التي كان اسمها عملية «ساموراي»!

قال الشمردلي مبتسماً:

ـ كان بين الذين استشهدوا في المعركة ضابط اسمه اليوزباشي محمد فهمي..

قال الأمير:

ـ نعم، أظن أنني سمعت اسمه.

قال الشمردلي بك وهو يضحك:

ـ سنسلم السيارة الكاديلاك إلى أرملة الشهيد اليوزباشي محمد فهمي.. وسنقول إن ببا فهمي هي زوجة محمد فهمي!

قال الأمير مضطرباً:

ـ ولكن إذا ظهرت زوجة اليوزباشي محمد فهمي الحقيقية، فماذا نقول؟

قال الشمردلي وهو يقهقه:

ـ سنقول لها ببساطة إن زوجك قبل أن يموت تزوج من وراء ظهرك، وإن لدينا قسيمة الزواج.. وسوف تضطرب المسكينة، وتنصرف وتتوسل إلينا أن نخصها وحدها بنصيبها في المعاش!

وضحك الأمير عادل وصافح الشمردلي بك وهو يقول:

ـ أنت عبقري يا شمردلي بك.. أنت نابغة.. لو أن لدينا ثلاثة مثلك لدوخنا العالم!

وانتفخ الشمردلي بك كالديك الرومي وقال وهو ينحني:

ـ إنني أؤدي واجبي يا سمو الأمير.

وقال الأمير:

ـ إنني سأكون في بيت الهرم الساعة السادسة مساء.. وأريد أن أكون موجوداً ساعة تجيء بالسيارة وتسلمها لببا.

قال الأميرالاي الشمردلي:

ـ لقد وعدتها بالسيارة خلال أربعة أيام.. ولكنني سوف أسلمها

في ٢٤ ساعة. إن شعاري «لا تؤجل عمل اليوم إلى غد»!

ومشى الأمير إلى باب القصر، والأميرالاي الشمردلي يمشي وراءه. بينما الأمير يقول كأنه يحدث نفسه:

ـ وأنا كنت أظن إنني سأضيع بعد أن تخلى الصاغ عبدالمنعم بيومي من عمله كياور لي.. إن حذاءك يا شمردلي بك برقبة عبدالمنعم بيومي..

ونظر الأميرالاي الشمردلي بك إلى حذائه باحتقار، ثم أدى التحية العسكرية للأمير.. وانصرف قريراً، هانئاً، سعيداً بالانتصار الجديد الذي حققه في الجبهة الداخلية!



وقف أربعة أشباح سوداء أمام باب مكتب سكرتير الأميرالاي شعبان بك شعيب قائد المدفعية بالنيابة.

أربع نساء مختلفات في العمر، وفي الطول، ولكنهن متفقات في أثوابهن السوداء، في طرحهن السوداء، في حقائبهن السوداء، في أحذيتهن السوداء، في الحزن البالغ الذي يملأ عيونهن، في رؤوسهن المنكسة، في وجوههن التي خلت من المساحيق. كلهن أشبه بزهرات ذابلة، كأنهن تماثيل للحزن والأسى والفجيعة والعذاب والدموع.

لقد مضت عليهن ثلاث ساعات واقفات على أقدامهن ينتظرن شرف المثول بين يدي سكرتير الأميرالاي. ولم يكن هذا يومهم الأول في الانتظار، لقد مضى عليهن أسبوع كامل يحضرن إلى هذا المكان، وينتقلن من باب إلى باب، ومن مكتب إلى مكتب، كل واحدة منهن تسند الأخرى حتى لا تسقط من التعب والإرهاق. كل

واحدة منهن تحاول أن تشجع الأخرى على الصبر، بينما هي لم تعد تستطيع أن تصبر أكثر مما صبرت واحتملت.

إنهن زينب زوجة الشهيد اليوزباشي محمد فهمي وأم أولاده الثلاثة الصغار، سيدة في الرابعة والعشرين من عمرها، طويلة القامة، بيضاء البشرة، لم يستطع الحزن العميق أن يخفي جمالها، ولم تستطع الدموع أن تغسل نضارتها. مضى على زواجها خمس سنوات، كلها سعادة وحب وهناء.

وبجوارها عايدة زوجة الشهيد الملازم أحمد لطفي أم ولديه صالح وعبدالله، سيدة في الثانية والعشرين من عمرها، شقراء، فارعة الطول، عيناها الزرقاوان فيهما خوف غريب. كان الموت يتعقبها في كل مكان. كانت وحيدة أبويها. ثم ماتت أمها من عامين، ومات أبوها من عام، والآن مات زوجها. أصبحت تشعر أنها وخيدة مع الموت، كأنها تصعد درجات سلم في الظلام، سلم بلا درابزين. وهي تتوقع أن تسقط وتموت، كما مات الثلاثة الذين أحبتهم، والذين كانت تعتبرهم الدرابزين الذي تستند إليه وهي تصعد سلالم الحياة.

وبجوارها السيدة روز أم الشهيد الملازم كامل ميخائيل. سيدة في الخمسين من عمرها، يبدو عليها أنها مقهورة، مهزومة، محطمة، إنها عاشت أرملة تربي ابنها كاملاً، توفر من قوتها ليتعلم، وتحرم نفسها من العلاج والدواء لتوفر له مصاريف الكلية الحربية، وما كاد يتخرج ويصبح ضابطاً وتتنفس الصعداء حتى قامت الحرب واستشهد.

وإلى جوارها ميرفت أرملة الشهيد الملازم أول رفيق توفيق، فتاة

سمراء في العشرين من عمرها، تشبه التنهيدة الكبيرة.. دموع تحجرت على عينيها، وفم مغلق كأنه تابوت، ووجه أصفر كالموت. كأنها امرأة تريد أن تبكي ولا تستطيع أن تبكي لأنه لم يبق في عينيها دموع. وكأنها تريد أن تصرخ ولا تستطيع، فقد تمزقت حنجرتها وذبحت فيها الصرخات. ولهذا فهي تتنهد، تتنهد باستمرار..

كل الأشباح الأربعة فقدن ضباطاً من سلاح المدفعية. لقد استشهدوا جميعاً في عملية «ساموراي» بقيادة الصاغ عزيز علاء الدين، وجئن يسألن عن معاشاتهم. إن كل واحدة منهن لا تملك إلا مرتب زوجها الذي استشهد، والسيدة روز أم الضابط كامل ميخائيل لا تملك إلا مرتب ابنها، وكانت تدفع نصفه أقساطاً في تسديد ديون اقترضتها للإنفاق عليه في المدارس.. ولقد تلقت كل واحدة منهن جثة فقيدها، وخطاب تعزية من الوزارة ،ولكن الوزارة لم تقل لواحدة منهن كيف ستعيش، ومن أين تقبض معاشها!

وفي كل يوم تذهب الأشباح الأربعة إلى مكاتب سلاح المدفعية يسألن عن المعاش، وحفيت أقدامهن على الأبواب، وهن لا يتلقين إلا إجابة واحدة «تعالوا غداً»! وغداً يقال لهن «تعالوا غداً».. إن الحكومة لها كلمة واحدة لا تغيرها مهما تعاقبت الأيام!

ولم تستطع واحدة منهن أن تقابل ضابطاً كبيراً، لأن الضباط جميعاً في اجتماعات ومؤتمرات ولجان!

وفجأة، انفتح أحد الأبواب وخرج منه الأميرالاي عباس بك الشمردلي ومشى منفوخاً كالديك الرومي، بخطوات الإوزة..

وأسرع الجنود الذين في الصالة الكبيرة يقفزون من أماكنهم

ويرفعون أيديهم بالتحية العسكرية.. ولكن الأميرالاي الشمردلي بك لم يتنازل ويرد التحية..

ورأته زينب أرملة اليوزباشي محمد فهمي، فتقدمت إليه بجرأة ووقفت في طريقه وقالت له:

ـ أنا أرملة الشهيد اليوزباشي محمد فهمي..

وفزع الأميرالاي الشمردلي بك، وكأنه رأى شبح الشهيد محمد فهمي، يخرج إليه ليسأله عما فعل بالسيارة الكاديلاك؟!

وتسمر الشمردلي بك في مكانه وقال:

ـ أفندم.. من حضرتك؟! تقولين إنك زوجة الشهيد محمد فريد؟..

قالت زينب بأسى:

ـ لا يا افندم أنا زوجة الشهيد اليوزباشي محمد فهمي.. ألم تسمع به؟

وتلعثم الأميرالاي الشمردلي بك وقال:

ـ اليوزباشي محمد فهمي؟ لا أظن أنني أعرفه.. إن ذاكرتي ضعيفة.

وهنا أقبلت السيدات الثلاث الأخريات وانضممن إلى زينب التي مضت تقول:

ـ نحن زوجات الضباط الذين استشهدوا في عملية «ساموراي» في فلسطين. وقد مضى علينا أسبوع نجيء إلى هنا ونسأل عن

معاشنا، بغير أن نلقى جواباً... فهل من الممكن مساعدتنا؟

وقال الأميرالاي الشمردلي بك وهو يخرج قلم الحبر من جيبه، ويخرج أجندة ويفتحها:

ـ بكل سرور.. وأرجو أن تعطوني أسماءكن لأتولى بنفسي بحث هذا الموضوع حتى لا تكلفن أنفسكن مشقة الحضور..

وقالت زينب وهي تمليه:

ـ روز ميخائيل والدة الشهيد الملازم كامل ميخائيل، وعايدة زوجة الشهيد الملازم أحمد لطفي، وميرفت زوجة الشهيد الملازم أول رفيق توفيق، وأنا.. زينب أرملة الشهيد اليوزباشي محمد فهمي.

وكتب الأميرالاي عباس بك جميع الأسماء، ثم أقفل الأجندة، ووضعها مع قلم الحبر في جيبه وهو يقول:

ـ سأقوم باللازم فوراً!

وشكرته السيدات الأربع على إنسانيته وعطفه ومروءته، ومضى الأميرالاي الشمردلي بك في طريقه يمشي بخطوات الإوزة، بينما كانت السيدة روز تدعو له بالعمر الطويل..

وعندما ركب الأميرالاي الشمردلي بك سيارته فتح النوتة من جديد وقرأ أسماء السيدات الأربع ثم أغلقها ووضعها في جيبه، وهو يبتسم ويقول بصوت خافت لا يسمعه سائق السيارة:

ـ الحمد لله.. عندي الآن ثلاثة أسماء.. ممكن أن أخرج بها ثلاث سيارات من سيارات الحراسة!

□□□

تفرقت الأشباح الأربعة. كل امرأة منهن تجر ساقيها، تنوء بالأحزان التي تحملها على ظهرها، كل واحدة منهن اتجهت إلى بيتها، البيت السعيد الذي تحول إلى خراب وأطلال. إن الشهداء في الحروب ليسوا وحدهم الذين قتلهم رصاص العدو أو انفجرت فيهم قنابله. إن هناك شهداء آخرين، هم أرامل الضباط والجنود القتلى. أمهاتهم، أولادهم، أخواتهم، كل هؤلاء يموتون معهم، يموتون ولا تشيع جنازتهم، يموتون ولا يدفنون.

إن الست روز تمشي في الشارع إلى بيتها وهي تحدث نفسها، بل هي تتحدث مع ابنها الشهيد كامل ميخائيل، كأنه لا يزال يمشي معها. إنها تتحدث معه عن العروس الجميلة التي وجدتها له. إنها تصف له عينيها وشعرها وقوامها. إنها تطمئنه أنها ستدفع له دوتة. لن ترتبك بميزانية أكثر مما ارتبكت بهذا الزواج. وفجأة تتوقف في الشارع مذعورة، كأنها اكتشفت أنها تمشي وحدها . كأنها عرفت أن العريس الذي تحدثه عن الزفاف قد زف إلى الموت من وراء ظهرها. ويعلو صوت ست روز كطلق ناري. ويصاب المارة الذين يمشون بجوارها بالرعب. كأن سيدة محترمة كانت تمشي بينهم في هدوء وأصيبت فجأة بلوثة جنون.

وتجلس ست روز على الرصيف تلطم وجهها وتبكي وتولول. ويلتف الناس حولها فيسمعون كلاماً لا معنى له، عن عملية اسمها «الساموراي»، عن رصاص، عن قنابل، عن شاب يموت، عن معاش لم يصرف. عن زفاف لم يتم. عن مصير مجهول. عن عمر أمضته في فقر وكفاح وجوع.

ثم تتوقف ست روز عن الصراخ، كأن المدفع الرشاش الذي في

حنجرتها فرغ من الذخيرة. وتقف على قدميها، وتمشي متعثرة تحمل أحزانها، ثم تعود وتحدث نفسها، وتحدث ابنها كامل عن العروس الجميلة التي اختارتها له.



وتدخل عايدة لطفي إلى شقتها الصغيرة، ويسرع نحوها ولدها عبدالله البالغ من العمر ثلاث سنوات، وولدها صالح البالغ من العمر أربع سنوات، ويرتميان بين ذراعيها باكيين يسألانها: أين بابا؟. لماذا لم تحضري بابا معك؟!

وتحتضنهما عايدة وهي تخفي دموعها خلف ظهريهما. إنها وعدتهما عندما خرجت في الصباح أنها ستجيء لهما بوالدهما. إنها تكذب عليهما كل يوم. إنها تتحدث لهما عن زوجها أحمد لطفي كأنه لا يزال حياً. إنه مسافر في رحلة، وسيجيء غداً ومعه ألعاب كثيرة لهما. وهي من كثرة حديثها عن حضور زوجها أحمد أصبحت في بعض الأحيان تشك في أنه مات، وتصدق أكاذيبها، وتتصور أنه سيعود فعلاً.

لا بد أن يعود. . لا يمكن أن يتركها وحيدة. . هذا الباب المغلق سيدق، سينفتح، ستبرز منه رأس أحمد وعليها الابتسامة التي لا تفارقه. سيهجم عليها ويحملها بين ذراعيه إلى غرفة نومها، سيغرق شفتيها بقبلاته الحارة وضماته القوية، ولكن الباب لا يدق. والباب لا يفتح. ورأس أحمد لا تبرز من الباب. وهي تتجه وحدها إلى غرفة نومها. وتدخل الغرفة وتغلق الباب، ترتمي على الفراش، وتشد بيدين مرتعشتين على ملاءة السرير، هذه الملاءة التي تحولت إلى منديل تجفف بها دموعها.

ثم ترفع عايدة رأسها وتنظر حولها في رعب. كأن أثاث الغرفة

يهتز. كأن كل شيء في الغرفة يحدثها بإشارات مبهمة. كان الجهاد يبكي معها ويبكي عليها. كأن الجدران التي سمعت ضحكاتها خمس سنوات تهادت وهي تسمع أنينها بضعة أيام. الحجر تحرك لعذابها. ولكن قلوب الناس لم تتحرك.

إنها ساخنة على المعاملة الباردة التي تلقاها في مكاتب سلاح المدفعية. إنهم ينظرون إليها كأنها شحاذة لا زوجة بطل. يتصورون أنها جاءت تقبض هذه الملاليم ثمناً لزوجها. إنهم يتصورون أنهم يحاربون وهم جالسون على مكاتبهم. لم يعرها واحد منهم أي اهتمام، إلا الرجل الشهم الطيب الأميرالاي عباس بك الشمردلي.. لولاه لكانت حتى الآن لا تزال واقفة أمام باب سكرتير نائب قائد المدفعية!



وتصعد زينب زوجة اليوزباشي محمد فهمي درجات سلم منزلها وهي تلهث. إن شقتها في الدور الرابع. وليس في العمارة مصعد. ولكنها هي المرة الأولى التي تلهث فيها وهي تصعد درجات السلم. لقد كانت في حياة زوجها تقفز درجات السلم قفزاً، ولكنها الآن تقف فوق كل بسطة تسترد أنفاسها. هل شاخت فجأة؟ هل كان زوجها محمد فهمي هو شبابها، فلما مات مات شبابها معه؟ هل الرجل الذي أحبته كان شبابها وصحتها وحيويتها وأعصابها، فلما دفن في القبر أصبحت بلا شباب ولا صحة ولا حيوية ولا أعصاب.

إن الأرملة العجوز تبكي الماضي الذي تمتعت به، ولكن الأرملة الصغيرة تبكي المستقبل الذي لم تذق حلاوته... الأرملة العجوز تعيش على ذكريات حلوة طويلة كأنها رصيد في البنك تسحب منه

كل يوم مبلغاً صغيراً تنفقه في حاضرها المفلس من الأحلام، ولكن الأرملة الصغيرة تقترض من أوهام المستقبل لتنفق على حقيقة الحاضر..

إن الأوهام أشبه بأوراق بنكنوت مزيفة نستطيع أن نتخم بها جيوبنا، ولكننا عندما نحاول أن نقدمها للصرف في المحن نكتشف أنها لا تساوي مليماً!

إن النساء يحسبن أعمارهن بأيامهن السعيدة، ومن هنا يتصور الناس أنهن يكذبن في ذكر أعمارهن.

وزينب تشعر أنها ماتت وهي في الرابعة من عمرها. إنها لم تعش سوى أربع سنوات هي عمر زواجها. امرأة تحمل ثلاثة أطفال على كتفيها. فهل من الممكن أن تبدأ حياة جديدة؟ أي رجل يقبل امرأة فقيرة بثلاثة أطفال؟ أين تجد رجلاً مثل محمد؟.. الرجل الذي كانت تحس بجواره بأنه أبوها وأمها وأخوها وصديقها وعشيقها وكل شيء لها في الحياة؟ ثم كيف تستطيع أن تطعم أولادها الثلاثة حتى يصرف لها المعاش؟ إنها لم تعد تملك جنيهاً واحداً. لقد باعت شبكتها لتنفق على الصيوان الكبير الذي أقيم أمام الباب ولم يدخله سوى سبعة أشخاص.. أين هم الذي يتحمسون للمعركة؟ أين هم الذين يطبلون ويزمرون للانتصارات المزعومة؟ إن الأغلبية تحتشد في المواكب والأفراح وتختفي في المآتم والجنازات؟ زملاء محمد من الضباط مشغولون في ميدان القتال، ولكن أين باقي الناس؟.. أين أصدقاء محمد الذين ملأوا الصيوان في فرحها؟

وتتلفت زينب حولها، فتجد أمامها جهاز الراديو الصامت. هذا الجهاز الذي لم تفتحه منذ عرفت بنبأ مصرع محمد. إنها لن تسمع

موسيقى بعد اليوم. لقد كانت تسمع أغاني الحب لأنها كانت تبحث عن أغنية اسمهان التي تقول: «يا حبيبي تعال الحقني... شوف اللي جرى لي».. كانت هذه الأغنية الساذجة تصور شعور زينب في الساعات التي يتغيب عنها محمد.. وكان محمد يحب أن يسمعها بصوت زينب عند دخوله إلى بيته، ولكنها الآن لن تغنيها.. إنها مهما نادت محمد فلن يجيء.. لن يرى ما جرى لها.. لن يلحقها ويخلصها من عذابها ووحدتها.

سوف تبيع هذا الجهاز وتنفق منه على أولادها الثلاثة إلى أن يتقرر المعاش، وتعرف كيف تواجه الحياة بهذا المبلغ. إنها متواضعة في طلباتها، كل ما تريده هو ما يكفي لطعام أولادها ومدارسهم. أما هي فليست في حاجة إلى ملابس. إنها صبغت كل فساتينها باللون الأسود. إنها ستتحول إلى راهبة. ستجعل بيتها ديراً. ستجعل أولادها الثلاثة صلبانها التي تعلقها في عنقها!

وتضع يدها على جهاز الراديو وكأنها تودعه، ثم تحمله بين ذراعيها وتخرج به من الباب.

ويلحق بها ممدوح ويسألها:

ـ ماذا ستفعلين بجهاز الراديو يا أمي؟

فتقول زينب وهي تشيح بوجهها عن وجه ممدوح حتى لا يكتشف كذبها:

ـ إنني سآخذه إلى محل الراديو لإصلاحه!

□□□

وترتمي ميرفت على مقعد في صالة شقتها وتخلع حذاءها الذي كان يسجن قدميها طوال الساعات التي وقفتها أمام مكاتب سلاح

المدفعية، وترمي الحذاء بعيداً.، وكأنها تلقي أغلالاً كانت تقيدها.. وتحاول أن تضع يدها على صدرها لتخفي سعالها من مرض الربو المصابة به. وتنظر إليها حماتها أم الملازم أول رفيق توفيق في قلق. كأنها تنتظر من زوجة ابنها أن تقول لها إن ابنها رفيق لم يمت، وإن الجثة الممزقة، المشوهة، التي دفنت ليست جثته، وإنه أسير في يد الأعداء.

إن حماتها لا تصدق أن رفيق مات، إنها لم تذرف دمعة واحدة عليه. إنها أنكرت أن الجثة التي أمامها هي جثة ابنها. لقد أصيبت الأم بذهول أعماها. إنها تتهم زوجة ابنها بعينيها، كأنها تقول إنها تكذب عليها وتقول إن رفيق قد مات، وإنها ترتدي السواد لتضللها، وإنها تذهب للقائه سراً دون أن تخبرها.

وميرفت تتعذب لحالة حماتها. لم تكن تحبها قبل أن يقتل رفيق. كانت مضطرة أن تعيش معها تحت سقف واحد. ولكنها الآن تشفق عليها، تتعذب لنفسها ولعذابها، وهي تكتفي بأن تتنهد في صمت، فتحمل اتهامات حماتها، وتتمنى لو كانت هذه الاتهامات صحيحة، وأن رفيق لم يمت، وأنها تتظاهر بأن زوجها مات لإغاظة حماتها.

وتشعر ميرفت في صمتها بقلق وخوف. إنها تخشى أن تكتشف حماتها أنها صادقة لا تكذب. تخشى أن تقتلها صدمة الحقيقة، أن تحطمها أكثر مما تحطمت.

وهي تفكر كيف ستعيش بعد الآن. كيف ستوزع المعاش الضئيل بينها وبين حماتها. إنها تعرف أنها لا تستطيع أن تعيش مع حماتها، ولكنها تعرف أيضاً أن حماتها بلا عائل وبلا أقرباء. إن حماتها لا تستطيع أن تعيش وحدها. يجب أن تعود نفسها على حياة

كلها خلافات ومشاجرات. لقد كان رفيق وعدها قبل سفره إلى فلسطين أن يستأجر لأمه شقة في نفس العمارة لتقيم وحدها. ولكنه مات ومعه وعده. مات وتركها مع حماتها التي تعذبها وهي تقول لها كل يوم إن رفيق لم يمت، وتقول لها في يوم آخر إنها لا بد أن أغضبت ابنها، فترك البيت لسوء معاملة زوجته له. وتقول لها في يوم ثالث إنها تخرج لتقابل رفيق في مكان مجهول.

وابنتها سوسن هي مشكلة أخرى. إنها أخفت عنها أن أباها قد قتل في الحرب. إنها تكذب عليها وتقول لها إنه لا يزال يحارب. إنها تقص عليها في كل ليلة قبل أن تنام قصة مختلفة عن معارك وهمية يخوضها والدها رفيق، عن أعداء وهميين يقتلهم، وتفحص سوسن عينيها في سعادة، وكأنها تصلي لأبيها ليستمر في انتصاراته. وهذه القصص الوهمية تقتلها هي كل ليلة مرات. تقتلها وهي ترويها لسوسن، وتقتلها وهي تسمع سوسن تقصها لجدتها العجوز.

ثم تعود ميرفت من مأتم قلبها، لتدخل في مأتم جديد هو مأتم حياتها. إن ابنتها سوسن حطمت رأس عروستها. قالت إنها اكتشفت أن العروسة يهودية، ولهذا قطعت رأسها، كما يقطع أبوها رؤوس الأعداء.. ثم بعد ذلك بدأت سوسن تبكي وتطلب من أمها شراء عروسة أخرى بدل العروسة التي حطمتها..

ولكن ميرفت لا تملك في حقيبتها ثمن شراء عروسة جديدة.. لو أنها قبضت معاشها لاستطاعت أن تجفف دموع ابنتها بشراء عروسة بدل العروسة المحطمة.. ولكن ما بقي في حقيبة يدها يكفي لشراء الطعام لها ولابنتها وحماتها بضعة أيام.

إن دواء الربو الذي كان يريح صدرها نفد من أسبوع ولا تستطيع

أن تشتري دواءً جديداً.. وحماتها لا ترحمها في هذه المحنة، إنها لا تكاد ترى سوسن تبكي عروستها حتى تلوم ميرفت لأنها لم تشتر عروساً جديدة لحفيدتها. تتهمها بأن قلبها كالصخر لأنها لا تتأثر لدموع سوسن!

وهي تريد أن تنفجر في حماتها وتقول لها الحقيقة. وترمي في وجهها القروش التي بقيت في حقيبتها ليعيش الثلاثة عليها بضعة أيام.

ولكنها تتردد وتشفق على حماتها أن تعذبها أكثر مما تتعذب. وتسكت ميرفت وتتنهد تنهيدة كبيرة..

ثم تذكر الوعد الذي قطعه اليوم الأميرالاي عباس بك الشمردلي بأنه سيتولى بنفسه مسألة صرف المعاشات. وتحاول أن تطمئن نفسها بأن الشمردلي بك سيحل مشاكلها.

إن أول مشكلة لها أن تشتري عروسة لسوسن!

ثم بعد ذلك... تشتري لنفسها دواء الربو!

- ٩ -

أفراح الانتصار في كل مكان!

ابتسامة النصر على كل الشفاه!

العناوين الضخمة في الصفحات الأولى من جرائد الدول العربية تزف إلى الشعب بشرى اكتساح الجيوش العربية الشراذم الصهيونية وفلول جيش إسرائيل!

محطة إذاعة القاهرة أبدلت الموسيقى التي تبدأ بها عادة نشرة الأخبار، وجعلتها موسيقى نشيد النصر من أوبرا عايدة التي وضعها الموسيقار الإيطالي فردي العظيم.

في هذا الجو الوردي عقد مجلس النواب المصري جلسة سرية. أخليت الشرفات من الزوار والصحافيين. أغلقت الأبواب. صعد محمود باشا رئيس الوزراء درجات المنبر، وفي يده ورقة. ووضع بهدوء نظارته فوق عينيه. وساد الأعضاء سكوت عميق. وقرأ محمود باشا بياناً قال فيه إنه بناءً على الرغبة الإجماعية التي أبدتها كل دول العالم الكبرى في مجلس الأمن، وبناء على إجماع الدول العربية، يستأذن مجلس الوزراء البرلمان في الموافقة على قرار مجلس الأمن بإعلان هدنة لمدة أسبوعين، ووقف إطلاق النار.

وما كاد النواب يسمعون هذا البيان الكئيب حتى هاجوا، وماجوا، وصرخوا في وجه رئيس الوزراء، ودقوا مناضدهم بأيديهم علامة الرفض البات.. وتتابع النواب على منبر مجلس النواب يهاجمون وقف إطلاق النار وجيوشنا على أبواب تل أبيب؟ كيف نقبل الهدنة وانتصار العرب أصبح مؤكداً لا شك فيه؟ كيف نضيع انتصاراتنا الساحقة؟ إن جيوشنا تنتقل من نصر إلى نصر. المدن تسقط متتابعة في أيدينا. قوات إسرائيل تفر هاربة من أمامنا. إسرائيل تولول وتبكي شاكية الذئب العربي المفترس. إنها مؤامرة أن تحرم الجيوش العربية من ثمرة انتصاراتها.

وحاصر النواب رئيس الوزراء باعتراضاتهم. أفحموه. أسكتوه. أخرسوه، وهو واقف ساكت بجوار النواب المعترضين فوق المنبر دون أن يبدو على وجهه الغضب أو الضيق بالاتهامات التي تنهال عليه من

اليمين واليسار. من معارضيه ومؤيديه، ومن أصدقائه وخصومه على السواء.

ووقف فكري أباظة على المنبر وانهال على رئيس الوزراء لوماً وتقريعاً، وسخرية واستهزاءً، كأنه بطل العالم في الملاكمة ينهال بلكماته على قزم صغير..

وكان الصحافي درويش مخلص عضواً في مجلس النواب، وكان يتتبع مناقشة النواب لرئيس الوزراء ويدهش لصمته. وأمسك قلمه وكتب في ورقة:

«لماذا لا تقول لنواب الأمة الحقيقة»؟

«لماذا لا تقول لهم إن قواد الجيش المصري الثلاثة في ميدان القتال أرسلوا إليك رسالة سرية يقولون فيها إن وضع الجيش المصري في ميدان القتال سيىء جداً، ويهدد بكارثة، ويطلبون الاتفاق بأسرع ما يمكن على حل سياسي ينقذ الموقف.. وإن قواد الجيوش العربية الأخرى يشاركونهم هذا الرأي؟ لماذا لا تقول للمجلس صراحة إن الجيش المصري دخل الحرب بغير علم الحكومة»؟

ووقع درويش مخلص بإمضائه على الورقة. ثم طواها واستدعى أحد السكرتاريين البرلمانيين وطلب منه أن يسلم هذه الرسالة إلى رئيس الوزراء.

واتجه السكرتير البرلماني إلى رئيس الوزراء على المنصة، وسلم الورقة المطوية إلى رئيس الوزراء، وفتح رئيس الوزراء الورقة، وقرأها، ثم طواها ووضعها في جيبه.

وتكلم رئيس الوزراء ورد على النواب، وبذل جهداً جباراً حتى استطاع أن يهدىء الثائرين، ويخفف حدة الغاضبين، ويستميل

المعارضين. ولكنه لم يذكر للنواب الحقيقة التي طالبه النائب الصحافي أن يصارح بها ممثلي الشعب.

وترك مجلس النواب للحكومة أن تتخذ الموقف الذي تراه بما تقتضيه مصلحة البلاد.

وانتهت الجلسة، وخرج محمود باشا رئيس الوزراء من قاعة المجلس يجفف عرقه، وهو يشعر أنه أنقذ حكومته من السقوط بأعجوبة. واتجه إلى غرفته الخاصة به في مجلس النواب، وتبعه الصحافي درويش مخلص إلى غرفته، وما كاد يراه محمود باشا حتى قال له:

ـ هل جننت يا درويش؟ هل تريد مني أن أعلن للمجلس أن قادة الجيش كان من رأيهم أن الجيش أصيب بالهزيمة، وأنهم هم الذين ألحوا في وقف إطلاق النار؟ إن الخلاف بيننا وبين الإنجليز قائم على أساس أننا نطلب الجلاء لأننا لا نستطيع أن ندافع بجيشنا عن بلادنا، والإنجليز يقولون إنهم يجب أن تبقى لهم قاعدة في القنال لأن جيشنا لا يستطيع الدفاع. فإذا اعترفنا بأن عصابات إسرائيل هزمتنا، وأن قواد جيشنا هم الذين طلبوا إيقاف إطلاق النار، فمعنى ذلك أننا أعطينا حجة للإنجليز في رفض الجلاء عن بلادنا.

قال درويش:

ـ ولكن هذه جلسة سرية.. وليست جلسة علنية!

قال محمود باشا:

ـ ولكن إذا قلت في الجلسة السرية إن قواد جيشنا هم الذين ألحوا في وقف إطلاق النار، فسيخرج النواب مذهولين بما سمعوا،

وسوف يروي كل واحد منهم لزوجته أو لصديقه ما سمعه.. وبذلك يتسرب الخبر!

قال درويش ساخراً:

ـ وهل تظن دولتك بأن الإنجليز لا يعرفون حتى الآن أننا هزمنا؟ إن صحف العالم كلها تقول إن جيوشنا هزمت في فلسطين. بلاغات وزارة الحربية المصرية وحدها هي التي تتحدث عن انتصاراتنا الرائعة.

قال محمود باشا:

ـ فرق بين أن تنشر صحف العالم هذه الحقيقة، وبين أن يقر بها رئيس وزراء مصر. إن هذا الاعتراف وثيقة رسمية في يد العدو الحقيقي وهو الإنجليز. أنت تعرف أنني كنت أتوقع كل ما حدث. وعارضت أن ندخل الحرب بغير استعداد. وإن بقائي في منصبي كان تضحية لا تقل عن تضحيتي برأسي في ثورة سنة ١٩١٩. ولكن ليس أمامي إلا أن أحتمل على رأسي هذه المصيبة.. المصيبة التي لا يد لي فيها!

قال درويش مخلص:

ـ ولكني أؤمن بأن من حق الشعب أن يعرف الحقيقة. وإذا اقتضت ظروف الحرب أن تخفي الحكومة الهزيمة على الشعب فمن واجبها أن لا تخفي الهزيمة على البرلمان. كان تشرشل يقول لأعضاء مجلس العموم في جلساته السرية الحقيقة كلها. لم يخف عنهم هزائم بريطانيا التي جللت الجيش البريطاني بالعار. ولكن الحقيقة البشعة دفعت الشعب ليحول الهزيمة إلى نصر.. أو ما سمّاه تشرشل التقهقر إلى الانتصار!

قال محمود باشا:

ـ تذكر أن إنجلترا لم يكن فيها احتلال أجنبي . . ومصر فيها احتلال أجنبي . .

وقاطعه درويش :

ـ كان جزء كبير من الأمبراطورية البريطانية محتلاً بقوات هتلر وموسوليني. كانت كل حليفات بريطانيا سقطت راكعة تحت أقدام هتلر. ومع ذلك لم يخف تشرشل على مجلس العموم الحقيقة. إن الشعب الآن مخمور بانتصار موهوم وسيفتح عينيه على الهزيمة البشعة. وسوف يتجه إليك ويتهمك بأنك سبب الهزيمة، أنت الذي حرمته من ثمرة انتصاراته. أنت الذي أوقفت الحرب وجيوشه على أبواب تل أبيب.

قال محمود باشا وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ أنا أعرف أن الشعب سيبحث عن كبش فداء، وأكون أنا كبش الفداء، ولو كنت وحدي كبش الفداء فإنني سأكون سعيداً جداً، ولكني أخشى أن جثتي وحدها لن تكفي لإشباع الأسد الجائع!

قال درويش في إصرار :

ـ إنني لا زلت على رأيي بأن الشعب إذا عرف الحقيقة كلها فسوف يصدم في أول الأمر، ولكن هذه الصدمة لن تجعله يسقط على الأرض بل ستجعله يندفع إلى الأمام. أنت تعرف أن هذا الشعب يمكن أن يتحول إلى عملاق، إذا أحسّ بأن حاكمه يثق به ويأتمنه. إذا أحس رجل الشارع بأنه يعرف أسرار الدولة التي يعرفها رئيس الوزراء. إذا أحسّ بأنه شريك الحاكم وليس تابعه، بأنه موضع ثقته وسرّه لا محل شكه واتهامه.

قال محمود باشا بدهشة :

ـ أتريدني أن أقف وأقول للشعب أن حكام البلاد العربية كذبوا علينا وخدعونا وضلّلونا، وعدونا أن يحاربوا بالجيوش فحاربوا بالكلام.

قال درويش :

ـ نعم. . نعرف الحقيقة كلها. . لنعرف من أين نبدأ، بدل أن نبني خطواتنا المقبلة على رمال. إننا الآن مخدوعون، ولكن بعد الآن سوف نصبح نحن الخادعين!.

قال محمود باشا :

ـ سيقولون إنني أبرّىء نفسي على حساب اتهام الآخرين. . سيقولون إن هذه التصريحات ستخدم العدو. . سينكرون أنهم طلبوا وألحّوا في وقف إطلاق النار. . ستصبح مصر هي المسؤولة وحدها عن الكارثة. . إن الذي تقترحه علي فرار من الميدان. .

قال درويش :

ـ هذا ليس فراراً من الميدان، إنه عمل شجاع. إننا في هذه الهزيمة نحتاج إلى شجاعة أكبر من شجاعة الموت في ميدان المعركة، وهي شجاعة الاعتراف بأننا هزمنا. . وإلا فكيف تتصور أن يكون المصير؟

قال محمود باشا :

ـ إنني أعرف المصير جيداً. . إن مصيري معروف. . هو رصاصة يطلقها شاب علي. . . . وينتهي دوري!

وانصرف الصحافي ورئيس الوزراء على خلاف. الصحافي يقول إن إعلان الحقيقة كاملة هو الطريق الوحيد للخلاص، ورئيس الوزراء يرى أن إخفاء الحقيقة كلها هو الطريق الوحيد لتفادي كارثة أكبر من كارثة الهزيمة!

وذُهش درويش بعد ذلك عندما وجد أن كثيراً من زعماء العرب الذين التقى بهم بعد ذلك يؤيّدون وجهة نظر محمود باشا . . بأن إعلان الحقيقة سوف يؤدي إلى ضياع فلسطين!

كأن فلسطين لم تكن قد ضاعت بعد . . .

لقد قابل بعد ذلك رياض بك الصلح رئيس وزراء لبنان فقال له :

ـ إن البعض منّا يؤمن بسياسة النعام . فإذا أخفت النعامة رأسها في الرمال تصورت أنها اختفت عن سهام الصياد . إننا نخاف الحقيقة لأننا نخاف من أنفسنا . ولو كنّا نثق بأنفسنا لما فزعنا من مواجهة أنفسنا . نحن نتطرف في عواطفنا . نعرف كيف نتعصب لبلادنا ولا نعرف كيف نحبها . نعرف كيف نكره خصومنا حتى نحولهم إلى أعداء، ولا نعرف كيف نكسب أعداءنا ونحوّلهم إلى خصوم، ثم نحوّلهم إلى أصدقاء . فينا غرور، وليس فينا ثقة بالنفس . لاعبون ممتازون كأفراد، ولاعبون فاشلون كفريق . نريد أن نكون الضدّين معاً، أبطالاً وضحايا في وقت واحد، ذئاباً مفترسة ونعاجاً بريئة في جلد واحد . نهوى التحدث عن البطولات ونكره أن نمارسها . نفلسف أخطاءنا وندافع عن خطايانا . نريد اليوم أن نتاجر بقضية اللاجئين وننسى أن اليهود برعوا في هذه التجارة وتخصصوا بها، وخدعوا العالم بقصة اليهودي التائه، فكأننا نبيع الفحم في نيوكاسل، أو الماء في حارة السقايين في القاهرة، أو الكبة في بيروت . . لقد سمعت قواد الجيوش العربية يتحدثون عن قوة جيوشهم قبل المعركة، ولقد صدّقت واحداً من عشرة من أقوالهم، وتصوّرت أنهم سيكتسحون اليهود في ساعات . ولكن المعركة أثبتت أن طبولنا أعلى صوتاً من مدافعنا . إن قوادنا اثبتوا أنهم أقدر على إطلاق الكلمات أضعاف قدرتهم على إطلاق المدافع!

قال درويش مخلص :

ـ وما هو الخلاص؟ . .

قال رياض الصلح :

ـ الخلاص أن نبدأ من جديد . نبدأ من الصفر . نعترف أننا صفر . . ونعترف أن جيوشنا صفر . . ونعترف أن قوادنا صفر . . ونحاول أن نجمع الدول العربية لتتحول من أصفار إلى عدد صحيح . . إننا هزمنا لأن لدينا سبع قيادات ولدى العدو قيادة واحدة . لدينا سبعة جيوش ولديهم جيش واحد .

وبدأ رياض الصلح جهوده لضم الدول العربية . . وبينما كان يقوم بمهمته في عمّان يحاول إقناع الملك عبد الله بوجهة نظره، أطلق عليه بعض الشبان الرصاص وقتلوه!

كان من الممكن أن تنفجر الكارثة لتخلق الإنسان العربي الجديد . أحلام بلا أوهام . صراع حياة لا كفاح كلمات . جد في العمل وتغيير في الخطب والتصريحات . حرب بالعلم، لا حرب بالشعر . نعطي قيادة المعركة للفلسطينيين، ولا نعزلهم عن قضيتهم ونبت فيها بالنيابة عنهم، ونحولهم إلى متفرجين لا حق لهم إلا في التصفيق والهتاف .

نتكلم ليسمعنا العالم لا لنسمع أنفسنا . نعوّد أنفسنا على رؤية الحقيقة العارية . وهي حقيقة لأنها عارية . ويوم نغطي الحقيقة إنما نحن نزيفها لا نزينها . يجب ألا يكون كلامنا أكبر منا . بل أن يكون كلامنا في حجمنا . إننا نتوهم أن الأعلام الكبيرة في أيدينا الصغيرة ترفع قيمة مواكبنا، بينما هي في الواقع تعثر خطواتنا .

نؤمن بالدين ولا نتاجر به. نعتبره ضميراً يحاسبنا على تخلفنا، وليس فلسفة نبرر به حياة تنابلة السلطان، الذين يحلمون ولا يعملون، يتوضأون بغسل جلودهم ولا يطهرون قلوبهم، يصلون إلى الله طالبين النصر راكعين ساجدين، ولا يقفون على أقدامهم. يحققون النصر بأيديهم بدلاً من دعائهم.

ولكن مجتمع عام ١٩٤٨ لم يكن مشغولاً بتحقيق النصر، بقدر انشغاله بالتبرؤ من الهزيمة. كل فريق منا كان يريد أن يضع المولود غير الشرعي على باب دار جاره، ليتخلص من عاره، مع أن هذا الإبن غير الشرعي هو ابننا جميعاً.

كلنا شركاء في جريمة الزنا السياسي.. كلنا رفضنا أن ندفع الثمن الحقيقي للمجد الشرعي، لأنه مهر غالٍ، وآثرنا أن نحصل على لذة المجد بثمن رخيص.. ثمن الغواني الزائفات لا ثمن الزوجات الأمينات..

وهكذا كانت أمجادنا ساعات نفيق بعدها فنجد أنفسنا فعلنا شيئاً أشبه بالاستمناء السياسي، نتخيل أشياء ثم نعرف بعد دقائق أنها كانت أوهاماً وخيالات!

وكان الأمير عادل عمرو وأصدقاؤه هم أسرع من استفاق من الصدمة وبدأوا يبحثون عن أكباش للفداء. إن المطلوب ليس أن نكسب الحرب، ولكن أن نجد من نلقي عليهم مسؤولية الهزيمة. لم يعد الخصوم في تل أبيب، وإنما الخصوم في القاهرة.

وجلس الأمير عادل وكتب تقريراً للملك عن الأبطال المجهولين الذين خاضوا المعركة في صمت وتجرد وشجاعة ونكران الذات. وذكر

في مقدمة الأسماء الأميرالاي عباس الشمردلي المسؤول عن سلاح التموين وخدمة الجيش، وطلب ترقيته إلى رتبة اللواء وتعيينه قائداً لسلاح التموين وخدمة الجيش، بدلاً من اللواء محمد السايح القائد الحالي، الذي لم يفكر، ولم يخلق ولم يبتكر، ولم يحل الأزمات كما فعل الشمردلي بك.. ولو أن الإدارات الحكومية التي يرئسها المدنيون لم تتلكأ في تنفيذ اقتراحاته وأفكاره لتغير وجه المعركة، واختلف مصير الحرب.

ثم يثني الأمير عادل على اللواء سعدون باشا قائد الفرسان والمشرف على المخابرات العسكرية، ويقول إن الأحداث أثبتت أن جهازه كان عارفاً بخطط الأعداء، وأنه نبه إليها، ولولا غفلة الحكومة لما تعرض الجيش إلى الكارثة التي نزلت ببعض وحداته، ولولا كفاية سعدون باشا لكانت الكارثة أكبر مما هي مائة مرّة، ولهذا فإن الأمير عادل يقترح على الملك تعيين اللواء سعدون باشا رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش ليقوده في المعارك القادمة إلى النصر المؤكد.

ثم يشيد الأمير عادل في تقريره بعبقرية فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام الذي استطاع أن يقبض على الموقف بيد من حديد، ويسيطر على الأمن ويمنع التظاهرات التي كان يدبرها خصوم الملك، ولهذا يقترح الأمير عادل ترقيته إلى منصب وكيل وزارة الداخلية لشؤون الأمن العام، على أن يصبح وزير الداخلية في أول تعديل وزاري يحدث.

ثم يتحدث الأمير عادل عن البطولة التي أظهرها اللواء حماد باشا في المعارك وما أظهر من روح التضحية ونكران الذات، وأنه مهما كوفئت هذه البطولات بأوسمة ونياشين ورتب ومناصب، فإنها أقل مما

قدمت في المعركة، وأن الأمير يرجو أن يجزيهم الله خير الجزاء على ما قدّموه للبلاد والجيش من تفان وإخلاص وخدمات. .

وهكذا لم يكتفِ الأمير عادل بقصور الحراسة التي أخذها هؤلاء القواد، بل طالب لهم أيضاً بقصور في الجنة!

ثم تذكر الأمير أن يقول كلمة عن الأميرالاي شعبان بك شعيب، وكيف أنه قاد انسحاباً رائعاً للدبابات عجز الماريشال روميل عن تحقيق نجاح مثله. . . ونسي طبعاً أن يقول أن شعبان بك كان في القاهرة أثناء عملية الانسحاب!

ونسي الأمير أن يكتب كلمة واحدة عن الضباط والجنود الذين استشهدوا وشوهوا وجرحوا، وعن اليتامى والأيامى والأرامل الذين تركوهم وراءهم وعن زوجات الشهداء اللواتي حفيت أقدامهن أمام مكاتب وزارة الحربية طلباً لصرف معاشاتهن!

ولكنه لم ينسَ أن يقول في نهاية مذكرته إننا إذا نظرنا إلى المعركة من وجهة النظر العسكرية الاستراتيجية لوجدنا أن قيادة الجيش انتصرت. وأن الهزيمة هي هزيمة السياسيين الذين لم يعرفوا أن يستغلوا هذه الانتصارات. . وأن القيادة أثبتت بشهادة الأعداء أنها قيادة عبقرية ممتازة، وأنه لو كانت أمور الدولة كلها في أيدي القيادة لتم الانتصار الكامل خلال أيام، ولكن أيدي القيادة كانت مقيّدة بتدخل السياسيين الجهلاء بشؤون الحرب وفنون القتال!

واعتقد الأمير أنه بهذه الورقة استطاع أن يغطي المدافع الراكعة، والبنادق الخاشعة، والسيوف المنكسة، والقيادة المفلسة، والطائرات المهيضة الجناح، والجثث المكومة، والأسلحة المحطمة. . ظن لو أنه

أنشد أنشودة النصر في جنازة، فسوف تخرج الميت من النعش وتعيد إليه الحياة. أن يحوّل الدموع إلى زغاريد، والأكفان إلى أعلام، وموكب الجنازة إلى موكب غزاة منتصرين!

وقد تواضع الأمير عادل في مذكرته للملك فلم يذكر فضل الراقصة ببا فهمي، ولا أمها ست زليخا ولا قلعة بيت الهرم بين الأسباب الرئيسية في الانتصار العظيم!

ولكن زغاريد المنتصرين لم تغطِّ على أنين الجرحى والمشوّهين في المستشفى العسكري بالعباسية.

في إحدى غرف المستشفى بالدور الأول كان يرقد الصاغ علاء الدين ملفوفاً بالأربطة والضمادات. .

أخفى الأطباء على عزيز أن القنبلة نسفت أصابعه العشرة. وجبسوا يديه وأقنعوه أن في كفّيه كسراً لا يلبث أن يشفى منه وأمكنهم استخراج خمس رصاصات من جسمه، وعجزوا عن إخراج الرصاصة السادسة، لأنها كانت قريبة من الرئة. واتفق الأطباء أنه ممكن أن تترك كما هي، وأنها لن تؤثر على تنفسه، وأنه يستطيع أن يعيش بها طول حياته، وأخبروه أنهم أخرجوا هذه الرصاصة أيضاً ولكن الأطباء أخبروا زوجته شريفة بالحقيقة كلها. وطلبوا إليها أن تخفي هذه الحقيقة إلى أن يتم شفاء عزيز من باقي جروحه، ثم بعد ذلك يمهدونه للحقيقة البشعة تدريجياً.

إن الأطباء يعالجون الجرحى الميؤوس من شفائهم، بنفس الطريقة التي يعالج بها السياسيون الشعب المصري. إنهم يعطونه الحقيقة بالقطارة. فإذا صرخ وتأوّه، حقنوه بأفيون الأكاذيب ليخدره حتى لا يشعر بآلام الحقيقة وعذابها!

كانت شريفة تحب أصابع عزيز العشرة أكثر مما تحب عينيه الحالمتين، وأكثر مما تحب شفتيه الشهوانيتين، وأكثر مما تحب أنفه الفرعوني، وأكثر مما تحب قوامه الروماني، وأكثر مما تحب حديثه الساحر.

كان عزيز في نظرها هو أصابعه العشرة. حنانه في هذه الأصابع التي تلعب في شعرها. كهرباؤه في هذه الأصابع التي تعزف على جسدها. بلاغته في هذه الأصابع التي تعبر وهو يتكلم، وكأنها ترسم الأحداث وتصور الكلمات، وها هو سيعيش بلا أصابع، بلا حنان، بلا بلاغة، بلا كهرباء!

إنها قرأت على أن الفرق بين الإنسان والحيوان هي الأصابع. إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يحرك أصابعه كما يشاء. وبهذه الأصابع بنى المدنيات وخلق الحضارات، واخترع الكتاب، وصنع الأنغام!

ماذا سيفعل عزيز عندما يكتشف أنه أصبح بغير أصابع؟ الكفّان الجميلتان ستتحولان إلى كفّين مشوّهتين .اليد ستصبح نصف يد. . بل إنها ستصبح يداً عاجزة. ما قيمة يد بغير أصابع، كأنها عين بغير حدقة. كأنها أذن بغير طبلة. كأنها فم بغير لسان. إنها ستحاول أن تكون أصابعه العشرة التي فقدها. ستعزف له. ستشعل له السيجارة بيدها. ستحمل الطعام إلى فمه. لن تفارقه. إنها لا تريد أن يشعر لحظة أنه أصبح عاجزاً مشلولاً. انتهى دوره في المعركة وبدأ دورها فيها. ستحارب هذه العاهة. ستنتصر عليها. ستهزمها. ستثبت له أن حبها وإخلاصها وتفانيها هي أصابعه العشرة التي لن تنسف أبداً.

قال الأطباء إن الأطباء في ألمانيا اخترعوا أيدي صناعية لمشوهي

الحرب، وأصابع صناعية من المطاط يمكن أن يحركها الذي فقد أصابعه، وهي في شكل قفاز في داخله بطارية كهربائية. . وإن هذا الجهاز يكلف خمسة آلاف جنيه. وإن العين المجردة لا تستطيع أن تفرق بين الأصابع الصناعية والأصابع الحقيقية.

وفرحت شريفة بهذا الاختراع. وسألت: هل ستتولى وزارة الحربية دفع تكاليف هذه الأصابع؟ فقال الأطباء لها إن المبلغ كبير، ويحتاج إلى واسطة كبيرة، وإنه لما كان الصاغ عزيز علاء الدين ضابطاً في المدفعية، فإن الأميرالاي شعبان بك شعيب قائد المدفعية بالنيابة يستطيع أن يوصي على إيفاد عزيز إلى ألمانيا لتركب له الأصابع الصناعية على حساب الدولة.

وذهبت شريفة إلى مكتب شعبان بك، ولكنه كان مشغولاً. . ذهبت عشرات المرات دون أن تيأس، ودون أن تغضب لاعتذارات أركان حربه، ولسوء معاملة الحارس الواقف على الباب،جعلت برنامجها اليومي أن تذهب إليه.

ولكن عبثاً استطاعت أن تصل إلى الأميرالاي شعبان بك شعيب. إنه مشغول. إنه في مؤتمر. إنه سافر إلى الجبهة. إنه لم يحضر اليوم. إنه يتحدث في التليفون. إنه في الحمام. لقد عرفت شريفة كل شيء عن حياة شعبان بك شعيب اليومية. متى يحلق ذقنه في مكتبه، متى يفطر في مكتبه. متى يقرأ الجرائد في مكتبه، متى يتحدث ساعة كاملة صباح كل يوم ويضيء اللون الأحمر علامة على خطورة الحديث. عرفت كل هذا. . ولكنها لم تعرف كيف تقابل هذه الشخصية الخطيرة أو تقدم لها طلب تركيب الأصابع العشرة لزوجها بطل معركة ساموراي!

وكانت تعود كل يوم إلى المستشفى العسكري، وهي تخفي خيبة أملها في ابتسامة، فإن زوجها لم يعرف شيئاً عن الجهد الشاق الذي تبذله، لأنه لم يعرف أنه فقد أصابعه العشرة..

وجاء اليوم الـذي سيخرج فيـه الصاغ عـزيز عـلاء الدين من المستشفى. اليوم عيد لكل مريض ولكل قريب لمريض. ولكنه أشقى يوم في حياة شريفة. لقد اختار الأطباء هذا اليوم بالذات ليقولوا لعزيز إنه فقد أصابعه العشرة!

لم تنم شريفة في الليلة السابقة. بقيت ساهرة في فراشها. حائرة، قلقة، تتصور أثر الصدمة على زوجها وحبيبها. إنها تعرف أن زوجها شجاع لا يخاف الموت. جريء لا يرهب الخطر. قوي الأعصاب لا تهزه الأحداث. ولكن، كيف سيواجه الصدمة التي لم تخطر له على بال؟ كيف يتصور حياته بغير أصابعه العشرة؟.

وقد أصر الأطباء على أن تحضر شريفة المصارحة التي ستحدث بينهم وبين عزيـز. وقالـوا إنهم يعتقدون أن وجـودها سـوف يخفف الصدمة، وأنه يجب أن تتظاهر أمام عزيز بأنها تسمع الخبر لأول مرة، وتقابل الخبر المزعج بشجاعة، وعندئذ سوف يستمد عزيـز شجاعـة جديدة من شجاعة زوجته، فإننا نرى دائماً حجم نكبتنا في عيون من حولنا، فإذا هوّلوا فيها هالتنا، وإذا صغروا من شأنها، بدت لنا أنها أصغر مما نراها!

وحلّت اللحظة الرهيبة. وكانت شريفة قـد ساعـدت عزيـز في ارتداء ملابسه ووضعت جاكتته العسكريـة فوق كتفيـه، لأن حجم الجبس الذي يلف يده لم يسمح لها بالدخول من كمّ الجاكته. وكان يبدو على عزيز السعادة بأنه سيغادر المستشفى ويعود إلى بيته. كان يتمنى أن

ينفرد بشريفة. أن يجدد ليالي الهوى والحب بـين ذراعيها. لقـد كان يسـترق القبـلات منهـا في غـرفته بـالمستشفى وهـو يغـافـل عيـون الممرضات الفضوليات.. وأقبل أحد الأطباء وقال لعزيز وزوجته:

ـ إن اللواء كبير الأطباء يريد أن يقابلكما..

قال عزيز:

ـ وأنا أريد أن أقابله لأسألـه متى أعود إلى ميـدان القتال.. إن الصحف تقول إن المعركة سوف تستأنف قريباً.. ولا يمكن أن يبدأ القتال وأنا في بيتي!

وأخذت شريفة شهقتها في ابتسـامة مغتصبـة.. ومشت بجوار عزيز خلف الطبيب إلى غرفة الأطباء.

ووقف كبير الأطباء وحيّاها بابتسامة وقال لعزيز:

ـ لقد نجوت يا عزيز من الموت بأعجوبـة. إنني فخور بـالعمل العظيم الذي قام به الجراحون في المستشفى العسكري.

قال عزيز وهو يبتسم:

ـ وأنا اشكركم من كل قلبي على هذه العناية. ولكن اريد ان اسأل متى أستطيع العودة إلى ميدان القتال؟

قال كبير الأطباء وهو ينظر إلى أرض الغرفة:

ـ أخشى أن أقول لك إنه لا يمكن أن تعود إلى ميدان القتال!

قال عزيز في جزع:

ـ لا أقبل أن أبقى في القاهرة وجنودي يموتون في المعركة.. إن

مكاني هناك.. إن صحتي جيدة.. إن أصابعي تأكلني.. تشتاق إلى حمل مدفعي الرشاش!

قال كبير الأطباء:

ـ آسف أن أقول إنه لم تعد لك أصابع ممكن أن تمسك مدفعاً رشاشاً أو تمسك قلماً من الرصاص.. إن القنبلة نسفت أصابعك العشرة!

قال عزيز وهو ينظر إلى الجبس الذي يغطي يده:

ـ لا يمكن هذا.. لا يمكن.. لماذا لم تتركوني أموت؟ ما فائدة حياة ضابط بغير أصابعه العشرة؟ لماذا أنقذتموني.. لماذا عالجتموني.. كان يجب أن تتركوني أموت!

قال كبير الأطباء:

ـ إن واجبنا أن ننقذ حياتك.. وقد أدّينا واجبنا.. أما أصابعك فلم نستطع إنقاذها.

قالت شريفة:

ـ إن هذا خبر سيىء.. ولكني علمت أنه ممكن تركيب أصابع عشرة صناعية تتحرك. وإن هذه عملية سهلة جداً في ألمانيا.. وفي هذه الحالة يمكن أن يعود عزيز إلى ميدان القتال ويمسك بمدفعه كما يشاء.. أليس كذلك يا دكتور؟

قال كبير الأطباء وهو يحوّل نظره عن عزيز حتى لا يرى الكذب فيه:

ـ هذا ممكن جداً.. إنها عملية سهلة جداً.. وسريعة جداً.. وبسيطة جداً.

قالت شريفة وهي تتصنع الابتسام:

ـ إن هذا سوف يحل المشكلة...

وسكت عزيز ولم يتكلم، ولكن سقطت من عينه دمعة، وحرّك يده ليمسح الدمعة، ولكن الجبس لم يستطع أن يصل إلى العين الدامعة..

وأسرعت شريفة تخرج من الباب، وهي تدفع عزيز أمامها حتى لا يرى الدموع التي امتلأت بها عيناها!

ما كاد عزيز علاء الدين يعود إلى بيته، ويكسر الجبس الذي يخفي كفّيه المشوّهتين، حتى أحست زوجته شريفة بأن التشويه ليس في كفّيه فقط، وإنما امتد إلى روحه ونفسيته ومزاجه وتصرفاته.

تغيّرت شخصية الصاغ عزيز المرحة، وأصبح منطوياً على نفسه، ينفر من الناس، كأنه يريد أن يضع نفسه كلها داخل الجبس. كأنه يخشى أن يرى الناس يديه المشوهتين. أصبح عصبياً، لا يطيق أن يسمع في محنته كلمة عطف. كانت كلمة العطف أشبه بخنجر يغمد في صدره.

وكانت شريفة إذا وضعت سيجارته في فمه وحاولت أن تشعلها لا يشكرها وإنما يزفر زفرة طويلة كأنه يكره أصابعها العشرة التي بقيت في كفيها. وكانت إذا وضعت الطعام أمامه وحاولت أن تمسك بيدها الملعقة وتغرف بها الطعام وتضعه في فمه كما كانت تفعل وهو في المستشفى، كان يثور عليها، ويقول إنه يستطيع أن يضع فمه في الطبق ويأكل منه دون حاجة إلى مساعدتها.

ثم يحني رأسه على صحن الطعام، فيعجز عن التقاط قطعة اللحم بشفتيه. وتسرع شريفة إلى مساعدته، فيثور فيها ويقول إنها لو تركته وشأنه قليلاً لاستطاع أن يقطع اللحم بشفتيه!

وعندما كانت تعانقه بذراعيها، ويشعر بأصابعها تضغط على جسده، ينفر منها، ويتخلص من ذراعيها، وكأن أصابعها تذكره بالأصابع التي فقدها.

وأحست شريفة برغبة أن تخفي أصابعها خلف ظهرها، كأن أصابعها أصبحت عاهتها التي تنفر زوجها. وهي تجلس حائرة لا تعرف ماذا تفعل. أصبحت يداها عقدتها. أصبحت تشعر أنها لو قطعت أصابعها العشرة لاقتربت من عزيز. كأن هذه الأصابع العشرة تقف بينهما. تخفي حبها عنه، تشوهها في عينيه. إنها تبذل مجهوداً عنيفاً كي تتظاهر أمامه بأن كفّيه المشوهتين لا تستلفتان نظرها، إنها تتعمد أن لا تسقط عيناها عليهما. كأنها لا تراهما أبداً. بينما هي في الواقع تراهما في كل مكان، مطبوعتين على الجدران، مطبوعتين على ملاءة الفراش، مطبوعتين على عينيها!

ولقد واظبت على الذهاب كل يوم إلى وزارة الحربية تحاول أن تحصل على واسطة لإيفاد زوجها إلى ألمانيا ليركّب الكفين الصناعيتين. ولكن جهودها ذهبت هباء. كأن عزيز لم يعرفه أحد في الوزارة، ولم يسمع باسمه، ولا يذكر بطولته في معركة ساموراي. إن أبواب الوزارة تتنكر لها. الجدران تشيح بظهرها. كبار الضباط يتجاهلونها.

وفي كل مرة تخرج شريفة إلى وزارة الحربية وتعود يسألها عزيز أين كانت، وفي كل مرة تختلق قصة. أصبحت تدّعي أنها مريضة بعدة أمراض لتريحه، لتشعره بأنها شبه عاجزة مثله. إنها تخترع أمراضاً

وهمية. كل مرض منها خطير يهدد بالموت، وتحس بأن عزيز يرتاح وهو يسمع حديثها عن مرضها، وشكواها من آلامها..

ولكنها بعد فترة من هذا التمثيل بدأت تحس أنها مريضة فعلاً.. إن قلبها الذي كانت تدّعي أنه مريض بدأ يؤلمها، مصارينها التي كانت تزعم له أنها تعذبها بدأت تعذبها فعلاً. إننا من كثرة ما نردد من أكاذيب نصدقها، وما نتوهم من أمراض نصاب بها!

وذات يوم فوجئت بعزيز عند خروجها يقول لها في غضب:

ـ إنني لست مغفلاً كما تتصورين.. إنني أعرف أين تذهبين صباح كل يوم..

وتسمّرت شريفة في مكانها في هلع.. وقالت وهي تسترد أنفاسها:

ـ ماذا تقصد يا عزيز؟ أنا أذهب إلى الطبيب..

قال عزيز وهو يصرخ في وجهها:

ـ أنا أعرف أنك تذهبين إلى الطبيب. ولكن لا تذهبين للعلاج.. إنك أحببت أحد أطباء المستشفى العسكري.

قالت وهي تساوي شعرها، كأنها تمسح صفعة على وجهها:

ـ من هو الطبيب الذي أحببته يا عزيز؟

قال عزيز:

ـ أي طبيب. أي طبيب له عشرة أصابع!.

قالت شريفة وهي تحاول أن تسيطر على أعصابها:

ـ الله يسامحك يا عزيز. . إنك لم تقل لي في يوم من الأيام منذ أن أحببتني إنك تشك فيّ!

قال عزيز:

ـ قبل الآن لم يكن يجرؤ رجل أن ينظر إليك. . إنهم يعرفون أنني كنت بطل الكلية الحربية في الملاكمة. . أي رجل كان يعرف مصيره إذا نظر إليك. . كنت أستطيع بضربة قاضية أن ألقيه على الأرض. . أما الآن فإنهم كلّهم يعرفون أنني بلا أصابع. . أنني لا أستطيع أن أدافع عن نفسي ولا عن زوجتي. إنها فرصة للذئاب كلها. . أن يجدوا الراعي مغلول اليدين بلا حراك!

قالت شريفة:

ـ وهل تظن أن من السهل على أي رجل أن يأخذني منك؟

هل تظن إنني أخلصت لك لأنني كنت أخاف من يديك؟ إنني أخلصت لك لأني أحبك. . لأنني وأنت بلا يدين، أشعر أنك أجمل رجل في الدنيا. . إن فينوس آلهة الجمال بلا ذراعين، والناس يعبدونها.

قال عزيز ساخراً:

ـ إن فينوس تمثال آلهة. . والناس تتفرج على تمثال فينوس. . ثم تصحب أي فتاة بذراعين إلى مخادعهم. . أنا أيضاً أصبحت تمثالاً في نظرك. . ولهذا بدأت تبحثين عن لحم ودم. . لحم ودم له عشرة أصابع. .

قالت وهي تبكي وتمسح دموعها:

ـ إنني يا عزيز، أصابعك العشرة. . أنا التي سأدافع عن اسمك وعن شرفك. إن القوة التي أشعر بها في حبك تجعلني أشعر أنني أصبحت بطلة الملاكمة. . إن رجلاً واحداً لم يحاول أن يستغل محنتنا. . إنهم لم يقدموا لنا أيديهم. . لا ليساعدونا، ولا ليسلبوني منك. . إن المرأة الشريفة ليست في حاجة إلى بطل ملاكمة يمشي وراءها ويحرسها. . إن تصرفاتها هي أبطال الملاكمة التي تحميها من الذئاب. .

وقبلته في شفتيه وخرجت. .

ثم عادت منكّسة الرأس. .

ووقفت أمام المصعد في العمارة تنتظر نزول المصعد من الدور العلوي وفجأة وجدت وراءها اللواء سعدون باشا. .

وكانت هذه أول مرة ترى سعدون باشا في العمارة. . فقد كانت الأوقات التي يجيء فيها سعدون باشا إلى العمارة غير أوقات خروجها ودخولها. . وتذكرت وجه سعدون باشا الذي رأته في الصحف، ورأته في سيارته الكبيرة وهي واقفة أمام باب وزارة الدفاع. .

وتقدمت شريفة نحوه ومدت إليه يدها وهي تقول في بسالة حلوة:

ـ صباح الخير يا سعادة اللواء سعدون باشا.

واضطرب اللواء سعدون باشا وهو يرى سيدة جميلة تصافحه، واضطرب لأن سيدة تناديه باسمه في العمارة التي تعرفه باسم محمد بك سعيد من أعيان أسيوط.

ووقف سعدون باشا يأكل شريفة بعينيه الشرهتين. وكأنه لم يذق امرأة قبل الآن.

وقالت شريفة بغير أن تلاحظ عين الذئب في وجه القائد العظيم:

ـ إنني زوجة الصاغ عزيز علاء الدين. . الذي قطعت أصابعه العشرة في معركة ساموراي، وكنت أريد أن أحدثك بشأنه. .

قال اللواء سعدون باشا وهو ينظر حواليه خشية أن تقبل السيدة التي ينتظرها في موعد الغرام، ودخل المصعد بسرعة وهو يدفع شريفة أمامه:

ـ هذه مسائل عسكرية لا يمكن التحدث فيها في الشارع. . إنني على استعداد لأن أقابلك في أي موعد نتفق عليه. .

قالت شريفة وهي تضغط على زر المصعد الذي يشير إلى الدور السادس حيث تقيم:

ـ لماذا لا تجيء عندي الآن في الشقة لأحدثك في هذا الموضوع. . إنني أسكن في الدور السادس!

وحار سعدون باشا بين موعده مع الممثلة السينمائية كاميليا كامل وبين هذه السيدة الجميلة المليئة بالفتنة والإغراء. . هذه المرأة التي تسكن في الشقة التي فوقه. . وكأن القدر اختار لها هذا المكان الاستراتيجي الرائع!

إن سعدون كسب كل معاركه الحربية بالحظ. ولكن حظه اليوم فاق كل حظوظه السابقة!

وقرر اللواء سعدون باشا أن القائد الحربي المعتدي هو الذي يصدر قراراته على الفور، فقرر أن القلعة الجديدة أجمل ألف مرة من القلعة القديمة، فقرر أن يذهب إلى شقة شريفة، ويترك الممثلة كاميليا كامل تنتظر أمام باب شقته، خاصة وأنه يعلم أن الضابط عزيز علاء الدين عاجز في المستشفى لا يستطيع الحراك!

وقالت شريفة وهي تفتح باب المصعد! إن زوجي الصاغ عزيز علاء الدين سيكون سعيداً بمقابلتك.

وفوجىء القائد الكبير بأن الزوج في البيت!

وتراجع اللواء سعدون باشا تراجعاً تكتيكياً وقال كأنه لا يصدق أذنيه:

ـ هل زوجك في الشقة؟ لقد سمعت أنه في المستشفى العسكري.

قالت شريفة:

ـ لقد غادر المستشفى العسكري منذ أسابيع!

قال اللواء سعدون باشا وقد بدت عليه خيبة الأمل التي تظهر على القواد عندما يتراجعون أمام قلعة تصوروا منذ لحظات أنها ستسقط في أيديهم بسهولة:

ـ إنني الآن مرتبط بموعد هام جداً. .

ثم نظر إلى ساعته وقال:

ـ لا شك أنني لا أستطيع الدخول الآن. . إنني أعدك بأن أحضر لمقابلتك ومقابلة الصاغ عزيز علاء الدين خصيصاً. . إنه بطل ولا يصح أن أزوره دقيقة واحدة. . سأعطيك رقم تليفوني الخاص. . وأرجوك أن تتصلي بي ونتفق على الموعد. . .

وأعطاها رقم تليفونه، فكتبته في أجندتها. .

ثم أغلق باب المصعد ونزل إلى الدور الأول، ثم صعد مرة أخرى إلى الدور الخامس حيث شقته الخاصة. .

وتقدمت شريفة إلى الباب، وأخرجت مفتاحها لتفتحه، وما كادت تفتح الباب.. حتى وجدت زوجها عزيز علاء الدين ينظر إليها شذراً..

ـ من هو الرجل الذي كنت تتحدثين إليه الآن؟

ـ ١٠ ـ

أغلقت شريفة باب الشقة بسرعة خشية أن يسمع الجيران صوت شتائم زوجها عزيز وهي تنهال عليها بلا رحمة، كان لسانه يهوي عليها بالصفعات بدلاً من أصابعه العشرة المقطوعة.

كان الشرر يتطاير من عينيه والسباب ينهمر من شفتيه دون أن يتوقف لحظة ليسمع دفاعها عن نفسها!

لقد سمع عزيز وهو واقف وراء الباب صوتاً غريباً يملي على زوجته رقم تليفونه، ويطلب إليها أن تحدثه في هذا الرقم. لو كانت أصابعه العشرة في كفيه لفتح باب الشقة، وخرج إلى الرجل الذي يعطي رقم تليفونه الخاص لزوجته تمهيداً لموعد غرام.. لانهال عليه ضرباً وصفعاً وركلاً.. ولكنه عاجز بغير أصابع.. لا يستطيع أن يفتح الباب المغلق.. لا يستطيع أن يدافع عن شرفه المهدد.

ووقفت شريفة مبهوتة أمام ثورة عزيز. أخرستها اتهاماته الظالمة. دهشت أن تخرج من الشفتين اللتين طالما سمعت منهما أرق عبارات الغزل وأحلى كلمات الهوى، تخرج منهما هذه الصفات التي تلطخها بالطين والعار.

ثم رأت عزيز يهوي على الأرض وهو يبكي وينتحب. إن القدر

سجنه في زنزانة من العجز. كأنه محكوم عليه في هذه الزنزانة حكماً مؤبداً، الأغلال في يديه يتلقى سياط السجان ولا يستطيع أن يحمي وجهه بكفيه. يسمع الشتائم ولا يجد أصابع يسد بها أذنيه. تسلب منه المرأة التي يحبها وهو لا يستطيع أن يفتح باب الزنزانة ليستعيدها. إنه لم يشعر بمعنى عجزه كما شعر به وهو يسمع رجلاً يغازل زوجته ويمهد لموعد لقاء، ولا يستطيع أن يدافع عن شرفه. يحدث هذا أمام باب بيته وهو عاجز أن يفتح الباب.. عاجز أن يمسك بخناق اللص الذي جاء يسرقه في رائعة النهار.

ومالت شريفة على جسده وهو ملقى على الأرض يبكي وينتحب، وهي ممزقة بين شتائمه التي آلمتها وبين بكائه الذي يعذبها، ورفعته وهي تحضنه بذراعيها القابضتين على أصابعها حتى لا يشعر عزيز بهذه الأصابع التي أصبح يكرهها. وأجلسته على كنبة، وأخرجت منديلها وراحت تجفف دموعه ودموعها.

وقالت له وهي تنتحب:

ـ لماذا تظلمني يا عزيز.. لماذا لا تنتظر حتى تسألني؟

قال وهو يتأوه:

ـ كيف أسألك وقد سمعت بأذني؟

قالت:

ـ إنني لم أخبرك انني أحاول منذ أسابيع أن أقابل الأميرالاي شعبان بك شعيب نائب مدير سلاح المدفعية لأطلب منه أن يوافق على سفرك إلى ألمانيا ليركبوا لك أصابع صناعية على حساب الدولة. كنت أكذب عليك عندما أقول لك إنني أتردد على الطبيب. كنت أريد أن أجعل

سفرك مفاجأة سارة لك. فشلت في مقابلته. ثم التقيت باللواء سعدون باشا أمام مصعد البيت، ودعوته ليدخل الشقة ويقابلك لأشرح له موضوعك، فاعتذر بأنه مشغول وطلب مني أن أتصل به تليفونياً لنتفق على موعد آخر يزورك فيه ويتحدث إليك طويلاً، وأعطاني رقم تليفون مكتبه.

ثم فتحت شريفة حقيبة يدها بحركة عصبية، وأخرجت الأجندة وفتحت الصفحة التي كتبت فيها رقم سعدون باشا وقدمته له وهي تقول:

- خذ الأجندة.. واطلب الرقم بنفسك لتتأكد أن هذا رقم تليفون سعدون باشا..

وجلس عزيز بلا حراك. ووجمت شريفة، فقد تذكرت فجأة بأن عزيز ليس له كف يأخذ بها الأجندة.. وليس له أصابع يدير رقم تليفون سعدون باشا. وخشيت أن يتصور أنها تسخر منه، فأسرعت وأحضرت التليفون وهي تجر وراءها حبله الطويل، وجلست إلى جوار عزيز وفتحت الأرقام المكتوبة في الأجندة، ثم قرّبت السماعة من أذن عزيز وقالت:

- هل اللواء سعدون باشا موجود؟

وأجاب صوت:

- لا يا افندم... خرج لحضور اجتماع.. من يتكلم؟

ولم تجب شريفة، بل نظرت إلى عيني عزيز كأنها تسأله:

هل سمعت بأذنك؟ ثم وضعت السماعة على آلة التليفون..

وتصورت شريفة أن عزيز استراح بعد أن عرف الحقيقة. ولكن وجهه بقي جامداً لا يعبر عن شيء. كان ينقل عينيه بين وجه شريفة وكفّيه الخاليتين من الأصابع. كأنه حائر هل يصدق وجهها البريء أم يديه المشوهتين اللتين تهمسان في أذنه بأن شريفة تخونه؟ أيصدق عينيه اللتين تتبعتا أصبعها وهو يدير الرقم المكتوب في أجندتها الصغيرة ويصدق أذنيه اللتين سمعتا صوتاً يقول إن اللواء سعدون باشا ليس موجوداً، أم يصدق إحساسه؟ لماذا لا تكون شريفة تكذب عليه هذه المرة كما كذبت باعترافها عليه عندما كانت تقول له كل يوم إنها تذهب إلى الطبيب؟ لماذا لا يكون الصوت الذي أجاب في التليفون هو صوت عشيقها. وكلمة اللواء سعدون باشا هي رمز بين العاشقين؟ ربما كان العاشق ضابطاً في سلاح الفرسان يتنكر باسم قائد سلاح الفرسان سعدون باشا!

لقد كان قبل أن يحب شريفة يتحدث مع صديقاته الفتيات ويتنكر بأسماء أساتذته في الكلية الحربية وأحياناً باسم اللواء قائد الكلية الحربية.. كان في الماضي متفائلاً دائماً. كان يشعر أن الدنيا في يده. أما الآن فقد أصبح متشائماً لأنه لم تعد له يد تقبض على الدنيا، تحملها، تلعب بها.

كان يعيش بلا عقد. والآن أصبح مليئاً بالعقد. كأن الأربطة التي كانت معقودة على يديه فكت منها، وربطت حول روحه ونفسيته.

إن المستقبل أصبح بالنسبة إليه مثل باب الشقة المغلق، الباب الذي لم يستطع أن يفتحه بيديه. إن الإنسان يفتح نوافذ الدنيا ليطل على الأمل ولكنه، لكي يفتح النوافذ، يجب أن تكون له أصابع. كل شيء محتاج إلى أصابع.. حتى الأمل! إن المقعد يستطيع أن يفتح الباب

المغلق، يستطيع أن يفتح النافذة. . الأعمى قادر أن يتحسس طريقه الى قبضة الباب. . ولكنه شر من المقعد والأعمى. إنه أحياناً يشعر برغبة شديدة أن يهرش جسمه ولا يستطيع. إنه ينتظر أن تعود شريفة من الخارج حتى تهرش له الجزء الذي يأكله أو يلتصق بالحائط لكي يقوم الحائط بهرش ظهره بدلاً من أصابعه.

إنه خلال الأيام الطويلة التي يقضيها وحيداً في غرفته كان يستعرض حياته كلها، وإذا به يكتشف في جزع أن أجمل ما فعله في حياته بأصابعه. الضربات القاضية التي نال بها بطولة الملاكمة صنعتها أصابع يده اليسرى. ملابس النساء الداخلية التي كان يجردهن منها بسرعة مذهلة، كان يفعلها بأصابعه. الفتيات اللائي كان يغازلهن من نوافذ بيوت الجيران، كان يحدثهن بكلمات بليغة من أصابعه. . حتى المرة الأولى التي التقى فيها بشريفة أمام نادي السباق شبكت أصابعها في أصابعه ومشت بجواره، وكان عناق الأيدي بداية عناقهما. . الهجمات الرائعة التي قام بها على العدو اعتمد على أصابعه في تصويب مدفعه الرشاش، وعلى أصابعه في إلقاء القنابل على الأهداف.

إن أصابعه كل شيء في حياته. إن شريفة كانت تحبها وتتغزل فيها وكثيراً ما كانت تنشد له موالاً كانت تغنيه راقصات بلدة «سنباط» كانت تغني له: «صوابعك العشرة. . قوللي يا روحي. . . اشمعنى؟ مخلوقة م الطين؟ م النار؟ والا م الجنة»؟!

لم تكن شريفة تصدق أن أصابعه مصنوعة من الطين، بل تشك أنها مصنوعة من النار، لأنها تلهبها، أو مصنوعة من الجنة لأن فيها من طعم النعيم. . وها هي أصابعه ذهبت. . لم يبق منها حرارة النار ولا طعم الجنة ولا خصب الطين، أصبحت مصنوعة من العدم. بل هو

الآخر مصنوع من العدم. لم يعد فيه نار تلهب، ولا نعيم يذاق، ولا طين يخصب!

كان قبل الآن يشعر أنه يمشي وسط الحياة، ولكنه الآن واقف على هامشها. إن أوتوبيس الحياة يمر به مزدحماً فلا يستطيع أن يعدو وراءه ويلحق به. لا يستطيع أن يزاحم الواقفين ويمسك الجلدة المعلقة في سقف الأوتوبيس حتى يجد مقعداً يخلو فيسارع إلى الجلوس عليه. يجب أن يقف أوتوبيس الحياة ليركب. يجب أن يجد محلاً خالياً ليجلس فيه. يجب أن يجد يداً تساعده على الوقوف. ولكنه يعرف أن أوتوبيسات الحياة لا تقف في محطات. إن الزمن الذي يقودها هو سائق مندفع لا يعترف بالمحطات. والأوتوبيس مزدحم بالركاب ودائماً ليس فيه أي مقعد خال. . كأنه الآن في آخر محطات حياته. المحطة التي يقف فيها من فاتوا سن المعاش. . ولم يعودوا ينتظرون سيارات الأوتوبيس بل سيارات نقل الموتى!

وترك عزيز زوجته شريفة الجالسة بجواره، وتوجه إلى غرفة نومه، وأحس برغبة أن يغلق الباب فدفعه بقدمه فلم ينجح في غلقه، فدفعه مرة أخرى فارتد إليه، وشعر مرة أخرى بعجزه، واحتقن وجهه، كان كل شيء حوله يتحداه. كل شيء يسأله: أين أصابعك؟

ومضى يمشي بخطوات عصبية إلى النافذة، وأسند رأسه إلى زجاجها، وأطل إلى الشارع، رأى الناس يملأون طريق النيل، رآهم من الدور السادس أقزاماً. حاول من مكانه أن يرى أصابعهم، فلم يستطع أن يرى الأصابع من هذا العلو الشاهق، شعر براحة، كأن الناس كلهم أصبحوا بلا أصابع مثله. إنه ليس العاجز وحده. ولكن عينيه سقطتا على كفيه المشوهتين الخاليتين من الأصابع، فارتجف.

وتمنى لو يلقي نفسه من هذه النافذة ويموت. ليلحقَ بـأصابعـه الميتة. إنه أصبح بلا قيمةٌ وبلا فائدة. إنه لا يزال على قيد الحياة. لماذا يصفون الحي بأنه على قيد الحياة. كأننا لكي نعيش يجب أن يكون لنا قيد، وبغير هذا القيد نموت. . كأننا مسجونون في حياتنا. كأن هذه الحياة زنزانة. فهو ليس وحده الذي يعيش في زنزانة، كل إنسان يولد بزنزانة. بعضنا يزج فيها. بعضنا يدخلهـا بقدميـه. كلنا نخـرج من زنزانات لندخل إلى زنزانات لأننا على قيد الحياة. الموت وحده الذي ليس فيه قيود ولا زنزانات.

ولكنه عاد وتذكر أن في الموت قبراً. وما القبور إلا زنزانات. كأننا محكوم علينا أن نبقى في زنزانات ونحن أحياء ونبقى في زنزانات ونحن أموات.

وعـاد عزيز يفكر في الانتحار من جديد. طل من النافذة كأنه يعاين المكان الذي ستستقر جثته فيه. ولكنه ، ي ينتحر، يحتاج إلى أصابعه العشرة. يحتاج إليها ليفتح النافذة. يحتاج إليها لكي يصعد إلى النافذة. . حتى الموت نفسه يحتاج إلى أصابع عشرة!

ورفع عزيز رأسه من زجاج النافذة وهو يزفر ساخطاً، واتجه إلى غرفة مكتبه الصغيرة في نهاية الشقة. إنه شعر بـرغبة في أن يقـرأ كتابـاً، ولكنه يحتاج إلى أصابعه ليلتقطه من رف الكتب
ليمسكه ويحتاج إلى اصابعه ليقلب صفحاته. .

وفجأة، سمع صـوتاً يغني: «صـوابعك العشـرة. . . قولـلي يا روحي. . اشمعنى»!

ودهش أن يسمع صوت امرأة أخرى تغني الموال القديم الـذي كانت تغنيه له شريفة في الماضي. .

واقترب من النافـذة الصغيرة المفتـوحة ووقف وراءهـا، فوجـد سعدية خادمة جاره درويش مخلص هي التي تغني الموال الذي كان يجب أن يسمعه من شريفة قبل أن تمزق القنبلة أصابعه العشرة، وأصبـح اليوم يتمزق وهو يسمعه.

وأسرع في خطواته يغادر الغرفة حتى لا يسمع صوت سعدية وهي تغني باقي الموال القديم الذي كانت تردده غانيات مدينة سنباط. ولكن صوت سعدية أعاده من جديد إلى الغرفة، ووقف وراء النافذة يسمعها تغني:

صوابعك العشرة؟ قوللي يا روحي، اشمعنى؟
تغطي شعري. . تبقى أحلى م الجنة!
تمسك في صدري. . أغمض عيني. . واتمنى!
صابع حبيبي. . ده له شفه. . وله سنه
تمسك عصايا. . أقول اضربني يا حبيبي!
ضربك لذيذ. . والنبي. . والكلام بينا!

وأحس عزيز بأنه يتعذب ويتمزق وهو يسمع موال غانيات سنباط كاملاً لأول مرة! لقد كانت شريفة لا تردد إلا البيتين الأولين فقط. . ترى، هل سمعت هذا الموال من الخادمة سعدية وحفظته، وخجلت أن تردد أبياته السبعة؟ ترى ماذا تفعل شريفة عندما تسمع الخادمة سعدية تغني هذا الموال، هل ستشعر أنه لم تعد له أصابع تغطي شعرها. لم تعد له أصابع تمسك صـدرها وتجعلهـا تغمض عينيها وتحلم؟ هـل هي الأخرى تشعر أن أصابعه كانت لها شفاه تقبلها، وأسنان تأكلها؟ إنه لا يستطيع حتى أن يضربها. . هذا الضرب اللذيذ الذي تتمناه أحيانـاً المرأة من كف حبيبها!!

إن شريفة دم ولحم.. لا بد أنها تبحث عن أصابع عشرة بدلاً من التي فقدتها، أصابع لها شفاه وأسنان، أصابع فيها نار وكهرباء، أصابع تعزف وتدق.. إنه الآن يغار من كل رجل.. من كل رجل له عشرة أصابع!

وتوقف عزيز فجأة وتذكر سعدون باشا.. إنه يغار منه هو الآخر. لماذا تصور أنه فوق الشبهات؟ إنه رجل في عمر والد شريفة. رجل ليس فيه فتنة ولا رشاقة ولا أناقة ولا جمال.. ولكن له أصابع عشرة.. لماذا لا تكون شريفة نظرت إلى أصابعه ولم تنظر إلى وجهه الكئيب، ولا إلى سنه الكبير؟..

وأسرع عزيز في خطواته إلى الصالة يبحث عن شريفة. فلم يجدها، وراح يصرخ: شريفة.. شريفة.. شريفة!

وأسرعت شريفة إليه من غرفة نومها، في ملابسها الداخلية وكانت قد بدأت تخلع ثوب الخروج.. وقبل أن ترتدي ثياب المنزل سمعت صراخه وأقبلت تعدو نحوه في لهفة تسأله عما حدث...

وصرخ عزيز فيها: أين التليفون.. أريد التليفون!

ـ أين التليفون.. أريد التليفون!

وأسرعت شريفة تحضر التليفون في ذعر.

وقال لها عزيز بلهجة آمرة:

ـ اطلبي أمامي رقم تليفون اللواء سعدون باشا.

وتركت شريفة آلة التليفون على المائدة، واتجهت إلى غرفتها، فعاد عزيز يصرخ فيها:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟ أنا قلت لك: اطلبي أمامي سعدون باشا.

قالت له في دهشة:

ـ إنني ذاهبة لأجيء برقم التليفون.. إنه في الأجندة في حقيبة يدي في غرفة النوم.

قال عزيز ساخراً:

ـ أتريدين أن تقولي لي إنك لا تحفظين رقم تليفونه؟

قالت شريفة في استغراب:

ـ إنك سمعته بأذنك يملي علي رقم التليفون منذ ساعتين اثنتين!

قال عزيز وهو ينظر إليها بشك:

ـ هل نسيت الرقم الذي كتبته بيدك؟ بأصابعك؟ ثم أدرته في التليفون بإصبعك، بعد ساعتين اثنتين!

قالت تتحداه:

ـ لقد طلبت الرقم أمامك فهل تستطيع أن تذكره؟

قال يرفض قبول التحدي:

ـ إنني لم أكن في حالة تسمح لي بأن أحفظ أرقام تليفونات.. كنت أفكر في تلك اللحظة كيف أخنقه.. وأخنقك.. بيدي الاثنتين!

ثم أحنى عزيز رأسه إلى الأرض، فقد تذكر أنه لم تعد له يدان يخنق بهما أحداً!

ورأت شريفة الدموع في عينيه، فمضت صامتة إلى غرفتها، تجيء بالأجندة التي فيها رقم التليفون.

ورفع عزيز عينيه فوقعتا على شعرها الأصفر المنسدل فوق كتفيها، وعلى جسدها الممتلىء، وعلى بشرتها التي لها لون التفاح!

وتنهد.. كل هذا الجمال في حاجة إلى أصابعه العشرة.. كأن كل هذا الجمال موضوع خلف واجهة زجاجية في محل تجاري، وهو يختلس اليه النظر في حسرة لأن الزجاج يفصل بينه وبين أن يلعب بالشعر، ويتحسس الخصر، ويلمس الأرداف، ويقرب من الجسد ويذوق التفاح!

وعادت شريفة تحمل الأجندة فتطلع إلى عينيها الخضراوين الحالمتين، إلى صدرها العاري، وإلى أهدابها الطويلة، وإلى شفتيها الممتلئتين، وإلى فمها المستدير، وإلى أسنانها اللؤلؤية. وأحس برغبة عارمة في أن يعتذر عن غيرته لكل هذا الجمال. وجلست إلى جواره على الأريكة والتليفون بينهما، فاستنشق في جسدها رائحة عطر فواح، لم يتبينه عندما كانت تجلس معه بجواره عندما عادت من الخارج.

إنها تتعطر من أجله. إن عطور المرأة هي البخور الذي تطلقه حول الرجل لتخدر شياطينه، أو لتثير هذه الشياطين.. لو كانت أصابعه في كفيه لطوقها بذراعيه، لاعتذر صدره المنطبق على صدرها عن لسعات الغيرة التي لسعت روحه، لأطفأ في جسدها نار الغيرة التي تحرق نفسه. ولكنه لم يعد يستطيع أن يعتمد على ذراعيه في الاعتذار، فليحاول أن يعتذر بلسانه!

ورفع عينيه إليها في ضراعة وقال:

ـ لا داعي للمحادثة التليفونية.. إنني مقتنع ببراءتك.

ولكن شريفة رفعت السماعة في عناد، وأدارت بأصابعها قرص التليفون على رقم سعدون باشا.

وسمعت شريفة صوت اللواء سعدون يجيب على التليفون.

قالت شريفة بلهجة طبيعية:

ـ أنا حرم الصاغ عزيز علاء الدين التي قابلت سعادتك منذ ساعتين في مصعد العمارة...

قال اللواء سعدون باشا وكأنه ينظر إلى جسد شريفة في التليفون:

ـ أهلاً.. أهلاً.. أهلاً شريفة.. لقد كنت أفكر فيك في هذه اللحظة!

قالت شريفة متجاهلة الترحيب غير العادي:

ـ لقد طلبت مني سعادتك أن أتصل بك تليفونياً لنتفق على موعد تحضر فيه لمقابلة زوجي الصاغ عزيز علاء الدين.

قال اللواء سعدون باشا:

ـ فعلاً.. فعلاً.. سيكون لي الشرف أن أقابله. إنه بطل عظيم من أبطال المعركة.. ولكني أفضل أن أقابلك أولاً على انفراد قبل أن أقابله.. حتى نتفق أولاً على ما يجب أن نفعله من أجله.. وبعد إعداد الترتيبات اللازمة.. أزوره وأبلغه بصدور القرار!

واحتقن وجه الصاغ عزيز وهو يسمع مناورة اللواء سعدون باشا، وأحست شريفة بأن زوجها سينفجر في القائد.. فوضعت إصبعها على فمه تطلب إليه أن يسكت.

وقالت لسعدون باشا وكلماتها تقطر مرآ:

ـ إنني مستعدة أن أجيء لمقابلة سعادتك في الوزارة في أي وقت تشاء.

وضحك اللواء سعدون باشا ضحكة الصياد الذي بدأ يطبق على الفريسة وقال:

ـ الوزارة؟. لماذا الوزارة؟. إنني في الوزارة أكون عادة مشغولاً.. ولا أريد أن تكون المقابلة رسمية. إن مسألة عزيز علاء الدين معقدة ومتشابكة وتحتاج إلى بحث طويل ودراسة من كل النواحي..

قالت شريفة وقد وضعت كفها على فم عزيز لكي تكتم زفراته التي ارتفع صوتها وكأنها صراخ وعويل:

ـ وأين تريد سعادتك أن أحضر لمقابلتك؟.

قال اللواء سعدون باشا:

ـ عندنا قصر جاردن سيتي.. ممكن أن نجلس فيه على راحتنا ونتكلم كما نشاء.. وعندنا شقة في نفس عمارتك في الدور الخامس.. تحت شقتك!

قالت شريفة في تبرم ساخر:

ـ هل هذه جرسونيرة يا سعادة الباشا!

قال سعدون باشا محتجاً:

ـ جرسونييرة؟ لا سمح الله.. تقولين هذا يا شريفة هانم؟ إن هذه بيوت تابعة للحكومة تدفع الدولة إيجارها للاجتماعات الهامة..

للمؤتمرات السرية.. أتظنين أنني من هؤلاء الأنذال الذين يستغلون نفوذهم في الدولة للحصول على مواعيد غرامية؟ إنني رجل شريف.. إنني أنظر إليك كابنتي تماماً.. والصاغ عزيز علاء الدين ابني!

ثم تهدج صوت سعدون باشا:

ـ كيف يمكن لسيدة محترمة مثلك يا شريفة هانم أن تذكر كلمة «جرسونييرة» على لسانها؟ إنني على حق في رفض مقابلة سيدات في مكتبي.. إن رأس مالي سمعتي وشرفي وكرامتي.

وأحست شريفة بخجل من نفسها، فنظرت إلى عزيز نظرة كلها لوم وعتاب وكأنها تحمله مسؤولية تهورها في اتهام القائد العفيف، الشريف، وقالت:

ـ إنني آسفة يا سعادة الباشا.. إنني امرأة في محنة كما تعلم.. والمحنة حطّمت اعصابي!

قال سعدون باشا:

ـ أنا لا أستطيع أن أسامحك.. أنا مضطر أن أشكوك إلى زوجك.. إنه يعلم أنني قائد الفرسان.. إن شعار الفروسية النبل والمسارعة إلى مد اليد للضعفاء، إنها أول مرة في حياتي أسمع أحداً يشك في صدق نواياي. إنني أخطأت عندما أعطيتك رقم تليفوني الخاص.. ولكنني لم أفعل هذا إلا شهامة مني.. من أجل بطل ضحّى بيديه من أجل الوطن!

قالت شريفة وهي تجفف عرق الخجل:

ـ إنني أعتذر مرة أخرى يا سعادة الباشا.. إنني لم أعرف أن أعبر

عمّا أريد أن أقوله.. وهو أنه لم يخطر ببالي أي شيء سيّىء أبداً..

وأنهى اللواء سعدون باشا المحادثة وهو مصر بأنه أهين، وأن سلاح الفرسان أهين، وأن الجيش كله أهين.. وأنه آخر رجل في العالم يمكن أن يوجه إليه هذا الاتهام الحقير!

ووضعت شريفة سماعة التليفون والدموع في عينيها.. ونظرت إلى عزيز في عتاب وقالت له:

ـ هل استرحت الآن؟

قال عزيز وهو يحاول أن يكبح جماح عواطفه المتضاربة:

ـ أنا لم أقل لك أن تقولي له أنه يريد أن يأخذك إلى جرسونييرة!

ـ ولكن عينيك قالتا هذا وأكثر من هذا.. لولا أنني سددت فمك بكفي لانهلت على سعدون باشا بالشتائم والسباب.. إنك بغيرتك الهوجاء جعلتني أخسر الرجل الوحيد الذي أراد أن يساعدنا.. جعلتني أشك في كل الناس حتى في نفسي، إن مرضك معدٍ يا عزيز.. لقد أصبحت مثلك أنظر إلى الناس بمنظار أسود.. أفترض السوء في كل إنسان.. إنك السبب في أنك خسرت أصابعك الصناعية..

قال عزيز في ضيق:

ـ إنني أفضل أن أحتفظ بزوجتي.. وأخسر أصابعي الصناعية.. أنا لا أشتري بشرفي أصابع صناعية!

قالت شريفة:

ـ ولكنك سمعت بأذنيك أن الرجل بريء. وأننا ظلمناه. إن

نظراتك هي التي أعمتني، هي التي جعلتني أراه في صورة رجل كله خداع وخسّة ودناءة ولؤم وحقارة!

وقام عزيز من مقعده منفعلاً، شعر أنها تحمّله مسؤولية خطئها. تتهمه بجريمتها. هي التي أغضبت سعدون باشا بطول لسانها. إنها تكلمت معه بطريقة لا يجوز أن تتحدث بها مع قائد عظيم.. إنها استهترت بأهمية أصابعه الصناعية، لو أنها كانت مهتمة بها فعلاً، لتمالكت أعصابها، ولما أغضبت سعدون باشا بسلاطتها وقلة أدبها!

وبقيت شريفة في البيت. لا تخرج كل يوم كما كانت تفعل. ولا تتردد على وزارة الحربية. وكان خروجها من البيت يضايقه، ويثير شكوكه، ويحرك غيرته. وأصبح بقاؤها في البيت يؤلمه، يمزق أعصابه، يجعله يشعر أنها لم تعد تهتم بأصابعه الصناعية.

إنه ضاق هو الآخر بالبقاء في البيت. إنه يشعر أنه يختنق بين جدرانه. إن صوت سعدية خادمة الجيران وهي تغني موال «صوابعك العشرة.. قول لي يا روحي.. اشمعنى» تجعله يتمزق. كأنها قنبلة جديدة تلقى عليه كل صباح. قنبلة تشوهه أكثر مما هو مشوه. تشعره بعجزه أكثر مما هو عاجز. تخيفه من المستقبل أكثر مما هو خائف. ولم يجد أحداً يفرغ فيه آلامه إلا شريفة. كانت كلماته لها كالسياط. كثرت ألفاظ السباب على شفتيه. كأنها تذكره بماضيه الذي يريد أن ينساه. وتذكره بحاضره الذي يكرهه. وتذكره بمستقبله الذي تحوّل إلى هباء وعدم.

وكانت شريفة تتحمل سياطه بدون أن تصرخ. يحمر وجهها غضباً، أو يصفرّ شقاء، أو يبيضّ رعباً. ولكنها كانت تبدو وكأنها فقدت لسانها.

وضايقه صمتها، كما كان يضايقه حديثها، وشعر برغبة في أن تجدد شريفة مساعيها من أجل أن يحصل على أصابعه الصناعية.

وجلس إلى جوارها وبكى. وطلب إليها أن تتصل باللواء سعدون باشا من جديد، وتذهب إلى مقابلته!

ورفضت شريفة، وراحت تنبش الكلمات التي قالها في ثورة غيرته وتذكره بها.

وألحّ عزيز عليها أن تتصل بسعدون باشا، وقال إنه يثق بها وبطهارتها، وإنه يقدر تضحيتها، ويتوسل إليها أن تتحمل أكثر مما تحملت من أجله.

وضعفت شريفة وقبلت أن تتصل بسعدون باشا بعد إلحاح طويل ومستمر من عزيز.

واتصلت شريفة باللواء سعدون باشا وفوجئت به يرد عليها ببرود. وتقول له إنها فكرت فيا عرضه عليها، وإنها مستعدة أن تقابله في قصر جاردن سيتي أو في شقته في عمارتها.. وإذا به يقول لها إنه فكر أيضاً في الموضوع، فوجد أنه لا يستطيع أن يقابلها لأنه رجل يخاف على سمعته..

وانقلب الموقف، شريفة تلاحق سعدون باشا وترجوه وتتوسل اليه أن يحدد لها موعداً، وهو يعتذر، ويتملص، ويؤجل، ويقول إن أشغاله كثيرة.. ويزداد إيمان شريفة ببراءة سعدون باشا، كما يزداد سخطها على عزيز المسؤول عن ظلمها لسعدون باشا الطاهر، الشريف، العفيف!

وكلما يئست شريفة من سعدون باشا، عاد عزيز يلحّ عليها أن

تعاود الاتصال به، محاولاً الدفاع عن الباشا، بأنه معذور أن يغضب ويتضايق بعد أن جرحته شريفة باتهامها الظالم!

وأخيراً قال اللواء سعدون باشا إنه مستعد أن يقابلها، ولكنه يشترط أن تحضر ومعها الصاغ عزيز علاء الدين، لأنه لا يريد أن يقابلها على انفراد.

ودهشت شريفة وقالت له:

ـ ولكني سأحضر وحدي، لأثبت لك أنني واثقة بك، ولأزيل من رأسك كل ما علق به من تصور أنني شككت فيك..

وعاد سعدون باشا يقول:

ـ أنا مصرّ على أن يحضر زوجك معك..

وعادت شريفة تقول:

ـ أنا مصرّة على أن أحضر وحدي.

وقال اللواء سعدون باشا:

ـ إذن، تعالي إلى قصر جاردن سيتي ـ شارع البنايات رقم ٧، في الساعة السابعة مساء.. ولكن أفضل أن يحضر زوجك معك...

ووضع اللواء سعدون باشا السماعة وهو يبتسم. ثم دقّ الجرس واستدعى سكرتيره الأستاذ علي صبحي وقال له وهو يشير إلى جهاز التسجيل، ويبتسم:

ـ عليك أن تضم هذه التسجيلات إلى تسجيلات المحادثات الأخرى بصوت شريفة.. لن تستطيع أن تقول بعد اليوم إنني راودتها

عن نفسها. . أو أنني حاولت الاعتداء عليها. . إن هذه التسجيلات ستثبت أنها هي التي كانت تلحّ في مقابلتي على انفراد. . وأنا الذي كنت ألحّ عليها في أن يكون زوجها معها في اللقاء!

ومال الأستاذ صبحي برأسه إلى اليمين ثم إلى اليسار، كما يفعل هاوي الغناء عندما يطرب من نغمة عبقرية أطلقتها حنجرة مطربة موهوبة، ثم قال:

- عبقري يا سعادة الباشا. . عبقري. . لقد خدمت مع سبعة من مديري المخابرات العسكرية ولم أجد قائداً في مثل هذه العبقرية!

□□□

وقفت سيارة تاكسي أمام قصر جاردن سيتي، ونزلت منها شريفة، ومشت إلى الباب، تتطلع حولها في دهشة، لم تجد أمام البيت جنوداً ولا حراساً، ولا وجدت لافتة تعلن أنه مقر اللواء سعدون باشا.

ثم رأت رجلاً قصير القامة يتقدم نحوها ويبتسم ويقول وهو ينحني:

- شريفة هانم؟. . أنا علي صبحي سكرتير سعادة اللواء سعدون باشا، إن سعادة الباشا في انتظارك. .

وتقدمها السكرتير فمشت وراءه، وصعدت سلالم كبيرة رخامية، ثم دخلت صالة كبيرة مزدحمة بالأثاث الغالي، والرياش الفاخرة، فغاصت قدماها في سجاجيد عجمية أنيقة ورأت السقف تتدلى منه ثريا كهربائية كبيرة، لم ترَ أكبر منها في حياتها، وعلى الجدران لوحات زيتية رائعة. وفوق النوافذ ستائر من القطيفة الحمراء المطرّزة بالذهب. ورأت كل الأبواب المطلة على الصالة مغلقة، وفيها مقابض نحاسية لامعة، بنقوش غريبة. .

ولكن الأستاذ صبحي لم يفتح الأبواب المغلقة، وإنما تقدم نحو سلم رخامي مفروش بالأبسطة الحمراء المثبتة بعواميد نحاسية، ودعاها أن تصعد السلم وهو يقول:

إن مكتب الباشا في الدور الثاني. .

وتطلعت حولها فوجدت مظاهر البذخ والثراء، كأنها في قصر من قصور ألف ليلة وليست في مكتب تابع لوزارة الحربية، ومضت تصعد وراء السكرتير الذي لا يكف عن الابتسام، ووجدت نفسها في صالة أكثر روعة من صالة الطابق الأول، وتقدم السكرتير نحو الباب وطرق عليه طرقة خفيفة، ثم فتح الباب، وانحنى يدعوها للدخول. .

ودخلت إلى غرفة واسعة فوجدت مكتباً صغيراً في مواجهة الباب، يجلس وراءه اللواء سعدون باشا، وما كاد يراها حتى قام في تراخ وقدم لها يده، وضغط على يدها ودعاها إلى الجلوس على مقعد صغير بجواره.

وسمعت شريفة صوت الباب يغلق في هدوء فانقبض قلبها. وزاد انقباضها عندما رأت في نهاية الغرفة الواسعة فراشاً كبيراً. . .

وبدت على شريفة الدهشة عندما رأت فراشاً في المكتب، وقرأ سعدون باشا في عينيها دهشتها، فقال لها:

- إننا بسبب الحرب ننام في مكاتبنا. . لا نستطيع أن نعود إلى بيوتنا لننام. . أنتم تنامون ملء جفونكم، ونحن نبقى في مكاتبنا ساهرين. .

قالت شريفة:

- إن الشعب كله يدعو لكم. .

قال سعدون باشا:

- لا يكفي أن يدعو لنا.. يجب أن يساعدنا.. أنت مثلاً في قدرتك أن تساعديني.

قالت شريفة في دهشة:

- إنني مستعدة أن أفعل أي شيء لمساعدتكم!

قال سعدون باشا:

- ممكن أن ترفعي روح القيادة المعنوية. إن وجودك معي في هذه اللحظة رفع روحي المعنوية. شعرت بشيء مريح بعد ساعات من الضيق والتعب والإرهاق. وراح سعدون باشا يتأمل شعرها الأصفر وعينيها الخضراوين وحيويتها وشبابها، وصدرها، وقوامها، وكأنه وجد الشيزلونج التي يستريح فيها بعد طول وقوف..

وتجاهلت شريفة نظراته الزانية وقالت:

- أريد ان أحدث سعادتكم في موضوع زوجي الصاغ عزيز علاء الدين.

قال سعدون باشا متململاً:

- إننا لم نكد نجلس.. لقد اتفقنا أن لا تكون المقابلة رسمية! ووقف سعدون باشا وفتح دولاباً خلفه فأضيء على الفور بالكهرباء وظهرت زجاجات الويسكي، ثم أخرج زجاجة وكأسين، وفتح الزجاجة وبدأ يفرغ الويسكي في الكأس وهو يقول:

- هل تفضلين الويسكي بالصودا أم بالماء؟

قالت:

- إنني لا أشرب الخمر!

قال سعدون باشا وهو يبتسم:

- وأنا أيضاً لا أشرب الخمر.. هذا ليس خمراً إنه ويسكي.. اشربي كأسا حتى تتشجعي وتتكلمي.. إنك تبدين وكأنك خائفة..

قالت شريفة وهي تضطرب:

- أنا لست خائفة!

قال سعدون باشا:

- ما دمت خائفة.. فلماذا لم تحضري زوجك معك!؟

قالت:

- إنني لست خائفة..

قال سعدون باشا:

- لكي تثبتي أنك لست خائفة.. يجب أن تشربي كأساً.. أم أنك خائفة أن يشم عزيز رائحة الخمر في شفتيك.. إن عندي حبوباً من أمريكا تضيع رائحة الخمر!

قالت شريفة:

- إنني لم أشرب خمراً.. ولا أريد أن أشرب خمراً!

قال سعدون باشا:

ـ إذن اخلعي هذا المعطف. . إن الجو حار هنا. .

وانكمشت شريفة في مقعدها. . وتقدم سعدون باشا يحاول أن يجذب معطفها وشريفة تتملص من يديه القويتين، وانحنى على عنقها وقبّلها في عنقها. . وأبعدت عنقها في فزع وكأن أفعى لسعتها، وقالت وهي تجهش في البكاء:

ـ إنني يا سعادة الباشا لست من هذا النوع من النساء!

قال سعدون باشا:

ـ إن هذا النوع من النساء لا يثيرني. وإنما تثيرني المرأة الفاضلة الشريفة مثلك. . أنت التي ألححت عليَّ في أن تحضري إلى هنا. . أنا طلبت منك أن تجيئي بزوجك معك ليحميني من جمالك وفتنتك. . ولكنك أنت التي أصريت على الحضور بمفردك!

قالت:

ـ كنت واثقة أنك ستعاملني كابنتك!

قال سعدون باشا وقد جرحته إشارتها له أنها في سن ابنته فقال:

ـ نعم. . أنت ابنتي. . ولكن الآباء ألا يقبّلون بناتهم؟. تعالي واجلسي على ركبتي كما تفعل الإبنة المحبة مع أبيها!

قالت شريفة وفي وجهها فزع وفي قلبها أسى، وجسمها ينتفض:

ـ أرجوك يا باشا أن تسمع قصتي. . لقد كان زوجي بطلاً في الحرب. . وفقد أصابعه من أجل هذا الوطن. . من أجل الجيش!

قال سعدون باشا:

ـ أرأيت الفرق بينك وبين زوجك؟. إنه ضحى بأصابعه العشرة من أجل الجيش. . وأنت لا تريدين أن تضحي بقبلة من أجل الجيش. . قبلة واحدة. . إنك لن تفقدي شيئاً من هذه القبلة. لو كنت تحبين زوجك حقيقة لمنحتني القبلة كي نسارع بإرساله إلى ألمانيا. ولكنك تضنين أن تدفعي قبلة واحدة لإسعاد زوجك، وشريك حياتك، والبطل الذي ضحّى بأصابعه من أجل الوطن ومن أجل الجيش!

قالت شريفة وهي مطرقة برأسها إلى الأرض، وصدرها يعلو ويهبط في انفعال:

ـ ألا يكفي أن يضحّي الإنسان بأصابعه من أجل وطنه؟ يجب أيضاً أن يضحّي بشرفه. . لينال حقه؟

قال سعدون باشا:

ـ من طلب منك أن تضحّي بشرفك؟ إن الذي تطلبينه مني ليس حقاً. . إنه طلب استثنائي. . إن وزارة الحربية لا ترسل كل مشوّه إلى ألمانيا. . إننا سنرسل زوجك بصفة استثنائية. . والشيء الاستثنائي يجب أن ندفع فيه ثمناً استثنائياً. . إن من حق كل مواطن أن يحصل على حقه. . ولكن الحق شيء والاستثناء شيء آخر!

وصمتت شريفة. كأنها تصمت لتسمع صوت مشاعرها التي تنهش روحها، وتلسع قلبها وتعذب نفسها. كأنها مترددة أن تدفع ثمن البضاعة التي هي في أشد الحاجة إليها. هل تدفع؟ وكيف تدفع؟. . وهل هذا المبلغ هو القسط الأول أم الثمن كله؟.

كانت تود أن تقف وتصفعه على وجهه وتخرج. ولكنها تذكرت

عزيز. تذكرته وهو يلومها لأنها لم تعرف اللغة التي تتحدث بها إلى القواد. . تذكرت إلحاحه عليها في أن تذهب وحدها لمقابلة سعدون باشا. . تذكرت دموع عزيز وهو يتحدث عن أصابعه الصناعية العشرة التي يتصور أنها ستنهي مشاكله وأحزانه وعذابه ووحدته. هل تعطي قبلة صناعية ثمناً لأصابع صناعية؟! هل تساوي هذه الأصابع التضحية المطلوب منها أن تقدمها؟.

ووقف سعدون باشا يتأملها، وكأنه يتفرج عليها وهي تتعذب في حيرتها بين أن تدفع وتأخذ، وبين أن لا تدفع ولا تأخذ شيئاً على الإطلاق. .

ومضى سعدون باشا يقول:

ـ إن الاعتماد المخصص لمشوهي الحرب قد نفد. لم يبق فيه مليم واحد. . وما تطلبين يحتاج إلى طلب فتح اعتماد استثنائي. . وهذا الطلب الاستثنائي يحتاج إلى مجهودات ضخمة. . إلى تدخل الوزير. . إلى تدخل رئيس الوزراء. . إلى الضغط على البرلمان الذي يعارض في فتح اعتمادات استثنائية. . وبعد ذلك كله تستكثرين علي قبلة. . قبلة واحدة. . مقابل هذا المجهود؟.

قالت شريفة:

ـ يمكنك أن تقبلني في جبهتي؟

وأحس سعدون باشا بأنه وصل إلى منتصف الطريق، إلى النصر. . ورأى أن خير طريقة هي الالتفاف حول العدو. .

فقال:

ـ لا. . إن القبلة على الجبهة. . تذكرني بجبهة القتال. . وأنا أريد

الآن أن أنسى كل شيء عن الجبهة. . لا بد أن أقبلك في فمك!

قالت وهي تغمض عينيها:

ـ إذن. . تفضل. . تعال قبلني في فمي!

قال سعدون باشا بصوت المنتصر الذي شعر أن العدو بدأ يستسلم، ووجد أن الفرصة مؤاتية ليطالب بالتسليم بلا قيد ولا شرط!

ـ لا أستطيع أن أقبلك وأنت جالسة بجوار المكتب. . لا يليق مطلقاً أن أقبل سيدة في المكتب. . يجب أن تجلسي على السرير لأقبلك؟

ووثبت شريفة على قدميها في فزع وصرخت:

ـ السرير؟! السرير؟! مستحيل!

قال سعدون باشا وهو يشعل سيجارته وينفخ دخانها في هدوء:

ـ هذه هي شروطي. . ولست في عجلة من أمري. . يمكنك أن تفكري بهدوء. . وأنا دائماً تحت أمرك. . مستعد أن أنتظرك يوماً. . يومين. . أسبوعاً. .. أسبوعين. . كما تشائين. .

قالت شريفة وقد تعلقت بالثغرة التي وجدتها في حديثه:

ـ إذن، دعني أفكر. . أعطني فرصة أفكر. . إن الذي تطلبه مني شيء كبير جداً. .

قال سعدون باشا:

ـ والذي تطلبينه هو شيء كبير جداً. . تذكري أنه لا توجد اعتمادات الآن لمشوهي الحرب!

وصافحته شريفة وهي تحاول أن تبقي الباب مفتوحاً:

ـ إنني أشكرك على مقابلتك الظريفة. وسأبقى طول حياتي أذكرها!

ولم يفهم سعدون باشا رنين السخرية في حديثها فصافحها وهو يقول:

ـ تذكري يا شريفة أن اعتمادات مشوهي الحرب قد نفدت كلها.. وما تطلبينه هو طلب استثنائي!

قالت وهي تودعه:

ـ أعلم ذلك.. أعلم أنه طلب استثنائي جداً!

وخرجت شريفة..

وأطفأ سعدون باشا سيجارته في عصبية..

□□□

ودق جرس التليفون، وتناول سعدون باشا السماعة في تثاقل ثم اعتدل فجأة في جلسته، وقال:

ـ أنا سعدون يا سمو الأمير.. كنت مشغولاً في مشكلة حربية وكنت أنوي أن أطلب سموك على الفور.. ولكن سموك سبقني!

قال الأمير عادل:

ـ تذكر أنني حدثتك في مشروع إقامة حمام تركي في القيادة. حمام يستطيع القادة أن يقوموا فيه بعمل مساج، ليجددوا نشاطهم.

قال سعدون باشا:

ـ نعم يا سمو الأمير.. وقد قدر سلاح المهندسين نفقات الحمام

بثلاثين ألف جنيه، لضرورة استيراد آلات التدليك من ألمانيا.. إنه مشروع مهم جداً.

قال الأمير عادل:

ـ إن وزير الحربية يخشى إذا تقدم بهذا المشروع إلى البرلمان أن لا يوافق عليه بحجة أنه لا توجد في قيادات الدول الاخرى حمّامات تركية للقواد!

قال سعدون باشا متحمساً:

ـ نواب مغفلون يا سمو الأمير.. كأنه مطلوب منّا أن ننقل أنظمة القيادات الاخرى دون أن نجدد نحن ونبتكر.. إن البرلمانات دائماً ضد الأفكار الجديدة.. إنها خصوم التقدم والابتكار والتجديد!

قال الأمير عادل:

ـ المسألة أننا نريد أن نأخذ من عندك مبلغ الثلاثين ألف جنيه دون أن تظهر في الميزانية.

قال سعدون باشا:

ـ طبعاً يا سمو الأمير.. مثل هذه المسائل سرية.. وليس من المصلحة أن يعرف الأعداء أسرار قوادنا، وكيف يتدربون، وكيف يستردون نشاطهم. .إنني تحت أمرك يا سمو الأمير.. مستعد أن أرسل المبلغ فوراً..

قال الأمير عادل:

ـ هل سترسله من اعتمادات المخابرات العسكرية، أم من اعتمادات سلاح المدفعية؟

قال سعدون باشا:

- لا يا سمو الأمير. . إن عندي اعتماداً قدره خمسة وثلاثون ألف جنيه لمشوهي الحرب. . سأرسل لسموك ثلاثين ألف جنيه وسأستبقي خمسة آلاف جنيه!

قال الأمير عادل مبتهجاً:

- إنك دائماً يا سعدون باشا متخصص في حل المشاكل. .

ووضع الأمير عادل السماعة، وبقيت السماعة في يد سعدون باشا وكأنه تذكر شريفة. . وتذكر أن الخمسة آلاف جنيه التي استبقاها إنما هي اعتماد ضروري جداً. . ثمناً للقبلة!

□□□

وعادت شريفة إلى العمارة التي تسكنها في العجوزة مطرقة الرأس، تجر قدميها، ووقفت أمام المصعد تنتظر نزوله، وهي حائرة لا تعرف ماذا تفعل؟ هل تخبر عزيز بما حدث، فيزداد شقاؤه وعذابه؟ هل تخفي عنه ما حدث فيزداد شقاؤها وعذابها؟ هل تدفع ثمن القبلة فتشتري عشرة أصابع صناعية بعار حقيقي؟. . هل ترفض دفع الثمن فتترك عزيز في الجحيم الذي يعيش فيه بغير أصابعه العشرة؟.

وأحست شريفة بمذلة وهوان. إنها لم تنتصر في المعركة. إنها أجلت موعدها!

وأحست بأنها نصف مهزومة، ونصف منتصرة، نصف شريفة، ونصف ملوثة. وسمعت صوت الخادمة سعدية تغني الموال الذي تحبه:

«صوابعك العشرة. . قوللي يا روحي اشمعنى»؟

وأغلقت باب المصعد وصوت الخادمة سعدية يتبع المصعد في صعوده. . . وأحست لأول مرة في حياتها أنها تهوي وهي ترتفع!

- ١١ -

جلس فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام في مكتبه بوزارة الداخلية. مكتب فخم ضخم، مغطى بدوسيهات كثيرة، كل دوسيه منه مكتوب عليه بالخط الأحمر «سري للغاية».

وكان فوزي بك يلعب بأصابعه في ولّاعة ذهبية فاخرة من طراز «دانهيل» يفتحها ويغلقها، ويدق بها على المكتب وكأنه يتعجل أمراً هاماً، أو ينتظر وقوع حدث هام.

كان فوزي بك ممتلىء الجسم، أسمر اللون، مستدير الوجه، في عينيه نظرات النمس. . . نظرات تدل على الخبث أكثر مما تدل على الذكاء. . . شفتاه رفيعتان فيهما قسوة يحاول أن يخفيها خلف ابتسامة صفراء. . . شديد العناية بأناقته. . . يرتدي بذلة من قماش إيطالي فاخر وقميص من قماش سويسري ثمين، وكرافتة من محلات سولكا في باريس.

وكانت الأنوار في مكتبه خافتة. النوافذ كلها مغلقة، مما يوحي بأن فوزي بك شخصية غامضة، مبهمة، محاطة بالألغاز والأحاجي والأسرار. . . وهي الصورة التي يحب فوزي بك أن يظهر بها دائماً أمام رؤسائه ومرؤوسيه.

وكان يعلق على جدران مكتبه إطارين كبيرين مذهبين، إطاراً فيه صورة الملك تدليلاً على ولائه له، وإطاراً فيه كلمة «الله» إثباتاً لصلاحه وتدينه وتقواه.

ولم يكن فوزي مخلصاً للملك، فقد كان لا يخلص إلا لنفسه، ولو كان مخلصاً لما انهال عليه بتقارير سرية يومية عن مؤامرات

يعرف أنها كاذبة، وعن جرائم سياسية يعلم أنها مختلقة، وإنما كان يحاول دائماً أن يخيف الملك ليوهمه أنه يحميه، ويرهبه حتى يشعر الملك بحاجته الدائمة إلى فوزي بك صلاح الدين، ويأمر بمنح جهازه ما يشاء من اعتمادات وأموال!

ولم يكن فوزي بك رجلاً تقياً، فقد كان ضعيفاً أمام النساء الجميلات. يجري لعابه إذا رأى امرأة فاتنة. كانت شهواته هي الدين الذي يعتنق لكنه كان قادراً دائماً على أن يخفي دينه الحقيقي خلف تظاهره بالصلاح وتحدثه عن التقوى وتحمسه للفضيلة!

كانت حياته كلها مكتوباً عليها «سرّي للغاية» كالدوسيهات المرصوصة فوق مكتبه. كان الملك يعرف أنه على علاقة بغوانٍ وفنانات وملكات جمال، ولكنه كان يعرف أن هذا الجيش من النساء الجميلات هي جواسيس مدير الأمن العام اللاتي يجئن له بالأخبار والأسرار، ولم يكن يعلم أنهن عشيقاته. يقدمن تقاريرهن وهن عاريات بين ذراعي صاحب الفضيلة المدير.. وهو لا يدفع لهن ثمن الخبايا والأسرار، ولكنه يدفع لهن ثمن ساعات الغرام!

وكان الأمير عادل صديقه العزيز وصفيه المختار يعرف أن فوزي بك كان معجباً بالراقصة ببا فهمي. ولكن فشلت محاولاته العديدة في أن يضمها إلى محظياته وجواريه.

ولم يكن الأمير عادل يعلم أن ببا كانت خليلة لفوزي بك، وأنه خلعها على الأمير كما يخلع المليونير الثري حذاءً قديماً على شحاذ فقير!

وكان اللواء سعدون باشا يعتقد أن الممثلة السينمائية كاميليا كامل هي ابنة عشيقة قديمة لفوزي، وأنها لهذا تناديه دائماً «البابا»... ولم يكن سعدون باشا يتصور أن البابا هذا كان عشيقاً لكاميليا عدة

سنوات... وأنه لا يزال يقابلها في الخفاء من وراء ظهر صديقه الحميم سعدون باشا!

كان الناس كلهم لا يعرفون عن فوزي بك كل الحقيقة. أصدقاؤه الأعزاء يعرفون نصف الحقيقة. وخصومه الألداء يعرفون نصف الحقيقة. ورؤساؤه يعرفون ربع الحقيقة، ومرؤوسوه يعرفون ربع الحقيقة... وكانت مهارة فوزي بك أنه خبير في إخفاء الحقيقة، في إحاطة كل شيء حوله بجوٍّ من الغموض والإبهام والأسرار.

وفيما كان فوزي بك يلعب في يده بالولاعة دخل من باب جانبي سكرتيره عبد الخالق شكري، وقال له إن الصاغ عصام زهير يريد أن يقابله. وطلب فوزي بك من سكرتيره أن يدخل الضابط على الفور.

ودخل رجل قصير القامة، أصلع الرأس، حاد العينين، وقد ارتدى الملابس المدنية، وقال له فوزي بك على الفور:

ـ هل جئت بالمعلومات المطلوبة عن الجاسوسة الاسرائيلية؟

وابتسم الصاغ عصام وأخرج من جيبه مذكرة مكتوبة بخط اليد ومعها صورة فوتوغرافية.

وأمسك فوزي بك بالصورة الفوتوغرافية فإذا بها لسيدة في السابعة والعشرين من عمرها، بديعة القوام، ممشوقة القد، شعرها أسود، عيناها سوداوان كبيرتان، تشع منهما كهرباء، وكل شيء فيها ينبض بالشباب والحيوية...

وابتسم فوزي بك وهزّ رأسه وهو يقول:

ـ نعم... هذه هي بالضبط!

ثم أمسك بيده الورقة التي حوت المعلومات وراح يقرأ بتؤدة:

الاسم: إحسان خالد.

العمر: ٢٦ سنة وثلاثة أشهر وسبعة أيام.

الزوج: صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة.

مرتب الزوج: سبعة وخمسون جنيهاً وثلاثة وعشرون قرشاً وتسعة مليمات.

إيراد الزوجة: لا شيء.

مدة الزواج: ست سنوات وثلاثة شهور و١٤ يوماً.

الظروف العائلية: تعيسة في حياتها الزوجية ولا تحب زوجها.

عمر الزوج: ثلاث وخمسون سنة و١١ شهراً وخمسة أيام.

علاقاتها الغرامية: كانت تحب جارها أثناء إقامتها في شارع البنايات بجاردن سيتي. واسمه أحمد رياض، وتوقفت العلاقة لسفره منذ ثلاثة أعوام إلى أمريكا في بعثة دراسية تستمر خمسة أعوام. وبعد انتقالها إلى شقتها الحالية في العجوزة لم تكن لها علاقات غرامية.

هواية زوجها: قراءة صفحة الوفيات.

أسماء خدمها: سرية: خادمة، فلاحة عمرها ١٣ سنة. الأسطى عبد الخالق: طباخ، عمره ٣٧ سنة وله علاقة غرامية بالخادمة سعدية زين العابدين عمرها ٢٥ سنة، وتعمل في منزل الصحافي درويش مخلص المقيم في الدور السادس.

أصدقاؤها من الرجال: لا أحد

صديقاتها من النساء: السيدة عليه الشباس زوجة الدكتور سعيد الشباس الأستاذ بكلية العلوم بجامعة القاهرة، والمقيمة بالدور الخامس من نفس العمارة.

صفات الزوجة: مرحة، تحب التغيير، وتحب الملابس الأنيقة.

صفات الزوج: منطوعلى نفسه، ولا يخرج من بيته بعد عودته من عمله الساعة الثالثة بعد الظهر، ويخرج من بيته في الساعة الثامنة صباح كل يوم ما عدا يوم الجمعة.

وما كاد فوزي بك ينتهي من قراءة التقرير حتى عاد يقرأ التقرير مرة ثانية في اهتمام . . .

ثم رفع رأسه وقال:

ـ التقرير كامل . . . كم كلفكم هذا التقرير؟

قال الصاغ عصام:

ـ لم يكلفنا كثيراً . . . لقد تبعها رجالنا لمدة أسبوع كامل، وراقبنا تليفونها، وأنفقنا حوالى ٢٧ جنيهاً في مصاريف الانتقال ومصاريف نثرية!

قال فوزي بك وهو يفتح مكتبه ويخرج ورقة بنكنوت من فئة المائة جنيه:

ـ التقرير كامل . . وهو يساوي مائة جنيه!

وتسلّم الصاغ المبلغ في ابتهاج بينما كان فوزي بك يقول له:

ـ المهم الكتمان . . . هل أوقفت عملية المراقبة؟

قال الصاغ عصام :

ـ نعم ، أوقفناها أمس . . . واتصلنا برقابة التليفون وأوقفنا المراقبة من أمس . . .

قال فوزي بك وهو يبتسم :

ـ عظيم ! عظيم !

ورفع الصاغ عصام يده بالتحية العسكرية ، وخرج مزهواً بالمائة جنيه التي يحملها ، وبالمعلومات الدقيقة التي جاء بها عن الجاسوسة الإسرائيلية الخطيرة ، وهي المعلومات التي شهد سعادة الأمير مدير الأمن العام بدقتها الكاملة !

ولم تكن إحسان خالد جاسوسة إسرائيلية خطيرة أو غير خطيرة . . . لقد رآها فوزي بك صلاح الدين مرتين في مصعد عمارة العجوزة أثناء صعوده إلى شقة سعدون باشا .

وجرى ريق فوزي بك عندما رأى إحسان ، أذهله جمالها ، شدة جاذبيتها ، ولم يجرؤ أن يفتح فمه ويحدثها . وفي المرة الثانية ابتسم لها ، فابتسمت له وهي تفتح باب المصعد عند الطابق الثاني ، ولم تبق في المصعد مدة طويلة حتى يتشجع ويتحدث إليها . وكلف فوزي بك مرؤوسه الضابط عصام أنْ يجيء له بكل ما يستطيع من معلومات عن سيدة تقيم في الشقة التي دخلتها إحسان ، وقال له إنها جاسوسة إسرائيلية خطيرة ، ليبرر أن يتولى جهاز الأمن تتبعها بالليل والنهار ومراقبة تليفونها . . .

وبعد أن حصل على هذه المعلومات القيّمة التي دفعت الدولة مائة جنيه ثمناً لها ، جلس يفكر في كيفية اصطياد المرأة التي خلبت لبّه !

إنها امرأة تحب التغيير . امرأة كانت تحب رجلاً وتركها وسافر منذ ثلاثة أعوام . . . امرأة لا تحب زوجها . . .

وأضاء فوزي بك النور الأحمر علامة أن سعادة المدير مشغول ولا يريد أن يزعجه أحد . . . وبحث عن رقم تليفونها في التقرير .

ونظر إلى ساعته فوجدها الساعة الثانية عشرة ظهراً . . . إن التقرير يقول إن الزوج لا يعود إلا في الساعة الثالثة بعد الظهر .

إنه الوقت المناسب الذي يستطيع أن يتحدث فيه إلى إحسان قبل عودة ولديها من المدرسة .

وأدار الرقم ، وسمع صوتاً نسائياً يغني في أذنيه .

وقال بصوت هامس :

ـ إحسان؟

قالت في دهشة :

ـ من يتكلم؟

قال فوزي بك وهو ينعم صوته ويجعله رقيقاً وعذباً :

ـ أنا الحبيب المجهول !

ووضعت إحسان سماعة التليفون بعنف على الآلة فدوّت كطلقة مدفع في أذن مدير الأمن العام .

وعاد فوزي بك يفعل كأي طالب مراهق، يطلب إحسان مرة أخرى ويقول:

ـ لا تضعي السماعة قبل أن تسمعي كل شيء..

قالت إحسان في عصبية:

ـ أنت رجل قليل الأدب.. أنا لا أتحدث إلى رجل لا أعرفه!

قال فوزي:

ـ ولكني أعرف كل شيء عنك.. أعرف اسمك.. أعرف عمرك بالسنة والشهر واليوم.. أعرف اسم زوجك.. أعرف كم يقبض زوجك.. أعرف متى تزوجته.. أعرف عمر زوجك.. أعرف اسم الشاب الذي كنت تحبينه وكان يسكن في شارع النباتات بجاردن سيتي!

قالت مذعورة:

ـ من أنت؟

قال فوزي:

ـ أنا الحبيب المجهول.. أنا كنت أتتبعك. وأحبك منذ خمس سنوات.. منذ كنت تقيمين في شارع النباتات. ولكنك كنت مشغولة بحب أحمد رياض. ولم أشأ أن أعكر عليك هذا الهناء، حتى عرفت أنه تزوج في أمريكا.. وعندئذ تجرأت وكلّمتك؟

قالت إحسان وكأنها أحست بطعنة في قلبها:

ـ هل تزوج أحمد؟ من تزوج؟

قال فوزي:

ـ تزوج من طالبة أمريكية بعد سفره بتسعة شهور.. لم ينتظر سوى تسعة شهور ولكن أنا انتظرتك خمس سنوات كاملة.. خمس سنوات كاملة وأنا أطوف تحت نافذتك كما يفعل تلاميذ المدارس.. كنت أتتبع أخبارك.. كنت أحاول أن أعرف أي شيء عنك.. حتى خادمتك سرية عرفت اسمها.. فكرت أن أعطيها خطاباً تحمله إليك، ولكني ترددت خشية أن يقع في يد زوجك. إنني أفضل أن أضحّي بحياتي ولا يمسك أي ضرر!

وتأثرت إحسان بصوته المرتجف، وبأنها تجد رجلاً يحبها كل هذا الحب، ويهتم بها كل هذا الاهتمام خمس سنوات كاملة دون أن يجرؤ على الاقتراب منها.. إن المرأة تعجب بالرجل الجريء، ولكنها تعطف على الرجل الذي يعاملها كآلهة.. كأنها دائماً في حاجة إلى رجلين، رجل تعبده، ورجل يعبدها!

وطلبت إحسان منه أن يفصح عن شخصيته، ولكن فوزي أبى، وفضّل أن يبقى لغزاً، يثيرها بسره، ويفتنها بغموضه.

واستمرت المحادثات التليفونية بين إحسان وفوزي كل يوم إلى أن جاء يوم قال لها إنها رأته في المصعد مرتين، وحاولت أن تتذكره فلم تتذكر، وحاول أن يذكرها أنه هو الرجل الذي ابتسمت له في المصعد، فقالت له إنها إعتادت أن تبتسم لجيرانها على سبيل المجاملة لأن النبي أوصى بسابع جار!

وأخيراً أخبرها أنه فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام..

وبوغتت إحسان بأن شخصية في الدولة تحبها... وأحست بسعادة وغرور بأن الرجل الذي مكث خمس سنوات يمشي تحت نافذتها هو من أهم رجال الدولة!

وأعطاها فوزي رقم تليفونه السرّي في الوزارة، فكانت تطلبه وتتحدث إليه. .

وبدأت إحسان تشعر بالتغيير الذي كانت تبحث عنه!

إن فوزي مختلف عن زوجها صبحي خالد. عاشقها موظف كبير وزوجها موظف صغير. عاشقها يتحدث عن أسرار الدولة وزوجها يتحدث عن صفحة الوفيات. . عاشقها يحكم الدولة، وزوجها يفخر بأن اثنين من الموظفين في الدرجة السابعة يعملان تحت رياسته. . عاشقها يحدثها عن الفساتين الجميلة التي أرسل يشتريها لها من لندن ونيويورك وباريس، وزوجها لا يحدثها إلا عن ضرورة تخفيض مصروفات البيت.

وتطور التغيير إلى غزل، وتطور الغزل إلى حب. .

وانتهز فوزي وقوعها في هواه وعرض عليها أن تقابله. . فتمنعت. . ثم وافقت. . وخاصة عندما علمت بأنه سيلقاها في شقة في نفس العمارة. إن كل ما عليها أن تفعله أن تخرج من باب شقتها، وتصعد الدور الثاني إلى الدور الخامس حيث شقة سعدون باشا الشهير بمحمد بك سعيد. . ولو أن أحداً رآها في الدور الخامس فإنها تقول إنها في طريقها إلى زيارة صديقتها حرم الدكتور سعيد الشباس الساكنة في نفس الطابق.

ووافقت إحسان على الذهاب، بعد أن أخذت تعهداً وميثاقاً من فوزي أن لا يمسك يدها، وأعطاها فوزي ما أرادت من عهود ومواثيق.

وحلّ يوم اللقاء. وما كاد الأستاذ صبحي خالد يخرج إلى مكتبه في ديوان المحاسبة، وما كادت سيارة المدرسة تحمل ولديها الصغيرين،

حتى دخلت إحسان إلى الحمام، ثم دخلت إلى غرفتها وبدأت تتزين وتتأنق، وتبرز من فستانها ذي اللون الطرابيشي كل مفاتن جسدها. وتفرست في المرآة. وبدأت تتحرك أمامها وكأنها ترقص. وأصلحت ثوبها، ورتبت شعرها، وتعطرت بعطر نفّاذ.

إن اليوم هو يوم التغيير الذي تنتظره وتتمناه. ستغير حياتها الراكدة. ستغير وجه زوجها الذي أحاطت عينه خطوط سوداء من كثرة الخطوط السوداء التي غرق فيها بين أخبار الوفيات. ستصعد ثلاث درجات في سلم المجتمع، من بيت زوجها في الطابق الثاني إلى جرسونييرة حبيبها في الطابق الخامس.

إن بعض النساء يهوين الصعود، لا يهم الواحدة منهن أين تصعد وكيف تصعد، لا تفرق بين الصعود إلى القمة أو الصعود إلى الهاوية. . كل ما تريده أن ترتفع إلى فوق. . إنها تتصور أن الجنة فوق، وأن النسيم فوق، وأن جهنم وحدها هي التي تحت. . وهذا النوع من النساء لا يهمه أن ينزل ملابسه الداخلية إلى تحت إذا كان هذا ثمن الصعود إلى فوق!

وبعد أن انتهت إحسان من زينتها، خرجت من شقتها وهي تقول لخادمتها سرية إنها ذاهبة إلى الخياطة، ولم تصعد إحسان مباشرة إلى الطابق الخامس، بل نزلت إلى الطابق الأول، وخرجت من باب العمارة، واتجهت إلى موقف التاكسيات وركبت سيارة تاكسي عبرت بها كوبري قصر النيل، ثم نظرت في ساعتها فرأت أنها تقترب من الساعة الحادية عشرة موعد لقائها، فركبت سيارة تاكسي أخرى، وعادت إلى عمارتها، ودخلت المصعد وأقفلت الباب.

وترددت في أن تضغط على الزر الذي يشير إلى الطابق الخامس،

فضغطت على الثاني الذي يشير إلى الطابق الذي تقيم فيه. وما كاد يصل المصعد إلى الدور الثاني حتى ضغطت على الزر الخامس، ثم فتحت باب المصعد في هدوء، ومشت على أطراف أصابعها، وهي تتلفت حولها في خوف.

إنها المرة الأولى التي تلتقي فيها برجل غريب في شقة. كانت مغامرتها مع جارها أحمد رياض إشارات من النافذة، وخطابات غرامية حارّة تحفظ بشباك البوسطة.. ولكن لم يحدث مرة واحدة أن خرجت معه في موعد أو التقت به في شقة. أما هذه المرة فهي الأولى التي يحدث فيها تغيير كامل في حياتها.

ومشت إلى باب شقة سعدون باشا، فوجدته موارباً، ودفعته بيدها، فرأت فوزي صلاح الدين واقفاً ينتظرها، فلما لمحها أغلق باب الشقة وراءها، وضمها بين ذراعيه وراح يقبلها ويعانقها وعيناه تندسان في شوق إلى صدرها، كأنهما تجردانها من كل ثيابها.

ونسيت إحسان في قبلاته أن تذكره بعهوده ومواثيقه، ثم تملّصت منه وهي تقول:

ـ ألم تقسم لي بشرفك أنك لن تمسك يدي؟

قال فوزي وهو يضحك:

ـ أنا حافظت على قسمي.. لم أمسك يدك.. ولكني لم أقسم أنني لن أقبلك ولن أعانقك. ولن أمسك باقي أجزاء جسدك.. إنني رجل يحترم كلمته.. وأعدك بأنني لن أمسك يدك إلا إذا أذنت لي بذلك..

وتأملته بقلبها. إن العاشقة لا ترى بعينها. وعندما نرى بعيوننا فمعنى ذلك أننا لا نعشق!

إن العاشقة تفتح عينيها ولا ترى، وتغمض عينيها وترى.. إن حاسة النظر تنتقل فجأة إلى قلبها، بل إن الحواس الخمس كلها تنتقل إلى القلب. هو وحده الذي يرى ويسمع ويذوق ويلمس ويحس.

ومالت إحسان برأسها الجميل إلى الخلف في دلال ورشاقة وكأنها فهمت في تلك اللحظة فقط النكتة التي قالها فوزي بأنه رجل يحترم كلمته... ولهذا أمسك كل شيء فيها ما عدا يديها!

وتأملها فوزي بجسده. إن ذئب النساء لا يرى بعينيه. إنه يبصر بجسده، يسمع بجسده، يفكر بجسده إنه لا يفرق بين المرأة الطويلة وبين القصيرة، بين الشقراء وبين السمراء، بين النحيفة وبين البدينة، إن جسده هو الترمومتر الذي يقيس به النساء، هو المتر الذي يحدد طولهن وقصرهن وبياضهن وسمارهن.

إن المرأة إما تكون بأنوثة باردة، أو بأنوثة دافئة، بأنوثة ملتهبة، أو بأنوثة طاغية!

إنه يذوق بجسده النساء فيعرف أن لكل واحدة منهن طعماً مختلفاً. إنه لا يسمع أصواتهن حين يتكلمن وإنما يسمع أنفاسهن بين ذراعيه، فتطربه أنفاس وتصدعه أنفاس، وتسعده أنفاس، وتشقيه أنفاس.

إنه لا يهتم بعقلية المرأة ولا بشخصيتها، ولا بعلمها، كل هذه أشياء لا طعم لها في فم الذئب.. إن الذئب لا يأكل إلا اللحم، ولا يشم إلا اللحم، ولا يثيره إلا منظر اللحم.. وهو جائع باستمرار، شره لا يشبع، نهم لا يكتفي!

ولكن فوزي وجد طعم إحسان يختلف عن طعم النساء الأخريات. إنه عرف الغانيات والراقصات والممثلات وفتيات الليل،

ولكنها المرة الأولى التي يتذوق فيها طعم امرأة متزوجة. . امرأة خام. . عاشت مع رجل في سن أبيها ست سنوات ولا تعرف أسرار الحب. . كأنها عذراء الجسد، بل إن جسمها يحمر وهي بين ذراعيه، كما يحمر وجه الفتاة الصغيرة خجلاً.

وأحس فوزي كأنه يدخل سنة أولى حب. إنه لم يعرف طول حياته إلا أستاذات في علم الهوى والغرام. ولكنها المرة الأولى التي يعرف فيها تلميذة. إنه شعور جديد لم يحس به أبداً إنه أمام امرأة يعلمها ولا يتعلم منها، يشكلها كما يريد، كأنها قطعة من الطين يخلق منها تمثالاً يودع فيه كل ما يريد أن يكون في عشيقته من صفات ومزايا.

إن الرجل عندما يشعر بالتفوق على امرأة يحس بهناء غريب. كأنه لا يصدق أنه الجنس الأقوى. كأنه وهو يتظاهر أمام المرأة بقوته، يعرف في قرارة نفسه أنه أضعف منها، فإذا أحس بأنه أقوى منها فعلاً غمرته نشوة وسعادة المنتصرين.

وفوزي يحس أمام إحسان بأنها صادقة. . . صادقة في ضعفها، وصادقة في هزيمتها، واستسلامها. . كل امرأة عرفها قبل ذلك كانت تمثل الاستسلام والضعف وتتظاهر بالهزيمة. . . ولكن هذه أول امرأة صادقة يراها في حياته. . صادقة في قبلتها، صادقة في نشوتها، صادقة وهي تجذب إليه، صادقة وهي تبتعد عنه. . . كل شيء فيها صادق حتى جسدها النظيف. . إن الرجل الأسمر يهوى الشقراوات، والرجل الكاذب يعبد النساء الصادقات. إن كل واحد منا ينجذب بدون أن يدري، إلى الشيء الذي ينقصه. . إن المرأة الخائنة بطبيعتها تشترط في زوجها أن يكون مخلصاً، وتاجر الحشيش لا يتزوج امرأة تدخن الحشيش!

ولهذا أحس فوزي بأن إحسان شيء جديد في حياته. امرأة

صريحة، وهو لغز. . امرأة واضحة، وهو كتوم. . امرأة بلا خبرة، وهو خبير بطباع النساء. . . امرأة بعاطفة مكبوتة مسجونة، وعواطفه وشهواته مطلقة السراح. . امرأة تريد التغيير، وهو يريد الاستقرار. . . امرأة لم تذق الحب الكامل، وهو نهم من كثرة ما أكل وما شبع وما جاع!

كان فوزي قد اخبر سكرتيره أنه سيغيب عن مكتبه نصف ساعة، ولكنه اكتشف فجأة أنه بقي معها أكثر من ثلاث ساعات. . . نسي الدولة وأحداثها والأمن العام والمؤامرات والدسائس والتقارير السرية وهو بين ذراعيها. . .

ولولا أن إحسان نظرت إلى ساعتها بفزع فوجدت أنها تشير إلى الثالثة إلّا عشر دقائق، فأسرعت ترتدي ملابسها على عجل، قبل أن يعود زوجها إلى الشقة من عمله، لولا ذلك لما عرف أنه مكث معها أكثر من ثلاث ساعات. . .

لقد غادرت الشقة دون أن تقبله، دون أن تتفق معه على موعد آخر. لقد نسيت في عجلتها أن تأخذ علبة البودرة التي تركتها في غرفة النوم. . .

وأشعل فوزي سيجارة. وأحس برغبة أن يتكرر هذا اللقاء في اليوم التالي. ولكن الموعد الوحيد الذي تستطيع إحسان أن تقابله فيه هو بين الساعة الحادية عشرة صباحاً والساعة الثالثة بعد الظهر. وهو الوقت الذي لا يستطيع فوزي أن يترك مكتبه فيه. إنه موعد وجود وزير الداخلية في الوزارة. وهو موعد اجتماعات اللجان الوزارية الهامة. وهو موعد البت في التقارير السرية الهامة. إن هذا يقتضي تغيير كل نظام الدولة حتى يستطيع أن يلتقي بإحسان صباح كل يوم!

إنه يريد أن يلتقي بإحسان في الليل، أن يصحبها معه إلى بيت الهرم حيث يقضي سهراته كل ليلة مع الراقصة ببا والأمير عادل عمرو. . . إنه يريد أن يباهي بالتحفة التي وقعت في يده، بالقطعة الفنية الرائعة التي عثر عليها. إنه يريد أن يستمتع بإحسان طوال الليل، دون أن تضطر لتقفز من الفراش في فزع، وترتدي ملابسها في لهفة وتنسى علبة البودرة، وتنسى أن تقبله، وتنسى أن تتفق على الموعد القادم. . إن هذه العجلة أيقظته من حلمه اللذيذ. . . عكرت عليه هناءه، كأنه حرم من فنجان قهوة لذيذ بعد أكلة دسمة. .إنه يريد لقاءً مريحاً لا عجلة فيه ولا اضطراب. إن الحب السعيد في حاجة إلى استرخاء. إن الاسترخاء هو آخر محطة من محطات رحلة لقاء الغرام!

وفكّر فوزي بك في حل لهذه المشكلة الخطيرة التي تهدد الأمن العام في حبه الجديد. فأمسك بسماعة التليفون وطلب الرقم الخاص للواء سعدون باشا وقال له:

ـ أمامي تقارير سرية كثيرة تقول إن الضباط في فلسطين بدأوا يثرثرون ويقولون كلاماً فارغاً عن حسابات حرب فلسطين. وقد يصل الأمر إلى البرلمان ويتقدم بعض النواب طوال اللسان باستجوابات في هذا الموضوع. . . . ومن رأيي أن نعيّن أحد رجالنا من ديوان المحاسبة للإشراف على الحسابات في الجبهة على أن يكون مركزه رفح . . . وقد وجدت الرجل الصالح لهذا المنصب وهو الأستاذ صبحي خالد المفتش في ديوان المحاسبة.

قال سعدون باشا:

ـ ولكن هل تثق بهذا الشخص؟

قال فوزي بك:

ـ أثق به كما أثق بشخصي. إنه مستعد أن يوافق على كل ما نطلب منه. ولكن المهم أن يعين فوراً بحيث إذا تقدم سؤال في البرلمان، سارعت وزارة الحربية وأجابت النائب طويل اللسان أنها قبل تقديم السؤال عيّنت مفتشاً في ديوان المحاسبة لمراجعة نفقات الحرب. وأنه موجود الآن فعلاً في ميدان القتال!

وشكر سعدون باشا صديقه فوزي بك صلاح الدين على اهتمامه الشديد بسمعة حسابات حرب فلسطين. . .

وقال فوزي بك:

ـ لا شكر على واجب. . إنني أعتبر نفسي واحداً منكم. . . وما يمسكم يمسني تماماً يا باشا.

ووضع فوزي بك سماعة التليفون وأشعل سيجارة راح يضحك ضحكة عالية تحوي مجموعة من الضحكات. . كأنه يضحك من سعدون باشا، ويضحك من الجيش المصري، من الأستاذ صبحي خالد المفتش في ديوان المحاسبة. .هذا الزوج الثقيل الذي يعود كل يوم إلى بيته في الساعة الثالثة بعد الظهر، ويبقى فيه لا يغادره ولا يترك لزوجته فرصة الخروج في موعد يناسب فوزي بك صلاح الدين!

الآن خلا الجو له. لن تتعجل إحسان العودة إلى بيتها. لن يعود صبحي إلى بيته لا في الساعة الثالثة بعد الظهر ولا في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. قد يستطيع فوزي بك أن يصدر أوامره بعدم التصريح له بالعودة إلى القاهرة نظراً لحاجة العمل.

وتصور فوزي بك لياليه القادمة مع إحسان. تصور أضواء الليل وهي تنعكس على بشرتها البيضاء. تصورها جالسة بجوار الراقصة ببا،

كزهرة من الفل إلى جانب عود من البصل. تصور نظرات الغيرة والحسد في عيني ببا، ونظرات الشبق في عيني سعدون باشا، ونظرات الإعجاب في عيني الأمير عادل!

وتصورها وهي راقدة بجواره في القصر الذي حصل عليه من الحراسة، وهو يداعب خصلات شعرها. تصورها في قميص النوم الشفاف، وتصورها في روب دي شامبر. روب ترتديه على اللحم... تصور عينيها وهما تبرقان، هذا البريق الذي أسره وسحره. تصور أنفاسها وهي تلهث بين ذراعيه، وخصلات شعرها وهي تسقط على وجهها..

وأحس فوزي بك بأنه عبقري فعلاً، وأنه يحكم مصر فعلاً، فإنه بكلمة منه استطاع أن يحل مشكلة كانت تضايقه وتعذبه وتعكر عليه أحلى الأحلام..

كان فوزي بك صلاح الدين جالساً في مكتبه بعد ظهر اليوم التالي ينتظر بفارغ الصبر نبأ سفر الأستاذ صبحي خالد إلى فلسطين ليبدأ شهر العسل مع إحسان، الشهر الذي رسمه بخياله، ولوّنه بشهواته، وصنع إطاره بشوق ولهفة...

لقد أخفى عن إحسان الفكرة الجهنمية التي وصل إليها لإبعاد زوجها. إنه بطبيعته رجل كتوم. وهو يفضل أن تتصور أن ما حدث أمر طبيعي، كأن القدر هو الذي يدبر لهما شهر العسل.. كأن القدر هو الذي يبارك هذا الحب الجديد.. إن النساء قدريات بطبيعتهن، ويتفاءلن عندما يتصورن أن قوة خفية تفتح لهن طريق الهوى والغرام..

ودق جرس تليفونه الخاص، فرفع فوزى السماعة، وسمع

إحسان تقول له في صوت مرتجف هامس:

- إنني أتكلم من الشارع.. لقد خرجت من البيت وتركت صبحي في الشقة بحجة أنني ذاهبة إلى الخياطة..

قال فوزي متلهفاً:

- هل أستطيع أن أقابلك الآن؟

قالت إحسان:

- تقابلني؟.. لقد حدثت مصيبة.. كارثة.. نكبة!

قال فوزي وقد فهم أن خطته نجحت:

- ماذا حدث؟

قالت إحسان:

- لقد استدعى رئيس ديوان المحاسبة اليوم صبحي إلى مكتبه وأبلغه أنه صدر أمر بنقله إلى وزارة الحربية، وأنه يجب أن يسافر فوراً إلى رفح لاستلام عمله هناك!

قال فوزي يهدئها:

- لا تخافي.. إنه لا يمكن أن يأخذك معه.. لأنه ممنوع أن يصحب الموظف زوجته إلى ميدان القتال.. معنى هذا أنني سوف أستطيع أن أراك في أي وقت تشائين!

قالت إحسان:

- معنى هذا أنك لن تراني ابداً.. إن صبحي قرّر الاستقالة من

وظيفته ومعنى استقالته أن يبقى في البيت معي ولا يخرج أبداً . .

إنه يقول إنه يستطيع أن يعيش بمعاشه، وإنه سوف يستغني عن الخادمة والطباخ ويقلل مصاريف البيت . . وهذا هو الفرق بين مرتبه ومعاشه!

قال فوزي :

ـ كيف يرفض هذا العمل العظيم؟ إن هذا الاختيار يدل على الثقة فيه والتقدير لكفاءته ونزاهته . . إنه مجند لخدمة الوطن!

قالت إحسان :

ـ قلت له كل هذا لأجعله يوافق على السفر، فقال لي بتهكم : يا سلام على وطن يجيء بخريج كلية الزراعة ويجعله يفتش على حسابات معركة حربية . . إنه رجل عنيد جداً!

وصمت فوزي قليلاً كأنه أحس بأن صورة شهر العسل التي رسمها بخياله، ولوّنها بشهواته، وصنع إطارها بشوقه ولهفته، قد سقطت عليها بقعة حبر كبيرة اسمها الأستاذ صبحي خالد!

وقال فوزي!

ـ اتركي لي هذه المسألة . .

ووضع فوزي سماعة التليفون وزفر زفرة كبيرة . .

ثم أمسك السماعة من جديد وأدار رقم هاتف اللواء سعدون باشا وقال له :

ـ أرجو أن تصدر فوراً قراراً بإلغاء تعيين صبحي خالد وإعادته إلى

ديوان المحاسبة . .

قال سعدون باشا في دهشة :

ـ لكن القرار صدر أمس فقط!

قال فوزي بك :

ـ لقد وصلت إلينا تحريات مؤكدة أنه شخص خطير، غير موثوق به، وأنه على صلة ببعض النواب الذين يرغبون في إثارة موضوع مصاريف حرب فلسطين في البرلمان . .

قال سعدون باشا :

ـ أشكرك لأنك اكتشفت حقيقته . . لأننا لو عيّناه في هذا المنصب فسوف ينكّد على حياتي!

قال فوزي بك :

ـ حياتك أنت فقط؟ كان سينكد عليّ حياتي . . أنا . . أيضاً! .

ـ ١٢ ـ

كانت الراقصة ببا تحتفل بعيد ميلاد الأمير عادل عمرو في بيت الهرم. إنها أخفت عنه أنها ستحتفل بهذا اليوم. دعت أصدقاءه من وراء ظهره. اتفقت مع الأميرالاي عباس بك الشمردلي على إحضار صناديق الويسكي والكميات اللازمة من الديوك والفراخ التي تليق بعيد ميلاد الأمير. واتفقت مع الأمير أن يحضر لها في الساعة العاشرة مساء، وأن يعد نفسه للمبيت في تلك الليلة.

وقبل موعد وصول الأمير أغلقت أنوار الصالة الكبيرة التي أعدتها

لتكون مكان الحفلة، وارتدت ثوب سهرة أبيض اشتراه لها الأمير من باريس، ووضعت على رأسها تاجاً من الماس الصناعي لتبدو وكأنها أميرة.

وجلس حول المائدة اللواء حمّاد باشا قائد المشاة، واللواء سعدون باشا قائد الفرسان، وفوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام، والأميرالاي شعبان بك شعيب قائد المدفعية بالنيابة، والأميرالاي عباس بك الشمردلي قائد سلاح التموين وخدمة الجيش وخدمة بيت الهرم.

وما كاد الأمير يدخل الصالة المظلمة حتى تعالت الأصوات تغني أغنية «سنة حلوة يا جميل» بالإنجليزية. وفجأة أضيئت الأنوار وذهل الأمير من المفاجأة، ونظر إلى المائدة فوجد عليها كعكة ضخمة لعيد الميلاد وعليها شمعة واحدة. إن ببا لم تشأ في هذه الليلة السعيدة أن تضع شموعاً بعدد سنوات عمر الأمير حتى لا تذكره بأنه يخطو نحو سن الخمسين!

وضحك الأمير وقال:

ـ وكيف استطعتم تدبير هذه المؤامرة من وراء ظهري؟ لقد قابلت أغلبكم اليوم في القيادة أو تحدثت إليكم تليفونياً ولم يظهر على واحد منكم أنه مشترك في المؤامرة!

قالت ببا وهي تضحك:

ـ لو أردنا أن نقوم بانقلاب عسكري الليلة لاستطعنا أن نقوم به!!

قال فوزي بك مدير الأمن العام:

ـ فعلاً.. كل قواد الأسلحة ومدير الأمن العام والمخابرات

العسكرية في مؤامرة واحدة.. هذا يجعل الانقلاب ناجحاً مائة في المائة!

قالت ببا وهي تشير بإصبعها إلى جسدها شبه العاري:

ـ وأنا سأقوم بمهمة إثارة الشعب.. وهي مسألة مهمة قبل الانقلاب!

وضحك اللواء سعدون باشا وقال:

ـ فعلاً، «الإثارة» ضرورية قبل أي «انقلاب»!

وقهقه الجالسون لنكتة اللواء قليل الأدب!

وقامت ببا، تصب الويسكي في أقداح الضيوف.. ثم رفعت كأسها وقالت وهي تتجه للأمير وتقبله في شفتيه:

ـ كل سنة وأنت طيّب يا حبيبي!

ورفع الجالسون أقداحهم وشربوا نخب الأمير..

ثم رفعت ببا كأسها وقالت للأمير وهي تدق كأسها في كأسه مرة وتقول: هذا لعينيك.. ثم تدق الكأسين مرة أخرى وتقول: وهذا لعيني.. ثم تدقها ثالثة: هذا لشفتيك.. ثم تدق الكأسين مرة رابعة وتقول: وهذا لشفتي.. عيوننا تقابلت.. وشفاهنا تقابلت.. ثم تدق الكأسين مرة خامسة وتقول: وهذا لجسدك، وهذا لجسدي.. جسدانا لم يتقابلا فلنشرب نخب لقائهما كلقاء العيون والشفاه!

ويضحك الجالسون لهذا النخب. فهم يعرفون أن الجسدين التقيا أكثر ما التقت العيون والشفاه..

وتنظر ببا إلى الضاحكين وتتهمهم بقلة الحياء!

ويسود المرح واللهو جو السهرة. ويكثرون من الشرب، وكلما ترنحوا شربوا، وكلما شربوا ترنحوا!

ومال سعدون باشا على أذن فوزي بك وقال له:

ـ يجب أن ترقص ببا احتفالاً بعيد الأمير!

وهمس فوزي بك في أذنه قائلا:

ـ اسكت! هل جننت؟ إن ببا نسيت انها كانت راقصة.. إنها تتصرف الآن كملكة.. إنها ملكة مصر الثانية..

وسمعت ببا اقتراح سعدون باشا فاحمر وجهها في غضب وقالت:

ـ ماذا تقول يا سعدون؟ هل تقترح أن أرقص؟

قال سعدون باشا:

ـ أبداً... كنت أقترح أن يرقص الأميرالاي عباس بك الشمردلي!

وضحكت ببا وقالت:

ـ فكرة عظيمة.. قم يا شمردلي بك ارقص.. ونحن نصفق لك على الوحدة!

وثار الشمردلي بك وقال:

ـ إني أحتج على هذه الإهانة؟ أرقص؟ كيف تقترح يا سعدون باشا أن أرقص؟

وسارع سعدون باشا يقول بخبث:

ـ لماذا لا ترقص.. هل الرقص عيب؟

وأحس الشمردلي بك بأن سعدون باشا أدخله في مصيدة، فقال:

ـ لا، الرقص ليس عيباً.. إنه فن رفيع.. فن جميل.. إنه محفور على معابد الآلهة في آثار قدماء المصريين!

قال سعدون باشا:

ـ إذن، ما دام هذا رأيك في الرقص، وهو رأيي أيضاً، فلماذا لا تقوم وترقص احتفالاً بعيد مولد الأمير؟

قال الشمردلي بك وقد احمر وجهه:

ـ إنني مستعد أن أفعل أي شيء يأمرني به سمو الأمير!

وغمزت ببا الأمير بعينها، فقال وقد تظاهر بأنه يصدر أمراً عسكرياً.

ـ إذن آمرك بأن ترقص يا شمردلي بك!

وبدأ الجالسون يطبلون على المائدة لحن الرقص الشرقي، وقام الشمردلي بك، ودار على عقبيه، وسار بضع خطوات، ثم سقط على الأرض مغمى عليه.

وأسرعت ببا تحضر زجاجة الكولونيا من غرفتها، وتعاون أصدقاؤه على حمله، ووضعوه على أريكة وراحوا يدلكون صدره حتى أفاق!

وفتح الشمردلي بك عينيه في ذهول وقال:

ـ أين أنا؟!

قالت ببا وهي تضحك:

ـ في صالة بديعة!

قال الشمردلي بك في دهشة:

ـ ماذا حدث لي؟

قالت ببا:

ـ حدث أن رقصت أحسن مما ترقص تحية كاريوكا!

قال الشمردلي بك في ذعر:

ـ أنا رقصت؟ . . .

والتف حوله الأمير وأصدقاؤه يؤكدون له أنه مكث يرقص نصف ساعة كاملة، وأنه هزّ بطنه هزات لا يمكن أن تصل إليها تحية كاريوكا. . وأنه لم يعرف ما فعل لأنه شرب كثيراً من الويسكي!

وهمست ببا في أذنه:

ـ يظهر يا شمردلي بك أن الويسكي الذي ضربته من صنف مغشوش لأنه فعل بك كل هذا. .

قال الشمردلي محتجاً:

ـ أبداً، إنه من أحسن صنف. . إنه جون هيج. . اشتريته من محل توماس. . ولو ثبت أنه مغشوش فسوف أستصدر غداً أمراً عسكرياً بإغلاق هذا المحل الذي يغش القيادة!

واستأنفوا السهرة من جديد، ووضعوا الشمردلي على المائدة بجانب الخروف. . وراحوا يقطعونه بسكاكين القفشات والنكات، والرجل المسكين يصدق أنه رقص فعلاً. .

وقال الأميرالاي الشمردلي بك في قلق:

ـ هل سيقف رقص الليلة عقبة في حصولي على رتبة اللواء؟

وضحك الأمير عادل:

ـ عقبة!؟ إنها من أهم الأسباب التي ستجعلنا نلح على الملك في الإنعام عليك برتبة اللواء مع رتبة الباشاوية.

وانفرجت أسارير الأميرالاي الشمردلي بك وقال:

ـ إذا كان الأمر كذلك فإنني مستعد أن أرقص كل يوم!

واستمرت الضحكات حتى مطلع الفجر. . وتثاءب الأمير عادل، ففهم الجالسون أن واجبهم أن يستأذنوا ليتركوا الأمير مع ببا.

وقاموا من مقاعدهم يكررون التهاني للأمير والشكر لببا. .

وخرج الأمير وببا إلى الشرفة يودعانهم وهما يضحكان. . واستدار الأمير وببا ليعودا إلى داخل البيت في طريقهما إلى غرفة النوم، وأخرج الأمير منديله ومسح دموعه وهو يقول:

ـ إنني لم أضحك مثلما ضحكت هذه الليلة!

قالت ببا في صرامة:

ـ ولكني لم أتألم كما تألمت هذه الليلة؟

قال الأمير وهو يخلع جاكتته في هلع:

ـ هل أنت مريضة؟ لماذا لم تخبريني بأنك مريضة. . لكنت كلّفت سعدون باشا أو فوزي بك بأن يذهب واحد منهما لإحضار طبيب!

قالت ساخرة:

ـ لست في حاجة الى طبيب. . المفروض أنك أنت الدكتور!

قال الأمير عادل وهو يضحك:

ـ نعم، نسيت أنه المفروض أنني دكتـور. . ولكن ماذا يؤلمـك يا حبيبتي؟

قالت ببا وهي تبكي:

ـ يؤلمني أن أصدقاءك يحتقرونني!

قال الأمير عادل في غضب:

ـ من يجرؤ منهم أن يحتقرك، إن من يحتقرك كأنه يحتقرني أنا!

قالت ببا وقد ازداد بكاؤها:

ـ ألم تلاحظ أنهم ضحكوا عندما قلت وأنا أشرب نخبك أن جسدي وجسـدك لم يلتقيا بعـد؟ إن معنى هذا أنهم يعتبـرونني عشيقتـك. . خليلتك. . لقد جعلت سمعتي في الطين!

قال الأمير في إصرار:

ـ بالعكس، كلهم يحترمونك. . وكلهم يعرفون أنني أحبك!

قالت ببا:

ـ لو كانوا يحترمونني لما اقتـرح اللواء سعدون بـاشا أن أرقص في الحفلة. . إنه يعاملني كراقصة جاءت تحيي حفلة. . بعد كل تضحياتي من أجلك. بعد أن كرّست حياتي لحبك. . بعد أن هجرت بيتي لأقيم في هذا المكان السحيق كي أحافظ على سمعتك. . بعد أن دست على مستقبلي كنجمة سينمائية كبيرة لأرضيك. . بعد هذا يعاملني أصدقاؤك كأنني راقصة في كباريه!

وصمت الأمير قليلاً ثم قال:

ـ لا اعتقد أن اللواء سعدون باشا قصد إهانتك، بدليل أنـه طلب من الشمردلي بك أن يرقص. . والشمردلي بك موظف كبير في الدولة، وله مقامه. . .

وصرخت ببا محتجة:

ـ وهل تضعني أنا في درجة واحدة مع هذا الرجل الذي تسخرون منه وتهزأون به وتضحكون عليه؟ . لقد كنت أتصور أنك تضعني في منزلة أعلى من هذا بكثير بعد أن أحببتك كل هذا الحب، وأخلصت كل هذا الإخلاص، وضحيت كل هذه التضحيات!

وانهمرت الدموع من عيني ببا. . . وأخفت رأسهـا في الوسـادة، وأخذت تنتحب بصوت مسموع. .

وأسرع الأمير إليها يعانقها ويقبلها ويقول لها في استعطاف:

ـ كيف تبكين يا ببا في عيد ميلادي؟

قالت ببا وهي ترفع رأسها من الوسادة:

ـ هذا يوم عيد ميلادك. . ولكنه يوم مأتمي. . شعرت هذه الليلة لأول مرة في حياتي أنني امرأة حقيرة. . امرأة لا تستطيـع أن تدخـل حياتك من الباب الأمامي. . إنما تدخله من الباب الخلفي. . من سلم الخدم. . امرأة الظلام تنتهي مهمتها عندما تشرق الشمس. . ولكن الذنب ليس ذنبك، إنه ذنبي أنا. أنـا اعتبرتـك كل شيء في حيـاتي فأعطيتك حياتي. ولكني بالنسبة إليك امرأة على الهامش!

قال وكأنه يتوسل:

ـ كيف تقولين هذا يا ببا؟ إنك كل حياتي. . اذا لم تكوني حتى الآن

عرفت مكانتك عندي فليس الذنب ذنبي. . أنت أول حب بمعنى الكلمة في حياتي. . إنني لم أشعر بالسعادة الحقيقية إلا بين ذراعيك. . لم أعرف أنني أعيش إلا وأنا معك!

ومدّ الأمير شفتيه ليقبلها في شفتيها، فقالت ببا وهي تشيح وجهها عنه:

ـ لا تحاول أن تسكتني بقبلاتك. . لقد سكت طويلاً، تحملت ما لا يتحمل البشر، رضيت أن أعيش في الظل، امرأة بلا مستقبل. . أمس كنت أقود سيارتي الضخمة في شارع الأهرام ورأيت زميلة لي في المدرسة مع زوجها وابنها الصغير. شعرت بحسرة، بعذاب. . شعرت بحقارة شأني وأنا في السيارة الكبيرة الضخمة الفخمة، وبعظمة زميلتي وهي ماشية على قدميها. تمنيت أن أوقف السيارة وأنزل منها وأقول لها: خذي السيارة. خذي اسمي الكبير كنجمة. . خذي بيت الأمير. خذي بيت الهرم واعطني زوجك وطفلك. . شعرت أنني أفضل أن أمشي حافية وبجواري رجل أحمل اسمه، على أن أركب سيارة كاديلاك وبجواري ملك لا أستطيع أن أظهر معه إلا في الظلام. . إنك تخجل مني!؟. .

وسكتت ببا وكأنها أحست لأول مرة في حياتها أنها أضافت كلمات جديدة على السيناريو الذي كتبه لها صديقها الأستاذ سامي كاتب السيناريو. .

قال الأمير وهو يزفر أنفاساً:

ـ كيف تقولين إنني أخجل منك؟ لو كنت أخجل منك لما قدّمتك للباشوات من أصدقائي!

ـ قدمتني لخفافيش الظلام. . ولكنك لا تجرؤ أن تظهر بي في الشارع أثناء النهار. . أنا ملكة تحت الأرض وراقصة فوقها. . إنني لم أستمتع بما تستمتع به أي تلميذة في المدارس الثانوية عندما تمشي مع الشاب الذي تحبه في الشارع وقد تشابكت أيديهما. . أنا محرومة من حقوق كل امرأة تحب. . حقها في أن تأمل. . حقها في أن تحلم. . حقها في أن يكون لها مستقبل. . أنا امرأة أعيش بلا آمال ولا أحلام. . ولا غد!

قال الأمير وهو ينكمش على نفسه:

ـ لقد ظننت أنك سعيدة؟

قالت ببا وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

ـ سعيدة وأنا معك. . ولكن ما تكاد تتركني حتى أحس بوحدتي وشقائي يجف رضابك على شفتي وأشعر فيهما بطعم السم. . تزول آثار أصابعك التي ضغطت على جسدي وأحس فيه بطعنات السكاكين. أمضي الليالي التي تذهب فيها إلى زوجك ساهرة أبكي وأتعذب. . وصبرت على كل هذا الهوان. . ورضيت بكل هذا العذاب. . ثم فوجئت الليلة بنظرة الاحتقار في عيون أصدقائك. . كنت أريد أن أثور عليهم وأطردهم جميعاً وأطردك معهم. . ولكني تذكرت أن هذه حفلة عيد ميلادك، فتظاهرت بأنني أضحك وقلبي يبكي، وحرصت أن أبدو سعيدة وروحي تتمزق. . لأن كل ما يهمني هو أن أسعدك. . ولو كانت هذه السعادة تكلفني أعصابي ودمائي.

وطوقها الأمير بذراعيه، ودفن وجهه في شعرها، وراح يقبلها في خصلات شعرها ويقول:

ـ يا حبيبتي. .

وأحس بجسدها كله ملتهباً كالنار.

وفجأة دفعته بيدها وقالت له بحزم وإصرار:

ـ إنني متعبة مرهقة، دعني من فضلك. .

وأرخت عينيها وتظاهرت بالنوم. .

وجلس الأمير ينظر إليها بعينين جائعتين، وقد أحس بأن لقمة لذيذة كانت قرب شفتيه، ثم امتدت يد قاسية لا ترحم سلبتها منه. . وشعر بالضيق. ونظر إلى جسدها الراقد بجواره وفي عينيه بـريق حائـر. . وشعرها المنثور يجذبه. . كتفاها العاريتان تناديانه. . جفناها القلقان ينذرانه. . فمها الشهي يحذره!

وراجع نفسه فقرر أن يتركها قليلاً حتى تهـدأ. . ورقد بجـوارها ينتظر، ولكن الخمر الذي شربه والسهر الطويل جعلاه يغمض عينيه ويستغرق في نوم عميق. .

واستيقظ في الساعة العاشرة صباحاً، ومد ذراعه ليضمها كما يفعل دائماً عندما يستيقظ وهي نائمة بجواره، ولكن ذراعه ضمت الهواء، ورفع رأسه في تثاقل يبحث عنها فلم يجدها في الفراش، وفتح عينيه الـواسعتين وتـطلع في أنحاء غـرفة النـوم فلم يجدهـا. واعتقـد أنها ذهبت إلى الحـمام فأسنـد ظهره إلى مخـدة وجلس ينتظرهـا. . ومضى وقت ولم تخرج من الحمام، فقام إلى الحمام وفتح الباب فلم يجـدها، وراح يمشي في أنحاء البيت وهو يصيح:

ـ ببا. . ببا. . ببا!

ولم يسمع جوابها. .

وعاد إلى غرفة النوم وارتدى الروب دي شامبر، ونزل إلى حديقة

البيت يطوف بها بحثاً عنها، ثم عاد إلى غرفة النوم في ذهول. .

وعاد مرة أخرى إلى الجاراج الكبير الذي يضم سيارتها وسيارته، فوجد السيارتين في مكانهما. .

لا يمكن أن تكون خرجت. . إنها لا تستـطيع أن تقـطع المسافـة الطويلة بين البيت والطريق العام سائرة على قدميها.

وعاد إلى غرفة النوم، وأطل تحت السرير فقد تصور أنها أرادت أن تداعبه، ولكنه لم يعثر عليها. وصعد إلى سطح الفيلة ولم يجدهـا. . ودخل غرف الدواجن فلم يجدها ايضاً. .

وعـاد مرة أخرى إلى غرفـة النوم وفتـح الخزانـة التي تضع فيهـا مجوهراتها ونقودها فوجد المجوهرات كما هي. .

ثم رأى ورقة موضوعة على الكومودينه، فأمسكها بيده، وما كاد يقرأ سطورها حتى اضطرب. . كانت تحوي بضع كلمات:

«إنني هاربة من جنتك يا حبيبي. . إن الجحيم في النور أقل عذاباً من النعيم في الظلام». .

وأسرع الأمير إلى التليفون وطلب بيت ببا في العجوزة، وأجابت أمها ست زليخا. .

فسألها: أين ببا؟

قالت ببراءة: إنها في الهرم!

قال لها: ألم تحدثك تليفونياً اليوم؟

قالت: لا. . ولكنها اعتادت أن تحدثني في مثل هذه الساعة كـل

صباح. . هل تريد أن أقول لها شيئاً يا دكتور؟

قال الأمير وهو يحاول السيطرة على أعصابه:

ـ لا. . سأطلبها الآن في بيت الهرم؟

ووضع الأمير سماعة التليفون على الآلة وهو ينفخ. .

ومشى في غرفة النوم بعصبية. ثم أشعل سيجارة. وأطل من النافذة ونظر في الصحراء حوله. . وسرح في بيا. .

لماذا هربت من جنته؟ لماذا تركت كل المجوهرات التي اشتراها لها، وكل الفساتين التي أحضرها من أكبر محلات الأزياء في باريس، والسيارة الكاديلاك الفاخرة التي حصلت عليها بصفتها زوجة الشهيد اليوزباشي محمد فهمي أحد أبطال معركة ساموراي، وبيت الهرم الذي تكلف تأثيثه عشرة آلاف جنيه؟ لماذا تركت كل هذا، ورفسته بقدمها وداست عليه؟

لقد كان يتوهم أنها أسعد امرأة في العالم. كذلك كانت تقول له عيناها، وشفتاها، وجسدها. كان يتوهم أنها فخورة بأنها عشيقة أكبر أمير في الدولة. الرجل الثاني بعد الملك. كان يعتقد أنها سعيدة بأن كبار رجال الدولة من أصدقائه ينحنون بين يديها. يتملقونها، يسيرون خلفها، يتنافسون على استرضائها، كأنها كانت تحلم ثم استيقظت من حلمها، فولت هاربة من الحلم. . لقد كلفه هذا الحلم غالياً. . صنعه لها بدمه وأعصابه ودموعه. صنعه لها بنفوذه ومركزه السامي. صنعه لها بأموال الدولة ونفقات حرب فلسطين. ومع ذلك داست على كل هذا بقدميها. وتركته وراءها. .

ولكن إلى أين هربت؟ أتتصور هذه المجنونة أن أميراً عظيماً مثله

سوف يركب سيارته ويجري في الشوارع يبحث عنها؟ أتتصور أنها تريد أن تثبت له أنه لا يستطيع أن يعيش بغيرها؟ كتلك الأثواب الأنيقة المعلقة في خزانة ثيابها المفتوحة؟ إنها كلها أثواب معلقة في شماعات. لا تبدو في جمالها وروعتها وأناقتها إلا إذا كانت بيا داخلها. كذلك هو مثل هذه الفساتين. معلق من رقبته. فارغ من داخله، محتاج لبيا كي تملأ هذا الثوب ليبرز جماله وروعته وأناقته.

إنه لن يتعقبها. لن يجري وراءها. لن ينكس رأسه أمامها. سيتعذب، ولكنه سيتحمل. سيشقى ولكنه سيتجلد. إنه لم يحن رأسه قبل اليوم أمام امرأة. لم يعفر رأسه بتراب أقدام أي واحدة من النساء اللائي عرفهن. سوف لا يهتم بها.

ثم تغير شعوره فجأة وتصورها بين ذراعي رجل آخر، وأحس برغبة في أن يقتلها. إنه لا يحتمل أن يراها مع رجل غريب. . لا يحتمل أن يلتصق جلدها بجلد رجل سواه. . لا يطيق أن تمتزج أنفاسها بأنفاس رجل غيره.

ثم احس بانه لا يستطيع أن يقتلها لأنه يحبها. . وهو يريد أن يقتلها لأنه يحبها. . إن الحب يجعلنا نحس بمشاعر غير منطقية، كانه عدو للمنطق، إن مقاييس ذبذبات العقل مخالفة لمقاييس نبضات القلب، وعندما تختلط الذبذبات بالنبضات تحدث ضوضاء تحيّرنا كما تضيء علامات المرور كلها مرة واحدة بسبب ماس كهربائي، فتقول لنا تقدم وقف في وقت واحد!

وأحس بصدره يتهدج بعواطف متباينة في وقت واحد. فيه حب وكراهية، فيه غيظ وشوق. فيه ثورة ولهفة. فيه كمد وقلق. كأنه يريد أن يهرب منها ويهرب إليها. أن يفقدها ويجدها. أن يلطمها على وجهها

ويضمها بين ذراعيه. إنه يحاول أن يبحث في داخل نفسه عن إرادته فلا يجدها، إن الحب العنيف هو القيد والإرادة والحيوية. الحب طاغية إذا سيطر سلب النفس كل حريتها، وأول هذه الحريات الإرادة.

إن أول ما يفعله الحاكم العنيف أن يسلب الشعب إرادته. فيفقد المقاومة، ويعجز عن المعارضة، ويفقد القدرة على الحركة، والحب العنيف يفعل في الإنسان ما يفعله الحاكم العنيف في الشعوب.

وهكذا أحس الأمير عادل أنه أضعف من أن تكون له إرادة لأنه يحب ببا. وأضعف من أن يكرهها. وأضعف من أن يهرب منها. إنه يريدها له وحده. وخوفاً من الأميرة نانوسة زوجته، وخوفاً من الناس الذين سيثورون عليه لأنه لا يريد أن تتزوج رجلاً آخر. ولكنه لا يستطيع أن يتزوجها خوفاً من الملك.

لا يريد أن تظهر في مجتمع عام مع رجل آخر. وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يظهر معها في مجتمع عام. إنها تركت عملها. تركت أسرتها. تركت مجدها الفني. اختفت عن الأضواء لم تعد تنشر الصحف صورتها ولا اسمها، واعتقد أنه يعوضها بحبه عن كل ما فقدته. إنه لا يستطيع أن يطلّق زوجته الأميرة ويتزوجها، ولا يستطيع أن يتزوجها فوق زوجته. كل ما يستطيعه أن يتعبد فيها. أن يمنحها قلبه، أن يضع تحت قدميها كل ما تتمنى وتشتهي وتريد. ولكنها لا تريد شيئاً. إنها تركت البيت الفاخر والمجوهرات الغالية والملابس الأنيقة والسيارة الفخمة.. وهربت.. ولا يعرف أين هربت!

وأحس كأنه بدأ يجن. إن لديه مواعيد هامة في القيادة. ولكنه لا يستطيع أن يذهب إلى هذه الاجتماعات. إن عقله ليس فيه إلا ببا.. وهروب ببا.. وكيف يجد ببا؟..

وأمسك تليفونه وطلب سكرتيره في القيادة وأمره أن يلغي جميع مواعيده.. إنه مشغول اليوم بالسياسة العليا!



ولم يكن الأمير عادل عمرو وحده هو المشغول بحادث هروب! إن الدولة كلها كانت ـ كما يبدو ـ مشغولة في ذلك الصباح بعدد من حوادث الهروب!

كان سعدون باشا في هذه اللحظة راقداً في فراشه يتمطى بعد سهره الطويل في حفلة عيد ميلاد الأمير..

وكان سعدون باشا لا يفكر في ضحكات الليلة الماضية ولا في رقص الشمردلي بك، وإنما كان متجهم الوجه يفكر في امرأتين هربتا منه!

المرأة الأولى هي شريفة زوجة الصاغ عزيز علاء الدين. لقد وعدته أن تفكر في العرض الكريم الذي عرضه عليها وهو أن يقبّلها على الفراش، مقابل تركيب عشرة أصابع صناعية لزوجها تكلف خمسة آلاف جنيه. ولكنها هربت ولم تتصل به!

هذه المجنونة التي ترفض أن تبيع قبلة واحدة بخمسة آلاف جنيه. إن هناك نساء أجمل منها ألف مرة على استعداد لأن يبعن أكثر من القبلة بخمسة جنيهات.. ولكننا شعب جشع، لا يعرف أن القناعة كنز.. لا يفنى. ولا يقدر كرم سعدون باشا.

إن حاتم الطائي الذي تتحدث عنه كتب التاريخ لا يمكن أن يكون قد دفع خمسة آلاف جنيه ثمناً لقبلة واحدة. هذه المرأة المجنونة لا يمكن أنها تحب زوجها حقيقة. ولو أنها كانت تحبه لدفعت الثمن عن طيب خاطر. وبذلك تريحه من هذا العذاب، وتنقذه من هذا الشقاء.

ولكن تردد سعدون هو الذي تركها تهرب. أراد أن يكون رجلاً جنتلمان، وترك لها فرصة تفكر. لو أنه انقض عليها وهي في غرفة النوم لاستسلمت. لو أنها قاومت فإنه قادر بقوته الجسمانية أن يغتصبها. فإذا هددته بالشكوى فسوف يبرز شريط التسجيل الذي يقطع بأنها هي التي أصرت على أن تجيء إليه وحدها بغير زوجها..

سوف يحاول أن يتصل بها اليوم تليفونياً، ويدعوها للحضور إلى قصره، ويقول لها إنه عدل عن طلبه وسوف يمنحها الأصابع الصناعية العشرة مجاناً.. وعندما تجيء إليه يجرب خطة الانقضاض بعد أن فشلت خطة الالتفاف!

وانتقل سعدون باشا من الهاربة الأولى إلى الهاربة الثانية.. عشيقته الممثلة كاميليا كامل. هذه المرأة التي أنفق عليها أموالاً طائلة، واشترى لها هدايا فاخرة، واستغل نفوذه لتحصل على بطولة عدد من الأفلام. وهدد أحد المخرجين بالاغتيال لأنه رفض أن يسند إليها الدور الأول في فيلم شقراء النيل، بحجة سخيفة أن بطلة الفيلم شقراء وكاميليا سمراء. ولكن سعدون باشا أرغم هذا المخرج السخيف أن يحور الدور، ويغير اسم الفيلم ويجعله «سمراء النيل» فإن عدد السمراوات في مصر هن الأغلبية وعدد الشقراوات الأقلية ولا يجوز في عهد ديمقراطي أن تتحكم الأقلية في الأغلبية..

ومع كل هذا المجهود الجبار لم تخلص له كاميليا.. إن رجاله الذين كلفهم بمراقبتها أبلغوه أنهم رأوا كاميليا في سيارة رقم ٥٠٤٥٩ ـ جيزة مع رجل أشقر.. وبحث سعدون باشا عن صاحب هذه السيارة فوجد أن اسمه حسن شفيق ويسكن في نفس عمارة العجوزة حيث جرسونييرة سعدون باشا التي تتردد عليها كاميليا كامل لمقابلته. وأمر سعدون باشا بالقبض على حسن شفيق هذا. ثم إذا بالضابط الذي

ذهب ليقبض على حسن شفيق هذا يكتشف أنه حسن باشا شفيق اللواء المحال على المعاش والبالغ من العمر سبعين سنة!

واتصل الضابط بسعدون باشا وأخبره بهذا الاكتشاف الغريب. فطلب منه تأجيل إلقاء القبض على حسن شفيق وأن يتابعوا من جديد مراقبة الممثلة كاميليا كامل.. وبعد أيام جاء إليه تقرير بأن السيارة فعلاً هي سيارة اللواء حسن شفيق باشا، ولكن راكب السيارة كان ابنه شامل شفيق الطالب بكلية الزراعة.

وقابل سعدون باشا في شقته الممثلة كاميليا كامل. وواجهها بالتقرير الخطير بأنها شوهدت في سيارة مع شاب أشقر اسمه شامل شفيق الطالب بكلية الزراعة.

واعترفت كاميليا أنها ركبت سيارته، ولكنها ادعت أنها كانت نازلة من شقة سعدون باشا، ووقفت أمام باب العمارة تحاول دون جدوى العثور على سيارة تاكسي، وأنها بعد أن وقفت ساعة على قدميها دون أن يقف تاكسي، عرض عليها شامل شفيق الساكن في العمارة أن يوصلها بسيارة والده فقبلت ذلك..

وقالت إنه لو كان لديها سيارة خاصة لما اضطرت إلى ركوب سيارات الغرباء.. ورأى سعدون باشا أن يقطع عليها طريق الخيانة، فاتصل بالأميرالاي عباس بك الشمردلي قائد سلاح التموين بالنيابة وطلب إليه إعطاء كاميليا كامل إحدى سيارات الحراسة المخصصة لزوجات شهداء حرب فلسطين، وكان الشمردلي بك شهماً فأمر في الحال بتسليمها سيارة بويك أنيقة كتبها في السجلات باسم السيدة كاميليا كامل أرملة الملازم كامل ميخائيل الشهيد في معركة ساموراي. وقد

كلفت هذه العملية مائة جنيه دفعها سعدون باشا من المصاريف السرية في الوزارة.

وظن سعدون باشا أنه ضمن بهذه السيارة البويك إخلاص كاميليا، ولكن التقارير السرية تقول إن كاميليا لا تزال تخرج مع الشاب شامل شفيق الطالب بكلية الزراعة.. وكل التغيير الذي حدث أنها لم تعد تركب مع شامل في سيارة والده، وإنما أصبحت تركب معه في سيارتها التي بذل سعدون باشا مجهوداً في سبيل الحصول عليها، واضطر أن يزوج المسيحي الملازم كامل ميخائيل إلى المسلمة كاميليا كامل لتكون السجلات مضبوطة أربعة وعشرين قيراطاً!

وهو يشعر أن كاميليا ستهرب منه.. ولو أنه أوقع شريفة في حبه لما كان لديه مانع أن تهرب كاميليا مع طلبة كلية الزراعة كلهم، لا مع طالب واحد. ولكن شريفة المجنونة لا تزال مجنونة.. إن كل النساء قد جنن فجأة.. لا بد لسعدون باشا أن يبحث عن خطة يعيد بها المرأتين المجنونتين الهاربتين، إلى عقليهما.. إلى جرسونبيرة العجوزة.. أو إلى قصر جاردن سيتي!



وكان فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام يبحث في نفس الوقت عن هارب آخر.. إنه ليس امرأة.. وإنما هو رجل!

رجل هارب من خدمة الجيش. خائن هارب من خدمة الوطن أثناء الحرب. إنها جريمة تستحق الإعدام في أي بلد. ولكن فوزي بك صلاح الدين رجل طيب القلب لا يحب أن يعدم هذا الرجل بالذات من أجل هذه الجريمة النكراء.. لأنه زوج المرأة التي يحبها.. زوج إحسان التي ملكت عليه لبه، وقلبه، ومشاعره، وتفكيره، وخياله، وأيامه، ولياليه.. إنه الأستاذ صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة،

الذي رفض قبول المنصب الهام بسفره إلى رفح فوراً ليراقب مصروفات حرب فلسطين، وهدد بالاستقالة، واضطر فوزي بك أن يلغي القرار قبل أن يجف الحبر الذي كتب به!

إن فرار هذا الرجل من خدمة الجيش، ومن القيام بواجبه في معركة الشرف يضايق فوزي بك. إنه يقف مثل قطعة العظم في حلقه يمنعه من التنفس، من أن يأكل إحسان في أي وقت يشاء!

أصبح يشعر أن صبحي خالد هو المعارضة الجديدة. هو الجمعية الإرهابية هو القوة التي تقف ضد سلطان الدولة. يقاومها، يتحداها، يعكر عليها مقابلاتها الغرامية!

يجب أن يعامله كما يعامل أعداء الدولة، والخارجين على القانون، والمجرمين الخطرين الذين يهددون الأمن العام والنظام.. ولكنه لا يريد أن تظهر يده في هذه العملية.. يجب أن يتولى عملية القبض عليه جهاز آخر غير جهاز الأمن العام، حتى لا تعرف إحسان أن حبيبها هو الذي قبض على زوجها!

وأمسك فوزي بك سماعة التليفون وطلب سعدون باشا في مكتبه، فلم يجده. وقال السكرتير إنه لا يزال في بيته.. واتصل به في بيته فوجده في فراشه..

وقال فوزي بك إن هناك مسألة هامة وخطيرة وعاجلة يرغب في أن يتحدث بها مع سعدون باشا في مكتبه.

وقال سعدون باشا وهو يقفز من فراشه:

ـ بعد ربع ساعة سأكون في مكتبي.

واجتمع فوزي باشا بسعدون باشا في مكتبه. وقال فوزي بك:

ـ إن هناك شخصية خطيرة تدبر مؤامرة ضد الحكم، وإنه يريد من سعدون باشا أن يأمر بإلقاء القبض عليها. . وإن هذه الشخصية هو صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة!

ونظر إليه سعدون باشا بدهشة:

ـ ولكن هذا هو نفس الشخص الذي طلبت مني أن أعينه لمراجعة حسابات الحرب، ثم طلبت إلغاء تعيينه!

قال فوزي بك وهو يتلقى نظرات سعدون باشا الخبيثة:

ـ نعم. . هو. . ولكن هذه معلومات جديدة!

قال سعدون باشا وهو يبتسم بدهاء:

ـ إذن، لماذا لا تقبض عليه أنت؟

قال فوزي بك وهو يبتسم:

ـ أريد أن لا تظهر يدي في هذا الموضوع!

وفهم سعدون باشا بذكائه وأسرع يقول:

ـ هناك مسألة مشابهة أيضاً. . شخصية خطيرة أخرى، تدبر مؤامرة ضد الحكم. . هذه الشخصية هو شامل شفيق الطالب بكلية الزراعة. . ولا أريد أنا الآخر أن تظهر يدي في موضوعه. . فأنا أقبض على صاحبك. . وأنت تقبض على صاحبي. . ونبقى خالصين!

وضحك فوزي بك صلاح الدين، وقال:

ـ إنك تجيد عقد الصفقات خيراً من المرابين اليهود. . اتفقنا!

ونفخ فوزي بك دخان سيجارته، ثم استطرد يقول:

ـ ولنسهل العملية. . يمكن أن تربط بين الاثنين ونقول إنهما يشتركان في مؤامرة واحدة!

قال سعدون باشا:

ـ وهل يعرفان بعضهما؟

قال فوزي بك وهو يضحك:

ـ لا يعرفان بعضهما الآن. . ولكن سيعرفان بعضهما جيداً في السجن.

ولم يسأل أي واحد منهما الآخر عن سر الجريمة التي أدت إلى قرار إلقاء القبض. . لأن المفروض في الرجال الكبار الذين يشرفون على الأسرار والألغاز أن لا يدسوا أنوفهم في ألغاز الآخرين وأسرارهم!

قال سعدون باشا:

ـ إن المتهم شامل شفيق الذي سوف تقبض عليه أنت مقيم في ١٢ شارع العجوزة. . في العمارة التي فيها الجرسونييرة!

قال فوزي بك في دهشة:

ـ غريبة. . إن المتهم صبحي خالد الذي سوف تقبض عليه أنت يقيم في نفس العمارة ١٢ شارع العجوزة. . إن هذا سوف يسهل في الربط بينهما في المؤامرة الكبرى!

وخطر ببال سعدون باشا في لحظة أن يضيف اسم متهم ثالث إلى قضية المؤامرة هو الصاغ عزيز علاء الدين زوج شريفة. .

ولكن قبل أن يقترح اسم زوج شريفة دق جرس التليفون الأبيض

الموجود فوق مكتب سعدون باشا، فرفع السماعة ليسمع الأمير عادل يقول له في صوت مضطرب:

ـ أين أنت يا سعدون باشا؟ إنني بحثت عنك في كل مكان فلم أجدك!

قال سعدون باشا وهو يلون صوته بلون الأهمية والخطورة:

ـ إنني مجتمع يا سمو الأمير مع فوزي بك صلاح الدين، لأننا ضبطنا الآن مؤامرة خطيرة.. خطيرة جداً.. ونضع الخطة للقبض على المجرمين..

قال الأمير بغير مبالاة:

ـ ليس هذا بالأمر المهم.. إن هناك شيئاً حدث أهم من هذه المؤامرة الخطيرة!

قال سعدون باشا في ذعر:

ـ ماذا حدث يا سمو الأمير؟

قال الأمير بصوت متهدج:

ـ حدثت مصيبة.. حدثت كارثة.. ببا هربت!

وتنفس سعدون باشا الصعداء، فقد تصور أن المصيبة التي حدثت أخطر من هروب ببا بكثير، ولكنه تظاهر بالاهتمام الشديد وقال:

ـ هربت مع من؟

قال الأمير:

ـ لا أعرف!

قال سعدون باشا مستنكراً:

ـ كيف لا تعرف؟.. يجب أن تعرف اسم الرجل الذي هربت معه ببا فوراً.. لكي ندخله بين المتهمين في قضية المؤامرة الكبرى!

ـ ١٣ ـ

جلس صبحي خالد المفتش في ديوان المحاسبة على فراشه ينقل عينيه بين قضبان الزنزانة وبين جدول الماء والبرش الأسود المفروش على الإسفلت.

لقد مضى عليه في الزنزانة رقم ١٨ في الدور الثاني بسجن الاستئناف ثلاثة أسابيع. لا أحد يقول له لماذا قبضوا عليه؟ لماذا وضعوه في السجن؟ لماذا تركوه هذه المدة الطويلة بدون سؤال ولا استجواب ولا توجيه تهمة؟

كان يعتقد أن القانون يمنع البوليس أن يقبض على المتهم أكثر من ثلاثة أيام ويوجب عليه أن يقدمه إلى القاضي، ولكنه عرف أنه مقبوض عليه بأمر عسكري طبقاً لقانون الأحكام العرفية. هذا القانون الذي يلغي حق الأفراد في الحرية والعدالة؛ ويعطي الحاكم كل حقوق القبض والاعتقال!

ويهيم فكره بعيداً. ترى ما هي الجريمة المنسوبة إليه؟ إنه لم ينتسب في حياته لحزب من الأحزاب. إنه لا يقرأ الأخبار السياسية في الصحف. كل ما يقرأ هو صفحة الوفيات.. إنه لا يتحدث في السياسة.. ربما يكون رئيس ديوان المحاسبة غضب عليه لأنه رفض قبول نقله مراجعاً لحسابات حملة فلسطين. ولكن هذا الرفض ليس

جـريمة. ثم إن القـرار ألغي في اليوم التـالي. ولو كـان رئيس ديوان المحاسبة غضب عليه لما ألغى قراره، ولأمر بالتحقيق معه، وقدمه إلى مجلس تأديب. إذن لا يمكن أن يكون هذا السبب التافه هو الذي أدى إلى القبض عليه.

ثم إن الشاويش فتيحة الذي يتولى بنفسه فتح باب الزنزانة ويصحبه إلى دورة المياه، قال له إن التعليمات أن لا يتحدث إلى أحد، وأن لا يقترب من أي زنزانة، لأنه متهم في قضية خطيرة، وإن الأوامر تقضي بأن لا يتصل المتهمون ببعضهم. ترى ما هي القضية الخطيرة؟

وخـطر ببالـه أن تكون القضيـة هي الحريق الـذي حدث في مـطبخ شقته من أسابيع. لا بد أن الحكومة ربـطت بين الحـرائق التي أحدثتهـا القنـابل في سينـما مترو وعـدد من المحلات العـامة التي يملكهـا اليهود، وبين الحريق الذي حدث في مطبخ شقته. ولكنه ليس مسؤولاً عن هذا الحريق. إن طباخه الأسطى مرسي هو المسؤول.. هو الذي كـان عليه أن يبعـد زجاجـات البترول عن الفـرن.. ولعن صبحي خالـد زوجته إحسان التي ألحت عليه أن يشتري هذا الفرن لأنها تحب اللحم المشوي والفراخ المشوية..

كان الأسطى مرسي يوم الحريق يشوي في الفرن فرخـة مشويـة، فرخة واحدة تقسّم بينه وبين زوجته إحسان وبين ولديه. ثم انفجـر الفرن واحترقت الفرخة المشوية، واحترق الفرن وأكلت النيران المطبخ كله، وتصور صبحي خالد أن فرقة المطافىء أخمـدت النيران وانتهى الحادث.. ولكن ها هو يبدو أن النيران لم تنطفىء، بدليل أنه الآن في الزنزانة رقم ١٨ في سجن الاستئناف!

ويلوي صبحي شفته ويقول: إنني لن أعرف سر القبض علي إلا من

صفحة الوفيات. ربما كان رئيس ديوان المحاسبة أراد نقلي من الديوان لإخلاء وظيفة لقريب من أقرباء الحاكم العسكري. وعندما رفضت ترك الديوان غضب الحاكم العسكري وقرر اعتقالي..

ربما أن صاحب العمارة التي أقيم فيها هو قريب أحد من أصحاب النفوذ وغضب عندما وقع حادث الحريق وقرر الانتقام مني بالقبض علي بتهمة أنني مسؤول عن طباخي الأسطى مرسي الذي أحدث الحريق!

ولكن كل هذه الحقائق لا يمكن أن أعرفها إلا إذا قرأت صفحـة الوفيات. والشاويش فتيحة يرفض إعطائي الصحف.. لماذا يمنعون عني قراءة الصحف إلا اذا كانوا يعرفون أنني سأعرف السر من صفحة الوفيات؟

واستشعـر صبحي ضيقاً، وقـام من السريـر، ومشى في الزنـزانة الضيقة يفكر في زوجته إحسان، وفي ولديه الصغيرين. ولكنه كـان يفكر في صفحة الوفيات أكثر مما يفكر فيهم. إن صفحة الوفيات وحدها هي التي ستحل هذا اللغز الجديد الذي لم يفهمه!



وفي الزنزانـة ١٦ من نفس الطابق بسجن الاستئنـاف كان يقف الشاب شامل شفيق، فوق جردل المياه، وقد أمسك بقضبان النافذة المطلة على سراي محكمة الاستئناف وشارع الخليج، يتفرج على المارة الذين يزحمون الشارع. إنه يتطلع، بحثاً عن وجه امرأة جميلة. إنه يهوى الجمال ويعشقه. لقد مضى عليه أكثر من عشرين يوماً لم ير وجه امرأة. كانت لذته الكبرى وهو يركب سيارة أبيه كل صباح في طريقه إلى كلية الزراعة أن يتفرس في وجوه المارة باحثاً عن وجه جميل.. إذا رأى هذا الوجه تفاءل، وإذا دخل كلية الزراعة دون أن يرى الـوجه الجميـل

تشاءم، وأمضى اليوم يسمع المحاضرات في الكلية منقبض الصدر.

وفي اليوم الذي قبض عليه لم يرَ فتاة جميلة طوال الطريق. وعندما وصل إلى باب الكلية أحس بالضيق، فقاد السيارة إلى ميدان الجيزة لعله يجد وجه فتاة جميلة فلم يجد. كأن الأرض انشقت وابتلعت كل امرأة جميلة في ذلك الصباح.

وما كاد يجلس ويستمع إلى المحاضرة الأولى حتى جاء معاون الكلية يطلب منه مقابلة العميد. وذهب إلى العميد فوجد معه شاباً مرتدياً الملابس المدنية قدّم نفسه بأنه الصاغ عبد الله شوقي من إدارة الأمن العام، وطلب منه أن يصحبه إلى بيته، وهناك فتش البيت تفتيشاً دقيقاً، وشامل في ذهول، ولم يجد الضابط شيئاً، ثم صحبه الضابط في سيارة إلى سجن الاستئناف وسلمه إلى مأمور السجن الذي أمر بوضعه في الزنزانة رقم ١٦ من الطابق الثاني! وبعد ذلك لم يفتح له باب الزنزانة إلّا ليذهب الى دورة المياه!

وهو لا يعرف ما هي تهمته، سوى أنه متهم في قضية خطيرة. هكذا قال له الشاويش فتيحة وهو يبرر إغلاق باب الزنزانة ثلاثاً وعشرين ساعة كل يوم.. ويهرش شامل رأسه يحاول أن يتذكر سبباً يدعو إلى اعتقاله أو القبض عليه أو التحقيق معه فلا يتذكر.

إنه لا يعرف ألف باء بالسياسة. لا يعرف أسماء الوزراء، وإنما يعرف أسماء فريق كرة القدم في النادي الأهلي. لا يهتم بقيام وزارة ولا سقوط وزارة، ولكنه يهتم بفوز الأهلي على نادي فاروق. إنه لا يعترف بزعامة النحاس باشا ولا النقراشي باشا ولا هيكل باشا ولا الشيخ حسن البنا، إنه يعترف فقط بزعامة اللاعب أبو حباجة.. إن أبا حباجة في رأيه يفيد مصر أكثر مما يفيدها زعماء مصر مجتمعين. إن واحداً منهم لم يحقق هدفاً واحداً من أهداف مصر.. بينما أبو حباجة حصل للنادي

الأهلي على كل ما يريده من أهداف..

ومن أجل هذه العقيدة لم يشترك شامل في أي إضراب قام في الكلية. ولم يخرج في أي مظاهرة. إن آراءه لا تعجب زملاءه من طلبة الكلية وهذا هو السبب الذي جعله لا يتحدث في السياسة. لقد كان يقول لجارته فوزية برسوم عندما كانت تحدثه عن الخلاف القائم بين والدها المهندس لبيب برسوم وهو من أنصار هذه الكتلة وأمها الدكتورة ماري برسوم المتحمسة للهيئة السعدية، إن من رأيه أن يؤلف كل حزب في مصر فرقة لكرة القدم، وتقام بين الأحزاب مسابقات دورية سنوية. والحزب الفائز يحصل على الكأس، والكأس هو الحكم. وبذلك تتحول السياسة إلى رياضة..

ولكن فوزية لم تعجبها الفكرة لأنها متحمسة لنادي فاروق، ولأنها تعلم لو أجريت مباريات دخلت فيها الأحزاب والأندية الرياضية لتولى اللاعب أبو حباجة حكم مصر!

ومن غير المعقول أن تكون فوزية أخبرت أحداً برأيه هذا فقبضوا عليه لهذا السبب. وحتى لو أنهم عرفوا أن هذا رأيه فلا يستحق أن يوضع في زنزانة انفرادية أكثر من عشرين يوماً!

ويعود شامل شفيق ويهرش رأسه باحثاً عن سبب آخر معقول يمكن أن يؤدي إلى القبض عليه.

ويتذكر أنه حدث منذ ثلاثة شهور أن كان يشهد مباراة بين نادي فاروق والنادي الأهلي. وحسب الحكم لعبة خطأ على النادي الأهلي فاحتج شامل بصوت عال على تصرف الحكم، وكان يجلس وراءه حسن العديسي الطالب بالحقوق، وهو من أشد أنصار فاروق،

فاشتبك معه في مناقشة كلامية، وسخر شامل من العديسي وجعل المتفرجين يضحكون من جهله في أصول كرة القدم. وحسن العديسي هو ابن بنت خالة رضوان بك ابراهيم وكيل وزارة الداخلية. فهل حرّض حسن العديسي قريبه عليه، خاصة وأن رضوان بك عضو في مجلس إدارة نادي فاروق.. ويعتبر أن نقد نادي فاروق هو عيب في الذات الملكية.. ذات الملك فاروق؟

واستبعد شامل أن يلجأ صديقه حسن إلى هذه الطريقة الدنيئة للانتقام من عضو في النادي الأهلي، وعاد يفكر في فوزية، ويقارن بينها وبين الممثلة كاميليا كامل..

إن فوزية صغيرة السن تتصور أن عذريتها في شفتيها.. وهي تخشى أن تقبله حتى لا تفقد عذريتها.. ولكن كاميليا امرأة بمعنى الكلمة.. إنها قبّلته في شفتيه قبل أن يطلب منها قبلة.. فوزية تضيع تسعاً وخمسين دقيقة من ساعة اللقاء في سرد المتاعب التي بذلتها حتى استطاعت ان تخرج لتقابله. ولكن كاميليا تمضي الستين دقيقة كلها في القبلات والعناق.. إنها مثله لا تحب الكلام.. إنها تقول له إن العجائز وحدهم هم الذين يتكلمون في المقابلات الغرامية.. ولهذا، فهي تحتفظ بكلامها إلى أن تشيخ!

إن فوزية من أنصار المدرسةالقديمة في الحب. هذه المدرسة التي تعتبر أن أقصى ما تصل إليه العلاقة الغرامية بين شاب وشابة قبل الزواج أن يمسك يدها.. إنها لا تشعر بأن حرباً عالمية قامت. وقنبلة ذرية اكتشفت وبدأ العالم يتحدث عن عصر الفضاء!

إن الوصول إلى القمر كان مستحيلاً قبل سنوات مثل الوصول الى أجزاء معينة من جسم الفتاة. أما الآن فإن العلم تقدم، وتقدمت معه

ايدي الشبان. أن تنطلق الى مناطق كانت ممنوعة. كان العلماء يقولون أنه يجب أن نموت أولاً قبل أن نصل إلى السماء. كما كان علماء الاجتماع يقولون إنه يجب انت نتزوج قبل أن نصل إلى ما وراء السحب في جسد المرأة.. ولكن بعد أن أصبح ممكناً أن تخترق الصواريخ السحب.. فيجب أن يكون في إمكان الأيدي أن تخترق ما حول المرأة من سحب وضباب وملابس!

وضحك شامل وهو يردد هذا الرأي، فلم يكن هذا رأيه، وإنما رأى الممثلة كاميليا كامل. إنها ليست امرأة جميلة فقط، إنها فيلسوفة.. لقد قالت له عندما التقت به لأول مرة، وعرفت أنه طالب في الجامعة: هل تريد أن أعاملك بنظام التعليم القديم أم بنظام التعليم الجديد؟

وسألها شامل: ما الفرق بين النظامين؟

قالت له كاميليا:

ـ إن النظام القديم أن تمضي سنة في مسك الأيادي. وأمضي السنة الثانية، أن أقبلك قبلة واحدة عند اللقاء وقبلة واحدة عند الوداع، والسنة الثالثة تمضيها في قبلات طويلة عميقة، والسنة الرابعة تمضيها في قبلات عميقة وعناق طويل. والسنة الخامسة تمضيها وأنت مسموح بالتجول بأصابعك في صدري وأنا مرتدية ملابسي. والسنة السادسة تمضيها في التجول بأصابعك تحت صدري، والسنة السابعة تمضيها بين ذراعي في انسجام، ولكن بغير أن يحدث بيننا اندماج، والسنة الثامنة تدخل الجامعة.. أما النظام الجديد فهو نظام عصر السرعة، عصر الانطلاق، عصر تحطيم القيود، العصر الذي لا يعترف بنظام المراحل ونظام السنوات.. يبدأ من الجامعة رأساً!

وما كاد شامل شفيق يسمع من الممثلة كاميليا كامل هذا الشرح

المفيد لنظامي الدراسة في مدرسة الحب، حتى اختار على الفور النظام الجديد!

وبعد ساعة واحدة من لقائه بكاميليا كان شامل في الجامعة فعلاً!

وتساءل شامل في حسرة وهو ينظر إلى باب الزنزانة المغلقة: متى يفتح هذا الباب ويخرج إلى كاميليا وإلى النادي الأهلي؟ ترى، هل تعرف كاميليا أنه مسجون؟ أم تتصور أنه هرب منها كما كانت تقول له دائماً إن شباب هذه الأيام لا خير فيهم، ينتقلون من جامعة إلى جامعة.. ترى أي الحبيبتين أكثر حزناً على فراقه! فوزية التي شمت رائحة الحب ولم تذقه، أم كاميليا التي ذاقت من شفتيه خمر الحب حتى ثملت؟ هل المرأة التي نعطيها أكثر تحبنا أكثر. إن الذين يجلسون على شاطىء النيل يحبونه أضعاف الذين يغرقون فيه.

ثم يفكر في والده اللواء حسن باشا شفيق. أهو غاضب على الحكومة لأنها اعتقلته. أم أنه غاضب عليه هو لأن الحكومة اعتقلته؟ لقد كان من رأي والده دائماً أن البلد في حاجة إلى حاكم شركسي، يعلق المشانق، ويضرب خصومه بالرصاص. كان ضد الديمقراطية، وضد الحرية، وضد ضمانات العدالة، وكان من رأيه أن كل هذا كلام فارغ. وإن من حق الحاكم أن يظلم ٩٩ بريئاً مع مجرم واحد.. ترى ما هو رأيه اليوم بعد أن طبقت المبادىء التي ينادي بها على ولده البكر؟ هل يوافق أن يعدم بغير محاكمة، وأن يسجن بدون تحقيق. أم أننا عندما ننادي بسياسة الشدة والعنف والضرب بيد من حديد، لا نتصور أنها ستطبق في يوم من الأيام علينا!؟.

وتطلع شامل من جديد إلى الشارع، وراح يتفرس في وجوه النساء السائرات في الطريق، ويمد بصره ليجد وجهاً جميلاً يتفاءل به، وجهاً

يخرجه من الزنزانة إلى الحرية.. إلى الجامعة.. إلى جامعة كاميليا كامل!

وفي الزنزانة رقم ١٤ كان يجلس الصاغ عزيز علاء الدين يقوم بتجارب غريبة كانت تدهش الشاويش فتيحة، وهو يطل عليه من الطاقة.

إنه يجلس على الفراش وقد خلع حذاءه وجوربه، وراح يتمرن على أن يستعمل أصابع قدميه بدلاً من أصابع يديه. إنه يضع الملعقة بين أصابع قدمه اليمنى ويحاول أن يمرن أصابع قدمه أن تمسك بها في وضع مستقيم، ثم يهبط بقدمه إلى الاناء الذي فيه شوربة العدس، ثم يحرك ساقه بحيث ترتفع دون أن تهتز بالملعقة إلى فمه، وفي أول الأمر تسقط الملعقة بما فيها من عدس على إسفلت الغرفة، فيعاود المحاولة، وينجح أن تبقى الملعقة في أصابع قدميه، ولكنه يفشل في أن يحتفظ فيها بجرعة العدس. ويكرر العملية عدة مرات حتى يصبح في مقدوره أن يرفع الملعقة بكل ما فيها من عدس حتى تصل إلى فمه. ويحس عزيز بسعادة إنه انتصر على إحدى مشاكله، ولم يضطر أن يزحف على بطنه ويغوص برأسه في إناء العدس حتى يشرب منه..

وفي اليوم التالي يبدأ محاولة أخرى، وهي أن يحاول إخراج سيجارة من علبة سجائره بأصابع قدمه، ثم يحاول أن يشعل بأصابع قدميه عود ثقاب، ويوصله مشتعلاً إلى السيجارة.. ومكث ثلاثة أيام مستغرقاً في هذه المحاولة القاسية، إلى أن استطاع إجادة إشعال السيجارة بقدميه. وأحس بفرحة أنه استطاع إجادة إشعال السيجارة بقدمه. وأحس بفرحه أنه استطاع أن يحقق هذا الانتصار على عاهته. إنه لم يعد في حاجة أن ينتظر الشاويش فتيحة حتى يفتح له الباب ليذهب إلى دورة المياه ويساعده في إشعال سيجارته.

وبدأ يقوم بحركات بهلوانية ليستطيع أن يمسك الصابونة بأصابع قدمه اليسرى، ليستطيع أن يغسل وجهه دون مساعدة أحد. وكان يسقط عدة مرات على ظهره، وينسكب الماء على جسمه. ولكنه يحاول مرة ثانية.. ومرة عاشرة... ومائة مرة، حتى استطاع أن يحقق هذه الحركة الصعبة.

ثم بدأ يحاول أن يتعلم الكتابة بقدميه. وبدت المحاولة شاقة مرهقة مضنية. وعجزت أصابع قدميه أن تكتب حروفاً مقروءة في أول الأمر. ولكنه ثابر على المحاولة، وكلما فشل مرة قاوم الفشل، وجرّب من جديد إلى أن وصل في نهاية الأمر إلى أن يكتب بقدمه كلاماً مقروءاً.

إن عزيز انشغل بهذه المحاولات عن التفكير في السجن. إنه على العكس وجد في الزنزانة المغلقة فرصة ذهبية ليقوم فيها بهذه المحاولات المضنية، والتمرينات المعقدة.

وكان يعجب كيف أنه لم يحاول هذه المحاولات قبل أن يدخل السجن. إن وجود زوجته شريفة بجانبه جعله يعتمد عليها في كل شؤونه. وكان هذا الشعور يغلبه. لقد عاش حياته يعتمد على نفسه. يحك جلده بظفره. ولكنه منذ أن فقد أصابعه العشرة أصبح لا يستطيع أن يتحرك إلا بمساعدتها ولا يأكل إلا بيديها، ولا يهرش إلا بأصابعها. كان يحس أنه أصبح طفلاً صغيراً يجب أن تضعه فوق القصرية. أما الآن فإنه يشعر أنه استرد في الزنزانة حرية الحركة. عجب أن تضيق الدنيا الواسعة بحركاته، وتتسع الزنزانة الضيّقة لهذه الحركات.

إننا نستطيع أن نستفيد من الكوارث التي تصيبنا. أن نحوّل دموعنا إلى عرق. أن نجعل من آهاتنا موسيقى. أن نستبدل صراخنا من ألم سياط الظالمين إلى قصائد شعر يغنيها التاريخ.. إننا بإرادتنا نستطيع أن

ننتصر على كل ظلم وكل طغيان!

لقد قرأ عزيز مرة أسطورة تقول إن امبراطوراً في روما سمع أن أحد المصلحين يطوف بأهل روما ويخطب فيهم مهاجماً ظلم الأمبراطور، فأمر الأمبراطور جنوده بأن يقيّدوا الحكيم المصلح بالسلاسل والأغلال ويضعوه في أكبر ميدان.

ومرّ عليه في اليوم التالي فوجده يلعن الظالم والظالمين، فأمر الجنود أن يقطعوا لسانه، فقطعوه. ومرّ الأمبراطور في اليوم الثالث فوجد الحكيم المصلح والشرر يخرج من عينيه. فصرخ في جنوده أن الشرر الذي يخرج من عينيه أشد من كلماته الثورية، إفقأوا عينيه. وفقأ الجنود عينيه.

ومرّ به الأمبراطور في اليوم الرابع فسمع أنفاس الحكيم المصلح. فصاح مذعوراً: إن أنفاسه تلعنني، إنها تحرّض على الثورة. إن الذي يسمع هذه الأنفاس سوف يعتبرها نفيراً يدعو الشعب للانقضاض على حكمي، اكتموا أنفاسه، اقتلوه... وقتله الجنود وأخمدوا أنفاسه إلى الأبد.

ومرّ الأمبراطور في اليوم الخامس فوجد جثة الحكيم المصلح ملقاة في أكبر ميدان. ارتجف من الذعر وصاح في جنوده. إن وجود هذه الجثة منشور ثوري ضدي، يحرّض الشعب على الانقضاض على حكمي، احملوا الجثة وادفنوها في قبر بعيد خارج المدينة.

ومرّ الأمبراطور في اليوم السادس على القبر فوجد امرأة تبكي. وهاج الامبراطور وقال إن هذا القبر سيعتبره الشعب تمثالاً لظلمي وصرحاً يعلن أنني طاغية.. اهدموا القبر... واخرجوا الجثة وانزعوا عنها الكفن. والقوا الجثة في البحر بحيث لا يعرف أحد في روما أين جثة هذا المجنون، وينسونه وينسون أفكاره الهدّامة المعارضة... وأسرع

الجنود وأخرجوا الجثة، ونزعوا عنها الكفن وداسوه بأقدامهم، وقطعوا الجثة إلى قطع صغيرة وألقوها في البحر طعاماً للأسماك..

وفي اليوم السابع جلس الأمبراطور في قصره بروما قريراً سعيداً. إنه استطاع أن يقيد حركة المصلح، واستطاع أن يقطع لسانه، واستطاع أن يفقأ عينيه، واستطاع أن يخمد أنفاسه، واستطاع أن يهدم قبره، واستطاع أن يمزق جثته قطعاً صغيرة ويلقيها في البحر.. لم يبق شيء من معارضته.. لم يبق شيء من آرائه.. لم يبق شيء من فلسفته.. كل هذا قد تمزق تماماً كجثته التي ألقيت في البحر لتأكلها الأسماك.. لم يبق من كل هذا سوى الكفن!

وفي اليوم الثامن فوجىء الأمبراطور بشعب روما يهاجم قصره، ويقتحم أبواب قلاعه، ويقتل حراسه.. ونظر من النافذة في ذعر فوجدهم يمشون وراء علم أبيض.. وتأمل العلم الذي يرفعونه، فإذا به الكفن!!

وصرخ الأمبراطور والجماهير تنقض عليه:

ـ غلطتي الكبرى أنني تركت الكفن!

□□□

وفي الزنزانة رقم ـ ١ جلس الأستاذ سامي كاتب السيناريو يتحسس يديه وساقيه وقدميه وظهره من آثار الضرب والتعذيب..

إنه أمضى في السجن ١٩ يوما، ولكنه لا يزال يعتقد أنه في حلم، في كابوس طويل. إن الذي حدث له لا يمكن أن يحدث في واقع الحياة. ولو أنه كتب ما حدث له في قصة سيناريو وقدمها للمخرج محمد كريم لرماها في وجهه، وهدّده بإلقائه هو والقصة من النافذة، لأنها قصة غير معقولة!

لقد كان جالساً في مكتبه يكتب سيناريو قصة جديدة اسمها «عدالة من السماء»، عن جثة وجدت في ترعة المحمودية. وقال ضابط البوليس إن لديه بلاغاً بأن فهيمة محمد علي من عزبة خورشيد البالغة من العمر ٢١ سنة اختفت من بيتها. وقبض الضابط على والدها الشيخ محمد علي واتهمه بأنه هو الذي قتلها. وأنكر الرجل أن هذه جثة ابنته أو أنه قتلها، ويبدأ البوليس يعذبه ويضربه حتى اعترف بأن الجثة هي جثة ابنته وأنه قتلها. وقدّم الأب إلى محكمة الجنايات معترفاً وحكمت المحكمة بتأجيل القضية أسبوعاً لعرض الحكم على المفتي. وعقدت الجلسة وقبل أن ينطق رئيس المحكمة بحكم الإعدام تقدمت فتاة جميلة سمراء تقول: أنا القتيلة فهيمة محمد علي!

وذهل القاضي وسأل الأب:

ـ هل هذه ابنتك؟

قال الأب:

نعم!

قال القاضي في دهشة:

ـ ولكنك اعترفت أمامنا أنك قتلتها!

قال الأب:

ـ لو كانوا ضربوا سعادتك كما ضربوني.. لاعترفت أنت بأنك الذي قتلتها!

وبينما هو يكتب ختام السيناريو دق جرس الباب، وإذا به يجد الراقصة ببا فهمي أمامه. وقبّلها وعانقها. ولاحظ أنها مضطربة، وأخبرته أنها قامت بالدور الذي كتبه لها، وقالت للأمير كل ما طلب منها أن تقول، وأنها هربت، وأنها قررت أن تمضي اليومين في شقته.

وسرّ سامي بهذه الفرصة السعيدة فقد مضت سنوات لم تمض ببا الليل بأكمله بين ذراعيه. وعلمها كلمة تقولها، عندما تعود إلى بيتها في العجوزة ويتصل بها الأمير، وتفرض عليه الشروط لتعود إليه من جديد.. وهذه الشروط هي أن يتزوجها!

وما كادت ببا تخرج من الشقة وتمر نصف ساعة حتى دق جرس الباب ودخل ضابط قال إن اسمه الصاغ عبد الله شوقي من إدارة الأمن العام، وإن لديه أمراً بتفتيش الشقة.

وبدأ يقلب الشقة رأساً على عقب، ويشق المرتبة بسكين ليبحث في قطن المرتبة عن أوراق مختفية، وينقب في الجدران باحثاً عن مخابىء سرية، ثم قرأ كل ورقة في المكتب.. وأمسك بسيناريو قصة «عدالة من السماء» وبدأ يقرأه باهتمام.. ثم نظر إليه شزراً وقال له:

- أنت تهاجم الضباط؟ أنت تتهم الضباط بتلفيق التهم على الأبرياء؟ أنت تريد إثارة الشعب على الهيئة التنفيذية؟

وحاول سامي أن يفهم الصاغ عبد الله شوقي إن هذا سيناريو فيلم، وإنه سيعرض على الرقابة قبل بدء التمثيل، وبعد نهاية التمثيل، وقبل عرض الفيلم، ولكن الصاغ هاج وماج وصرخ فيه قائلاً:

- ألا تعرف أننا أقسمنا اليمين؟ هل تتصور أن ضابطاً أقسم اليمين يلفق قضية؟

ثم قبض الضابط عليه، وصحبه إلى غرفة في الوزارة، وتركه فيها، وكل خمس دقائق يرى ضابطاً جديداً يدخل عليه ويسأله:

- هل أنت سامي الذي يتهم الضباط بالتلفيق؟

وقبل أن يجيب يصفعه الضابط على وجهه، أو يرفسه، أو يضربه على قفاه، ثم يخرج ليجيء ضابط جديد!

ولم يكن سامي يتصور أن عدد ضباط البوليس بهذه الكثرة، إنه لكثرة الصفعات التي انهالت عليه أصبح يعتقد أنهم أكثر عدداً من جنود البوليس!

ثم دخل الصاغ عبد الله شوقي من جديد وقال له:

- أنت متهم بعمل مؤامرة لقلب نظام الحكم..

وأقسم أنه بريء، فضربه الصاغ شوقي ضرباً مبرحاً، ثم طلب إليه أن يعترف فقال له إنه مستعد أن يعترف بما يشاء!

قال الضابط:

- إعترف بأنك عضو في المؤامرة..

قال:

- ولكن من هم أسماء شركائي في المؤامرة؟

وأملى عليه الضابط أسماء صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة وشامل شفيق الطالب بكلية الزراعة والصاغ عزيز علاء الدين.

وطلب سامي من الضابط قلماً، وجلس يكتب قصة مؤامرة، بنفس الطريقة التي يكتب بها سيناريو القصص للسينما.. فيها حبكة، وفيها مفاجآت، وفيها حوار، وفيها حركة، وفيها مواقف دراماتيكية، ثم فيها ختام عنيف!

وكتب القصة في تسعين صفحة كاملة..

وسلّمها للصاغ عبد الله شوقي، فقرأها بإعجاب شديد، وقال إن أهم ما لاحظه في الاعتراف حرارة الصدق في كل كلمة!

وفرح سامي لأنها أول مرة في حياته يقدم سيناريو قصة لمخرج، ولا يسمع انتقادات وشتائم وسباباً!

وأمر الصاغ عبد الله شوقي أحد الجنود بأن يحضر لسامي ثلاثة أرطال كباب، وأقة موز، وعلبة سجائر!

وتغيّرت المعاملة، ولم يعد الضباط يدخلون عليه ويصفعونه كل خمس دقائق!

وقال له الصاغ عبد الله شوقي إنه سينقله إلى سجن الاستئناف وسيبقى فيه يوماً أو يومين، ثم بعد ذلك سيفرج عنه. لأنه سوف يستفيد من المادة ٤٨ من قانون العقوبات التي تبيح العفو عمن يساعد العدالة بالإرشاد إلى المجرمين الحقيقيين!

ولكنه لم يمكث في السجن يوماً أو يومين.. إنه الآن في اليوم التاسع عشر من تاريخ القبض عليه.. إن كل ما يريده أن يتصل بالراقصة ببا ويخبرها بأنه مسجون، فتطلب من الأمير عادل عمرو أن يفرج عنه.. لا بد أنها تبحث عنه في كل مكان. كيف تستطيع أن تمكث ١٩ يوماً بغير أن يكتب لها الحوار الذي تقوله للأمير. من يستطيع غيره أن يضع على لسانها الكلمات المأثورة، والجمل الرنانة؟

من غيره يستطيع أن يلخص لها أقوال الفلاسفة والعلماء والأدباء التي تبهر بها أصدقاء الأمير من أهل الفكر الذين تسميهم ست زليخا والدة ببا بأنهم «أهل الفجل»؟

لقد حاول أن يتفاهم مع الشاويش فتيحة أن يحمل خطاباً منه إلى الراقصة ببا في منزلها في العجوزة، فهاج وماج، وقال إن هذا مخالف للتعليمات، ثم إنه رجل صالح لا يمكن أن يدخل بيت راقصة لأن من دخل بيت راقصة دخل النار!

ويعود الأستاذ سامي ويضرب كفاً على كف ويقول:

- أيكون سيناريو قصة «عدالة من السماء» غير معقول.. ويكون

سيناريو قصة المؤامرة الكبرى معقولاً؟!

□□□

جلس سعدون باشا في مكتبه يدخن سيجارة وينظر بتردد إلى آلة التليفون! إن أصابعه تأكله.. هل يطلب رقم تليفون شريفة أم لا يطلبها؟.

لقد تصور يوم أن تمّ القبض على زوجها الصاغ عزيز علاء الدين أنه سيجدها بعد نصف ساعة في مكتبه، وبعد ثلاثة أرباع الساعة في الجرسونييرة وبعد ساعة واحدة في فراشه.. ولكن مرّ يوم كامل بعد القبض عليه دون أن تتصل به شريفة أو تحضر إلى مكتبه تتوسل إلى سكرتيره أن يسمح لها بمقابلة سعادة الباشا. لقد أوصى سكرتيره أن يذلها. أن يضع رأسها في التراب. أن يقول لها إن الباشا مشغول. أن يقول لها إن مواعيد الباشا مشغولة طوال هذا الأسبوع والأسبوع القادم.. أن يجعلها تتوسل إليه حتى يأذن لها بمقابلته.

ولكنها لم تحضر، وكان يدق الجرس كل خمس دقائق ويسأل السكرتير هل حضرت شريفة، فيجيب بالنفي.. وتصور سعدون باشا أن الحراس منعوا شريفة عند الباب فطلب من سكرتيره أن يأمر الحارس بأن يسمح لأي سيدة تطلب مقابلة الباشا بالذهاب إلى مكتب السكرتير فوراً.. ولكن مع ذلك لم تجيء شريفة!

ولم يستطع سعدون باشا أن يصبر أكثر من ثلاثة أسابيع، في هذا القلق المضني وهذا الانتظار الميت، فاتصل بشريفة في التليفون وأجابته ببرود غريب.

وقال سعدون باشا:

- إنني علمت أنه قبض على زوجك لأنه متهم في مؤامرة.. ولقد

أسفت جداً عندما سمعت بهذا النبأ!

قالت شريفة:

ـ وأنا أيضاً أسفت جداً. . لأنه لم يخبرني أنه مشترك في مؤامرة.

قال سعدون باشا:

ـ طبعاً، لو عرفت بهذا لكنت نصحته بأن يبتعد عن هذه المسائل الخطرة!

قالت شريفة بحزم:

ـ لا، كنت سأطلب منه أن أشترك معه في المؤامرة!

قال سعدون باشا:

ـ هل جننت يا شريفة؟. هذا كلام خطير يؤدي بك إلى السجن!

قالت شريفة ساخرة:

ـ وما الفرق بين سجن كبير وسجن صغير؟ إن البلد كله مستعد أن يشترك في أي مؤامرة. ولكن الناس لا تعرف عناوين المتآمرين. . أؤكد لك لو نشرت الصحف عناوين المتآمرين لبلغ عدد المنضمين إلى المؤامرة أكثر من المنضمين إلى الأحزاب!

وأحس سعدون باشا ضيقاً من هذه المرأة التي تفسد كل خططه الحربية، وتحرمه باستمرار من أن يقطف ثمار النصر الذي زرعه بنبوغه في فن المناورات. ولكنه كبح عواطفه، وتحكم في أعصابه، فلم يتلوّن وجهه ويمتقع، ولم تختلج فيه خلجة غضب، بل جعل نبراته أكثر رقة وحناناً كأن ما سمعه من شريفة هو همسات النسيم لا صراخ العواصف

والأعاصير، وقال:

ـ أنت معذورة في غضبك يا شريفة. أنا واثق أن عزيز مظلوم وبريء. ممكن أن نتعاون فننهي هذه المسألة، ويخرج عزيز من السجن. .

قالت شريفة بلهجة زبون يساوم على سلعة:

ـ كم الثمن الذي تطلبه؟. . لقد طلبت قبلة ثمناً لأصابعه العشرة. . وكم تريد ثمناً لحياته؟!

وتهلل وجه سعدون باشا، ثم عاد يتحكم في أعصابه:

ـ لا سمح الله يا شريفة. . لا أريد قبلة، ولا أريد عناقاً، ولا أريد علاقة. كل ما يهمني هو سعادتك. . أريد أن أراك سعيدة. . سوف أبذل مجهودي للإفراج عن عزيز. . سوف أوفده إلى ألمانيا ليركبوا له أصابعه العشرة!

قالت شريفة:

ـ لم يعد يهمني أن يكون له أصابع، إن مصلحته أن يكون بلا أصابع، حتى لا يشير إلى المجرمين المسؤولين عن نكبته ونكبة بلاده. . إن البلد كله أصبح بغير أصابع. . فلماذا يكون لعزيز أصابع؟

وتدفقت الدماء حارة إلى وجه سعدون باشا، وأحس كأن أصابع شريفة العشرة خرجت من بوق التليفون، تشير إليه بأنه المجرم المسؤول عن القبض على الصاغ عزيز علاء الدين. وأحس بأنه يتضاءل أمام هذه المرأة العملاقة. كأنه اكتسى فجأة بالذل والانكسار والعار. . في لحظة توهمها لحظة انتصاره. ورقّ صوته، وكأن نبراته تنحني في أدب

أمام عظمة شريفة وقال:

ـ إننا يجب أن نتكلم في هذا الموضوع سوياً.. والكلام في التليفون لا يفيد..

قالت شريفة ساخرة:

ـ هل تريد أن نتكلم ونحن جالسون على السرير في الجرسونييرة؟

وأحس بأنها تصفعه، وتذكره باقتراحه بأن يقبلها وهي جالسة على السرير فعاد يتراجع مهرولاً:

ـ لا.. العفو يا شريفة هانم. إنني مستعد أن أجيء بنفسي لمقابلتك في بيتك!

قالت وهي تطلق ضحكة استهزاء:

ـ في بيتي؟ طبعاً أنت مستعد أن تجيء إلى بيتي.. لأنك تعرف أنه ليس في بيتي رجل يدافع عني.. لقد تصورتك يا باشا أشجع مما أنت.. تقيد غريمك لتنازله.. تجرد البيت من حارسه لتسطو عليه!

قال سعدون باشا متألماً:

ـ ارحميني يا شريفة، إن كلامك كالرصاص!

قالت شريفة:

ـ عجبت لرجل يحمل مدفعاً ويرتجف أمام كلمة!

قال سعدون باشا في توسل:

ـ أريد أن أقابلك في أي مكان تختارين لنتفاهم...

قالت شريفة:

ـ آسفة.. إنني مرتبطة بموعد.. مع رجل!

قال سعدون باشا في لهفة وقد أطل منه الرجل العاشق:

ـ رجل؟ موعد مع رجل؟ لا يمكن أن أصدق إنك يا شريفة هانم تذهبين في موعد مع رجل.. إنني واثق من أخلاقك، مؤمن بأنك سيدة فاضلة!

ـ قالت شريفة وهي تتحداه:

ـ نعم، موعد مع رجل.. موعد على انفراد.. ولكي أوفر عليك مؤونة أن تكلف رجالك بتعقب خطواتي، فسأقول لك اسم هذا الرجل الذي بينه وبيني موعد الآن.. حتى يوفر رجالك وقتهم في مراقبة أعداء البلد بدلاً من مراقبتي.. إن اسم هذا الرجل الذي ارتبطت معه بموعد هو الأستاذ درويش مخلص الصحفي... وعضو مجلس النواب... والذي يسكن في الدور الخامس من العمارة التي نسكن فيها... هل تريد تفاصيل أخرى؟

قال سعدون باشا وقد لذعته الغيرة في كل جزء من جسمه:

ـ درويش مخلص.. إنه شاب سيىء السمعة.. زير نساء.. إنني أحذرك من الاتصال به.. سوف يغضب عزيز إذا عرف أنك ذهبت لمقابلته!

قالت شريفة:

ـ أعرف أنه سيىء السمعة.. في بلد يسمى فيه الشيطان صاحب القداسة، والفاجر صاحب الفضيلة.

وتظاهر سعدون باشا أنه لم يفهم ماذا تقصد شريفة، ومضى يقول:

ـ إنه معروف بأن له علاقات غرامية عديدة.. إنني أرجوك يا شريفة أن تبتعدي عنه.. إن كل ما يهمني هو سمعتك.. إن سمعة المرأة هي رأس مالها!

قالت شريفة:

ـ ومن أجل هذا كنت تريد أن تحتفظ برأسمالي في جرسونييرة سعادتك! إطمئن يا باشا على سمعتي.. لا تتصور أن موعدي مع درويش مخلص هو موعد غرام.. إنه موعد عمل.. إنني سأقابله بشأن الاستجواب الذي يقدمه إلى الحاكم العسكري عن أسباب القبض على الصاغ عزيز علاء الدين.

قال سعدون باشا:

ـ إن عزيز مقبوض عليه بناء على قانون الأحكام العرفية.. وهذا ليس من شأن النواب..

قالت شريفة:

ـ إن من رأي درويش مخلص أن الدستور هو الذي يحمي أعراض الناس... ويوم يداس الدستور بالأقدام. تبقى أعراض الناس وشرفهم وحريتهم وكرامتهم بغير درع يقيهم ولا سياج يحميهم.. إنه سيطالب بإلغاء الأحكام العرفية، لأنها لا تستعمل لحماية البلد وإنما تستعمل لحماية الذين يعتدون على أعراض الناس!

قال سعدون باشا وهو يحاول أن يخفي ولولة وصراخاً وعويلاً في قلبه:

ـ وكم ستدفعين أتعاباً للأستاذ درويش مخلص؟

قالت شريفة:

ـ دفعت له الأتعاب.. المقدم والمؤخر معاً!

قال سعدون باشا وهو يعض شفتيه في غيظ:

ـ المجرم!؟ إنه يستغل محن الناس وأزماتهم!

وضحكت شريفة وقالت:

ـ إنكم تخطئون يا باشا عندما تتصورون أن الناس يتعاملون كلهم بالعملة الصعبة التي تتعاملون بها.. إن الثمن الذي طلبه درويش مخلص مني ليس قبلة ولا عناقاً ولا موعداً في جرسونييرة... إنه طلب مني أن أقول له الحقيقة كلها.. وقد قلتها له!

قال سعدون باشا في ذعر:

ـ الحقيقة؟!

قالت شريفة:

ـ نعم.. حقيقتك يا سعادة الباشا..

ووضعت شريفة سماعة التليفون.. وبقي سعدون باشا دقيقة في دهشة وذهول ورعب، ثم رمى السماعة وأمسك سماعة أخرى وقال:

ـ اقبضوا على مخلص دوريش، فوراً.. لقد ثبت بالأدلة القاطعة أنه زعيم المؤامرة الكبرى!

- ١٤ -

كان سعدون باشا يمشي ذهاباً وإياباً في مكتبه، في ثورة وغضب وهياج، وقد احتقن وجهه، واحمرت عيناه كالمحموم، ويقول في انفعال:

- ضاع البلد.. كل شيء فيه أصبح فوضى.. كأنه بلد بغير صاحب.. بلد بغير حكومة.. لو استمر الحال على هذا المنوال فسنخسر الحرب.. يجب أن تقول سموك للملك إن رئيس وزرائه يلعب بالنار.. إنه يحمي المتآمرين على العرش.. إنه يحتضن المجرمين الذين يدبرون الثورة!

كان القلق يخيم على وجه الأمير عادل عمرو، والضيق يستبد بفوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام، ونار الغضب تسري في حشايا الأميرالاي عباس بك الشمردلي، وكأن هذه النار تشوي مجموعة الدواجن التي يتكون منها جسمه، بما في ذلك بقايا وشم العصفورة فوق جبهته! وكانوا ثلاثتهم يرقبون سعدون باشا في صمت وغيظ وحسرة على ما وصلت إليه أحوال البلد.

وقال فوزي بك في مرارة:

- لقد قلت لرئيس الوزراء إن لدى سعدون باشا تقارير ومستندات تثبت أن درويش مخلص هو زعيم المؤامرة، وإن تحرياتي الخاصة تؤيد معلومات سعدون باشا، وإنه يجب القبض على درويش مخلص فوراً، فقال رئيس الوزراء إن درويش عضو في مجلس النواب، وإنه بحكم الدستور، متمتع بالحصانة البرلمانية، وإنه لا يجوز القبض عليه إلا بعد استئذان البرلمان.. وإن البرلمان سيطلب المستندات التي ستثبت اشتراك درويش في المؤامرة قبل أن يوافق على رفع الحصانة البرلمانية

عنه والسماح بالقبض عليه.

وضرب سعدون باشا كفاً على كف وقال:

- برلمان ودستور وحصانة برلمانية في وقت حرب؟ أهذا كلام رجل عاقل أم كلام رجل مجنون؟!

قال الأمير عادل:

- لقد كان رأيي دائماً أن رئيس الوزراء رجل غبي، ولا يصلح لأن يحكم البلد أثناء الحرب. لولا هذا البرلمان لكانت جيوشنا الآن تحتل تل أبيب، إن جيوش محمد علي وصلت إلى أبواب استانبول. واحتلت الشرق الأوسط كله، لأنه لم يكن في مصر برلمان ولا دستور ولا حصانة برلمانية.. لقد اقترحت على الملك مرة أن يدعو جميع زعماء مصر إلى قصر عابدين ويذبحهم كما دعا جده محمد علي زعماء المماليك وذبحهم في القلعة.. ولو فعل ذلك لما احتج أحد اليوم بالحصانة البرلمانية!

قال الشمردلي بك:

- إنني على استعداد لأن أقوم بهذه المهمة.. لو ذبحنا جميع الزعماء وتخلصنا من جميع السياسيين، فإن مصر تصبح امبراطورية خلال ثلاثة شهور.. تصور لو كنا نحن الذين نحكم مصر بدلاً من حكم الدستور الحمار.. والحصان البرلماني!

وتأمل فوزي بك في خبث، وكأنه يوافق أن حكم الديك الرومي أحسن كثيراً من حكم الحمار.. أو الحصان البرلماني!

فقد ظن الشمردلي بك لجهله أن الحصانة البرلمانية هي حصان يركبه أعضاء البرلمان!

وكان سعدون باشا لا يفكر في جيوش محمد علي ولا في مذبحة

المماليك، ولا في أن الشمردلي بك أحسن من الحمير الذين يحكمون مصر، ولكنه كان يفكر في الطلب الغريب السخيف الذي طلبه رئيس الوزراء من فوزي بك مدير الأمن العام.

لقد طلب إليه أن يذهب إلى سعدون باشا ويحصل منه على المستندات التي تدين النائب والصحفي درويش مخلص ليطلع عليها. ولقد أفزعه هذا الطلب الغريب. أصبح يتمنى أن يغمض عينه ويفتحها فلا يجد رئيس الوزراء. أصبح يشعر أن الدستور هو كابوس جاثم على صدره. وشعر أنه يختنق في ظل هذا الحكم البرلماني. إنه لا يستطيع أن يتنفس في حرية ما دامت مواد الدستور هذا كالسيف المسلط على رقبته!

شريفة تهدده باستجواب يقدم في مجلس النواب. ورئيس الوزراء يرفض القبض على درويش مخلص بحجة تمتعه بالحصانة البرلمانية.

وكان يشعر أن طلب رئيس الوزراء كالسيف المسلط على رقبته.. ومن أجل هذا طلب أن يجتمع بالأمير عادل عمرو ليطلب إليه أن يقنع الملك بإقالة رئيس الوزراء، وبذلك يتخلص سعدون باشا من طلب محمود باشا رئيس الوزراء بالحصول على المستندات التي تثبت تزعّم النائب الصحفي درويش مخلص للمؤامرة.

إن المشكلة التي تحيّر سعدون باشا أن ليس لديه مستندات ولا وثائق ولا تقارير تثبت اشتراك درويش مخلص في المؤامرة. ولكن الأمير عادل فاجأه بأن الملك لا يستطيع إقالة الوزارة في الوقت الحاضر.

وأراد سعدون باشا أن يثير حماس الأمير عادل فنظر إليه من طرفي عينيه وقال:

ـ إن لدي وثائق خطيرة تثبت تزعّم درويش مخلص المؤامرة. ولكني لا أستطيع أن أقدمها لرئيس الوزراء، لأن فيها أسراراً خطيرة تمس الجيش وتفيد الأعداء. وأنا لا أحب أن تتسرب هذه الأسرار والمعلومات إلى العدو. فأنا لا أضمن أن تصل هذه الأسرار إلى أيدٍ لا أطمئن إليها.. تصور يا سمو الأمير.. لقد بلغت الخيانة بهذا الرجل أنه كان يراقب بيت الهرم!

وفزع الأمير عادل وقفز من مقعده في ذعر:

ـ هل هذا مكتوب في تقرير؟

قال سعدون باشا وهو يرمقه بعينين مفتوحين:

ـ للأسف، إن هذا مكتوب في كل تقرير من التقارير التي تثبت صلة درويش مخلص بالمؤامرة.. فماذا أفعل؟ هل أقدم التقارير كما هي إلى رئيس الوزراء؟...

قال الأمير في انفعال:

ـ لا.. مستحيل.. إنني لا أحب رئيس الوزراء، وهو لا يحبني.. وهو رجل ضيّق الأفق، وسوف يستعمل هذه التقارير ضدي ويحاول أن ينسفني.. وينسفكم جميعاً!

وفهم فوزي بك صلاح الدين بخبثه ودهائه على الفور أنه لا توجد تقارير، ولا يوجد اسم بيت الهرم في أي تقرير.. وأن سعدون باشا تورط في طلب القبض على الصحفي النائب درويش مخلص بسبب مسألة نسائية، فقرر أن يهب لنجدته، فقال وقد رسم على وجهه صورة المنقذ:

ـ أنا يمكنني أن أحل الموقف، وهو أن أكلف جهاز الأمن العام بعمل تحريات واسعة عن الصحافي النائب، وبذلك نستغني عن تقارير سعدون باشا وما جاء فيها عن بيت الهرم. . ويمكن الحصول على اعترافات باشتراكه في المؤامرة من المتهمين.

وتنفس الامير عادل الصعداء. .

وتنفس سعدون باشا الصعداء. .

وهزّ الشمردلي بك رأسه في صعداء وقال:

ـ وبعد ذلك. . سوف تصبح الحصانة البرلمانية. . هي الحمارة البرلمانية!

وفتح باب الزنزانة التي يجلس فيها الأستاذ سامي كاتب السيناريو في سجن الاستئناف. .

وقال له الشاويش فتيحة:

ـ مبروك يا أستاذ سامي. . يظهر أنهم سيفرجون عنك. . إن سعادة المأمور يطلبك. . وعليك بارتداء ملابسك فوراً. .

وسأله سامي هل يجمع أمتعته؟. فطلب منه الشاويش أن يؤجل ذلك حتى يقابل المأمور.

وصحبه الشاويش فتيحة الى مكتب المأمور فوجد ضابطاً في البوليس، وقال له المأمور إن الضابط سيصحبه إلى إدارة الأمن العام. .

وسأل سامي:

ـ ما هو السبب؟

وقال الضابط وهو يطمئنه:

ـ لا. . خير. . خير جداً!

وانقبض قلب سامي، وتبع الضابط إلى سيارة حملتهما إلى وزارة الداخلية، وأدخله على الفور إلى مكتب الصاغ عبد الله شوقي.

وفوجىء سامي بالضابط يقف ويقول:

ـ أهلاً بالرجل العظيم. . أهلاً بسامي بك!

وأحس سامي بسعادة، واعتقد أنه لا بد أن الراقصة ببا علمت بالقبض عليه، وأوصت به الأمير عادل، فصدرت الأوامر بالإفراج عنه. . إن الضابط عبد الله شوقي كان لا يناديه إلا بابن الكلب. . فإذا كان الآن يناديه «سامي بك» فهذا يدل على أنه تلقى أوامر بذلك من الدوائر العليا!

وانصرف الضابط الذي صحبه من السجن بعد أن أدى التحية العسكرية.

وأجلسه الضابط عبد الله شوقي على كرسي كبير موضوع أمام المكتب، ثم أخرج علبة سجائره وهو يقول:

ـ سيجارة يا سامي بك؟

وتناول سامي سيجارة، وقام الصاغ عبدالله من مقعده، وأشعل عود ثقاب وأشعل به سيجارة سامي، ثم جلس على مكتبه وقال وهو يقلّب أوراقاً في يده:

ـ كلما قرأت اعترافاتك أعجبت بصدقها وأسلوبها ووضوحها،

وحرصك على كتابة كل التفاصيل. إن أسلوبك ممتاز يا سامي بك. .

قال سامي وقد استبد به شعور الزهو والفخر:

ـ العفو. . . لقد كتبت هذا بسرعة. . ولو كانت لدي فرصة أكبر لكتبت أسلوباً أحسن من هذا الأسلوب. .

قال الصاغ عبد الله:

ـ سأعطيك هذه الفرصة التي تتمناها. . سأعطيك الاعترافات التي كتبتها لتعيد صياغتها من جديد. . كل ما نريده منك أن تضيف شخصية جديدة إلى المؤامرة.

قال سامي:

ـ شخصية واحدة فقط؟ . . . في إمكاني أن أدخل مائة شخصية لا شخصية واحدة. . إنها مسألة بسيطة. . بسيطة جداً. . هل هي شخصية رجل أم امرأة؟. أفضل أن تكون شخصية امرأة. . لأنني أجيد كتابة مشاعر المرأة!

قال الصاغ عبد الله:

ـ لا. . شخصية رجل. . إنه الأستاذ درويش مخلص رئيس تحرير جريدة «آخر خبر» وعضو مجلس النواب. . مطلوب أن يكون له دور كبير في المؤامرة، هل يمكنك هذا؟

قال سامي:

ـ يمكنني؟ هذا سهل جداً. . أنا على الأقل أعرف درويش مخلص من كتاباته ومقالاته وخطبه. أما الثلاثة الآخرون الذين أشركتهم في

المؤامرة فلا أعرفهم. إنها مسألة سهلة جداً. بسيطة جداً. . إنني معتاد عليها. . لقد وضعت مرة سيناريو قصة «فاجعة في كفر الشيخ» وانتهيت من وضع مناظرها وكتابة حوارها. . ووزع الأستاذ توجو مزراحي المخرج الأدوار على الممثلين. . ثم فاجأني بقوله إنه وقّع عقداً مع الأستاذ يوسف وهبي للتمثيل في الفيلم وليس له دور فيه. . وفي يوم واحد خلقت ليوسف وهبي دوراً هاماً في الفيلم، لم يشعر أحد من النقاد بأنه دخيل عليه. . بل إن بعض المغفلين منهم كتب يقول إن دور يوسف وهبي هو الدور الأساسي في حين أن دور أنور وجدي كان الدور الأساسي في القصة في أول الأمر. هذه مسألة بسيطة جداً. . هيّنة جداً. سهلة جداً جداً!

قال الصاغ عبد الله وهو يسلمه اعترافاته السابقة:

ـ سأتركك في غرفة وحدك تكتب ما تشاء. . وسأتصل بمحل الحاتي وأطلب لك فرخة مشوية وثلاثة أرطال كفتة وكباباً وثلاثة أرغفة. وسنحضر لك تفاحاً. . هل تريد شيئاً آخر؟

قال سامي:

ـ هل تريد اعترافات رائعة. . أم اعترافات عادية؟

قال الصاغ عبد الله:

ـ اعترافات رائعة طبعاً!

قال سامي وهو يبتسم:

ـ الاعترافات الرائعة محتاجة إلى زجاجة ويسكي!

قال الصاغ عبد الله:

ـ بالصودا؟

قال سامي: لا.. لا صودا.. ولا ماء!

وأدخل الصاغ عبد الله الأستاذ سامي إلى غرفة مجاورة، وناوله دفتراً كبيراً وقلم حبر وعلبتي سجائر وأغلق عليه الباب.

وجلس الأستاذ سامي يجرع الويسكي ويدخن السجائر، ويدخل الأستاذ درويش مخلص في كل مشهد من قصة المؤامرة الكبرى، جعله ينسل من الغرفة التي يجتمع فيها المتآمرون ويطفىء أنوار الشقة التي اجتمعوا فيها، ثم يعود على أطراف قدميه، ويفتح باب غرفة المؤامرة ثم يغلق الباب بهدوء، ويخرج مسدساً يضعه فوق مصحف وجمجمة ويطلب من المتآمرين الثلاثة أن يقسموا على المصحف والمسدس والجمجمة بكتمان سر المؤامرة.. ووضع على لسانه كلمات نارية وعبارات مثل «الموت للخونة».. «سنفرش الأرض بجثث الملك والوزراء».. «إذا أخرست أصوات الحرية ارتفع صوت المسدس».. وغيرها من الجمل التي قرأها سامي في القصص التي تتحدث عن الثورة الفرنسية والثورة الاميركية والثورة الشيوعية.

وراح بخياله يحرك درويش مخلص فيجعله يقف على قدميه، ثم يجلس إلى مقعد كبير، ثم ينحني ويتكلم في همس، ثم يرفع قامته ويزأر بصوت كالعاصفة، وينهض في تثاقل، وينسحب في تباطؤ، ويتحدث وهو حانق، ويطرق في تفكير، ويصمت ويتكلم، ويفتح النافذة ليراقب الشارع حيث يرى الاجتماع الخطير، ويغلق النافذة، ويمشي بتؤدة إلى الباب ثم يفتحه فجأة، ويطل برأسه ليتأكد أن أحداً لا ينصت لحديث المتآمرين..

ووزع باقي الجرائم على الأستاذ صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة، والصاغ عزيز علاء الدين، وشامل شفيق الطالب بكلية

الزراعة.. وحرص أن يوزع الجرائم على الثلاثة بالعدل والقسطاس.. واحتفظ لنفسه بجنحة.. جنحة عدم التبليغ عن المؤامرة!

وحرص الأستاذ سامي في الرواية التي ألفها أن يعطي صيغة واقعية للقصة، فيحدد يوماً معيناً لكل اجتماع عقدته الجمعية السرية، وساعة محددة لبداية كل اجتماع ونهاية كل اجتماع ووصف دور كل متآمر بدقة وتفصيل. ووصف تعبيرات العيون، وتقلصات الوجوه، وتحركات الأيدي، وانفعالات المتآمرين. بحيث إذا مثّلت القصة في يوم من الأيام فإن كل ما يطلب من المخرج هو أن يصدر أمره للمصور بأن يدير الكاميرا فقط ويبدأ التصوير!

وانتهت القصة عند منتصف الليل. انتهت بنهاية زجاجة الويسكي.

ودق سامي على باب الغرفة المغلق وطلب من الجندي الذي يحرس الباب أن يصحبه إلى الصاغ عبدالله شوقي.. واستمهله الجندي حتى يستأذن الصاغ. ثم عاد إلى سامي وصحبه إلى غرفة الصاغ الذي وجد أمامه زجاجة ويسكي أخرى، مما يدل على أنه هو الآخر كان مشغولاً بتأليف سيناريو عن مؤامرة أخرى..

وأمسك الصاغ عبد الله بأوراق اعترافات سامي، وراح يقرأها بصوت عال وهو يترنح، من آثار الويسكي ومن بلاغة سامي.. وقال بعد أن انتهى منها إنها أعظم اعترافات في تاريخ القضاء المصري!

وقال سامي:

- هل معنى ذلك أنه سيفرج عني قريباً؟

قال الصاغ عبد الله:

ـ قريباً فقط؟.. سيفرج عنك غداً!

وابتسم سامي، واندفع إليه الصاغ عبد الله يهنئه بحرارة على هذا العمل العظيم الذي أبلغ ما فيه نبرات الصدق الواضحة في كل سطر من الاعترافات.

وجلس فوزي بك صلاح الدين في مكتبه بإدارة الأمن العام وقد انبسطت أساريره وهو يقول للصاغ عبد الله شوقي:

ـ عمل عظيم يا عبد الله.. لقد قرأت اعترافات سامي عدة مرات. إنها ممتازة جداً، فيها جهد واضح، وليس فيها ثغرة واحدة. أي محكمة ترى هذه الاعترافات ستحكم عليهم جميعاً بالإعدام.. ولكن كيف استطعت أن تقنع سامي بأن يعترف بكل هذا؟

فابتسم الصاغ عبد الله في تواضع وقال متملقاً:

ـ نحن تلامذتك يا سعادة المدير.. إنني طبقت نظريات سعادتك في حسن معاملة المتهم، وتوفير ضمانات العدالة، وكسبه بالإقناع والكلمة الطيبة إن توجيهات سعادتك هي التي أدت إلى هذا النصر العظيم..

قال فوزي بك وهو يبتسم كأنه يستحق كل هذه العبارات من المديح والإطراء:

ـ والشيء الذي أعجبني هو أنك لم تعتمد على اعتراف سامي وحده. لقد حصلت على اعتراف من صبحي خالد.. وكأنه تذكر فجأة إحسان زوجة صبحي خالد وكيف أتعبته في المدة الأخيرة فقطب جبينه وقال:

ـ هل أتعبك صبحي خالد في اعترافه؟

قال الصاغ عبد الله ضاحكاً:

ـ إنه لم يتعبني أبداً.. لم يأخذ مني سوى عشر دقائق.. كل ما فعلته أنني طلبت من سامي أن يكتب بخط يده ورقة يقول فيها: «أقر أن صبحي خالد ليس له علاقة بالمؤامرة وبريء من كل التهم، ولم يحضر اجتماعات سرية، ولم أقابله في حياتي». والإمضاء سامي توفيق. وهو الاسم الحقيقي لسامي في شهادة الميلاد وهو غير اسمه الفني. وذهبت إلى صبحي خالد في الزنزانة وقلت له: مبروك.. إن الرجل الذي كان اعترف عليك عاد واعترف مرة أخرى بأنك بريء. وأطلعته على الاعتراف الجديد بخط سامي.. وقرأ صبحي خالد الاعتراف وقال: هذا حق وصدق.. والله العظيم..

قلت له:

ـ إذن أكتب وقل هذا بخط يدك..

وبحث صبحي خالد عن ورقة، فأسرعت وقدمت له الاعتراف الأصلي وقلت له:

ـ توفيراً للوقت اكتب تحت اعتراف سامي..

وكتب المغفل تحت الاعتراف الأصلي: «أقر واعترف وأقسم بالله العظيم أن كل كلمة قالها هنا سامي توفيق سامي هي صدق وحق والله على ما أقول شهيد»..

ووقّع المغفل بإمضائه... دون أن يعرف أن هذا الاعتراف سيحمله إلى حبل المشنقة!

وضحك فوزي بك صلاح الدين ضحكاً متواصلاً على غفلة الزوج الذي استطاع الصاغ بسهولة أن يستغله ثم قال في ابتهاج :

- إنني أرسلت ورق التحقيق إلى دولة رئيس الوزراء . . وأتحداه أن يجد ثغرة واحدة فيه . . لن يستطيع بعد الآن أن يقول إن الحصانة البرلمانية تمنع اعتقال مخلص!

ثم شكر فوزي بك مساعده العبقري، الذي حياه بالتحية العسكرية وانصرف . .

وأطرق فوزي بك برأسه وفكّر في إحسان . . المرأة التي أحبها، ودبر المؤامرة الكبرى من أجلها، وكانت هي السبب في اعتقال هؤلاء الأربعة الأبرياء!

إنها جعلته يغرق في الذل . جعلت الطريق إلى جسدها الشهي ملتوياً كالثعبان، بعد أن كان توهم أنه فتح الطريق بعد القبض على زوجها صبحي خالد، واعتقد أنه سوف يستمتع بها كما يشاء بالليل والنهار .

لقد فاجأته بعد القبض على زوجها بقولها إنها لن تستطيع أن تقابله مرة أخرى، لأن ضميرها يؤنبها على أنها خانت زوجها . . وإنها منذ أن خانته بدأت تسقط عليها لعنات السماء . إن الله يعاقبها على الجريمة التي ارتكبتها . إن انتقام السماء لا ينتهي منذ ذلك اليوم الذي منحته جسدها . . صدر قرار بنقل زوجها إلى رفح . هدّد زوجها بالاستقالة والبقاء في البيت . . قبض على زوجها . . كل هذه الضربات المتوالية التي انهالت عليها ليست من فعل البشر . . إنها صفعات من السماء . . إنها عقاب إلهي لأنها فرّطت في شرفها مرة واحدة . . إذا كان كل هذا

حدث لها لأنها زلّت مرة . فماذا سوف يحدث لها إذا زلّت مرة ثانية؟ . . ماذا يحدث لولديها؟

إنها الآن تصلي . . إنها تابت . . إنها تمضي يومها في زيارة الأضرحة والأولياء تستغفر الله وتتوسل إلى الأولياء أن يتوسطوا لديها في قبول توبتها .

وحاول فوزي بك أن يقنع حبيبته إحسان بأن الله لا علاقة له بنقل زوجها إلى رفح، ولا وضع زوجها في السجن . . وكاد يقول لها إنه هو الإله الذي فعل كل هذه المعجزات . . ولم يفعلها لينهي علاقة الحب، بل ليزيل من أمامها العقبات . . ولكنه تردد أن يقول لها الحقيقة، فإنه لا يثق بألسنة النساء!

وألح فوزي بك على إحسان بأن تحضر لمقابلته في الشقة فرفضت، وقالت إنها أقسمت ألا تدخل هذه الشقة، ولا تضع قدمها في الدور الخامس كله . . بل إنها قرّرت أن تقطع علاقتها بصديقتها حرم الدكتور سعيد الشباس الأستاذ بكلية العلوم! لأنها تسكن في الدور الخامس الذي وقعت فيه جريمتها!

وبعد إلحاح طويل قبلت إحسان أن يحضر فوزي بك إلى بيتها ليحدثها في شأن الإفراج عن زوجها . .

ورفضت أن تتم المقابلة في الليل، وأصرت أن تتم في الساعة الرابعة بعد الظهر . .

وذهب إليها وفوجىء بها تقابله وقد غطت رأسها طرحة بيضاء وأمسكت سبحة في يدها، وأنها عندما صافحته وضعت طرف الطرحة على كفها حتى لا يلمس كفها كفه!

وفوجىء فوزي بك بإحسان تجلس وتطلب من ولديها الصغيرين أن يجلسا فوق الكرسي الذي يفصل بينها وبين فوزي بك، كأنها أرادت أن تقيم سداً بينها وبينه.. وأحس فوزي بك باليأس يدب في قلبه. وأن هذين الولدين الصغيرين اشبه بأسلاك شائكة تمنعه من الوصول إلى قصور أمانيه!

ونظر إلى وجه إحسان الذي طالما فتنته نضارته فوجده ذابلاً، وإلى عينيها اللتين طالما اسرتاه ببريق الشهوة فيهما فأحس كأن هذا البريق قد خبا.. شعر بأنها كبرت عشرين سنة خلال هذه العشرين يوماً، رأى تجعدات تحت جفون عينيها، وكأنها المجرى الذي حفرته دموعها وهي تنساب من عينيها.. شعر كأن النور الذي ينبعث منها قد انطفأ.

ووجدها تكلمه بلغة أخرى غير التي أحبها. لغة امرأة تابت ثم رأت فجأة أمامها شريكها في الجريمة، فإذا بنبضات قلبها تلعنه، وكأنه الشيطان جاء من جديد يدق بابها.

وأحس بأنه يرى مصرع الحب.. الحب الذي لم يستمتع به سوى ثلاث ساعات.. الذي دفع فيه حياة أربعة رجال في طريقهم الآن إلى حبل المشنقة.

ولم يستيقظ ضميره، وإنما شعر برغبة في أن يمضي في التنكيل بزوجها صبحي خالد.. إنها الآن تصلي ليخرج.. ولكن عندما يحكم عليه بالسجن سوف تتوقف عن الصلاة.. ستيأس من رحمة الله.. ستخلع هذه الطرحة التي حولتها من غانية إلى صالحة.. سترمي هذه السبحة التي جعلتها تذكر اسم الله بدلاً من اسم عاشقها.. ستعود إليه.. ويعود إليها جمالها وشبابها وحيويتها..

وخرج من بيتها وهو يكره صبحي خالد، ويكره ولديها.. خرج

زائغ البصر، يحس بدوار في رأسه، وبفتور في روحه. وبهزيمة في قلبه.. إن قلوب المهزومين هي الأرض الصالحة لينبت فيها الحقد والكراهية!

وأحس برغبة في أن يذلها، في أن ينتقم منها، في أن يعذبها.. اختفى من قلبه الرجل العاشق، وأطل من قلبه رجل آخر يريد أن يبطش بهذه المرأة التي أمتعته ثلاث ساعات، ثم تحولت إلى أنقاض!

ولكنه لم يستطع بسهولة أن ينسى إحسان، لا تزال حلاوتها في فمه، لا تزال حرارتها في جسده، إنه وهو بين ذراعيها تملكه شعور لذيذ بأنه أصبح شاباً من جديد. كأنه وجد إكسير الحياة الذي يحيل العجائز إلى شبان.. ثم ها هو يفيق فجأة ويجد زجاجة الإكسير قد تحطمت.

وبدأ يشعر بوخزات في قلبه، ويحس بأن نبضه يبطىء، وأن عضلاته ساقيه تؤلمه. وبأن دواراً يصيب رأسه، وفتوراً يندس في روحه.. إنها أعراض شيخوخة مبكرة.. شيخوخة لم يشعر بها قبل أن تتحطم زجاجة إكسير الحياة التي كانت في يده!

وعاد فوزي بك يفكر كيف يعيد الزجاج المهشم، ويصنع منه زجاجة إكسير الحياة من جديد؟ كيف يخرج الصالحة من معبدها ويعيدها إلى الجرسونييرة؟ كيف يقضي على أوهام إحسان بأن ما أصابها لعنة من الله.

وفكّر فوزي بك بأن يستعين بالصاغ عبد الله شوقي مساعده. لعله يجد فكرة مبتكرة لإعادة إحسان إليه، كما وجد فكرة مبتكرة للحصول من زوجها على اعتراف كامل باشتراكه في المؤامرة الكبرى. ولكنه تردد. إن عبد الله شوقي زير نساء أيضاً. من يضمن له أنه بدلاً من أن يمهد الطريق لفوزي بك، يمهد الطريق انفسه؟ أن يجعله يحب إحسان

من «الباطن»، كما جعل فوزي بك الأمير عادل يحب الراقصة ببا من «الباطن»، إن زير النساء لا يثق بزير النساء.. إن بينهما كراهية طبيعية ومنافسة دائماً، كالكراهية التي بين الصيادين الذين يصطادون في بحيرة واحدة!

ويفكر فوزي بك في أن يستعين بالراقصة ببا. إنها بذكائها ودهائها قادرة أن تلينّ إحسان. ليس هناك أقدر من المرأة بإقناع امرأة أخرى.. إن النساء لا يحببن بعضهن ولا يثقن ببعضهن، ولكنهن يصدقن كلام بعضهن.. ولكنه يتردد في الاستعانة ببيا.. إنه لا يريد أن يكون تحت سيطرتها.. إنه بهذه الطريقة يستطيع أن يستخدمها في تنفيذ أغراضه.. ولكن يوم تشعر ببا أنه في حاجة إليها فسوف يفقد سلطانه عليها!

إنه يجب أن يعتمد على الزمن، الزمن سيحارب معه.. عندما ستطول مدة سجن صبحي خالد سوف تضعف مقاومة زوجته إحسان. ستكتشف أن المشايخ والأولياء لا يستطيعون إخراجه من السجن. ستتأكد أن الشيخ الوحيد والولي الوحيد القادر على أن يحوّل المجرمين إلى أبرياء، والأبرياء إلى مجرمين الذي يخلقهم ويسخطهم، الذي يحييهم ويميتهم، الذي في يده كل قوى الثواب والعقاب هو: فوزي صلاح الدين!!

ولكنه لا يطمئن طويلاً إلى أوهامه، ويعود يفكر من جديد في إحسان، ويشعر ببذور من القلق والشكوك تزرع في رأسه. هل من المعقول أن تتوب المرأة فجأة؟ أن تتحول من غانية إلى قديسة في أيام؟ لماذا لا تكون إحسان تخدعه بمظهر القديسات التائبات؟ ربما يكون صديقها كمال، طالب الهندسة عاد فجأة من أميركا، واستأنف علاقته بها بعد أن اكتشفت أنه لم يتزوج، وأن فوزي

كذب عليها. إن بعض النساء يستعمل كلمة التوبة عذراً لقطع علاقة قائمة.

ويسرع فوزي بك ويصدر أوامره بوضع إحسان وتليفون إحسان وبيت إحسان تحت المراقبة من جديد!

ثم يدق جرس التليفون ويقول له سكرتير رئيس الوزراء إن الباشا يريد أن يجيء إليه فوراً!

وينسى إحسان، وينسى سعادته المفقودة، وينسى أفكاره السوداء عن التوبة والخديعة، ويسرع ليغلق أدراج مكتبه بالمفاتيح، ويضع الطربوش على رأسه، ويزرر الجاكته، ويتجه بخطوات سريعة إلى الباب.



عاد فوزي بك من مقابلة رئيس الوزراء مهموماً، يتعثر في خطواته، كأن الشيخوخة الطارئة تحوّلت فجأة إلى شيخوخة دائمة. كان على وجهه قلق وقنوط..

ودخل عليه سكرتيره فشعر كأنه مريض، وكأن الفناء بدأ يدب فيه وقال السكرتير في هلع:

ـ هل أستدعي الطبيب؟.

قال فوزي بك وهو يضع يده على رأسه وكأنه يمنعه من الانفجار:

ـ لا.. استدع الصاغ عبد الله شوقي..

وفتح فوزي بك درج مكتبه، وأخرج زجاجة دواء فيها حبوب منعشة، وتناول اثنتين منها بيد مرتعشة، وصب قليلاً من الماء في كوب، ثم تناول الدواء، وأحس بعد لحظات بأن قلبه الذي كاد يتوقف عاد

يدق من جديد . .

ودخل الصاغ عبد الله شوقي . .

وناوله فوزي بك بيد مرتعشة عدداً من الأوراق، فقال الصاغ عبدالله في ابتهاج :

ـ هل اعجبت الاعترافات دولة رئيس الوزراء؟

قال فوزي بك :

ـ أعجبته جداً . . حتى أنه أمر بالإفراج عن المتهمين فوراً!

قال الصاغ عبد الله :

ـ الإفراج عن المتهمين؟ ألم يقرأ الاعترافات؟

قال فوزي بك وهو يهز رأسه :

ـ قرأها . . وقال إن هذا ليس اعتراف من المتهمين . . إنما اعتراف مني ومن سعدون باشا . . إننا مغفلان كبيران . . بعد خدمة ثلاثين سنة يقول عني رئيس الوزراء إنني مغفل كبير!

قال الصاغ عبد الله :

ـ كيف يجرؤ رئيس الوزراء ويقول هذا الكلام الفارغ عن أكبر رجل أمن عام في الشرق الأوسط؟

قال فوزي بصوت مرتعش :

ـ السبب هو أنت . . أنت المسؤول عن هذه المصيبة!

وصاح الصاغ عبد الله في احتجاج :

ـ أنا السبب؟ . . بعد الجهود الجبارة التي بذلتها من أجل الحصول على الاعترافات التفصيلية؟!

قال فوزي بك :

ـ المصيبة في الاعترافات التفصيلية . . لولا الاعترافات التفصيلية لأصبحت أنت بكباشي وأنا وكيل داخلية . . ولكن فلسفتك هي التي أدت إلى الكارثة!

قال الصاغ عبد الله وهو لا يصدق أذنيه :

ـ ولكني لم أتفلسف . . إنني قدمت الاعترافات لسعادتك كما هي!

قال فوزي بك :

ـ ألم يجيء في اعترافات سامي أن اجتماع المؤامرة الأول حدث يوم ٣ يوليو سنة ١٩٤٨ واجتماع المؤامرة الثاني في ٥ يوليو والاجتماع الثالث في ٦ يوليو وأن النائب الصحفي درويش مخلص حضر كل اجتماع وقال كذا وكيت؟ . .

قال الصاغ عبد الله :

ـ كل كلمة قالها درويش . . وكل حركة . . وكل إشارة مكتوبة بالدقيقة والساعة واليوم!

قال فوزي بك :

ـ لقد قال لي رئيس الوزراء إن في هذه الأيام بالذات لم يكن درويش موجوداً في القاهرة، ولا في المملكة المصرية، وإنما كان في سان فرانسيسكو يحضر مؤتمراً برلمانياً. فكيف يكون في القاهرة يحضر اجتماع مؤامرة في نفس اليوم الذي يكون فيه في أميركا يحضر مؤتمراً برلمانياً؟

قال الصاغ عبد الله :

ـ هل هذا هو اعتراض رئيس الوزراء فقط! إنها غلطة في الكتابة على الآلة الكاتبة . . المقصود أن الاجتماعات حدثت يوم ١٣ يوليو و١٥ يوليو و١٦ .

قال فوزي بك :

ـ المصيبة الأولى أن درويش كان في أميركا طوال شهر يوليو . . والمصيبة الثانية أن سامي قال في اعترافاته إنه شاهد الصاغ عزيز علاء الدين يكتب المنشورات ويطبعها، وإنه كان يقود سيارته، وينزل منها في أماكن نائية ويلقيها في صندوق البريد . . وقد سألني رئيس الوزراء كيف يستطيع رجل فقد أصابعه العشرة أن يكتب منشوراً، وأن يطبعه بنفسه، وأن يقود سيارة، وأن ينزل منها ويلقي المنشورات في صندوق البريد؟

قال الصاغ عبد الله :

ـ إن هذه ليست غلطاً . . إن المذكرة التي كتبها سعدون باشا لم يجيء فيها أن عزيز علاء الدين قطعت أصابعه العشرة .

قال فوزي بك وهو يمسح وجهه بيده، أو يمسح ضباباً زحف على ذهنه :

ـ إننا الآن لا نبحث في المسؤول عن المصيبة . إن رئيس الوزراء أصدر أمراً بالإفراج فوراً عن جميع المتهمين ما عدا سامي توفيق كاتب الاعترافات . . ولست أعرف كيف أخبر سعدون باشا بهذا الخبر السيىء!

وجيء بسامي توفيق بسيارة أنيقة سوداء إلى وزارة الداخلية . . وأدخلوه إلى مكتب الصاغ عبد الله شوقي الذي ما كاد يراه حتى هب من مقعده وقال :

ـ أهلاً سامي بك . . أهلاً سامي بك . .

وتقدم الصاغ عبد الله متهلل الوجه نحو سامي، ومد يده وانهال ضرباً وصفعاً وركلاً على أكبر كاتب سيناريو في الشرق الأوسط!

وأدخلوه غرفة إلى جانب غرفة الصاغ عبد الله . .

وكان باب الغرفة يفتح كل دقيقة، ويدخل جندي، ويصفعه صفعة قوية على قفاه . .

وعندئذٍ فقط تأكد الأستاذ سامي توفيق سامي أن عدد جنود البوليس المصري أكثر من عدد الضباط .

ورفع سعدون باشا سماعة التليفون . . وإذا بفوزي يخبره بأمر رئيس الوزراء بالإفراج فوراً عن الصاغ عزيز علاء الدين زوج شريفة . . والإفراج عن الطالب شامل شريف . . المجرم الأثيم الذي تخونه معه صديقته الممثلة كاميليا كامل .

ووضع سعدون باشا السماعة في سكون .

وأحس بستار ثقيل من الظلام يسقط حوله، وأجال بصره في غرفة مكتبه وإذا به يرى صورة جلالة الملك تتراقص، والنجفة الكهربائية تهتز، وقطع الأثاث تتحركِ كأن زلزالاً قد حدث . .

وذعر سعدون باشا . . فقد كان سعدون باشا هو الذي يهتز . . كان الزلزال في داخله . .

ثم لم يلبث الزلزال أن تحول إلى بركان، وأخذ سعدون باشا يصيح في مكتبه بصوت مذبوح..

ـ ضاع البلد.. كل شيء فيه أصبح فوضى.. بلد بغير صاحب.. بلد بغير حكومة.. خسرنا الحرب.. خسرنا المعركة.. خسرنا شريفة وكاميليا.. وضاع البلد!

- 15 -

وقف الصاغ عزيز علاء الدين وصبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة وشامل شفيق الطالب بكلية الزراعة أمام مكتب مأمور سجن الاستئناف مذهولين. أنساهم ذهولهم أنهم كانوا منذ دقائق في زنزاناتهم قلقين، حائرين، منهكين. لقد عرفوا منذ لحظات أنه تقرر الإفراج عنهم.

هذا الخبر لم يدهشهم، وإنما الذي أدهشهم أنهم يعرفون أنهم جميعاً يسكنون العمارة رقم ١٢ شارع العجوزة، وأنهم كثيراً ما رأوا بعضهم صاعدين إلى العمارة أو هابطين منها، ولكنهم لم يتحدثوا يوماً إلى بعضهم البعض، ولم يتصافحوا أو يتزاوروا.

ولكنهم دهشوا عندما عرفوا أنهم كانوا ثلاثتهم جيراناً في زنزانات متجاورة في الطابق الثاني بالسجن، ودهشوا أكثر عندما أخبرهم مأمور السجن أنهم ثلاثتهم كانوا متهمين في مؤامرة كبرى.. وقد أرادوا أن يعرفوا ما هي هذه المؤامرة، ولكن مأمور السجن رفض أن يتكلم، ونصحهم أن لا يتكلموا، وأن ينصرفوا في هدوء، وأن لا يخبروا أحداً بأنهم كانوا مسجونين. لأن حديثهم في هذا الشأن يضر بالتحقيق الخطير!

واتفقوا ثلاثتهم على أن يستقلوا سيارة تاكسي واحدة إلى عمارتهم، وجلس الثلاثة في السيارة صامتين. كانوا جميعاً يفكرون في المرأة. كان عزيز يفكر في زوجته شريفة، كيف سيفاجئها بأنه أصبح يستطيع أن يفعل بأصابع قدميه ما كان يستطيع أن يفعله بأصابع يديه؟ كيف سيبهرها باستعراض التمرينات التي انكب عليها طوال سجنه؟

وكان صبحي يفكر في زوجته إحسان، ترى هل احتفظت له بصفحة الوفيات في الصحف التي صدرت أثناء سجنه طوال هذه الأسابيع الثلاثة، وبذلك يستطيع أن يتبين ما فاته من أسرار، وما عجز عن فهمه من ألغاز وخاصة لغز القبض عليه واتهامه في قضية المؤامرة الكبرى.

وكان شامل يجلس على مقعده هائماً، محموم العينين، قلقاً. إنه يفكر في امرأتين في وقت واحد. يفكر أول الأمر في جارته فوزية برسوم. فوزية التي قالت له مرة أن شريف عبدالرازق بكلية الحقوق، والذي يسكن في الدور الرابع يعاكسها وهي لا تهتم به. ترى هل غيرتها الأسابيع الثلاثة التي غابها عنها؟ هل انتهز شريف فرصة سجنه واجتذبها إليه؟ إن النساء ضعيفات في وحدتهن. الإغراء لص لا يدخل إلا القلوب التي تغيب رجالها. لم يفكر في الممثلة كاميليا كامل في أول الأمر، كأنه خشي أن يُفكر في امرأة عارية أمام رجلين غريبين. أما وقد اطمأن أن جاريه مشغولان بنفسيهما فقد بدأ يفكر في كاميليا.

وامتزج تفكيره بالحب والشوق والأمل والقلق، هل سيلتقي بها ثانية؟ هل لا تزال أمينة على حبها أم أن الجامعة فتحت أبوابها لدفعات جديدة من العشاق؟ ترى من الذي أركبته في سيارتها؟ من الذي ألقت عليه محاضرتها الشيّقة في نظام الحب القديم ونظام الحب الجديد؟ هل يستطيع أن يجعل كاميليا، هذه الجامعة ذات الكليات المتعددة،

جامعة لتلميذ واحد؟

إنه أحياناً يشك فيها. يشك في أن لا تكتفي بتلميذ واحد. إنها مثل الجامعة فيها دروس صباحية ودروس مسائية، بل هي تبدو له أحياناً أشبه بسينما مترو، فيها حفلات صباحية وحفلات تبدأ الساعة الثالثة وحفلات تبدأ الساعة السادسة، وحفلات تبدأ الساعة التاسعة مساء. وربما كانت هناك حفلات أخرى تبدأ بعد منتصف الليل.. ويهرب بفكره من كاميليا إلى فوزية، ثم يعود ويفكر في كاميليا من جديد.

وتتوقف السيارة أمام باب العمارة، ويقفزون منها، ويبحثون بعيونهم عن عم ابراهيم بواب العمارة فلا يجدونه.

ويدفع صبحي خالد أجرة التاكسي برغم اعتراض زميليه، ويدخلون إلى المصعد. ويضع صبحي اصبعه على زر الطابق الثاني. ويفتح الباب، ويمد يده يصافح شامل، ثم يمد يده بحركة غير إرادية نحو عزيز علاء الدين، ثم يسحب يده في خجل ويربت على كتفه، ثم يغلق الباب.

ولا يضغط شامل على زر الطابق الثالث حيث يقيم، بل يضغط على زر الطابق السادس حيث يقيم عزيز، ويقول له عزيز إنه قادر أن يضغط بكتفه على الزر، وقادر أن يفتح باب المصعد بركبته، ولكن شامل يصر على أن يصعد به أولاً إلى الدور السادس، ويعرض عليه أن يصحبه إلى باب شقته ليعاونه على ضرب الجرس، فيصر عزيز أنه يستطيع أن يدق الجرس، ويغلق الباب ويهبط بالمصعد إلى الدور الثالث.. ويحدث ضجة وهو يفتح الباب وينادي بأعلى صوته على عم ابراهيم البواب، وذلك حتى يلفت نظر جارته فوزية بأنه عاد من السجن...

ويتقدم عزيز علاء الدين إلى باب شقته، ويضغط بكتفه على جرس الباب ضغطاً متواصلاً، ولكنه لا يسمع صوت قدمي زوجته شريفة تعدو إلى الباب كما كانت تفعل دائماً. ويعود يضغط بكتفه على زر الجرس من جديد.. فلا يسمع صوتاً.. فيدق على الباب بركبته دقاً متواصلاً.. ولكن الباب بقي مغلقاً!

وعاد عزيز يطرق الباب بحذائه، يحاول أن يدفعه. إنه شعر في لحظة بالشك أنها في داخل الشقة ومعها رجل. وأنها لا تريد أن تفتح الباب. امتقع وجهه. إن الصمت داخل الشقة تكلم. همس في أذنه. ملأ قلبه بالشك!

وعاد يطرق الباب بحذائه بعنف، وأحس بموجة غضب عنيفة عاصفة تجتاحه، تهزه، تقتلع جذوراً من حبه لها واحترامه لها وثقته بها. وأحس بدوار، وشعر كأنه سيسقط، فأسند ظهره إلى جدار حتى لا يهوي على الأرض.

وعاد يضع أذنه على الباب. وخيّل إليه أنه يسمع خطوات. إنها تحاول أن تهرب عشيقها من سلم الخدم. وأسرع عزيز يهبط درجات السلم ليلحق بالعشيق الهارب. وعند المدخل رآه عم ابراهيم البواب فرحب به، وقال له مبتدئاً إن الست خرجت من نصف ساعة. وقالت له إذا سأل أحد عني فإنني ذاهبة الى المحامي.

ودعاه عم ابراهيم إلى أن يجلس على مقعد يعده له في المدخل. ولكنه رفض، وخرج من العمارة، وبدأ يحوم حولها. ثم تساءل: ماذا يمنع أن يكون عم ابراهيم يتستر على جريمة خيانة شريفة؟ إن بعض البوابين مهنتهم التستر على الخيانات الزوجية. إنهم يحرسون الجناة ولا يحرسون المجني عليهم. يشاركون اللصوص ضد أصحاب البيوت.

وعاد من جديد إلى العمارة، فلم يجد عم ابراهيم، ودخل المصعد، وضغط على زر الدور السادس بكتفه فتحرك المصعد، وفتح باب المصعد بركبته فانفتح، وعاد إلى باب شقته يطرقه بحذائه من جديد. ولم يسمع رداً. فجلس على درجات السلم المؤدي للدور السابع.

وعندما جلس استراح. واستراحت الظنون قليلاً. ولكن بقيت تقلقه. إنها تقول إنها ذهبت إلى المحامي، أي محام؟ إنه لم يشهد طوال الأسابيع التي كان مسجوناً فيها محامياً ولا كاتب محام. ما أكثر أعذار الزوجات المفضحة! لقد كان هو يوماً محامياً بالنسبة لبعض الزوجات اللائي خرجن للقائه قبل أن يتزوج، وكان طبيب الأسنان، وكان الخياطة!

كان هؤلاء.. كان كل الأعذار التي تعتذر بها الزوجة الخائنة عن غيابها لزوجها.. هل جاء دوره ليذوق من نفس الكأس التي أذاقها للأزواج المخدوعين؟ ماذا يفعل لو اكتشف أن شريفة لم تصمد في مدة سجنه للإغراء، لو عرف أنها أحبت رجلاً آخر، رجلاً له أصابع عشرة؟! إنه لن يضربها. لن يؤذيها. لن يسبها. لن يلومها. إنه سيتركها!... سيبدأ حياة جديدة. سيحاول أن يجد امرأة أخرى تحبه كما هو بغير أصابع. إن الذنب ليس ذنب شريفة أنها تخونه. إنه هو الذي أخل بعقد الزواج. لقد تزوجته رجلاً كاملاً بأصابع عشرة وأصبح الآن بغير أصابع. أي أنه ليس هو الرجل الذي تزوجته. إن العقد لاغ تماماً كما نشتري جهاز راديو، ثم نكتشف أنه أخرس لا يتكلم، أو نشتري سيارة فنجد أنها لا تتحرك، أو نشتري جاكتة، ثم نفاجأ بأنها بغير أكمام... إن من حقنا أن نلغي الصفقة.

ويحدّث عزيز نفسه ويقول: إن زوجتي لم تخني.. إن قيادتي هي التي خانتني عندما لم ترسل لي الطائرة التي فيها الأسلحة والذخائر لتنقذني من

حصار اليهود... إن زوجتي لم تخني... إن حكومتي هي التي خانتني عندما وضعتني في السجن بغير تهمة ولا جريمة ولا تحقيق... إنني فقدت زوجتي كما فقدت أصابعي العشرة... فقدتها في معركة واحدة، فقدتها بسبب الفساد. لو بقي الفساد كما هو لما بقي لرجل واحد في هذا البلد أصابع.. ولا زوجة..

وفجأة يقف المصعد أمام الدور السادس، ويخرج منه الصحافي درويش مخلص والدكتور سعيد الشباسي الأستاذ بكلية العلوم.. ويشاهدان عزيز علاء الدين جالساً على درجة السلم، ويحاول عزيز أن يشيح بوجهه.. ولكن درويش يتقدم إليه ويقول:

ـ أهلاً عزيز بك.. مبروك.

ويهز الدكتور سعيد الشباسي رأسه وكأنه يريد أن يقول إن كلمة مبروك لا تؤدي المعنى العلمي لما يريد أن يقول!

ويقول درويش:

ـ لماذا أنت جالس على السلم؟ تفضل عندي.. لقد دعوت الدكتور سعيد ليشرب قهوة.

ـ إنني أنتظر زوجتي.. علمت أنها عند المحامي.

وضحك درويش وقال:

ـ أنا المحامي الذي كانت عنده.. إنني أخبرتها بأنه سيفرج عنك اليوم، فذهبت إلى مكتب النائب العام لتنتظرك هناك.. لأنني فهمت أن الإفراج سيتم من مكتب النائب العام!

قال عزيز:

ـ لقد أفرجوا عني من السجن!

وأجاب درويش:

ـ على كل حال ستعرف ذلك.. إنني أرسلت معها الآنسة نادية المحررة في القسم القضائي، وهي فتاة نشيطة، وستعرف أنه تم الإفراج عنك في السجن. تفضل انتظر شريفة هانم عندي.. وسيقف خادمي على باب الشقة ينبهك لدى وصولها.

ودخل عزيز متردداً إلى شقة درويش مخلص المجاورة لشقته. إنهما يسكنان متجاورين منذ عام واحد ولم يتزاورا مرة واحدة.

وجلس الثلاثة في غرفة مكتب أنيقة..

وقال درويش:

ـ هل تعلم أنني كنت متهماً معك في المؤامرة؟

وضحك عزيز وقال:

ـ إن هذا لا يدهشني.. لقد اكتشفت اليوم أن ثلاثة من سكان العمارة مشتركون في المؤامرة.. والآن أكتشف أنهم أربعة.. وربما يظهر غداً أن كل سكان العمارة مشتركون في المؤامرة وفي مقدمتهم عم ابراهيم البواب..

قال درويش:

ـ إن هذا غير معقول جداً. إنه حاصل الجمع الصحيح لعملية الطغيان والفساد والجهل.. طغيان زائد فساد زائد جهل تساوي الظلم.. ديمقراطية زائد نزاهة زائد علم تساوي العدل.. إن

علطتنا في علم الحساب السياسي أننا نشكو من النتائج، ولا نبحث عن الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج الطبيعية. إن الذي ينقصنا هو العلماء. إننا نحارب في القرن العشرين بعقلية القرن التاسع عشر. مع أنه المفروض أن نفكر بعقلية القرن الواحد والعشرين. إننا نخطىء عندما نقصر جهودنا على حل مشاكلنا الحاضرة. إن هذه مشاكل تافهة يحلها التافهون إننا يجب أن نفكر للغد وبعقلية الغد وبروح الغد. إن الاختراعات أصبحت تؤثر في السياسة. إن الذي خلق الولايات المتحدة هو اختراع السكة الحديد واختراع التلغراف. وقبل هذين الاختراعين لم يكن من الممكن إنشاء الولايات المتحدة، وبعد هذين الاختراعين كان لا بد من إنشاء الولايات المتحدة. واكتشاف الطاقة الذرية سيغير مركز مصر الدولي. لن تصبح للقواعد العسكرية في قناة السويس قيمة حربية. لن تصبح للأحلاف العسكرية قيمة. لن تبقى الأمبراطورية بعقل ما قبل الذرة. نطلب إزالة أشياء محتمة الزوال. نمضي وقتنا في هدم خرائب محكوم عليها بالفناء. وطنية سنة ١٩٤٨ هي وطنية سنة ١٨٨٢، نفس الألفاظ، نفس الشعارات.. لم يتغير شيء فينا عن القرن الثامن عشر. حتى محطة إذاعتنا هي نفس شاعر الربابة الذي كان يمر على البيوت، نفس مدائحه وملقه وأكاذيبه تسمعها في محطة الإذاعة. دواوين الحكومة في بلادنا هي دوار العمدة، بكل مفاسده. حكامنا مشايخ خفراء يصفعون الأهالي على أقفيتهم. استبدلنا الأولياء بالزعماء والحكام.. ننسب لهم كرامات ليست لهم. نعتمد عليهم في شفاء مرضانا، وفي إطلاق سراح مسجونينا، وفي رفع الظلم عنا!

قال الصحافي درويش مخلص متابعاً.

ـ الذي ينقص البلاد العربية هي الحرية. الإنسان العربي نصف حر في بلد نصف حر، أو حر في بلد غير حر، أو غير حر في بلد غير حر.

المطلوب أن يكون حراً في بلد حر. . إن الذي له حق الحياة ليس له حق الحرية، والذي له حق الملكية ليس له حق الحرية، والذي له حق الحرية ليس له حق السعادة. إننا نعلن الأحكام العرفية في بلادنا لا لنحمي الشعب بل لنحمي الحاكم من الشعب. إننا نقيد الصحافة لا لتخفي أسرار البلد عن العدو، بل لتخفي أسرار الحاكم عن الأمة. إن شعوبنا تعيش في حالة طوارىء. نطفىء الأنوار لا لنخبىء طائراتنا عن أعدائنا، وإنما لنخبىء سرقات الملك والحكام عن أعين الناس. إننا لا نعتبر الحرية حقاً لنا دائماً بل عطفاً من الحاكم، نتسولها ونرضى بنصف الحرية ناسين أن نصف حرية معناه نصف ظلم ونصف طغيان ونصف استبداد ونصف فساد. في أوربا عندما يفرج عن متهم مظلوم يرفع قضيته على الحاكم ويطالبه بتعويض كبير. وفي مصر الملكية عندما يفرج عن مظلوم يذهب إلى القصر ويقيد اسمه في سجل التشريفات!

وقال عزيز علاء الدين:

ـ إننا نريد حاكماً يشنق كل المنافقين. . أولئك الذين يقولون «نعم» دائماً. . إن مستقبل مصر سيقرره الذين يقولون: «لا».

قال الأستاذ درويش:

ـ إننا إذا أعطينا أي حاكم سلطة شنق كل من يقول «نعم» فإننا بذلك نعطي الحاكم حق أن يشنق كل من يقول «لا». . نحن نريد صديقاً للشعب لا طاغية، حاكماً بلسان، لا قائداً بسوط. نريد أن يكون بيتاً لكل مصري لا سجناً لكل مصري. الحاكم ملجأه لا سجّانه. إن المشانق هي الأعلام التي ترفعها الدول المتخلفة. . إن المدافع لا يمكن أن تنسف الأفكار. . والرصاص لا يقتل الآراء!

وعاد الدكتور سعيد الشباسي يقول:

ـ أنتم لا تزالون مشغولين بأمور الأرض. . بعد سنوات قليلة ستصبح مصر كلها في حجم صقر. . إننا عندما نصل إلى الكواكب سنشعر أننا أقزام. . إن معلوماتي أن سكان الكواكب الأخرى متقدمين خمسة آلاف سنة عن سكان الكرة الأرضية. . تصوروا أنهم سينظرون إلينا كما ننظر إلى العراة عند خط الاستواء! إن واجبنا أن نفكر منذ الآن ماذا نفعل عندما نلتقي بهذه المخلوقات المتقدمة؟ يجب أن تبدأ مصر من الأول في البحث عن مكان لها في الصاروخ المتجه إلى الكواكب!

قال الأستاذ درويش محتجاً:

ـ إننا لا نجد مكاناً لنا في الأوتوبيس المتجه إلى ميدان الإسماعيلية. . لم نحل بعد مشكلة النقل يا دكتور سعيد، أنت تفكر في خجلنا عندما نقابل الذين نتخلف عنهم بمسافة خمسة آلاف سنة. . إننا الآن نفكر في خجلنا من الذين نتخلف عنهم بمائة سنة. . بالذين كنا نسبقهم فسبقونا، بالذين كنا أكثر منهم حرية فإذا بنا نحسدهم على حرياتهم. . إننا لا نجد لأنفسنا محلات في الترام ليوصلنا إلى مكاتبنا. . وأنت تحدثنا عن السفر إلى الكواكب نريد أن نسافر إلى الخارج بغير تأشيرة خروج. . وأنت تتكلم عن زيارات نقوم بها للفضاء!

وضحك الدكتور سعيد وهو يقول:

ـ لك حق. . إننا نصعد إلى فوق نبدو كأننا نتكلم لغة أجنبية. . يجب أن نهبط إلى تحت لنكون فصحاء وبلغاء!

وجاء خادم درويش يقول إن ست شريفة وصلت، فقام عزيز مستأذناً، وابتسم درويش وقال:

ـ إنني لم اقترح أن تجيء شريفة هانم إلى هنا. لأنني أعرف أن أجمل

ما في اللقاءات أن تتم بين الزوجين على انفراد. إن أحلى ما في رحلة الشوق محطة لقاء الزوجين على انفراد!

وابتسم عزيز وأسرع بخطواته إلى الباب، ورأى زوجته شريفة تنتظره أمام باب شقة درويش. إنها لم تستطع أن تصبر حتى يذهب إليها في شقتها. أسرعت إليه تحضنه وتقبله وهي تبكي. إن دموع المرأة هي أغلى نغمة في لحن سعادتها.

وكانت أشعة الشمس في ذلك الصباح الجميل تتلألأ في الردهة أمام الشقة. كانت تطل عليها من نافذة منور السلم وتشكل باقة من الزهور متعددة الألوان، وتطلعت شريفة إلى وجه عزيز، وهو بين ذراعيها، فوجدته كما هو لم يتغير، ولكنه يبدو أكثر نحافة من قلة الطعام في السجن، وأكثر بياضاً من قلة تعرضه للشمس داخل الزنزانة.

ورأت في عينيه بريقاً عرفته من زمان طويل، واختفى مع أصابعه العشرة ولكنه عاد إلى العينين اللتين تحبهما من جديد. وكان عزيز يشعر بالدفء بين ذراعي شريفة، كان مبهوراً بالنور والبراءة والسعادة تملأ وجهها الجميل.. كان ثملاً بقبلاتها. كان مسحوراً بضماتها. وكانا صامتين. إننا أحياناً نصمت لنترك الحب يتكلم. إننا نحس بأن أنفاسنا أبلغ من كلماتنا. إن ضماتنا من معانينا. كأن الزوجين كانا يحلمان بأمر واحد. بسر واحد يخفيانه عن شفاههما وآذانهما.

وفي خلال هذا الحلم نسي عزيز الاتهامات التي كانت تلسع قلبه منذ ساعة واحدة. ونسيت شريفة ليالي وحدتها المريرة، القلقة، التعسة، نسيت الصراع الذي حدث بينها وبين سعدون باشا. كانت فخورة بأنها استردت زوجها دون أن تدفع شرفها ثمناً لحريته. كانت تشعر أنها أقوى من جيوش أعدائها. إنها حاربت وحدها في المعركة

وانتصرت. وقبلات زوجها هي إكليل النصر على شفتيها. ترى هل تخبره بما فعلت من أجله، أم تكتم عنه كيف أقامت الدنيا وأقعدتها لأجل إطلاق سراحه؟ هل يسعده أن يعرف أنها هي التي فتحت له باب الزنزانة بيدها. كان من السهل أن تفتح الباب بجسدها. ولكنها فضلت الطريق الصعب.. فضلت أن تدق أبواب الصحافة، تدق أبواب البرلمان!

ثم فجأة توقف الزوجان عن العناق والقبلات، واحمر وجهاهما في خجل. فقد سمعا صوت المصعد، وتذكرا أنهما يتعانقان ويتبادلان القبلات أمام درجات السلم، وأن السكان الصاعدين والهابطين يتفرجون عليهما دون أن يحسا بهما، فإنهما لم يستطيعا الانتظار حتى يصلا إلى داخل شقتهما.

وقال عزيز وهو يضحك:

ـ لقد أنستني قبلاتك أن لنا شقة يمكن أن ننفرد فيها!

قالت شريفة وهي تعدل شعرها وثوبها وتبتسم:

ـ أنا لا يهمني أين أعانقك، على السلم، في الشارع، أمام الدنيا كلها، إنني أريد أن تعرف الدنيا كلها إنني أحبك!

ودخلا الشقة وأغلقت شريفة الباب.

□□□

عندما رأى الأستاذ صبحي خالد زوجته إحسان في ثوب طويل يغطي قدميها وكفيها، ورآها تحيط وجهها بطرحة بيضاء تراجع إلى الوراء في ذعر وقال:

ـ هل أنت قادمة من تأدية فريضة الحج؟

قالت وهي تضحك :

ـ كلا . . إن التغيير الذي كنت أتمناه قد حدث!

قال صبحي وهو لا يصدق عينيه :

ـ لا بد أنك عرفت أحد مشايخ الأزهر.

قالت له :

ـ عرفت الله . . من العجيب أنني لم أرَ الله وأنا معك فكان لا بد أن تسجن لكي أرى الله . . أتعرف من الذي فتح باب الزنزانة؟

ـ طبعاً أعرف . . إنه الشاويش فتيحة! .

قالت :

ـ كلا . . إنها السيدة زينب!

قال صبحي ضاحكاً :

ـ السيدة زينب النحاس؟! إن زوجة النحاس باشا ليس لها أي نفوذ في سجن الاستئناف!

قالت إحسان :

ـ إنها السيدة زينب حفيدة رسول الله . إنني ذهبت إليها أمس ودعوت السيدة الطاهرة أن تفتح باب زنزانتك وجاءتني في الحلم، وقالت لي : اطمئني يا إحسان، سأفتح باب الزنزانة، وحققت وعدها قبل أربع وعشرين ساعة . يجب أن تذهب معي الآن إلى مقام السيدة لنقرأ الفاتحة، ونشكرها، ونوزع جنيهاً على الفقراء والمساكين .

وعاد صبحي ينظر إلى زوجته بدهشة . إن تغييراً طرأ عليها . لم تعد

المرأة الساخطة التي كان يعرفها . إنها أول مرة منذ زواجهما يسمعها تتحدث عن الله . كانت تتحدث عن سيارة تتمنى أن تشتريها . عن فساتين تتمنى اقتناءها . عن تبرمها بمرتبه الذي لا يكفي آمالها وأحلامها . عن أصحاب الملايين الذين كانت تتمنى أن تتزوج واحداً منهم . عن سوء حظها أنها ولدت في بيت صغير بشبرا، ولم تولد في قصر بالزمالك، عن أمنيتها في أن ترى المليونير فورد . أن ترى المليونير روكفلر . أن ترى عبود باشا أغنى رجل في مصر . كانت تعتقد أن واحداً من هؤلاء الثلاثة هو الذي يستطيع أن يحل جميع مشاكلها .

ولكنها لم تتحدث عن الله أبداً . لم تطلب منه شيئاً . لم تنتظر أي شيء . . هل الله لا يدق إلا أبواب الذين تخلت عنهم الدنيا؟ ولكن لماذا لم يفكر صبحي في الله وهو في زنزانته، إنه فكر في عزرائيل فقط، فكر في صفحة الوفيات .

وتذكر صفحة الوفيات وسأل زوجته إحسان في لهفة :

ـ هل احتفظت لي بصفحات الوفيات في الجرائد التي صدرت أثناء غيابي؟

وابتسمت إحسان وأشارت إلى كومة من الصحف، فأسرع صبحي يقلب صفحات الوفيات، ليعرف السر في القبض عليه ووضعه في السجن ظلماً وعدواناً!

ولم يجد صبحي في أنباء الوفيات الإجابة على سؤاله لأنه عندما تموت الحرية لا تنشر الصحف نعياً لها، إن أول ما يفعله قاتل الحرية أن يمنع تشييع جنازتها، ويمنع نشر الاحتفال بالذكرى السنوية على وفاتها . إنه يتصور أن الناس لا تعرف أنها ماتت إذا لم يقرأوا نبأ وفاتها في الصحف، ناسياً أنه عندما تموت الحرية يشعر كل إنسان أن جزءاً منه يموت . وليس

في حاجة إلى أن يعرف هذه الحقيقة من قراءة النبأ في صفحة الوفيات!

□□□

فوجىء الطالب شامل شفيق عند دخوله الشقة بأبيه اللواء المتقاعد حسن باشا شفيق. وما كاد والده يراه حتى زمجر ولعن، وسب وتوعد، وأرغى وأزبد، وهاج وماج.

كان شامل طوال الأسابيع الثلاثة التي أمضاها في زنزانته بسجن الاستئناف يدعو الله أن يستدعيه النائب العام للتحقيق، حتى يتبين براءته، وكان يعجب أن النائب العام يترك بريئاً طوال هذه المدة دون أن يوجه إليه تهمة، أو يحقق معه، وكان يسميه «النائم العام».. لأنه ينام في مكتبه والعدالة تداس بالأقدام على بعد خطوات منه. فقد كان بين مكتب النائب العام وسجن الاستئناف عشرة أمتار!

وفوجىء شامل بأبيه يقوم بدور النائب العام يسأله وهو حانق أن يفسر له أسباب سجنه.. وعندما قال شامل أنه لا يعرف، قال حسن باشا في إصرار إنه كاذب، وإنه من غير المعقول أن لا يعرف مسجون بقي في السجن ٢١ يوماً لماذا سجنوه.

وقال الباشا والغضب يمزق صدره بأنه سأل في وزارة الداخلية عن سبب سجن ابنه فقالوا له إنه متهم بجريمة خطيرة، وإنهم لا يستطيعون أن يقولوا عنها أي شيء في الوقت الحاضر. والباشا في ثورة يريد أن يعرف من ابنه ما هي الجريمة الخطيرة التي ارتكبها. إنه يعتقد أن لا دخان بلا نار. لا يمكن أن يسجن بريء.. لا بد أن هناك شبهات.. لا بد أنك تتردد على أماكن يجتمع فيها بعض الخطرين. لا بد أنك تتصل في الكلية بطلبة مشاغبين.. لا بد أنك فعلت شيئاً يخالف القانون.

وعبثاً حاول شامل أن يقول لأبيه إنه لم يفعل شيئاً، ولم يرتكب

جريمة، ولم يشتغل بالسياسة. وصاح اللواء حسن شفيق باشا وكأنه يصدر أمراً في ميدان القتال:

ـ لن تخرج من البيت بعد الآن.. من البيت إلى الكلية ومن الكلية إلى البيت.. مفهوم؟!

وتركه أبوه وخرج من البيت!

وتأمل شامل جدران بيته فشعر كأنه عاد إلى زنزانته في سجن الاستئناف من جديد. وانقبض صدره. وامتلأت نفسه بمشاعر الأسى والحزن. كيف يبقى في البيت؟ كيف لا يرى كاميليا؟ كيف لا يخرج مع فوزية؟ إنه يفضل أن يعود إلى السجن من جديد. وأحس أن والده هو الشاويش فتيحة الذي يغلق عليه باب الزنزانة.

وأسرع إلى التليفون وطلب كاميليا. إنه بدونها ستصبح روحه فارغة، وحياته تافهة، وأيامه كالجحيم. وسمع صوتها في التليفون، وما كادت تعرف إنه شامل حتى تحول صوتها إلى أنغام شائقة تناديه وتدعوه، كان رنين صوتها الساحر يتحول إلى صور. لقد قرأ أنه ممكن نقل الصور عبر البحار بذبذبات الصوت. فتتحول الذبذبات إلى رسوم وخطوط وأشكال وظلال. إن هذا ما أحس به شامل وهو يسمع صوت كاميليا. رأى في صوتها ساقيها العاريتين، فخذها الناصع البياض، عينيها المليئتين بالدفء اللذيذ، شعرها الأسود الفاحم، لحمها الذي كان في لون الخوخ، صدرها الناهد، خصرها الذي طالما لفه بذراعه، شفتيها الظامئتين الملتهبتين..

كل هذه الصور رآها في أنغام صوتها. عندما قالت له: تعال فوراً إلى بيتي.. قال على الفور إنه سيكون عندها بعد عشر دقائق.

ونسي شامل الأمر العسكري الذي أصدره والده بعدم مغادرة البيت، ونسي أن ينتظر حتى يعود شقيقه عمر شفيق من كلية الزراعة، ونسي شوقه إلى لقاء جارته فوزية.

وأسرع إلى المصعد، ثم استبطأ المصعد، فراح يقفز درجات السلم ثلاثاً في ثلاث. وعند مدخل العمارة رأى فوزية داخلة من باب العمارة، وما كادت تراه حتى تهلل وجهها ومدت إليه يدها، فصافحها وهو يعدو.

وسألته في توسل: إلى اين أنت ذاهب يا شامل؟

قال دون أن يتوقف:

- إنني ذاهب إلى النائب العام.. سأتصل بك بعد أن أنتهي من مقابلة النائب العام!

وقالت فوزية في استسلام:

- سأنتظرك!

ولكنه لم يسمع ردها، فقد خرج إلى الشارع يبحث عن تاكسي يحمله بسرعة إلى ميدان عبد المنعم حيث تسكن كاميليا كامل.

ووقفت أمام العمارة التي تسكنها كاميليا سيارة أجرة، وهبط منها شامل، واتجه بسرعة إلى الدرج الرخامي الكبير، وصعد درجاته، واتجه إلى المصعد، وصعد به إلى الدور الرابع حيث تسكن.

وأدخلته الخادمة إلى غرفة نوم كاميليا!

ورآها تنتظره في فراشها، وقد ارتدت قميص نومها الشفاف،

ونظرات الشوق في عينيها، وشعرها الأسود يلمع وكأنه يناديه أن يجذبه بأصابعه، ولم يحس بنفسه إلا وهو بين ذراعيها، وقد أغمضت عينيها، وكأنها أغمضت شفتيها مع عينيها، فإن شفتيها راحتا تتحسسان كل مكان في وجهه حتى استقرتا في شفتيه. كانت تضمه في وله، كأنه حبيبها وزوجها وابنها وعشيقها في وقت واحد!

ثم قالت له:

- هل تعرف لماذا اعتقلوك!

قال شامل:

- لا... كانوا في الماضي يقولون إن الزوج هو آخر من يعلم، ويبدو أنهم قد غيّروا المثل اليوم، فصاروا يقولون إن المتهم هو آخر من يعلم!

قالت وهي تضحك:

- ولكني أعرف!

- قال شامل:

- هل تعرفين جريمتي؟!

قالت وهي تهز رأسها دلالة أنها تعرف كل شيء:

- أنا جريمتك!

وتأمل شامل قدها الممشوق، وقوامها البديع، وخصرها النحيل، وشعرها المسترسل، وعينيها المليئتين بالسحر وفمها الذي لا يزال عليه بقية من رضابه، وقال:

- إذا كانت هذه هي جريمتي.. فهي ألذ جريمة في العالم!

قالت كاميليا:

ـ إن أحد أصحاب النفوذ في الدولة يحبني.. وقد أراد أن يبعدني عنك، فلم يجد طريقة إلا أن يضعك في السجن.. تصور أنه بهذه الطريقة يجعلني أنساك، ويجعلك تخشى الاقتراب مني. إنني لا أريد أن أكون سبباً في إثارة المتاعب لك.. إنني مستعدة أن أقاوم الدنيا كلها لأحتفظ بك إذا أردت أن تبقى معي.. ولكنني في الوقت نفسه مستعدة أن أدوس قلبي بقدمي، إذا كان في قطع علاقتي بك تأميناً لحريتك.. مستعدة أن لا أراك بعد اليوم.

ومرر شامل أصابعه على ذراعها البضة، فأحست كأن أصابعه تلهب جسدها. وتوقفت عن الحديث. فقد أسكتت هذه الحركة صوت قلبها وانطلقت صوت جسدها. وأحست بأن ناراً اشتعلت في شفتيها، وفي ذراعيها، وفي صدرها، وفي عنقها، وفي كل جزء من أجزاء جسمها.

وأحست بأنه أجاب بأصابعه على تساؤلها. إنه سيبقى إلى جوارها وليكن ما يكون. إن أروع لحظات الحب هي لحظات تضحيات المحبين. إن التضحية فيها نشوة ولذة. إنها تسكر العشاق أكثر مما تسكرهم القبلات. إنها تقربهم أكثر مما يقربهم العناق. إنها ترفعهم فوق مستوى البشر، فيتحول الواقع المؤلم إلى حلم جميل..

لقد قصت كاميليا على شامل وهو بين ذراعيها قصة سعدون باشا. كيف علم بأنها تخرج مع شامل. كيف أعطاها سيارة من سيارات الشهداء. كيف غمرها بالهدايا. كيف حاول أن يجعلها تمتنع عن مقابلته. وكيف صمدت لكل هذه الاغراءات والتهديدات.

وطالما أن شامل كان بين ذراعي كاميليا فإنه يسخر من التهديدات، ويهزأ بالوعيد. كان يقول إنه أصبح مجرماً معتاد الإجرام. لن يخاف السجن. إنه يحب كاميليا ولتفعل بنا القوة ما تشاء..

ولكنه بعد أن تركها وعاد إلى بيته شرد بصره في وجوم. لزم الصمت. أحس بأن الطريق الذي تصور أنه مفروش بالورود، مفروش بالأشواك.. مفروش بالزنزانات.. مفروش بالقبض والاغتيال.. أحس بأنه لم يدخل قصة حب، وإنما دخل ميدان حرب. خصمه فيها ليس رجل واحد، وإنما جيش بأسلحته وفرقه وطياراته ودباباته وبوارجه وأساطيله!

وشعر بشيء من الرعب. هل يستطيع وحده أن يقاوم سعدون باشا؟ إن عقله يقول له إنه لا يستطيع. ولكن شبابه يؤكد له إنه يستطيع. عقله يقول له إنه لا فائدة من المقاومة. وشبابه يقول يجب أن يقبل التحدي. يجب أن يصمد في المعركة. إنها معركة بين شاب وشيخ. بين طالب وقائد. بين من لا يملك أي شيء مع من يمتلك كل شيء. إنه انتصر حتى الآن في جولته الأولى. انتزع كاميليا من صاحب النفوذ والسلطان. انتزعها بشبابه، ولا يجوز أن يكافئها على صمودها بأن يتخلى عنها.

إن الموقف النبيل الذي تقفه كاميليا يرفع روحه المعنوية. إذا كانت المرأة صمدت فكيف لا يصمد الرجل! إذا كانت الممثلة غير المتعلمة قاومت طغيان سعدون باشا، فكيف لا يستطيع وهو طالب في الجامعة أن يقاوم هذا الطغيان؟.

ولكن، هل يستطيع شامل أن يقاوم وحده هذا الطغيان؟ ما أدراه أن البلد مليئة بشبان مثله، مهددين مثله، مشاعرهم تصرخ بين جوانبهم، يئنون بجروح الظالمين كما يئن هو من الظالمين، أبرياء وضعوا في السجون لينفرد الذئاب بزوجاتهم أو بناتهم أو أخواتهم؟!

لماذا لا يجتمع هؤلاء جميعاً ليحاربوا معركة واحدة؟ لماذا لا يبدأ

بجيرانه الذين كانوا معه في سجن الاستئناف؟. ربما يكون في حياة كل واحد منهم كاميليا.. ربما كل واحد منهم له عدو اسمه سعدون باشا!

- ١٦ -

فشلت جهود سعدون باشا وفوزي بك صلاح الدين في العثور على القنبلة الذرية!

أعلنا حالة الطوارىء في الإدارات التي يشرفان عليها. خرج رجالهما يبحثون في كل مكان عن القنبلة الذرية التي اختفت فجأة. لم تستطع أجهزتها النشيطة، ولا جهودهما الضخمة أن تكتشف المكان الذي اختبأت فيه.

كان الأمير عادل عمرو يتعقبهما صباح مساء. يوقظهما من النوم بعد منتصف الليل. يسأل في لهفة عن القنبلة الذرية. أين ذهبت القنبلة الذرية؟ لماذا لم تعثرا حتى الآن على القنبلة الذرية؟

وكانت شلة الأمير عادل تطلق على الراقصة ببا فهمي اسم «القنبلة الذرية». لكن كثرة إلحاح الأمير ومطاردته وملاحقته بالسؤال عن القنبلة الذرية جعل فوزي وسعدون باشا يعتقدان أن قنبلة ذرية حقيقية سرقت من مخازن الدولة. وأنه يجب أن تنصرف جهود الدولة بكل ما فيها من شرطة ومباحث ومخابرات وأجهزة للبحث عن القنبلة الذرية المسروقة.

ومن أجل هذه القنبلة الذرية المسروقة توقفت اجتماعات هامة في مكتب سعدون باشا وتعطلت مصالح خطيرة في الإدارات التي يشرف عليها عباس بك الشمردلي، وبقيت ملفات كثيرة جالسة على مكتب

فوزي بك، وقد وضعت يدها على خدها، تنتظر العثور على القنبلة الذرية!

إن فوزي بك راقب بواسطة رجاله جميع شقق عشّاق ببا القدامى. راقب بيوت أقاربها. راقب بيوت زميلاتها من الراقصات والفنانات. وضع تليفون بيتها في العجوزة تحت مراقبة مستمرة، لأنه كان واثقاً أن ببا ستتصل بأمها ست زليخا تطمئنها أين هي. ولكن الأحاديث التليفونية التي ضبطت خيّبت ظنونه. لأن كلها كانت تؤكد بأن ست زليخا كانت تلطم وجهها في كل حديث تليفوني لأنها لا تعرف أين اختفت ابنتها، وأنها تخشى أن تكون ببا انتحرت، وتستنزل لعنات السماء على الذين كانوا سبب ما جرى لابنتها الحبيبة.

وراقب فوزي بك الموانىء والمطارات حتى لا تغادر ببا المملكة سراً، ولكن التقارير جزمت بأنها لم تغادر الأراضي المصرية.

لقد عرف فوزي بك بعد جهود جبارة، وتحريات واسعة، أن الراقصة ببا عندما هربت من الأمير في بيت الهرم، مشت على قدميها تغوص في الرمال، حتى وصلت إلى الطريق الصحراوي، وهناك استوقفت سيارة أجرة حملتها إلى مكتب الأستاذ سامي كاتب السيناريو. وأنها أمضت ليلتين في هذا المكتب. وعندما ذهب الصاغ عبد الله شوقي وفتش مكتب سامي لم يجد ببا، وعلم منه أنها نامت في غرفة نومه، بينما أمضى الليل جالساً في مكتبه، وأنها قالت له إنها ذاهبة إلى شقتها في العجوزة. وفهم فوزي بك من هذا بأن سامي لا يعرف شيئاً عن علاقة ببا بالأمير.

ولكن عندما طال اختفاء ببا أوفد فوزي بك مساعده الصاغ عبدالله شوقي ليحاول أن يعصر سامي ويحصل منه على معلومات عن مكان

اختفائها. وقام الصاغ بضرب سامي، فقال إنه مستعد أن يكتب اعترافاً مفصلاً بقصة هروب ببا، ولكنه يطلب أن يعرف من الضابط اسم المتهم الذي يؤلف حوله اسمه، ولما كان الصاغ عبد الله يذكر اعترافات سامي السابقة التي أدت إلى الإفراج عن المتهمين في المؤامرة الكبرى، فقد اكتفى بأن ضرب سامي مرة أخرى وتركه في زنزانته بسجن الاستئناف..

ولكن جهود فوزي بك لم تصل إلى نتيجة. إنها لم تذهب الى شقتها في العجوزة. إنها اختفت. كأن الأرض انشقت وابتلعتها. إنها لم تترك بصمات ولا آثار أقدام يمكن تتبعها. لقد انقطع الخيط الذي يمكن أن يرشد اليها. ولكن فوزي بك كان واثقاً أن ببا ستظهر في يوم قريب.. وإن الله مع الصابرين إذا صبروا، وإذا لجوا كفروا!

أما الأمير عادل فلم يكن يستطيع صبراً، كان يبكي كالأطفال، لم يعد يستطيع أن ينام. الأرق حطم أعصابه. القلق هدّ صحته. إنه أصبح يميل إلى تصديق مخاوف ست زليخا بأن ببا انتحرت. إنه هو القاتل. هو الذي تركها تهرب من يديه. هو الذي لم يسارع إلى استرضائها. هو الذي نام في ليلة عيد ميلاده وتركها ساهرة تبكي وتفكر وتقرر أنها لم تعد قادرة على الحياة عشيقة في الظلام. وهو يطلب إرسال فرقة من الضفادع البشرية تغوص في قاع النيل للبحث عن جثة ببا.

ويحاول فوزي بك أن يقنعه أن تكليف فرقة من الضفادع البشرية بهذه المهمة سوف يثير فضيحة. ويرتعب الأمير من الفضيحة فلا يلح في الاقتراح. ويؤكد له فوزي بك أنه لو كانت ببا قد انتحرت في النيل يوم اختفائها من بيت الهرم منذ ثلاثة أسابيع، فإن جثتها كان لا بد أن تطفو من وقت طويل. أما وأن الجثة لم تظهر فإن معنى هذا أن ببا لم تنتحر..

ويطمئن الأمير، ثم يعود ويلح من جديد في إرسال فرقة من الضفادع البشرية!

أما سعدون باشا فكان يقول للأمير إنه يعتقد أن عصابة إرهابية هي التي خطفت الراقصة ببا. وإنه يؤكد أن الصاغ عزيز علاءالدين زوج شريفة وشامل شفيق الطالب بكلية الزراعة وصديق عشيقته الممثلة كاميليا كامل، على علاقة وثيقة بهذه العصابة الإرهابية الخطيرة، وهو يصرّ على وجوب القبض عليها من جديد.

ويتهم رئيس الوزراء بأنه المسؤول عن عدم العثور على القنبلة الذرية، لأنه بتسرعه وإصراره على الإفراج عن زوج شريفة وصديق كاميليا، أدى إلى ضياع الخيط الوحيد الذي يؤدي للعثور على القنبلة الذرية الشهيرة باسم ببا فهمي..

فمنذ أن فشل سعدون باشا في أن يجعل شريفة عشيقته، ومنذ أن امتنعت كاميليا كامل عن الحضور إلى الجرسونييرة احتجاجاً منها على القبض على صديقها شامل شفيق، أصبح سعدون باشا يعتقد أن مصيبته هي المسؤولة عن كل المصائب التي حدثت في البلاد والتي سوف تحدث في البلاد!

فإذا أصبحت شريفة عشيقته، وإذا ترددت كاميليا من جديد على الجرسونييرة انتصرنا في الحرب، وعثرنا على القنبلة الذرية الضائعة، وأصبح في البلد حكومة ونظام وحرية واستقلال ورخاء!

إن سعدون باشا يمثل طبقة الباشوات القواد. إنها طبقة قائمة بذاتها. لها عقليتها وتفكيرها. لها تقاليدها وأخلاقياتها، إن من أبرز صفاتها الأنانية، فإذا كان سعدون باشا حراً يفعل ما يشاء، ويعتدي على القوانين كما يريد، ويقبض على كل من يقف في طريق شهواته،

فإن معنى ذلك أن الشعب حر، وإذا أكل سعدون باشا فإن الشعب قد أكل، وإذا تمتع سعدون باشا فإن الشعب قد تمتع، وإذا أبت شريفة أن تفرط في شرفها ليفرج عن زوجها فالشعب مغفل لأنه لا يعرف مصلحته، وإذا خانته عشيقته كاميليا مع الطالب شامل شفيق فإن هذا الشعب خائن لا ذمة له ولا ضمير

إن أنانية هذه الطبقة التي يمثلها سعدون باشا تجعلهم يتصورون أنهم مصر. وهكذا أصبحت مصر ضيفتهم، يبيعون فيها ويشترون، يحكمون ويتحكمون، ومن خرج عليهم فقد خرج على مصر، ومن وقف في طريق شهواتهم واستبدادهم فهو ثائر على مصر.

إن مصر تضاءلت فيهم، وانحصرت فيهم. إنهم أوصياء عليها لأنها قاصر، إنهم مرشدوها لأنها جاهلة، إنهم رقباء عليها لأنها لا تعرف مصلحتها. إنهم يضربونها بالسياط لأنهم يؤدبونها، إنهم يقيّدونها داخل الجبس، خشية أن تتحرك فتصاب بالزكام!

إنها طبقة جاهلة ولكنها تؤمن بأنها أعلم من العلماء. تتصور أنها خبيرة بكل شيء، قادرة على كل شيء، عالمة بكل شيء. ولكنها في زمن الحرب تشتغل بالسياسة، وفي عصر السياسة تتحدث عن الحرب. إنها تحلم بانتصارات على الورق، وتحارب معارك على الخرائط. تهوّل في قوتها. وتهوّن من قوة أعدائها. الغرور يعميها فلا تسمع إلا ما يرضيها. لا تنصت إلا للمتزلفين، ولا تبصر إلا مصالحها الفورية. تستخدم القوة مع الذي لا يحمل سلاحاً وتتهاون وتدعو للسلام إذا اصطدمت بقوة أكبر منها. تهوى إصدار القرارات بدون تفكير، وتسخر من الذين يفكرون ويتدبرون قبل إصدار القرارات.. تعتبر الذين يقولون «نعم» مخلصين، موالين، ووطنيين أشراف، وتعتبر

الذين يقولون «لا» أو يناقشون قبل أن يقولوا «نعم»، متآمرين، هدّامين، وعملاء مأجورين تباح دماؤهم للمشانق، وتباح جثثهم للضباع!

ومن أجل هذا كان سعدون باشا يعتبر منعه من القبض على عزيز علاءالدين زوج شريفة حتى يستطيع أن ينفرد بها ويغتصبها خيانة وطنية، ويعتبر وضع العقبات في طريقه ليزج بالطالب شامل شفيق الذي أحبته عشيقته هو تواطؤ مع العدو لمنعه من رد العدوان على سيادة مصر. باعتبار أن سيادته هي سيادة مصر. ويعتبر أن هروب الراقصة ببا من الأمير عادل لا يقل خطورة عن هروب فرقة مسلحة والتجائها إلى صفوف الأعداء!

وكان فوزي بك صلاح الدين لا يقل حماسا عن سعدون باشا، ولكنه كان يخشى من غضب رئيس الوزراء إذا عرف بأنه أعاد القبض على الذين أمر بإطلاق سراحهم، وإن كان في قرارة قلبه يتمنى لو دبّر لهم مؤامرة أخرى، واعتقلهم جميعاً، وفي مقدمتهم صبحي خالد المفتش في ديوان المحاسبة حتى يقنع زوجته إحسان التي أعلنت توبتها، أن السيدة زينب لا تستطيع أن تحمي زوجها من السجن. ولكنه كان أكثر صبراً من سعدون باشا. يفضل أن يأكل عدوه، عندما يبرد في طبقه، حتى لا يلسع شفتيه وهو ساخن.. وإن كان يشعر بمرارة لأنه ظهر بمظهر العاجز أمام الأمير عادل عندما فشل في العثور على القنبلة الذرية!

ولكن القنبلة الذرية كانت أمام عيون فوزي بك وسعدون باشا، ولكنهما لم يرياها.. إن ببا خرجت من شقة الأستاذ سامي كاتب السيناريو، في الساعة الثامنة صباحاً، ثم ركبت سيارة أجرة، وذهبت

إلى عمارتها في العجوزة، وكان عم ابراهيم البواب في ذلك الوقت مشغولاً في غسيل درجات السلم فلم يرها وهي داخلة. وعندما ضغطت على زر المصعد تستدعيه من الأدوار العليا، وجدت خلفها المليونير صادق عبد العظيم تاجر الأقطان في الإسكندرية الذي يقيم في الدور السابع من العمارة، والذي طالما عاكسته ببا، وقررت أن تحتفظ به كاحتياطي في حالة انتهاء علاقتها مع الأمير عادل. وتقدم المليونير وفتح لها باب المصعد، فدخلت، ودخل وراءها، وأدهشها أنه يعود إلى بيته في الساعة الثامنة صباحاً فابتسمت وقالت له مداعبة:

ـ لا بد أنها ليلة حمراء.. جعلتك تعود الى البيت في هذه الساعة من الصباح...

ونفخ المليونير وقال:

ـ إنها لم تكن ليلة حمراء.. إنها كانت ليلة سوداء.. إني قادم بالسيارة من الإسكندرية لأحضر اجتماعاً لمجلس إدارة شركة الحرير في القاهرة.

ثم مد المليونير بصره وراح يدور به في صدر ببا وقوامها وساقيها..

وعندما وصل المصعد إلى الدور الرابع حيث تقيم ببا. قال لها المليونير:

ـ ما رأيك أن تجيئي عندي في الشقة وتتناولي الإفطار معي؟

وكانت ببا «جائعة» فرحبت بالفكرة، وأكملت الصعود إلى الطابق السابع حيث شقة المليونير، الذي راح البشر يرقص على وجهه، والرغبة تطل من عينيه كالشعاع.

وأخرج المليونير مفتاحاً من جيبه وفتح الباب، وما كادت ترى الصالة الواسعة، والأثاث الفاخر حتى بهتت، فقد كان الفرق شاسعاً بين شقتها، التي نسقها مسيو ليمان وتكلفت أكثر من عشرة آلاف جنيه وبين فخامة شقة المليونير. بدت شقتها وبيت الهرم الذي تصورته قصراً أشبه بكوخين حقيرين بجوار أناقة شقة المليونير وفخامتها.. وأحست بأن الأمير عادل خدعها. لقد تصورت أن شقتها هي أعظم شقة في مدينة القاهرة، وإذا بها تكتشف أن فوق شقتها بثلاث طوابق فقط قصراً باذخاً كالقصور التي تتفرج عليها ببا في أفلام السينما.

انبهرت الراقصة من مظاهر العز والبذخ والترف والثراء التي كانت تلمسها في كل خطوة تخطوها داخل شقة المليونير. لقد فتح المليونير شقتين من العمارة على بعضهما. وحوّل الصالتين والمدخلين في كل شقة إلى صالة واسعة فرشت بالسجاد الشيرازي الذي تغوص فيه الأقدام. ونثر في الصالة الضخمة عدة مقاعد وأرائك من الأوبيسون من طراز لويس الخامس عشر، ووضع على الجدران فترينات من الزجاج ضمت ألواناً وأشكالاً من التحف والتماثيل. ووقفت على رفوف الجدران أوان للزهور بشكل راقصات من الزجاج، راقصة تنحني وراقصة تنثني، وراقصة تهز وسطها، وراقصة تحرك رأسها. راقصة تحمل شمعدان على بطنها، وراقصة تحمل عصا في يدها. وقد غرست في بطن كل راقصة وردة أو زهرة أو بضع ورود تتعانق!

ورأت على الموائد مجموعة منافض للسجائر، كل منفضة تمثل بلداً زارها المليونير. فيها شخصية البلد أو صورتها أو أثر تاريخي فيها.

وأدخلها إلى غرفة خالية، ثم ضغط على زر في جدار الحائط فنزل فراش كبير للنوم. ثم ضغط على الزر، فعاد الفراش ودخل الجدار.

وضغط على زر فانفتح جدار آخر وخرجت مائدة طعام وحولها أربعة مقاعد، ثم ضغط على رابع فاختفت غرفة النوم في الجدار. ثم ضغط على زر فخرجت من جدار آخر أريكة، وضغط على زر سادس فاختفت الأريكة.

وتحولت الراقصة ببا إلى طفلة تضغط على الأزرار، وتهلل وتصفق بيديها كلما رأت الغرفة تتحول من غرفة نوم إلى غرفة مائدة، إلى غرفة جلوس، إلى غرفة ليس بها أثاث على الإطلاق.

ثم صحبها المليونير إلى روف يطل على النيل، وقد نسّق كأنه شاطىء سيدي بشر في الإسكندرية. واقترح عليها أن يتناولا طعام الإفطار في هذا المكان الشاعري الجميل. ورحبت ببا بأن تجلس في هذه السطوح التي نقلتها إلى شاطىء الاسكندرية كأنها في حلم من الأحلام.

وأمسك المليونير تليفوناً موضوعاً على مائدة في الروف وطلب من خادمه أن يعد طعام إفطار لاثنين!

وما كادت ببا تجلس في مقعدها على الروف حتى تذكرت شيئاً قد نسيته. إنها تفحصت الأثاث، وأمعنت النظر في السجاجيد، وحملقت في اللوحات الفنية، واهتمت بتفاصيل أشكال أواني الزهور بشكل الراقصات، وتمتعت في منافض السجائر الغريبة، ولمست بأصابعها الستائر الفاخرة، ولكنها لم تفحص وجه المليونير!

وراحت تتأمله فوجدته في الخمسين من عمره، فخماً مهيباً، طويل القامة، عريض الكتفين. فيه خيلاء تحبها لأنها لا تحب الرجل المتواضع. أسنانه تنفرج عن ابتسامة رجل صنع أحلامه وبدأ يعيشها. وأحست ببا بأن المليونير صادق عبد العظيم يعجبها. واحتارت.. هل يعجبها لأن هذه شقته. أم تعجبها الشقة لأن هذا صاحبها؟ ولكنها

وصلت إلى نتيجة بأن الشقة الفاخرة هي جزء لا يتجزأ من قده الممشوق، وشكله الفخم المهيب. إن ببا،بحكم تجربتها في الحياة، تعرف أن جمال الرجل ليس في قوامه فقط، ولا في لون عينيه فقط، ولا في أناقته فقط، فإن كثيرين من الرجال يخفون جاذبيتهم في محافظهم!

وأقبل الخادم سلامة يجر أمامه عربة مذهبة يضع عليها طعام الإفطار، ورأت في عيني سلامة ابتسامة لم تعجبها. ابتسامة تذكر أنها رأتها قبل ذلك ولا تذكر أين رأتها. وتقدم سلامة يضع أمامها طبقاً وشوكة وسكينة وملعقة وفنجاناً من الشاي. وبهتت وهي ترى كل هذا، لأنها كلها كانت من الذهب الخالص.. إنها أول مرة في حياتها تأكل في طبق من الذهب.

وتذكرت صديقها الأمير عادل. لا بد أنه هو الآخر في قصره يأكل في طبق من الذهب، ويمسك بسكين من الذهب وشوكة من الذهب.. فلماذا ضنّ عليها بمثل هذه الأطباق؟ هل هي رخيصة تأكل في أطباق من الخزف وتستعمل معالق وشوكاً وسكاكين من الفضة؟ وأحست ببا بأن المليونير صادق عبد العظيم يعجبها أكثر من الأمير عادل. صحيح أنها قالت للأمير في أول علاقتها به أنها لا تحب البذخ وتكره الإسراف، ولكن كان المفروض أن يعاملها الأمير كما يعامل زوجته الأميرة نانوسة.. أن يجعلها هي الأخرى تأكل في طبق من الذهب!

ووجدت ببا نفسها تقول للمليونير صادق عبد العظيم وكأنها وجدت الواحة التي تهرب إليها:

ـ لقد هربت من بيتنا لمدة يومين.. ولكني أفكر الآن في أن أطيل مدة الهرب!

وغطت صدرها العاري، بجزء من ثوبها، وكأنها تغلق ثغرة في

قلعتها، كان المليونير يقتحمها بعينيه. . ولكنها، وهي تغلق هذه الثغرة الضيقة، فتحت ثغرة أكبر يدخلها المليونير بقدميه! وفهم المليونير ما تقصد فقال:

ـ أهلاً وسهلاً. . إن الشقة وصاحبها تحت أمرك

قالت ضاحكة:

ـ هل عزومة مراكبية. . أم دعوةٌ حقيقية؟

قال المليونير:

ـ دعوة حقيقية. . إنني أستعمل هذه الشقة وحدي. ويمكنك أن تبقي فيها كما تشائين. .

ورأت ببا في عينيه كأن عود الثقاب الذي في يدها أشعل البترول في جسده!

وأمسك يدها، فتركت يدها في يده، فرفع يدها وقبّلها. . ثم اقترب منها بعينين جائعتين وقبلها في شفتيها، فلم تمانع، ولم تعامله بطريقة الدلال التي عاملت بها الأمير عادل عندما عذبته عدة أيام حتى سمحت له بالقبلة الأولى.

ثم فوجئت بالمليونير يقول لها:

ـ بكم؟!

ولم تفهم ما يقصد المليونير، أو أنها فهمت وتجاهلت ما يعني، فابتسمت وقالت باسمة وهي تخفي دهشتها وانفعالها:

ـ تقصد أن تقول كم سأدفع لك أجراً عن الليلة الواحدة؟

قال:

ـ لا. . أقصد كم ستكلفني الليلة الواحدة! إنني رجل عملي. . سر

نجاحي في الحياة أنني لا أقدم على صفقة قبل أن أعرف كم ستكلفني. . إن حياتي كلها قائمة على الحساب!

وحزّ في قلبها أنه يعاملها كأنها بضاعة، وأنه يحدثها بطريقة مكشوفة عن ثمنها، عن سعرها، عن أجرها. . إنه يعاملها كأي امرأة تاكسي. . يتصور أن فيها عداداً تظهر فيه تكاليف كل رحلة. .

وكانت تتمنى أن تصفعه على وجهه، وتترك الشقة، ولكنها كانت منجذبة في مقعدها الوثير، منجذبة إلى الشقة الفاخرة، وأحست في الوقت نفسه بأن ليس من حقها أن تلومه، لأنها هي الأخرى تنظر إليه كبضاعة!

فقالت وهي تضحك وترى عينيه تشتعلان رغبة:

ـ إنني ببا فهمي. . النجمة السينمائية. . يظهر أنك لم تعرف من أنا!

قال المليونير ببساطة:

ـ بالعكس! أعرف من أنت. . وأعرف أنك نجمة سينمائية كبيرة. . هل تمثلين في الأفلام مجاناً؟ طبعاً، لا. . أنت تتعاقدين على الفيلم قبل بداية التمثيل. . وتتفقين على أجر، أليس كذلك؟. لنعتبر علاقتنا فيلماً. . فما هو أجرك عن الفيلم؟. أنا لا آخذ شيئاً دون أن أدفع ثمنه. . إن الأيام علّمتني أن كل شيء نأخذه بالمجان ندفع فيه ثمناً أكبر ألف مرة من ثمنه الحقيقي!

قالت وهي تتأمل زوايا الروف وتماثيل النساء العاريات المصنوعة من المرمر:

ـ إن هذا يتوقف على طول الفيلم. . هل هو فيلم كوميدي؟

هل هو فيلم درام؟

إن لكل دور ثمناً مختلفاً!

قال وهو يتحدث بلهجة الخبير بعقد الصفقات:

ـ لنقل إنه فيلم كوميدي. . إنني لا أحب أفلام المأساة!

قالت وهي تضحك في مرارة:

ـ يبدو أنك رجل سوق. . إن الأدوار في أفلام الكوميديا أرخص من الأدوار في أفلام المأساة!

قال المليونير وهو يسكب من إبريق الشاي في فنجانها ويده ترتعش:

ـ إنني مستعد أن أدفع ثلاثمائة جنيه في هذا الفيلم!

قالت ببا وهي تساوم:

ـ يفتح الله. . إن أجري في الفيلم خمسمائة جنيه!

ثم قالت له ضاحكة:

ـ أنا لا أبيع ترمس. . أو فول سوداني. . أنا أبيع النجمة العظيمة ببا فهمي. . إن الفيلم يستغرق عادة ثلاثة أسابيع!

ومرر المليونير يده على شاربه وقال وهو ينظر إليها بعينين واسعتين:

ـ إذن، اتفقنا. .

وتصورت ببا أنه سيأخذها بين ذراعيه ويقبلها، ولكنه أمسك

بكعكة من شكل الآهلة، وغمسها في المربى، وراح يأكلها بشراهة.

وعندما تركها المليونير في الفراش، وغادر الشقة ليحضر اجتماع مجلس إدارة شركة الحرير، راحت ببا تنقل عينيها بين أسجاف المخمل التي تتدلى من نوافذ غرفة النوم، وتتأمل اللوحة المعلقة فوق الفراش لامرأة عارية، وتحملق في الثريا الثمينة التي تتدلى من سقف الغرفة وتدهش من تصرفها الغريب!

إن كلمة «بكم؟» أنستها حاضرها، وأعادتها خمسة عشر عاماً إلى الوراء. . نسيت فجأة أنها عشيقة أكبر أمير في الأسرة المالكة، أمير اختلفت معه منذ ثلاثة أيام لأنه لم يتزوجها ويجعلها أميرة. . نسيت أنها نجمة سينمائية وراقصة معروفة. . وجدت نفسها تساوم عبد العظيم، بنفس الطريقة التي كانت تساوم بها الزبائن في بيت مدام جورجيت!

لماذا فعلت هذا؟ إنها كانت قادرة أن تحصل على مبلغ الخمسمائة جنيه بل خمسة آلاف جنيه من الأمير عادل لو أنها عادت إليه، ولكنها وجدت نفسها تتصرف كغانية، ووجدت نفسها تشعر بسعادة غريبة وهي تحصل على هذا المبلغ، كما كانت تشعر بالسعادة عندما تحصل على مبلغ دون أن تقاسمها فيه مدام جورجيت. هل ملّت تمثيل دور الحب العظيم، دور الفنانة المثقفة. هل ملّت إلقاء الأدوار التي يكتبها لها الأستاذ سامي، والكلمات الشاعرية التي يتضمنها حواره، فأحست برغبة في أن تقوم بزيارة إلى ماضيها. . كما يشعر الإنسان برغبة في أن يطل على صديق صباه الذي لم يره منذ خمسة عشر عاماً!

أتكون كلمة «بكم» هذه جعلتها من حيث لا تشعر تعود إلى السوق. . إنها كانت بضاعة تفرش على الأرصفة، ثم أصبحت توضع

في واجهات المراقص. . ثم أصبحت موضوعة في خزينة أمير كبير؟.

ووجدت نفسها على الرصيف من جديد. . هل كلمة «بكم» هي التي فعلت بها هذا التغيير العجيب أم أن اسم الخادم سلامة ونظراته، أم منظر المليونير عبد العظيم الفخم المهيب، الطويل القامة، العريض الكتفين، المملوء بالخيلاء، أم أسنانه التي تنفرج عن ابتسامة لا يمكن أن تنساها، إن كل هذا يذكرها بماضيها. . إن كل هذا أعادها خمسة عشر عاماً إلى الوراء، فتصرفت مع عبد العظيم كما كانت تتصرف من زمان. . حتى وهي معه في الفراش لم تكن الأميرة ببا، ولا الراقصة ببا، ولا النجمة ببا. . إنها كانت هذه الفتاة التي تصورت أنها دفنتها إلى الأبد منذ ١٥ سنة!

ورأت أشعة الشمس تغرب كأنها حياتها!

وعادت إلى صباح مظلم في شبابها، إلى قاعة الجلسة في محكمة جنح عابدين، بناء قذر قديم، مقاعد من الخشب فوقها رجال ونساء لا تعرفهم، يتطلعون بفضول إلى قفص الاتهام حيث كانت تجلس شاردة خائفة. وسمعت حاجب الجلسة ينادي باسمها، فانكمشت في مقعدها وأخفت وجهها وراء فتاة جالسة إلى جوارها، وإذا بالحاجب العجوز يشير إليها أن تقف، ووقفت تترنح. ونظرت في وجه القاضي العجوز. إنه يشبه المليونير صادق عبدالعظيم شبهاً عجيباً. ونظرت إلى الشاب الطويل وكيل النيابة وقد انهمك في قراءة أوراق أمامه. ونظرت إلى كاتب الجلسة الذي كان يلقي عليها نظرة اشمئزاز. وراحت عيناها تبحثان بين الجالسين في المقاعد عن سلامة، الذي وعدها بأنه سيحضر الجلسة. وقال إنه صديق القاضي. وأكد أنه سيوكل عنها أكبر محام في البلد. ولم تجد سلامة. وسمعت وكيل

النيابة يقول بصوت خافت إنه يطلب تشديد العقوبة لأنها ضبطت في بيت للدعارة السرية عارية تماماً.

وسمعت طقطقة شفاه الجالسين في قاعة الجلسة، كأنهم جميعاً يلعنونها. . حتى أنه خيّل إليها أن خشب المقعد الذي كانت تجلس عليه يطقطق أيضاً. وسمعت ببا القاضي يقول: ألا يوجد محام عنها؟ ولم يقف أحد. وأشار القاضي إلى أحد المحامين وقال له: قل كلمتين. . ووقف المحامي وفتح فمه وأقفله، ولم تسمع ببا ما قال، ولم يسمع القاضي، ولم يسمع وكيل النيابة، ولم يدوّن كاتب الجلسة شيئاً.

ثم رأت ببا أسنان القاضي تنفرج عن ابتسامة، نفس ابتسامة المليونير صادق عبدالعظيم ويقول، ثلاثمائة قرش. . ولم تسمع ببا في أول الأمر الثلاثمائة قرش. . تصورت أن الحكم هو ثلاثمائة شهر سجن!

وبقيت واقفة كالمشدوهة. . ثلاثمائة شهر يعني ٢٥ سنة! يعني مؤبد! يعني أنها ستخرج من السجن وعمرها ٤٥ سنة! واستمرت واقفة إلى أن جذبتها من ثوبها المتهمة الجالسة بجوارها وقالت لها: مبروك. ثلاثمائة قرش غرامة. . على الجزمة!

وفرحت ببا أن الحكم هو ثلاثمائة قرش لا ثلاثمائة شهر. ولكنها أحست بالاكتئاب والحزن. إن كل ما في حقيبتها من الثلاثمائة قرش هي ثلاثة قروش. كل القروش التي كانت معها انفقتها أثناء وجودها في سجن النساء على ذمة التحقيق. وفي آخر الجلسة صحبها عسكري لتدفع الغرامة، ولما عرف أنها لا تملك الغرامة أعادها إلى السجن من جديد. واستطاعت أن تتصل بأمها بواسطة إحدى السجانات، فدفعت الغرامة وتمّ الإفراج عنها.

وخرجت من السجن. وخرجت من بيت مدام جورجيت.

وخرجت من حياة سلامة إلى الأبد. أسدلت ستاراً من النسيان على الماضي بكل ما فيه من ذل وخيبة وسحب وعار.

وعادت ببا تفكر في سلامة الإسكندراني. أول حب لها. كانت في الخامسة عشرة تسكن في شارع السد البراني. تعيش بلا مشكلة. كانت مشكلتها الوحيدة أن ليس لها مشكلة. ليس في حياتها حب يخفق له قلبها. ليست لها ذكريات تبكي عليها. ليست لها أحلام تفرح لها، لا تعرف الدموع والآلام. ولا تهتم بأفراح الناس وأحزان الناس.

ثم رآها سلامة وهي في طريقها إلى المدرسة، فتبعها، وغازلها، وسمعت كلاماً جميلاً لم تسمعه إلا من شفتيه، وأصبح لها قصة ترويها لزميلاتها في المدرسة، وأصبح لها سر تخفيه عن أمها.

وقال لها إنه سيأخذها إلى بيته لتراها أمه. وهناك لم ترَ أمه، وإنما رأت فراش النوم. وفقدت بين ذراعيه عذريتها. ووعدها أنه سيتزوجها. ثم صحبها مرة أخرى إلى نفس البيت. وعرفت أن اسم صاحبته هي مدام جورجيت. . ثم قدمها الى أحد الشبان وقال إنه صديقه. وتركها على انفراد وإذا بها تفاجأ بأن صديق سلامة يريد أن يغتصبها. وصرخت تستغيث. وإذا بسلامة يدخل ويصفعها على وجهها ويطلب إليها أن تفعل ما يريده صديقه. واستسلمت. .

ثم اكتشفت أن سلامة الاسكندراني لا يريد أن يتزوجها. وإنما هو يورّد الفتيات لمدام جورجيت. وأصبحت ببا تهرب من المدرسة استجابة لأوامر سلامة. إنها تصورت إنها، لكي تحتفظ به، يجب أن تفعل كل ما يطلب منها أن تفعله. ولكنه لم يكن عاشقاً وإنما كان سمساراً!

وكان حبه يزيد وينقص تبعاً لكثرة عدد زبائنها ونقصانهم. كان

يضربها إذا قالت إنها متعبة أو مريضة. كان يقاسمها كل مبلغ، ويقنعها بأنه يخشى أن تحمل نقوداً فتعرف أمها سرها. كان يقدمها إلى بعض الزبائن على أنها عذراء، وكان يخاصمها إذا اكتشف الزبون أنه ينصب عليهم ويبيع لهم بضاعة مستعملة على أنها بضاعة جديدة.

وعندما عرف أن والدها قبل أن يموت كان يعمل حاجباً في وزارة العدل أصبح يقدمها للزبائن على أنها ابنة وزير العدل. وكانت تضطر إلى تغيير اسمها كلما تغيرت الوزارة وتولى وزارة العدل وزير جديد!

وكان سلامة أستاذاً في النصب، افترض في كل زبون أنه مغفل، وكان قادراً باستمرار على أن يجد مغفلين يقعون في حبائله ويسقطون في شراكه، يدّعي أن كل الناس هم أعز أصدقائه، وأنه قادر دائماً على أن يؤلف قصة عن أحد الكبراء. إنه يؤكد أن كل الوزراء زبائنه، وكل أصحاب الملايين يعتمدون على خدماته في غرامياتهم. وهو لا يعرف واحداً منهم إلا من صورهم في الصحف. .

ولكنه يجد لذة في أن يلوث كل الناس لأن الذين يتاجرون في الزفت والقطران يتمنون لو غطّوا الدنيا كلها بالزفت والقطران!

وكلما كانت ببا تكشف كذبة لسلامة الإسكندراني، يسارع إلى تغطيتها بكذبة جديدة. ولكنها لم تغضب لكذبه كما غضبت عندما وعدها بأن يوكل عنها محامياً، وأن يحضر جلسة محاكمتها، ثم اختفى، ولم يظهر حتى لا يدفع الثلاثة جنيهات، الغرامة التي حكم بها عليها.

إن هذه الكذبة هي التي أيقظتها من غفلتها. هي التي جعلتها تصمم على أن تقطع علاقتها به. أن تمتنع عن العمل عند مدام جورجيت. أن تعتزل هذه المهنة الملعونة.

وعندما عرف سلامة بقرارها هددها بأن يبلغ أمها بحقيقتها، فما كان من ببا إلا أن أخبرت أمها بالحقيقة كلها. ولم تقتلها أمها كما توهمت، بل احتضنتها وأخذت تبكي، وتولت تعليمها الرقص، وصحبتها بنفسها إلى صالة بديعة لتطلب العمل في الصالة، وامتحنتها بديعة مصابني، وأعجبت برقصها وعيّنتها في الفرقة.

وبحث سلامة عنها، وجاء يغريها من جديد بأن تعود إلى مدام جورجيت فطردته، فهددها بأن يخبر بديعة مصابني بالحكم الذي صدر عليها، فتحدته أن يفعل ذلك.. وذهبت إلى بديعة وأخبرتها بتهديد سلامة الإسكندراني فأمرت بديعة بمنعه من دخول الصالة وهددته بأنه إذا اقترب من الصالة فستسلمه إلى البوليس.

وهكذا قطعت ببا بين حاضرها وماضيها. ونسيت سلامة الإسكندراني، نسيت عارها الأول ونسيت مدام جورجيت، ونسيت محكمة جنح عابدين، ونسيت كلمة «بكم؟».

إلى أن أعادها المليونير صادق عبد العظيم إلى هذا الماضي السحيق..

ولم تتضايق لأنها عادت إلى هدا الماضي. لقد وجدت في هذه العودة تجديداً لشبابها.. وجدت فيه تغييراً.. غيّرت الهواء.. هواء علاقتها بالأمير بهواء علاقتها بالمليونير!

إنها إجازة ثلاثة أسابيع من غرام الأمير.. بل هي في حقيقة الأمر جزء من علاقتها بالأمير.. إنها كلما ابتعدت عن الأمير اشتعلت النيران في قلبه وتعذر إطفاؤها. إنها لو اكتفت بالهروب يومين لما أحس الأمير بالحرمان والعذاب وألم الفراق. إن الذي تريده هو شيء كبير. تريد أن

تتزوج الأمير. فيجب أن يكون الثمن باهظاً. يجب أن يشعر الأمير بأنها جادة في اختفائها، وبأنها ليست مسرحية تقوم بها.

وهي تستطيع أن تستغل المليونير صادق عبد العظيم في تحقيق حلمها بزواج الأمير. إن المليونير المغفل يظن أن كل ما تريده منه هو مبلغ الخمسمائة جنيه. إنها تريد أن تجعل شقته هي المخبأ الذي تختفي فيه.. الذي لن يخطر ببال فوزي بك صلاح الدين أو سعدون باشا إنها تختفي فوق الجرسونييرة التي يترددان عليها باستمرار.

ثم هي تريد بعد ذلك أن تثير غيرة الأمير، أن تفهمه أن مليونيراً يريد أن يتزوجها.. وأنه وضع تحت تصرفها شقته الفاخرة.. وضع تحت قدميها ملايينه الطائلة. وعندما تثير غيرته سوف يصبح طوع يدها، سوف يسلم لها في طلباتها!

وابتسمت ببا وهي تتصور وجه الأمير عندما يعلم بأن صاحب ملايين يريد أن يتزوجها.. وعادت تفكر في كلمة «بكم؟» التي قالها صادق عبد العظيم.. وعادت تبتسم سخرية بهذا الاقتصادي البارع الذي تصور أنه اشتراها بخمسمائة جنيه.. بينما الواقع أنها هي التي اشترته.. اشترته بثمن أرخص كثيراً من الخمسمائة جنيه.. اشترته حتى عندما غيّرت مهنتها!

وشعرت ببا بوخزان في قلبها، وأمسكت بمرآة صغيرة بجوار الفراش ونظرت فيها فوجدت وجهها ذابلاً، وبريق عينيها قد خبا.. وأحست بالذعر وأسرعت تقفز من الفراش، وفتحت حقيبة يدها، وأخرجت إصبع الأحمر، وعلبة البودرة ووعاء الطلاء الأحمر ومكحلتها، وراحت تعيد الشباب والفتنة إلى وجهها.

واطمأنت إلى أنها لم تغير مهنتها كما توهمت. إنها لا تزال تبيع اللحم كما كانت تبيعه في بيت مدام جورجيت. كانت عند مدام جورجيت بائعة متجولة على الرصيف، أما الآن فهي صاحبة محل. صحيح أنها تبيع نفس الصنف من اللحم، ولكنها تبيعه في أطباق من الذهب، بعد أن كانت تبيعه في قراطيس من الورق. زبائنها أمير خطير وصاحب ملايين كبير، بعد أن كان زبائنها من أغنياء الحرب وكبار صغار الموظفين وسلامة الإسكندراني!

ولكن في حياتها الجديدة يوجد أشخاص مثل سلامة الاسكندراني.

إن فوزي بك صلاح الدين هو الذي قدمها للأمير عادل عمرو. وهو الذي أثنى عليها وبالغ في وصف محاسنها كما كان يفعل سلامة وهو يتحدث للزبائن عنها.

وعباس الشمردلي بك هو الذي يحضر الويسكي والطعام إلى بيت الهرم كما كان سلامة يجيء بزجاجة الويسكي وبالكباب لزبائنها في بيت مدام جورجيت.

وسعدون باشا يتملق عشيقها الأمير عادل، ويتزلف إليه، ويسارع إلى الضحك على كل نكتة سخيفة يقولها، ويبدي إعجابه بكل رأي تافه يبديه، تماماً كما كان يفعل سلامة الإسكندراني مع زبائنها.

إن سلامة الاسكندراني موجود في كل مكان بأسماء مختلفة، وبألقاب مختلفة وبرتب مختلفة.. ولكن الوظيفة واحدة والمهمة واحدة لا تتغير!

وأحست بها بحسرة. لقد كانت سعيدة طوال خمسة عشر عاماً لأنها تصورت أنها تلقت درساً وهي في قفص الاتهام جعلها تغير مهنتها وتطلقها بالثلاث، وتتوب عنها إلى آخر يوم في حياتها. ولكنها اكتشفت

بعد خمسة عشر عاماً أنها لا تزال في نفس المهنة التي تصورت أنها طلقتها. كل ما حدث أنها أبدلت اللافتة المكتوبة على محلها التجاري، تماماً كما يسمي الإسكافي نفسه «طبيب أحذية»!

كل ما حدث أن الأسعار ارتفعت.. ولكن كل أسعار السلع تتضاعف بعد الحرب.. الحذاء الذي كان ثمنه خمسين قرشاً أصبح خمسة جنيهات، وما حدث لها هو نفس ما حدث لسعر الحذاء، وسيجيء يوم يبلى الحذاء ويلقى به في الطريق ويستبدله صاحبه بحذاء جديد.

وأحست بقشعريرة.. وأسرعت إلى المرآة وكأنها تسألها: كم بقي من عمر الحذاء؟ واطمأنت أنه لا يزال في الحذاء بقية إذا داست به على السجاجيد الشيرازية والأبسطة الإيرانية وابتعدت به عن الطين.. طين سلامة الاسكندراني ومدام جورجيت.. إذن لديها وقت لتؤمن مستقبلها، لتتزوج الأمير، لتصبح صاحبة السمو، فإذا دقت الشيخوخة بابها كانت مستعدة للقائها باللقب وبوثيقة الزواج وبأموال الأمير!

وعاد المليونير صادق عبد العظيم من اجتماع مجلس إدارة شركة الحرير تعباً مرهقاً، وساعدته على خلع حذائه، وعلى ارتداء الروب، وراحت تداعبه وتسري عنه. ولكنها لاحظت أن المليونير لا يتحدث إلا بالأرقام.. ولا يقول لها: مرحبا، وإنما يقول «ألف» مرحبا.. ولا يقول لها شكراً، ولكنه يقول «ألف» شكر.. وإذا أراد أن يشيد بفتنة عينيها قال لها إن في عينيك جاذبية الورقة ذات المائة جنيه!

وهي تتصور كلما قبّلها في شفتيها كأنه يقوم بعملية طرح حسابية من مبلغ الخمسمائة جنيه قيمة الاتفاق!

وإذا تكلم عن رجل لا يثني عليه بالكلمات ولا يقدح فيه بالألفاظ، هذا رجل يساوي مائة ألف جنيه. وذاك رجل يساوي ثلاثة مليمات كأنه مجموعة من الأرقام. أو كأنه آلة حاسبة كالتي تراها ببا أمام فتاة الكيس في المحلات التجارية..

وأحست ببا بأن المال هو نقطة ضعفه. إنه يحب أن يمتلك المال ولكنه يكره أن ينفق المال، إلا إذا أنفقه على ما يمتلك. إنه مستعد أن ينفق مائة ألف جنيه على ديكور شقة يملكها، ولكنه غير مستعد أن يدفع قرشاً واحداً في شيء لا يمتلكه..

ورأت ببا أنها تستطيع أن تدخل إلى جيبه إذا استطاعت أن توهمه أنه يمتلكها.. إنها تريده أن يشعر أنها أصبحت كالشقة تماماً.. وأن كل مليم ينفقه عليها سيحتفظ به في جيبه..

وأخذت تتظاهر بأنها فاقدة الإرادة أمامه. لا تناقشه ولا تعارضه، توافق على كل كلمة يقولها، وتعجب بكل رأي يبديه.

وتحولت هي الأخرى إلى آلة حاسبة، فكانت تحدثه بلغته حتى يفهمها.. فتقول له إن أسهمه ارتفعت في بورصة قلبها، وهي تقصد أن تقول إنها بدأت تحبه.. وتقول له إنها تشعر وهي تعانقه كأنها تعانق مليون جنيه لتعبر عن الحرارة التي تشعر بها بين ذراعيه.. وتقول له أن كلامه مثل الذهب فيصاب بالخيلاء الذي يحس بها كاتب توصف كلماته بالبلاغة والفصاحة والفن الرفيع.. إنها أصبحت مثله لا تتحدث إلا بلغة العقود والكنتراتات!

وبعد أيام أحست ببا بأنها دخلت إلى قلب المليونير.. ولكنها لم تكن تريد أن تدخل القلب.. وإنما كان العنوان الذي تقصده هو الجيب.. جيب المليونير..

وبدأ صادق عبد العظيم يحدث ببا عن تجديد العقد.. وابتسمت ببا لأنها كانت تعرف أن العقد الأول على وشك الانتهاء، فقالت إنها تريد أن تلعب معه لعبة للتسلية.. فما رأيه ان يجربا أن يبقيا ٢٤ ساعة يتحدثان لغة الخرسان؟

إنهم يقولون إن الإشارة ممكن أن تحل محل الألسنة.. إننا نستطيع أن نعبر عن عواطفنا بأيدينا وبعيوننا.. ومن يخطىء مرة ويتكلم يدفع جنيهاً!

وأعجب المليونير صادق عبد العظيم باللعبة.. ومضى يلعبها مع ببا ولكن ببا بحكم خبرتها كممثلة كانت تستطيع أن تعبر بعينيها وأصابعها عما تريد. وكان صادق عبد العظيم يعجز عن أداء معانيه بعينيه وأصابعه..

واقترحت ببا عليه أن يكتب.. إن اللعبة تجعله حراً ليستعمل أصابعه كما يشاء.. والكتابة لا تحتاج إلى الشفاه.. وفرح المليونير بهذه الفنون التي ستوفر عليه دفع الجنيه.. وبدأ صادق عبد العظيم يلجأ إلى الكتابة حتى لا يضطر أن يدفع الجنيه.. الجنيه الذي لا يخرج من جيبه إلا كما تخرج قطعة من اللحم من جسمه!

وكتبت له ببا تقول:

- هل أنت مصمم على العقد؟

فكتب إليها يقول:

- نعم إنني مصمم على العقد يا حبيبتي!

وكتبت له تقول:

- ومتى تريد أن تكتب العقد؟

وكتب يقول:

ـ إنني مستعد أن أكتب العقد في أي وقت تشائين يا حبيبتي..

وتظاهرت ببا بأنها تمزق الورقة، ولكنها بدلاً من أن تمزقها أخفتها في صدرها ومزقت ورقة بيضاء.

ومضت في لعبتها.. لعبة الأربع وعشرين ساعة بلا كلام!

ولم يخسر المليونير صادق عبد العظيم جنيهاً واحداً في اللعبة المسلية..

ولكن ببا كسبت وثيقة.. وثيقة بخط المليونير يلح فيها عليها بأن يتم العقد!

إنها الوثيقة التي كانت على استعداد لأن تدفع فيها خمسمائة جنيه.. لا أن تأخذها ومعها خمسمائة جنيه!

وفي اليوم الثالث والعشرين من الهرب ظهرت الراقصة ببا في بيتها بالعجوزة.. هبطت من الطابق السابع إلى الطابق الرابع. واتصلت تليفونياً بفوزي بك صلاح الدين في مكتبه بوزارة الداخلية وقالت له:

ـ أرجو يا فوزي بك أن تكف عن البحث عني.. إنني موجودة الآن في شقتي بالعجوزة.

قال لها فوزي بك في لهفة:

ـ هل أخبرت الأمير عادل؟

قالت بلا مبالاة:

ـ أرجوك أن لا تخبره.. لأنني قررت الزواج!

قال فوزي بك!

ـ هل أنت مجنونة؟!

قالت:

ـ إنني لم أكن عاقلة كما أنا الآن..

ووضعت السماعة على آلة التليفون.. وأسرع فوزي بك يطلب الرقم السري للأمير عادل ويقول له:

ـ إلحق يا سمو الأمير.. عثرنا على القنبلة الذرية.. ولكننا اكتشفنا أن القنبلة الذرية تريد أن تتزوج رجلاً آخر!

صرخ الأمير عادل في التليفون.

ـ القنبلة الذرية تتزوج.. مستحيل.. كيف تسمح بهذا يا فوزي بك تحرك.. افعل شيئاً.. تصرف امنع هذا الزواج.. امنعه بالقوة.. كان سعدون باشا على حق عندما قال إن هناك مؤامرة كبرى!

ـ ١٧ ـ

لم يصدق فوزي بك صلاح الدين عندما قالت له الراقصة ببا بأن المليونير صادق عبد العظيم تاجر الأقطان المشهور في الإسكندرية خطفها من مصعد العمارة، وأدخلها بالقوة إلى شقته بالدور السابع، وسجنها في غرفة بشقته، وقال لها أنه يحبها ولا يستطيع أن يعيش بدونها، وإنه لم يعد يتحمل صدها ودلالها على الرغم من العروض المغرية التي عرضها عليها.. وإنه لن يفتح باب سجنها إلا إذا تعهدت بأن تتزوجه، وإنه مستعد أن يعطيها أسهماً بمائة ألف جنيه مهراً، وإنها

صمدت لإغرائه وتهديده. وكانت ترفض أن ترد على عروضه، فاضطر أن يعاملها بالكتابة لأنها أبت أن تكلمه احتجاجاً على خطفها وحبسها.

لم يصدق فوزي بك شيئاً من هذه الرواية الغريبة. إنه يعرف الأكاذيب التي تلجأ إليها الغواني للضغط على عشاقهن لتحويل العلاقة غير الزواج منها بهذه الأكذوبة المفضوحة، ولكنه فوجىء بها تقول له:

ـ من حقك ألا تصدقني.. أنا نفسي لا أصدق ما حدث.. إن واجبك كمدير للأمن العام وتحت يدك جهاز ضخم أن تتثبت من كل كلمة قلتها.. أن تعرف أنني بقيت في شقة المليونير صادق عبد العظيم كل هذه المدة وأنه ألح في عقد زواجه مني..

ثم وضعت يدها في صدرها، وأخرجت ورقة مطوية، ودفعتها إليه وهي تقول وكأنها تتعقبه وهو يفر من أمامها:

ـ لا تصدق كلمة واحدة مما قلته عن الزواج إلا إذا أكد خبراء الخطوط الذين يعملون في إدارة الأمن العام أن هذا هو خط المليونير صادق عبد العظيم!

وفتح فوزي بك الورقة الثانية فوجد أن المليونير يقول «أنا مصمم على العقد يا حبيبتي» و«إنني مستعد أن أكتب العقد في أي وقت تشائين يا حبيبتي».

وسألها فوزي بك هل يستطيع أن يحتفظ بهذه الوثيقة؟ فقالت إنها تثق به كأخيها تماماً، ولكنها تتوسل إليه أن لا يطلع عليها الأمير، لأنها وصلت إلى رأي نهائي، وهو أن تتزوج المليونير.. فقد ملت حياة العشق والظلام، وتريد أن تفكر في مستقبلها، وأنها ترى رجلاً يريد أن يضحي بكل شيء من أجلها. حتى إنه عرض عليها أن يكتب شقته الفاخرة باسمها.

وراحت ببا تصف له شقة المليونير، وتقارن بين عظمتها وحقارة بيت الهرم. بين من يريد أن يخفيها عن الناس كعورة، ورجل مليونير مستعد أن يباهي بها الناس، ويتزوجها علناً، ويطلق زوجته أم أولاده من أجلها.

وعاد فوزي بك إلى مكتبه واستدعى الصاغ عبد الله شوقي وطلب اليه أن يحصل بأي ثمن على ورقة بخط المليونير صادق عبد العظيم، ولو أدى الأمر إلى تفتيش مكاتب شركاته في القاهرة والاسكندرية.

وطلب تقريراً عن تنقلات المليونير في الثلاثة الأسابيع الأخيرة، وتقريراً كاملاً عن الشقة التي يقيم فيها، ووصف غرفها وطنافسها وأثاثها، وتقريراً ثالثاً عما إذا كانت الراقصة ببا دخلت هذه الشقة خلال الأسابيع الأخيرة؟

ثم بحث فوزي بك عن الأمير عادل فوجده في مكتب سعدون باشا، فذهب إلى لقائه.

وروى فوزي بك للأمير وسعدون باشا ما سمعه من الراقصة ببا، وما تعهد بكتمانه عن الأمير. ولكنه غيّر في الوقائع، فادعى أنه هو الذي عرف مكان ببا، وادّعى أنه هو الذي حصل على الوثيقة.

وكان وجه الأمير يصفر ويخضر ويكفهر ويعبس وهو يسمع قصة غرام المليونير.

وقال سعدون باشا إن من رأيه إلقاء القبض على المليونير صادق عبدالعظيم واتهامه في قضية الكبري.. والعودة إلى اعتقال المجرمين الثلاثة الذين أفرج عنهم رئيس الوزراء.

وقال فوزي بك إنه يرى من الحكمة أن تعالج المسألة بهدوء لأنها خاصة بالأمير، ويرى أن يبدأ البحث في أن يدرس خبراء الخطوط

الوثيقة، فإذا ظهر أنها بخط المليونير، فيمكن معالجة المسألة بطريقة تختلف عن الطريقة التي تعالج بها المسألة إذا لم تكن الوثيقة بخط المليونير وكانت وثيقة مزورة.

وقال الأمير وهو ينتفض:

ـ أنا لا يهمني إذا كانت الوثيقة مزورة أو صحيحة. المهم أن تعود ببا إلي!

وقال فوزي بك:

ـ أرجو أن تثق بي يا سمو الأمير. اترك لي يومين اثنين.. فإما أن أجيء لك بببا. وإما أجيء بالمليونير!

وصاح الأمير وهو يفرك يديه في غضب:

ـ وماذا أفعل بالمليونير؟ هل أضعه في فراش بيت الهرم؟!

وجاء الصاغ عبد الله شوقي في اليوم التالي بعدد من التقارير.. وكان التقرير الأول عن وصف شقة المليونير. لقد تنكر الصاغ مع أحد الضباط في زي عاملين بمصلحة التليفونات، وذهبا إلى الشقة بحجة إصلاح التليفون أثناء غياب المليونير بالاسكندرية، واستطاعا أن يحصلا على وصف كامل مفصّل للشقة.

ودهش فوزي بك عندما قرأ هذا التقرير لأنه يثبت فعلاً كل ما قالته له ببا عن تفاصيل الشقة.. حتى الغرفة ذات الأزرار التي قالت أن المليونير سجنها فيها وردت في التقرير.

وأمسك فوزي بك بالتقرير الثاني وفيه أن أحد المخبرين تعرف بسلامة خادم المليونير، واستطاع أن يعلم منه أن الراقصة ببا المقيمة

في الطابق الرابع من العمارة أمضت ثلاثة أسابيع في شقة المليونير.

وتصفح فوزي بك التقرير الثالث فإذا بثلاثة من خبراء الخطوط يجمعون أن جملة «أنا مصمم على العقد يا حبيبتي» وجملة «إنني مستعد أن أكتب العقد في أي وقت تشائين يا حبيبتي» مكتوبة بخط المليونير صادق عبد العظيم.

إذن فإن ببا كانت صادقة في كل كلمة قالتها له. إنها لم تكذب عليه. لم تخدعه بروايتها عن عرض المليونير. ورأى فوزي بك أن من واجبه أن يسرع إلى الأمير عادل ويخبره بالنتائج الخطيرة التي وصل إليها التحقيق. إن ببا صادقة مائة في المائة.. وإن القنبلة الذرية في خطر الوقوع بين الرأسمالية المستغلة!

وعندما عرف الأمير من فوزي بك بالنتيجة انقبض صدره، وظهرت على وجهه علامات الحزن والأسى.

وقال فوزي بك إنه فكر في أن يضع تقريراً عن نشاط المليونير صادق عبد العظيم يثبت فيه أن له علاقة بالتجار اليهود، ويقترح وضعه تحت الحراسة.. وفي هذه الحالة سيفقد كل أمواله، وسترفض ببا أن تتزوجه.

وقال الأمير وقد علته صفرة تشبه صفرة الموتى:

ـ أنت لا تعرف ببا كما أعرفها.. إنها مستعدة أن تعيش على الجبن والزيتون.. إنها عنيدة.. سترى من واجبها أن تتزوج المليونير المفلس، حتى لا يعتقد أنها تخلت عنه في محنته.

قال فوزي بك وهو يزمجر كوحش جريح:

ـ إننا عندما نحب يا سمو الأمير، لا نرى المرأة التي نحبها على حقيقتها . . أرجو أن تقبل وجهة نظري . . كلمة منك إلى الملك ونضع المليونير عبد العظيم تحت الحراسة، وتعود ببا إليك صاغرة ذليلة!

قال الأمير متحسراً:

ـ ولكن الملك سيتحدث في هذا إلى رئيس الوزراء . . وسوف يطلب بأفقه الضيق، أن يطلع على أوراق التحقيق كما فعل في قضية المؤامرة . . لا أمل أن يفعل ما نريد . . الحل الوحيد أن تذهب أنت إلى ببا وتحاول أن تقنعها!

وذهب فوزي بك إلى شقة ببا في العجوزة وقابلها. وكان يسيل رقة وظرفاً، وكياسة وسياسة، فقد كان يعرف مقدماً أنه مقبل على محاولة ترويض نمرة شرسة، يتوقع أن تنشب مخالبها فيه. ولكنه فوجىء ببا هادئة، ضاحكة، كأنها لم تهرب من الأمير، ولم تجد مليونيراً يركع أمامها طالباً شرف الزواج منها.

وقالت وهي تضغط على يديه:

ـ لن أنسى فضلك عليّ مدى الحياة. إنك أنت الذي قدمتني للأمير عادل. ولقد أمضيت معه وقتاً جميلاً. وإنني أشكره من كل قلبي على ظرفه ولطفه معي. إنني أحببته كثيراً. وربما لولا إنني أحببته كثيراً لما تعذبت كثيراً. والآن، وقد انتهى كل شيء، فلن يبقى في قلبي إلا ذكرى الأيام الحلوة. أما الدموع والعذاب فسوف أنساها. . بل إنني نسيتها!

ودهش فوزي بك من لهجة ببا. كانت تتحدث عن علاقتها بالأمير عادل كأنها صفحة طويت، كأنها تاريخ عصر مضى وانقضى.

قال فوزي بك وكأنه يقدح زناد فكره ليبحث عن حل للورطة التي وقع فيها:

ـ هل تحبين صادق عبدالعظيم؟ لو إنك كنت تحبينه فإنني لن أفتح فمي. سأقول لك: دوسي بقدميك على الأمير واذهبي مع الرجل الذي تحبين حتى ولو كان كناساً في الشوارع . . إن الحب أقوى من كل منطق . . إنه ملك، إذا جاء فيجب أن نحني جباهنا أمامه . . كل شيء يجب أن يركع أمام صاحب الجلالة الحب حتى المنطق!

قالت ببا وهي مطرقة برأسها . . ولكن رأسها من الداخل كانت تلف وتدور:

ـ إنني لا أحبه، ولكنني أحب نفسي . . إن من حقي أن أحب نفسي . . هذا رجل يريد أن يتزوجني، أن يسترني أن يضعني على رأسه، فهل أضحي بنفسي وبمستقبلي؟ هل أتخلى عن رجل يشعر بالعار لأنني خليلته؟ . . إنني لست فتاة صغيرة السن تخدعها كلمات الحب. إن الحب يذبل مع الزمن. تظهر له تجاعيد مع التجاعيد التي تظهر في وجه المرأة. إنه مثل الزهور يعيش أياماً ثم يموت. بعد سنوات قليلة لن يراني الأمير بالعين العاشقة التي تراني الآن. فعندما يصاب حب الرجل بالشيخوخة لا يضعف بصره، وإنما يزداد بصره حدة. يرى ما لا يراه وهو يحب. يرى الشعرة البيضاء على رأس عشيقته . . يرى الخطوط السوداء تحت عينيها . . لن يشتاق لضوء الأباجورة الخافت الذي كان يجعل للقاء العاشقين عذوبة وسحراً سيحاول أن يضيء الأنوار كلها حتى يحصي عدد الشعرات البيضاء في رأسها، وعدد الخطوط السوداء تحت عينيها . . وسيجيء يوم يطفىء النور حتى لا يرى الشعر الأبيض، ثم يجيء

يـوم تال ويغمض عينيـه حتى يتخيل فتـاة شابـة أخرى. . ثم يجيء يـوم ثالث ويختفي من حيـاتها. . مـاذا يبقى عندي من الأمـير بعـد هذا؟ ستقول: ستبقى الذكريـات. . إن الذكـريات الجميلة للمـرأة المهجورة أشبه بضرب السياط!

وتـوقفت ببا لحظة وألقت نظرة عليـه فشعرت كـأنها زلـزلتـه في مقعده. . وتركهـا فوزي بـك تتكلم كما تشـاء دون أن يقاطعهـا. . وأغمض عينيه وكاد ينام، ولكن كلمة «السياط» أيقظته وفتح عينيه، وقال:

ـ ولكن الأمير عادل يحبك!

قالت في ضيق وكأنها أصبحت تتأفف من حب الأمير:

ـ لو كان يحبني حقيقة لبارك هذا الزواج. . ولكنه لا يرحمني. . ولا يريد أن تنالني رحمة الله. لا هو يريد أن يتزوجني ويرفض أن يتزوجني سواه. . أي حب هو هذا؟ هلِ المطلوب مني وحدي أن أضحي؟

قال فوزي محتجاً:

ـ ولكنه أمير!

قالت:

ـ وأنا بشر. . أنا لحم ودم. . أنا إنسان. . أنا أعطيته شبابي وقلبي وحياتي. . لم أطلب ثمناً ولا أجراً. . أسعدته كما لم يشعر بالسعادة. . أعطيته ليالي مترعة باللذة. . أعطيته أيـاماً كـالأحلام. . منحتـه كل إحساساتي وعاطفتي، دفئي وحرارتي، لذتي ونشوتي. . كل ينابيع الهناء في نفسي فجّرتها ليرتوي منها. . كل كنوز جسدي وضعتهـا تحت قدميـه

ليختار ما يشاء. . لم يعد عندي ما أعطيه، نضب مـاء الحياة، جفّ رحيق الحب. . إنني أشبه بالأرض التي حرثت وزرعت عشرات المرات فبـدأت خصـوبتهـا تقـل. . ولهــذا أريـد أن أسـارع وأتـزوج، فلم يعد في قدرتي أن أعيش هذه الحياة. . أريد أن أستمتع بحق كل امرأة بأن يكون لها زوج، بأن يكون لها ولد، بأن تستطيع أن تمشي في الشارع وهي رافعة رأسها!

قال فوزي بك:

ـ إنك لا زلت شابة. . إنك تتحدثين كأنك امرأة في خريف العمر، إنك لا زلت في الربيع.

قالت وهي تتنهد:

ـ إذا كانت قسمات وجهي في الربيع، فإن قلبي في الخريف. . إن مرآتي لا تكذب مثل عينيك. . لقد كنت طوال حياتي أتمنى أن أملك رجـلاً، رجلاً يكـون لي وحدي. . إنني أشبـه بمن يتمنى أن يملك بيتاً. لقد عشت طوال حياتي أسكن بالإيجار، أتوقع أن أطرد إذا لم أدفـع الإيجار. . والإيجار هـو جسدي وشبـابي. . وسيجيء يوم لن أملك جسداً ولا شباباً، وسأطرد من البيت إلى الشارع، ومن أجل هذا أريد أن أملك بيتاً، أملك رجلاً، أحس بلذة امتلاكه. . إنها أمنية ساذجة، لا يشعر بها إلا الذين أمضوا حياتهم يسكنون بيوتاً بالإيجار!

قال فوزي بك وهو يتجاهل المعنى الذي تقصده:

ـ إن الأمير عادل على استعداد أن يشتري لك بيتاً يصبح ملكك دون سواك، تتصرفين فيه على هواك!

وضحكت ببا وقالت:

ـ إنني لا أريد بيتاً من حجر، أريد بيتاً من لحم ودم . . أريد رجلاً، زوجاً، شريك حياة بوثيقة زواج رسمية . . إن وثيقة الزواج الرسمية هي بالنسبة لي، شهادة ميلاد . . أنا أشعر كأني امرأة غير معترف بها أنها ولدت وعاشت وأحبت. ستقول لي أن هناك نساءكثيرات يعشن بغير شهادة ميلاد. ولكنني جرّبت الحياة بغير شهادة ميلاد . . عشت كأنني إحدى سواقط القيد . . حتى الذين لا يحملون شهادة ميلاد تسمّيهم الحكومة ساقطين . . فما بالك بالذين لا يحملون وثيقة زواج؟ قد تتصور أنني أتمسك بزواج صادق عبد العظيم لأنه مليونير . . لا، إنني كنت على استعداد أن أتزوج من مفلس، لقد قال لي صادق قبل أن يعرض عليّ الزواج إنه تاجر أقطان، وإنه قد يفقد ثروته كلها في يوم من الأيام . . أراد أن يبصّرني حتى لا أخطو هذه الخطوة الخطيرة وأندم . ولكني قبلت أن أتزوجه على أنه سيفلس في يوم من الأيام. ولم أقبل الزواج على أنه سيبقى طوال حياتي مليونيراً . . لو أفلس المليونير فإن الزوجة تعيش فقيرة، ولكن عندما يفلس الحب تموت العشيقة من الوحدة والهجران والإهمال وظلام النسيان .

قال فوزي بك وهو ينظر إلى عينيها وكأنه يصوّب مسدساً إليها :

ـ أنت تعرفين يا ببا نفوذ الأمير عادل، وتعرفين كم تهمني مصلحتك، وأنا أعرف رقّة قلبك ونبل عواطفك . . إن الأمير عادل قادر أن يسحق صادق عبد العظيم . . قادر أن يستخدم نفوذه ويجعل البنوك تضغط عليه في وقت غير مناسب فتحطمه . ولا أظن أنك تقبلين أن تكافئي رجلاً عرض عليك أن يتزوجك ويطلّق زوجته وأم أولاده، بأن تعرّضيه للخراب والدمار بسببك . إنني أعتقد أنك ستعيشين طوال حياتك تندمين على أنك كنت السبب في كل ما جرى له .

قالت ببا وهي تضحك :

ـ أشكر لك عواطفك . . لقد كنت صريحة جداً مع صادق، قلت له أحب أن أنبهك بأن زواجي بك قد يغضب أصحاب النفوذ ويبطشون بك، فقال لي إنه مستعد أن يتحدى الملك نفسه . . إنه على استعداد أن يضحّي بكل ثروته من أجل أن يبقى معي، قلت له : أخشى أن يقبضوا عليك سأبقى أحبك . .ماذا تستطيع أن تفعل امرأة أمام رجل يبدي استعداده لكل هذه التضحية؟ أنا لحم ودم يا فوزي . لا بد أن أتأثر لا بد أن أقارن بين رجل يريد أن يذهب إلى السجن ليتزوجني، ورجل يخشى أن يتزوجني حتى لا تغضب زوجته الأميرة جاموسة!

قال فوزي بك في لهجة خطابية :

ـ كيف تقولين يا ببا إننا نقبض على الأبرياء؟ إننا أناس أشراف نحافظ على القانون .

قالت ببا وهي تبتسم ساخرة :

ـ إنني أعرف أنكم أشراف جداً، وتحافظون على القانون جداً جداً، وهذا ما جعلني أحذّر صادق قبل إقدامه على هذا الزواج!

وأحس فوزي بك بأن ببا سدّت أمامه جميع المنافذ، فقال لها :

ـ إن معنى زواج الأمير بك أن يصدر أمر ملكي بحرمانه من لقب الإمارة .

قالت ساخرة :

ـ إن الأمير يريد أن أضحّي بحياتي من أجل الحب، ولا يريد أن يضحّي بلقبه من أجل الحب؟

ألا يعرف الأمير أن الملك إدوارد الثامن ملك بريطانيا وامبراطور

الهند تنازل عن العرش ليتزوج المرأة التي يحبها؟ هل يتصور الأمير عادل أن لقب أمير مصري أهم من لقب ملك بريطانيا وامبراطور الهند؟ إذا كان يحبني حقيقة فلماذا لا يتنازل عن لقبه؟

وفتح فوزي بك فمه في دهشة وهو يقول:

ـ هل جننت يا ببا؟.. كيف تطلبين من الأمير أن يتنازل عن لقبه ليتزوجك، لو كنت تحبينه حقيقة لما طلبت هذا الطلب!

قالت ببا:

ـ وكيف يطلب مني أن أتنازل عن زواجي من المليونير صادق عبد العظيم لأبقى عشيقة له؟.. لو كان يحبني فعلاً لما طلب هذا الطلب. أم أن المطلوب أن تكون التضحية من طرف واحد؟.. إن الرعايا يقدمون التضحيات والملوك والأمراء يتواضعون ويتقبلون القرابين.. ليس في الحب أمير ورعية.. إن الحب وحده هو صاحب الجلالة، والمحبون هم الرعايا، يتساوون أمامه مهما اختلفت درجاتهم ورتبهم وألقابهم.

قال فوزي بك:

ـ أين تعلمت هذا الكلام؟.. إنه كلام ثوار، لا كلام أصحاب ملايين. إن سعدون باشا على حق عندما اعتقد أن المليونير صادق عبدالعظيم مشترك في المؤامرة الكبرى!

قالت ببا وهي تضحك:

ـ إن صادق لا يتكلم إلا بالأرقام.. وهو لا يفهم شيئاً في السياسة.. إن كل ما يهمه من حرب فلسطين أن يعرف هل ستؤدي إلى ارتفاع سعر القطن أم لا؟

قال فوزي بك:

ـ إذن هو رجل غير وطني.. كيف تتزوجين رجلاً غير وطني؟.. رجل يفكر في أرباحه على حساب القتلى والجرحى والمشوهين؟

قالت ببا:

ـ يظهر أنك بدأت تعد له عريضة الاتهام من الآن.. أنصحك بأن تبتعد عنه.. فهو صديق شخصي للملك.. وشريك له في بعض صفقات القطن.. وسوف يكون من الصعب تلفيق تهمة ضده.. وخاصة أنني إذا شعرت بأنه سيؤذى بسببي فسأضطر أن أقول كل شيء؟!

قال فوزي بك وهو يتضاءل في مقعده رعباً:

ـ ماذا جرى يا ببا؟ لقد كنت أمزح.. إنك لم تعودي تفرقين بين الجد والمزاح.. إنني أعرف وطنية صادق عبد العظيم.. إنه شاب عصامي ممتاز، إنه اقتصادي خدم البلد خدمات عظيمة، إنه..

قالت ببا مقاطعة ضاحكة:

ـ إنه صديق الملك.. وشريك له!

وتغيرت لهجة فوزي بك فجأة. انهمرت الدموع من عينيه، وبكى، وقال:

ـ لو تعرفين كم يتعذب الأمير عادل، لأشفقت عليه.. إنه لا ينام إلا بالأقراص المخدرة.. إن لونه شحب.. إن وزنه نقص.. إنه أوفدني إليك ليقول إنه مستعد أن يفعل كل ما تريدين!

قالت ببا بحزم:

- لا أريد شيئاً . . أريد أن يتركني وشأني . . إن عقد زواجي سيتم بعد غد!

وقفز فوزي بك من مقعده وصاح:

- بعد غد؟ . . هذا مستحيل أعطني فرصة . . إن ٤٨ ساعة مهلة غير كافية . . أعطني مهلة أسبوع!

قالت ببا بحزم:

- إنني لا أعطي إنذاراً . . لا أهدد . . إنه لو طلب مني الأمير عادل الآن أن يتزوجني فإني سأرفض . . إنني أعطيت كلمة لصادق عبدالعظيم!

ثم وقفت ببا، وكأنها أرادت بذلك أن تنهي المقابلة كما يفعل الملوك، واضطر فوزي بك إلى الوقوف، فصافحته وشكرته على وساطته، وأبدت أسفها أنه جاء متأخراً . . بعد أن أعطت كلمتها للمليونير صادق عبد العظيم!

وخرج فوزي بك يجر قدميه في ذل ومسكنة وخضوع . .

وما كاد يخرج من الباب، حتى أغلقت الباب وعادت إلى الصالون وخرجت ست زليخا من خلف الستارة التي اختفت وراءها وهي تصفق بيديها وتقول:

- برافو . . نجمة مصر الأولى . . ممثلة مصر الأولى . . أحسن دور تمثيلي رأيتك تقومين به في حياتك!

قالت ببا وهي تعانقها وتقبلها:

- المهم، أن أغلب الحوار من وضعي أنا . . وليس من وضع الأستاذ سامي . . إنني استعنت ببعض كلماته . . ولكني غيّرت فيها كثيراً لأن حكاية المليونير لم تخطر ببالنا عندما وضعنا الحوار!

وامتلأت عينا ست زليخا بدموع الفرح، واحتضنت ابنتها ببا في حب وفخر وزهو وإعجاب وقالت:

- ستصبحين أميرة . . صاحبة السمو الملكي الأميرة ببا . وستكون أم الأميرة أميرة أيضاً . . ومشت ست زليخا في الغرفة، وأبرزت بطنها إلى الأمام، ودفعت وركها إلى الخلف، ورفعت رأسها إلى السماء، ومضت تمشي وتتبختر مقلدة مشية الأميرات كما تتخيلها وتقول:

- صاحبة السمو الأميرة زليخا . . أرملة المغفور له ساكن الجنان محمد فهمي الحاجب بوزارة العدل! .

وضحكت ببا لمنظر أمها في دور الأميرة . .

وتوقفت ست زليخا عن الضحك، وصمتت لحظة وكأنها تذكرت أمراً خطيراً وقالت:

- يجب أن تتطلق أختك زهرة فوراً من زوجها . . كيف يمكن أن يكون عديل الأمير عادل عمرو هو محمد أفندي زعبوط الكاتب بمحكمة إمبابة الشرعية؟ إن أختك يجب أن تتزوج من أمير . . أو على الأقل من نبيل . . أو من باشا، لا من زعبوط أفندي!

وابتسمت ببا لأنها تعرف أن أمها تكره زوج أختها زهرة، وتحتقره، ورأت أن زواجها من الأمير فرصة لتحقق أمنيتها بأن تتطلق زهرة من زعبوط!

ثم ضحكت وقالت:

ـ مصائب قوم عند قوم فوائد . . وفوائد قوم عند قوم مصائب . . ما ذنب زعبوط عندما يستيقظ في الصباح ويجد نفسه مطلقاً من زهرة؟

قالت ست زليخا:

ـ وما ذنب زهرة المسكينة أن تبقى متزوجة من صعلوك، بينما سيكون بيت أختها ملتقى للأمراء والملوك؟ إن كرامة الأسرة المالكة لا تسمح لها بأن تصاهر كاتباً في محكمة شرعية!

وقامت ببا وقبّلت أمها وعانقتها، وراحت تلف بها الغرفة وتقول:

ـ أصبحت أسرة ست زليخا هي الأسرة المالكة!

قالت ست زليخا وهي تنظر إلى السماء:

ـ ما أكرمك يا رب . . الفاتحة لسيدي الشيخ أبو فراس!

□□□

عاد فوزي بك إلى مكتبه، حزيناً، بائساً. إن طلقات مسدسه التي تصور أنه صوّبها إلى ببا لم تنطلق، أو أنها انطلقت وطاشت أو أنها ارتدّت إليه وأصابته هو.

لقد كان واثقاً أنه يستطيع أن يؤثر على الراقصة ببا ويعود بها إلى الأمير. أليست هي إحدى خليلاته السابقات؟ أليس الاتفاق بينهما أن تعمل لحسابه، أن تأتمر بأمره؟ ولكنها كانت هذه المرة تحدثه وهي فوق الحصان. كأن الوثيقة التي في يدها بعرض المليونير الزواج بها هي الحصان الذي تركبه. وهو يخشى أن يعود للأمير عادل ويخبره بما قالته ببا.

إنه يتصور أنه لا يستطيع أن يعيش بغير ببا. إنها حبه الأول والأخير. . لقد فجّرت في قلبه ينابيع هائلة من الهوى، ينابيع غنية باللذة، ينابيع مملوءة بالهناء. لم يذق قطرة منها قبل أن يعرفها. لم يذق طعم هوى كهذا الهوى من قبل.

كانت كل غراميات الأمير في الماضي راقصات من الأوبرا، غانيات من باريس، المرأة الشرقية الوحيدة التي عرفها هي المطربة السورية التي عشقها. ولكن ببا أول امرأة مصرية عرفها.

إن المرأة المصرية فيها سحر غريب، لها طعم مختلف، الشهوة فيها ممزوجة بالحنان، عريها يغطيه غموض، جريئة في خجل. عندما تمرغ وجهها في صدره تتظاهر بأنها لا تجرؤ أن تواجه عينيه، بينما هي بلمساتها هذه تثيره وتبعث في جسده كهرباء حلوة. . عندما تجلس تحت قدميه تبدو كأنها جارية من الحريم، ولكنها في الواقع تتحول إلى قيد يمنعه من الحركة. نظراتها الجائعة تشبعه، آهاتها الصارخة تطربه، ضعفها اللذيذ يقوّيه.

إن لها رائحة مختلفة كأنها بقايا بخور الكهنة في معابد قدماء المصريين. إنها قادرة أن تعطي الرجل ألواناً وأشكالاً من الحب لا تستطيع أن تقدمه أي امرأة من جنسية أخرى. إنها لم تتعلم الحب، ولكنها ولدت بهذه الخصائص. كأنها ورثتها عن جداتها اللواتي حكمن مَصر بجمالهن وسحرهن.

إن كليوبترا وحتشبسوت وشجرة الدر لم يعتمدن على السيف، وإنما اعتمدن على سحر الجفون. . ولم يخضعن أعداءهن بالمدفع وإنما استعملن كلمات الغزل. كانت قوة اللهب في أجسادهن أقوى من قوة النيران في جيوش الأعداء!

إنه وجد الأمير عادل دائماً لعبة في يد ببا، بنظرة من عينيها ترفعه إلى سماء الهناء، وبلفتة من رأسها تهبط به إلى حضيض العذاب. . قبلة من شفتيها تسكره، وكأنها موسيقى ملائكية تسكب في أذنيه الألحان، وكلمة غاضبة منها تعذبه وتشقيه كأنها الطبول التي يدقونها في الغابات قبل تنفيذ حكم الإعدام.

وفوزي بك يعرف ضعف الأمير عادل وتخاذله أمام ببا، ويعرف أنه مستعد أن يضحّي بلقب الإمارة من أجلها. ولكن إذا فقد الأمير لقب الإمارة فقَدَ مركزه الكبير، وفقَدَ مكانته لدى الملك، وبالتالي فَقَدَ فوزي بك صلاح الدين مكانته ونفوذه وسلطانه، وفَقَدَ الشمردلي بك هيلمانه في شؤون التموين واختصاصاته الواسعة في توزيع القصور والسيارات على أسر الشهداء، وفَقَدَ صديقه سعدون باشا منصبه الخطير ومسؤولياته الكبيرة، وحقه في القبض على زوج شريفة وعشيق الممثلة كاميليا كامل!

إنها مصيبة من كل جانب. مصيبة على كل إنسان. إنها قنبلة ذرية فعلاً، وستدمر الشلة كلها بما لها من نفوذ وسلطان وثروة وهيلمان!

وماذا تكسب ببا من كل هذا؟ سوف تتحدث عنها الصحف أسبوعاً أو أسبوعين عن أنها المرأة التي كانت السبب في تنازل الأمير عن لقبه، ثم تنتهي الضجة. وتصبح ببا زوجة لرجل عادي لا نفوذ له ولا سلطان. وبعد مضي شهور ستفكر ببا في أن تعود إلى السينما مستغلة الضجة التي صحبت زواجها، وسيتحول الأمير عادل إلى زوج ممثلة، ثم لا تلبث أن تمل ببا هذا العبء، فتطلق الأمير، ويخرج صفر اليدين، وقد فقدَ لقبه ونفوذه وسلطانه وثروته، وفقدت شلته التي تحكم مصر كل ما لها من قوة وهيلمان وجبروت!

لا يمكن أن يدع فوزي بك راقصة صغيرة تفعل بحكام مصر كل هذا. من أن تنفجر فيهم هذه القنبلة الذرية!

ويحاول أن يجد حلاً لهذه المشكلة فلا يجد، ويقرر أن يذهب إلى سعدون باشا ويستعين به.

وما يكاد سعدون باشا يسمع تفاصيل القصة وعواقبها، وإنها قد تؤدي إلى أن يفقد منصبه حتى يقول والكلمات تخرج من شفتيه بطيئة كأنها أنفاس محبوسة:

ـ إن هناك حلاً واحداً. .

ويسأله فوزي بك في اهتمام كالمستجير المستغيث وقد اصفر وجهه:

ـ ما هو الحل؟

فيقول سعدون باشا في حزم:

ـ الحل أن نضرب ببا بالرصاص. . وهكذا تنتهي المشكلة!

ويبتسم فوزي بك ويرمقه وهو صامت، ويمر بيده على شعر شاربه وكأنه يعجب بالفكرة الجهنمية ويقول في فتور:

ـ ومن الذي يقتلها؟

ويقول سعدون باشا في حماس، وشفتاه تختلجان في عصبية متشنجة:

ـ إن هذا أمر بسيط جداً. . ندعوها إلى الشقة في الطابق السادس ونقتلها بمسدس كاتم للصوت، ونحمل الجثة في سيارة حكومية وندفنها في الصحراء. . أو في بيت الهرم. وسكت سعدون باشا، وكأنه لم يعرف

طمأنينة الوجدان ولا سكينة النفس ولا استراحة الضمير إلا بعد أن وجد هذا الحل السعيد لمشكلة القنبلة الذرية!

إن سعدون باشا يؤمن بأن العنف هو الذي يحل كل مشكلة. إذا اختلف مع رئيس الوزراء يجب أن يقال. إذا وقفت مادة في الدستور ضد شهواته فيجب أن يلغى الدستور ويعطل البرلمان. إذا رفضت شريفة أن تكون عشيقته فيجب أن يقبض على زوجها الصاغ عزيز علاءالدين ويوضع في السجن. إذا خانته الممثلة كاميليا كامل مع الطالب شامل شفيق فيجب أن يقدم إلى المحكمة ويحكم عليه بالإعدام.. وإذا أحس بأن الراقصة ببا ستعرض سلطانه للخطر فيجب أن تضرب بالرصاص!

وفوزي بك يؤمن بالعنف أيضاً. ولكنه يؤمن بالعنف المغلف بالورق المفضض! ولهذا قال وهو يتثاءب:

ـ لا يا سعدون باشا. إنني لا أوافقك على أن نضربها بالرصاص.. هذه طريقة وحشة.. يمكن أن نقتلها بالسم.. هذه طريقة متمدنة.. لا تنسَ أننا الآن في عصر الحضارة!

□□□

كان الليل قد أخذ يهبط حين غادر فوزي بك مكتب سعدون باشا في طريقه الى مكتبه. وجلس في سيارته يحدّق الى الأفق البعيد، وكأنه يرى سراباً عجيباً، ولم يشهده في السماء الزرقاء الداكنة عند قدومه إلى مكتب سعدون باشا.

إن هذه الفكرة التي انبعثت في ذهن صديقه سعدون باشا جعلت الدم يتدفق من جديد إلى قلبه. أوقفت القلق الذي كاد يحطمه. فتحت أمامه أبواباً كثيرة كانت مغلقة. إنه وجد حلاً لجميع مشاكله، وسطع لهيب في عينيه. وعلى ضوء هذا اللهيب رأى جثة الراقصة ببا.. وجثة

الأستاذ صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة. إن زجاجة السم قادرة أن تعيد له مرحه القديم. قادرة أن تزيل العقبات من طريقه. إن ببا تمرّدت عليه. أصبحت تملي شروطها، أصبحت تهدد. كانت في الماضي تتلقى الأوامر وهي الآن تصدّر الأوامر.. كانت مسدساً في يده، وأصبحت مسدساً في صدره. لقد حدّد لها مهمة معيّنة هي أن تكون عشيقة للأمير، ولكنها تجاوزت المهمة، خرجت على التعليمات، ثارت على خالقها، وأصبحت تريد أن تكون زوجة الأمير.. دون أن تبالي بالأخطار التي تهدد الأمير وفوزي بك من هذا الإصرار. إنها قد تتكلم وتفضح ما تعلمه. ولهذا يجب أن تسكت إلى الأبد.

إن زجاجة السم لا صوت لها. لقد اشترى له الصاغ عبد الله شوقي بضع زجاجات من هذا السم من ألمانيا. وقال إن من مزاياه أنه لا يترك أثراً. إن أعظم طبيب شرعي لا يستطيع أن يكشف عناصره، إن أقراصه تشبه أقراص الأسبرين. وأعراضه تشبه أعراض الذبحة الصدرية. ستموت ببا بالذبحة الصدرية ميتة طبيعية، وسوف يبكيها فوزي بك بحرارة أمام الأمير، وسوف يبحث عن غانية أخرى يقدمها للأمير بدلاً من ببا. غانية لا تكون واسعة المطامع، لا تحاول أن تكون أميرة، ترضى بشرف لقب عشيقة الأمير..

ويبتسم فوزي بك صلاح الدين ابتسامة غريبة كأنه يرى أمامه جثة ببا.. ثم يعود ويفكر في قرص السم الثاني.. في صبحي خالد زوج إحسان. إنه لم يعد الآن في حاجة إلى تلفيق قضية مؤامرة كبرى. لن يضطر إلى عرض أوراق التحقيق على رئيس الوزراء والحاكم العسكري. لن يحتج رئيس الوزراء بالحصانة البرلمانية. لن تحتج إحسان بالسيدة زينب، ولن ترتدي هذه الطرحة التي يكرهها، ولن تمسك هذه المسبحة التي يمقتها، ستعود إليه ذليلة خاضعة.. أرملة

لا حول لها ولا قوة، ولا سيدة زينب!

وتصور صبحي خالد أمامه، ثم رآه بعد تناول قرص السم، ووجهه يشحب، وأعضاؤه جميعاً تختلج، ثم يرتعش رعشة واحدة ويموت!

وشعر فوزي بك بخوف ولذة في وقت واحد. ولكن شعور اللذة بالتخلص من غريمه كان أقوى فيه من شعور الخوف من جريمته.

كانت فكرة القتل بالسم تحاصر ذهنه. ثم عاد يفكر فيمن سيتولى هذه العملية. وفكر في الصاغ عبد الله شوقي. إنه خير من يقوم بالتنفيذ، إنه لن يستطيع أن يفتح فمه، لأنه هو الذي اشترى السم من ألمانيا. إن فوزي بك يستطيع أن يتهمه هو بأنه القاتل. ولكن فوزي بك رجل كتوم. إنه لا يثق بإنسان، لا يطمئن إلى أحد، من يضمن أن يجيء يوم تتغير فيه الظروف ويترك منصب مدير الأمن العام فيعترف عليه عبد الله شوقي؟ إن خير ما يفعله أن يقتل الضابط عبد الله شوقي بعد أن ينتهي من قتل ببا وصبحي خالد، وبذلك لا يبقى شاهد واحد على الجريمة..

وأحس بأن شعاعاً من الأمل ينير وجهه. إنه سوف يستطيع أن يدفن الجريمة، لن يترك آثاراً ولا بصمات، ولا خيوطاً تدل عليه.. إنه لن يغضب الله.. إنه سيقتل القاتل.. ألا تقول الشرائع إن من قتل يُقتل؟.. إن الضابط عبد الله شوقي سيقتل ببا وسيقتل صبحي خالد، وبعد ذلك سيقتله فوزي بك صلاح الدين!

وابتسم فوزي بك، وكأنه أعد وثائق مزيّفة يقدمها يوم القيامة للملكين اللذين سيتوليان الحساب، كما أعد وثائق مزيّفة عن قضية المؤامرة الكبرى وقدّمها إلى رئيس الوزراء!

ووصل فوزي بك إلى مكتبه، وفتح خزانته الحديدية التي وضع فيها زجاجات السم، وأخرجها من مخبئها، وتأملها بإعجاب وتقدير واحترام!

ثم أعادها مكانها وأغلق باب الخزانة، وعاد إلى مكتبه يبتسم ويقلّب الأوراق التي أمامه!

ولكنه لم يكن يرى الأوراق التي يقلبها، كان يشعر أنه يقلّب جثث الراقصة ببا، وصبحي خالد، ومساعده الصاغ عبد الله شوقي..

ثم تصوّر فوزي بك نفسه وهو يذهب إلى إحسان يواسيها ويعزّيها في الفقيد العزيز، ثم رآها تتعلق به وهي تجهش في البكاء وتقول له: «لم يعد لي في الحياة سواك يا فوزي».. ويضمها إلى صدره، ويحملها بين ذراعيه إلى غرفة النوم. إن الأرامل في ملابس السواد ضعيفات لا يستطعن المقاومة، مهزومات لا يستطعن القتال.

وسوف يستأنف علاقته بها. هذه العلاقة الحلوة التي لم تعشْ سوى ثلاث ساعات.

ومضى فوزي بك يتخيل إحسان كما كانت خلال المرة الأولى والأخيرة التي انفرد بها في شقة سعدون باشا، وأحس بالشوق يعذبه، وتمنى لو استطاع أن يتخلص من زوج إحسان هذه الليلة ليلتقي بها غداً!

وفكّر في أن يطلب الصاغ عبد الله شوقي ويستدعيه ويكلفه بالمهمة..

ثم فجأة انفتح الباب ودخل الأمير عادل عمرو، ومدّ فوزي بك يده لمصافحة الأمير، ولكن الأمير تجاهل يده... كان وجهه مهتاجاً

اهتياجاً محموماً، كانت شفتاه ترتعشان بلا كلمات، كـانت في عينيه نظرات غاضبة، حانقة، كان يشبه نوبة عصبية تسير على قدمين!

وقال فوزي بك مذعوراً:

ـ ماذا حدث يا سمو الأمير؟

والتفت إليه الأمير بغضب قائلا:

ـ أنت تريد أن تقتلني؟

وتراجع فوزي بك إلى الوراء وقال:

ـ أنا؟ أنا أقتلك يا سمو الأمير؟

قال الأمير الذي أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه:

ـ أنت مجرم يا فوزي بك.. ولكني لم أعرف أنك قاتل أيضاً!

ونظر فوزي بك في دهشة إلى وجه الأمير في غم وقلق، وألم ودهشة وذهول، وقال وكأنه قلب ينزف من التهمة الظالمة:

ـ إن هذه دسيسة.. مؤامرة.. إن المقصود بها الايقاع بيني وبين سموك. إن أعدائي هم الذين دبّروا هذه المؤامرة!

قال الأمير وهو يحرك يده بإشارة يطلب منه السكوت:

ـ إنني لا أسمع كلام أعدائك.. إنني سمعت كلام أعز أصدقائك!

صاح فوزي بك وهو يحدّق في عيني الأمير:

ـ أعز أصدقائي؟.. أنا ليس لي أصدقاء!

قال الأمير وهو يهز رأسه:

ـ نعم، أعرف أن ليس لك أصدقاء.. حتى أنا لست صديقك.. ولهذا تريد أن تقتلني!

قال فوزي بك وقد احتقن وجهه كأنه شعر بألم شـديد يقبض قلبه:

ـ من قال لك هذا الكلام الفارغ؟

قال الأمير وهو يزفر:

ـ قاله لي سعدون باشا.. قال لي إنكما اتفقتما على قتل ببا.. اتفقتما على قتلها بالسم.. إن معنى قتلها هو قتلي أنا.. معنى موتها هو موتي!

وأطلق فوزي بك أنّة ضعيفة، فقد شعر كـأنه يتنفس الصعـداء ويختنق في وقت واحد.. وشعر أنه كان يجب أن يفكر في أن يضم اسم سعدون باشا إلى قائمة الذين يجب قتلهم بالسم!

قال فوزي بك وهو يتمالك أعصابه ويضحك:

ـ إن سعـدون باشـا مغفل.. إنـه هو الـذي اقترح أن يقتـل ببا بالرصاص.. فأردت أن أسخر منه فقلت له: نقتلها بالسم.. أنت تعرف سعدون باشا إنه يريد أن يحل كل المسائل بالعنف.. إنني أعرف كم تحب ببا.. ولا يمكن أن أفكر في أن أقتلها، لأنني واثق أنني بذلك أقتلك.. وإذا قتلتك فإنني أقتل نفسي.. إن مصيرنا كله مرتبط بك، وأنا أعرف لو حدث أي شيء لببا فسوف تموت سموك كمداً وحزنـاً وأسى.. وإذا متّ فسوف نطرد جميعاً من مناصبنا.. كنت أتصور أنك أذكى من أن تصدق هذا الكلام الفارغ.. إنني كنت الآن أنوي أن

أتصل بك وأعرض عليك فكرة أن تتزوج الراقصة ببا بعقد عرفي. . على أن تحتفظ سموك بالعقد عندك. . هذه هي الفكرة التي وصلت إليها. . وأعتقد أنها سوف تسعدك، وتسعد ببا وتنتهي المشكلة. إن ببا تحبك يا سمو الأمير. تعبدك. وأنا واثق أنها مستعدة أن تضحي بزواج شرعي مع مليونير. . لتبقى زوجة بعقد عرفي مع سموك، عقد لا يعرف به أحد. .

وهدأ الأمير عادل، وعادت الابتسامة إلى شفتيه، وأحس بسعادة جديدة.

وأحس برغبة في أن يعانق فوزي بك ويقلبه. .

ولاحظ فوزي بك التغير الذي حدث في الأمير وقال:

ـ إنني ذاهب الآن إلى ببا لأعرض عليها هذا العرض. . وأرجوك أن تذهب إلى بيت الهرم. . وبعد ساعة واحدة سأكون عندك ومعي القنبلة الذرية!

ـ ١٨ ـ

فوجىء فوزي بك بخادمة ببا تقول له إن الست نائمة ولا تريد أن يوقظها أحد. ودفع فوزي بك الخادمة فريدة بيده، ودخل إلى الشقة وهو يقول لها:

ـ اذهبي وأيقظيها من النوم. وقولي لها إن فوزي بك يريد مقابلتها فوراً لأمر هام!

ولم تكن ببا نائمة، إنما توقعت أن يعود فوزي بك إلى زيارتها،

فأمرت خادمتها فريدة بأن تقول له إنها نائمة، حتى يتصور أنها ليست قلقة ولا مهتمة بالوساطة التي يقوم بها بينها وبين الأمير.

وأسرعت ببا وارتدت قميص نومها ودخلت في الفراش، والتحفت بالغطاء، وطلبت من الخادمة أن تدعو فوزي بك للحضور إلى غرفة نومها.

وعندما دخل فوزي بك، وجدها تتثاءب وتتمطى، وتتظاهر أنها تحاول فتح عينيها لتتغلب على سلطان النوم!

وأراد فوزي بك أن يجلس على مقعد بجوار الفراش، ولكن ببا دعته بابتسامة أن يجلس على الفراش حتى يكون قريباً منها. وجلس بجوارها، وأمسك بيدها وقبّلها قبلة طويلة، وهو يقول:

ـ عندي خبر سعيد لك. . إن الأمير عادل وافق على أن يتزوجك!

واعتقد فوزي بك أن ببا ستقفز من فراشهاوستعانقه، وأن وجهها سيشرق بابتسامة السعادة، ولكنها ابتسمت ابتسامة باردة وقالت:

ـ لقد وصل الراكب بعد قيام القطار!

واستبد بفوزي بك قلق رهيب وقال:

ـ إنك وافقت على إعطائي مهلة يومين!!

قالت بلا مبالاة:

ـ غيّرت رأيي. . وجدت أن مصلحتكم ومصلحة الأمير أن أنسحب من حياته. . ولهذا قرّرت أن أتزوج صادق عبد العظيم. . وقد حدّثني من نصف ساعة، واتفقنا على أن نتزوج غداً.

قال فوزي بك وقد شعر أن ضباباً كثيفاً يلفه، وأن الشعاع الذي كان يحمله قد انطفأ فجأة.

ـ من حقك أن تتخذي هذا القرار. ولكنك قلت لي إنك لا تحبين المليونير صادق عبد العظيم، وإنك فضّلته على الأمير لأنه سيتزوجك. فإذا جاء الأمير الذي تقولين إنك تحبينه، وقال إنه مستعد أن يتزوجك، فلا عذر لك في تفضيل صادق عبد العظيم. إلا إذا كنت كذبت علي وقلت إنك لا تحبين صادق، ولهذا فإن موقفك غير منطقي.

قالت ببا وهي تتظاهر بأنها تحاول أن تنعش فكرها وتجمع خواطرها:

ـ إنني أعترف بأنني أحب الأمير عادل. ولكنني لا أريد أن يضحي من أجلي..

قال فوزي بك:

ـ لقد وجدت حلاً.. وهو أن يتزوجك الأمير زواجاً عرفياً، وبذلك لا يضحي بشيء.

قالت ثائرة:

ـ زواج عرفي؟! أنا لا أقبل إلا زواجاً شرعياً!

قال فوزي بك:

ـ الزواج العرفي هو زواج شرعي، بعقد مكتوب، يوقع عليه الزوج والزوجة وشاهدان. والمحاكم تعترف بشرعية الابن الذي يولد من هذا الزواج. وله الحق في الميراث.. فيه كل مزايا الزواج الشرعي ما عدا الإعلان!

قالت ببا:

ـ ولكن معنى ذلك أن أبقى في الظلام!

قال فوزي:

ـ تبقين في الظلام بصفة مؤقتة.. وفي الوقت المناسب سيعلن هذا الزواج.. وأنا أعدك بأن هذا حل مؤقت!

قالت ببا:

ـ أنا لا أقبل زواجاً سرياً!

قال فوزي:

ـ ليس هذا زواجاً سرياً. إنما أنا قصدت به أن لا يجرّد الأمير عادل من لقب الإمارة، ولا من مركزه.. إن زواج الأمراء يجب أن يتم بموافقة الملك، والملك لن يوافق..

قالت:

ـ لأنني راقصة؟.. إنني أشرف من كثيرات من الأميرات!

قال فوزي:

ـ أنا أعلم ذلك. ولكن الذي سيحدث في هذه الحالة أن القصر سيطلب ملفك في بوليس الآداب.. وسيظهر منه أنه محكوم عليك في سابقة قضية دعارة، وستكون هذه فضيحة!

وارتعشت ببا. إنها لم تكن تتصور أن فوزي بك صلاح الدين يعلم أنه قد حكم عليها في قضية دعارة.. إنه لم يخبرها أبداً بأن لها

«دوسيه» في بوليس الآداب. وحاولت أن تخفي فزعها بابتسامة، ولكن فوزي بك ضبط الفزع خلف الابتسامة وقال لها:

ـ لقد كنت أعرف طوال الوقت بأمر هذه السابقة. ولم أحاول أن أخبرك بأمرها. إنني لم أكن أريد أن أجرحك. . ولم أخبر الأمير بأمرها، لأن مصلحتي الشخصية أن يتم هذا الزواج. إن مهنتي أن أعرف كل شيء. إنني أعرف أشياء كثيرة لا تخطر على بالك!

وأحست ببا بقلق. ماذا يقصد بأنه يعرف أشياء كثيرة لا تخطر ببالها؟ هل يعرف أنها كانت تنصب على الأمير بادعائها أن المليونير صادق عبدالعظيم يريد أن يتزوجها؟ هل يعرف علاقتها بسامي كاتب السيناريو؟ هل يعرف أن سامي هو الذي يكتب لها الحوار الذي تقوله للأمير؟

وشعرت أنها تكرهه، تمقته، تتمنى أن تقتله. إنها لم تفكر قبل الآن في قتل فرخة، ولكنها أحست في هذه اللحظة برغبة في قتله. رغبة لا تعرف كيف تبررها. إن تلميحاته الغريبة كانت أشبه بدبوس شك البالونة المنفوخة فتضاءلت وانكمشت. .

ولكنها لم تقبل أن تستسلم بسهولة وقالت لفوزي:

ـ لقد كنت أنوي أن أقول للأمير عن هذه السابقة قبل أن يتزوجني. . إنني لا أريد أن أخفي عنه أي شيء!

قال فوزي وهو يتظاهر بالحنان:

ـ إنني أنصحك بأن لا تقولي أي كلمة لأي إنسان عن هذه السابقة. كل ما أطلبه منك أن تعتمدي علي. أن تضعي يدك في يدي. أن لا تتصرفي بغير استشارتي. أنا وأنت فريق واحد. مصلحتنا واحدة. أنا مصلحتي أن تتزوجي الأمير، وأن تصبحي

أميرة. . وأعدك بعد أن يتم عقد الزواج العرفي، بأن أحاول سحب هذا الملف من بوليس الآداب. . سوف أعدمه، وسوف أعدم أوراق تحقيق الشخصية الخاصة بك في مصلحة تحقيق الشخصية. . وبذلك لا تظهر لك أي سابقة. . إنما، لكي أستطيع أن أحقق كل هذا، يجب أن نكون على اتفاق تام. أن لا يعرف أحد ما بيننا. .

واقتربت ببا منه وهو يتكلم، فقد انخفض صوته، وتحوّل إلى همسات، كأنه يأتمنها على أسرار خطيرة مقدّسة. . وأحس فوزي بك بأنفاس ببا حارة، ساخنة، ملتهبة، ورفعت فمها لتقبله قبلة الشكر على موقفه الأخوي النبيل، ولكن فمها انزلق إلى فمه، وكان توازنها قد اختل، فإذا هو بين ذراعيها، وإذا بالشكر يتضاعف، ويتحول إلى امتنان. وإذا الامتنان يتطور وينقلب إلى عرفان. . وإذا بفوزي بك يجد نفسه تحت الغطاء يتلقى الشكر والامتنان والعرفان!

ولم يعرف فوزي كيف انقلب في لحظات من وسيط في زواج إلى عريس، ولا كيف تحولت المناقشة إلى زفاف. إنه لم يعد يرى ببا، ولا يرى الغطاء، ولا يرى الفراش. أحس بأنه يطير. لقد كانت أحضان ببا هي الاجنحة التي طار بها الى جنة لم يذق مثلها.

إن ببا تغيرت كثيراً عما كانت. لم تكن في مثل هذه الحرارة عندما كانت خليلته. لو كان يعرف أنها قادرة على أن تمنح رجلاً كل هذا الهناء لما تركها للأمير عادل. لقد أنسته نفسه. أنسته مهمته. لم يتنبه إلى الوقت إلا عندما رأى الساعة التي في يده، فقال في فزع:

ـ إن الأمير ينتظر في بيت الهرم. . وقد قلت له إنني سأجيء بك بعد ساعة. . وقد مرّت ساعتان!

وضحكت ببا وهي تقبله وتقول له:

ـ قل له: المناقشة طالت. .

قال:

ـ حقاً، المناقشة طالت. . ولكنها ألذ مناقشة في حياتي. . يجب أن نناقش كثيراً!

قالت وهي تقفز من فراشها وتقول بدلال:

ـ إن هذه آخر مناقشة بيننا. . لا تنسَ أنني سأكون غداً زوجة الأمير عادل عمرو. .

قال فوزي وهو يعدل ملابسه:

ـ أنا الأصل. . والأمير الفرع. . سأكون أنا أحد الشاهدين اللذين سيوقعان على وثيقة الزواج. .

وضحكت ببا وهي تقول:

ـ إذن، يجب إعطاء الشاهد الثاني نفس حقوق الشاهد الأول!

قال فوزي وهو يصلح رباط رقبته في مرآة خزانة ملابسها:

ـ أقطع رقبتك. . لولا إخلاصي للأمير. . لأفسدت هذا الزواج!

قالت وهي تغمز له بعينها:

ـ أظن أن هذه المناقشة أقنعتك بأن تمزق «الدوسيه» السابقة!

قال فوزي وهو ينظر إلى وجهه في المرآة، ويزيل آثار الروج عن فمه ووجهه:

ـ سابقة واحدة؟ لو كنت من أرباب السوابق العديدة، لكفت هذه

المناقشة اللذيذة لمسح كل السوابق الماضية. . والسوابق القادمة أيضاً. .

وبدأت ببا تخلع قميص نومها، وترتدي الملابس التي ستخرج بها مع فوزي للذهاب إلى بيت الهرم. .

ووقف فوزي يتأملها وهي تخلع ملابسها، وفي هذه اللحظة أحس بأنه لم يعد في حاجة إلى قتل صبحي خالد زوج إحسان، ولم يعد في حاجة إلى إحسان، ولكن بعد أن أتمت ارتداء ملابسها عاد إليه نهمه القديم، وقرر أن يجمع بين ببا وبين إحسان معا!

وصحبها في سيارته. كان يقود السيارة صامتاً. أحس بأنه سعيد كأنه في الجنة. وأحس بأنه شقي كأنه في جهنم. كان يتقاسمه شعوران مضادان! ترى هل كانت ببا تريده، أم كانت تريد أن تمتلكه؟

لقد كان يشعر قبل أن تضعه تحت غطاء الفراش أنه قادر أن يتحكم فيها بالسابقة التي يهددها بها. ولكنه الآن أصبح يشعر بأنها هي التي ملكته. . لم تعد تعمل لحسابه. . أصبحت شريكته. . لم يعد يذلها بالسر الذي في يده أصبح يذلهما معاً سر واحد يجمعهما. . لقد تغير الوضع. . لم يبقَ فوق الحصان سوى بضع دقائق. ثم عادت ببا من جديد فوق الحصان. .

وأحس بقشعريرة. إن المرأة التي بجواره امرأة غير عادية. إنها جردته من سلاحه في دقائق. إنه يحاول أن يتذكر كيف انتقلت قدماه من الأرض إلى السرير فلا يتذكر. . كل ما يتذكره أنه وجد نفسه بين ذراعيها. يلتهمها كأنه لم يذق طعم اللحم من قبل. يرتوي منها كأنه لم يذق ماء الحياة من عشرات السنين. إنه لا يذكر أنها راودته عن نفسه، ولا أنها جذبته نحوها ولا أنها كشفت عن جزء من جسدها. ولا أنها

قالت كلمة أثارته.

إنها لم تفعل شيئاً من هذا. كل ما فعلته أنها قرّبت أنفاسها من أنفاسه فإذا بهذه الانفاس تخدره، تجعله يفقد المقاومة، تجعله ينسى نفسه، تجعله ينسى أن الأمير ينتظره. تجعله ينسى النصر الذي حققه بتهديد ببا بحكاية سابقة الحكم عليها في قضية الدعارة.

هل في قدرة أنفاس المرأة أن تفعل في الرجل كل هذا؟ إن العطور تثير الرجل. اللمسات تكهرب جسْده. الأجزاء العارية من جسمها تضاعف شوقه. ولكنها المرة الأولى التي شعر فيها بأن أنفاس امرأة قادرة أن تفعل في الرجل أكثر ما يفعله العطر واللمسات والعري من جاذبية وإغراء!

وأحس فوزي بقلق وخوف. إنه ذهب ليصطاد ببا فاصطادته.. ذهب ليضمها إلى بلاطه فضمته إلى حريمها.. ذهب ليخضعها لنفوذه وسلطانه، فإذا هي التي تحوله من قائد منتصر إلى أسير.. ومع ذلك فقد كان سعيداً بهذا الأسر، مخدراً تخديراً لذيذاً بهزيمته!

وعندما وصلت السيارة إلى بيت الهرم، نزل منها فوزي بك، ودار حول السيارة بسرعة وفتح لها باب السيارة. وكانت هذه أول مرة يقوم بها فوزي بك بهذه الحركة.. وفهمت منها ببا أن فوزي بك بدأ يعاملها على أنها زوجة الأمير، فمدت يدها إليه وقرصته في يده وهي تقول له هامسة:

ـ سأقول للأمير إنك ألذ رجل في العالم!

وهمس فوزي في أذنها:

ـ لا تخربي بيتي!

وخرج الأمير إلى درجات السلم، واندفع نحو ببا يعانقها ويقبلها والدموع تنهمر من عينيه.. وارتمت ببا بين ذراعيه تقبله وتذرف الدموع وتقول في صوت متشنج:

ـ يا حبيبي... يا حبيبي يا عادل!

وكان الأمير يقول يا حبيبتي.. يا ببا.. يا زوجتي ببا!

وأحنى فوزي بك رأسه في الأرض في تأثر شديد، وإعجاب بروعة تمثيل ببا...

وقال الأمير وهو يضع ذراعه حول خصرها ويمشي بها إلى داخل الفيلا:

ـ عندما تأخر فوزي، ومضت الساعة ولم يحضر، فكّرت في أن أحضر إليك!

ونظرت ببا بطرف عينيها إلى فوزي فوجدته قد تجمّد من الرعب والفزع وكأنه تصور ما قد يحدث لو أن الأمير جاء إلى بيتها ووجد فوزي بين ذراعي ببا في فراش غرفة نومها..

وابتسمت ببا وقالت وهي تخرج لسانها من خلف ظهر الأمير لفوزي:

ـ ليتك جئت يا عادل.. لو أنك جئت لوجدت فوزي عندي في غرفة النوم ولرأيت منظراً يذهلك..

وسكتت ببا..

ونظرت الى فوزي فوجدت وجهه قد امتقع واصفرّ!

فقالت له:

ـ لماذا تخاف أن أقول لعادل الحقيقة؟. إنني اعتدت أن أقول له كل شيء، ولا أخفي شيئاً أبداً.. وما دمت أنا وعادل قد اتفقنا على الزواج، فإن واجب الزوجة المخلصة أن لا تخفي أي شيء عن زوجها.. إن الزواج شيء مقدس، شيء إلٰهي، فإذا دخله كذب أو أخفى أحد الزوجين أي شيء عن الآخر ضاعت قداسته، وفقد هالته الالهية!

والتفت الأمير عادل إلى فوزي وقال له:

ـ لماذا لا تريد أن تقول ببا الحقيقة؟ هل تريد كعادتك أن تعلمها الكذب؟ إنها لا تعرف كيف تكذب!..

وازداد اصفرار وجه فوزي بك، فالتفت إليه الأمير عادل ودفعه بقبضة يده في صدره وقال له:

ـ قل أنت الحقيقة. لماذ لا تتعلم أنت أن تقول الحقيقة مثل ببا؟ من العار أن يكون لدى المرأة الشجاعة أن تقول الحقيقة، ولا يكون لدى الرجل شجاعة الحقيقة لقولها!

قال فوزي بك وهو ينظر الى ببا في تضرع:

ـ الحقيقة؟ الحقيقة؟

قالت ببا وهي تضحك:

ـ نعم.. الحقيقة كلها.. ولا شيء إلا الحقيقة!

وتسمّر فوزي بك في مكانه من الرعب!

وتقدمت ببا وقالت:

ـ ما دام فوزي لا يريد أن يقول الحقيقة فسوف أقولها أنا.. إن فوزي ركع أمامي لأجيء إليك.. وإنه قال إني إذا لم أجيء إليك فسيزيف وثيقة ضدي بأن عندي سابقة حكم في قضية دعارة. هل حدث هذا أم لم يحدث يا فوزي؟

قال فوزي وقد عاد الدم الهارب إلى وجهه:

ـ نعم، حدث!

قالت ببا:

ـ وقال لي إنه سيلقي نفسه من نافذة شقتي في الدور الرابع إذا لم أقبل أن أتزوجك زواجاً عرفياً بصفة مؤقتة.. على أن تعترف بأولادي، وأن يتحول زواجنا إلى زواج رسمي عندما أضع مولوداً.. هل حدث هذا يا فوزي أم لم يحدث.

وتردد فوزي. فقالت له ببا بحزم:

ـ تكلم.. قل الحقيقة؟

قال فوزي:

ـ نعم، حدث هذا..

وأقبل الأمير عادل وعانق فوزي وقال له:

ـ ولماذا تخجل من أن تقول لي هذه الحقيقة.. إن هذا الموقف لا يخجلك أبداً. إنه يدل على أنك صديق مخلص لي. إنك أعظم صديق مخلص لي..

قالت ببا وهي تقبل الأمير في شفتيه:

ـ فعلاً، يا عادل. . لو دخلت غرفة نومي ورأيته راكعاً لعرفت أنه أعظم صديق مخلص لك. .

ثم نظرت إلى فوزي وقالت للأمير عادل:

ـ إن فوزي ألذ رجل في العالم. . لو أنك حضرت «مناقشته» معي لوافقتني على رأيي!

قال الأمير عادل:

ـ إن أعظم ما في فوزي إخلاصه لي. . وابتداء من اليوم أنا آمره أن يكون مخلصاً لببا مثل إخلاصه لي تماماً!

وصرخت ببا وقالت:

ـ لا. . مستحيل. . لا يمكن. . لا أقبل!

قال الأمير في دهشة؟

ـ لماذا لا تقبلين؟

قالت ببا:

ـ لأن من رأيي أن يخلص لك وحدك. . وهذا يكفيني. . إن الإخلاص يفقد قيمته إذا قسّمناه بين عدة أشخاص!

واستأذن فوزي بك أن يشرب كأساً من الويسكي. . فإنه لم يكن في حاجة إلى كأس واحدة. . كان محتاجاً للزجاجة كلها!

أحس فوزي بك أن ببا لعبت به في لحظات كما لم يلعب به الزمن طوال عمره. . دفنته ثم بعثته. . أماتته ثم أحيته. . هوت به ثم

رفعته. . كان أشبه بكرة في قدم لاعب كرة ممتاز، يدفعها بقدمه فترتفع إلى رأسه، ثم يضربها برأسه ويلتقطها بقدمه. . كأنها لم تشأ أن يرى مقدار سيطرتها على الأمير، بل حرصت على أن يلمس مبلغ سلطانها عليه، وأنها قادرة أن تبطش به، وقادرة أن تنقله في لحظات بين شفتيها وحذائها. . إنها استطاعت أن تستغل لحظة الهناء التي منحته إياها، لتملي على الأمير شروطاً لم يوافق فوزي عليها، وتجعله شاهداً على ما لم يحدث، وتضعه فوق حذائها، ثم ترفعه إلى قلب الأمير.

إنه شاهد ألواناً وأشكالاً من الغانيات والفاجرات، ولكن هذه المرأة خطيرة. . إنها تختلف عن الغانيات العاديات. .

الغانية عقلها في أنوثتها، وببا أنوثتها في عقلها. . الغانية تبيع الهوى وتشتريه، وببا تبيع الرجال وتشتريهم. .

الغانية تلعب بعقل العاشق لتمتلكه، وببا تمتلك عقل العاشق لتلعب به.

الغانية ملكة في فراشها وجارية خارج الفراش، وببا جارية في الفراش وملكة خارج الفراش. .

الغانية هدفها رجل تصل إليه وببا هدفها رجل تصوب عليه.

الغانية تجمع الرجال كما يجمع الهواء طوابع البريد، وببا تبلل الطابع بشفتيها وتلصقه وتختمه فيصبح غير صالح للاستعمال!

كل قوة الغانية في لحمها، وقوة ببا في لحمها ودهائها وقوة أعصابها!

كان فوزي بك يسخر في الماضي من الأمير لأنه فقد إرادته أمام ببا، لأنه أصبح ألعوبة في يدها، ولكنه الآن بدأ يرثي له، بدأ يشفق عليه،

بدأ لأول مرة لا يلومه. فقد سقط هو في نفس الشرك. لعبت به نفس الأصابع. عبثت به نفس المرأة. إنه لم يشعر قبل اليوم بهذا الضعف والهوان الذي أحس به اليوم وهي تلهو به أمام الأمير.

إنه شعر قبل ذلك بالضعف أمام جسد إحسان زوجة صبحي خالد، ولكنه كان ضعفاً لذيذاً، مثيراً. ولكنه أحس أمام ببا بضعف مصحوب بالخوف، مصحوب بالذعر، كأنه لم يرقد فوق امرأة، وإنما رقد فوق قنبلة ذرية ممكن أن تنفجر في أي لحظة، ممكن أن تحوله إلى شظايا، إلى عدم.

إنها أوهمته بأنها تربط نفسها به عندما منحته جسدها، ولكنها في الواقع لم تربط نفسها، إنما قيّدته من عنقه. . وقفت على جثته لتقبل شفتي الأمير. . إن خطورتها أنها أقنعت الأمير بأنها امرأة لا تكذب. إنها جعلته في لحظة اضطرابه وخوفه أن تخبر الأمير بما حدث في غرفة نومها، جعلته يعترف أمام الأمير بأنه هددها بأن يلفق لها سابقة بأنه محكوم عليها في قضية دعارة. وبهذه الطريقة جرّدته من سلاحه الوحيد الذي كان في يده ضدها. أصبح مضطراً أن يعدم السابقة حتى لا يتصور الأمير أنه زيفها ضد زوجته.

السلاح الذي كان في يده أصبح في يدها تهدده به!

المرأة التي كانت تعمل لحسابه أصبح هو الذي يعمل لحسابها.

كانت تخاف منه فأصبح يرتعش منها. كذلك كانت جاريته فأصبحت ملكته. . وعاد يشعر أنه يكرهها ويحبها، يتمنى أن يبتعد عنها ويحلم بأن يحتضنها. يحتقرها ويعجب بها. إنه في حاجة إليها لأنها الديدبان الذي يقف على قلب الأمير. تدخل من تريد، وتمنع من تريد من الدخول. إن مصلحته أن يوثق علاقته بها. أن يمشي في ركابها. أن

يرفع علمها. أن يسير تحت فستانها!

وعندما انتهى فوزي بك من شرب الثمالة الأخيرة من زجاجة الويسكي، كان قد وصل إلى قرار بأن المستقبل لببا. إنه رجل مثل عباد الشمس يميل نحو الشمس المشرقة، ويشيح عن الشمس الغاربة. . كان في أول الأمر يعتقد أن الشمس هي الأمير، وأن ببا هي شعاع من نوره. أما الآن فقد اقتنع بأن الأمير هو الشعاع فليتجه بولائه إذن إلى مصدر الضوء. .

واتجه فوزي بك إلى حيث يجلس الأمير بجوار ببا على أريكة، وقد أسندت رأسها إلى صدره، وفي يده كأس ويسكي واحدة يتبادلان شربها ثم قال:

ـ من رأيي أن نعقد القران غداً. . وأن أكون أنا وسعدون باشا الشاهدين على العقد. . وأن يكون العقد من صورتين، صورة يحتفظ بها الأمير. . وصورة تحتفظ بها الأميرة ببا!

ودهش الأمير عادل وقال:

ـ لقد قلت لي يا فوزي بك إنك تفضل أن يكون العقد من صورة واحدة أحتفظ بها حتى لا تقع في يد أحد. .

قال فوزي بك وهو يتذكر أن الشمس هي وحدها مصدر الضوء والحياة:

ـ لقد رفضت الأميرة ببا هذا الرأي. . وقالت إنه إذا كان العقد من صورة واحدة، فإن من حقها أن تحتفظ بها. . ولكنني رأيت حل الخلاف بأن يكون العقد من صورتين. . صورة لك، وصورة للأميرة ببا!

ودهشت ببا. لأنه لم يجر بينها وبين فوزي بك أي حديث عن عقد من صورة واحدة أو من صورتين..ولكنها فهمت من نظرات فوزي أنه اختار المعسكر الذي يقف فيه، تحت فستانها. . وسرّت في الوقت نفسه لأن فوزي بك بدأ يطلق عليها لقب «الأميرة ببا». .

ونظرت ببا بطرف عينها فرأت في عيني الأمير أنه غير مقتنع بأن تحتفظ بصورة من عقد الزواج، فسحبت رأسها من صدره ووقفت وقالت:

ـ ما دام عادل لا يثق بي. . ولا يريد أن أحتفظ بصورة العقد. . فلا داعي إذن للعقد. . إن عقد الزواج هو صورة فوتوغرافية للثقة بين رجل وامرأة. . وبما أن الثقة لا توجد، فما الداعي للصورة الفوتوغرافية؟

وتلفتت ببا حولها كأنها تبحث عن حقيبة يدها. . وفهم الأمير من هذه الحركة أنها تتهيأ للانصراف. . فقفز من مقعده وقال في توسل:

ـ هل غضبت يا ببا من كلامي؟. . إنني قصدت أن أقول إن لدي خزانة حديدية ممكن أن أحتفظ فيها بهذه الوثيقة. .

قالت ببا وهي تحمل حقيبتها وتتجه إلى الباب:

ـ ليس هذا بالعذر المقبول. . ممكن لسموك أن تشتري لي خزانة أضع فيها الوثيقة. . وإذا لم تكن تملك ثمن الخزانة فممكن أن أشتريها من مالي الخاص.

وأسرع الأمير يقف بينها وبين الباب ويقول:

ـ لا تكوني مجنونة. . أقسم لك بأنني لم أكن صاحب هذا

الإقتراح: إن فوزي بك هو صاحب هذا الاقتراح. . .

واصفر وجه فوزي بك صلاح الدين وارتبك، فإنه ما كاد يوثق علاقته بالشمس حتى جاءت السحب والغيوم تقف بينه وبينها. .

وقالت ببا:

ـ ألم أقل لك يا عادل إن إخلاص فوزي بك وولاءه لك وحدك؟ على كل حال إنني أسامحه لأنه يفكر فيك وحدك، ولا يفكر فيّ!

وأراد فوزي أن يتكلم فتلعثم، وأسرع الأمير لإنقاذه وهو يقول:

ـ على كل حال، ابتداءً من الغد ستكونين زوجتي. . ونصبح شخصاً واحداً ويصبح الولاء لي هو ولاءً لك في الوقت نفسه!

قالت ببا وهي تضحك وتمد يدها وتشد أذن فوزي بك كأنه طفل صغير ارتكب ذنباً. .

هل فهمت يا فوزي بك؟. ابتداءً من الغد، سأصبح أنا وعادل شخصاً واحداً!

ثم ضحكت وقالت:

ـ على كل حال هذا موضوع يحتاج إلى مناقشة. . سوف أحدد لك موعداً بعد الزواج «لنتناقش» فيه!

وارتبك فوزي بك. ها هي تعده بموعد غرام جديد أمام زوجها. . يا للمرأة الجريئة. . إن عينها لم تطرف وهي تعده. . «بالمناقشة». . المناقشة اللذيذة التي حدثت بينهما في غرفة النوم. . إنها لم ترتبك، وإنما هو الذي ارتبك. . لم يحمر وجهها، وإنما هو الذي شعر بالدم يرتفع إلى وجهه. .

لماذا حرصت أن تخبره بالموعد أمام زوجها؟ أتريد أن تظهر له استهتارها بزوجها المغفل، أم تريد أن تقول له إنها تدفع الأجر فوراً . . إنها تريد أن تعطيه هذا الموعد الذي يتمناه مكافأة له على إصراره أن يكون عقد الزواج من صورتين أو على اختلاقه قصة الخلاف بينهما بشأن ضرورة احتفاظها بصورة من عقد الزواج . . أم أن هذا الموعد هو البقشيش الملكي الذي أرادت أن تدفعه ببا للحمّال الذي حمل العروس إلى مخدع الأمير العريس؟

كل هذه الأسئلة بقيت ترقص في رأس فوزي بك، وهو يقود سيارته عائداً إلى بيته.

كرّس فوزي بك كل ساعات العمل الرسمي في اليوم التالي لإعداد حفلة زفاف ببا إلى الأمير. أصر على أن يكون الفرح ملكياً.

كان يتصل كل ربع ساعة تليفونياً ببيا ليحدثها عن المفاجآت التي أعدها لهذا اليوم السعيد.

إنه وضع برنامجاً فخماً لهذا الاحتفال الرائع. سيحضر هو وسعدون باشا حيث يوقعان عقد الزواج بصفة الشاهدين.

ثم بعد ذلك سيحضر المدعوون. إنه دعا شلة الأمير كلها. دعا حمّاد باشا، وعباس بك الشمردلي، وشعبان بك شعيب، وحامد بك السيوفي. إنه يرى أن من الواجب دعوة أمها زليخا هانم واختها كوكو، ولكن لا داعي لدعوة زوج كوكو زعبوط افندي الكاتب بمحكمة إمبابة الشرعية لأن الحفلة قاصرة على عليّة القوم. إنه يرى دعوة شقيقها حامد فهمي. إنه اشترى لها ثوب زفاف ثمنه ثلاثمائة جنيه. إنه أمر بإحضار طبلة وطار ليقوم المدعوون بزفة الأمير والأميرة.

وقال فوزي بك إنه يريد أن يجعل للزواج السري مظهراً علنياً، فإنه ليس جريمة ترتكب في الظلام، وإنما هو حادث تاريخي.

وفرحت ببا بهذا الإخلاص الذي يبديه فوزي بك وعادت تكرر بأنها ستحدد وقتاً قريباً «للمناقشة» التي تتمناها!

وعندما جلس المدعوون والمدعوات إلى مائدة العشاء، أحسوا بأنهم يحضرون وليمة ملكية.

كانت المائدة مزدحمة بزجاجات الشمبانيا والويسكي، وبأطباق الكافيار التي استوردت من إيران، وبأطباق اللانجوست التي استحضرت من البحر الأحمر، وبخروف مزين بالأعلام ويعلوه تاج ملكي!

ولم يفهم أحد من المدعوين سوى ببا وفوزي صلاح الدين مغزى الخروف الذي على رأسه تاج ملكي. . وإن المقصود به هو صاحب السمو الملكي الأمير عادل عمرو!

وكانت ست زليخا ترتدي ثوباً يكشف عن صدرها وذراعيها، وكانت تنقل عينيها بين المدعوين تختار واحداً منهم ليكون زوجاً لابنتها كوكو بعد أن يتم طلاقها من محمد أفندي زعبوط.

ووقع اختيارها في أول الأمر على حامد بك السيوفي بصفته أصغر المدعوين سناً. . وعندما سألت عن وظيفته عرفت أنه مدير التحقيقات. وهزّت رأسها باحتقار. . إنها لا تريد أن تنتقل ابنتها كوكو من زوج يعمل في محكمة شرعية، إلى زوج آخر يعمل في التحقيقات!

إنها ضاقت بكثرة «تحقيقات» زعبوط مع ابنتها التي قالت لها بأنه أصيب بهذه العاهة من كثرة حضوره التحقيقات والمحاكمات. . ثم إن

حامد السيوفي «بك» فقط وهي تريد باشا . .

وعادت ست زليخا تنقل عينيها بين الباشوات المدعوين ثم استقر رأيها على أن سعدون باشا هو أصلح الباشوات الموجودين ليكون زوجاً لكوكو!

وتأملت ابنتها كوكو بإعجاب . . تأملت فتنتها الطاغية، وهي تخطر في هالة من ضياء. ثم تأملت ذراعيها المتوهجين بياضاً، وصدرها الذي يشبه مسرح الشيطان، وشفتيها اللتين فيهما ألف دعوة ودعوة، وعينيها الزرقاوين كزرقة مياه البحر. وأحست بأن ابنتها كوكو لوحة رائعة . . سبحان من صوّر وكوّرودوّر . . إنها خسارة في هذا العجوز سعدون باشا!

وتنهدت زليخا أسفاً لأن مقام أصدقاء الأمير عادل أقل من مقام الأمير. فلماذا لا يكون أصدقاء الأمير أمراء مثله، حتى تختار أميراً ليكون عريساً لكوكو، ولتصبح كوكو صاحبة السمو الأميرة كوكو، مثل أختها ببا التي أصبحت صاحبة السمو الأميرة ببا؟ أيريد سيدي أبو فراس أن تنتظر كوكو هي الأخرى إلى أن تبلغ سن الخامسة والثلاثين حتى يتعدل بختها المائل وينتهي حظها الفاشل؟.

وهزّت ست زليخا رأسها، ورأت أنه يجب أن تتواضع في الوقت الحاضر وترضى بأن تتزوج كوكو من باشا . . ولو لتتخلص من زوجها الحالي محمد أفندي زعبوط الكاتب في محكمة إمبابه الشرعية!

وتأملت ست زليخا ابنتها ببا في ثياب الزفاف. إنها ملكة فعلاً . . إنها خلقت لتكون ملكة . . إن القدر أخطأ في العنوان كما يفعل سعاة البريد في الخطابات في هذه الأيام . . كان المفروض أن تولد ببا في قصر ملكي لا في بيت في حارة السد . . لقد بدت كوردة من ورود الربيع.

فيها نضارة الورد وحلاوته وعطره، وفيها شوكه أيضاً!

إنها عندما احتضنتها وارتمت على صدرها الحنون بعد عقد القران همست ببا في أذنها قائلة «حذار أن تغني أغانيك البلدية في الحفلة» . . إن هذه الكلمة جرحتها . . ما عيب أغانيها البلدية؟ لماذا تخجل ابنتها الأميرة ببا من أغانيها البلدية؟ إن هذه الملاحظة كانت شوكة جرحتها. ولكنها سامحت ابنتها، لأنها وردة. والمفروض أن تكون في الوردة أشواك!

ثم بدأت ست زليخا تفكر في نفسها . . إنها أمضت طول حياتها لا تفكر في نفسها. تفكر في أولادها وتنسى نفسها. هذه فرصة لتبدأ في التفكير في نفسها. لماذا لا تبحث لنفسها عن زوج بين هؤلاء الباشوات والبكوات؟ وراحت ست زليخا تتأملهم من جديد. ووقع اختيارها في أول الأمر على فوزي بك صلاح الدين. ولكنها تعرف أن فوزي بك كان عشيقاً لابنتها واحمرّ وجهها خجلاً لفكرة أن تتزوج من رجل كان عشيق ابنتها.

وبعد أن قبضت على فوزي بك بعينيها واهتمامها أطلقت سراحه، وعادت تبحث بعينيها عن عريس.

ورأت المدعوين يقرعون الكؤوس، وراحت تصفهم أمامها كأنها توقفهم في طابور. تختار رجلاً ثم تستبعده لشعره الأشيب. وتختار رجلاً ثانياً، ثم تستغني عنه لكرشه الكبير. وتختار رجلاً ثالثاً ثم تكتشف أنه سعدون باشا الذي سبق أن اختارته زوجاً لابنتها كوكو. فتشطب عليه، وتستأنف البحث من جديد.

واستقر رأيها على حامد بك السيوفي أصغر المدعوين سناً والذي رشحته قبل ذلك لزواج ابنتها كوكو واستبعدته . . ولعل عقلها الباطني

هو الذي استبعده لتحتفظ به لنفسها دون ابنتها!

وأقبلت على حامد بك تحدثه في اهتمام. إن اسمه «حامد» مثل اسم ابنها. يا للمصادفة السعيدة الغريبة.. سيكون اسم زوجها هو اسم ابنها!

وتميل ست زليخا على حامد بك السيوفي في دلال وتسأله:

ـ أي نوع من النساء تفضل؟

وقال حامد بك وهو يفرغ كأس الويسكي في بطنه:

لا أحب إلا النساء النحيفات!

وتشعر زليخا هانم بالضيق من قلة ذوق حامد بك السيوفي.. ثم تنظر إلى المائة كيلو غرام التي تحملها فوق ساقيها، وتسأل نفسها: هل هي بدينة أم نحيفة؟ إنها ليست بدينة.. إنها ملفوفة!

وتعود زليخا هانم إلى حامد بك تقول له:

ـ ولكن المرأة الملفوفة أجمل من المرأة النحيفة!

قال حامد بك بصراحة هي أقرب إلى الوقاحة:

ـ لقد تزوجت ثلاث مرات.. كل مرة كانت العروس تبدأ نحيفة جداً، وبعد عام من الزواج يزيد وزنها.. فلا أستطيع أن أطيقها وأطلقها، وهكذا..

وأحست زليخا هانم أنها تكره حامد بك، وأنه لا يقل وقاحة عن محمد زعبوط زوج ابنتها.. وحمدت الله أنها لم تختره ليكون زوجاً لابنتها كوكو..

ثم تركت حامد بك السيوفي.. واستقرت عيناها على عباس الشمردلي بك، وعلى منظره الذي يشبه الديك الرومي وعلى العصفورين اللذين تركا أثراً على جبهته. وتنّهدت تنهيدة كبيرة..

- ١٩ -

كاد رأس شامل شفيق الطالب بكلية الزراعة ينفجر من كثرة التفكير. إن الأسابيع الثلاثة التي أمضاها في سجن الاستئناف غيّرته وبدّلته. إن مقابلاته اليومية للممثلة كاميليا كامل جعلته موزع القلب بين حبها وبين الفكرة التي تملأ رأسه. إنه لم يعد يتردد على النادي الأهلي كما كان يفعل دائماً. ولم يعد يتابع مباريات كرة القدم بين النادي الأهلي ونادي فاروق. ولم يعد صوته يبح من الهتاف بحياة اللاعب أبو حجاجة، ويتحدث عنه كأنه البطل الوحيد القادر على تحقيق كل أهداف مصر بالمهارة التي يصوب بها الأهداف في نادي فاروق!

كأنه كبر في هذه الأسابيع الثلاثة ثلاثين سنة. لم يعد ذلك الشاب المراهق الذي يركب سيارته ويبحث في وجوه النساء عن امرأة جميلة. إنه مؤمن بأن في استطاعته أن يفعل شيئاً ليقاوم الظلم والطغيان اللذين ذاقهما بين جدران زنزانة سجن الاستئناف.. مؤمن بأنه يستطيع أن يفعل شيئاً ليقاوم الفساد الذي سمع تفاصيله بأذنه من فم صديقته كاميليا كامل، عندما أخبرته بأن سر القبض عليه أن سعدون باشا غار منه عندما عرف أنها أحبته، وأن هذا هو السبب الوحيد لتلفيق قضية المؤامرة الكبرى.

إنه يذهب كل صباح إلى كلية الزراعة، ويتابع محاضرات الأساتذة بانتظام، ولكنه لا يفهم كلمة واحدة مما يقولون. إن صورته في

الزنزانة، وصورة الضابط وهو يفتش منزله، وصورة عزيز علاء الدين وصبحي خالد وهما واقفان بجواره أمام مأمور السجن يبلغهم أمر الإفراج عنهم ويطلب إليهم أن لا يفتحوا أفواههم، وصورة كاميليا وهي تروي له تهديدات سعدون باشا وتلفيقه لقضية المؤامرة، إن كل هذه الصور تمر أمام مخيلته، فلا يرى الأستاذ المحاضر، ولا يفهم كلماته ولا يرى الرسوم التي يرسمها على السبورة يشرح بها الدرس.

إن رأسه أشبه ببطن امرأة في شهرها الثاني، فيها جنين ولكنه لم يتشكل بعد، لم تظهر له ملامح، لم تنبت فيه أيد وأرجل ورأس. غير أنه يشعر أنه يحمل في رأسه فكرة، فكرة تكبر كل يوم، ولكنه لا يعرف ما هي، ما شكلها، ما نوعها، وما اسمها؟

كل ما يعرفه أنه هو نفسه ساخط، غاضب ثائر، أصبح يرفض أشياء كثيرة كان يقبلها. . أصبح يفكر في أشياء كثيرة كانت تمر أمامه ولا تثير اهتمامه لأنه ليس لها علاقة باهتماماته الوحيدة وهي كرة القدم وفريق النادي الأهلي واللاعب أبو حباجة. إن الجنين الذي في رأسه سوف يشبهه. سيكون ساخطاً مثله، غاضباً مثله، ثائراً مثله، رافضاً لكل شيء حوله كما يرفض الآن كل شيء حوله!

وأحس شامل بأن هذا التفكير المتواصل يعذبه. . إن السعداء هم الذين لا يفكرون. . الذين يخضعون للأمر الواقع. . الذين يرضون بما هم فيه. . الذين لم يدخلوا مدرسة السخط. . هذه المدرسة التي تضرب ظهور تلاميذها بالسياط. . توقظهم إذا ناموا، تحركهم إذا سكنوا، تنطقهم إذا سكتوا، تثيرهم إذا هدأوا. .

وهو يحس بوحدة قاتلة في مدرسة السخط هذه، كأنه التلميذ الوحيد فيها. . هل من المعقول أن هذه الملايين لا تحس بما يحس، ولا تتعذب

كما يتعذب، ولا تفكر كما يفكر، أم أن كل واحد منهم أقام لنفسه مدرسة سخط خاصة به، يهمس فيها بغضبه وثورته ورفضه؟

وما قيمه هذه المدارس المتعددة إذا لم ترتبط، إذا لم تتجمع، إذا لم تحوّل همسها إلى زئير؟

ما قيمة شعب كل من فيه ينفخ ولا يتكلم، يهمس ولا يرفع صوته، يلعن الظالم في سره وهو يتلفت حوله من الخوف والرعب؟

لقد فكّر في زميليه وجاريه عزيز علاء الدين وصبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة. إنهما ذاقا الظلم كما ذاقه. . وإذا كان الشوق لا يعرفه إلا من يكابده، فإن قيمة الحرية لا يشعر بها إلّا الذي حرم منها. . إن المظلوم وحده هو الذي يعرف مرارة الظلم!

الذين مروا على السجن ورأوا جدرانه العالية لا يعرفون عذابه كأولئك الذين نزلت على رؤوسهم المطارق، فهل يصرخ الذين يتفرجون عليها، وهي تهوي على الرؤوس؟ . .

ولكن شامل تردد في أن يفاتح جاريه وزميليه في السجن بهذه الأفكار التي تولد في رأسه. فقد أحس بأنها لم تولد بعد. خشي أنه لا يستطيع أن يعبر عنها كما يريد. . إنه لم يسبق له التحدث في السياسة. إنه أصغر سناً من جاريه وزميليه في السجن. .

ورأى أن يجعل من شقيقه عمر شفيق الطالب بكلية التجارة، الفأر الذي يجري عليه التجربة. . وعندما بدأ شامل يتحدث عن الفكرة التي تشغله مع شقيقه سخر منه عمر وقال:

ـ طبعاً. . أنت تهرب من الكرة. . بعد الهزائم المتوالية التي أصيب بها النادي الأهلي على يدي نادي فاروق!

ولو أن عمر قال له هـذا الرد الساخر قبل الآن، لقامت بينهما مشاجرة، ولانقض عليه يدافع عن كرامة فريق النادي الأهلي، ويدعي أنه فقد مباراة الكأس نتيجة الحظ، أو نتيجة تحيّز الحكم، أو نتيجة مرض اللاعب أبو حباجة. أما الآن فإنه فقَدَ حماسه لكرة القدم وللنادي الأهلي، ولم تعد تثيره هذه المسائل التافهة، ولهـذا اكتفى بالابتسام وقال:

ـ أنا لا يهمني أن النادي الأهلي مغلوب.. الذي يهمني أن بلدي مغلوب، أن شعبي مغلوب.. أن حـريـة مصر مهـزومـة.. أن كرامتها في التراب!

ودهش عمر للانقلاب الذي حدث في أخيه.. لم يصدق أذنيه في أول الأمر أن شامل لم تعد تهمه هزيمة النادي الأهلي. لقد كان النادي الأهلي حياته وأحلامه وهواه الكبير!

وجلس عمر مسحوراً في مقعده، وهو يسمع أخاه يحدثه عن فساد القصر وفساد الحاشية وفساد الدولة.. عن القضايا التي تلفق للأبرياء.. عن الأشراف الذين يزجون في السجون.. عن كبار رجال الدولة الذين حولوا مكاتبهم إلى فراش غرام.

وتحمس عمر وقال:

ـ يجب أن نفعل شيئاً.. ولكن ما هو هـذا الشيء الذي يجب أن نفعله؟!

وسكت شامل ولم يجب. يكفي أنه كسب أول نصير لـرأيه. أول مؤمن بفكرته. إذن، فقد استطاع أن يعبّر عن مشاعره وأفكاره. ولم يبقَ إلا الإجابة على السؤال الذي جعل رأسه يكاد ينفجر وهـو: ما هـو

الشيء الذي يجب أن نفعله.

إنه وحده لا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال. إنه يحتاج لعدة رؤوس لا لرأس واحد.. لفريق.. إن مباراة كرة القدم في حاجة إلى ١١ لاعباً.. فلنؤلف فريقاً.. وكل فرد من الفريق يؤلف فـريقاً.. وبعد فترة يتحول الفريق إلى فرقة... والفرقة إلى شعب بأكمله!

وهز عمر شفيق رأسه موافقاً على ضرورة تأليف فـريق.. ولكنه تساءل:

ـ ولكن أين نجد الذين نؤلف منهم هذا الفريق؟

قال شامل:

ـ نؤلفه من سكان العمارة!

وقهقه عمر كأنه سمع نكتة:

ـ سكان العمارة!؟ إنهم كلهم لا يصلحون.. أتضم الراقصة ببا فهمي إلى فريق العمارة؟!

وتصور شامل أن شقيقه يهاجم ببا لأنها فنانة، وأحس بواجبه أن يدافع عن الفنانات، لأنه بذلك يدافع عن الممثلة كاميليا كامل التي يحبها، فقال في حماس:

ـ إن بين الفنانات نساء أشجع من الرجال.. بطلات.. أنا أعرف امرأة فنانة قاومت وحدها أكثر من ألف رجل.. صمدت وحدها وكأنها قلعة. هزأت بالتهديد، سخرت بالوعيد، وداست بقدمها على عروض أصحاب النفوذ والسلطان!

وابتسم عمر، فإنه يعرف قصة الحب الجديدة بين الممثلة كـاميليا كامل وشقيقه شامل. إن الحب رسام عبقري، يعيد رسم المرأة التي نحبها، يخلقها من جديد، يضيف إليها الألوان التي تبرز محاسنهـا، ويضيف إليها الظلال التي تخفي عيـوبها. الخـطوط التي يضيفها إلى صورة الحبيبة تمنحها مزايا ليست لها.

وعندما يقوى الحب لا يكتفي بتلوين عين المرأة، لأنه يلون عيوننا نحن، يلعب في حدقاتها، يجعلها ترى أشياء غير موجودة في الحبيبة. ومن أجل هذا يقولون إن الحب أعمى. ولكن ليس الحب هو الذي يصاب بالعمى، إنـه هو الـذي يعمي العشاق. يجعـل أبصارهم في قلوبهم وليست في عيـونهم. تصبـح خفقـات قلوبهم هي رعشـات عيونهم. تصبح أحلامهم هي رؤياهم. إن مقاس العين الصحيحة هي ستة على ستة. ومقاس القلب الصحيح هو صفر على ستة. . أي أننا كلما أحببنا ضعفت قوة أبصارنا، وعجزنا عن رؤية من نحب كما هم في الحقيقة. رأينا صورهم التي تضمها أفئدتنا، لا الصور التي تلتقطها العدسات التي تحت جفوننا.

ولكن عمر لا يعتقد أن من الممكن أن يصبح الإنسان عاشقاً لامرأة وللوطن في وقت واحد، فالقلب لا يتسـع لاثنين. . غـير أن شامـل استطاع أن يحب الممثلة كاميليا كامل والطالبة فوزية برسوم في وقت واحد. وها هو الآن يجمع في قلبه بين عشقـه لكاميليـا وهواه لهـذا الوطن. .

ويتجرأ عمر على شقيقه الأكبر، ويقول:

ـ إذا كنت حقيقة تريد أن تحارب لمعـركة الـوطن يجب أن تقطع عـلاقتك بكـاميليا. . فقـد قرأت أن انغمـاس الشعب الرومـاني في

العلاقات الجنسية كان السبب المباشر في سقوط الدولة الرومانيـة. . انغماس شعب فرنسا في الحب والجنس هو الذي أدى إلى هزيمتها أمام جيوش هتلر. . إن القواعد المتبعة في الألعاب الاولمبية أن يمنع اللاعب من ممارسة الجنس مدة ليستطيع أن يحقق أرقاماً قياسية. . وأنت تعرف أن في تاريخ مصر رجالاً كانوا أقوياء ومناضلين، ثم تزوجوا، فضعفـوا وتخاذلوا، وفضلوا حياة الدعة بين أحضان زوجاتهم وعشيقـاتهم عن حياة الكفاح والفداء. . إن الفدائي لا يتزوج. . إنه يحمل مدفعاً بيد وقنبلة بيد، فإذا حمل المرأة التي يحبها اضطر أن يتخلص من المدفع أو من القنبلة أو من الاثنين معاً!

وابتسم شـامل شفيق. لم يغضب لما قاله شقيقـه الأصغـر. إن اعتراضاته دليل على حماسه للفكرة. . إنه يريد منه أن يتجرد من كل حب إلا حب الوطن. . إنه مؤمن بالفكرة، إنه يدعوه أن يتوضأ قبل أن يدخل إلى مسجد الوطن ليؤدي فيه صلاة الكفاح. ولكن، ألا يستطيع شامل أن يعشق كاميليا ويحب وطنه في وقت واحد؟

ويغوص شامل في كرسيه ويسترخي في المقعد ويقول:

ـ قبل اليوم لم يكن في استطاعتي أن أرد على اعتراضك هذا. ولكنني منذ أن بدأت أفكر فيما يجب أن نعمله لبلادنا بدأت أقرأ كتب التاريخ. إن الامبـراطوريـة الرومـانية لم تسقط لأنها انغمست في الحب، بـل سقطت لأنها تجردت من الحب. إنها أصيبت بمرض اسمه الشبق. . الأغنياء لا يشبعون من ثرواتهم الطائلة، فكلما اغتنوا ازدادوا رغبة في غنى جديد. . الحكام لا يكتفون بسلطانهم، فكلما جمعوا سلطاناً بين أيديهم انفتحت شهيتهم على سلطان جديد. . كان الامبراطور يعذب خصومه بجلدهم، ثم زاد بطشه فأصبح يصلبهم، ثم زاد شبقه فأصبح

يطلق عليهم السباع لتأكلهم وسط هتاف الجماهير. . إن هؤلاء الذين كانوا يصفقون، لم يعرفوا الحب، لأن الظالمين والطغاة لا يحبون ولا يعشقون. . لقد كان نابليون زير نساء ودوخ العالم. . ستقول إنه هزم في نهاية الأمر. . ولكن الذي هزمه كان نلسون، وكانت لـه عشيقة إسمها لايدي هاملتون. . غير صحيح أن أحضان المرأة تجرد الرجل من شجاعته، إنني مدين بربع حماسي للأسابيع الثلاثة التي أمضيتها في السجن، وبثلاثة أرباع حماسي للشجاعة التي رأيتها في كاميليا، لإصرارها على المقاومة، لاستهتارها بالخطر، لإيمانها بأن في قدرة كل واحد منا أن يقاوم الطغيان!

وعاد الشقيقان يستعرضان أسماء سكان العمارة يبحثان عمن يصلح فيها ليكون عضواً في الفريق الذي قررا أن يؤلفانه لمقاومة الظالمين.

وبدأ عمر شفيق يسخر منهم واحداً واحداً وهو يقول:

ـ لنبدأ من فوق. . لنبدأ من الدور السابع. . المليونير صادق عبدالعظيم. . هل يمكن لرجل مثل هذا أن ينضم إلى فريق الغاضبين؟ إنه أحد زعماء حزب الأمر الواقع. أولئك الذي يقاومون كل تغيير، ويحاربون كل رأي جديد. إن مصلحته أن يبقى كل شيء على حاله، ليبقى هو على السطح، في أعلى العمارة، يقيم وحده في شقة من ١٦ غرفة بينما ألوف الناس تنام على الأرصفة. . . لنترك السطوح ولننزل إلى الطابق الأرضي. . نجد محمود أبو بكر المفتش بمصلحة الأموال المقررة. . إنه رجل يجاهد فوق سجادة الصلاة، يتصور أن دعواته هي وحدها التي ستغير الحال. إنه لا يهتم بالألوف الذين ينامون على الأرصفة. . لا يفكر في أن يقترح أن تبني مصلحة الأملاك على الخرائب التي تملكها بيوتاً لهم. . وإنما يفكر في القصور التي سوف يسكنها هؤلاء

في الجنة. . أم تريد أن نضم لنا الدكتور أحمد العروسي الذي يعارض في حرب فلسطين، لأن موسكو اعترفت باسرائيل، ويستنكر أن يطلق الفلاحون والعمال المصريون الرصاص على الفلاحين والعمال الاسرائيليين، ولا يستنكر طرد مئات الألوف من بيوتهم وذبح الأطفال العرب، وفتح بطون نساء العرب بالخناجر والسكاكين؟. .

وهزّ شامل شفيق رأسه وهو يسمع رأي شقيقه عمر في سكان العمارة ولكنه قال:

ـ إننا لو وضعنا الناس على المشرحة، لما بقي واحد منهم على قيد الحياة. ولو أن أحداً من سكان العمارة غيرنا يفكر فيما نفكر فيه واستعرض أسماء سكان العمارة ووضعني أنا وأنت على نفس المشرحة، لاستبعدنا أنا وأنت وقال إن شامل شفيق لا يصلح لأنه لا يهمه في الحياة إلا كرة القدم، ولأنه عشيق للممثلة كاميليا، ولأنه يحب جارته فوزية برسوم، ولقال إنك أنت عمر شفيق آخر من يصلح لهذه المهمة لأنك مجنون بنادي فاروق، ولأنك مجنون بحب جارتنا أميرة برسوم. . ولحكم علينا نحن الإثنين بأننا من الشباب المنحل الغارق لأذنيه في التفاهات والشهوات. . ولكنني أنا وأنت تغيرنا في لحظات، وممكن أن يتغير غيرنا في لحظات. . ممكن أن يروا الشعاع الذي رأيناه في ظلامنا. ممكن أن ينسوا كرة القدم كما نسيناها. . إن المحركات الوطنية تختلف عن التجنيد في الجيوش. إنها لا تحتاج إلى كشف طبي وكشف هيئة وتحليل بول وتحليل دم واستخراج صفحة سوابق. إنها يوم قيامة جديد، بداية حياة جديدة، تحاسب على ذنوب المستقبل لا على جرائم الماضي. تقبل المشوهين لأنها تؤمن بأن الكفاح الجديد يرد لهم أعضاءهم المقطوعة، تقبل الضالين لأنها تعتبر انضمامهم للحركة دخولاً إلى حمام يغسل كل خطاياهم، وبهذا نرد لهم اعتبارهم، ونفتح لهم صفحات جديدة. . لو

أن رسول الله رفض أن يضم إلى ثورته كل من عبد الأصنام لما استطاع أن ينتصر. إنه فتح بابه لكل الناس. إنه اعتبر من دخل مسجده فقد آمن، ومن دخل بيت عدوه فقد آمن!

□□□

وعندما كان شامل شفيق ينتظر المصعد رأى صبحي خالد قادماً نحو المصعد، ثم رأى عزيز علاء الدين وراء صبحي خالد..

وفتح باب المصعد ودعاهما للدخول، وبعد أن أغلق باب المصعد ضحك وقال:

ـ فرصة سعيدة.. أن يجتمع الذين جمعهم سجن الاستئناف في مصعد واحد!

وقال صبحي خالد وهو يتنهد:

ـ كلما دخلت المصعد تذكرت زنزانتي في سجن الاستئناف.. إن حجم المصعد هو حجم الزنزانة تقريباً!

قال شامل شفيق:

ـ لقد فكرت أن نجتمع نحن الثلاثة ونتبادل الذكريات من سجن الاستئناف...

وقال عزيز:

ـ هيا إلى شقتي.. إن غرفة مكتبي تشبه زنزانة سجن الاستئناف.. وبذلك لا نشعر بالغربة!

ورحب شامل بالفكرة..

وهز صبحي خالد رأسه مستسلماً..

وضغط شامل على زر الطابق السادس حيث يسكن الصاغ عزيز علاء الدين.

وفتحت لهم شريفة باب الشقة. وفوجئت بهم وهي بملابس البيت، فأسرعت تختفي من أمامهم بينما عزيز يضحك ويقول:

ـ إنهم ليسوا أغراباً.. إنهم زملائي في سجن الاستئناف!

وأجلسهم عزيز في غرفة المكتب، وخرج إلى زوجته شريفة يطلب إليها أن تعد لهم القهوة وتحضرها لهم ثم عاد إلى ضيفيه فوجدهما صامتين.. وسألهما ضاحكاً:

ـ لماذا أنتما صامتان؟ هل لا تزالان تنفذان تعليمات مأمور سجن الاستئناف بضرورة إغلاق الأفواه؟

قال صبحي خالد:

ـ لا فرق بين الحياة في الزنزانة والحياة خارج الزنزانة.. هناك أقفال على أبواب الزنازين.. وهنا أقفال على أفواهنا حتى لا نتكلم... وأقفال على عيوننا حتى لا نرى.. وأقفال على عقولنا حتى لا نفكر!

قال شامل:

ـ ولكن في يدنا أن نحطم هذه السلاسل والأقفال.. وإلا كان كل واحد منا أشبه بالشاويش فتيحة؟.. كل واحد منا سجان نفسه.. شريك للظالم، عدو للحرية، لا، إننا سياط في أيدي جلادينا!

وضحك عزيز وقال:

ـ كيف أستطيع أن أحطم سلاسلي وقد فقدت أصابعي العشرة؟

قال شامل:

ـ إننا لا نحتاج لأصابع لنحطم سلاسلنا. . إن الفأر لا يستعمل يديه في تحطيم السلاسل، إنه يقرضها بأسنانه!

وقهقه صبحي خالد وقال:

ـ قولك إن الفأر يقرض سلاسله، ذكرني بحكاية. . إن الأسد لاحظ الفوضى في الغابة فاقترح أن تختار الحيوانات ملكاً للغابة، بشرط أن يطيع جميع الحيوانات أوامره. ووافقت الحيوانات. وهمس الأسد في أذن الكلب: سأقترح أن تكون أنت الحاكم، على أن تطيع أوامري. فوافق الكلب ولكنه اشترط أن يتظاهر الأسد بطاعته حتى تخشاه كل الحيوانات وتصبح له هيبة بينها، وأنه لهذا سيبدأ حكمه بأن يصدر أمراً بسجن الأسد، فما على الأسد إلا أن يدخل في القفص متظاهراً بالذلة والخضوع، وبعد ذلك يفتح له الكلب الباب. وقبل الأسد هذه الفكرة. وتولى الكلب الحكم وأصدر مرسومه الأول. وتظاهر الأسد بالخضوع لأمر الكلب فدخل القفص، وأغلق الكلب الباب بالسلاسل. . وانتظر الأسد أن يفي الكلب بالوعود التي قطعها، ولكن الكلب تركه مسجوناً في القفص!

إن سلطان الحكم ينسينا أصدقاءنا، وخمرة الكرسي تنسينا الوعود التي قطعناها على أنفسنا!

ورأى الفأر الأسد ذليلاً في سجنه، فاقترب منه وقال له: ما رأيك لو حطّمت هذه السلاسل، هل تجعلني أنا الحاكم وتأكل الكلب؟ ووافق الأسد. وبدأ الفأر يقرض السلاسل حتى تحطمت وفتح باب القفص. وخرج الأسد. وفوجىء الفأر بالأسد يخرج من القفص ولا يتجه نحو

المكان الذي فيه خصمه الكلب ليفترسه ويأكله، وإنما اتجه إلى خارج الغابة. . وأسرع الفأر نحوه يقول له: لماذا تترك الغابة؟ قال الأسد: إن البلد الذي يدخلك الكلب فيه إلى السجن، ويخرجك الفأر من السجن، لا يستحق أن يعيش فيه أسد أو أحد!

وضحك عزيز علاء الدين. .

واحمر وجه شامل شفيق وقال:

ـ ولكننا لسنا فيراناً في هذا البلد. . إننا لا نريد كلباً يحكمنا. . ولا نريد أسداً يفتك بنا. . إننا نريد دستوراً يحكمنا، وقانوناً يعدل بيننا. . إننا الآن غابة، ونريد أن نتحول إلى بلد. ويوم نترك بلدنا كما تركها الأسد، سيتبادل الحكم فيها الفيران والكلاب!

قال صبحي خالد:

ـ إن كل الأمل في صفحة الوفيات. . يوم ينشر اسم كل حكام مصر وكل زعمائها في صفحة الوفيات. . سينشر اسم مصر أوتوماتيكياً في عمود المواليد. . ستبعث من جديد. . لا أمل لحياة مصر وهؤلاء الرجال على قيد الحياة!

قال عزيز علاء الدين:

ـ إنك من المؤمنين بالاعتماد على الزمن. كأنك ترى أن كل ما تحتاج إليه مصر هم رجال جدد. . إن تاريخ الشعوب لم يعد تاريخ رجال، بل أصبح تاريخ أفكار. نحن لسنا في حاجة إلى رجال جدد، ولكننا بحاجة إلى أفكار جديدة!

قال صبحي:

ـ هـل الأفكار هي التي تصنـع الرجـال، أم الرجـال هم الذين يصنعون الأفكار!؟ إننا أشبه بالذين يتناقشون: هل خرجت البيضة من الكتكوت. أم خرج الكتكوت من البيضة؟ إننا في حاجة إلى البيضة والكتكوت معاً. في حاجة إلى رجال جدد وأفكار جديدة.

قال شامل:

ـ إن الأفكار الجديـدة لا تولـد إلا في رؤوس الساخـطين.. إن الشباب يجب أن يرفض كل شيء، يرفض المؤسسات القائمة، يرفض النظام القائم، يرفض الزعـامات المـوجودة، يـرفض الملك، يرفض الأمراء، يرفض الهزيمة الأمر الواقع!

ودخلت شريفة تحمل صينية فوقها ثلاثة فناجين للقهوة، فلم يشعر الجالسون بدخولها. فقد انهمكوا في سماع حديث شامل شفيق عن رفض كل شيء. وضحكت شريفة وقالت:

ـ وهل ترفضون القهوة أيضاً؟

وضحكوا لدعابتها، ودعاها عزيز أن تجلس معهم، وهو يقول:

ـ إن شريفة ساخطة مثلنا!

قالت شريفة وهي تتخذ مقعداً إلى جوار زوجها عزيز!

ـ لست وحدي الساخطة.. إن البلد كله ساخط، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل؟!

إن هناك انفصالاً بين واقعنا وأحلامنا. إن علينا أن نبني كوبـري لنعبر الهوة بين الواقـع التعس والأحلام الجميلة.. ولكننـا نبني هذا الكوبري بقصائد من الشعر، وبأغاني وأناشيد المطربين والمطربات..

إن هذه القصائد والأناشيد لا تصلح جسراً بين الواقع والأحلام، إنما هي مخدر، حشيش يشربه الشعب، يدمن عليه ويتخيل أنه في طريقه إلى أحلامه، بينما الواقع أنه قابع في واقعه لا يتحرك. الهوة تتسع بين واقعه وأحلامه، وهو يتصور أنه يعبرها بهذه القصائد والأناشيد!

وهزّ شامل شفيق رأسه وكأنه يسمع موسيقى. وتمنى بينه وبين نفسه لو كان شقيقه عمر شفيق معهم ليسمع امرأة ساخطة، ليعرف أن المرأة لا تطفىء الثورة وإنما تشعلها. إن كلمات شريفـة تشبه صـوت نفير يعلن بداية المعركة!

وقال شامل وهو ينظر إلى شريفة بنفس الإعجاب الذي ينظر به إلى لاعب الكرة أبو حباجة:

ـ المشكلة أن كل واحد منا يسأل ماذا نفعل... ولا يعـرف ماذا نفعل؟!

قالت شريفة في حماسة:

ـ إن الطاغية دائماً يختار بنفسه السلاح الذي يقتله.. أنتم الثلاثة آخر من يسأل ماذا نفعل.. لأن الطاغية قال لكم ماذا تفعلون.. إنه دلّكم على الطريق.. أرشدكم إليه. ولكنكم لم تفهموا!

وفتح الثلاثة أفواههم في دهشة وقالوا:

ـ قال لنا؟..

قال عزيز لزوجته في ذهول لكلامها الغريب:

ـ إنه لم يقل لنا شيئاً.. لم يدلنا على شيء.. لم يرشدنا إلى شيء لقد قلت لك إن أحداً لم يسألنا طوال الثلاثة أسابيع سؤالاً واحداً!

قالت شريفة:

ـ لقد قلت لي إن مأمور السجن قال لكم يوم الإفراج عنكم إنكم متهمون في المؤامرة الكبرى. . إنكم اشتركتم في عمل مؤامرة لقلب نظام المملكة. . وإنه ثبت أنكم أبرياء. . وإنه طلب منكم أن لا تفتحوا أفواهكم. . إن واجبكم الآن أن تثبتوا أن التهمة الباطلة صحيحة. . أن تقلبوا التلفيق إلى حقيقة. . أن تتآمروا فعلاً. . أن تصدقوهم في اتهامهم. . إنهم بهذا التلفيق دلوكم على السلاح الذي يقهرهم ويهزمهم!

وقفت شريفة، وحملت الصينية، وجمعت فوقها فناجين القهوة الفارغة، وخرجت، وتركت الثلاثة صامتين. .

وعندما أقفلت الباب قال صبحي خالد:

ـ إن زوجتك لم تحضر لنا القهوة فقط. . إنما أحضرت منشوراً ثورياً!

وعندما انفضّ اجتماعهم أحس كل واحد من الثلاثة بأن شيئاً يجمعهم. . شيئاً أكبر من فنجان القهوة. . شيئاً أكبر من شريفة.

ولكن شامل شفيق خرج من شقة عزيز علاء الدين وهو يفكر في المرأة. المرأة التي يقول والده اللواء حسن باشا شفيق إنها لا تساوي إلا صفراً؟

إن شريفة أثبتت بحديثها اليوم أن قيمة المرأة بالمكان الذي تقف فيه. إن الصفر إذا وقع إلى يسار الواحد منا لا تنقص قيمته ولا تزيد، يبقى واحداً كما هو. وإذا الصفر وقف إلى يمين الواحد منا زادت قيمته وأصبح عشرة. أما إذا بقي الصفر وحده فإنه لا يزيد في قيمته على صفر. .

وشريفة عندما وقفت إلى يمين عزيز أصبح (١٠) وكاميليا كامل عندما وقفت إلى يمين شامل شفيق أصبح عشرة. . وأميرة برسوم تقف إلى يسار شقيقه عمر شفيق فلا ترفع قيمته الحسابية أكثر من رقم الواحد الصحيح!

ولاحظ شامل أن شريفة تتحدث بنفس لغة كاميليا، مع فارق بسيط، هو أن شريفة زوجة وكاميليا عشيقة. . شريفة متعلمة وكاميليا مثقفة. . ولكن شيئاً ما يجمعها، شيئاً لا يدريه. . هل في حياة شريفة سعدون باشا آخر هددها كما هدد سعدون باشا كاميليا؟ إن المرأة عندما تجرح تخرج أحسن ما فيها. إنها مثل القطة، ضربة سوط واحدة تجعلها تجري من الذعر، ولكن ضربات سوط متعددة تحول القطة الوديعة إلى نمرة مفترسة. النار التي تتعرض لها المرأة لا تحولها إلى لهيب. لقد بدأ شامل يفكر في أن يضم المرأة إلى الفريق الذي يريد ان يكونه. . الفريق الذي يبني الجسر لنعبر عليه الهوة التي تفصل واقعنا المؤلم عن أحلامنا العظيمة!

وبينما كانت شقة عزيز علاء الدين في الطابق السادس تفكر في إنشاء جسر بين الواقع والأحلام، كانت الشقة التي تحتها في الطابق الخامس، وهي جرسونييرة سعدون باشا، تفكر في تكريس الواقع، والمحافظة عليه، في حمايته من أي تغيير أو تبديل.

وكانت الشقة التي تحتها في الطابق الرابع، وهي شقة الأميرة ببا، أو الراقصة ببا سابقاً، تفكر في أحلام مختلفة عن الأحلام التي تملأ الشقة في الطابق السادس!

كانت سقوف الأدوار لا تفصل بين الشقق، وإنما تفصل بين أفكار مختلفة، بين مدارس مختلفة، بين أجيال مختلفة.

في الطابق السادس شعب يريد أن ينتزع السوط من طاغية، وفي الطابق الخامس طاغية يريد آن يلهب بسوطه هذا الشعب، وفي الطابق الرابع غانية تريد أن تحكم الطاغية والشعب معاً. في الطابق السادس شبان يفكرون في ضم نساء إلى فريق الفدائيين، وفي الطابق الخامس سلطان يفكر في ضم نساء جدد إلى جواريه ومحظياته.. إلى الحريم.. وفي الطابق الرابع امرأة تفكر في الفريق الذي كوّنته من أصدقاء الأمير عادل عمرو، وجعلت الرجال حريماً لها، تحركهم كما تشاء لتحقق أغراضها وتفرض سلطانها وتبسط نفوذها...

كانت ببا في تلك اللحظة قد انتهت من «مناقشتها» الجديدة مع فوزي بك صلاح الدين. إنها نفذت وعدها بأن تمنحه موعد غرام. جاءت من بيت الهرم إلى شقة العجوزة لتسدد كمبيالة الهوى. ولكنها لاحظت أن فوزي بك لا يشبع منها. إنه يلح عليها أن تقابله كل يوم. كان عطشه يزداد كلما ارتوى، وهي لهذا تريد أن تعطيه بالقطارة، حتى لا يزهد فيها.. فالرجال الذئاب أمثال فوزي بك، يصابون بالإدمان إذا حرموا، ويشفون من إدمان امرأة معينة إذا رأوها في متناول أيديهم كل يوم.

ولهذا فإنها صارحته بأنها لا تستطيع أن تلقاه باستمرار، لأن هذا يعرض زواجها من الأمير عادل إلى الخطر.. لا تستطيع أن تكون طعامه اليومي.. وإنما تستطيع أن تكون فاكهته التي يذوقها مرة كل شهر.. أو مرة كل ثلاثة أسابيع. ويقبل فوزي بك شروط ببا على مضض. ثم يطلب إليها أن تحاول استمالة جارتها إحسان زوجة صبحي خالد المفتش في ديوان المحاسبة..

وروى قصة الساعات الثلاث التي أمضاها بين ذراعي إحسان،

وكيف قبض على زوجها، لكي يخلو له الجو، وكيف انقلبت إحسان من النقيض للنقيض. من امرأة تثيره وهي عارية، إلى امرأة تنكد عليه الحياة وهي تلف رأسها بطرحة سوداء تمسك بيدها مسبحة.. من امرأة تخرج من شفتيها أحلى القبلات إلى متصوفة تخرج من شفتيها الاحاديث الدينية التي تدعو إلى التوبة وتلعن الفاسقين.

وضحكت ببا وهي تسمع بالانقلاب الغريب الذي حدث في إحسان، ووعدت بأن تستعمل ذكاءها وخبرتها وتجاربها في أن تنقلها من المعبد الذي أقامته لنفسها في الطابق الثاني إلى جرسونبييرة سعدون باشا في الطابق الخامس وإذا ببا تكتشف أن كل شلة الأمير جائعة إلى الحب!

إنها تذكر كيف سكر سعدون باشا في إحدى الليالي الأخيرة وهو جالس إلى جوارها في بيت الهرم، وسقطت الدموع من عينيه وهو يروي لها خيبة حبه لشريفة زوجة عزيز علاء الدين المقيمة في الطابق السادس من عمارتها، وخيبة حبه من الممثلة كاميليا كامل التي خطفها منه الطالب شامل شفيق المقيم في الطابق الثالث من نفس العمارة، وراح يتوسل إليها أن ترشده بنصائحها الغالية وبخبرتها في الحب كيف يستعيد المرأتين اللتين هجرتاه!

ولقد فكّرت ببا في تلك اللحظة بأن تعرض عليه أختها كوكو لتحل محل شريفة وكاميليا. ولكنها ترددت لأنها اتفقت مع أمها أن تكون كوكو زوجة لسعدون باشا وليست عشيقة له.. ورأت أنها إذا ساعدته في اكتساب قلب شريفة أو قلب كاميليا، فإنها بذلك تضعه تحت سيطرتها، ويصبح زواجه من شقيقتها كوكو مسألة هيّنة، سهلة لا تحتاج إلى مجهود أو إلى تدبير..

وأحست ببا برغبة في أن تلوث كل النساء في عمارتها!

لماذا تكون هي المرأة الوحيدة في العمارة ذات الماضي؟ لماذا هي المرأة الوحيدة في العمارة التي سقطت في يدي القواد سلامة؟ هل العمارات العالية تحمي النساء من السقوط، أكثر من الأبنية الصغيرة المتهدمة؟ هل الهواء في حارة السد يشجع على السقوط، والهواء في حي العجوزة يمنع السقوط، هل هواء حارة السد هو الذي يحمل الطين الذي لوّث حياتها؟

إنها أصبحت أميرة. . . أصبحت زوجة أكبر أمير في الدولة بعد الملك. . تخلصت من سابقة الحكم عليها في قضية الدعارة. . ومع ذلك فإنها تشعر برغبة في أن تمد يدها وتدفع الجالسات في سطوح الشرف والعفاف ليسقطن في الحضيض الذي سقطت يوماً فيه!

إنها لا تفهم سر هذه الرغبة الجامحة التي تملكتها فجأة. . هل تريد أن تلوث النساء كلهن حتى تعلن زواجها بالأمير عادل فلا تمتد إليها يد بالاتهام، أم هي تريد أن تنتقم من المجتمع الذي لم يحمها من السقوط؟ أم أننا عندما نصاب بعاهة نتمنى أن تصاب الدنيا كلها بنفس عاهتنا حتى لا نبدو مختلفين عن عالمنا؟ أم أنها تريد أن تسيطر على عدد من النساء كما سيطرت على عدد من الرجال، ان تحرك بهن الرجال كما يحركها الأمير يحركها بأصابعه؟ أم أنها تغار من كل امرأة شريفة كما يغار المعدوم من الاقطاعي، ويتمنى أن تنتزع الأرض من كل مالك حتى تتحقق له المساواة، بدلاً من أن يفكر يصبح كل معدم صاحباً لأرض؟ أم أن هذه الرغبة الجامعة لكل هذه الأسباب مجتمعة، وليست لسبب واحد بذاته؟. .

وبدأت تستعرض نساء العمارة واحدة واحدة. . واحتارت هل تبدأ من الطابق الأول، أم من الطابق الأخيرة؟!

ورأت فجأة أن تبدأ من الطابق السادس. . من شريفة زوجة عزيز علاء الدين. .

وساءلت ببا نفسها لماذا اختارت أن تبدأ بشريفة: هل لأنها أصعب النساء. . أم لأنها أسهلهن؟

إنها قابلتها في المصعد مع زوجها عزيز علاء الدين. . ورأت زوجها المشوه. . زوجها الذي فقد أصابعه العشرة. . إن المسكينة محرومة من أجمل لذة تشعر بها المرأة من لذة إطباق ذراعيه حول خصرها. من لذة الأصابع التي تقرص جسدها في قسوة وحنان، في شهوة وجنون، في وحشية ورقة!

وابتسمت ببا في ثقة وقالت وكأنها تفكر بصوت عال:

ـ لنبدأ بشريفة!

ـ ٢٠ ـ

لم تكن حياة شريفة سهلة مع الأصابع العشرة المقطوعة!

كان زوجها عزيز علاء الدين يعيش بغير هذه الأصابع. أما شريفة فقد كانت تعيش طوال يومها وليلها مع أصابع زوجها المقطوعة. إنها ترى هذه الأصابع كلما نظرت إلى يدي زوجها المشوهتين. ترى بصماتها مطبوعة على الجدران، مطبوعة على الفراش، مطبوعة على وجه زوجها. مطبوعة على قلبها وروحها وتفكيرها!

وحاولت شريفة أن تنسى هذه الاصابع المقطوعة التي شوّهت سعادتها. حاولت أن تتخيل أنها تزوجت رجلاً بغير أصابع. حاولت أن تكيف حياتها في نطاق هذه العاهة، إنها تحاول أن تهرب من الحاضر

الكئيب إلى ذكريات الماضي الجميلة.

إن ذكرياتنا هي المخابىء التي نختفي فيها هرباً من غارات الحاضر. وإذا بها تجد في هذه المخابىء أصابع عزيز العشرة. كل ذكرياتها الحلوة فيها أصابعه. إشارته لها من نافذة بيته أمام بيتها في شارع الملك كانت بأصابعه. الخطاب الأول الذي حدد لها فيه موعد لقائهما الأول كان مكتوباً بأصابعه. الورقة التي طواها وألقاها في حديقة دارها، ألقاها بأصابعه. لحظات السعادة والمرح والاندماج والانسجام التي عاشت فيها بين ذراعيه، تكلمت فيها أصابعه أكثر مما تكلمت شفتاه. كأنها تهرب من أصابعه إلى أصابعه!

إننا عندما نحاول أن ننسى شيئاً، نجد أننا نتذكر أكثر وأكثر. فنحن نعذب أنفسنا كي لا نتعذب. نلعب في جروحنا لنشفيها. وعندما تفكر شريفة في المستقبل تشعر أن قلبها ينقبض انقباضاً أليماً. كأننا في حاجة إلى أصابع عشرة لنقلّب صفحات النتيجة المعلقة على الحائط لنصل إلى صحيفة الغد. حتى الأمل في الغد، هو حق لكل البائسين والمعذبين والمظلومين تجد نفسها محرومة منه..! الغد بالنسبة إليها حزين رهيب، بارد غريب.. غد بغير أصابع!

وأقسى لحظات العذاب في حياة شريفة هي اللحظات التي تحاول فيها أن تخفي هذا العذاب عن زوجها عزيز. كثيراً ما أحست بالدموع توشك أن تطفر من عينيها، وهي تراه في عجزه وشقائه، سجيناً في عاهته، فتحاول أن تخفي دموعها في ضحكة مصطنعة، أو تخرج من الغرفة التي تجلس معه فيها، وتدخل الحمام، وتغلق الباب على نفسها، وتنزوي في الحمام لتذرف الدموع الصامتة التي جاهدت في إخفائها عن عزيز.

وعندما تكون إلى جواره في الفراش تغمض عينيها، وترقبه من تحت جفونها المغلقة وهو نائم، فترى رموش عينيه ترتعش كأنه يبكي بغير دموع، وتسمع أنفاسه كأنها أنين صامت.. هذه الدموع وهذا الأنين تخرج من جثة ميت، جثة لا تستطيع أن تدفنها وتوريها التراب، إنما هي تعيش معها، وترقد بجوارها.. والجثة تتحلل مع الأيام، لا تتحول إلى عدم، وإنما هي تنمو، مع الزمن، تكبر، يتضاعف حجمها، ويزيد عمرها وتنبت لها لحية بيضاء!

إن المصائب تصغر مع الزمن، تتضاءل مع الوقت، تنكمش مع الأيام، ولكن مصيبة شريفة تختلف عن مصائب البشر. إنها تكبر وتكبر، فحالة عزيز اليوم أسوأ مما كانت بالأمس، وهي اليوم أقل سوءاً مما ستكون عليه في الغد، فهي أرملة لزوج على قيد الحياة، أرملة وليست أرملة، زوجة وليست زوجة، عانس ومتزوجة.

وهي مع ذلك تحاول أن ترفع معنوية عزيز، وفي حاجة إلى من يرفع معنويتها هي، تحاول أن تجعله ينسى أنه فقد أصابعه العشرة ولا تستطيع هي أن تنساها. تحاول أن تعوّده على حياة جديدة بغير أصابع، ولا تقدر أن تعوّد نفسها على هذه الحياة.. تريد أن تفك عقدته، فتضاعف عدد عقدها.. كأنها وهي تفك عقدته تربط عقدتها، وهي تعالجه تمرض، وهي تشفيه تموت..

إنها تحس بأنها امرأة هزمت بغير أن تحارب. الهزيمة تصيبنا بالحيرة، تسلمنا إلى ظلام اليأس. تجعلنا نتضاءل أمام أنفسنا. فعندما نسقط على الأرض نرى الأشياء أطول مما نراها ونحن وقوفاً على أقدامنا.. حتى آلة التصوير إذا التقطت صورة لإنسان من تحت قدميه بدا عملاقاً، بينما نفس الكاميرا إذا التقطت الصورة للشخص نفسه في

مستواه بدا حجمه عادياً.

وهكذا أصبحت شريفة في هزيمتها ترى الأقزام عمالقة، والبيوت الصغيرة عمارات شاهقة، والمصيبة التي تعيشها كارثة لا نجاة منها!

وقد استطاعت مرة واحدة أن تقف على قدميها عندما قاومت سعدون باشا. . عندما دافعت عن شرفها وعرضها. . عندما أبت أن تبيع جسدها لتشتري لزوجها أصابع صناعية. ولكنها بعد هذا المجهود العنيف هوت من جديد على الأرض، عاشت في هزيمتها، عاشت مع جثة زوجها، تحول البيت الجميل إلى قبر، فيه سكون القبر، فيه وحشته، بل فيه ظلاله.

إن عزيز أصبح يكره النور. إنه يفضل أن يجلس معها وقد أطفأ النور، كأنه يتصور أنه يخفي في الظلام عاهته عنها. وهي ترى العاهة في الظلام كما تراها في النور. تراها عندما تفتح عينيها وعندما تغلقهما. لأن العاهة لم تعد في زوجها وحده، بل أصبحت في داخلها أيضاً.

إنها تحس أنها أشقى من زوجها. لأنه يتأوه بصوت وهي تتأوه بلا صوت. فصراخنا يخفف عذابنا. فنحن عندما نعبر عن الألم نضمد جروحه بهذا الأنين. دموعنا تغسل الدم الذي ينزف من جروحنا. ولكننا عندما نخنق صرخاتنا في حناجرنا، تتحول إلى خناجر جديدة تغمد في قلوبنا. أو كأننا نحبس دموعنا في مآقينا، فتتحول عبراتنا إلى دماء جديدة تنزف في أعماقنا.

إن شريفة أصبحت قابعة في شقتها. قطعت صلتها بالعالم الخارجي. رفضت أن تبارح بيتها لزيارة صديقاتها وقريباتها. حتى بنت خالتها حكمت الشواربي التي كانت أشبه بأخت لها انقطعت عنها. كأن

شريفة هي التي قطعت أصابعها العشرة. وكأنها تخشى لو أن أحداً رآها لعرف أنها مشوهة. . .

أو كأنها لا تريد أن تزور صديقاتها وقريباتها فيجئن لرد الزيارة، ويرين الجثة التي في بيتها. فمن عادة المرأة أن تباهي بزوجها، أن تحرص على أن يراه كل الناس، كأنه عقد من اللؤلؤ في جيدها، أو خاتم من الماس الثمين في إصبعها. ولكن يوم يصبح عقد اللؤلؤ أو خاتم الماس على بشرة وجهها لتخفي تجاعيده، أو تطيل ثوبها لتخفي اعوجاج ساقيها، أو تنزل الشعر على رأسها لتخفي أثر جرح في جبهتها.

وشريفة تشعر أنها غير قادرة على أن تخفي عاهة زوجها. إن عزيز عندما يخرج إلى الشارع يضع يديه المشوهتين في جيبي الجاكتة، وهو يتصور أنه بهذه الطريقة يخدع الناس، وأن أحداً لن يتصور أنه بغير أصابع. ولكنه لا يكاد يجلس في مكان حتى ينسى نفسه، ويخرج يديه من جيوبه، فيلفتان النظر على الفور، ويلاحظ بعينه نظرة الإشفاق في عيني محدثه، فيكتئب ويقاسي كأن هذه النظرة المشفقة أذلت كبرياءه، وكشفت عن عاهته التي توهم أنه أخفاها!

وعندما حضرت شريفة اجتماع عزيز بجاريه صبحي خالد وشامل شفيق وحدثتهما عن رأيها فيما يجب أن يفعلاه، أحست بأنها تحاول أن تعيد الروح إلى جثة زوجها، وهي تعيد الروح إلى بلدها. . إن بلدها مشوه مثل عزيز، مهزوم مثله، قطعت أصابعه العشرة لكي لا يستطيع أن يشير بها إلى المسؤولين عن محنته، ويحددهم واحداً واحداً.

والشعب مثلها، يعيش مع هزيمته، مع جثة أحلامه، كما تعيش هي مع زوجها، مع جثة أحلامها. . .

الشعب يعاني ويقاسي كما تعاني وتقاسي. يبكي بغير دموع مثلها، يئن بغير صوت مثلها. يشعر أن شيئاً في داخله مشوه، يحس بأن أحلامه تحطمت كما تحطمت أصابع عزيز. يريد أن يخفي عاهته عن الناس كما يفعل عزيز. لا يعرف ماذا يفعل، فيشعر بالعجز، ويشعر بالتضاؤل ويقاسي ذل الهزيمة الرهيب.

ولكنها قالت لعزيز وزميليه ماذا يفعلون. وتصورت أنها أضاءت شمعة بدلاً من أن تلعن الظلام. إن عزيز سيرى النور الذي رمته شريفة لهم وهم يشربون القهوة. ولكن عزيز بقي صامتاً. لم يعلق بكلمة واحدة على الآراء التي أبدتها. واستمر يزفر كما كان يفعل دائماً. . كأنه لا يصدق أنه يمكن عمل شيء. كأن الموضوع قد انتهى بنهاية فنجان القهوة الذي شربوه. كأنه يعتقد أن الزفرات وحدها تكفي لصنع المعجزات.

صحيح أننا لسنا في عصر المعجزات. صحيح أن عهد إحياء الاموات قد انتهى من زمن طويل مع انتهاء الانبياء. ولكن شريفة تعتقد أن الفكرة التي رمتها في حديثها ممكن أن تسعد بجوارها وترقد بجانبها. لو أن عزيز وزميليه اعتنقا فكرتها، فسوف يتحرك الدم في الجثة وتبدأ في النبض من جديد. ثم بعد ذلك سوف تتحرك. ثم بعد ذلك ستقف على قدميها. .

إن هذه الفكرة سوف تغيّر حياتها هي. سوف يكون هناك شيء تعيش له. تكافح من أجله. تحلم به. ستغير القبر الذي تعيش فيه. سينبض بالحياة. سيتحرك. سيتحول إلى قلب يحرك هذا الشعب. سيعطيه العيون التي يرى بها، سيعطيه اللسان الذي يتكلم به. . سيجعله يفكر في مأساته. . سيتحول من حطام إلى قلعة، من هباء إلى حقيقة، من جثة إلى حياة. . .

وبينما كانت شريفة تفكر في هذه الخواطر، دق جرس الباب، وتصورت أن عزيز عاد من نزهته اليومية قبل موعده المعتاد. . فأسرعت إلى الباب تفتحه. . وإذا بها تجد أمامها الراقصة ببا فهمي التي تعرف أنها تسكن في الطابق الرابع. .

وتراجعت ببا إلى الوراء وهي تتظاهر بالدهشة، وقالت:

- إنني آسفة. . يظهر أنني أصبت بالعمى. . فبدلاً من أن أضع إصبعي على زر الطابق الرابع حيث أسكن، وضعت اصبعي على زر الطابق السادس حيث تسكنين!

قالت شريفة:

- إنها فرصة سعيدة. . تفضلي!

وتصورت شريفة أن ببا لن تقبل الدعوة، وفوجئت ببيا تقول لها:

- كان واجباً علي أن أزورك، بمناسبة حادث عزيز بك. . ولكنني خجلت أن أحضر إليك بلا معرفة سابقة. . ولكن يظهر أن القدر شاء أن أقوم بالزيارة التي كنت أتمناها، فجعلني أخطىء في الطابق. . ولهذا فسوف أنتهز فرصة هذا الخطأ وأدخل. . إن فيك شيئاً يسحرني، يجذبني إليك. . ولهذا لا أستطيع أن أرفض دعوتك!

كانت ببا وهي تحدث شريفة تتفرسها بوقاحة. كأنها تقيس طولها وعرضها. وخاصة عرضها!

كأنها كانت تزنها، لتعرف من أي معدن هي. كم يتحمل المعدن في المقاومة قبل أن يذوب تحت نار إغرائها. وكانت وهي تتفرس فيها تضحك وتبتسم، وتهز يدها في حب، وتضغط عليها في عطف وإعزاز.

ولم تتمالك شريفة نفسها فدعتها، دون أن تفكر، إلى الدخول، وتقدمتها إلى الصالون. ولم يخطر ببالها أن ببا تنفذ خطة رسمتها. وأنها لم تخطىء في زر المصعد، وإنما عرفت أنها تصعد إلى الطابق السادس.. ولم تخطىء في باب الشقة إنما كانت تفهم تماماً أنها شقة شريفة.. وأنها اختارت هذا الوقت بالذات لأنها رأت عزيز علاء الدين وهو يغادر العمارة، فوجدت هذه فرصتها الذهبية لتنفرد بشريفة!

وبدأت ببا تبدي إعجابها بذوق شريفة في اختيار أثاث الصالون. إن كل أم تطرب لسماع الإطراء في جمال أولادها وكل صاحبة بيت تهتز سعادة عندما تسمع أحداً يثني على أثاث بيتها، إن هذا الإطراء البسيط هو مقابض تفتح القلوب المغلقة للنساء!

ثم التفتت ببا إلى وجه شريفة وقالت لها:

ـ إن هذه أول مرة أراك فيها عن قرب.. كنت أراك عن بعد فأرى أنك رائعة الجمال، ولكن عندما اقتربت منك وجدتك أروع فتنة مما رأيتك عن بعد.. من حسن حظي أنك لا تعملين في السينما، وإلا لما نظر مخرج إلى وجهي!

واحمرّ وجه شريفة خجلاً، وهي تسمع امرأة جميلة ترفع الراية البيضاء استسلاماً أمام جمالها.. إن المرأة يغمرها ثناء الرجال، ويطربها ثناء النساء، ولكن ثناء المرأة الجميلة على جمالها يجعلها تطير بجناحين من الفرح والسعادة إلى السماء!

قالت شريفة وكأنها تعتذر:

ـ لسوء الحظ أنك رأيتني الآن بعد حادثة زوجي عزيز. كنت قبل الآن صورة شاحبة لامرأة كانت جميلة.. إن التعاسة كالزمن، تحول

الأبنية الجميلة إلى أطلال!

قالت ببا:

ـ إن الجمال الحزين يثير كالجمال البسام.. إن منظر الغروب فيه من الألوان الرائعة أكثر مما في منظر الشروق.. إنني أعرف رجالاً يسكرون من دموع المرأة أكثر مما يسكرون من كؤوس الخمر، وتثيرهم تأوّهات المرأة أكثر مما تثيرهم ضحكاتها.. تلهيهم رجفة شفاهنا ونحن ننتحب أكثر مما يلهيهم انفراج شفاهنا ونحن نبتسم.. إن جمال المرأة مثل جمال الوردة.. ضوء شمس يبرز مفاتنها.. ولكن رذاذ المطر يضاعف فتنة الوردة وروعتها.

قالت شريفة وهي تضحك:

ـ كنت أعرف أنك راقصة ونجمة سينمائية.. ولكنني لم أعرف أنك شاعرة!

قالت ببا:

ـ الراقصات والفنانات والشعراء كلهم كهنة في معبد الجمال.. إنه إلهنا، ما نكاد نراه حتى نركع له ونصلي.. هو الذي يلهم الشعراء أجمل قصائدهم.. هو الذي يوحي للرسامين بأروع لوحاتهم.. هو الذي يخرج من الموسيقيين أعذب أنغامهم.. هو الذي يمنح الراقصين والراقصات أحلى رقصاتهم.. إن الفنانين لا يرون الجمال بأعينهم، إنما يرونه بأصابعهم.. العيون هي غرف سوداء تحمض الصور وتنقلها للأصابع، فيمسك الشاعر قلمه وينظم قصيدته، ويمسك النحات إزميله ويصنع تمثالاً، ويعزف الملحن بأصابعه على البيانو لحناً، ويمسك الرسام ريشته ويصوّر لوحة، ويمسك أستاذ الرقص ورقة ويرسم عليها

وارتعشت شريفة وهي تسمع زائرتها ببا تتحدث عن الأصابع. كأنها قرأت في عينيها لوعتها لأن زوجها عزيز فقد أصابعه العشرة.. واختلست ببا في نظرة مواربة المشاعر التي تنتاب شريفة عن الأصابع التي غابت عن حياتها فرأت بشعور الذئب الجائع، أن هذه فرصتها لتنقض عليها وتفترسها فأسرعت تقول لها:

ـ إنني أفهم مشاعرك.. أتعذب لعذابك.. إنني أعرف أن الرجل عندما يفقد أصابعه العشرة يفقد كل شيء.. إن الله وضع في أصابع الرجل الحنان. إن كلمة حنان لطفل لا تفعل ما تفعله فيه لمسة على شعره من أصابع أمه أو أبيه.. إن قبلة حارة من شفتي الحبيب تتحول إلى لهيب إذا صحبتها ذراعا الرجل وهما تضمان خصرها وأصابعه تضغط على لحمها.. إن الله وضع في أصابع الرجل ناراً عجيبة.. إن المرأة في سن المراهقة، عندما تمسك بأصابع الرجل، تشعر كأنها وضعت بريزة المصباح في كوبس الكهرباء، فتحس أنها أضاءت من داخلها.. عيناها تلمعان بالنور.. وجنتاها تحمرانّ من الحرارة.. قلبها يمتلىء بالضوء الذي يرسل شعاعها على كل جزء من جسدها.. والمرأة بعد سن المراهقة، تشعر كأن أصابع الرجل أسلاك تحمل كهرباء.. تحول جسدها كله إلى فرن كهربائي.. كل ما فيه يشتعل ويحترق وعندما يرفع الرجل أصابعه عن جسد المرأة ينطفىء الفرن وتخمد حرارته.. وأنا أراك الآن أشبه بالمصباح الكهربائي بغير كوبس.. أشبه بالفرن الكهربائي بغير أسلاك..

قالت شريفة وهي تخفي دموعها:

ـ إن هذا حظي!

قالت ببا:

ـ نحن الذين نصنع حظوظنا بأيدينا.. البلد مليئة بالأكباس والأسلاك الكهربائية.. إذا احترق سلك يمكن أن نستبدله بسلك جديد!

قالت شريفة بعد لحظة تفكير، وكأنها تنبهت لأول مرة إلى المعنى الذي تقصده ببا:

ـ إن السلك احترق في داخلي وليس في خارجي.. إنه جزء مني.. فأنا وزوجي لسنا منفصلين كانفصال المصباح عن البريزة.. ولكي نصلح هذا المصباح يجب أن نحطمه.. وإنني أفضل أن أبقى مصباحاً لا يضيء، على أن أصبح مصباحاً محطماً.. نعم، إنني فقدت أصابعي العشرة، لأن أصابع زوجي هي أصابعي، ولكني لم أفقد رأسي. والذي تقترحينه الآن هو أن أستعيد الأصابع العشرة وأفقد رأسي.. فما قيمة أصابع عشرة لجسد بلا رأس؟

قالت ببا:

ـ إن كلامك هذا يدل على أنك فقدت رأسك.. إن المصباح الذي لا يضيء هو جزء من الظلام.. أفضل منه شمعة أو عود كبريت.. ماذا استطعت أن تفعلي لزوجك بإخلاصك؟ هل أعدت إليه أصابعه العشرة؟ هل غسلت دموعك عذابه؟ هل خفف حزنك آلامه؟ هل تظنين أنه سعيد وهو يراك شاحبة، منطفئة، مهزومة وتعيسة؟ إنك في حاجة إلى حب.. إن الحب عندما يدخل هذا البيت سيغيّره.. ستختفي منه الدموع.. ستختفي الكآبة.. عندما تسعدين سينال زوجك جزءاً من هذه السعادة.. السعادة تعدي كالانفلونزا. سيجعلك حب ساعة أن تحتملي عذاب الثلاث والعشرين ساعة..

سيكون في رأسك شيء جميل تفكرين فيه. . لن تفتحي عينيك على عاهة وتقفليهـا على عاهة. . ستنبت في صحراء حياتك وردة. تشغلين بها فكرك. . تجعلك تتحملين أكثر مما تتحملين. . إن العربة التي يجرها حصانان أسرع من العربة التي يجرها حصان واحد!

قالت شريفة ساخرة:

ـ إن عربة الموتى عند المسيحيين تجرها ستة خيول. . وهي مع ذلك تمشي بطيئة. . إن كل شيء فيّ يتعذب الآن ما عدا ضميري. . ولا أتصور أنني لو عذّبت ضميري سأريح قلبي وجسدي ورأسي. . إن زوجي فقد أصابعه في الحرب دفاعاً عن هذا الوطن. . هل أكافئه على هذه التضحية بخيانته؟ كأنني أنضم إلى أعداء وطني. . أدمر ما بقي منه. . لو كنت أخون زوجي قبل أن يقدم هذه التضحية لبلاده لوجب علي أن أتوقف عن خيانته، لأعوضه بإخلاص عما فقده.

قالت ببا وهي تهز رأسها متظاهرة بـالإشفـاق:

ـ إذن، أنت تفضلين أن تعيشي مع دموعك!؟

قالت شريفة:

ـ إنني أفضل أن أبكي وأنا رافعة رأسي، على أن أضحك وأنا منكسة الرأس. .

وتأملت ببا وجه شريفة بذهول، كمن لا تصدق ما تسمـع. كأنها تسمع صوت إنسان حي، في أرض الهزيمة. هذه الأرض الفضاء التي ديست فيها المثل بالأقدام، ولوثت فيها المبـادىء بالـطين، ودهست الأعلام بالنعال!

كانت ببا تعتقد أن الهزيمة التي أصيب بها البلد استطاعت أن تهزم كل شيء فيه. . إنها كالإعصار يبتر الأشجار من جذورها. إن أرض الهزيمة تنتشر فوقها الجثث وبقايا الخوذ والـدروع والمدافع المهشمة. والبنادق المحطمة والطبول الممزقة والأيدي والأرجل المبعثرة. والأعلام التي تحوّلت إلى خرق، والملابس العسكرية المضرّجة بالدم، وشارات الضباط ملقاة إلى جوار أحذيتهم. أرض كلها جيف وأشلاء وحطام. . أرض أصبحت ملكاً للضباع تأكل الجثث وملكاً للنسور تنقض على رفات الضحايا والشهداء، وملكاً للعصابات التي اعتادت أن لا تسرق إلا الموتى. . . وتتعفف عن سرقة الأحياء!

كانت ببا أشبه بضبع ونسر وعصابة سرقة الأموات في وقت واحد وكانت تتصور أن مهمتها مع شريفة سهلة هينة. إن الموتى لا يقاومون. ولكنها فزعت وهي تسمع حديثها الغريب، كأنها سمعت صوتاً يخرج من جثة هامدة. أحست بأنها امرأة لم تهزم بعد. لم تستسلم بل تقبض على سيفها وهي مجروحة كأنها قلعة صامدة وسط قلاع مستسلمة. قلعة تتكسر النصال على أبوابها. قلعة تستعذب أن يسقط المدافعون عنها جثثاً هامدة وأجساداً مشوّهة، على أن تفتح أبوابها للغزاة فتشاركهم الترف والثراء. كأن شريفة تعتبر الشرف حرية، تفضل أن تموت في العراء حرّة، على أن تعيش في القصر كالرقيق. كأنها تجد نشوة النصر في الصمود. وشهوة المجد في التضحية ولذة الخلوة في ملاقاة ذلك الموت البطيء الذي يمشي إليها في صرامة وصمت، فلا نسمـع حولهـا إلا عويلها الخافت وصراخها الصامت وأنينها المذبوح.

سألت ببا نفسها ما سرّ صمود شريفة. إن ببا رأت رجالاً ينهارون. يستسلمون. الذي لا يخضعه المال تخضعه المرأة، والـذي لا تخضعه المرأة يخضعـه النفـوذ والسلطان. إنهم كلهم يتهشمـون تحت مـطارق

الإغراء. بعضهم يتهشم بمطارق صغيرة، وبعضهم يتهشم بمطارق كبيرة. ولكن كلهم يتهشمون. كأنهم دمى من الخوف. مهما علت رتبهم، مهما كبرت مراكزهم فإنهم يستسلمون للإغراء... فكيف تجيء هذه المرأة الضعيفة وتخرج على القاعدة. كيف تصبح نغمة نشاز من السيمفونية التي لحنتها وجعلت الأمير عادل وحاشيته يرقصون على أنغامها؟ إن شريفة خدعتها في مطلع حديثها عندما تحدثت عن تعاستها. إنها أشبه بالذين يحرقون مدنهم أمام الجيش الغازي، فإذا تقدم انقضوا عليه من الخلف وتخرج لهم من خلف الأطلال جيوش تحول انتصارهم إلى هزيمة، وألويتهم المنتصرة إلى فلول مدحورة.

ولكن ببا رفضت أن تتقهقر أمام القلعة الصامدة، ومضت تقول لشريفة:

ـ عيبك يا شريفة إنك امرأة خيالية.. إن حديثك أشبه بنوتة موسيقية لنشيد خالد. النوتة الموسيقية هي رموز تحدد درجات أصوات الأنغام التي تتكون منها الألحان. إنها تحدد المدة الزمنية التي تستغرقها كل نغمة.. إنها تحدد علاقة كل نغمة بالانغام الاخرى.. ولكن لكي نعزف النشيد يجب أن نكون أصابع تحرك الأوتار.. وإلا فستبقى الأنغام على الورق باردة لا روح فيها ولا حياة!

قالت شريفة:

ـ ولكني أسمع النشيد.. أسمعه بغير حاجة إلى أصابع تعزفه.. إنه يملأ أذني وقلبي.. ما قيمة نشيد للنصر تعزفه أصابع مهزومة؟ إن الانغام الخالدة تبقى تدوّي في آذاننا سنوات طويلة بعد أن نعزفها.. إنني أعرف قريباً لي لا يزال يطرب من صوت المطربة ألمظ كما سمعها منذ خمسين سنة.. ولم تكن الأسطوانات قد اخترعت بعد. ولم تترك

ألمظ أسطوانة بصوتها. ولكن قريبي هذا بقي يطرب لهذا الصوت.. وأنا أيضاً لا يزال في أذني لحن السعادة الذي همس به زوجي في أذني.. لا يزال على جسدي بقية من حرارة تركتها أصابعه.. لا أريد أن أشوّه النغمة الحلوة التي في أذني بنغمةأخرى. لا أريد أن تجيء أصابع أخرى وتزيل الحرارة التي تركتها أصابع عزيز على جسدي.. إنني لست خيالية، إنني واقعية جداً.. إن الخيانة الزوجية هي خيال.. هي أفيون يسعد الزوجة في الفترة الأولى ويشقيها عندما تدمن عليه. إن المرأة تتحول من إنسانة إلى فراش، من غرفة نوم إلى بانسيون، من سيارة ملاكي إلى سيارة تاكسي أو سيارة أوتوبيس.. إن السيارة الاوتوبيس تستهلك في وقت أقل كثيراً من السيارة الملاكي!.

قالت ببا معترضة:

ـ ولكنك ستتحولين من سيارة ملاكي إلى عربة كارو.. وما قيمة سيارة ملاكي لا يركبها أحد؟. إنها ملقاة في الجراج.. مهملة.. مهجورة.. وسيجيء يوم ينسى الناس أنها كانت سيارة، وسيستعملونها تقفيصة فراخ! إن محنتك جعلتك تكرهين الرجال، كأنك تعاقبينهم جميعاً لأنك فقدت رجلك. إن ما تفعلينه هو أنانية، أنانية منك وأنانية من زوجك. كأنك قطعة من الألماس موضوعة في خزانة حديدية مغلقة بالأقفال.. إن الجمال خلق للناس جميعاً، لا يستأثر به فرد واحد، لا يتمتع به، ولكن ليحبسه في زنزانة.. إن هذه رأسمالية مستغلة!

قالت شريفة وهي تضحك ساخرة:

ـ أتريدين أن تؤمم الحكومة الجمال؟! أن يصبح جسد المرأة الجميلة مرفقاً عاماً كالحدائق العامة؟. أن يصبح جسد المرأة مثل وسائل النقل

من حق كل إنسان أن يستقلها إذا دفع ثمن التذكرة؟! إن قيمة المرأة الجميلة أن لا تصبح في متناول كل الأيدي . . إن الوردة فوق غصنها أشبه بالملكة فوق عرشها، فإذا تناولتها الأيدي فقدت شذاها، وذبلت وديست بالأقدام . . المرأة الشريفة حمام خاص لـرجل واحـد . . والمرأة التي تفقد شرفها تتحول إلى دورة مياه عمومية . . الفرق بينهما كالفرق بين نظافة الحمام الخاص وقذارة دورة المياه العمومية . . الرجـل قد يضطر إلى دخول دورة مياه في الطريق، ولكنه لا يستريح إلا في حمامه الخاص!

وأحست ببا بغصة. أحست بـأن شريفـة تصفها بـأنها دورة مياه عمومية . .

وشعرت برغبة أن تقول لها أنها دورة مياه عمومية، إنما هي دورة مياه ملكية، إنها الآن زوجة الأمير عادل عمرو، ولكنها تحكمت في لسانها:

ـ إنك ستندمين يا شريفة على أيامك أنك تضيعينها هباء . . هناك رجال كثيرون يتمنون نظرة من عينيك. يحلمون بلمسة يديك . . على استعداد أن يضعوا حياتهم وثرواتهم تحت قدميك . . إنك كلما تتأخرين تفقدين جزءاً من قيمتك . . إن النساء كالعبيد، كلما زاد عمر العبد قلّ ثمنه في السوق!

قالت شريفة:

ـ ولكني لا أريد أن أقف في السوق وأعرض نفسي على المشترين . . إن العبيد لا يختارون أسيادهم، إنما الاسياد وحدهم هم الذين ينتقون العبيد . . أنا التي أخذت عزيـز . . وعزيـز هو الـذي اختارني. ولـو أن عقارب الساعة دارت إلى الوراء لاخترت عزيز مرة أخرى، اخترتـه بأصابعه المقطوعة . . لأنني أشعر أنني أتزوج بطلاً . . إنني في طفولتي

كنت أتمنى أن أتزوج فارساً فوق حصان أبيض . . لم أفكر يـومها أن تكون له أصابع أو لا تكون . . وأنا أحس بـأن زوجي لا يزال هـذا الفارس حتى بغير أصابعه . . . إنني أشعر أنه فقـدَ الأصابع دفاعـاً عني . . دفاعاً عن مـلايين غـيري . . إن الأبطال يكـافأون بـأن توضـع أكاليل الغار فوق رؤوسهم . . لا أن نكافئهم بأن نضع «القرون» فـوق رؤوسهم!!

وأحست ببا بأنها فشلت في أن تقتحم القلعة، فقامت مستأذنة وهي تقول:

ـ إنني أعجب لك . . أفتح لك باب النعيم . . وتأبين إلا أن تبقي في الجحيم!

وصاحبتها شريفة وهي تقول:

ـ إن كل إنسان منـا له صورة مختلفة للجحيم وللنعيم. جهنمك قد يكون جنتي . . وجنتي قد تكون جهنمك . . إن أهل الأسكيمو الذين يشكون من البرد يصوّرون الجنة بأنها أرض شديـدة البرودة، وأهـل الشرق الذين يعذبهم الحر يتصورون جهنم فرناً من النار . . . السجين يعتبر الجنة أرضاً ليس فيها أسوار، والجبان يعتقد الجنة قلعة محاطة بالأبواب الحديدية والاسوار!

ودخلت ببا المصعد، وضغطت بإصبعها على زر الطابق الرابع حيث تقيم أمها وهي تقول لنفسها:

ـ لقد جن الناس . . لم يعودوا يعرفون الطريق إلى الجنة!!

وما كادت شريفة تغلق الباب وراءها حتى أحست بسعادة غريبة. كأنها خرجت منتصرة من معركة حامية، كأنها تسمع أهازيج النصر.

إنها أحست كأنها كانت في حاجة إلى هذه المعركة لتقف على قدميها من جديد. لتتحرك الجثة التي تعيش معها في بيتها.

إن الفرق بين النصر والهزيمة معركة واحدة. الفرق بين البقاء والفناء رصاصة واحدة. إن صمودها أمام إغراء سعدون منحها بعض العزيمة، ولكن صمودها أمام إغراءات ببا أكسبها قوة هائلة لم تشعر بها في وقت من الأوقات منذ فقدَ زوجها أصابعه العشرة.

كأننا في حاجة لأن نصطدم بشيء لنفيق. كأن المقاومة لا تنبعث من داخلنا، دائما هي تحتاج إلى ضربة قوية توجه إلينا من خلفنا لنندفع إلى الأمام.. إنها وهي تناقش ببا، لم تشعر أنها تناقش امرأة واحدة، إنما هي ناقشت جيلاً من المهزومين المقهورين اليائسين المستسلمين، الذين فقدوا الإيمان بكل قيم الحياة.. أولئك الذين رفعوا أيديهم، وركعوا جاثمين.. أولئك الذين لوّثوا جباههم بتراب الهزيمة، فوجدوا في الهوان راحة، وفي العار مخبأً يقيهم غارات الزمن.

إن الهزيمة أشبه بالغارة الجوية. بعض الناس يهربون منها إلى المخابىء وبعض الناس يختفون في المجارير، يفضلون الاحتماء بالقذارة على مواجهة الموت. ولكن الأقلية التي تبقى فوق الأرض بجوار مواقعها تهزم الموت أكثر مما يهزمه المختفون في المخابىء والمختبئون في المجارير.

إن النار تأخذ الذين يفرون من أمامها، وتتراجع أمام الذين يواجهونها. فالموت لا يجيء للذين يذهبون إليه. وإنما هو يلحق بالذين يفرون منه.

إن الموت مثل الظلم يتجبر إذا تضاءلنا في مواجهته. ويتضاءل إذا صمدنا أمامه. نحن بضعفنا نقدم له القيود التي يكبلنا بها. خوفنا هو

الذي يمنحه الجرأة. تخاذلنا هو الذي يعطيه سلطة البطش بنا.

إن في حياتنا لا توجد «ببا» واحدة، إن ببا في كل مكان حولنا..

الذين يدعوننا لقبول الأمر الواقع هم ببا.. الذين يزرعون فينا اليأس والاستسلام هم ببا.

كلهم راقصات يرقصن على الحبال.

كلهم غوان.. غوان سياسية وغوان اجتماعية وغوان خلقية..

كلهم ببا بأشكال مختلفة وأسماء مختلفة وبلغات مختلفة.

هناك من يدعو الشعب أن يستبدل طاغية بطاغية.. هناك من يدعو إلى استبدال احتلال باحتلال. هناك من يدعو إلى جنة الاستسلام، إلى نعيم العبودية إلى استبدال البيت الزوجي الفقير الكئيب بجرسونيرة فاخرة.. إلى الاستغناء عن زوج شرعي بأصابع مقطوعة بعشيق غير شرعي وله أصابع عشرة؟. كأن الرجال والمبادىء فساتين على المرأة أن تستبدلها كلما ذابت، أو كلما ظهرت موضة جديدة للأزياء!

وعندما عاد عزيز علاء الدين إلى البيت استقبلته شريفة بوجه آخر غير الذي ودعته به.

كان في عينيها بريق جديد. كان على شفتيها ابتسامة نضرة كأنها ولدت في تلك اللحظة. كأن المصباح الذي بقي مطفأً شهوراً طويلة أضيء فجأة.

اختفت النظرة المبتئسة من وجهها، كأن جسدها خرج من الثلاجة التي أودعته فيها هذا الوقت الطويل. كأن الجوع الذي يطاردها قد توقف. كأن الحرمان الذي يعذبها توقف عن ضربها بالسياط..

وذهل عزيز وهو يرى التغيير الذي حدث في شريفة، فسألها في استغراب:

ـ ماذا حدث؟

واندفعت نحوه تضمه إلى ذراعيها وتقبله في عينيه وشفتيه وخديه وشعره، والدموع تنهمر من عينيها..

وعاد عزيز يسألها:

ـ ماذا حدث؟

قالت وهي لا تزال تقبله:

ـ حدث.. أنني وجدتك من جديد!

□□□

استيقظت ببا من النوم في بيت الهرم مذعورة تنتفض. فتحت عينيها ونظرت حولها في قلق كأنها لا تصدق أنها لا تزال في بيت الهرم.

ثم قفزت من مقعدها وأطلت من النافذة فرأت الأهرامات لا تزال واقفة مكانها.

وفتحت النافذة الزجاجية وعادت تتطلع إلى الأهرامات لتتأكد أنها لا تزال في مكانها.

كانت تنظر إلى الأهرامات بعيون جزعة، هلعة، فقد رأت من ثوان حلماً رهيباً.. رأت أنها كانت تمشي بجوار الأهرامات، وفجأة وجدت أحجار الاهرامات تتساقط. وأسرعت تعدو إلى بيتها والأحجار الضخمة تتابعها، ثم ركبت سيارتها وأسرعت بها تجري بأقصى سرعة في شارع الأهرام، والأحجار والصخور الساقطة من الأهرام تتابعها وتحاول اللحاق بها.

ووصلت إلى ميدان الجيزة والصخور تجري وراءها، وانحرفت بسيارتها إلى عمارتها في العجوزة والأحجار تلاحقها، وصعدت إلى شقتها في العجوزة فإذا بالأحجار لا تزال تحاول اللحاق بها.

إنها تشعر بخوف مباغت من هذه الرؤيا المفزعة. ترتجف وقد استبد بها ذعر عجيب. انقبض قلبها، واضطرب خيالها فإن صوت صرخات الفزع التي كانت تطلقها وهي تعدو هرباً من الصخور لا يزال في أذنها..

لقد فتحت عينيها واطمأنت أن الأهرامات لا تزال في مكانها، ومع ذلك لا تزال تشعر بخوف غامض رهيب. لا تزال تسمع صوت الصخور وهي تزأر في سقوطها، وهي تصرخ من اندفاعها نحوها، كأن هذه الصخور لا تزال تتابعها حتى بعد أن خرجت من الكابوس وفتحت عينيها..

لم تعرف ببا سبب هذه الرؤيا المفزعة. إنها لم تأكل كثيراً قبل أن تنام. إنها لم تفكر في الأهرام ولا في صخور الأهرام. كانت تفكر في شريفة، في فشلها بإقناعها بأن تترك الجحيم الذي تعيش فيه، وتأتي معها إلى الجنة!

ما علاقة هذا الحدث بالأهرامات وأحجار الأهرامات؟ ماذا يعني هذا الحلم الغريب؟ أيعني أن بيتها في الهرم مهدد بالانهيار؟ أيعني أن الأمير عادل سيمل حبها ويعرف امرأة أخرى تحل مكانها؟ أيعني أن الأحلام التي تراودها بأن يتحول الزواج العرفي إلى زواج شرعي سوف تتحطم كالاهرامات التي رأتها في الحلم؟.

ونهضت ببا منتفضة من المقعد الذي كانت جالسة فيه، وأسرعت ترتدي ملابسها، وانطلقت بسيارتها إلى بيتها في العجوزة، ودخلت على

أمها ست زليخا وروت لها الحلم الذي رأته.

وسكتت ست زليخا قليلاً ثم قالت في أسى:

ـ معناه أن الدولة كلها ستنهار.. وأنك ستنجين من هذا الانهيار بأعجوبة!

وملأت ببا كأساً من الويسكي وراحت تشرب منه على مهل، ثم ضحكت وقالت ساخرة:

ـ الدولة تنهار؟! هذا لا يمكن أن يحدث.. إنني لم أربط مصيري بوزارة تسقط.. إنني ربطت مصيري بالملك.. إنني متزوجة أكبر أمير في الدولة بعد الملك!

قالت ست زليخا:

ـ قد يموت الملك.. ويصبح الأمير عادل ملكاً!

وأفرغت ببا باقي الكأس في جوفها وقالت:

ـ هذا هو المعقول.. ولكن يجب أن أبدأ الآن في العمل بسرعة لتحويل الزواج العرفي إلى زواج شرعي.. يجب أن أقنع عادل بأن يطلق زوجته ويتزوجني.. حتى إذا أصبح ملكاً.. أصبحت أنا ملكة مصر!

ومشت ببا أمام المرآة تتبختر وتقول:

ـ تصوري يا ماما.. صاحبة الجلالة الملكة ببا ملكة مصر والسودان ودارفور وكردفان!

ـ ٢١ ـ

ارتفعت درجة حرارة ست زليخا هانم عند منتصف الليل. انتابتها حمى شديدة يصحبها هذيان. وحارت خادمتها فريدة ماذا تفعل لمواجهة هذا الموقف.

وأسرعت الخادمة فريدة إلى الطابق الأول، وأيقظت الدكتورة دوريس من النوم، وطلبت إليها أن تهرع لإسعاف زليخا هانم. وارتدت الدكتورة ملابسها على عجل بعد أن أكدت لها الخادمة أن زليخا هانم مستعدة أن تدفع لها أي مبلغ تشاء. وتبعت الطبيبة الخادمة فريدة إلى غرفة نوم زليخا هانم.

وأعطتها الطبيبة حقنة كورايين، وأفاقت زليخا هانم، وتوقف هذيانها، وأحست بالحياة تعود إليها من جديد:

وتأملت الدكتورة دوريس آثاث البيت الفاخر، والديكور الذي صنعه فن مسيو ليمان، مهندس الديكور، في الشقة، فشعرت على الفور بكراهية لصاحبة الشقة، لهؤلاء الأغنياء الذين ينفقون ألوف الجنيهات على دورهم بينما ملايين من الشعب يعيشون في العراء.

وبعد أن قامت الدكتورة بواجبها نحو مبادئها، بدأت تفكر في واجبها نحو نفسها. بأن ست زليخا هانم هي زبونة «لقطة».. من الممكن أن تطيل في علاجها. وهكذا تسترد الأموال التي سرقها هؤلاء اللصوص من الشعب!

وقالت زليخا هانم إنها تشعر بانهيار في قواها، وإنها أمضت ليلة لم يغمض لها خلالها جفن، وإنها تشعر بأن رأسها يدور، وإن كل شيء يضطرب أمام بصرها، وإنها تحس كلما وقفت على قدميها بأنها تكاد

تسقط على الأرض من شدة الإعياء . . وإن كل ما حدث لها كان بعد أن أخبرتها ابنتها ببا أنها رأت رؤيا مفزعة، وإنها فسرت الحلم بأن شيئاً مزعجاً سيحدث لابنتها، وإن كانت أخفت عن ابنتها هـذا التفسير المزعج للحلم، حتى لا يستبد بها الذعر والفزع!

وقالت الدكتورة دوريس تطمئنها بأن مرضها بسيط، ولكنه يحتاج إلى عناية تامة. ولهذا فهي ستجيء لزيارتها مـرتين كـل يوم لتشرف بنفسها على علاجها، وستشتري الأدوية اللازمة لها.

ولم تنس الدكتورة دوريس أن تقول إنها تتقاضى في الزيارة الواحدة ثلاثة جنيهات، ولكنها ترى أن تخفض أجرها خمسين في المائة، لأن زليخا هانم جارتها، ولهذا ستأخذ عن هذه الزيارة فقط ثلاثة جنيهات لأنها تمّت بعد منتصف الليل، ولكنها ستأخذ في الزيارات القادمة ثلاثة جنيهات عن كل زيارتين.

واسـتراحت زليخا هـانم للدكتورة دوريس، فقـد كانت تحـدثها باحترام شديد. واستراحت أكثر عندما قالت لها إنها لا تزال شابـة، وإن قلبها قلب شابة، فأحست بـأن هذه شهـادة طبية أنها لا تـزال تصلح للزواج وأنها كانت على حق عندما بدأت تفكر تفكيراً جديـاً في أن تتزوج عباس بك الشمردلي.

وعندما جاءت ببا ظهر اليوم التـالي لتزور أمهـا، وجدت عنـدها الـدكتورة دوريس، وسمعت أمهـا تثني عليهـا وتشيـد بـاهتـمامهـا، وكيف أنها أحضرت لها دواء ورفضت أن تأخـذ ثمنه، وأنها دعكت جسمهـا بالكـولونيـا، وأسقتها الـدواء بنفسها، وقـدمت لها الـدواء بيدها.

وتأملت ببا الدكتورة دوريس، فـوجدتهـا امرأة بمعنى الكلمـة . . . فيهـا أنوثـة قويـة، وفيهـا جـوع وشبق . . صحيـح أنها في الـرابعـة

والثلاثين من عمرها، ولها ابن طالب في كلية الهندسـة، ولكن المرأة فيهـا أكثر من الأم . . والشهـوة فيهـا أكـثر من الـطب . . ووجـدت نفسها تقارن بينها وبين شريفة . . إن شريفة أجمل منها وأصغر سناً، ولكن عنادها وصمودها أمام إغراءات ببـا جعلاهـا تبدو ثقيلة الـدم . . إن المـرأة التي يقول كـل شيء فيهـا: «لا» . . . تبـدو ثقيلة في عـين الصيـاد . . . إن ببـا تعجب بـالمـرأة الضعيفـة . . تـرى فتنتهـا في استسلامها . . تجد جاذبيتها في خضوعها . . فما قيمة المرأة التي تشبه القلعـة؟ إننـا نتفـرج عـلى القـلاع ولا نقيم فيهـا، نـزورهـا ولا نسكنها . .

وعندما فتحت ببا حقيبتها وأخرجت ورقة من فئة العشرة جنيهات وقدمتها إلى الدكتورة دوريس، قالت الدكتورة على الفور:

ـ أنا لا أستحق سوى أربعة جنيهات ونصف فقط . .

ولكن ببـا رأت في عينـي الدكتـورة دوريس وهي ترفض العشـرة جنيهات نظرة تفهمها جيداً . . المرأة وحدها هي التي تستطيع أن تقرأها في عيني المرأة الأخرى . . وجدت أن دوريس تنظر إلى العشرة جنيهات متمنعـة وهي راضية. نفس نـظرة المـرأة التي تقـول «لا» وهي تعني «نعم» . . المرأة الجائعة التي تتظاهر بالشبع . . المرأة النهمة التي تمثل دور القانعة . .

وخطر ببال ببا أن دوريس تصلح عشيقة لصـديقها فـوزي بك صـلاح الدين. إنها تشبه إلى حد كبير الوصف الـذي وصفـه فـوزي لإحسان زوجة صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة. بشرتها بيضاء، عيناها واسعتان، شفتاهـا شهوانيتـان . . إنها بدت رائعـة الحسن في ردائها الأصفر الذي ينسجم مع شعرها الأسود الفاحم، ومع عينيها العسليتين، ومع الحزام الأسود الغليظ الذي أحاط بخصرهـا وكأنـه

ذراعا عملاق زنجي يحملها إلى الفراش!

وببا تعتقد أن خير البر عاجله، وأن الجمع بين رأس دوريس ورأس فوزي صلاح الدين في الحرام هو نوع من البر، بر بدوريس، وبر بفوزي وبر ببا نفسها لأنها لا تريد أن تكون العشيقة الدائمة لفوزي بك صلاح الدين.

وأسرعت ببا تقول لدوريس إنها تريد أن تحضر إليها في بيت الهرم لتكشف عليها.. إنها تريد أن ترزق أطفالاً من زوجها الدكتور محمد.. وتفرح دوريس، فقد وجدت زبونة جديدة غنية يمكن استغلالها. ويمكن أن يستعيد الشعب أموالاً أخرى من التي نهبت منه.. واتفقت ببا مع دوريس على أن تحضر لزيارتها في الساعة السابعة مساء اليوم التالي.

وفي الموعد المحدد كان فوزي صلاح الدين جالساً مع ببا في بيت الهرم ينتظران قدوم الدكتورة دوريس. لقد شوّقته ببا إلى دوريس. وصفتها له كأنها نوع جديد من الخمر. كأنها تكتب إعلاناً عن صنف جديد من الويسكي يثير المدمنين. وصفت له رقبتها وبشرتها، واحمرار وجنتيها، وسواد عينيها، وفتنتها الطاغية، وسحر جمالها.

وهكذا أسكرت ببا صلاح الدين بالخمر الجديد قبل أن يشربه، ترنح من الوصف، فلما أقبلت الدكتورة دوريس هبّ فوزي بك لتحيتها، وكأنه رآها بعيني ببا لا بعينيه.. وقدمته ببا إلى دوريس بأنه فوزي بك من كبار الأغنياء، وأنه هو الآخر مريض يحتاج إلى العلاج..

وأحست دوريس بسعادة لا حد لها. كأن أموال الشعب المنهوبة كلها عادت إلى طبقة البروليتاريا.. كأن الكادحين أطبقوا بأيديهم على

عنق الرأسمالية الجشعة.. كأن حتمية التاريخ قضت بأن تصبح الفئة المستغلة الممثلة في ست زليخا وببا وفوزي بك في قبضة العمال والفلاحين الذين تمثلهم الدكتورة دوريس..

وبدأ فوزي بك يضحك بدون سبب للضحك، وأحس برغبة في الرقص فقد سمع في داخله صوت دقات طبلة، إنه لم يحس بهذا الإحساس مذ كانت إحسان زوجة صبحي خالد عارية بين ذراعيه.

وعندما مرّت صورة إحسان عارية أمام خيال فوزي بك تجهم وجهه الضاحك، وتذكر السيدة زينب التي حالت بينه وبين لقاء إحسان، فالتفت إلى دوريس يقول لها وهو ينظر اليها نظرة سريعة:

ـ هل تذهبين إلى ضريح السيدة زينب؟

وعجبت دوريس لهذا السؤال الغريب وقالت:

ـ إنني مسيحية!

وكان فوزي بك وقتئذ ينظر في داخل فستان دوريس يلتقط بعينيه صورة لبقية صدرها العاري، فرفع رأسه مبتسماً وقال وكأنه اطمأن إلى أن السيدة لن تدخل حياته من جديد:

ـ مسيحية؟ الحمد لله!

وقالت دوريس بدهشة:

ـ هل أنت مسيحي؟

قال فوزي:

ـ لا.. ولكني لا أحب النساء اللاتي يترددن على المشايخ والأولياء!

فضحكت دوريس وقالت:

ـ ولا أنا . . .

وتصورت ببا أن دوريس بدأت تتحدث ببراءة من جديد فضحكت ضحكة عالية وهي تقول :

ـ ألم أقل لك يا فوزي أن دم دوريس شربات؟

ولم يكن فوزي مهتما بالشربات الذي في دم دوريس ، وإنما كان مهتماً بأنه وجد امرأة لا تعرف الأولياء ، وبالتالي سوف لا تتوب كما تابت إحسان . توالت هذه المتواليات في خاطر فوزي صلاح الدين بسرعة هائلة وأسرع يقول لدوريس :

ـ هل تؤمنين بالحب؟

قالت دوريس بخبث :

ـ ماذا تقصد بالحب؟

قالت ببا وهي تغمز بعينها :

ـ الحب . . الحب ! !

قالت دوريس :

ـ تقصدين العلاقات الجنسية؟ إنني اعتقد أن الحب عاطفة . والعلاقة الجنسية حاجة .

وضحكت ببا وقالت :

ـ حاجة . . حلوة !

قالت دوريس :

ـ من الوجهة العلمية ، العلاقة الجنسية مثل وجبات الطعام !

فشهقت ببا وقالت :

ـ وجبات الطعام ثلاث مرات في اليوم يا دوريس !

قالت دوريس دون أن تضحك :

ـ إنني أؤمن بأنه يجب أن نأكل عندما نشعر بالجوع . . وعندما يرتقي الإنسان سينظر إلى العلاقات الجنسية نظرته إلى وجبات الطعام . . إن المصلحين الاجتماعيين ورجال الدين كانوا ضعفاء من الناحية الجنسية ، ولهذا أحاطوا العلاقة الجنسية بألوان من التخديرات والإنذارات والإشتراكيات . . ولكن عندما تختفي هذه الخزعبلات ستزول الأوهام والتخديرات والإنذارات والاشتراكيات الخاصة بالجنس . . . سينظر المجتمع إلى العلاقة الجنسية نظرته الى وجبات الطعام . . سيصبح من حق الإنسان أن يأكل الطعام الذي يختاره . . أن يبدل وأن يغيّر فيه ، سيأكل يوماً في البيت ، ويوماً في المطعم ، ويوماً في الحديقة ، ويوماً في الشارع . .

ونظر فوزي صلاح الدين بإعجاب نحو دوريس . إنه وجد أول امرأة تنظر إلى العلاقة الجنسية بنفس نظرته . تعتنق نفس المبدأ الذي يعتنقه . لقد فعل كلام دوريس فيه فعل السحر ، شعر بأنه وجد المرأة التي تفهمه ويفهمها فقال لها ليطمئن قلبه :

ـ ولكن عيبكم أيها الفلاسفة ، أنكم لا تطبقون الفلسفة التي تنادون بها . . إنني مؤمن بكل كلمة نطقت أنت بها . . ومستعد أن أطبقها . . ولكن هل أنت مستعدة لأن تطبقي هذه النظرية؟ .

وسكتت دوريس وكأنها فوجئت بسؤال لم تتوقعه ، فأسرعت ببا تقول :

ـ إن فوزي يقول لك بصراحة ، إنه يريد أن يأكلك . . فهل تريدين أن تأكليه؟

واحمر وجه دوريس، فقالت ببا:

ـ إن الطعام الذي أمامك يا فوزي هو أغلى طبق في مصر . . .

قال فوزي بك وهو يضحك:

ـ إنني لم أتعود أن آكل مجاناً!

ووقفت ببا وقالت:

ـ سأترككما معاً بعض الوقت لتتفقا على قائمة الطعام. . وموعد تناول الطعام!

قال فوزي وهو يلتهم بعينيه دوريس:

ـ أنا جائع من الآن!

وقالت دوريس في دلال:

ـ انتظر حتى أجوع أنا أيضاً!

وتوقفت ببا وقالت وهي تتظاهر بأنها تهمس في أذن دوريس وإنما تتكلم بصوت يسمعه فوزي صلاح الدين:

ـ ولكن فوزي . . يفتح النفس!

وتركتهما ببا وخرجت من الغرفة . .

وفي الدقائق التي تركتهما ببا استطاع فوزي والدكتورة دوريس أن يتفقا على أشياء كثيرة. . كان فوزي بك صلاح الدين لم يرد أن يتفق على وجبة طعام واحدة، وإنما أراد أن يتفق على اشتراك دائم في مطعم. . اتفق فوزي معها على أن يلقاها في اليوم التالي في شقة سعدون

باشا المشهورة بشقة محمد بك سعيد في الطابق السادس من عمارتها، واتفق معها أن تقول لزوجها الدكتور أحمد العروسي إنها تعالج زوجة محمد بك سعيد. .

واتفق معها قبل ذلك على أن يشتري لها سيارة، وسألها عن اسمها الكامل فقالت إن اسمها دوريس توفيق، فكتب اسمها في أجندته حتى يكون عقد السيارة باسمها، واتفق معها على أن تقول لزوجها إن محمد بك سعيد الذي تعالج زوجته يملك متجراً للسيارات وإنها اشترت السيارة بتقسيط بسيط.

وعندما عادت ببا إلى الغرفة وجدت الدكتورة دوريس جالسة على ساقي فوزي صلاح الدين، وما كادت دوريس ترى ببا قادمة، حتى انتفضت، وأرادت أن تترك مكانها فوق ساقي فوزي بك، ولكن ببا ضحكت وقالت لها وهي تعانقها وتقبلها:

ـ لولا خوفي من أن يعود زوجي الآن. . لدعوتكما لتناول الطعام في غرفة نومي!!

تغيّرت حياة الدكتورة دوريس. أحست بأنها وضعت قدمها في عالم جديد. عالم كانت تجاربه فأصبحت تعيشه.

عندما ذاقت طعم الرفاهية لم تعد تحقد على المترفين. . وعندما أحست بدفء فراش فوزي بك لم تعد تتحدث عن الألوف الذين ينامون عراة على الأرصفة. . وعندما بدأت تستغل علاقتها بفوزي بك وتحصل منه على المال والهدايا لم تعد تلعن المستغلين. . إن المرأة عندما تسقط تنتحل المعاذير لنفسها. تفلسف الخيانة وتبررها. .

وهي بينها وبين نفسها لا تزال تصر على أنها تحب زوجها الدكتور

أحمد العروسي. . إنها سوف تحبه إلى الأبد. . إنها أحبته منذ كانت طالبة معه في كلية الطب. هو حبها الأول. هو والد ابنها الوحيد كمال. هو رفيقها الفكري. ولكن الحب شيء والعلاقة الجنسية شيء آخر. إنها مخلصة لزوجها بقلبها. ولكنها تخونه بجسدها مع فوزي.

فهي إذن، لم تأخذ منه بخيانتها وإنما أعطته. . أعطته متعة أكبر. . أعطته مالاً أكثر. . أعطته سيارة ضخمة، يحس زوجها بفخر وسعادة وهو يجلس فيها بجوارها، عندما تصحبه كل صباح إلى عمله في مصحة الجيزة، وتحس بأنه يتمنى أن يراه كل زملائه الأطباء في هذه السيارة الأنيقة. . هذه السيارة التي يتصور أن زوجته اشترتها بالتقسيط من الأجر الذي تتقاضاه من زبائنها الجدد في العمارة.

وتتصور دوريس أنها حصلت عليها من عرقها، عرقها وهي بين ذراعي فوزي، ويعرف فوزي وحده من أين جاءت هذه السيارة، فقد طلب من صديقه عباس بك الشمردلي أن يحصل له على إحدى سيارات الحراسة المخصصة لأرامل الشهداء باسم دوريس توفيق. ووجد الشمردلي بك، لحسن الحظ، من مراجعة أسماء الشهداء أن أحدهم اسمه الملازم أول رفيق توفيق الذي استشهد في معركة ساموراي التي فقد فيها عزيز علاء الدين أصابعه العشرة. . وعلى الفور سلّم الشمردلي بك سيارة شيفروليه جديدة باسم دوريس توفيق أرملة الشهيد الملازم أول رفيق توفيق. . ولم تكلف السيارة فوزي بك صلاح الدين أكثر من مائة جنيه دفعها من بند المصاريف السرية!

وقبل أن تحصل دوريس على هذه السيارة الجديدة الفاخرة نشب صراع مبدئي بينها وبين زوجها. كان الدكتور العروسي يخشى من علاقة زوجته الجديدة بسكان العمارة، ويقول إن النظرية تشير دائماً إلى

«تخوفات» و«تناقضات» تخرج دوريس عن الخط السياسي السليم. وإنه يخشى على زوجته من رواسب الطبقات المعادية للنظرية التي تتجسد في سكان الطابقين الرابع والخامس من العمارة حيث تسكن زليخا هانم وحرم محمد بك سعيد وبيت ببا في الهرم.

ولكن بعد أن رأى الدكتور العروسي السيارة الجديدة، وتمتع بالمال الكثير الذي بدأ يصل إلى يد زوجته، قام بعملية مراجعة للنظرية، ولم يعد يتمسك بحتمية الصراع بين الطابق الأرضي والطوابق العليا، بل أفتى بإمكان التعايش السلمي. . وتبادل المنافع بين دوريس وزوجة محمد بك سعيد. . وإن حصول دوريس على أجور عالية وهدايا من الرأسمالية المستغلة في شخص زبائنها الجدد، إنما هو تحول سلمي من الرأسمالية إلى الاشتراكية!

ولم يعد فوزي بك صلاح الدين يكتفي بلقاء دوريس بعد الظهر في شقة سعدون باشا، أصبح يرغب أن يلقاها في المساء، أن يسهر معها إلى الفجر، وأن تشاركه سهراته مع الأمير عادل وببا في بيت الهرم!

وفكر فوزي بك في أول الأمر بأن يقبض على الدكتور العروسي ويتهمه في قضية مؤامرة حتى يخلو له الجو مع دوريس، ولكنه خشي أن تتكرر المأساة التي وقعت له مع إحسان زوجة صبحي خالد الموظف بديوان المحاسبة.

وعرض فوزي مشكلته على دوريس، فقالت له إنه من الممكن أن تدعوها ببا هي وزوجها إلى بيت ببا في الهرم، وهناك تتظاهر ببا بأنها تقدمها إلى فوزي. . وبذلك تنشأ صداقة ويستطيع الثلاثة أن يخرجوا معاً ويسهروا معاً. وطمأنته دوريس بأن زوجها الدكتور العروسي رجل واسع الأفق، وأنه يحب أن يستمتع بالحياة، ويهوى شرب الويسكي

الجيد، وإنه قد يبدو كأنه ذو مزاج مروع، ولكنه بعد الكأس الثالثة يتحول إلى رجل كله رقة وعذوبة، وتفهم وتفاهم، فلا يعود يهمه شيء إلا أن تكون زوجته في عالم من السعادة والنعيم.

وأخرجت دوريس طلاء شفاه الأحمر من حقيبتها لتصبغ شفتيها استعداداً للهبوط من الطابق الخامس إلى الطابق الأرضي، وأسرع فوزي يطوقها بذراعيه ويقبلها، قبل أن يمنعه الطلاء الجديد من القبلات...

وما كادت دوريس تنصرف، حتى استسلم فوزي إلى أفكاره. هل ستزيد سعادته وزوج دوريس معها أم ستنقص؟

إنه كذئب نساء لم يجرب أن يجلس مع عشيقته وزوجته في مكان واحد.. كان يهرب دائماً من الأزواج.. ولكنه أحس برغبة في أن يجرب هذا النوع الجديد من العلاقة الغرامية.. أن يستغفل الزوج في مواجهته بدلاً من أن يستغفله وراء ظهره. إنه يجد لذة أن يجلس مع ببا والأمير عادل ويتفرج على ببا وهي تسكب في أذن زوجها عبارات الحب التي سكبتها في أذنيه هو قبل ذلك بساعات.

ولكن هذه اللذة لم تكن كاملة، لأنه كان دائماً في رعب من أن يعرف الأمير عادل بعلاقته مع ببا.. كان يشعر بضآلته بالنسبة للأمير.. أما عندما يجلس مع دوريس وزوجها فسوف يحس باللذة دون المرارة..

واستهوته الفكرة وعرضها على ببا فتحمست لها وقالت إنه من الممكن أن تربط الدكتور أحمد العروسي بالشلة بأن تجعله طبيباً خاصاً للأمير، وهكذا يجد أن مصلحته في هذا الارتباط، وسوف يشجع زوجته على الحضور إلى بيت الهرم وإلى توثيق علاقته ببا، لأنه بذلك يوثق علاقته بالأمير.

وقال فوزي إنه يخشى آن يعرف الدكتور العروسي آن الأمير عادل ليس هو الدكتور محمد، وإن فوزي صلاح الدين ليس هو فوزي بك أحد كبار الأغنياء، فإذا كانت دوريس لم تكشف هذا لأنها منقطعة إلى عملها، فإن زوجها سوف يكتشف الحقيقة.

فقالت ببا إن من رأيها أن تعرف دوريس الحقيقة، وأن يترك لها حرية إطلاع زوجها أو إخفاء الأمر عنه، فإنها تعرف زوجها أكثر مما نعرفه..

وانتهز فوزي بك صلاح الدين حديثاً بينه وبين دوريس عن الحب قالت فيه دوريس:

- إن الحب عندما يمتلك القلب، يجعل المرأة والرجل يندمجان فكرياً بحيث لا يخفي أحدهما عن الآخر أي سر من الأسرار. فإذا أصبح للمرأة سر تخفيه عن رجلها فمعنى ذلك أنها لا تحبه.. إن الهوى يهدم الأسرار!

فقاطعها فوزي وقال:

- إنك تقولين إنك لا زلت تحبين زوجك.. فهل معنى ذلك أنك تخفين عنه أي شيء؟

قالت دوريس:

- إنني لا أخفي عنه أسرار قلبي!

قال فوزي:

- وأسرار جسدك؟

قالت دوريس:

ـ إن المرأة لا تبيح بأسرار جسدها لأي رجل. . لقد قرأت مرة أن كليوباترا رفضت أن تذكر لأنطونيو اسم العطر الذي تستعمله. . ولكنها كانت تكشف له أسرار الدولة!

قال فوزي:

ـ ولكني أشعر بأنني لا أستطيع أن أخفي عنك أي سر. . لا أسرار قلبي ولا أسرار جسدي. . إن هناك سراً يعذبني لأنني أخفيه عنك!

قالت دوريس مستفهمة:

ـ هل هناك امرأة أخرى؟!

وضحك فوزي وقال:

ـ كلا. . هناك رجل آخر!

وفتحت دوريس فمها في دهشة وهي تقول:

ـ رجل آخر. . ماذا تعني؟

قال فوزي بك وهو يقهقه:

ـ رجل آخر يحبك ولا تعرفينه. . إنني لست فوزي بك أحد كبار الأغنياء. . إن اسمي فوزي صلاح الدين مدير الأمن العام. .

وارتعشت دوريس من الرعب. . إنها سمعت هذا الاسم من قبل. . إنه مدير الجستابو. . إنه أحد قلاع الامبريالية والرجعية التي تمنت أن تحطمها. . إنها بدل أن تدمر قلعة العدو نامت فيها. . أحست بأن قوات الامبريالية والرجعية استولت عليها. . إنها تتحالف مع القوى المنحرفة. . إنها خانت عقائدها، انفصلت عن طبقتها، تخلت

عن مبادئها، أصبحت عشيقة للقوى المعادية للاشتراكية!

ورأى فوزي بك الذعر في عينيها، فوضع يده في جيبه وأخرج صندوقاً صغيراً، وفتحه وقدمه لدوريس. . وبرقت عينا دوريس ولمعتا. . برقتا ولمعتا أكثر من بريق ولمعان حجر الزمرد الذي يعلو الخاتم الثمين وهو على شكل قلب. . وقال فوزي إن ثمن الخاتم رخيص جداً. . ألف جنيه فقط!

وأحست دوريس في داخلها بمعركة بين النظرية والألف جنيه. . إنها أول حرب باردة تقوم في داخلها. . ولم تلبث أن أحست بأن الألف جنيه صرعت النظرية بضربة قاضية!

ولم تعد تفكر في النظرية، إنما أصبحت تفكر ماذا تقول لزوجها عن هذا الخاتم. . إنها شعرت برغبة في تصفية زوجها. . أصبح زوجها في نظرها هو أداة الامبريالية الذي يقف حجر عثرة ضد رخاء ورفاهية وحرية الشعوب المغلوبة على أمرها والتي من حقها أن تستمتع بخاتم الزمرد الثمين!

لاحظ فوزي بذكائه وخبرته في النساء المتزوجات أنها حائرة ماذا تقول لزوجها، فقال لها إنه من الممكن أن تقول لزوجها أن الخاتم فالصو. وأن الدكتور أحمد العروسي، لحسن الحظ، خبير في أمراض الصدر، ولكنه ليس خبيراً في أمراض القلب. . ولا في خاتم الزمرد المرسوم على شكل قلب!

وأعجبت الدكتورة دوريس بالفكرة، وعدلت عن تصفية زوجها. . وعندما علمت بأن زوجها سيكون طبيباً خاصاً للأمير عادل زوج ببا، فرحت للفكرة واعتبرتها خطة مدروسة، تحرر طاقاتها، وتسهم إسهاماً

قائماً على خطط علمية في ضمان إنتاج زيادة العلاقات الغرامية بينها وبين مدير الأمن العام . .

وأخبرت دوريس زوجها بأنه رأى ليلة القدر، وأن الأمير عادل وافق أن يكون طبيبه الخاص، وأنه يدعوه معها للذهاب إلى بيته في الهرم .

وقال الدكتور أحمد العروسي أن ليس في النظرية ما يمنع أن يكون طبيباً لأحد أفراد الأسرة المالكة، وإنه يمكن اعتبار هذا العمل عملاً مرحلياً لا علاقة له بالصراع الحتمي من أجل بناء المجتمع الجديد، وإنه ممكن أن يستغل الأموال التي سيحصل عليها من الأمير في خدمة صراع الجماهير، بحيث تخوضه بكل قوة ووعي، وبكل القدرات التنظيمية والمالية والنضالية . . وإنه ممكن أيضاً أن يستفيد من علاقاته الجديدة بالأسرة المالكة، والطبقة البرجوازية، واستعمال قدراتها وإمكاناتها وأوضاعها الاجتماعية المتخلفة ووجودها في مراكز السلطة والإدارة، لتساعد في عملية التحول الفكري والاجتماعي والاقتصادي، مما يؤدي إلى مجتمع متحرر تماماً من استغلال الإنسان للإنسان.

ووجد الدكتور العروسي في الكتب التي يحتفظ بها آراء وشروحاً وفتاوى تؤيد تفسيره الجديد للنظرية!

وبعد عدد من السهرات في بيت الهرم، لم يعد الدكتور العروسي يفكر كثيراً في النظرية، ولا يحاول أن يوفق بين وظيفته الجديدة كطبيب خاص للأمير وشريك في سهرات الهرم، وبين الصراع الدموي المحتم لإقامة مجتمع متحرر تماماً من استغلال الإنسان للإنسان .

وفوجىء الدكتور أحمد العروسي بعد أن أتم الكشف على الأمير عادل بزوجته بيا تعطيه مظروفاً مغلقاً . .

وعندما فتح المظروف وجد فيه ورقة من ذات المائة جنيه!

ووجد الدكتور العروسي في المائة جنيه التي بين يديه هدماً كاملا للنظرية!

لو أنها أعطته خمسة جنيهات فقط لفكر في أن يعطي جنيهاً منها لبعض أصدقائه المتحررين الذين يشترون الكتب الممنوعة عن النظرية، ليوزعوها مجاناً على الذين لا يملكون ثمن هذه الكتب . . أما وأن المبلغ هو مائة جنيه، فقد شعر الدكتور العروسي أنه انتقل من عالم النظريات إلى عالم الحقائق . . شعر كأنه أصبح مالكاً لوسائل الإنتاج . . وان الفلاحين والعمال نالوا كل حقوقهم ولم يعودوا في حاجة إلى صراع دموي . . لم يعد يسمع صوت صراخ المعدمين، ولا أنين العراة، ولا استغاثة الجائعين . . كأن المائة جنيه سدت أذنيه فأصبح لا يسمع إلا صوت الأمير عادل والموسيقى، وأغلقت عينيه فصار لا يرى إلا ثوب بيا الأنيق .

وعندما جلس مع فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام، لم يشعر بأنه يجلس مع هملر قائد الجستابو في عهد هتلر . . بل أحس بأنه يجلس مع رجل ظريف، لطيف، وإنسان بكل معنى الكلمة!

وزاد إعجابه به عندما أخبره فوزي بك بأنه صديق وزير الصحة، وأنه سيتحدث معه لتعيينه مديراً لمصحة الصدر في الجيزة، لأنه من غير المعقول أن يكون الطبيب الخاص لأكبر أمير في الدولة طبيباً صغيراً في المصحة!

ولام الدكتور العروسي زوجته لأنها لا تبدي اهتماماً كافياً بفوزي بك، وأنها كانت تتحدث طوال الوقت مع عباس بك الشمردلي . .

وأفهمها بأن مصلحتهما المشتركة تقضي بتوثيق العلاقة مع فوزي بك الذي أعجب بخلقه وعلمه وبعد اطلاعه، وحرصه على مصالح البلاد، وإيمانه بضرورة وضع الرجل الصالح في المكان الصالح، بدليل ترشيحه مديراً لمصحة الصدر في الجيزة!

وأحست دوريس في هذه اللحظة بأنها تحب زوجها أكثر مما أحبته في أي وقت مضى..

وراحت تقبله والسيارة تعود بهما من بيت الهرم إلى بيتهما في العجوزة..

وقال الدكتور العروسي وهو ينظر إلى الخاتم الجديد في إصبع زوجته.

ـ لو نفّذت خطتي.. ووثقنا علاقتنا بسعادة فوزي بك.. فسوف أشتري لك بدل هذا الخاتم الفالصو.. خاتماً حقيقياً!

وابتسمت دوريس ولم تقل شيئاً!

لم تقل إنه هو الذي ينفذ الخطة التي وضعتها.. بعد أن حصلت على الخاتم الصحيح!

وعندما وصلا إلى شقتهما، دخل الدكتور العروسي إلى غرفة مكتبه..

ولم يمد يده كعادته ويتناول كتاباً من مئات الكتب الموضوعة على الرف، ليقرأ فيها عن النظرية والصراع الحتمي الدموي للطبقات.. بل مد يده إلى جيبه، وأخرج محفظة نقوده، ثم سحب منها الورقة ذات المائة جنيه..

وفردها بين يديه.. وراح يمعن في الكتابة المطبوعة عليها، ويقرأ بإعجاب رقم المائة، وإمضاء محافظ البنك الأهلي، ثم ألقى نظرة احتقار إلى الكتب الموضوعة في الرف، هذه الكتب التي فقدت قيمتها لأنها ليس عليها إمضاء محافظ البنك الأهلي..

ـ ٢٢ ـ

جلست ببا في شرفة بيتها بالهرم، ساعة الغروب، ترقب أشعة الشمس، وهي تسقط على صخور الأهرامات الثلاثة، كما تسقط الشفاه على الشفاه، تودعها، لتعود إليها في الصباح وتطبع عليها قبلة من جديد.

وانبعث في أوصال ببا إحساس غريب، إن الشمس هي المجد الذي حققته بذكائها ودهائها، وهذه الأهرامات الثلاثة تشبهها في جلستها فوق الكرسي الطويل. كان رأسها وبطنها وساقاها قمم أهرامات ثلاثة؟ رأسها قمة الهرم الأكبر، بطنها قمة هرم خفرع، ركبتاها قمة هرم منقرع!

الشمس مرت من هنا كل يوم ألوف السنين، وفي كل يوم تجد الأهرامات الثلاثة في انتظارها.. تقوم دول وتسقط، يتألق حكام ويتحطمون، يولد أناس ويموتون، والأهرامات كما هي، لا تتغير ولا تتبدل، لا تسقط ولا تتحطم، فيما كل شيء حولها يتغير ويتبدل ويسقط ويتحطم ويموت..

هل الذين بنوا الأهرامات قصدوا بأن يتحدوا بها الزمن؟ هل أرادوا أن يقولوا لنا أشياء لم نستطع أن نفهمها من الرسوم والنقوش التي تركوها على آثارهم؟ لماذا بنوا ثلاثة إهرامات متجاورة؟

هل قصدوا بأن يقولوا إن الهرم الواحد لا يمكن أن يعيش، سوف تحطمه الوحدة؟

هل قصدوا أن الهرمين الاثنين لا يمكن أن يصمدا للزمن، كزواج امرأة واحدة من رجل واحد لا يلبث أن يقتله الملل؟

أيكون الخلود من شروطه أن نكون ثلاثة دائماً في هذه الحياة.. زوجة وزوج وعشيق؟

أيكون سر قلقها أن في بيت الهرم اثنين فقط: هي والأمير عادل؟

إنها المرة الأولى في حياتها التي تعيش مع رجل واحد.. أم أن قلقها بدأ منذ أن رأت في نومها حلم سقوط أحجار الاهرامات؟

هل كان سقوط الأهرامات الثلاثة في الحلم تحذيراً لها، إشارة بأنه لا يوجد شيء ثابت، ولا يوجد شيء خالد، حتى الأهرامات التي عاشت ألوف السنين ممكن أن تسقط؟

تصورت وهي جالسة فوق القمة الهرم أنها جالسة فوق قلعة صمدت للزمن.. تكسرت عليها حراب الغزاة ومدافع الفاتحين.. تصورت أن الدنيا سجدت تحت قدميها ولن تجرؤ أن ترفع رأسها.. تصورت أنها امتلكت الدولة عندما امتلكت قلب أمير في الدولة..

إن الدولة هي أهرامات ثلاثة، الهرم الأول هو الملك، وقد امتلكته بزواجها العرفي من الأمير عادل أقوى الأمراء نفوذاً وأقربهم إلى الملك.. والهرم الثاني هو الجيش، وقد امتلكته بسيطرتها على سعدون باشا وحماد باشا وعباس الشمردلي بك وشعبان بك شعيب

وحامد بك السيوفي أعضاء شلة الأمير.. والهرم الثالث هو البوليس والأمن العام، وقد امتلكتها في شخص فوزي صلاح الدين، ولكن من يضمن لببا أن أحداً غيرها لم يحلم بسقوط الأهرامات، ولا يفزع من الحلم كما فزعت، ولا يضطرب كما اضطربت، وإنما يعتبر الرؤيا المفزعة التي رأتها حلماً سعيداً، ويحاول أن يجعل من الحلم حقيقة؟

وارتعشت ببا لهذا الخاطر.. اعتقدت أنها بعلاقتها بالأمير عادل، وبزواجها العرفي منه، قد احتمت في الأهرامات. احتمت في نظام صامد كالصخر.. اتخذت لنفسها قلعة قوية كالجرانيت الذي صنعت منه الأهرامات.. ولكنها رأت في حلمها أن الهرم الحقيقي ممكن أن يسقط، أن يتحطم، أن تتناثر أحجاره في الهواء، ومعنى هذا أن الهرم غير الحقيقي ممكن أن يسقط، هرمها هي، التي وضعت فيه أحلامها وثروتها ومستقبلها.. وضعت فيه دولتها!

كانت دولتها في أول الأمر هي جسدها.. كان اهتمامها محصوراً في جسدها، كيف تحافظ عليه، كيف تحميه، كيف تجمله؟ كل أموالها تنفقها على هذا الجسد. روائح عطرية تدهن بها ساقيها وذراعيها. طلاء جديد تضعه فوق شفتيها. مكياج جديد تخفي فيه بعض تجاعيد بشرتها. كان جسدها هو رأسمالها. وأهدابها وأجفانها هي أسلحتها. التفاحتان اللتان في صدرها هما وزارة دعايتها. شعرها الأسود المثير هو علمها الذي ترفعه فوق رأسها. عيناها وزارة خارجيتها تفاوض بالنيابة عنها، وتعقد المعاهدات العلنية والاتفاقات السرية!

ثم أصبحت دولتها الأمير عادل وشلته.. واستطاعت أن تسيطر

عليها وتخضعها لإرادتها. كلهم استسلموا أمامها، ما عدا عبدالمنعم بيومي ياور الأمير السابق، الذي ترك خدمته وانتقل إلى الجبهة. لم يقف واحد منهم أمام خططها ومشروعاتها. استطاعت أن تجعل فوزي بك صلاح الدين يستدعي محمد زعبوط زوج شقيقها كوكو، ويهدده ويتوعده، فاضطر المسكين أن يطلق كوكو وهو يرتعد من الخوف. واستطاعت أن تجعل سعدون باشا يتزوج أختها كوكو زواجاً شرعياً على الرغم من أن له زوجة أخرى هي ابنة عمه في الوقت نفسه، ومضى على زواجه منها عشرون سنة، وله خمسة أولاد من هذا الزواج. إن سعدون باشا اعتبر زواجه من أختها كوكو شرفاً عظيماً وعطفاً سامياً غمرته به صاحبة السمو الأميرة ببا.

واستطاعت ببا أن تجعل عباس بك الشمردلي يتزوج من أمها زليخا هانم، وأن تحصل له على رتبة اللواء، وأن تحصل له أيضاً على رتبة الباشوية.. وقد قصدت بهذا أنه عندما يجيء الوقت المناسب، وتحول زواجها العرفي من الأمير عادل إلى زواج رسمي أن يعلن النبأ على أنه تزوج من ببا ابنة صاحب السعادة عباس باشا الشمردلي.. وليست ابنة محمد أفندي الحاجب بوزارة العدل!

واستطاعت ببا أن تقنع الأمير عادل باستعمال نفوذه لدى الملك ليضع المليونير صادق عبدالعظيم تحت الحراسة، وتولى فوزي بك صلاح الدين تلفيق الوثائق المزورة التي تثبت علاقة صادق عبدالعظيم بالتجار اليهود.. وبذلك انتقلت شقته الفاخرة التي جنت بها والتي جعلتها تشعر أن شقتها في الطابق الرابع تبدو كالكوخ بجوارها، انتقلت هذه الشقة إلى اختصاص الشمردلي باشا، وأسرع وباعها بثمن صوري إلى ببا، باعتبارها زوجة الشهيد اليوزباشي محمد فهمي أحد أبطال معركة ساموراي..

واستطاعت ببا أن تجعل شقيقها حامد فهمي الطالب بليسانس الحقوق ينقلب في يوم وليلة ويصبح تاجراً كبيراً، وأكبر مورد للجيش، وذلك بفضل الشمردلي باشا المشرف على شؤون الإمدادات والتموين، وأصبحت ببا شريكة بالنصف في هذه العملية الرابحة، بينما اقتسم الشمردلي باشا وشقيقها حامد النصف الباقي..

واستطاعت ببا ببعض أرباحها أن تشتري عمارة العجوزة التي تقيم فيها، وأصبحت ست زليخا تقيم في شقة المليونير في الطابق السابع، وأصبحت كوكو تقيم في شقتها بالطابق الرابع. أما جرسونييرة سعدون باشا فقد احتفظ بها فوزي بك صلاح الدين.

وكان أول ما فكرت فيه ببا بعد أن امتلكت العمارة أن تخرج منها عزيز علاء الدين وزوجته شريفة.. كانت تكره شريفة منذ أن رفضت أن تقتنع بأن تدخل أبواب الجنة، وتمسكت بأن تبقى مخلصة لزوجها حتى بعد أن فقد أصابعه العشرة. وقد أخبرت ببا صديقها فوزي صلاح الدين برغبتها فوعدها بأن يكلف بوليس الآداب بأن يضع تقارير فيها أن بيت شريفة يدار للدعارة السرية، وبهذه التقارير تستطيع أن ترفع قضية على شريفة وتطردها من البيت..

إن كل شيء في دولتها الصغيرة أصبح رهن إشارتها، ملك يدها. ولكنها لم تعد الآن تفكر في الدولة الصغيرة التي تحكمها.. إنها منذ رأت سقوط أحجار الأهرامات تفكر في أن تمتلك دولة أكبر.. الدولة المصرية كلها!

إنها تسمع من صديقها فوزي بك صلاح الدين عن وجود جمعيات سرية وتنظيمات سرية توزع منشورات ثورية تهاجم الملك وتدعو إلى الانقضاض على الدولة، وأن مجهودات رجال الأمن فشلت في معرفة الذين يطبعون هذه المنشورات وفي معرفة مكان آلة الطباعة التي يتم عليها طبع هذه المنشورات الثورية.

أتكون هذه المنشورات هي المعاول الصغيرة التي تحاول هدم الأهرامات الثلاثة؟ ماذا يكون مصيرها لو تحولت هذه المعاول الصغيرة إلى معاول كبيرة؟ وأصبح الهمس زئيراً؟ هل تستيقظ ذات يوم فتجد الحلم حقيقة، وأحجار الأهرامات تتساقط على رأسها؟ هي التي توهمت أنها خالدة خلود الزمن؟

إنها تعرف الرجال الذين عهد إليهم الملك بحماية نظامه. الذين يحرسون مستقبلها. الذين يحرسون أحلامها. الذين يحرسون العمارة التي اشترتها. إنها تعرف فوزي بك صلاح الدين الذي تعرف أنه منغمس في شهواته. فهل يمكن لرجل مشغول طوال الليل والنهار بمطاردة النساء، أن يطارد المتآمرين من أعداء الملك؟

هل من الممكن لسعدون باشا التافه، الساذج، أن يحرس فرخة؟ إنه لم يستطع أن يحرس الممثلة كاميليا كامل. فاختطفها منه طالب في كلية الزراعة. من يضمن أن الدولة التي يحرسها سعدون باشا لا يختطفها منه بعض الشبان من أعضاء الجمعيات السرية؟ إن سعدون باشا لم يستطع أن يرهب شريفة ويجعلها تستسلم له.. فهل يستطيع أن يرهب المتآمرين.ويخضع الذين يتوثبون للانقضاض على الدولة كلها؟

راحت ببا تفكر في هذه الدولة الهشة التي تصورت أنها تحتمي في

نفوذها وسلطانها.

إن الملك يعتمد على الأمير عادل الذي لا عمل له إلا أن يجلس تحت قدميها، والأمير عادل يعتمد على سعدون باشا المشغول حتى الآن، برغم زواجه من شقيقتها كوكو، بمحاولة استعادة كاميليا كامل إلى حريمه ومحظياته وجواريه، ويبحث عن طريق يرغم بها شريفة أن تكون عشيقة له..

وسعدون باشا يعتمد على فوزي بك صلاح الدين الذي أصبح مجنوناً بالدكتورة دوريس، وفخوراً بأن عشيقته دكتورة، ويمضي وقته في تتبع خطواتها وتسقط أخبارها، فقد أصبحت دوريس هي الدولة الوحيدة التي يحرص فوزي على أمنها وسلامتها وهدوئها واستقرارها، وحمايتها من الأعداء!

هؤلاء هم العمالقة في الدولة، وهي تراهم أقزاماً على حقيقتهم. قد يخدعون السذج بملابسهم الموشاة بالقصب، المزينة بالأوسمة والنياشين المصنوعة من الذهب، التي تتدلى منها السيوف البراقة.. ولكن ببا تراهم في بيت الهرم عراة، ضعفاء، تافهين، مغرورين، منحلين، جهلاء، سذجاً يسهل خداعهم، بسطاء يمكن أن تضحك على ذقونهم، أطفالاً تحركهم بإصبعها كما تشاء..

لقد كانت ببا سعيدة أنها أخضعتهم لمشيئتها، جردتهم من إرادتهم، سلبتهم أعمدتهم الفقرية، جعلت الأمير عادل خاتماً في إصبعها.. وسعدون باشا حذاء في قدميها.. وفوزي بك صلاح الدين قبقاباً.. ولكنها فعلت كل هذا لتسيطر على الأمير عادل وتتزوجه.. لتكون ثروة، لتقتني مجوهرات، لتستولي على شقة المليونير صادق عبدالعظيم، لتشتري عمارة العجوزة..

أما الآن فقد انتهت من كل هذا، أصبحت جزءاً من الدولة، جزءاً من الأهرامات الثلاثة، زواجها وثروتها ومجوهراتها وشقتها الجديدة وعمارتها أصبحت جزءاً من الدولة. هل يمكن الدفاع عن الدولة أمام أعدائها بحذاء وقبقاب؟! هل تترك مصيرها ومستقبلها وثروتها في حراسة هؤلاء الجبناء التافهين، الضعفاء المنافقين؟. الجبناء لا يحرسون قلاعاً وإنما يسلمون هذه القلاع. التافهون لا يخيفون العدو دائماً، بل يشجعونه على الانقضاض. الضعفاء لا يستطيعون أن يكونوا مخلصين.. المنافقون يمشون في المواكب ولكنهم لا يقاتلون في المعارك وإنما يهربون منها!

إن ببا رأت هؤلاء القواد الكبار وهم يقودون معركة فلسطين.. يقودونها من فراشها في بيت الهرم.. سمعت أخبار الهزائم الحقيقية في الليل بأذنها، وفي الصباح قرأت بعينيها البلاغات الرسمية التي أصدرها هؤلاء القواد عن انتصاراتهم الوهمية. إن كل كلمة في البلاغات الحربية تدق الطبول.. كل جملة تنفخ في نفير الانتصار.. هل تستطيع بعد الذي رأته أن تطمئن إليهم وتثق بهم وتعتمد عليهم في المحافظة على الدولة.. في المحافظة على مجوهراتها وثروتها وعمارتها؟!

كل هذا أصبح جسدها الجديد الذي يجب أن تحافظ عليه وتحميه. إنها أصبحت تهتم بطلاء جدران عمارتها من الخارج كما كانت تهتم بتغيير لون شعرها.. أصبحت تنظر كل يوم إلى كشف رصيدها في البنك كما كانت تتطلع في أسنانها البيضاء في المرآة.. تحرص على مجوهراتها كما كانت تحرص على جمال عينيها ولون أهدابها وأجفانها.. والدولة كلها الآن أصبحت هي شعرها وبشرتها وأسنانها وأهدابها وأجفانها.. أيمكن أن تأتمن هؤلاء التافهين على

حراسة جسدها الجديد؟!

وأحست ببا أنها أذكى منهم، وأقوى منهم، وأوسع منهم حيلة، وخطر ببالها أن توسع نشاطها واهتماماتها، أن تحافظ على الدولة من السقوط، كما حافظت على الأمير عادل من أن يقع فريسة في يد غانية أخرى.. إنها تستطيع أن تمنع العاصفة قبل أن تهب وتسقط صخور الأهرامات!

تذكرت ببا يوم أحبها أحد الرسامين من حوالى خمس سنوات. وصحبها إلى مرسمه، ورسمها عارية الجسم وهي مستلقية في فراشها..

ثم وقف الرسام أمام الصورة الزيتية، وراح يتأمل جسمها وقد كان كل جزء فيه ينطق ويتكلم ويصرخ ويصيح.. وأحس برشاقة الرسم وانسجامه فأمسك فرشاته ورسم تاجاً فوق رأسها. وغير اسم الصورة من صورة «الغانية العارية» إلى صورة «الملكة العارية».. ثم سمع الرسام أن البوليس يفتش العمارة التي بها المرسم، فأسرع يخفي التاج تحت مربعات ومستطيلات بحيث اختفى التاج، وحلت مكانه قبعة من الريش!

في تلك الأيام كانت ببا مفتونة بصورتها عارية وعلى رأسها التاج.. بأنها تبدو ملكة.. ملكة على الورق.. صحيح أن ملكها لم يدم سوى بضعة أيام قبل أن يختفي تاجها تحت الخطوط الهندسية المتقاطعة، ولكنها كانت سعيدة وهي تطل في هذه الصورة..

لماذا لا تحول الصورة التي رسمها صاحبها الفنان إلى حقيقة؟ لماذا لا تحاول أن تحكم مصر من خلال هؤلاء الضعفاء التافهين

الذين يحيطون بها؟ إنها ليست أول امرأة حكمت مصر.. إن كليوباترا حكمت مصر.. إن الملكة حتشبسوت حكمت مصر.. إن شجرة الدر حكمت مصر.. إنها شاهدت في السينما أفلاماً عن نساء حكمن دولاً في أوربا من فراش عشاقهن الملوك والأمراء. إنها ليست أقل جمالاً وسحراً من هؤلاء الحاكمات أمام الستار ووراء الستار.. ليست أقل منهن ذكاء ودهاء!

وما هي الدولة؟ إنها فيلم كالافلام التي مثلت فيها. الحكام فيها يقومون بالأدوار الأولى.. ولكن يوجد مخرجون يحركونهم.. يوجد كاتب سيناريو يكتب لهم الكلمات التي ينطقون بها، ومؤلفون يقدمون لهم الأفكار، ومتخصصون في عملية المكياج، يخفون العيوب التي في الحكام ويظهرون المحاسن، ومهندسون للأضواء يسلطون النور على أجزاء جميلة، ويخفون في الظلال الأجزاء القبيحة..

والجماهير التي تتفرج على الدولة هي نفس الجماهير التي تتفرج على الأفلام.. تعجبها الكلمات الجميلة.. تشدها المواقف المثيرة.. تثيرها المعارك ومناظر الصراع والقتال.. الشعب يدفع دائماً، يدفع للأفلام الفاشلة ويدفع للأفلام الناجحة على السواء.. تجذبه الاعلانات الضخمة، فيقبل على النجوم المتألقة.. إذن، فالدولة فيلم كبير!!

وذهبت ببا إلى الأمير عادل وقالت له إنها فكرت في أن تكون سكرتيراً له.. ودهش الأمير لهذا الطلب الغريب وقال:

ـ هل جننت يا ببا؟. أتريدين أن تجيئي معي إلى المكتب، لاستقبال الزوار وتوديع الزوار؟!

قالت ببا وهي تجلس على ركبتيه وتقبل ذقنه:

ـ إنني أريد أن أكون سكرتيرة لك.. سكرتيرة للشؤون السياسية.. إن كثيرات من زوجات العظماء في أوربا يعملن سكرتيرات لأزواجهن..

وهزه الزهو، وهو يسمع ببا تقارنه بالعظماء في أوربا، فطوقها بذراعيه وهو يتأمل ابتسامتها، وكأنه يذوق الابتسامة ويجدها حلوة كالشهد المصفى، وقال:

ـ إنني مستعد أن أجعلك سكرتيرة سياسية.. شرط أن تجعليني أنت سكرتيرك الخاص!

وضمته إلى صدرها وقبلته.. وأحست في تلك اللحظة بأنها تضم الدولة كلها إلى صدرها، وتحميها من أعدائها!

وتولت ببا أعمال السكرتارية السياسية للأمير.

وكان الأمير عادل يتلقى يومياً من القصر الملكي مظروفات مختلفة الأشكال والأحجام. كلها مطبوع عليها بالحبر الأخضر «ديوان جلالة الملك» وهي مختومة بالشمع الأحمر بخاتم يحمل صورة التاج.. ومكتوب عليها بحروف كبيرة «سري للغاية» أو «سري جداً» أو «سري وهام».

وبدأت ببا تفض الأختام، وتفتح المظاريف، وتقرأ ما في داخلها، فإذا بالملك يرسل إلى الأمير عادل صور التقارير السرية التي يتلقاها من إدارة الأمن العام، ومن المخابرات الحربية، ومن مختلف الأشخاص الذين مهمتهم جمع المعلومات السرية للملك عما يجري في الدولة. بعض هؤلاء الأشخاص من كبار الموظفين الذين يرغبون في الترقية إلى مناصب الوزراء، وبعضهم من صغار

الموظفين الذين يريدون أن يقفزوا فوق ظهور رؤسائهم، وبعضهم من مؤيدي الحكومة، وبعضهم من معارضي الحكومة.

وبين التقارير أخبار خطيرة، وبينها إشاعات ملفقة، وبينها خناجر في صورة تقارير مقصود بها أن يقضي كاتب التقرير على منافس له، وبينها دسائس مقصود بها الإيقاع بوزير أو الانتقام من أحد الخصوم.

والملك في بعض الأحيان يضع خطاً أحمر تحت بعض السطور دليلاً على أهميتها. أو يضع علامة استفهام كأنه يقصد من الأمير أن يتحرى عما جاء في التقرير. أو يرسم علامة «صح» كأنه يريد أن يقول أن لديه ما يؤيد ما جاء في التقرير السري، أو يشطب على التقرير كأنه يشير بأن ما فيه كلام فارغ لا يستحق التصديق أو الاهتمام..

وكانت ببا تقرأ هذه التقارير السرية باهتمام، ولا تمر عليها مروراً سريعاً كما كان يفعل الأمير، وكانت تناقشه في بعض ما جاء فيها، وأصبح الأمير عادل يهتم بآراء ببا، ويستمع لملاحظاتها، ويعجب بأنها تستوعب ما تقرأ وتناقش فيه مناقشة فهم ودراسة واهتمام.

وبينما كانت ببا تقرأ أحد التقارير، وهي راقدة إلى جوار الأمير، سرت في جسدها قشعريرة، واصطكت أسنانها، واصفر وجهها..

ولاحظ الأمير اضطرابها فسألها:

ـ ماذا في التقرير؟.

ولم ترفع ببا عينيها عن الورقة التي ترقص بين أصابعها وعادت تقرأها من جديد، دون أن ترد على سؤال الأمير..

وعاد الأمير يسألها في لهفة:

ـ ماذا في التقرير؟

قالت في صوت متحشرج:

ـ إن الملك أرسل لك منشوراً يوزع في الجامعة..

قال الأمير بغير اهتمام:

ـ المنشورات كثيرة.. وليس هذا أول منشور ولا آخر منشور!

قالت ببا:

ـ ولكن هذا المنشور ضدك أنت!

قال الأمير في هلع:

ـ ضدي أنا؟! هل ذكر المنشور اسمي؟!

قالت ببا:

ـ لا.. ليس فيه اسمك.. ولكن واضح أنك أنت المقصود به.. إنه يقول «أيها الجنود والضباط. بينما تموتون في فلسطين، تفتقدون السلاح، تشوهون وتمزقون لأن النجدات لا تصل إليكم. تنزع القنابل والذخائر من الطائرات لتحمل الذين يسافرون إلى القاهرة يستأجرون الجرسونيرات للعشيقات.. تفرش الجرسونيرات بالأموال المخصصة لحرب فلسطين.. الأموال المخصصة لشراء الأسلحة تشترى بها الهدايا للراقصات.. الاعتماد المخصص لإقامة مصنع للقنابل الضخمة أنفق عن آخره على راقصة معروفة.. إن قنبلتنا الذرية هي راقصة»...

وصرخ الأمير عادل بغيظ:

ـ الكلاب؟ من قال لهم هذا الكلام!

قالت ببا في مرارة وهي تضغط على شفتيها:

ـ إن الوحيد خارج الشلة الذي يعرف هذه الأسرار هو عبدالمنعم بيومي الذي كان ياورك..

قال الأمير:

ـ عبدالمنعم؟ مستحيل أن يفعل هذا.. إنني اعتقت رأسه من حبل المشنقة.

قالت ببا:

ـ إنني لم أسترح له أبداً. إنني عندما رأيته هنا في بيت الهرم في أول علاقتي بك، شعرت أن فيه شيئاً لا يعجبني.. ولقد استرحت أنه ترك العمل معك ولكنني لم أتصور أنه سيستعمل أسراراً يؤتمن عليها ليطعنك بها في ظهرك. ولكن بعض الناس يجد لذة في أن يعض الأيدي التي أطعمتهم!

وانتزع الأمير المنشور من يد ببا، وبدأ يقرأه، وكلما قرأ سطراً زاد وجهه امتقاعاً ثم قال:

ـ غير معقول أن عبدالمنعم بيومي يكتب هذا المنشور.. لأنه هو الذي ركب الطائرة واستأجر بيت الهرم، وهو الذي تولى إعداده بنفسه.. فهل من المعقول أن يتهم نفسه، أن يهاجم نفسه؟ إنه هو المجرم الأول ولست أنا.. أنا يمكن أن أذكر أنني كلفته باستئجار بيت الهرم، ولكنه هو الذي استأجر البيت بنفسه. وهو الذي وقع

على عقد الإيجار بخطه. هو الذي اشترى أثاث البيت بنفسه من المحلات التجارية المختلفة. ثم إن عبدالمنعم يعرف أنني أعرف أنه وحده الذي يعرف هذا السر. وأنني سأتهمه على الفور بأنه كاتب المنشور.. وسوف أبطش به.. بينما أنا وحدي الذي توليت حمايته والدفاع عنه عند الملك عندما اتهمه حامد بك السيوفي بأنه يدبر انقلاباً.. فمن سوف يحميه إذا هاجمني أنا؟!

قالت ببا:

ـ إنه لم يكن راضياً على علاقتنا.. وقد قلت لي إنه عندما رآني في بيت الهرم ذهب إليك في مكتبك واعترض على هذه العلاقة.. قد يكون شعر بالغيرة منك.. إنني لم أخبرك أنه عندما رآني في بيت الهرم حاول أن يغازلني.. وإنني نهرته بعنف.. أخفيت عنك هذا لأنني لم أرد أن أسيء إلى العلاقة بينك وبين ياورك.. أما الآن، وأنا أرى أنه يهاجمك ويريد أن يقضي عليك، فإن من واجبي أن أقول لك الحقيقة كلها.. لقد حاول أن يخونك معي.. فما يفعله اليوم ليس خيانته الأولى وإنما خيانته الثانية!

ولم تكن ببا صادقة في دعواها. إنها تعرف أن عبدالمنعم بيومي لم يغازلها عندما رآها في بيت الهرم، بل هي التي غازلته، وهو الذي صدها، وهو أراد أن يهرب منها عندما رأته، وهي التي ألحت عليه أن يجيء ليحدثها، وهي التي كانت تأكله بعينيها، وكانت عيناه في الأرض طوال حديثه معها.

ولكنها كانت تكرهه وتحقد عليه منذ أخبرها الأمير عادل بأنه اعترض على حب الأمير لها، وأنه قال إنها غانية، وأن هذه العلاقة ستسيء للأمير.. إن المرأة لا يمكن أن تغفر أبداً لرجل أراد أن

يفسد علاقة غرامية لها.. إنها تغفر له إذا أهانها.. إذا لطمها على وجهها.. ولكنها لا تغفر أبداً لمن نصح الرجل الذي تحبه بأن يقطع علاقته بها.

وهكذا رأت أن الفرصة سنحت لها لترد عليه.. إنه حاول أن يقطع علاقة الأمير بها، فلتحاول أن تقطع رأسه!

واكفهر وجه الأمير وهو يسمع من ببا قصة خيانة ياوره السابق.. لقد كرهه لأنه حاول أن يغازل ببا أكثر من كرهه له لأنه كتب المنشور الذي يطعن فيه.. إن الأمير عادل عاد يقرأ المنشور من جديد، ثم قال:

ـ إن الملك أشر على المنشور بعلامة «مشطوب» هذا دليل على أنه يرى أنه كلام فارغ لا يستحق التصديق والاهتمام. ومن رأيي أن لا نثير ضجة حول المنشور ما دام الملك لم يهتم به.. ويمكن أن نبحث عن سبب آخر نقضي به على عبدالمنعم بيومي في هدوء.. وخاصة أن اسمي غير مكتوب في المنشور.

قالت ببا وقد تذكرت الأهرامات التي تسقط، وتذكرت مجوهراتها وثروتها وعماراتها، وتصميمها أن تتولى حماية هذه الدولة:

ـ إنكم جميعاً أرانب.. إن هذه المنشورات معاول تهدمنا جميعاً. إن إهمالها وعدم القبض على الذين يطبعونها سيشجع غيرهم على عمل منشورات أخرى.. إن هذا المنشور لم يذكر اسمك، ولكن المنشور الثاني سيذكر اسمك صراحة، والمنشور الثالث سيذكر اسمي.. إن واجبك أن تتخذ عملاً سريعاً.. يجب أن يقبض على عبدالمنعم بيومي فوراً.. وعندما يقبض عليه سيخاف زملاؤه، ويشعرون أنهم مطاردون من الدولة، وسيترددون في طبع منشور جديد..

ودق جرس التليفون، أمسكت ببا سماعة التليفون وإذا بأمها ست زليخا تقول:

ـ حدثت اليوم حكاية غريبة.. لقد وجدت منشوراً تحت عقب الباب..

وسألتها ببا عما في المنشور؟ فقالت ست زليخا:

ـ إن ابني حامد بجواري وسيقرأ لك المنشور..

وقرأ حامد المنشور على ببا، وإذا بوجهها يحمر من الغضب، فهو نفس المنشور الذي أرسله الملك للأمير عادل!

وقالت ببا وهي تضحك ضحكة مغتصبة:

ـ فلينفلقوا!

وعندما وضعت ببا السماعة كانت هي المفلوقة فعلاً، وليس الذين كتبوا هذا المنشور..

والتفتت ببا إلى الأمير وقالت له:

ـ إنهم وضعوا نفس المنشور في شقتي.. في شقتي الجديدة.. إن هذا دليل على أنهم يتابعونني.. دليل أنهم يعرفون أنني انتقلت من شقتي في الطابق الرابع إلى شقة المليونير صادق عبدالعظيم في الطابق السابع.. وإذا كانوا نجحوا في أن يضعوا في الشقة منشوراً اليوم، فسوف يضعون غداً في الشقة قنبلة.. وفزع الأمير عادل وقال:

ـ قنبلة؟! هل تظنين أنهم يريدون أن يقتلوك؟!

قالت ببا وهي تهز رأسها استنكاراً:

ـ طبعاً يقتلونني. . ما دام رجال سموك المسؤولون عن المحافظة عن الأمن العام، مشغولين بمطاردة الغواني والممثلات والعشيقات. . وما دمت سموك تعرف أن ياورك السابق يخونك ويشترك في عمل المنشورات ضدك ثم تتركه مطلق السراح، حتى تقضي عليه في هدوء وسكون!

وتحمس الأمير عادل، وقال إن فوزي بك صلاح الدين وسعدون باشا سيحضران الليلة لتناول العشاء معه، وسوف يفاتحهما في ضرورة اتخاذ إجراءات خطيرة في هذا الموضوع الهام!

وعندما وصل الضيوف إلى بيت الهرم لتناول العشاء، كان يبدو على ببا القلق، وكانت تحاول أن تخفيه بتوزيع قفشاتها على سعدون باشا وفوزي بك.

وكان سعدون باشا قد صحب معه زوجته كوكو شقيقة ببا، وجاء فوزي صلاح الدين ومعه الدكتور أحمد العروسي وزوجته الدكتورة دوريس. .

وفوجئت ببا بالدكتورة دوريس تقول لها:

ـ تصوري يا سمو الأميرة. . أنني عندما عدت إلى شقتي ظهر اليوم من عملي في المستشفى، وفتحت بمفتاحي باب الشقة، وجدت تحت الباب منشوراً وقحاً فيه هجوم على كبار رجال الدولة. . كله كذب وقلة أدب!

قال فوزي بك وهو ينظر بإعجاب إلى دوريس:

ـ إن دوريس اثبتت انها مواطنة صالحة، لأنها اتصلت بي في مكتبي على الفور وقرأت لي المنشور الذي وجدته. . وسبقت بذلك جميع الضباط والمخبرين ورجال البوليس السياسي!

وأحنت الدكتورة دوريس رأسها في خجل لهذا الثناء الذي غمرها به عشيقها. . بينما قال الدكتور العروسي وهو يفرغ كأس الويسكي الثاني في جوفه:

ـ إنها لم تفعل إلا الواجب. . أنا هنأتها بنفسي. . ولكني لمتها. . لأنها لم تركب سيارتها في الحال وتذهب إلى سعادة مدير الأمن العام في مكتبه وتعطيه المنشور. . ولكنها قالت إن لديها موعداً مع زوجة محمد بك سعيد في الطابق الخامس لتعطيها حقنة. .

وابتسم فوزي بك صلاح الدين لأنه كان هو زوجة محمد بك سعيد التي أعطتها الدكتورة دوريس حقنة في الطابق الخامس. . وأنها، وهي تعطيه حقنة الحب، أعطته المنشور!

ولو أن فوزي بك نظر تحت قدميه وهو يفتح باب جرسونيرة سعدون باشا لرأى منشوراً آخر تحت قدميه، ولكن عينيه كانتا مملوءتين بصورة دوريس التي ينتظر قدومها بعد دقائق فلم ير المنشور!

وقالت كوكو:

ـ وأنا أيضاً وجدت منشوراً تحت باب شقتي. . . وأعطيته لسوسو عندما جاء ليصحبني إلى العشاء!

ونظر سوسو، أو سعدون باشا، بإعجاب إلى زوجته الصغيرة وقال:

ـ ولكني لمت كوكو لأنها لم تتصل بي على الفور وتبلغني بأمر المنشور كما فعلت الدكتورة دوريس.. ويظهر أن الدكتورة دوريس مخلصة للوطن أكثر منك!

وضحكت كوكو وقالت:

ـ أنا مخلصة لك فقط.. والقلب لا يسع اثنين!

وامتقع وجه ببا ووضعت كأس الويسكي على المائدة وهي تقول:

ـ ألم يستوقف نظر السادة خلفاء شارلوك هولمز، أن وضع منشور تحت باب شقتي التي تقيم فيها أمي، ووضع منشور تحت باب شقة أختي ووضع منشور تحت شقة دوريس أعز صديقة لي، ليس مصادفة؟.. إن هذا دليل على أن الذين كتبوا المنشور يعرفون أين أقيم، وأين تقيم أختي، وأين تقيم صديقتي.. إنهم يعرفون أنني أنا التي أملك هذه العمارة، ولهذا غمروها بالمنشورات.. فهذا تهديد موجه إلي!

قال الأمير عادل معترضاً وكأنه يطمئن نفسه:

ـ لو كان الذين كتبوا المنشور يعرفون كل هذا عنك.. لوضعوا منشوراً هنا في بيت الهرم..

قال فوزي بك صلاح الدين وقد وجدها فرصة ذهبية للانتقام من صبحي خالد زوج إحسان، التي كانت عشيقته لمدة ثلاث ساعات، ثم تابت على يدي السيدة زينب:

ـ لماذا لا يكون الذي وزع هذا المنشور مقيماً في عمارة العجوزة

نفسها؟ كأن يكون صبحي خالد المفتش في ديوان المحاسبة والمقيم في الطابق الأول من العمارة؟

قال سعدون باشا وهو يتذكر شريفة وكاميليا في وقت واحد:

ـ لماذا لا يكون عزيز علاء الدين؟ إن بصماته على المنشور.. إنه يشير إلى الجنود والضباط الذين شوهوا لأن الطائرة لم تصل إليهم تحمل لهم الذخائر والقنابل في فلسطين.. هذه الواقعة حدثت لعزيز علاء الدين نفسه، وهو صاحب المصلحة فيها.. فلماذا لا تكون زوجته شريفة هي التي وزعت المنشور؟.

وتذكرت ببا شريفة.. ورفضها دخول الجنة التي فتحت أبوابها لها وتذكرت القضية التي تنوي رفعها عليها لإخلاء الشقة لأنها تديرها للدعارة السرية، وأرادت أن لا تنتظر حتى يعد فوزي بك صلاح الدين الوثائق اللازمة وقالت:

ـ إنني أشك في شريفة.. إنني تحدثت إليها وسمعت منها كلمات غريبة تدل على السخط والمعارضة والحقد على ولاة الأمور والمقامات العليا..

قال الأمير عادل:

ـ ولكن جلالة الملك أبلغني أن هذا المنشور وزع في الجامعة.. وصاح سعدون باشا وقد تذكر شامل شفيق الطالب بكلية الزراعة الذي خطف منه الممثلة كاميليا كامل:

ـ مضبوط يا أفندم.. إن المنشور وزع في الجامعة.. والذي وزعه هو شامل شفيق، وهو يقيم في الطابق الثالث من عمارة الأميرة ببا.. الثلاثة الذين قبضنا عليهم في قضية المؤامرة الكبرى

هم أنفسهم الذين طبعوا المنشور ووزعوه . .

وأمسك فوزي بك صلاح الدين التليفون وطلب مساعده الصاغ عبدالله شوقي ، وطلب منه أن يذهب ويفتش بيوت صبحي خالد وشامل شفيق وعزيز علاء الدين ، ويبحث عن مطبعة منشورات ، وأعطاه رقم تليفون بيت الهرم ليبلغه نتيجة التفتيش . .

ووضع السماعة وعلى وجهه ابتسامة الرجل الواثق من نفسه الذي وضع يده على المجرمين . .

وأرادت ببا أن تنتهز الفرصة وتطلب القبض على الصاغ عبدالمنعم بيومي ياور الأمير السابق ، ولكن الأمير عادل ضغط على قدمها ، وفهمت منه أنه يفضل انتظار نتيجة التفتيش . .

وقال الدكتور العروسي وهو يجرع الكأس الرابعة :

ـ هؤلاء المجرمون يجب أن يشنقوا !

وأحس الدكتور العروسي أنه وهو يشنقهم ، يشنق معهم النظرية التي كفر بها منذ أن رأى ورقة بنكنوت ذات المائة جنيه ، فاكتفى بأن يفرغ الكأس الرابعة في جوفه ، ويمد يده إلى زجاجة الويسكي ليعد الكأس الخامسة . .

وكانت ساق دوريس تعانق ساق فوزي بك تحت المائدة ، وعندما التفَّت الساق على الساق حمل العاشقان كأسيهما وشربا في صحة الدكتور العروسي . . الذي أمسك بكأسه وهو يترنح ويقول :

ـ في صحة الإخلاص للوطن !

شرب العاشقان النخب وهما يضحكان !

ومضت نصف ساعة ودق جرس التليفون ، ومد فوزي بك يده إلى السماعة وصمت الجالسون ينتظرون في لهفة نتيجة المحادثة التليفونية . وتلفتوا في وجه فوزي بك ليقرأوا فيه ما يسمعه بأذنيه عن نتيجة التفتيش . .

وبدأ سعدون باشا يسرح من جديد في شريفة وفي كاميليا كامل !

واستمر الصمت دقائق بدت للمنتظرين كأنها ساعات طويلة . ثم سمعوا فوزي بك يقول دون أن يبدو أي تغيير على وجهه الجاد المظهر ، الصارم القسمات :

ـ غريبة !

وانتظر الجالسون أن يعرفوا من فوزي بك الأمر الغريب الذي عثر عليه البوليس أثناء التفتيش . . ووضع فوزي بك السماعة في هدوء وقال وقد تخلى عنه اعتزازه بذكائه ودهائه :

ـ لم يعثر البوليس على أي شيء في بيوت الثلاثة . . فتشوا كل شيء في البيت . . كل ركن ، كل جدار ، فلم يعثروا على منشورات ولا على آلة طباعة . . إن هذا يجعل الأمر أخطر مما تصورت !

وبدا كل واحد من الجالسين وكأنه تمثال لخيبة الأمل . وكان سعدون باشا أكثرهم خيبة أمل . . لأنه فقد في دقائق شريفة وكاميليا اللتين أحس خلال نصف ساعة كاملة كأنهما عاريتان بين ذراعيه . .

وبدا الحزن على وجه فوزي بك صلاح الدين ، فقد أحس أنه فقد لقبه كخليفة شارلوك هولمز ، وفي الوقت نفسه فقد فرصة جديدة لاستعادة إحسان زوجة صبحي خالد .

وقالت ببا وهي تعض شفتيها في غيظ:

- لا أستبعد أن يضعوا قنبلة في عمارتي وينسفوها.. وصرخت الدكتورة دوريس:

- تتقطع أيديهم قبل أن يفعلوا هذا!

وقال الدكتور العروسي وهو يشرب الكأس السادسة:

- لا يجوز أن نترك هؤلاء المجرمين حتى يحرقوا البلد.. الذين يحرقون عمارة اليوم سيحرقون البلد غداً!

وكان يبدو على الدكتورة دوريس وزوجها الدكتور العروسي أنهما أكثر الموجودين حماسة ضد الذين سيحرقون العمارة ويحرقون البلد.. لم يذكرا أنهما منذ مدة غير طويلة رأيا نفس العمارة تحترق، ويومها كانا يحسان بنشوة برؤية النيران تلتهم العمارة.. كان الدكتور العروسي يعتبر حريق العمارة يومئذ قضاء على إحدى قلاع الرأسمالية. وكانت الدكتورة دوريس سعيدة في أن ترى صرحاً من صروح الإقطاع يتحول إلى رماد. ولكنهما في هذه المرة كانا قلقين على نفس العمارة، ساخطين على الذين سوف يدمرونها. لم تكن العمارة قد تحولت من قطاع خاص يملكه رأسمالي مستغل إلى قطاع عام يملكه الشعب، بل الذي حدث هو العكس كانت العمارة تملكها الشركة العقارية الوطنية التي يساهم فيها ٢٥٠٠ مساهم وأصبحت الآن مملوكة لفرد واحد هي الأميرة ببا!

والذي تغير هي الدكتورة دوريس وزوجها الدكتور العروسي.. أصبحت دوريس تخشى على العمارة لأن فيها زبائنها التي أصبحت تربح من عيادتهم.. لأن فيها جرسونييرة سعدون باشا التي تلتقي

فيها بعشيقها فوزي بك صلاح الدين.. لأن فيها الجراج الذي يضم سيارتها الشيفروليه الفارعة الثمينة.

وأصبح الدكتور العروسي يشعر أنه صاحب مصلحة في بقاء العمارة لأن فيها زبائن زوجته الذين تحلبهم دوريس كما تحلب البقرة كل يوم، لأن فيها زليخا هانم حماة الأمير الذي أصبح طبيبها الخاص... ولأن فيها السيارة الفاخرة التي يتباهي ويزهو بنفسه صباح كل يوم وهو يستقلها إلى مصحة الجيزة التي أصبح مديراً لها بفضل توصية فوزي بك صلاح الدين!

أصبحا صاحبي مصلحة في بقاء العمارة، في بقاء النظام الذي صارت العمارة جزءاً منه. لم يعودا ينظران إلى العمارة من تحت كما كانا يفعلان وهما يشهدان الحريق الأول فيها. أصبحا ينظران إليها من فوق.

إن النظرة من تحت تختلف كثيراً عن النظرة من فوق.. النظرة من خلال النظرية تختلف عن النظرة من خلال ورقة البنكنوت فئة المائة جنيه.. المشهد الواحد يختلف أمامنا ونحن نراه سائرين على أقدامنا، ثم ونحن نراه جالسين في سيارة شيفروليه فاخرة تنهب الأرض نهباً!

وهكذا شعر الدكتور العروسي أن واجبه الوطني نحو العمارة لا يجوز أن يقتصر على موقف من المجرمين، وإنما يجب أن يمد يده لمساعدة الوطن ليحمي العمارة من المجرمين المتآمرين..

ووضع الكأس على المائدة، وارتسمت على وجهه علامات الخطورة وقال:

- من دراستي للمنشور أعتقد أن الذين كتبوه ليسوا من الهواة.. إنهم من الماركسيين.. وأنا أعرف عدداً من الماركسيين أعتقد أنهم وراء هذا المنشور.

وبدأ الدكتور العروسي يذكر أسماء أصدقائه القدامى واحداً واحداً. يذكر كل اسم وصناعته وعنوانه. بينما كان فوزي بك صلاح الدين يدون هذه الأسماء في مذكرته.

قال عنهم الدكتور العروسي كل ما يعرف، الأماكن التي يترددون عليها، القهاوي التي يجلسون فيها، الحدائق التي يذهبون إليها، ولكنه لم يقل إنه كان صديقاً لهؤلاء الشبان، وإنه اشترك في دفع ثمن الكتب التي قرأوها لشرح النظرية. وإنه حضر كثيراً من اجتماعاتهم.

ولم يشعر أنه يبيع أصدقاءه لمدير الأمن العام، يخونهم، يشي بهم، يقدم رؤوسهم ثمناً للمنصب الذي ناله بصفة استثنائية، الذي تصور أنه لم يدفع أي ثمن، بينما هو دفع أكبر ثمن يمكن أن يدفعه رجل... شرفه وشرف زوجته!

ولم يشعر الدكتور العروسي بتأنيب ضميره وهو يسلم أصدقاءه الأبرياء. إن ضمير الدكتور العروسي تغير مع الأيام.. إن العلماء يتحدثون عن أماكن نقل القلب، ولكنهم لم يتحدثوا عن عملية أسهل وهي عملية نقل الضمير.. كيف أن في استطاعة بعض الناس أن يبدلوا ضمائرهم كما يبدلون جواربهم. لا يشعرون بأي ألم أثناء عملية التبديل، لأننا لا نشعر بأي ألم ونحن نخلع جورباً قديماً ونضع في أقدامنا الجورب الجديد!

أقنعه ضميره الجديد بأنه يخدم الوطن.. يخدم النظرية

الجديدة.. يخدم الشعب.. إن الدكتور العروسي كان يشعر أن الوطن كان محروماً لأنه هو محروم.. أما وقد أصبحت محفظته ملآنة بالنقود فإن الوطن صار في رخاء..

كان يشعر أن أساس النظرية التي آمن بها أن يرتفع مستوى الجماهير وقد ارتفع مستواه فصار يركب سيارة شيفروليه..

أساس النظرية القضاء على الظلم الاجتماعي. وقد كان هو مظلوماً عندما كان طبيباً بسيطاً في مصحة الجيزة، أما الآن فقد أصبح مديراً للمصحة، أي أن الطبقات الكادحة كلها قضت على الظلم ونالت مكانها.

أساس النظرية أن طبقة البروليتاريا يجب أن تأخذ مكانها في المجتمع، وقد أخذ الدكتور العروسي مكانه في المجتمع عندما أصبح طبيباً خاصاً للأمير عادل أكبر أمير للدولة.. إذن، فما فعله هو خدمة للوطن وللنظرية وللشعب..

وفكر أن ينتهز الفرصة ويخدم نفسه.. ليس من المعقول أن ينسى نفسه وينكر ذاته في هذه الفرصة الذهبية التي ستقطع فيها رقاب أصدقائه القدامى.. ووجد نفسه يضيف إلى قائمة الماركسيين الخطرين اسم الدكتور ابراهيم عاشور الطبيب الأول في مصحة الأمراض الصدرية بالجيزة!

وكان الدكتور العروسي يعرف جيداً أن الدكتور عاشور ليس ماركسياً، ولم يحضر اجتماعات الماركسيين، ولم يكن يقرأ كتبهم ومطبوعاتهم.. ولكن الدكتور عاشور رفع قضية أمام مجلس الدولة يعترض فيها على تعيين الدكتور العروسي مديراً للمصحة، ويقول إنه الطبيب الأول في المصحة، وإنه أقدم منه بعشر سنوات، وإنه

أحق بالمنصب منه.. ولهذا رأى الدكتور العروسي أن ينتهز العمل الوطني الذي يقوم به بالتضحية بأصدقائه القدامى، كي يقطع رقبة منافسه وعدوه الأول في مصحة الجيزة!

وعندما انتهى الدكتور العروسي من إملاء اسمه على فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام شعر بالراحة.. فقد أرضى ضميره.. وتخلص من أصدقائه وأعدائه في وقت واحد، واكتسب حظوة جديدة لدى فوزي بك صلاح الدين!

وأحس فوزي بك بسعادة لا تقل عن سعادة الدكتور العروسي.. أحس بأن المال الذي يسرقه من الدولة وينفقه على عشيقته زوجة الدكتور العروسي إنما يصرف في شؤون الدولة، وإنه استطاع أن يمزج بين مصلحة الدولة ومصلحة قلبه!

وأمسك بالتليفون وطلب الصاغ عبدالله شوقي وأمره بالقبض على الأسماء التى أملاها عليه الدكتور العروسي..

وأمسك الدكتور العروسي زجاجة الويسكي وسكب منها الكأس التاسعة ورفع كأسه وهو يقول:

ـ في صحة الوطن!

ورفع الجالسون كؤوسهم وشربوا نخب الوطن..

ولكن الوطن يعني لكل واحد منهم شيئاً مختلفاً..

ـ ٢٣ ـ

لم يدهش الفرسان الثلاثة، عزيز علاء الدين وصبحي خالد وشامل شفيق لأن البوليس لم يعثر على أي شيء له أهمية، أثناء عملية التفتيش الدقيقة التي قام بها الصاغ عبدالله شوقي، والقوة الكبيرة التي صحبته في مهمة تفتيش الشقق الثلاث.

عبث البوليس بكل محتويات الشقق. ولم يترك درجاً لم يفتحه. لم يترك صندوقاً لم يحطمه، لم يترك جداراً لم يثقب فيه بحثاً عن مخبأ سري. لم يتركوا كتاباً لم يفتحوه، ولا خطاباً لم يقرأوه ولا بذلة دون أن يضعوا أيديهم في جيوبها.

فقد كان الفرسان الثلاثة يتوقعون هذا التفتيش، ويستعدون له، منذ بدأوا يحولون التهمة الظالمة التي أسندت إليهم بالعمل ضد الدولة إلى تهمة حقيقية. كما اقترحت عليهم شريفة زوجة عزيز علاء الدين.

كان أول ما فكروا فيه أن يطبعوا منشورات ضد الدولة. أحسوا أنهم فعلاً يجب أن يبدأوا بدل أن يمضوا حياتهم في انتظار من يبدأ ثم يتبعونه. لقد كان من رأي صبحي خالد في أول الأمر أن مصر في حاجة إلى قيادة جديدة، تغرس بذور الوطنية في الأرض التي أهملت فماتت. في حاجة إلى قيادة توقظ الشعب المسكين من نومه العميق، تحركه من جموده، ترفعه من هاوية اليأس والقنوط. يجب أن ننتظر الرجل الذي يحمل المشعل في الظلام فنسير وراءه.

ولكن شريفة قالت إن هذه الآراء هي نوع من التثاؤب الوطني، كأننا نفتح أفواهنا ونغلقها. فلا نحن نيام ولا نحن مستيقظون. كان من رأيها أن القيادة لا تخلق الوطنية في الشعوب، لا تحول

الموتى إلى أحياء. . إن الوطنية والحياة موجودتان دائماً في الشعب المصري، كما توجد المياه في نهر النيل. إن القيادة هي المهندس الذي ينظم الري، الذي يستخرج من الماء الجاري الكهرباء، الذي يقيم القناطر ثم يفتحها فتتدفق المياه منها بقوة وانطلاق، فتجرف كل ما يقف أمامها.

إلا أن المهندس لا يخلق ماء النيل. وإذا لم يظهر هذا المهندس الذي يستغل النهر في عملية الخلق والإبداع والانشاء، فلن يجف ماء النيل. سوف تظل المياه تجري وتجري. بعضنا سيشرب منه وبعضنا سيغرق فيه. بعضنا سيسبح فيه وبعضنا سيغوص فيه. ستحيي المياه بعض الأرض التي يرويها، وستغمر بعض الأرض التي يفيض عليها. ستضيع مياه كثيرة في البحر هباء، ستفقد مياه كثيرة في الصحراء التي لا ترتوي أبداً. ستنشأ في هذه الغوط بعض حدائق وبعض برك وبعض مستنقعات. ستتبخر مياه في الهواء، ستتسرب مياه في الرمال. ولكن نهر النيل سيبقى دائماً. فلا يجوز أن ننتظر المهندس الذي يجيء ليتحكم في هذه المياه ويحركها. فقد لا يجيء أبداً.

ولكننا نستطيع أن نحرك المياه بغير أن نكون مهندسين. نلقي حصاة واحدة في هذا النهر الضخم فتتحرك كل قطرة فيه. حصاة واحدة ممكن أن تغير مكان كل قطرة في نهر النيل. وسيجيء غيرنا ويلقي حصاة أخرى فتزيد حركة المياه. ثم يجيء بعدنا مئات يلقون مئات الحصى. ثم ألوف يلقون آلاف الحصى، ثم ملايين. . ثم يظهر المهندس الذي يوجه قطرات هذا النهر المتحركة لإقامة الغد الجديد.

واقتنع الفرسان الثلاثة بوجهة نظر شريفة. اقتنعوا بأن عليهم أن

يرموا حصاة في هذا النهر الهادىء. . . حصاة واحدة قد تصنع دوامة، وقد تصنع العاصفة، وقد تكون بداية الإعصار. . وكانت الحصاة التي اتفقوا عليها هي منشور. يهاجمون فيها الملك والفساد في البلاد!

وبدأوا يوزعون على أنفسهم الأدوار. فأحضر صبحي خالد آلة طباعة رونيو ملقاة في مكتبه بديوان المحاسبة، نسيها الموظفون الذين يقومون بعملية جرد محتويات الديوان، فلم يقيدوها في الدفاتر.

وأحضر شامل الورق الأبيض الذي تطبع عليه المنشورات.

وتولى عزيز علاء الدين مهمة جمع المعلومات التي تكتب في المنشورات.

وكان لدى الممثلة كاميليا كامل آلة كاتبة كانت تعلمت الكتابة عليها عندما قررت أن تعمل سكرتيرة قبل أن تحترف التمثيل، فأحضرتها لتكتب عليها المنشورات.

وتم الاتفاق على أن تقوم شريفة زوجة عزيز وإحسان زوجة صبحي بمهمة الطبع.

ولكن المشكلة التي صادفتهم هي أين يخبئون آلة الطباعة، وورق الطباعة والمنشورات قبل توزيعها؟ إن اتهامهم في قضية المؤامرة الكبرى جعلهم في القائمة السوداء عند البوليس. أي عملية تفتيش كبيرة سوف تضم مساكنهم. ثم إن شقة كاميليا غير مضمونة. وسعدون باشا يعرف علاقتها بشامل شفيق! فإذا حامت الشكوك حول شامل، فسوف يقترح سعدون باشا تفتيش شقة كاميليا!

وإذا بالممثلة كاميليا كامل تحدجهم بنظرة جانبية. وخرج من

عينيها شعاع ضوء خبيث، كأن فكرة خبيثة جالت بخاطرها عندما سمعت اسم سعدون باشا فقالت:

ـ إن لدي مفتاح جرسونييرة سعدون باشا في الطابق الخامس من العمارة. إنني لم أعد المفتاح له بعد أن قطعت علاقتي به.ما رأيكم أن نرتكب جريمتنا في نفس المكان الذي اختاره سعدون باشا المشرف على المخابرات، وفوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام، الذي اختاراه لارتكاب جرائمهم؟. إنهما اختارا هذه الجرسونييرة ليفسدا فيها الشعب، ونحن اخترنا نفس الجرسونييرة لنصلح فيها الشعب. المكان الذي اختاره أعداء الوطن لذبحه يختاره أبناء الوطن ليردوا إليه الحياة!

ولف الصمت السامعين برهة من الوقت، كأن الفكرة الغريبة أذهلتهم وأفقدتهم النطق.. وأخيراً فتح عزيز علاء الدين فمه ثم قال:

ـ ولكن أين نضع آلة الطباعة بحيث لا يراها سعدون باشا، أو فوزي بك إذا دخل واحد منهما الشقة؟

وأخذت كاميليا منديلها، وحاولت أن تخرج رمشاً دخل في إحدى عينيها وقالت:

ـ إن في الشقة «صندرة» كبيرة فوق المطبخ والحمام ودورة المياه ولها سلم حديدي، ويفصل كل هذا باب من الخشب عن باقي الشقة. وهذا الجزء من الشقة مغلق باستمرار، فلا أحد يطبخ طعاماً، ولا يستعمل الحمام ودورة المياه لأنه يوجد بجوار غرفة النوم حمام آخر فاخر فيه دورة مياه. وأنا أعرف أن سعدون باشا وفوزي بك لا يترددان على هذه الشقة قبل الظهر. لماذا لا نضع آلة الطباعة في الصندرة، ونتولى عملية الطبع فيها؟

قال شامل شفيق:

ـ ولكن قد يرانا عم ابراهيم البواب ندخل شقة سعدون باشا فيثير دخولنا فضوله وتساؤله، وخاصة أنه يعرفنا واحداً واحداً..

قالت كاميليا وهي تبتسم:

ـ إن عم ابراهيم رآني عدة مرات وأنا أدخل شقة سعدون باشا فلن يثير دخولي فضوله. فأنا أحضر في الصباح المبكر وأفتح باب الشقة الرئيسي، ثم أدخل وأغلق الباب، وأذهب إلى باب المطبخ الذي ينفتح على سلم الخدم، وأفتحه، فتهبطون من شقة شريفة في الدور السادس إلى شقة سعدون باشا في الدور الخامس، فلا يراكم أحد. ونقوم بعملية الطبع داخل الشقة، ثم نعود أدراجنا، وينزل كل واحد منا إلى بيته دون أن يشعر أحد. ولن يتصور إنسان أن الشقة التي يستعملها المشرف على المخابرات ومدير الأمن العام كعش غرام هي المكان الذي تطبع فيه المنشورات التي تهاجم النظام الذي يحرسه سعدون باشا وفوزي بك صلاح الدين!

قال صبحي خالد:

ـ ولكنني مضطر أن أذهب في الصباح إلى عملي بديوان المحاسبة، وشامل سيذهب في الصباح إلى دروسه في الجامعة.. وظروف عزيز لا تسمح له بأن يعمل شيئاً.. والمفروض أن تحدث العملية في الليل حتى نشترك فيها جميعاً.

قالت شريفة:

ـ إن النساء وحدهن سيتولين عملية الطبع.. إنني موافقة على أن يتم في الصباح، لأن أحداً لا يخطر بباله أن أمراً كهذا قد يحدث

في الصباح.. إن الجرائم عادة تحدث في الليل. ونشاط البوليس يبدأ دائماً في الليل.. إن النساء وخدهن قادرات على القيام بهذه العملية.. إن فكرة طبع المنشورات في جرسونييرة سعدون باشا نفسه هي فكرة عبقرية..

وأعجب الجميع بهذا الرأي..

ولكن إحسان زوجة صبحي خالد لم تتحمس في أول الأمر لهذه الفكرة. إن شقة سعدون باشا تذكرها بالخطيئة.. خطيئتها مع فوزي بك صلاح الدين. في هذه الشقة خانت زوجها لأول مرة ولآخر مرة.. هذه الخطيئة التي لا تزال تعذبها بالرغم من توبتها على يد السيدة زينب.. إنها لا تريد أن تضع قدمها في المكان الذي تتمنى أن تنساه، فقالت معترضة:

ـ ولكن، لنفرض أن سعدون باشا غير مواعيده التي تعرفينها ودخل الشقة فجأة؟

قالت كاميليا وقد لمع في رأسها خاطر كاشتعال اللهب عند انطلاق المدفع:

ـ سوف أهجم عليه.. آخذه بين ذراعي.. أعانقه أقبله.. أقول له إن قلبي لم يتحمل فراقه.. إنني لم أستطع الصبر على بعاده.. إنني جئت إليه تائبة، مستغفرة.. أتوسل إليه أن يدخلني جنته من جديد.. لا تنسوا إني ممثلة.. وهذا أصغر دور أقوم به!

وأحس شامل شفيق بالغيرة. ولذعته فكرة أن يعود سعدون باشا إلى عناق كاميليا وتقبيلها حتى ولو كان الأمر مشهداً مسرحياً، فقال معترضاً:

ـ ولكن ماذا يحدث بعد ذلك؟

ضحكت كاميليا وقالت:

ـ إطمئن.. لن يحدث شيء بعد ذلك.. إن سعدون باشا لن يجيء الشقة إلا لأنه ينتظر موعد غرام مع امرأة أخرى.. إنه لا يكاد يراني في الشقة حتى يجزع ويضطرب، وسيحاول أن يخفيني في أي مكان حتى لا تراني المرأة الأخرى، وسوف أهدىء روعه وأعرض عليه أن آختفي في المطبخ، وأغلق الباب الذي يفصل المطبخ عن باقي الشقة، وفي هذه الأثناء تستطيعون أن تهربوا من الشقة من سلم الخدم.. بعد أن تتفرجوا طبعاً على عشيقته!!

واهتزت إحسان في مقعدها وهي تسمع كاميليا تقترح على الموجودين وبينهم زوجها أن يتفرجوا على العشيقة القادمة في موعد غرام، وحمدت الله ودعت للسيدة زينب، لأنها قطعت علاقتها بفوزي بك.. فقد تخيلت ما كان يحدث لها لو كانت هي التي ستدخل الشقة ورآها زوجها.. وارتعشت وكأن زوجها قد ضبطها فعلاً..

ولاحظت شريفة امتقاع وجه إحسان، فسألتها قائلة:

ـ يظهر إنك يا إحسان، غير موافقة على الفكرة؟.

قالت إحسان، وهي تستعيد هدوءها:

ـ لا.. أبداً كنت أفكر فيما قالته كاميليا من أن فوزي بك صلاح الدين يتردد على هذه الشقة.. فماذا تفعل كاميليا لو أن الذي دخل الشقة هو فوزي بك وليس سعدون باشا؟

قالت كاميليا، وكأنها تقوم بدور تمثيلي:

ـ سوف أقول له: ضبطتك يا فوزي بك؟ ماذا تفعل هنا؟! إنني جئت لأجمع ملابسي التي تركتها في شقة سعدون باشا.. وسيفاجأ فوزي بك بوجودي.. سيضطرب، ويتعلثم، ويحاول إخراجي من الشقة بأسرع ما يمكن حتى لا تراني عشيقته، وتتهمه بأنني عشيقته القديمة.. وسوف أتباطأ في البحث عن ملابسي، وأتمهل في جمعها. وسوف يتوسل إلي أن أختفي في المطبخ. وسوف أرفض أن أختفي، وأقول له إنني لا أرتكب جريمة تخجلني حتى أختفي واختبىء.. وسوف أبقى أعذبه ببقائي حتى يدق جرس الباب معلناً قدوم عشيقته.. وعندئذ فقط سأرحمه وأدخل المطبخ، وأغلق الباب بالمفتاح وتخرجون أنتم من «الصندرة»، بعد أن تتفرجوا أيضاً على عشيقة مدير الأمن العام!

ووجد صبحي خالد نفسه يصفق إعجاباً، كأنه يرى مسرحية خالدة، ويبدي إعجابه بالدور المقنع الذي قامت به الممثلة الأولى!

ومضت كاميليا تقول:

ـ عندما يكون الرجل في انتظار موعد غرام يكون في حالة ذهنية معينة. كأنه رجل جائع يراقب طعاماً على النار ينتظر نضوجه ليلتهمه.. فإذا فوجىء في هذه اللحظة بوجود امرأة أخرى تتعطل حواسه كلها. المفاجأة غير المنتظرة تعطل تفكيره وتشل عقله.. تجعله أشبه بلص دخل أحد المصارف، وحطم السلاسل، ونجح في فتح كل الأبواب، ثم فوجىء بوجود جندي بوليس بدلاً من الخزانة التي تصور أنها وقعت بين يديه..

قال شامل:

ـ وعلى كل حال، نحن لا نرتكب جريمة، نحن نقوم بعمل

وطني، نحن ننتقم لبلدنا!

وعندما سمعت إحسان كلمة «الإنتقام» أحست بقشعريرة. أحست برغبة في أن تنتقم لبلدها ولنفسها في وقت واحد. تنتقم من فوزي صلاح الدين أحد أعمدة هذا العهد. الرجل الذي لوث جسدها لمدة ثلاث ساعات. وعاشت بعد ذلك شهوراً طويلة تستحم، وكأنها تحاول بهذا الحمام أن تغسل هذه القذارة، ولكنها في قرارة نفسها كانت تشعر أن مياه نهر النيل كلها لا يمكن أن تغسل القذارة التي علقت بها.

وعندما دخلت إحسان بعد ذلك إلى شقة الخطيئة لتشترك في عملية طبع المنشورات، حرصت أن لا تلتفت إلى ناحية غرفة النوم التي نامت فيها بجوار فوزي صلاح الدين. ثم أحست كأن الشقة غريبة عنها، لا تعرفها من قبل، لم تدخلها من قبل، لم تخلع ملابسها، لم ترقد فيها عارية، لم تستسلم فيها للرجل الذي أغراها.. أحست بأنها شقة مختلفة، كأن دار الخطيئة تحولت إلى دار طهارة.. وإذ أمسكت إحسان بيد ماكينة الطباعة وأدارتها وخرجت منها المنشورات الأولى التي تلعن الظالمين والفاسدين، كانت تحس بأنها تؤدي صلاة، تؤديها فوق أرض طاهرة.. إن طهارة الأرض ونجاستها ليس بما يفعله الناس فيها، بل بما نفعله نحن فيها. إن الله يقبل صلاة القلوب الطاهرة التائبة، حتى ولو كان أصحابها جلوساً في كباريه، ولا يقبل صلاة المصرين على الفساد حتى لو كانوا يؤدونها في معبد!

لقد تصورت إحسان ذات يوم أن هذا المكان علّمها كيف تحب، كيف تستمتع، كيف تعيش.. ولكن هذا المكان نفسه علمها كيف تكره، كيف تحارب الفساد والفاسدين، كيف تنتقم من الطغيان

والطغاة.. علمها أنه لا يكفي أن تصلي لتتوب، ولكن يجب أن تفعل شيئاً لتحمي نساء بريئات غيرها حتى لا يسقطن في الخطيئة التي سقطت فيها. أصبحت تشعر أن اشتراكها في المنشورات أصبح جزءاً من صلاتها، جزءاً من طهارتها، جزءاً من توبتها.

وكانت تمضي ساعات تدير بيدها مطبعة المنشورات دون أن تشعر بالتعب والإرهاق. كانت في بعض الأحيان تحس أن يدها وحدها ليست هي التي تدير آلة طباعة المنشورات، بل كانت يد السيدة زينب هي التي تدير آلة الطباعة معها!

أما زوجها صبحى خالد فإنه كان يكثر من النظر إلى المرآة، يتأمل نفسه فيها، كأنه لا يصدق أنه هو نفسه صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة. كأنه لا يصدق أن صبحي خالد بالذات هو الذي أصبح يقوم بهذا العمل الجريء وليس رجلاً سواه، يسمى باسمه، أو يشبهه في ملامحه!

كان يحس بأنه تغير كثيراً عما كان. أصبح لأول مرة في حياته شجاعاً، جريئاً، لا يخاف. كان قبل أن ينغمس في عملية المنشورات يخاف من كل شيء، يخاف أن يتكلم، يخاف أن يستمع، يخاف أن يضحك من نكتة ضد الحكام، يخاف أن يهز رأسه موافقاً على رأي يغضب السلطات العليا، يخاف أن يقرأ صحف المعارضة. أما الآن فقد أصيب بحالة شجاعة مفاجئة. أصبح يقول رأيه في الملك وحاشيته أمام إحسان، وأمام عزيز، وأمام شامل، بل هو يشترك في عملية المنشورات الخطيرة، بل هو الذي حصل من مكتبه على آلة الرونيو التي تطبع عليها المنشورات النارية!

وكثيراً ما كان صبحي خالد يسائل نفسه كيف أصيب فجأة بهذه الشجاعة التي لم يتوقعها؟ هل هي نتيجة الظلم الذي وقع عليه بسجنه، واتهامه بالاشتراك في مؤامرة هو بريء منها، أم أنه أصيب بعدوى الشجاعة من شريفة؟ أتكون للشجاعة والجبن جراثيم تنقل العدوى مثل جراثيم انفلونزا نصاب بها نتيجة الاختلاط؟ إذا جلسنا مع شجعان أصبنا بعدواهم، وأصبحنا شجعان مثلهم، وإذا اختلطنا بجبناء تحول كل واحد منا إلى فأر صغير؟!

هل نحن نولد من بطون أمهاتنا جبناء أو نولد شجعان، بغير أن يكون لنا رأي في هذه الصفات، كما نولد قصار القامة أو طوالها، أم أننا نكتسب شجاعتنا بالوراثة عن آبائنا؟

وتذكر صبحي والده. كان شجاعاً وجريئاً حتى أنه اشترك في ثورة سنة ١٩١٩، وقبض عليه عدة مرات. ولكنه لم يرث هذه الشجاعة ولا هذه الجرأة عن أبيه. لم يعرف قبل هذه المرة صفة الإقدام. كان يعتبر الشجاع مجنوناً والجبان عاقلاً. كان الجبن في رأيه سيد الأخلاق. إذن فالشجاعة لا تورث.. قد نرث مرض السكر، قد نرث قسمات آبائنا، ولكننا لا نرث منهم الشجاعة ولا الجبن!

ربما كل إنسان يولد وفيه غدتان، غدة للشجاعة وغدة للجبن. كما يولد كل إنسان وفيه بعض خصائص الرجولة وبعض خصائص الأنوثة.. ثم يحدث أن يصطدم الإنسان بشيء.. فتتحرك غدة وتتوقف غدة، غدة تفرز وغدة تتوقف.. غدة الشجاعة فينا لا تحركها إلا طعنة خنجر، وغدة الجبن تحركها شكة دبوس.. أي أن الظلم يحولنا إلى جبناء.. يجعلنا أرانب.. والظلم الكبير يحولنا إلى شجعان، يخلق منا أسوداً برغم إرادتنا.. وقد عاش صبحي خالد

طوال حياته في مظالم صغيرة فأصبح جباناً، وعندما ووجه بالظلم الكبير انقلب من حيث لا يدري إلى جريء وشجاع!

وهو ليس وحده الذي تغير. إن زوجته إحسان تغيرت. كانت تصاب بالذعر إذا نامت وحدها. كانت تصر إذا تأخر في العودة إلى البيت أن تنام في غرفة ولديها الصغيرين. كأنها تحتمي في الطفلين، وتبقى بجوارهما إلى أن يعود، فتذهب معه إلى غرفة نومه. ولكنها وحتى وهي ترقد بجواره لا تستطيع أن تغمض عينيها في الظلام. إنها تصر أن تنام في ضوء الكهرباء. وقد حدث مرة أن كان صبحي في مكتبه بديوان المحاسبة فاتصلت به إحسان تليفونياً وهي تصرخ في رعب وفزع وتستغيث به أن يحضر لإنقاذها على الفور، لأنها وجدت فأراً في الشقة. . إحسان نفسها أصبحت تخفي المنشورات الثورية تحت الكورسيه، وتخرج بها إلى الشارع، وتمشي وهي تحملها أمام جنود البوليس، دون أن يبدو عليها الخوف أو الفزع أو الاضطراب!

كيف حدثت هذه المعجزة؟ كيف أصبحت المرأة التي ترتعش من الفئران تسخر من السباع؟ ماذا حدث في الدنيا التي يتحول «مخصوص أفندي» كما يسمي نفسه من رجل جبان إلى بطل أسطوري يطارده البوليس فلا يخاف ويفتش البوليس بيته فلا يشعر بالرعب الذي أحسه في المرة الأولى عندما فتشوا داره؟ إنه أصبح لا يرهب السجن. لا يخاف من المشنقة!

وهؤلاء النساء اللاتي يشتركن معه في عملية المنشورات، ما الذي جعلهن فجأة بطلات؟ لقد كان في الماضي يقرأ قصة جان دارك على أنها خيالية. ولكنه يجد نفسه في غرفة واحدة مع ثلاث نساء كل واحدة منهن جان دارك. كل منهن لا تخاف النار. كل منهن تهزأ بالخطر.

إنهن يقبلن على طبع المنشورات كأنهن ذاهبات إلى موعد غرام. يتزين للخطر. . يرتدين أجمل ملابسهن للذهاب إلى الصندرة عن طريق سلم المطبخ. . يختلفن على من التي تتولى حمل المنشورات إلى الشارع. . كأنهن يختلفن على رجل، كل واحدة منهن تريد أن تستأثر به لنفسها.

حبر المنشورات الذي يلوث أصابعهن لا يضايقهن. إنهن يتفاخرن به كأنه طلاء جديد للأظافر. . العرق الذي يتساقط منهن أثناء إدارة المطبعة لا يزعجهن، إن رائحته تشيرهن كأنه عطر جديد. . إن واحدة منهن لم تعد تتكلم عن الفساتين الجديدة التي ظهرت في السوق، ولا عن الموضات الحديثة لقص الشعر، ولا عن أفلام الأسبوع، ولا عن أغاني فريد الأطرش. . لا حديث لهن إلا عن غرامهن الجديد، طبع المنشورات!

كأن المرأة أكثر حماساً من الرجل. كل شيء تقوم به تعطيه كل وقتها. إذا دخلت الحمام بقيت فيه ساعات. إذا دخلت المطبخ لم تخرج منه طوال اليوم. إذا أحبت لم تعد تفكر في شيء إلا الحب. وهي عندما تشترك في العمل السري تقبل عليه بكل جوارحها وحماسها وعاطفتها وتفانيها وإخلاصها واهتمامها.

لقد دهش صبحي خالد في هذا الصباح عندما كانت زوجته إحسان تصب له الشاي، لاحظ أنها وضعت له في فنجان الشاي قطعة سكر واحدة بدلاً من قطعتين. ووضعت في فنجانها قطعة واحدة أيضاً بدلاً من الثلاث قطع كما اعتادت أن تفعل كل صباح. .

واستلفت هذا التغيير نظر صبحي فسأل زوجته في دهشة:

ـ ماذا حدث؟ هل فرغ السكر الذي عندنا؟

قالت له إحسان:

ـ لا.. إنني قررت أن أوفر في كل شيء.. حتى نشتري ورقاً أكثر لنطبع عليه منشورات أكثر.. إن الشاي بقطعة السكر الواحدة أصبح أحلى مما كان!

صدم صبحي في أول الأمر عندما سمعها تقول هذا... لم يصدق أن هذا صوت إحسان التي كانت تتشاجر معه كل يوم على مصروف البيت.. كانت تقول دائماً أن مرتبه لا يكفي لأن تعيش كما تريد. وها هي الآن توفر في السكر لا لتشتري فستاناً ولا لتذهب إلى الحلاق، بل لتشتري ورقاً جديداً للمنشورات التي تهاجم الملك والفساد.. بل هي تحس وهي تقدم على هذه التضحية وتقتطع السكر من الشاي، أن طعم الشاي أصبح أحلى في شفتيها مما كان!

ها هو يرى في زوجته إحسان شعباً مؤمناً، على استعداد أن يقاوم، وأن يكافح، وأن يسجن، وأن يموت عند الاقتضاء.

ها هو يرى المرأة التي اعتبرها مسبة وعاراً وإهانة وذلاً، تثبت أنها بطلة. تثبت أنها رجل.. بمعنى كلمة الرجل!

وتنهد صبحي خالد وتمنى لو أن الشعب كان مثل شريفة، ومثل كاميليا ومثل إحسان!



وفي صباح أحد أيام الجمعة اجتمع الفرسان الثلاثة والفارسات الثلاثة في الصندرة يطبعون المنشورات. وسمعوا أصواتاً عالية أمام الباب الرئيسي لشقة سعدون باشا، ثم أوقفوا الطبع، وأنصتوا، وسمعوا صوت مفتاح يفتح باب الشقة!

وأصيبوا بالهلع والذعر. تجمدت أطرافهم من الخوف. زاد في حرجهم أن كاميليا كانت معهم داخل الصندرة، ولم تكن في مكان حراستها المعتاد بجوار الباب تستعد لملاقاة سعدون باشا لترتمي بين ذراعيه، أو لمواجهة فوزي صلاح الدين فتلخمه بالدور التمثيلي الذي أعدته حتى تمنح زملاءها الفرصة للفرار. ولجم الرعب ألسنتهم، وسمعوا صوت امرأة تصيح:

ـ لن تدخل إلى الشقة، ستدخلها فوق رقبتي!

وحبسوا أنفاسهم. وتطلعوا في عيون بعضهم البعض لعل أحد العيون تفسر لهم ما لم يفهموه. ولكن العيون الاثنتي عشرة بقيت لا تتكلم، بكماء لا تنطق.. إن أحداً منهم لم يعرف ماذا يجري أمام باب الشقة. هل البوليس يريد أن يقتحم الشقة ويفتشها؟ ومن هي هذه المرأة التي ظهرت فجأة أمام باب الشقة لتمنع البوليس من الدخول وتهدده بأنه إذا دخل الشقة فيجب أن يدوس على رقبتها؟ إن عدد المتآمرين ستة فقط. وكلهم داخل الصندرة. فمن أين جاء هذا الصوت السابع؟

ثم سمعوا باب الشقة يغلق من الداخل بالمفتاح.. وسمعوا أصوات أقدام تقترب منهم، ثم سمعوا أصوات امرأة تقول:

ـ انزلوا بسرعة.. ولا تخافوا!

وعرفت شريفة الصوت على الفور.. إنه صوت لا يمكن أن تنساه أبداً. إنه صوت سعدية الخادمة في شقة الصحفي درويش مخلص المجاورة لشقتها.. هذا الصوت الذي طالما سمعته يغني: «صوابعك العشرة.. قوللي يا روحي اشمعنى؟ مخلوقة م الطين.. م النار.. والا م الجنة»؟ أحست شريفة بأنها تريد أن تقبل أصابع

الخادمة سعدية العشرة. . هذه الأصابع أغلقت باب الشقة ومنعت دخول من يحاولون الدخول.

وقالت شريفة لزملائها وزميلاتها في الصندرة هامسة:

ـ هذا صوت سعدية خادمة درويش بك!

قالت إحسان في ابتهاج:

ـ إنها حبيبة الأسطى مرسي الذي يعمل طاهياً عندنا!

ولكن صبحي خالد لم يجد أن غرام الخادمة بطاهية سبب كاف ليجعله يطمئن إليها، قال هامساً:

ـ لا يجوز أن نظهر جميعاً. . بل يكفي بأن يظهر واحد منا. .

قالت شريفة:

ـ سأظهر أنا. .

ـ وفتحت شريفة باب الصندرة وخرجت منه وأغلقته وراءها، ثم هبطت على السلم الحديدي الذي يوصل إلى الصالة التي وقفت فيها الخادمة سعدية وهي تدندن باقي أغنيتها المفضلة التي تقول «ضربك لذيذ يا حبيبي. . والكلام بينا». . وراحت تردد كلمة «الكلام بينا» إلى أن وصلت إليها شريفة وقالت لها هامسة:

ـ من الذي أراد أن يدخل الشقة؟

قالت الخادمة سعدية وهي تبتسم:

ـ لا بد أن أروي لك القصة من أولها!

قالت شريفة وهي تعلم قلق زملائها الذين يقفون وراء الصندرة:

ـ أرجو أن تقولي القصة من آخرها. . من هم الذين أرادوا أن يقتحموا الشقة ومنعتهم من الدخول؟

قالت سعدية في تصميم:

ـ أنا لا أعرف يا ستي أن أحكي قصة من آخرها. . أنا لم أدخل المدارس إنني رأيتكم من عدة أيام من نافذة المطبخ تدخلون هذه الشقة. رأيتك ورأيت سيدي عزيز بك. ورأيت سيدي صبحي بك، ورأيت ستي إحسان، ورأيت سيدي شامل بك. ودهشت أنكم تدخلون الشقة من باب الخدم. وتصورت في أول الأمر أنكم تسرقون الشقة. لأن الأسطى مرسي قال لي إن اللصوص في البلد في هذه الأيام أصبحوا من الكبراء والباشوات والبكوات. . ولكنني لاحظت أنكم تترددون على الشقة باستمرار. . ولم أفتح فمي ولم أقل شيئاً لأنني لا أنكر الجميل.

لقد كان الأسطى مرسي سبباً في الحريق الذي حدث في مطبخ صبحي بك. صحيح أن الحريق وقع بغير إرادته. ولكن أصحاب البيوت اعتادوا أن يعاقبوا الخدم على الجرائم التي لم يرتكبوها. وتوقعت أن صبحي بك سيطرد الاسطى مرسي لكنه لم يطرده. فأحسست أنه لا يعامله كخادم في البيت بل كأحد أفراد الأسرة. إن الأم لا تطرد ابنتها من البيت لأنها كانت سبباً في حريقة. وشعرت بأنه يجب أن أحمي صبحي بك كما حمى الأسطى مرسي.

ثم حدث مرة أن رأتني ست شريفة والأسطى مرسي يقبلني. وتصورت أنها ستفضحني. ستخبر درويش بك ويطردني من

العمل. ستخبر صبحي بك فيطرد الأسطى مرسي من عمله. ولكني دهشت عندما رأيتها لم تقل شيئاً فعندما شاهدتها في هذا الوضع المريب رأيت من واجبي أن أسترها كما سترتني. لم أخبر بما رأيت الأسطى مرسي الذي لا أخفي عنه دقات قلبي.. وبعد ذلك فوجئت بالبوليس يفتش بيوتكم.

وقبل ذلك قبض البوليس على البهوات الثلاثة. قلت لنفسي: لو كان هؤلاء مجرمين لما قبضت عليهم الحكومة.. لأن المجرمين لا يقبضون على المجرمين.. لا بد أن هؤلاء البهوات الثلاثة ضد المجرمين الكبار في الدولة، ولهذا يقبضون عليهم ويفتشون بيوتهم.

ثم حدث أن كنت واقفة أمام الباب. وجاء جندي راكباً موتسيكلاً وقال لعم ابراهيم البواب همساً: إطلع إلى شقة محمد بك سعيد ونظفها لأن البك سيجيء بعد ساعة إلى الشقة. وخفق قلبي من الرعب. وتوقعت أن يصعد عم ابراهيم البواب إلى الشقة فيراكم فيها. وتعمدت أن أعطله عن الصعود. ولكنه أصر على أن يصعد ليقوم بتنظيف الشقة. فقلت له وأنا أمثل الرعب كما أراه في أفلام السينما:

ـ مالك يا عم ابراهيم.. إنك مريض.. إن وجهك أصفر جداً.. استرح يا عم ابراهيم.. إجلس حتى لا تتعب نفسك.. أنا التي سأتولى تنظيف الشقة بدلاً منك..

وأصر عم ابراهيم على أن يصعد هو لتنظيف الشقة.

وتبعته في المصعد وأنا ألح عليه أن يتركني أتولى تنظيف الشقة حفاظاً على صحته، وتعمدت أن أرفع صوتي عالياً حتى تسمعوني من داخل الشقة وتختبئون وقلت له:

ـ لن تدخل الشقة.. ستدخلها فوق رقبتي.. يجب أن تذهب إلى فراشك وتنام فيه فوراً وتستريح.. إن ما أراه الآن في عينيك هو أعراض الذبحة الصدرية التي ماتت بها أمي.. وخالتي.. وعمتي.. وبنت خالتي.. وكل العائلة..

واقتنع عم ابراهيم بأن أتولى تنظيف الشقة وأراد أن يدخل معي، ولكني أردت أن أتخلص منه فقلت له:

ـ لا يجوز يا عم ابراهيم أن تدخل معي شقة خالية..

فحوقل عم ابراهيم واستعاذ بالله وتركني في الشقة وحدي..

وجئت لأنبهكم لتخرجوا من الشقة فوراً.. وأنا لا أريد أن أعرف ما تفعلون.

وفتح المختبئون في الصندرة باب الشقة، فبعد أن سمعوا قصة الخادمة سعدية، لم يشعروا أنها امرأة غريبة دخلت إلى مخبئهم، أو اقتحمت خلواتهم أو لوثت معبدهم. أحسوا أنها واحدة منهم.

كأنهم ستة فرسان فأصبحوا سبعة!

كانت الخادمة سعدية هي السابعة!

أو كما سماها صبحي خالد ضاحكاً «السبعة»!

وبعد أيام من انضمام الخادمة سعدية إلى الفرسان الستة لم يعد يشعر واحد منهم بأنها خادمة. إن الكفاح المشترك يزيل الفوارق بين الناس. إنه نوع من الحج إلى بيت الله. يمشي فيه الملك إلى جوار الصعلوك، بملابس إحرام واحدة، يتساوون أمام الله مهما اختلفت درجاتهم. فالكفاح المقدس شيء مشترك. يقضي على الدرجات. في

العصابات الوطنية كنت تجد الوزير والعامل يعملان جنباً إلى جنب. وفي بعض الأحيان يرئس العامل الوزير. لأن عمله في الكفاح المسلح أهم من عمل الوزير. وهذا هو نفس ما يحدث في عمليات الكفاح الوطني. تذوب الفوارق. تتساوى الألقاب والدرجات.

وبعد أسابيع قليلة برزت الخادمة سعدية بشجاعتها وإقدامها وسعة حيلتها وسرعتها في التصرف، وتقدمت في العمل السري عن شريفة وكاميليا وإحسان. إنها امرأة لا تحمل شهادة عليا، لا تقرأ ولا تكتب، لم تدخل مدرسة، لم تقرأ جريدة، وإنما أبدت براعة في توزيع المنشورات، وفي وضعها في أماكن حساسة لم تخطر على بال الفرسان!

وكانت تعمل وهي تغني أغنيتها «صوابعك العشرة.. قوللي يا روحي.. اشمعنى»!

وما لبث عزيز علاء الدين أن أصبح يغنيها معها، دون أن يحس بأنه فقد أصابعه العشرة، دون أن تجرحه كلمات الأغنية التي تشيد بأهمية الأصابع. كانت هذه القصيدة عندما سمعها في أول الأمر قصيدة رثاء له.. ثم ها هي تصبح نشيداً يردده وهو يقوم بعملية تغطية الانسحاب لسعدية أثناء توزيعها المنشورات!

أما صبحي خالد فإن بطولة الخادمة سعدية جعلته يغير رأيه القديم في الشعب، لم يعد يراه الشعب الأناني، بل أصبح يراه شعباً من الفدائيين. يقول إن لا فائدة منا ولا أمل فينا.. فقد رأى في الخادمة سعدية الأمل الذي يخرج من الطين، الذهب المدفون تحت التراب!

إننا نظلم شعباً بأكمله إذا ما حاسبناه على غلطة فرد واحد فيه! لقد كان صبحي في أول الأمر ينظر في المرآة فيجد صورة مخصوص أفندي، فيتصور أنها صورة كل الناس. ولكنه الآن عرف هذا الشعب عندما جربه. عندما أدخله في النار عرف معدنه. عندما واجه الأعاصير اختبر قوة صموده.

□□□

كان فوزي بك صلاح الدين جالساً مع ببا في بيت الهرم. وكانت ببا تمسك بيدها حزمة من المنشورات، وهي تهزها بيدها في حركة عصبية وتقول:

- كل يوم منشور جديد.. كل يوم كلام فارغ جديد.. منشورات في كل مكان.. في جامع السيدة زينب.. في كباريه الاوبرج.. في كليات الجامعة.. في أوتوبيس سيدنا الحسين.. في مترو مصر الجديدة.. في عمارة العجوزة.. في بيوت ضباط الجيش.. وأنتم خلفاء شارلوك هولمز لا تستطيعون القبض على عصابة المنشورات؟!

قال فوزي:

- إننا فعلنا المستحيل.. نراقب مداخل القاهرة ونفتش كل السيارات ولا نجد شيئاً.. نطوف الأحياء ونفتش كل يوم حياً فلا نجد شيئاً.. نراقب المشبوهين والمتطرفين ولا نجد شيئاً.. إن المنشورات توزع في أماكن متناقضة لا علاقة لها ببعضها.. إننا فعلنا أكثر مما يستطيع أن يفعله شارلوك هولمز.. ولا فائدة!

ولو كان فوزي بك شارلوك هولمز فعلاً لعرف أن الأماكن التي حددتها ببا تكاد تحدد أعضاء عصابة المنشورات.. إن المنشور الذي وجدوه في جامع السيدة زينب وضعته إحسان بيدها في صندوق النذور وهي تقرأ الفاتحة للسيدة وتدعوها أن تشد أزرها في العمل

العظيم الذي تقوم به.

والمنشور الذي وجدوه في الأوبرج تركته الممثلة كاميليا في الغرفة التي تتزين فيها السيدات وقرأته كل من ترددت على الأوبرج في ذلك اليوم الذي كانت كاميليا فيه مدعوة للعشاء..

ومنشورات الجامعة تولى شامل شفيق توزيعها..

ومنشور أوتوبيس الحسين تركته الخادمة سعدية على المقعد، بعد أن انتهت من توزيع مئات المنشورات التي تحملها على صناديق البوسطة في حي الحسين..

ومنشورات عمارة العجوزة وضعتها شريفة بيدها تحت أبواب شقق العمارة بعد أن فتحت باب المصعد في الدور العلوي وعطلته حتى تضمن أن أحداً لا يراها أثناء توزيع المنشور..

منشورات بيوت ضباط الجيش حصل عزيز علاء الدين على عنوانها، وتولت كاميليا كتابة العناوين بخط يدها.

ولكن أجهزة فوزي بك صلاح الدين النشطة لم يخطر لها أن تفتش السبت الذي تحمله الخادمة سعدية على رأسها وفي داخله المنشورات تغطيها ملابس في طريقها إلى المكوجي.. ولم يخطر ببالها أن تفتش كورسيه إحسان زوجة صبحي خالد.. ولم تلاحظ أن صدر شريفة كبر عن المعتاد!

وقالت ببا وهي تقرأ بصوت عال كلمات المنشور الأخير:

ـ لا يمكن أن نسكت على هذه الفوضى.. يجب أن نعمل شيئاً.. لقد قلت للأمير عادل إنني واثقة أن ياوره السابق عبدالمنعم بيومي هو الذي يطبع هذه المنشورات.. ولكنه لم يفعل شيئاً..

طلب مني أن أصبر.. أصبر حتى تهدم الأهرامات الثلاثة فوق رؤوسنا!

قال فوزي بك:

ـ إن فكرة أن عبدالمنعم بيومي هو الذي يتولى طبع المنشورات فكرة معقولة جداً. إنه يطبع المنشورات في الجبهة.. ولا رقابة هناك.. وتجيء المنشورات في السيارات العسكرية التي لا تفتش بطبيعة الحال. ويقوم بعض الضباط بتوزيعها. والمخبرون لا يفتشون الضباط طبعاً.

وأمسك فوزي بك التليفون وطلب سعدون باشا وقال له:

ـ وصلت إلينا عدة تقارير من مصادر موثوق بها لا يرقى إليها الشك أن الصاغ عبدالمنعم بيومي هو الذي يطبع المنشورات، ويشرف على توزيعها. اقبضوا عليه فوراً!!

ـ ٢٤ ـ

استيقظت بثينة من النوم على صوت جرس الباب يدق بعنف دقات متتابعة.

كان زوجها الصاغ عبدالمنعم بيومي مستغرقاً في نومه. لم يزعجه رنين الجرس المتواصل. لم يوقظه من النوم. تعود أن ينام في خيمته وراء ميدان القتال أثناء انطلاق المدافع ودوي الرصاص وانفجار القنابل.. إن هذه أول ليلة ينام فيها في بيته منذ عدة شهور أمضاها في ميدان القتال. لم يعد تلبية لنداء الشوق إلى بثينة، بل لأنه تلقى برقية من الوزارة في القاهرة تدعوه إلى العودة فوراً لمهمة تستغرق ٤٨ ساعة.

وقد وصل إلى القاهرة منذ ساعات قليلة أمضاها يلاعب ابنته سميرة حتى نامت، وحملها فوق يديه إلى فراشها، ثم عاد إلى غرفة نومه ليحتضن زوجته أكثر مما فعل أمام ابنته سميرة، ليقبلها القبلات التي تلهب شفتيه، ليسألها ألوف الأسئلة عما حدث أثناء غيابه، ولكنه لم يكد يأخذها بين ذراعيه ويقبلها حتى سقط رأسه على الفراش واستغرق في نوم عميق.

وكان التعب والضنى والإرهاق ظاهراً على وجهه، فقد أمضى كل هذه الشهور في الخطوط الأمامية بالميدان يسهر في الخنادق أكثر مما ينام في الخيمة.. كانت سعادته في أن يحارب. وكان يعذبه أنه لا يجد السلاح الذي يحارب به. إذا وجد المدفع لم يجد القنابل، وإذا وجد القنابل لم يجد المدفع، وإذا وجد المدفع والقنابل، وجد معها الأمر بوقف إطلاق النار!

وأشفقت بثينة عليه وهي تتأمل وجهه المرهق، فلم توقظه من النوم ليفتح الباب. ونظرت إلى المنبه الذي بجوارها فوجدت أنها الساعة الثانية إلا ثلثاً صباحاً. وانسحبت بهدوء من جوار زوجها عبدالمنعم، ومشت على أطراف قدميها فارتدت الروب وما شابه، ثم فتحت باب غرفة النوم، وأغلقته وراءها، وأسرعت نحو الباب تفتحه وصوت الجرس يعلو ويتتابع تصحبه دقات عنيفة على الباب. دقات لها رهبة في الليل الهادىء النائم..

وأضاءت نور الصالة، ثم فتحت الباب، وإذا بها ترى عدة جنود يقتحمون البيت، ويدفعونها وهم يقولون: أين الصاغ عبدالمنعم بيومي؟

وقالت همساً كأنها تخشى أن يوقظوه بصوتهم المزعج:

ـ إنه نائم.. أرجوكم أن تتكلموا بصوت خافت حتى لا توقظوه من النوم.. وإذا برجل يدخل بملابسه العسكرية ويقول في عنجهية:

ـ أنا البكباشي حامد السيوفي.. أين الصاغ عبدالمنعم بيومي؟

وما كادت بثينة تسمع اسم حامد السيوفي حتى انقبض قلبها. إنها تعرف هذا الاسم جيداً. تعرفه من أحاديث زوجها الذي صوره لها في صورة شيطان.. أحد زبانية جهنم الحمراء..

إنه عدو زوجها الذي دبر له مكيدة منذ عدة سنوات، وحاول أن يلفق عليه تهمة الاشتراك في الانقلاب، هذه التهمة التي نجا منها بأعجوبة.. ها هي تلتقي بالشيطان وجهاً لوجه.. ما أقرب الشبه بين حقيقة الشيطان وخيالنا عنه. وأحست بأن كل ذرة في قلبها تكرهه وتلعنه. وعندما رأت القسوة في عينيه زاد رعبها فعاد يسألها:

أين زوجك؟ إننا نريده فوراً!!

ورفعت اصبعاً يرتعش وأشارت إلى غرفة نومه.. فأراد حامد السيوفي أن يذهب إلى الغرفة، فوقفت في طريقه وهي تقول بلهجة آمرة، كأنها لا تزال صاحبة البيت، وكأن الأعداء لم يحتلوه بعد:

ـ أنا أوقظه.. قف أنت هنا!

ونظرت بثينة إلى عينيه فقرأت فيهما خشيته في أن يهرب.. فقالت له ساخرة وهي تتأمله بنظرة احتقار:

ـ لا تخف.. إنه لا يهرب.. لو كان يعرف الهرب.. لهرب من

ميدان القتال كما فعل غيره، وجلس في مكتبه بالقاهرة بدل أن يواجه الموت في الصف الأول!

وأحس حامد السيوفي أنها تصفعه على وجهه.. فإنه واحد من القواد الكبار الذين بقوا في القاهرة، وتركوا صغار الضباط يحاربون في فلسطين.. وكأن الصفعة أذهلته فوقف بغير حراك، وبغير أن ينطق كلمة..

ومضت بثينة إلى غرفة النوم وراحت تنادي عبدالمنعم، ولكنه لم يسمع نداءها، فرفعت صوتها فلم يسمع أيضاً. فهزته بلطف ثم بعنف حتى فتح عينيه فقالت له:

ـ قم يا عبدالمنعم.. قم يا عبدالمنعم.. قم يا عبدالمنعم!

ولم يقفز عبدالمنعم من فراشه، بل أغمض عينيه اللتين فتحهما واستغرق في نوم عميق، وكأنه تصور أنه يحلم..

ومضت توقظه.. وفجأة انفتح باب غرفة النوم ودخل حامد بك السيوفي وهو يقول بغلظة:

ـ قم يا عبدالمنعم.. ولا تتظاهر بالنوم!

وعندما سمع عبدالمنعم الصوت الغريب، فتح عينيه، ثم رفع رأسه وأطل في وجه حامد السيوفي باستغراب، ثم عاد ووضع رأسه على الوسادة واستغرق في النوم من جديد.

وصرخ حامد السيوفي:

ـ إنني أقبض عليك باسم جلالة الملك!

وانتفض عبد المنعم، وقفز من فراشه، ورفع يده اليمنى بالتحية العسكرية، بينما يده اليسرى تمسك بطرفي بنطلون البيجاما ليمنعه من السقوط إلى قدميه..

وفتح عبدالمنعم فمه في دهشة، وقال وكأنه لا يزال يغالب النوم، ولا يعرف إذا كان ما يراه أمامه هو حقيقة أم هو كابوس:

ـ ماذا حدث يا افندم؟

قال حامد بك السيوفي بعصبية ظاهرة:

ـ إنني لم أجيء هنا لأجيب على أسئلة. جئت أقبض عليك. تفضل وارتد ملابسك العسكرية فوراً.. ولا داع لأن تغسل وجهك لأننا نريد أن نرى وجهك على حقيقته!.

قالت بثينة وقد أحست بأن حامد السيوفي يريد أن يحطم كبرياء زوجها:

ـ إن زوجي بوجه واحد.. ولكن غيره له عدة وجوه.. لماذا تقبضون عليه، إنه يحارب وأنتم لا تحاربون؟ هل أصبح الدفاع عن أرض الوطن خيانة.. والفرار من المعركة وطنية؟.

والتفت إليها عبدالمنعم بغضب وقال:

ـ بثينة!

وفهمت أن زوجها يأمرها بالصمت، فسكتت على مضض..

ونادى حامد بك السيوفي جنديين يحملان مدفعين رشاشين، وطلب إليهما حراسة عبدالمنعم حتى يتولى تفتيش المنزل..

وبدأ يفتش المنزل غرفة غرفة، وأصر أن يوقظ الطفلة سميرة من نومها ليفتش المرتبة التي تنام فوقها، وعندما لم يجد شيئاً في المنزل تضاءلت عصبيته، وتفاقمت قسوته، واشتد جفاؤه، وأبدى تبرمه من أن عبدالمنعم لم ينته من ارتداء ملابسه بسرعة ثم اقتاد عبدالمنعم أمامه، وبعد أن خرج عبدالمنعم من الباب التفت إلى بثينة وقال لها متوعداً:

- ستدفعين ثمناً غالياً لوقاحتك!

وأغلقت بثينة الباب في وجهه وهي تقول:

- منكم.. لله!

ثم دخلت إلى غرفتها وارتمت على الفراش تبكي وتنتحب. كأنها لم تستطع أن تكون بطلة إلا تلك الدقائق التي واجهت فيها حامد السيوفي. لم ترعبها المدافع الرشاشة في أيدي الجنود. لم يخفها وجه حامد السيوفي الصارم.. لم تشعر بالرعب وهم يسوقون زوجها أمامهم. ولكن عندما اختفت المدافع وانصرف الجنود وانتهت الضجة المفزعة، بدأت تشعر بالخوف والرعب. وبدأت تحس بأنها وحيدة في الحياة. أطلت الأنثى فيها واختفت البطلة.

إنها لم تقلق على زوجها وهو ذاهب إلى ميدان القتال، كما تقلق عليه الآن وهو ذاهب إلى التحقيق. كيف لا تفزع من الموت وتفزع من المحقق؟ لأن زوجها يذهب إلى الحرب مطلق اليدين، ويذهب إلى التحقيق مقيد اليدين. ولأنه يقاتل وهو يستطيع أن يدافع عن نفسه.. أما الآن فهم سوف يحققون معه بعد أن جردوه من سلاحه. عجباً، ألا تخاف أن يلاقي زوجها أعداء وطنه، وتنزعج لأن زوجها سيلاقي كبار القواد في وطنه؟

إنها كثيراً ما سمعت من عبدالمنعم مهازل المحاكمات الصورية. كيف أن قراقوش قد بعث من جديد ووضع على كتفه سيفاً وجلس في منصة القضاء.. كيف أن الأحكام تكتب للقضاة فيتلونها كالببغاوات.. كيف كان بعض القضاة ينامون أثناء الجلسات..

كل هذا رواه لها عبدالمنعم أثناء حديثه عن التهمة التي لفقها له حامد السيوفي منذ سنوات. كل هذه الصور عادت إليها، عادت مختلفة. في الماضي سمعتها من فم عبدالمنعم وهي تضحك. والآن ترى نفس هذه الصور مختلطة بدموعها وعبراتها.

ما أغرب الفرق بين الحقيقة والخيال. إن الحقيقة أبشع كثيراً من الخيال. إننا نقشعر عندما نقرأ عن جريمة ذبح رجل مسكين. ولكننا نفجع عندما نرى جريمة الذبح ترتكب أمامنا.. وتتضاعف فجيعتنا ألف مرة عندما نكون نحن الذين نذبح بالسكين!

لم تكن بثينة تخاف على زوجها من رصاص العدو بقدر خوفها من العدالة في بلادها. عندما يداس القانون بالأقدام تصبح حرية كل إنسان في خطر. بل إن الخطر على الأبرياء يكون أشد من الخطر على المجرمين. فالمجرم عدو القانون. ويوم يسجن القانون تباح الحرية للمجرمين، وتفتح أبواب الزنزانات للأبرياء.

وبدلاً من أن توضع عصابة سوداء على عين العدالة توضع هذه العصابة على عيون الشعب كي لا يرى عبث العدالة.. تتحول العدالة من قديسة إلى راقصة ترقص على الألحان التي يعزفها الطغاة.. لا يعود المتهم بريئاً إلى أن يحكم عليه، بل يصبح المتهم مجرماً حتى ولو حكمت المحكمة ببراءته... يختلط العدل بالظلم، ويتبادل المجرمون والقضاة مقاعدهم، فيجلس القاضي في قفص

الاتهام ويجلس المجرمون فوق منصة العدالة.

ومضت بثينة تبكي كأنها لا تبكي على عبدالمنعم وحده، كأنها تبكي على كل عبدالمنعم في مصر. تبكي على العدالة، تبكي على القانون، تبكي على الناس كلها وكأنها تبكي على نفسها.

ودخلت ابنتها سميرة.. لقد سمعت الطفلة في غرفتها صوت نحيب وبكاء، ودخلت غرفة أمها المظلمة فوجدتها منتفخة العينين والوجنتين من البكاء.

فصاحت الطفلة في جزع وهي ترتمي في أحضان أمها:

ـ لماذا تبكين يا أمي.. أين أبي؟

قالت بثينة وهي تحاول إخفاء دموعها عن طفلتها:

ـ إن والدك في فلسطين.. يحارب؟!

قالت سميرة:

ـ لقد كان هنا أمس..

قالت بثينة:

ـ لا لم يحضر.. إنه لا يزال يحارب في فلسطين.

قالت الطفلة:

ـ ولكني رأيته أمس.. قبلني وعانقني وتحدث معي.

قالت بثينة وهي تضم ابنتها إلى صدرها:

ـ كنت تحلمين..

قالت سميرة غير مصدقة:

ـ أبداً، لم أكن أحلم.. وقد رأيت الضابط الذي جاء إلى غرفة نومي ورمى المرتبة وفتح الأدراج وفتش فيها، ورمى عروستي على الأرض؟

قالت بثينة:

ـ كل هذا كان حلماً!

وأحست بثينة بأنها لا تكذب على ابنتها.. إن الذي حدث كان حلماً.. كان حلماً انتهى بكابوس.. الساعات التي أمضاها عبدالمنعم كانت كالحلم.. والساعات التي تلت القبض عليه هي بداية الكابوس.. ترى كم سيطول هذا الكابوس؟

وعادت الطفلة تتعلق بأمها وتقول:

ـ صحيح؟ أبي لا يزال يحارب في فلسطين؟!

قالت بثينة وهي تضمها:

ـ نعم يا سميرة.. أبوك لا يزال يحارب في فلسطين!..

وشهقت بالبكاء. شعرت أن عبدالمنعم فعلاً لا يزال يحارب في فلسطين.. كل أرض فيها ظلم هي فلسطين.. كل أرض تداس فيها الحرية بالأقدام هي فلسطين.. كل أرض تنتهك فيها العدالة هي فلسطين.. إن فلسطين في كل مكان!

وجلس عبدالمنعم في زنزانة يفكر في أي تهمة جديدة اخترعها له حامد السيوفي مدير التحقيقات؟

لقد عرفه من قبل أستاذاً في التلفيق، خبيراً في تزييف الشهود، رجلاً لا ذمة له ولا ضمير، قادراً على أن يجعل من الأوهام قضايا، شاطراً في أن يحول الأكاذيب إلى اعترافات. حاول أن يعرف من السيوفي أثناء نقله من بيته إلى السجن التهمة الموجهة إليه، فلم يدرك سوى أنه مقبوض عليه بأمر جلالة الملك!

وفكر عبدالمنعم في الأمير عادل عمرو الذي أنقذه في المرة الماضية. الذي حصل على أمر من جلالة الملك بوقف التحقيق. إنه لا يستطيع أن يلجأ اليوم إلى الأمير عادل. لقد عرف أن الأمير أنقذه في المرة الماضية ليحوله من قائد إلى قواد، ليجعله مراسله، برتبة صاغ لبيت الهرم، يعد الطعام للقنبلة الذرية الراقصة ببا، ليشتري الويسكي والمشروبات للعاشقين، ليشترك في جريمة إنفاق أموال الجيش على بناء عش الغرام.

وعندما رفض عبدالمنعم أن يلوث شرفه العسكري بهذا الهوان، فقد حصانته.. فقد الدرع الذي يحميه.. ولم يحس بالندم لأنه اختار.. فضل أن يموت شريفاً في زنزانة، على أن يعيش ملوثاً في صندوق قمامة.. حتى ولو كان اسم هذا الصندوق «ياور صاحب السمو الأمير عادل عمرو»!

وتركوه عدة أيام بغير سؤال ولا تحقيق..

وعندما استدعوه إلى التحقيق تنفس الصعداء، تصور أن الحقيقة سوف تظهر. سيعرف المحققون أنه بريء، لم يرتكب جريمة ولا إثماً.. كل جريمته أنه كان يحارب، أنه كان في الصف الأول من المعارك، أنه ذهب إلى الموت ليدافع عن شرف بلاده وكرامتها.

وأدخلوه غرفة مظلمة، ثم سلطوا أنواراً كشافة عليه. فلم

يستطع أن يتبين وجه الجالسين خلف المكاتب. وسمع صوت حامد بك السيوفي يقول له بغلاظة:

ـ إخلع ملابسك!

وتردد في خلع سترته العسكرية.. وإذا بجندي يتقدم إليه ويفك أزرار السترة.. شعر بهوانٍ لم يشعر به من قبل وهو يجرد من ملابسه العسكرية.. كأنه فتاة عذراء وهذا الثوب علامة بكارتها.. إن الصفعة تؤلمه والرصاصة تجرحه، ولكن تجريده من ثوبه العسكري يذبحه، وخاصة عندما يتقدم أحد الجنود ليجرده من السترة.

الرجل العادي لا يحس بالهوان عندما يجرد من بذلته كما يحسه الضابط. لأنه فخور بهذه البذلة، لأنه يشعر بأن البذلة تميزه عن باقي الناس. لأنه يتلقى محاضرات طويلة في دراسته عن هذه البذلة. كيف يلمع زرايرها. كيف يعنى بكيها.. كيف يهتم بمظهرها.. لقد وقف في طوابير كثيرة ورأى قواداً كباراً يستعرضون هذه البذلة. يهتمون بها أكثر مما يهتمون بمن يرتديها. يتفحصون أناقتها. والضابط يتلقى تعليمات كثيرة عن كيف يصون هذه البذلة. لا يظهر بها في مكان غير لائق. لا يرتديها في كباريه. لا يعانق امرأة وهو في بذلة عسكرية. وهكذا يتصور الضابط أن بذلته هي علم يرفعه، هي راية فوق قلعة. هي تاج يرفعه فوق رؤوس البشر.

ولهذا أحس عبدالمنعم بمرارة لم يحس بها وهو في زنزانته. أحس كأن الجندي نزع منه رجولته عندما نزع منه سترته العسكرية.. أنزله من العرش الذي كان يجلس فيه!

ولم ينته هوان عبدالمنعم عند هذا الحد، وإنما سمع صوت حامد

بك السيوفي يقول في لهجته الغليظة:

- جردوه من ملابسه الداخلية!

ومد الجندي يده لينزع قميصه وسرواله. وأحس بغريزته تدفعه في أن يقاوم. لقد تحمل وهو يتعذب تجريده من ملابسه العسكرية، ولكنه لم يتحمل تجريده من ملابسه الداخلية. ودفعه الجندي بقسوة ثم جاء بقيدين من الحديد ووضعهما في يديه، ثم انتزع القميص ومزقه، وجرده من سرواله!

وأحس عبدالمنعم بأنه تجرد من إنسانيته. رأى نفسه عارياً كما ولدته أمه، والأضواء الكهربائية مسلطة على جسده العاري، ثم سمع ضحكات سخرية. ولم يشعر بقيمة الحرية كما أحس بها وهو مقيد اليدين. ولو كان حراً لأمسك برقبة حامد السيوفي وأطبق عليها حتى يسلم الروح.. لو أنه كان حراً لاستطاع أن يدافع عن نفسه.. وسمع قهقهة عالية، هي قهقهة حامد السيوفي. أي هوانٍ يشعر به الرجل العاري أمام رجل يرتدي ملابسه كاملة؟ هو نفس الهوان الذي يحس به الرجل المقيد أمام جلاده المطلق اليدين!

إن تجريد المتهم من ملابسه هو وسيلة لإشعاره بالذل والضعة والعار. هو تجريده من المقاومة. إن ملابسنا هي دروع نفسانية.. قماشها لا يحمينا، ولكنه يعطينا شعوراً بالأمان في داخلنا ولهذا فإن أول ما يفكر فيه الرجل عندما يغتصب امرأة أن يجردها من ملابسها.. فإذا نجح في تجريدها من الملابس، تفقد إرادتها وتموت مقاومتها ويسهل اغتصابها. وهكذا يصبح تجريد المتهم من ملابسه نوعاً من الاغتصاب، أو هو هتك عرض معنوي، يجعله مسلوب الإرادة، بلا كرامة، وبلا مقاومة، وبلا حماية!

وبينما كان عبدالمنعم يرتجف من البرد، ويرتجف من الغضب، ويرتجف من العار، إذا به يسمع حامد بك السيوفي يقول له:

- أين تطبعون المنشورات؟

قال عبدالمنعم في دهشة:

- منشورات؟. أي منشورات؟

قال حامد السيوفي بأعصاب باردة:

- لا تنكر.. إننا نعرف كل شيء.. أين تطبع المنشورات؟

قال عبدالمنعم وقد أحس براحة لأنه عرف لأول مرة التهمة الموجهة إليه:

- أنا لا أعرف شيئاً عن منشورات!

وتقدم نحوه حامد السيوفي وصفعه على وجهه صفعة قوية وهو يصيح:

- تكلم!!

وترنح عبدالمنعم من أثر الصفعة، واستند بظهره إلى الحائط حتى لا يسقط فاقد الوعي ثم قال ساخراً:

- ما قولك يا حامد بك برجل مقيد بالحديد!

وانتفض حامد السيوفي وأمسك مقعداً ورفعه وهوى به على رأس عبدالمنعم وهو يصيح فيه:

- كيف تجرؤ على أن تشتمني يا مجرم؟!

وقال عبدالمنعم باحتقار والدم يسيل من رأسه على شفتيه:

ـ لست مجرماً. . إن المجرم هو الذي يضرب رجلاً مقيد اليدين!

ورفع حامد السيوفي المقعد من جديد، وأراد أن يهوي به على رأس عبدالمنعم، فتقدم ضابط من الذين كانوا يجلسون بجواره وتظاهر بأنه يتدخل ويتوسط لإنقاذ عبدالمنعم ويقول:

ـ لا تغضب يا حامد بك. . إن الصاغ عبدالمنعم سيعترف بكل شيء!

وانصرف حامد بك السيوفي من الغرفة، وأمر الضابط بفك قيود عبدالمنعم، وأمر له بكوب ماء، وبصبغة يود لتضميد جروحه، وأجلسه على مقعد، وراح يقنع عبدالمنعم بأن مصلحته في أن يتكلم ويقول كل شيء، لأن حامد بك لديه كل الأدلة والبراهين الدامغة على اشتراكه في طبع المنشورات.

وإنه إذا قال الحقيقة فسوف نحفظ القضية، لأن ليس من المصلحة إثارة مثل هذه المسألة أثناء حرب فلسطين!

وقال عبدالمنعم إنه لا يعرف منشورات، ولم يسمع بمنشورات، وقال له الضابط:

ـ هناك تقارير تقول إنك قلت لبعض الضباط في الجبهة أن حكومة جلالة الملك ليست حكومة ديموقراطية. .

قال عبدالمنعم:

ـ لم أقل هذا. . لو قلته فليس في هذا جريمة. . لأن هذا رأي. .

ومن حق كل إنسان أن يقول رأيه في بلد ديمقراطي. إن الفرق بين الدولة الديمقراطية والدولة الدكتاتورية إنه ليس في الدولة الديمقراطية جريمة اسمها جريمة رأي!

قال الضابط:

ـ ولكنك ضابط في قوات جلالة الملك وليس من حقك أن تتكلم في السياسة؟

قال عبدالمنعم:

ـ ولكن هذه ليست التهمة الموجهة إلي. التهمة أنني طبعت منشوراً وأنا لم أطبع أي منشور.

قال الضابط:

ـ يظهر أنك لا تريد أن تتعاون معنا. . لماذا لا تعترف بأنك طبعت المنشور ما دامت الأدلة والبراهين التي عندنا تؤكد ذلك، وهكذا توفر على نفسك العذاب الذي تتعرض له؟.

قال عبدالمنعم:

ـ كيف أعترف بشيء لم يحدث؟.

قال الضابط:

ـ إن اعترافك يثبت أنك متعاون مع القيادة. وعدم اعترافك يدل على أنك متمرد على القيادة. . المفروض أن البكباشي حامد بك السيوفي أصدر لك أمراً بأن تقول إنك مشترك في المنشورات، فيجب أن تطيع هذا الأمر. وبذلك تسوى المسألة ويفرج عنك!

وضحك عبدالمنعم وقال:

ـ أي منطق هو هذا؟

وانتفض الضابط من مقعده ووقف وهو يقول:

ـ يظهر أنك لا تعرف مصلحتك.. ولهذا فسوف أتركك لحامد بك.. إنه هو الذي يعرف اللغة الوحيدة التي تفهمها..

وأعيد عبدالمنعم مقيداً إلى السجن، بعد أن ألبسوه بذلة السجن. واستمر التحقيق والاستجواب عدة أيام. كان عبدالمنعم أحياناً يستجوب تسع عشرة ساعة متوالية بغير انقطاع، يتعب البكباشي حامد السيوفي من استجوابه، فيحل محله ضابط آخر، ويتعب الضابط الثاني، فيستكمل التحقيق ضابط ثالث..

ويتوقف التحقيق عندما يسقط عبدالمنعم على الأرض من التعب والضنى والتعذيب المتواصل..

□□□

كانت ببا تزور والدتها في عمارة العجوزة عندما اتصل بها الأمير عادل تليفونياً وقال لها:

ـ أبلغني سعدون باشا الآن أخباراً سيئة. إن التحقيق مع الصاغ عبدالمنعم بيومي لم يصل إلى شيء.. حامد بك السيوفي أمضى معه أسبوعاً كاملاً مواصلاً الليل بالنهار، وهو يرفض أن يعترف. لم ينفع معه التهديد. لم ينفع معه الوعيد. لم ينفع معه الإغراء. لم تنفع الرسالة التي كتبها الأمير بخط يده إلى الصاغ عبدالمنعم بيومي يعده فيها بعفو ملكي إذا اعترف عن العصابة التي تطبع المنشورات. لقد حمل سعدون باشا هذه الرسالة إلى عبدالمنعم في زنزانته، وأصر أنه لا يعرف شيئاً عن المنشورات.

وأظهر الأمير عجبه أن التعذيب والسجن وسوء المعاملة لم تجعل عبدالمنعم ينهار ويعترف بكل شيء. وذكر أن سعدون باشا سوف يضطر إلى الإفراج عنه إذا لم تظهر أدلة جديدة.

وصرخت ببا في فزع:

ـ هل جننتم؟ كيف تفرجون عنه؟ إنني واثقة أنه رئيس العصابة..

قال الأمير:

ـ وماذا نفعل؟ الدليل أن المنشورات لا تزال توزع بالرغم من أنه مسجون.. بل أنها زادت عما كانت قبل القبض عليه!

قالت ببا:

ـ إن زيادة المنشورات بعد القبض عليه دليل قاطع على أنه هو زعيم العصابة.. إن زملاءه ثائرون لاعتقاله، ولهذا ضاعفوا نشاطهم، ليقول المغفلون أمثال سعدون باشا إن هذا دليل على براءة عبدالمنعم بيومي.. استمروا في تعذيبه حتى يعترف!

قال الأمير:

ـ هذا كلام معقول جداً.. وعلى كل حال فإنني قلت لسعدون باشا أن يبقي عبدالمنعم مسجوناً إلى أن أسألك رأيك!

ووضعت ببا سماعة التليفون وهي تقول لأمها:

ـ هل هؤلاء رجال؟ إنهم فراخ.. كلهم خائفون!

ولم يكن هؤلاء الرجال وحدهم الخائفين. كانت ببا خائفة أكثر منهم. إن التليفون المفاجىء زاد خوفها ورعبها. لم تكن تخاف قبل

ذلك. ولكن كلما زادت سلطتها، زاد خوفها وتضاعف رعبها. وكلما زاد خوفها، زادت رغبتها في ضرورة الضرب بشدة، في ضرورة البطش. فالحاكم لا يبطش إلا عندما يخاف، ولا يزداد بطشه إلا عندما يتضاعف خوفه. الرعب هو الذي يخلق فيه الرغبة في البطش. الرغبة في أن يزج خصومه في السجون. الرغبة في أن يعلقهم على المشانق. الرغبة في أن يقفل الأفواه. فكلما زاد خوفنا راجت صناعة الأقفال. وكلما زاد خوف الطاغية ازدهرت صناعة السلاسل والقيود. ولهذا فإن الحاكم الذي لا يخاف لا يبطش. فالبطش هو الابن الشرعي للقلق والخوف!

وهكذا تصنع رجفات الحكام أحكامهم. الهمس يبدو في آذانهم رعداً، والحركة تبدو انقضاضاً، والمعارضة يتخيلونها ثورة. الخيال يحسونه رجلاً فيطلقون عليه النار. إذا مشى بضعة أشخاص في الشارع يتصورونهم مظاهرة فيصوبون إليها المدافع. إذا قرأوا كلمة نقد في جريدة حسبوها حملة سوف تقتلعهم من مقاعدهم، فيحشدوا الجيوش ليواجهوا بها قلماً في يد كاتب!

كانت ببا تعتبر كل منشور هو كفن يعد لتدفن فيه، ترى وراء كل شجرة رجلاً يحمل مسدساً يريد أن يغتالها. كأن أصواتاً مجهولة تمشي وراءها تطاردها. تقرأ كلمات المنشورات فتعتبر كل كلمة رجلاً يحمل سوطاً، أو فارساً يحمل سيفاً، أو إرهابياً يحمل مسدساً!

ولم تكن في طبيعتها قاسية. وإنما عندما يكبر الخوف يتحول إلى الجبن، والقسوة هي صفة الجبناء. كما أن الرحمة صفة الشجعان، والقساة هم أشخاص يرتعدون رعباً، وقسوتهم هي تعبير عن رعبهم. فالذين لا يستطيعون أن يواجهوا خصومهم في النور

يبطشون بهم في الظلام. والذين يجبنون عن مناقشة مخالفيهم في الرأي يقسون في تعذيبهم.

وأكبر دليل على ذلك أن هتلر وهملر رئيس الجستابو الألماني، وجوبلز وجورنج، كانوا أقسى زعماء حكموا العالم في القرن العشرين.. نصبوا المشانق، وأنشأوا معسكرات الاعتقال وأفران التعذيب.. وعندما عرفوا أنهم سيقعون في أيدي خصومهم جبنوا عن مواجهتهم.. خافوا من السجن.. ارتعدوا من العقاب.. ذعروا من المحاكمة وهم الذين قدموا ألوف الأبرياء إلى المحاكمات الصورية.. ولهذا انتحروا كما يفعل الجبناء. وجبنوا في أن يواجهوا مصيرهم بشجاعة، كما واجهه الامبراطور غليوم عندما خسر الحرب العالمية الأولى، أو كما واجه نابليون هزيمته.

وهكذا عبرت ببا عن جبنها بالقسوة، بالرغبة في البطش بعبدالمنعم. لأن السياط التي يضرب بها الطغاة ظهور معارضيهم تطمئنهم. إن خوفهم يجعلهم يشعرون أنهم يعيشون في وحدة. وإذا كان الإنسان العادي عندما يحس بالوحدة يجيء بعصفور ويضعه في قفص، فيزيل صوت العصفور وزقزقته وحدته، فالطاغية الخائن يحيط نفسه بعدة أقفاص، لا يضع فيها عصافير، وإنما يضع فيها مسجونين. وكلما سمع صوت المسجونين في أقفاصهم يئنون يطرب لأنينهم ويسمعها في أذنه زقزقة العصافير..

وكما أن الإنسان الوحيد يتسلى بمنظر العصفور في القفص، يرقبه، وهو يخرج رأسه من قضبان القفص ولا يستطيع الخروج. يطير حائراً داخل القفص، ينتقل من ركن إلى ركن باحثاً عن منفذ، ينحني حتى يتكور، يزقزق حتى يبكي. يقطع القفص ذهاباً

وإياباً، يدور حول نفسه.. هذه المتعة التي تسلي الإنسان العادي هي نفسها المتعة التي يجدها الطاغية الجبان وهو يتأمل خصومه داخل الأقفاص!

ولهذا فإن ببا تريد أن يبقى عبدالمنعم في القفص.. أن تضع خصومها كلهم في أقفاص.. أن تضع مصر كلها في قفص، وتتسلى بالنظر إليها، وتطمئن من الخوف، وتستريح من الجبن الذي يؤرقها..

وعندما غادرت ببا شقة أمها كانت مشغولة تفكر كيف تبقي العصفور عبدالمنعم بيومي في القفص، لا يخرج منه أبداً..

وبينما هي تفتح باب المصعد في الطابق الأرضي رأت أمامها سلامة.. سلامة القواد... سلامة الذي أحبته في أنوثتها المبكرة.. الذي سلبها شرفها ثم راح يؤجرها لمدام جورجيت.

وأشاحت بوجهها عنه حتى لا يراها. كأنها تشيح بوجهها عن ماضيها الذي نسيته. هذا الماضي القذر الذي تصورت أنها دفنته إلى الأبد منذ أصبحت زوجة صاحب السمو الأمير عادل عمرو. ولكن سلامة لمحها فأقبل عليها، وفوق شفتيه الابتسامة التي تعرفها جيداً. ابتسامة السمسار الذي يبيع كل شيء ويشتري كل شيء..

وأمسكها بيدها يصافحها بحرارة، ولكنه أبقى يده في يدها، وعندما حاولت أن تسترد يدها، بقي ممسكاً بها قابضاً عليها!

واضطرت أن تبتسم إبتسامة مغتصبة كأنها رشوة تقدمها إليه ليطلق سراح يدها، ولكنه استمر قابضاً على يدها..

وقال سلامة وهو يغمز بعينه:

ـ لقد ازددت جمالاً يا ببا!

وأرادت أن تقول له: نعم، وقد ازداد سعري تبعاً لذلك.. ولكنها أحست بخوف مفاجىء، وشعرت برغبة في أن تتجنب إغضابه حتى يتركها وشأنها. فقالت له وهي تتصنع السرور لمجاملته فقالت:

ـ أشكرك يا أستاذ سلامة!

وضحك سلامة ساخراً وقال معاتباً.

ـ الآن أصبحت الأستاذ سلامة.. كل شيء ارتفع سعره بعد الحرب.. اللحم والطماطم وسلامة الذي أصبح أستاذاً.. وببا أصبحت «الأميرة» ببا..

وفزعت عندما سمعته يقول إنها الأميرة ببا.. إذن هو يعرف علاقتها بالأمير عادل عمرو.. بل يعرف أنها تزوجته.. فكيف عرف ذلك؟ هل وقع في يده منشور جديد لم تطلع عليه؟ وازداد خوفها، وتمنت لو تضع سلامة في نفس القفص الذي تعده للصاغ عبدالمنعم.

ثم وجدت سلامة يفتح باب المصعد، ويدفعها إلى داخله، ويغلق الباب، ثم يضع إصبعه على رقم الطابق السابع، الطابق الذي انتقلت إليه أخيراً أمها بعد أن اشترت شقة المليونير صادق عبدالعظيم من الحراسة.

ودهشت ببا والمصعد يتحرك بها لأنها استسلمت لسلامة، كأنها منومة تنويماً مغناطيسياً. لم تعارض ولم تحتج. لم تقل إنها مشغولة أو مرتبطة بموعد. أطاعته كما كانت تطيعه عندما يصحبها إلى بيت

مدام جورجيت لتستقبل الزبائن. . خافت أن يفضحها. . خافت أن يروي قصتها للأمير عادل. . خافت أن يتحدث عن سابقة الدعارة التي حكم عليها بها. . خافت أن يذكرها بالماضي، ولهذا تبعته دون أن تفتح فمها!

وعندما وقف المصعد أمام الطابق السابع، فتح سلامة الباب، ولم ينتظر حتى تخرج كما أصبح الرجال يفعلون معها الآن، بل تقدمها إلى ردهة السلم كما كان يفعل عندما يأخذها إلى بيت جورجيت. . كأنه يحرص على أن يعاملها بنفس الطريقة التي كان يعاملها بها عندما كان يقيم معها في نفس الحارة بحي السيدة زينب.

ثم تقدم نحو باب الشقة ودق الجرس، وعندما فتحت الخادمة فريدة الباب، توقف قليلاً، وتقدمت ببا، واتجهت إلى الصالون الفاخر، ومشى سلامة وراءها. ثم اختار أريكة في الصالون وجلس عليها وأشار بأصبعه إلى المكان الخالي بجواره على الأريكة.

وتوقعت ببا أن يعانقها سلامة ويقبلها، ويطلب منها أن يذهب بها إلى غرفة النوم. . وفكرت ببا أنها لن تمانع في أي طلب من هذه الطلبات. كل ما تريده هو أن تقفل فمه. أن تشتري سكوته. .

وإذا بسلامة يقول لها في هدوء:

ـ أريد نقوداً!

وأصيبت ببا بخيبة أمل. . كانت تتمنى لو كان لا يزال يتمناها. . كان على استعداد لأن تعطيه نفسها وتعطيه فوق ذلك النقود. . كانت قد طوت في لحظات السنين الطويلة التي فرقت بينهما، وعادت تذكر أيامها الأولى وهما يمشيان في الشوارع الباكية

وأيديهما متشابكة. وأقدامهما تغوص في أوحال شارع الخليج، وعندما كانت ترتعد إذ تسمع صوت الرعد أثناء سقوط المطر فيضمها إلى صدره ليخبئها من خوفها واضطرابها. وإذا به يخرجها من هذه الصفحات بأن يبدأ طلب النقود. . كما كان يفعل بعد خروجها من بيت مدام جورجيت!

وردّها هذا الطلب إلى حاضرها فقالت:

ـ كم تريد؟

وعجبت ببا عندما سمعت كلمة «المائة» تخرج من شفتي سلامة، إنه على حق في أن كل الأسعار ارتفعت بعد الحرب.

وكان أكبر مبلغ طلبه في الماضي عشرة جنيهات!

وبعد أن تخلصت من نزوتها أحست برغبة في أن تتمرد عليه.

خضعت له عندما تصورت أنه يريدها، واستعادت قوتها لما عرفت أنه يريد نقودها. كانت قد نسيت مع الأيام أن المال كان يغري سلامة أكثر من الصوت الناعم وأكثر من العينين الناعستين، وأكثر من الشفتين الساخنتين، وأكثر من العطر النفاذ.

وسيطرت عليها رغبة في أن تجعل المال امرأةً لعوباً، تتمنع، وتتدلل، وترفض وتتأبى. . أن تتفرج على سلامة وهو يطارد المائة جنيه كما يطاردها، يبكي أمام ورقة البنكنوت متوسلاً كما كان يبكي متوسلاً أمامها.

وقالت له باحتقار، وهي تنظر إلى خاتم الزمرد الذي تضعه في يدها اليسرى:

ـ مائة جنيه؟! هذا كثير جداً.. كل ما أستطيع أن أعطيك إياه هو جنيه واحد!

ورأته ببا يتضاءل أمامها.. عيناه تركعان أمامها.. كلماته المسكينة تسجد في حضرتها.. صوته الآمر يتحول إلى صوت مرتجف.. يده القوية التي كانت تقبض على يدها تراخت ووهنت كأنه هبط فجأة من قمة الماضي إلى قاع الحاضر. ثم قال في صوت متهدج:

ـ إن حالتي سيئة. كأن الأرض انشقت وابتلعت جميع الزبائن. كأن جميع الرجال تابوا فجأة. إنني لم أدفع إيجار بيتي منذ ستة شهور.. إنني لم أتناول عشائي أمس ولا إفطاري ولا غدائي اليوم.

وتوقف. وكأن الجوع سد حلقه ومنع الكلمات أن تخرج.

وجاء صمته كموسيقى في أذن ببا. كأن عذابه أراحها وجوعه أشبعها وتعاسته أسعدتها..

وخطر ببالها أن تستغله كما كان يستغلها، أن تبيعه كما كان يبيعها، أن تتاجر فيه كما كان يتاجر فيها، فقالت له، وهي تتصنع العطف عليه:

ـ إنني مستعدة أن أساعدك لتحصل على عمل تربح منه مائة جنيه.. وربما مائتي جنيه!

وفتح سلامة فمه في ذهول وراح يردد وكأنه يحدث نفسه:

ـ مائتا جنيه!! مائتا جنيه؟! إني مستعد أن أفعل أي شيء لأحصل على مائتي جنيه.. مستعد أن أفعل أي شيء لأحصل على مائتي جنيه!

وتوقف سلامة، وكأنه يحسب في زمنه كم من النساء يجب أن يقدم لمدام جورجيب ليحصل على مائتي جنيه!

وقالت ببا وهي تضحك:

ـ شهادة فقط؟!

ـ إنني مستعد أن أؤدي ألف شهادة. إنني عملت فترة شاهد زور أمام المحكمة الشرعية وكنت أتقاضى على الشهادة الواحدة عشرين قرشاً!

قالت ببا وهي تهز كتفيها:

ـ ألم تقل إن الأسعار ارتفعت كلها بعد الحرب؟ كانت شهادة الزور بعشرين قرشاً وأصبحت بمائة جنيه!

قال سلامة مصححاً:

ـ بمائتي جنيه!

قالت ببا وقد رفعت حاجباً متغطرساً وراحت تنظر إليه نظرة استخفاف وازدراء:

ـ ليكن بمائتي جنيه.. هل تعرف ضابطاً اسمه الصاغ عبدالمنعم بيومي؟

قال سلامة وهو ينظر إليها بانتباه وتعمق ليعرف ما وراء عرضها:

ـ لا.. ولكني مستعد أن أعرفه!

وقامت ببا من مقعدها واتجهت إلى درج صغير في دولاب بنهاية

الصالون وفتحته وأخرجت منه قلم حبر وبلوك نوت قدمته إلى سلامة وقالت له: اكتب.

وبدأت تملي عليه في تؤدة:

ـ «أشهد وأعترف أنا سلامة اسكندراني بأن الصاغ عبدالمنعم بيومي سلمني منشوراً فيه طعن بحكومة جلالة الملك وعرض علي أن أقوم بتوزيع عدد من هذه المنشورات».

وكتب سلامة الإقرار، ووقعه، ثم سلمه إلى ببا فقرأته وأعادته إليه وهي تقول:

ـ أكتب عنوانك تحت اسمك.

ولم يكن سلامة يحس بألم وهو يكتب الإقرار بشهادة الزور ويذبح بها بريئاً. كان يشعر بلذة من يأكل البرتقال بدمه. نفس اللذة التي كان يشعر بها وهو يقدم فتاة بريئة بعد أن اغتصبها لمدام جورجيت مقابل حقه من السمسرة.. النشوة التي يحس بها القواد الصغير وهو يعمل لحساب القواد الكبير!

وكتب سلامة «المقيم بشارع الأميرة دولت فاضل.. رقم ٧ ـ الدور الرابع ـ وراء قسم عابدين» تحت إمضائه في ذيل الإقرار.

وقرأت ببا العنوان ثم ضحكت وقالت في خبث:

ـ لماذا تقول الدور الرابع؟. قل السطوح بصراحة!

وأضاف سلامة كلمة (السطوح) بين قوسين!

وفتحت ببا حقيبة يدها، ودست فيها الإقرار، ثم وضعت في

يده ورقة مطوية، وفتحها سلامة، وأمسكها بيده في دهشة وقال وقد تجهم وجهه:

ـ هذا جنيه واحد.. ولقد وعدتني بمائتي جنيه!

قالت ببا والابتسامة تشرق في عينيها:

ـ ستأخذ باقي المبلغ بعد أن تشهد في التحقيق، وبعد أن تشهد في المحكمة! إن الدفع كما هي العادة، بعد انتهاء العملية.. هل كنت تأخذ المبلغ مقدماً عندما كنت تأخذني إلى مدام جورجيت؟..

قال سلامة متوسلاً وقد أفاق من ذهوله وعلت وجهه صفرة الموت:

ـ ولكن الجنيه لا يكفي!

قالت ببا في حزم كأنها قاضٍ يصدر حكماً لا يقبل النقض والإبرام:

ـ إذا لم تقبل الجنيه فخذ الإقرار!

وفتحت حقيبتها وأخرجت الإقرار وألقته في وجهه فسقط على أرض الغرفة.

وانحنى سلامة على الأرض والتقط الإقرار وقدمه والدموع في عينيه وهو يقول في صوت حائر مضطرب:

ـ أرجوك أن تعطيني جنيهاً ثانياً..

وفتحت ببا حقيبتها، وأعطته جنيهاً ثانياً، فأسرع بوضع

الجنيهين في جيبه وقال وكأنه يهمس والأسى يملأ عينيه. والفرح بالجنيهين يملأ قلبه.

ـ ومتى أقبض المبلغ الباقي؟

قالت ببا وقد تورد وجهها بالسرور إعجاباً بدهائها!

ـ تقبض خمسين جنيهاً بعد أن تؤدي شهادتك في التحقيق. وتقبض خمسين جنيهاً بعد أن تؤدي شهادتك في المحكمة.. وتقبض الباقي بعد الحكم!

قال سلامة محتجاً:

ـ هذه معاملة سيئة!

قالت ببا:

ـ لقد كانت معاملتك لي أسوأ من هذه المعاملة.. إنني تعلمت منك.. هذه دروسك يا سلامة!

وابتسم سلامة كأنه أستاذ رضي على نجاح تلميذته النجيبة ثم قال:

ـ ما رأيك لو جئت لك بشاهد آخر؟. إن شاهدين أضمن من شاهد واحد.. لقد أصبحت صاحب مصلحة في صدور الحكم ضد هذا الرجل حتى أقبض المائة جنيه الباقية.

قالت ببا وقد أعجبتها الفكرة:

ـ ولكن هل هو شاهد مضمون؟

قال سلامة:

ـ مضمون مائة في المائة.. إنه شقيق زوجتي.. ولا يخرج عن يدي!

قالت ببا وقد استرخت في مقعدها:

ـ لا مانع.. شرط أن يكون شاهداً من بطانتك أنت.. وتدفع له من النقود التي تقبضها.. ولا علاقة لي به!

قال سلامة وقد انتقل فجأة من مقعد الشحاذ إلى مقعد رجل الأعمال!

ـ أعدك بأن لا يعرف أحد أن لك علاقة بهذا الأمر. ولكن ما دام الشاهد الواحد بمائتي جنيه.. فالشاهدان بأربعمئة جنيه!

قالت ببا وهي تضحك ضحكة مكتومة:

ـ إن أسعار الجملة تختلف عن أسعار القطاعي!

قال سلامة وقد شمله هدوء واطمئنان لم يشعر بهما من قبل:

ـ لنقل ثلاثمائة جنيه!

قالت ببا وهي تتأمل ملابسه الرديئة التي لاحظت في تلك الدقيقة فقط مبلغ قذارتها:

ـ لا.. مائتان وخمسون جنيهاً للشاهدين!

قال سلامة وهو يحاول أن يبدو مرتبكاً:

ـ لا يمكن أن يقبل أقل من مائة جنيه!

قالت ببا لتنهي المناقشة:

ـ اتفقنا. . ثلاثمائة جنيه. .

قال سلامة:

ـ إذن أعطيني جنيهاً ثالثاً!

قالت ببا:

ـ عندما تقدم الإقرار الثاني.

قال سلامة:

ـ سأجيء لك بالإقرار في مثل هذه الساعة غداً. . وسأقبض الجنيه الثالث. .

ولكن أرجو أن تعطيني الآن خمسة قروش أجرة المواصلات إلى بيت زوج أختي!

ووقفت ببا غاضبة وقالت له:

ـ قلت لا. . يعني لا!

ووقف سلامة ذليلاً، وتقدم إليها وقبل يدها، وفي هذه المرة تقدمت ببا إلى الباب، ومشى وراءها إلى أن فتحت الباب وخرج، ثم أغلقت دون أن تصافحه وأسرعت ببا إلى التليفون واتصلت بفوزي بك في مكتبه وقالت له وكأنها اطمأنت أنها وضعت العصفور في القفص وأغلقت عليه الباب. .

ـ لقد حصلت على اعتراف كامل بخط شاهد تسلم المنشورات من يد الصاغ عبدالمنعم بيومي والإقرار معي الآن.

ـ قال فوزي بك:

ـ لن أنسى عطفك علي يا سمو الأميرة سأحضر لأتسلم الإقرار!

قالت ببا:

ـ ستتسلم الإقرار فقط. . ولا شيء سواه!!

ووضعت ببا سماعة التليفون وقد امتلأ وجهها فرحاً وسعادة وعادت تحس بشبابها وجمالها وحيويتها واتجهت إلى غرفة أمها وقالت وهي تشعل السيجارة:

ـ هل سيجيء الشمردلي باشا الليلة؟

قالت ست زليخا في أسف:

ـ لا. . الليلة سوف يبيت عند زوجته الأخرى.

وعندئذ استلقت ببا على الفراش وقالت لأمها:

ـ عندما يجيء فوزي بك. . دعيه يدخل إلى غرفة النوم!

وابتسمت الست زليخا وكأنها فهمت.

ومشت إلى خارج الغرفة وهي تغني أغنيتها المحبوبة.

ـ وانا نازلة أدلع أملا القلل.

ـ ٢٥ ـ

ما كاد سلامة الاسكندراني يخرج من عمارة ببا، حتى توقف أمام أول بائع سجائر في الشارع، واشترى علبة سجائر «كرافن».

أخرج من جيبه جنيهاً من الجنيهين اللذين قبضهما من ببا، ودفع

بالجنيه إلى البائع بحركة فيها غطرسة وكبرياء.

هذه أول مرة، منذ شهور طويلة، يشتري علبة سجائر ويدفع ثمنها فوراً. علبة سجائر فاخرة كالتي يدخنها الأغنياء. كان دائماً يشتري سجائره بالشكك، يشتري السجائر بالعدد لا بالعلب، يشتريها على الحساب ولا يدفع ثمنها بالنقد. كان يشتري كل يوم سجائره من دكان مختلف، يغير أنواع السجائر بتغيير المحلات التي يتعامل معها.

وجاء يوم أصبح سلامة يواجه مشكلة مرور لا يجد لها حلاً. هناك شوارع معينة لا يستطيع أن يطرقها لأنه مدين فيها لمحلات سجائر يطالبه أصحابها بديونهم التي لا يستطيع سدادها. وهناك ميادين يتجنب المرور فيها كي لا يمسك بخناقه تجار سجائر وعدهم بأن يسدد ثمن السجائر التي اشتراها في أول الشهر، ثم جاءت أوائل شهور عديدة ولم يستطع السداد.

وهكذا أصبح لا يستطيع أن يمشي في الشوارع في خط مستقيم. لا بد أن يلف ويدور. يتجنب طرقاً معينة كتبت عليها ديونه المتراكمة جملة «ممنوع المرور». لم يعد يستطيع الانتقال من شارع إلى شارع إلا بعد أن يتخيل في رأسه خريطة مدينة القاهرة، ليتفادى الألغام المغروسة في الشوارع على هيئة دكاكين لبيع السجائر، خشية أن يضع قدمه على هذه الألغام فينفجر فيه..

ولم يكن بين سلامة وتاجر السجائر في شارع العجوزة معاملات سابقة، فقد كان حي العجوزة أحد الأحياء القليلة في القاهرة التي لم تكن له فيها معاملات سابقة أو ديون تستحق الدفع..

وأشعل سلامة سيجارة، وأخذ منها نفساً طويلاً بشراهة، وأحس

كأن للسيجارة التي دفع ثمنها فوراً طعماً مختلفاً ونكهة السيجارة الشكك.

ووقف يرقب عربات الترام متردداً. هل يتعلق على سلم الترام، كي لا يدفع أجرة تذكرة الركوب، كما فعل عند قدومه إلى بيت ببا، وكما كان يفعل في انتقالاته طوال الشهور الأخيرة، أم يجلس في عربة الدرجة الثانية كما كان يفعل عندما يقبض عمولة من مدام جورجيت.

واتجه سلامة إلى محطة الترام. وعندما توقف الترام في المحطة لم يتجه إلى مقاعد الدرجة الثانية، بل اتجه إلى ناحية الدرجة الأولى.

ثم تذكر شيئاً كان قد نسيه من صفات ركاب الدرجة الأولى، وأسرع يضع ساقاً فوق ساق. وأحس بأن الجالسين معه في الدرجة الأولى ينظرون إليه باستغراب، وكأن بذلته الرثة لا تجيز له الجلوس مع الوجهاء في مقاعد الدرجة الأولى. فرمى ما بقي من سيجارته على الأرض، وأخرج علبة السجائر «كرافن» من جيبه، وتعمد أن يبقي العلبة في يده ، ليراها كل الجالسين حوله، وليتأكدوا أنه من الوجهاء أمثالهم. ثم فتح العلبة، وأخرج سيجارة، وأشعلها، وحرص أن ينفخ دخانها في وجوه الجالسين في الدرجة الأولى. ثم غرق في خواطره، وأحس بأن خواطر الراكب في الدرجة الأولى من الترام تختلف عن خواطر المتعلق في سلم الترام. إن المتعلق في سلم الترام لا يفكر إلا في كيف يتفادى أن يراه الكمساري فيرغمه على دفع أجر الركوب. أما راكب الدرجة الأولى فإن خواطره تضع ساقاً على ساق كما يفعل الركاب.. كأن أحلامنا تشتري تذاكر ركوب كما نفعل. فعندما نكون مفلسين تصبح أحلامنا من الدرجة الأولى.. أحلام مسترخية مستريحة لا يخنقها الزحام!

أصبح سلامة يفكر بعقلية مختلفة غير عقليته التي جاء بها إلى بيت ببا وهو متعلق على سلم الترام. كأنه أصيب بتضخم أخلاقي. إنه لا يفكر بعقلية الجنيهين اللذين في جيبه، وإنما بعقلية الثلاثمائة جنيه التي اتفق عليها مع ببا.

وساءل سلامة نفسه: ألم تكن هذه الترقية الاستثنائية تقتضي أن يستقل سيارة أجرة إلى بيت شقيق زوجته، بدلاً من ركوب الترام في الدرجة الأولى؟ وتنهد وقرر أن يؤجل هذه الفكرة إلى ما بعد أن يتسلم الخمسين جنيهاً.. الدفعة الأولى من صفقة شهادة الزور بعد أن يؤدي شهادته في التحقيق.

وتمنى سلامة أن يتم التحقيق بسرعة، وأن يتم الحكم على عبدالمنعم بيومي بسرعة، حتى يصل إلى يديه مبلغ الثلاثمائة جنيه بسرعة!

ولم يتصور سلامة أنه يؤدي عملاً مشيناً بهذه الشهادة التي ستودي بعبدالمنعم إلى المشنقة. إنه ليس أول بريء يقدمه إلى الموت.

كل الفتيات الصغيرات اللاتي خدعهن، وأغراهن بالحب، ووعدهن بالزواج، وسلبهن شرفهن، بريئات مثل عبدالمنعم..

وهو يشعر أنه تاجر لحوم، يذبح الخراف ويبيع لحمها للزبائن. ليس الذنب ذنب تاجر اللحوم، وإنما الذنب ذنب أكلة اللحوم الذين لا يشبعون. ولو أن الناس كانوا كلهم نباتيين لاختفت تجارة اللحوم، ولامتنع ذبح الخراف.

لقد كان بالأمس يورد اللحوم لمدام جورجيت. وهو اليوم يورد

اللحوم للأميرة ببا.. وربما للأمير عادل عمرو. وربما لحكومة جلالة الملك. وربما لجلالة الملك شخصياً.

واسترخى سلامة في مقعده وتصور أنه أصبح المورد الخاص لحضرة صاحب الجلالة.. يقدم لجلالة الملك كل أنواع اللحوم.. بذلك تصبح الثلاثمائة جنيه ثلاثة آلاف جنيه.

وتصور سلامة نفسه وقد ارتفع من سمسار من الدرجة الثانية متخصص في خدمة صغار الموظفين إلى سمسار من الدرجة الأولى متخصص في خدمة الملوك والأمراء.

وانتقلت خواطره إلى عبدالمنعم بيومي الذي سيؤدي الشهادة ضده. ترى هل هو طويل أم قصير؟ هل هو أسمر أم أشقر؟ صغير السن أم متقدم في العمر؟ كل هذه أسئلة اعتاد سلامة أن يسألها قبل أن يذبح الفتاة التي يقدمها لمدام جورجيت. ولكنه نسي أن يوجه هذه الأسئلة لببا.

لقد أنساه مبلغ الثلاثمائة جنيه أن يسأل عن أجوبة هذه الأسئلة الهامة التي اعتادت أن تمطره بها مدام جورجيت قبل قبول اللحم المعروض. وعزى سلامة نفسه بأن مدام جورجيت الجديدة التي سيورد لها هي الحكومة. والحكومة لا تدقق في التوريدات. من السهل أن تبيع الحكومة اللحم المغشوش، ولكن من الصعب أن يبيع نفس اللحم للأفراد الذين يعاينون اللحم ويشمونه قبل أن يذوقوه!

ولم يشعر سلامة بأنه ارتكب جريمة بشهادة الزور التي وقع عليها. لم يشعر أنه خرب بيتاً، أو يتم طفلة، أو رمل زوجة، أو ثكل أماً. إن تجار اللحوم لا يبكون على الخراف بعد الذبح. كم

من فتيات قدمهن سلامة إلى الموت، الموت الأدبي، دون أن يشعر بأي ألم تعذيب ضمير، دون أن يفكر في مصيرهن. . كل واحدة منهن كانت أشبه بهذه السيجارة التي يحرقها ليستمتع بدخانها.

إننا لا نبكي على السيجارة التي نحرقها، فلماذا نبكي على الأبرياء الذين نحرقهم، ثم نرميهم على الأرض بعد أن يتحولوا إلى «أعقاب»؟ إننا ندوس على «العقب» بأقدامنا، ونتضايق إذا لم يكتم حذاؤنا دخانه في المحاولة الأولى، كأننا نستكثر على السيجارة أن تحشرج بضع دقائق قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، بعد أن نقلناها من شفاهنا إلى تحت أقدامنا!

وعندما خطر «عقب» السيجارة على ذهن سلامة تذكر شقيق زوجته حسني الأزميري الذي سيذهب إليه الآن. إن الأزميري قصير مثل «عقب» السيجارة وهو كلما رآه أحس برغبة في أن يدوسه بقدمه كما يفعل مع عقب السيجارة، فالحقد الذي ملأ قلب الأزميري جعله يبدو كأنه يدخن باستمرار!

وبدأ سلامة يفكر فيما سيقوله للأزميري عن الإقرار الكاذب الذي سيطلب منه أن يوقعه بأنه تسلم منشوراً من الصاغ عبدالمنعم بيومي، يطعن فيه حكومة جلالة الملك. إنه واثق من أن الأزميري لن يرفض أن يؤدي شهادة الزور ما دام يثق أنها ستؤدي ضرراً بإنسان. . فهو يكره كل الناس. . ويحقد على كل الناس الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم.

إنه لن يذكر له اسم ببا بطبيعة الحال وهو لن يكتم هذا السر لأنه تعهد لببا أن يكتم اسمها، فإنه تعود أن لا يفي بتعهداته ولا يحترم كلمته. فهو يعتبر الكلمة المحترمة كالرجل المحترم، هو يكره

كل المحترمين لأنه غير محترم بحكم مهنته. في هذه المرة سوف يحترم كلمته، ليس لأن ببا ليست محترمة، بل حتى لا يعرف الأزميري من ببا قيمة الصفقة فيقاسمه فيها.

سيقول له فقط إن ضابط مباحث هو الذي عرض عليه الصفقة. لن يخبره بأن المبلغ المتفق عليه ثلاثمائة جنيه. سيخبره بأن المبلغ هو مائة جنيه فقط. له خمسون جنيها وللأزميري خمسون جنيهاً.

ثم عاد سلامة واستكثر مبلغ الخمسين جنيهاً على الأزميري. . إنه نشال. . فهل تتساوى ذمة النشال بذمة تاجر اللحوم مورد اللحوم لحضرة صاحب الجلالة الملك باعتبار ما سوف يكون؟

وبدا له أن يحتقر الأزميري فقرر أن ينقص قيمة الصفقة، وقرر أن ينقص المبلغ إلى ثلاثين جنيهاً، خمسة عشر جنيهاً له وخمسة عشر جنيهاً للأزميري. ثم أمعن في احتقار الأزميري لأنه نشال فاشل، فاستقر رأيه على أن يعرض عليه خمسة جنيهات فقط. خمسون قرشاً تدفع بعد كتابة الاقرار وجنيه يدفع بعد انتهاء التحقيق. وجنيه يدفع بعد انتهاء شهادته في المحكمة، ونصف الجنيه بعد صدور الحكم على عبدالمنعم بيومي.

واستراح سلامة إلى هذا العرض السخي. وأقنع نفسه بأنه كان كريماً مع شقيق زوجته عندما قرر أن يشتري ذمة نشال بخمسة جنيهات. وأقنع نفسه بأن الخمسة والتسعين جنيهاً التي سيسلبها من زوج شقيقته هي ربح حلال، هي سمسرة قانونية عن جدارة، لأن ببا هي زبونته، هي اكتشافه، هي حبيبته القديمة. إن الفكرة دائماً هي أغلى بضاعة في السوق!

ولم يحس سلامة بتأنيب الضمير لأنه سينصب على زوج شقيقته ويسلب منه خمسة وتسعين جنيهاً. إنها عملية تجارية شريفة. التاجر الشاطر هو من يشتري البضاعة بجنيه ويبيعها بمائة جنيه. كم من خادمات قدمهن إلى مدام جورجيت على أنهن بنات وزراء.. بيا نفسها قدمها لمدام جورجيت على أنها ابنة وزير العدل مع أن والدها كان حاجباً في وزارة العدل.

ثم لماذا لا ينصب على الأزميري شقيق زوجته؟ سبق للأزميري أن نصب عليه وهو النصاب القدير. كان ذلك منذ عامين عندما حكم على سلامة في قضية تحريض على الدعارة. والتقى في سجن مصر بالأزميري الذي كان محكوماً عليه بالسجن سنة في جريمة نشل. وأوهمه الأزميري بأنه حفيد الأزميري باشا المطالب بملكية أرض العتبة الخضراء التي يقدر ثمنها بمليون جنيه، وأطلعه على عدد من جريدة «الأهرام» جاء فيه أن الخبير الذي انتدبته محكمة مصر لتقدير قيمة أرض العتبة الخضراء قدرها في تقريره بأكثر من مليون جنيه، وأن أسرة الأزميري قدمت إلى المحكمة مستندات تثبت ملكيتها للأرض.

ولهذا وطد سلامة علاقته بمحمود حسني الأزميري، وقرر في أول الأمر أن يجعل منه زبوناً جديداً لبيت مدام جورجيت بعد أن يخرج من السجن ويتسلم نصيبه في المليون جنيه. ثم حدث أن عرف سلامة بعد ذلك أن الأزميري له أخت تشبه الراقصة بيا، وقال الأزميري أنها متزوجة من أحد كبار ضباط البوليس. وهنا وضع سلامة خطة ليطلق الأزميري أخته فهيمة من زوجها، ويتزوج هو منها، وبذلك يكون لسلامة نصيب في ثمن أرض ميراث العتبة الخضراء..

وبدأ سلامة بتنفيذ خطة النصب على الأزميري، فأوهمه بأنه ابن حلمي باشا الاسكندراني أحد كبار تجار الأقطان في الاسكندرية. وأوهمه بأن قضية التحريض على الدعارة التي حكم فيها عليه بالسجن سنة ليست قضية خلقية، وإنما هي قضية فلسفية. وادعى سلامة أنه درس الفلسفة في كلية الآداب، وخرج من دراسة الفلسفة بنظرية جديدة وهي أن الزواج لا يتفق مع الحرية في القرن العشرين.. وأنه ما دمنا وافقنا على تساوي المرأة مع الرجل في كل شيء، فيجب أن نزيل ما بقي من قيودها. وما دام الرجل ليس له غشاء بكارة فلماذا نلزم المرأة بأن تحتفظ بغشاء بكارة حتى تتزوج؟

إن تحرير المرأة يقتضي تحريرها من تقاليد القرون الماضية وأخلاقياتها.. هذه القيود التي فرضها الرجل في عهود الاستبداد والطغيان! إن أجدادنا أقاموا الأسوار في المدن من الغزاة والفاتحين، ثم جئنا نحن وأزلنا كل الأسوار، فلماذا لا نزيل الأسوار التي بنيناها حول المرأة وأطلقنا عليها اسم «الفضيلة»؟ فالفضيلة ترجمة مؤدبة لكلمة «الأنانية». أجدادنا الأنانيون فرضوها على النساء وسجنوهن في سجون اسمها الفضيلة. وما دمنا خلعنا الطربوش الذي يتمسك به أجدادنا ويجعلونه شعاراً لهم، وما دامت المرأة خلعت البرقع والحجاب، فيجب إذن أن تتحرر من قيود الفضيلة!!

وادعى سلامة أن البوليس ضبطه يبشر بفلسفته الجديدة مع إحدى الفتيات، فاتهمه بالتحريض على الدعارة، وهي تسمية ظالمة يطلقها الرجعيون على كل من ينادي بتحرير المرأة.. لقد أطلقوها على قاسم أمين عندما نادى بتحرير المرأة، وضربوه بالطوب، واتهموه بالتحريض على الدعارة، لأنه نادى بسفور المرأة.. الفرق بين سلامة وبين قاسم أمين أن قاسم أمين نادى بسفور المرأة من

الخارج، وسلامة ينادي بتحرير المرأة من الداخل!

واعتمد سلامة على غباء محمود حسني الأزميري فاخترع أسماء عشرات الخواجات قال للأزميري أنهم كبار فلاسفة اليونان الذين سبقوه ونادوا بهذه النظرية، فأقيمت لهم تماثيل فينوس إلهة الجمال!

وبهرت النظرية الحيوانية الأزميري، واعتقد أن أسماء الخواجات التي يرددها سلامة هي أسماء فلاسفة حقيقيين، ولم يعرف أنها أسماء جرسونات في الكباريهات التي عمل فيها سلامة جرسوناً في وقت من الأوقات!

واعتقد الأزميري أن سلامة هو فيلسوف ابن مليونير.. وقد لاحظ من تجربته في النشل أن كل فيلسوف أو أستاذ في الجامعة نشل له محفظة وجدها فارغة ليس فيها إلا بضعة قروش، مما جعله يعتقد أن كل فيلسوف مفلس، وكل جاهل مليونير. ولكن الأزميري وجد نفسه يلتقي لأول مرة في حياته برجل جمع بين لقب الفيلسوف ولقب المليونير، ولهذا قرر أن ينصب على سلامة!

وهكذا وافق الأزميري أن يطلق أخته فهيمة من زوجها الذي قال إنه أحد كبار رجال البوليس، ووافق أن يزوجها للفيلسوف سلامة الاسكندراني ابن حلمي باشا الاسكندراني أحد أصحاب الملايين.

وبعد أن خرج النصابان من السجن عقد سلامة زواجه على فهيمة. وتصور سلامة أنه نصب على الأزميري. وتصور الأزميري أنه نصب على سلامة!

وأصبح سلامة ينادي فهيمة باسم «فافيت» باعتباره اسم يليق

بأصحاب الملايين، ورزق منها بولد اسماه «أفلاطون» تيمناً باسم الفيلسوف أفلاطون تلميذ سقراط!

ثم اكتشف سلامة بعد الزواج أن صديقه الأزميري نصب عليه أكثر مما نصب هو على الأزميري. فإن فهيمة لم تكن متزوجة من أحد كبار ضباط البوليس، بل كانت متزوجة من عسكري بوليس. وقد زوجها الأزميري لهذا العسكري بالذات لأنه كان عسكري داورية في شارع عماد الدين، وهي منطقة نفوذ الأزميري التي كان يقوم بعملية النشل فيها. وعندما نقل العسكري من شارع عماد الدين إلى عسكري مطافىء، أصبح زواجه من أخته فهيمة غير ذي موضوع.. وهذا هو السبب الحقيقي للطلاق!

ثم اكتشف سلامة الكارثة الكبرى وهي أن محمود حسني الأزميري ليس حفيد الأزميري باشا صاحب أرض منطقة القبة الخضراء، ولا قريبه، ولا نسيبه، ولا من مدينة أزمير التي جاء منها الأزميري باشا!

ثم حكمت محكمة مصر برفض دعوى أحفاد الأزميري باشا نفسه، فقد تبين للمحكمة أنهم نصابون، وأن الأزميري باشا هذا كان باش آغا الخديوي اسماعيل، وأهداه الأرض. ولم يرزق الأزميري باشا أولاداً ولا بنات ولا أحفاداً، لسبب بسيط هو أن الأغوات لا يتزوجون ولا يلدون.. وقبض البوليس على الأحفاد النصابين وقدمهم إلى محكمة الجنايات بتهمة تلفيق مستندات والنصب والاحتيال!

وأراد سلامة أن يطلق فهيمة لأن شقيقها باعه بضاعة مغشوشة، ولكن الأزميري كان قد اكتشف هو الآخر أن سلامة نصب عليه،

وأنه ليس فيلسوفاً له نظرية جديدة في تحرير المرأة فهو ليس ابن حلمي باشا الاسكندراني تاجر الأقطان، إن كل صلته باسم «حلمي» أنه عمل جرسوناً في صالة صفية وكل صلته «بالاسكندراني» أنه من أهل الاسكندرية وكل صلته بالفلسفة أن أحد زبائنه ابن مدام جورجيت كان معيداً بقسم الفلسفة بكلية الآداب وزاد الطين بلة أن الأزميري اكتشف أن مبلغ الخمسة جنيهات التي دفعها مهراً مقدماً لشقيقته فهيمة كانت ورقة مزيفة.

لهذا اتفق النصابان على أنهما أصبحا خالصين وليس بين النصابين حساب.

وتظاهر كل منهما أنه رضي بنصيبه من الصفقة الخاسرة، وبقي سلامة يحقد على الأزميري ويعتقد أنه المغلوب في هذه الصفقة. وعندما قرر أن ينصب عليه في الصفقة الجديدة اختلق قصة بإقرار شهادة الزور باتهام الصاغ عبدالمنعم بيومي بطبع منشورات، كان يقنع نفسه بأن المبلغ الذي يسرقه منه يقتطعه من الخسارة التي لحقت به من زواجه من فهيمة. وسأل سلامة نفسه: هل غطى خسارته بهذه العملية؟

فأجاب على سؤاله بأن حساب الأزميري لا يزال مديناً وبرقت عينا سلامة. فقد خطرت بباله فكرة عبقرية لم تخطر له من قبل: لماذا لا يستغل الشبه الذي بين زوجته فهيمة وبين الأميرة ببا؟!

لماذا يبقى تاجر لحوم بالقطاعي؟ لماذا لا يصبح تاجر لحوم بالجملة مثل مدام جورجيت؟ لماذا لا يستأجر شقة مثل شقة مدام جورجيت؟ ثم يقدم زوجته للزبائن على أنها الأميرة ببا؟

لماذا لا يستفيد من الشبه الذي بين زوجته والأميرة ببا.

إن العمد والأعيان يسرهم أن يمضوا الليل مع إحدى أميرات أسرة محمد علي!

إنهم أولاد وأحفاد الذين ضربتهم أسرة محمد علي بالسياط، ووضعتهم فوق الخوازيق، وربطتهم في ذيول الخيول!

سوف يشعر الواحد منهم بنشوة وهو يرد التحية لأسرة محمد علي في شخص الأميرة ببا. سيرفع الأسعار بطبيعة الحال حتى تتناسب مع سعر الأميرات.. لقد سبق وخدع الزبائن بأن ببا هي ابنة وزير العدل، فلماذا لا يخدع الزبائن بأن فهيمة هي الأميرة ببا زوجة الأمير عادل عمرو أكبر أمير في الدولة بعد الملك؟

إن جلالة الملك نفسه قد يصبح زبوناً له، فهو لا شك يسره أن يتذوق الأميرة ببا حتى يطمئن على ذوق رعاياه المخلصين من أصحاب السمو الأمراء..

وأحس سلامة بأنه يطير بجناحين من السعادة.. إنه بضربة واحدة انتقم من صديقه الأزميري الذي نصب عليه.. وانتقم من مدام جورجيت التي طردته من العمل عندما اكتشفت ان ابنة الباشا التي قدمها لها هي غسالة في حي بولاق.. وانتقم من ببا التي نسيت العيش والملح ولم تعطه سوى جنيهين اثنين.. وانتقم من زبائنه المغفلين الذين أصبحوا يدققون في البضاعة ويتهمونه دائماً بأنه نصاب ومحتال!

وتلفت سلامة إلى الشارع الذي يمر به الترام، وفوجىء بأن الترام قد فات المحطة القريبة من بيت الأزميري بثلاث محطات،

فأسرع يقفز من الترام ويمضي بخطوات سريعة عائداً إلى الشارع الذي يقصده، وهو يصفر بفمه أغنية عبدالوهاب التي تقول «يا وابور قوللي رايح على فين». .

□□□

عندما عرض سلامة على الأزميري شقيق زوجته شهادة الزور لم يتحمس الأزميري للصفقة وقال:

ـ أنا رجل شريف. . لا يمكن أن أؤدي شهادة زور بخمسة جنيهات!

وفهم سلامة أن الأزميري يتظاهر بالرفض، حتى يرفع المبلغ، فسكت ولم يحاول إقناع الأزميري وتظاهر بأنه مشغول في إشعال سيجارة.

ورأى الأزميري علبة السجائر «كرافن» في يد سلامة، فمد يده وأخذ منها سيجارة وأشعلها ثم قال:

ـ أما إذا كان المبلغ عشرة جنيهات. . فهذه مسألة أخرى!

قال سلامة بغير مبالاة:

ـ لك الحق. لقد تصورت أنك سترحب بالصفقة، لأننا في أواخر الشهر ومحافظ الموظفين التي يمكن أن تنشلها الآن لن تجد فيها إلا إيصالات وكمبيالات. . ثم إن شهادة الزور سوف تخرب بيت عبدالمنعم بيومي. . وأنا أعرف أنك تجد لذة في خراب البيوت. . وأنت مستعد أن تخرب أي بيت لله. . دون أن تنتظر جزاءً ولا شكورا!

وضحك الأزميري، لأنه فعلاً يهوى خراب البيوت وقال:

ـ ولكن. . ألا يمكن رفع المبلغ إلى سبعة جنيهات مثلاً؟.

قال سلامة:

ـ إننا نعامل الحكومة، ولا نعامل الأفراد. . أسعار الحكومة محددة مثل ورقة البوسطة. . خمسة جنيهات تعني خمسة جنيهات. . هذه تسعيرة شهادة الزور في الحكومة!

ودمدم الأزميري وقال في احتجاج:

ـ خمسة جنيهات فقط ثمن شهادة زور؟! هذا مستحيل. . هذا يسيء إلى سمعتي. . ستة جنيهات؟ ربما تجعلني أفكر!

وسكت الأزميري وقال بصوت لاهث:

ـ ألم تقل لهم إنني لست نشالاً عادياً، إنني رئيس نقابة النشالين؟

وضحك سلامة وقال:

ـ لا. . لم أقل إنك رئيس نقابة النشالين، لأن الحكومة تعرف أن ليس هناك نقابة نشالين، وأنك أنت رئيس وسكرتير وأعضاء هذه النقابة.

قال الأزميري محتجاً:

ـ أنا زعيم النشالين بلا منازع. . إنني معترف بي دولياً. كل نقابات النشالين في العالم تتصل بي. . وهذه اتصالات سرية بطبيعة الحال ولا يمكن أن تعرف بها الحكومة!

وقهقه سلامة كأنه يسمع نكتة وقال:

ـ كويسة!

وامتقع وجه الأزميري وقال:

ـ إنك دائماً تحاول أن تحط من قدري.. أنا لست نشالاً عادياً، أنا نشال سياسي.. كل عملية نشل قمت بها لها هدف سياسي.. وراءها فكرة اجتماعية، أدبية، علمية، وطنية، اقتصادية.. كل شيء بتخطيط!

وضحك سلامة وقال له:

ـ هذا كلام أنا علمتك إياه.. لقد أردنا أن ننصب به فانكشفنا.. عندما نشلت محفظة نائب سعدي كتبت للنحاس باشا من السجن تقول له إنك لست مجرماً عادياً، وإنما مجرم سياسي.. وإنك نشلت محفظة النائب السعدي لمعارضتك لحكومة السعديين، وإنك تأمل من حكومة الوفد أن تطبق عليك قانون العفو على المجرمين السياسيين.. وعندما قبض عليك البوليس بعد نشل محفظة الاستاذ عباس العقاد، كتبت إلى الملك فاروق تقول إنك نشلت محفظة العقاد لأنه هاجم والده الملك فؤاد في البرلمان.. ولكن، لا النحاس باشا عفا عنك ولا الملك أفرج عنك، وقد اعتبر ضباط السجن هذه الالتماسات نكاتاً ونوادر يضحكون عليها، فلا يجوز أن تجيء الآن وتبيعني الخمر المغشوشة التي أعطيتك إياها لتبيعها للمغفلين!

وتمتم الأزميري بصوت خافت:

ـ إنني مقتنع بنظريتك بأن «نسيس» كل شيء.. نحول كل شيء نرتكبه إلى سياسة حتى نعطيه صفة الاحترام.. ولهذا، فأنا موافق

على أن أوقع الإقرار على أساس أن تعرف الحكومة أنني أتقدم بالشهادة إخلاصاً مني لجلالة الملك وولاء لعرشه وكشفاً لأعدائه!

قال:

ـ معنى هذا أن تكتب الإقرار مجاناً.. ولا تأخذ الخمسة جنيهات!

وقفز الأزميري من مقعده وقال:

ـ لا.. آخذ الخمسة جنيه.. ونحول شهادة الزور إلى عمل سياسي في الوقت نفسه.. إنني أصبحت مقتنعاً بأنني، بعمليات النشل، أقوم بعمل سياسي هام.. فعندما أنشل محفظة تاجر، فإنني أفعل ذلك احتجاجاً باسم الكادحين على الغلاء.. وعندما أنشل محفظة موظف، فإنني أنشله احتجاجاً على الروتين الحكومي والبيروقراطية.. وعندما أنشل محفظة أحد الأعيان فهي طريقتي في مقاومة الإقطاع.

قال سلامة وهو يضحك ساخراً:

ـ ولكن أقلية ضئيلة جداً من الذين تنشلهم من التجار والأعيان وكبار الموظفين.. إن أغلبية المحافظ التي أجدها معك هي محافظ موظفين صغار أو عمال مساكين!

ووضع الأزميري يده في جيبه كما يفعل الزعماء وقال:

ـ هذا مقصود أيضاً ومدروس، وله تخطيط سابق.. إنني أنشل محافظ هؤلاء الصغار احتجاجاً على قلة الإنتاج.. إن الإنتاج هو الطريق الوحيد للرخاء!

قال سلامة هو يمسك ورقة وقلماً ويقدمها للأزميري:

ـ المهم الآن أن تنتج شهادة الزور.. لتقبض الخمسين قرشاً..

قال الأزميري محتجاً:

ـ هذه ليست شهادة زور.. إنها تحالف مرحلي بين نشال.. الدولة نشال مثلي.. الفرق بيني وبينها أنها تنشل الناس بالقانون، وأنا أنشلهم بلا قانون.. الدولة تضع يدها في جيوب الناس، وأنا أضع يدي في جيوب الناس.. يد الدولة قصيرة ولهذا لا تصل إلا إلى الفقراء ومتوسطي الحال، ويفلت منها الأغنياء وأصحاب الملايين، وأنا يدي قصيرة لا تستطيع أن تصل إلا إلى جيوب المساكين الذين يمشون على أقدامهم، ويركبون الترام.. أما الذين يركبون السيارات الفاخرة المتخمون بالأموال، فلا تطولهم يدي..

فحكومة جلالة الملك نشالة مثلي، ونصابة مثلك!

وهز سلامة رأسه موافقاً وهو يقول:

ـ نصابة فعلاً.. خطبة العرش مثلاً هي عملية نصب.. خطب الزعماء هي عملية نصب.. قرار مجلس الجامعة العربية رداً على إنشاء دولة إسرائيل بأن تطلق الإذاعات العربية والصحف العربية على إسرائيل اسم «إسرائيل المزعومة» عملية نصب على الشعب العربي.. ولكن الناس يحترمون النصاب الكبير ويحتقرون النصاب الصغير.. النصاب الكبير يتولى الحكم والنصاب الصغير يوضع في السجن!

قال الأزميري وقد وضع يده في جيبه من جديد دليلاً على أهميته:

ـ هذا هو السبب الذي من أجله أصر على أن نحول عملية شهادة الزور إلى عملية كبيرة.. عملية محترمة.. عملية ترد لي اعتباري في المجتمع!

قال سلامة ساخراً:

ـ وماذا تريد أن تفعل؟ أتريد أن أطلب من الملك أن يدعوك إلى حفلات القصر الرسمية لتنشل جيوب المدعوين، وتقتسم الأرباح بالنصف مع الملك؟ إن للملك حلاقاً خاصاً ومصوراً خاصاً وخياطاً خاصاً.. فلماذا لا تكون أنت النشال الخاص لجلالة الملك؟ ولكن أحذرك.. فالملوك الذين مثل فاروق لا يقبلون أن يقتسموا الغنيمة مع رعاياهم.. إنهم يأخذون الغنيمة لأنفسهم ويمنحون الذين شقوا في الحصول عليها ألقاباً على الورق!

قال الأزميري:

ـ لا أقصد هذا.. أقصد أنه من الممكن «تسييس» شهادة الزور.. ما هو الغرض من شهادتي زور على عبدالمنعم بيومي؟ الغرض إرهاب الذين يطبعون منشورات ضد الملك.. ولكن ممكن أن نستغل هذه الشهادة ونطلب من الملك أن يصدر أمره لقسم مكافحة النشل في المحافظة بأن يخف يده عني.. يمنحني الملك حرية النشل.. وأنا قادر بهذه الطريقة على أن أقضي على المنشورات التي توزع ضد الملك.. إن الذي يحصل على مثل هذا المنشور يخفيه عادة في محفظة نقوده.. فإذا أبيحت حرية النشل، فسوف تقع في يدي محافظ كثيرة فيها منشورات وفيها أسماء أصحاب المحافظ.. وبذلك تستطيع الدولة أن تضع يدها بسهولة على الذين يطبعون منشورات ضد الملك ورجاله، بغير حاجة لأن تلفق قضايا

وتدفع خمسات الجنيهات لكل شاهد زور. إنني لا أفكر بهذا الاقتراح لمصلحتي.. إنني أفكر في المصلحة العامة مصلحة جلالة الملك!

وتأمل سلامة شقيق زوجته وساءل نفسه: هل هو مجنون أم أفاق؟ ربما كان مجنوناً وأفاقاً معاً.. ربما كان نصاباً ساذجاً، مثل ذلك النصاب القروي الذي يتصور أنه قادر أن يخدع أهل المدينة الخبثاء..

وشعر سلامة بأن الأزميري في حالة سذاجة تدفعه لأن ينصب عليه من جديد.. إن في بعض الناس جاذبية سذاجة.. وجوههم تنادي النصاب الذكي كي يخدعهم.. تلح عليه أن يضحك منهم..

وتظاهر سلامة بالإعجاب بالفكرة العبقرية التي تراود النصاب الريفي، وقال له:

ـ إنني أعترف بأنك عبقري فعلاً.. الآن عليك توقيع الإقرار.. ثم بعد ذلك سأعرض فكرتك على ضابط المباحث الذي كلفني بالمهمة.. وسوف يعرضها على جلالة الملك وأعتقد أن الملك لا بد أن يقدر وفاءك وإخلاصك وتضحيتك.. وممكن أن تطلب في الوقت نفسه القبض على جميع النشالين الآخرين، وترشد عنهم البوليس، بحيث تحتكر وحدك حق النشل السياسي في مدينة القاهرة!

وانتفخ الأزميري في مقعده، وأحس فعلاً بأنه عبقري.

وأصيب بحالة من الغرور. وعندما يصاب الإنسان بالغرور

يصبح ألعوبة في يد أي نصاب خبيث. إن الغرور يفقدنا توازننا فنسقط في أي فخ ينصب تحت أقدامنا، لأن عيون المغرور تكون عادة متعلقة في السماء..

وسارع سلامة ينتهز الفرصة ليقول:

ـ ولكن، لنفرض أن جلالة الملك كان ناكراً.. استفاد من شهادة الزور دون أن يعطيك امتياز حق النشل السياسي في مدينة القاهرة.. في هذه الحالة يجب أن ننتقم من الملك.. يجب أن نمرغ رأسه في التراب.. حتى يعرف قيمتك ويسارع إلى الاتفاق معك.. لقد خطر ببالي أن أقدم تضحية من أجلك.. من أجل أن ترغم الملك على الاتفاق معك.. إن زوجتي فهيمة تشبه إحدى أميرات الأسرة المالكة.. ممكن أن أقدمها للزبائن بهذا الاعتبار.. وبهذا نلوث سمعة الملك وسمعة أسرة محمد علي كلها.. ونطبع منشورات تقول فيها إن إحدى أميرات أسرة محمد علي تحترف الدعارة.. ثم نعرض على الملك أن نضبط المنشورات التي طبعناها بعد أن نساومه على مبلغ محترم يدفعه، وعلى أن يمنحك امتياز حق النشل السياسي في مدينة القاهرة. إنها فرصتك الذهبية لتنتقم من المعلم «دقدق» والمعلم «عطوة» والمعلم «دكشة» الذين يسيطرون على أهم مناطق النشل في المدينة!

وسكت الأزميري كأنه فوجىء بالاقتراح.. إنه ضحى بأخته مرة من أجل أن يحتكر النشل في شارع واحد، فما المانع بأن يضحي بها مرة أخرى ليحتكر النشل في مصر كلها؟

وأقنع نفسه بأنه لا يرتكب جريمة أخلاقية.. إنه صراع سياسي.. صراع أيديولوجي.. صراع من أجل أن ينتزع للنشال

الصغير حقه من النشال الكبير.

لقد سمع مرة المعلم الفيشاوي يقول إن كل الأسلحة مباحة في الحرب والحب والسياسة.. وقد كان يعتبر المعلم الفيشاوي، صاحب قهوة الفيشاوي، حجة في السياسة.. فقد كان يقرأ الصحف بانتظام، وكان صديقاً لنائب دائرة الجمالية.. ولا بد أن سلامة سمع رأي المعلم الفيشاوي، فقد كان يجلس معه باستمرار في هذه القهوة، وما دام سلامة قام بهذه التضحية النبيلة من أجل الفكرة، فلماذا لا يرد على التضحية بمثلها؟ ما دام سلامة وافق على أن يضحي بزوجته، فلماذا لا يوافق على أن يضحي بشقيقته؟

وعندما وصل الأزميري إلى هذا القرار قال:

ـ موافق.. أنا تفرجت في السينما على فيلم جان دارك التي حرقوها من أجل حرية فرنسا.. فلماذا لا تكون فهيمة جان دارك جديدة؟

وابتسم سلامة.. فقد كان ما يهمه أن يحصل على تصريح الدفن من شقيق زوجته.. فإن فهيمة كانت تحب شقيقها الأزميري ولا تخفي عنه أي شيء.. أما وقد حصل على تصريح الدفن، فإن عملية ذبح فهيمة أصبحت عملية سهلة.. بعد أن يقبض الثلاثمائة جنيه!

ووقع الأزميري على الإقرار بأن عبدالمنعم بيومي قدم له منشوراً فيه طعن بحكومة جلالة الملك.

وأخرج سلامة من جيبه خمسين قرشاً وأعطاها للأزميري الذي أحصاها بدقة، وتأمل كل ورقة من ذات الخمسة قروش بعناية.

فقد تعلم درساً من الخمسة جنيهات المزيفة التي دفعها سلامة مهراً لشقيقته..

وبعد أن تأكد أن النقود سليمة، دسها في جيبه وهو يقول في استخفاف:

ـ عبدالمنعم بيومي فقط هو الذي سيذهب في داهية!؟ كنت مستعداً أن أوقع شهادة ضد عشرة.. ضد مائة.. ضد ألف.. فلماذا لا تعرض على صاحبك ضابط المباحث أن يزيد عدد الأشخاص الذين نشهد ضدهم؟. لماذا لا تقول له إننا على استعداد لأن نتساهل في سعر المتهمين إذا كانوا بالجملة.. ونقبل سعراً للمتهم أقل من سعره بالقطاعي؟!

وطوى سلامة الإقرار بهدوء ووضعه بعناية في جيب بنطلونه في الناحية الأخرى البعيدة عن الأزميري، حتى يطمئن إلى أن الأزميري لن ينشل الإقرار.

ثم تذكر أنه جائع، ووقف بسرعة، وصافح سلامة بسرعة، وخرج من الباب، واتجه إلى محل كباب العتبة الخضراء.. وطلب رطلين من اللحم، ورطلاً من الكبد والكلاوي وسلطة طحينة وسلطة طماطم، وثلاثة أرغفة..

وراح يأكلها بنهم.. ثم ابتسم وقال:

.. الله.. طعم عبدالمنعم بيومي.. لذيذ فعلاً!

□□□

في الموعد المحدد من اليوم التالي، كان سلامة يجلس مع ببا ويقدم لها الإقرار بخط الأزميري..

وسلمته ببا صورة للصاغ عبدالمنعم بيومي، ليسهل عليه وعلى شقيق زوجته التعرف عليه إذا قدم المحقق عرضاً للتعرف على عبدالمنعم.. ثم سلمته نسختين من المنشور المضبوط..

وأخبرته ببا أنه عندما يعود إلى بيته سيجد طلباً من المحقق لأن يذهب في صباح الغد لمقابلة البكباشي حامد بك السيوفي للإدلاء بأقواله في التحقيق.

وطلب سلامة منها جنيهاً على حساب شهادة الأزميري فقالت له ببا:

ـ غداً ستؤدي الشهادة في التحقيق.. وفي المساء تجيء إلى هنا وتأخذ الخمسين جنيهاً التي وعدتك بها!

وقال سلامة:

ـ ولكني الآن في حاجة إلى جنيه.. سأذهب إلى التحقيق راكباً تاكسي وسوف أستأجر بدلة تناسب التحقيق..

وأعطته ببا الجنيه، وهي تقول له:

ـ سأعطيك غداً تسعة وأربعين جنيهاً!

وأحس سلامة بأنه يلعنها في قرارة نفسه.. وأحس بسعادة أنه سينتقم منها عندما يقدم زوجته فهيمة إلى الزبائن باعتبارها الأميرة ببا..

وعندما غادر ببا لم يتجه إلى محطة الترام كما فعل في اليوم السابق، بل وقف على الرصيف وراح ينادي:

ـ تاكسي.. تاكسي..!

ـ ٣٦ ـ

صدر الأمر الملكي الكريم بتشكيل المحكمة العسكرية العليا التي ستحاكم الصاغ عبدالمنعم بيومي بتهمة الخيانة العظمى!

وتألفت المحكمة برياسة اللواء سعدون باشا، وعضوية اللواء حماد باشا واللواء عباس الشمردلي باشا، على أن يقوم البكباشي حامد بك السيوفي بالادعاء العسكري.

ولم يكن الملك هو الذي شكل هذه المحكمة الغريبة لمحاكمة البريء الشاب ولا هو الذي اختار أشخاص أعضائها بين القواد العظام.. كانت ببا هي صاحبة الجلالة الحقيقية، هي الحاكمة بأمرها، تذل من تشاء وترفع من تشاء، وتقدم إلى المحكمة من تشاء!

اختارت ببا بنفسها، أعضاء المحكمة من شلتها التي تسهر معها في بيت الهرم مع الأمير. وأملت أسماء القضاة على زوجها الأمير عادل، وكتب الأمير أسماءهم في مذكرة رفعها إلى الملك. وكل ما فعله الملك أنه وضع على المذكرة عبارة «صح». وعلى الفور صدر الأمر الملكي الكريم، وعليه خاتم الملك!

وهكذا اختارت ببا المتهم الذي يحاكم بتهمة توزيع منشورات فيها إشارة إليها. واختارت شهود الزور الذين يشهدون ضده، واختارت المدعي العسكري الذي يحقق معه، واختارت المحكمة التي ستحكم عليه. فالظالم يجزع أكثر مما يخاف المظلوم. يقيد البريء بالسلاسل ثم يرتجف منه، يضع الكمامات على فمه فإذا بصمت البريء يصم أذنيه..

كانت ببا لا تثق بأحد، ولا تطمئن إلى أحد. تريد أن لا تترك ثغرة في ظلمها تنفذ منها العدالة، فكلما اعتقد الظالم ببراءة ضحيته لا يؤنبه ضميره، وإنما يمضي في نقمته، ويمعن في جبروته.. المجرم ينكس رأسه أمام الحاكم. والبريء يرفع رأسه في مواجهة الظالم. والطغاة الصغار والكبار لا يطيقون رؤوساً ترفع أمامهم ولهذا يسارعون إلى قطعها.

وكانت شهوة الانتقام من عبدالمنعم تسيطر على ببا. إنها تكرهه لأنه اعترض على غرام الأمير بببا، وتكرهه لأنها تصورت أنه طبع المنشورات التي تشير إلى علاقتها بالأمير. تصورت في طغيانها الأعمى أن عبدالمنعم هو الرجل الوحيد في مصر الذي يلعن علاقتها بالأمير فقررت أن تسكته إلى الأبد..

ولهذا حرصت على أن يتولى عشيقها فوزي صلاح الدين تقديم الأدلة، ويتولى محسوبها حامد بك السيوفي التحقيق، ويكون رئيس المحكمة اللواء سعدون باشا زوج شقيقتها كوكو، ويكون عضو اليسار الشمردلي باشا زوج أمها زليخا هانم، ويكون عضو اليمين حامد باشا أحد ندمائها في سهرات بيت الهرم.

وهكذا ضمنت أن يكون أعضاء المحكمة طوع إرادتها. تحركهم بأصابعها، وتملي عليهم الحكم الذي تريد..

وفوجىء عبدالمنعم بيومي في زنزانته بعريضة الاتهام، وبتحديد موعد المحاكمة بعد ثمان وأربعين ساعة من إبلاغه قرار الاتهام. ومن طبيعة العدل أن يجيء بطيئاً، راكباً سلحفاة، أما الظلم فيجيء سريعاً، راكباً نفاثة، ولهذا فإنك تستطيع أن تعرف هل الحكم ظالم أم عادل من قياس سرعته، بغير حاجة أن تقرأ ملف

الدعوى، وبغير حاجة لمناقشة الشهود. الأحكام السريعة تجيء دائماً ظالمة ولو نطق بها أعدل القضاة!

وجلس عبدالمنعم يقرأ التهم الموجهة إليه. قرأها عدة مرات دون أن يفهمها، كأنها ليست مكتوبة باللغة العربية.

وصدرت في اليوم التالي الصحف وفيها عناوين عن القضية الخطيرة والاعترافات المثيرة. وحصل عبدالمنعم على نسخة من إحدى هذه الصحف. هربها له أحد الحراس. وراح يقرأ البيانات التي أوعزت بها إدارة الشؤون العامة للصحف. ولم يصدق عينيه، كانت مجموعة من الأكاذيب والتلفيقات والمخترعات ثم تفصيلات واسعة عن الجهود الجبارة التي بذلها فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام، الذي استطاع بكفاءته وعبقريته وخبرته ودهائه أن يتبع آثار الأقدام والبصمات، ويجمع الخيوط المتناثرة من التحريات، ويدبر الكمائن، ويضع الخطط الجهنمية، حتى استطاع أن يوقع في قبضته المجرم الأثيم عبدالمنعم بيومي، ذلك المجرم الخطير الذي تفنن في تضليل السلطات وتضليل البوليس وخداع المباحث، ولكن عين سعادة فوزي بك صلاح الدين الساهرة على الأمن. قطعت على المجرم الأثيم الطريق، وأوقعته في الشرك الذي نصبه له، وسلمه فوزي بك إلى العدالة للاقتصاص منه جزاء جريمته ضد الله والملك والوطن!

وتوقف عبدالمنعم قليلاً عند كلمات «الله والملك والوطن». استلفت نظره نظام البروتوكول والأسبقية في هذه الكلمات الثلاث. لقد كان ترتيبها في أول الأمر هي «الله والوطن والملك»... ثم رأى المنافقون وعلى رأسهم سعدون باشا أن يقدموا الملك على الوطن فجعلوا شعار الجيش «الله والملك والوطن».

عندما يبدأ الحاكم في حكمه يذكر الله أولاً، ثم الوطن، ثم شخصه أخيراً وبعد أن يتمكن في حكمه يصبح طاغية صغيراً ويشعر أنه هو الوطن. والإخلاص له هو إخلاص للوطن، والخروج عليه هو خروج عن الوطن.

وعندما يتحول من طاغية صغير إلى طاغية كبير، يبدأ بالشعور بأنه أهم من الوطن. جرح الوطن لا قيمة له وجرحه هو كارثة. بقاء الوطن ليس هدفه الأسمى، وإنما الهدف الأسمى هو بقاؤه في مقعد الحكم والسلطان.

وعندما يتحول الطاغية الكبير إلى طاغوت يشعر أنه إله.. ويبدأ في البطش بمن يعبدون الله. فهو لا يريد له شريكاً حتى ولو كان هذا الشريك هو رب السموات!

ومضى عبدالمنعم يقرأ ما كتبته الصحيفة على لسان إدارة الشؤون العامة، وكأنه يقرأ قصة بوليسية في إحدى روايات الجيب. واستمتع بقراءة القصة البوليسية لأن كل وقائعها كانت جديدة عليه، وكأنه يقرأ قضية أخرى لا علاقة له بها!

ولم يكن عبدالمنعم يعرف أن ببا لعبت الدور الأول في كتابة هذه القصة المثيرة المتعة التي وزعتها إدارة الشؤون العامة على الصحف. كانت ببا مهتمة بأن تهيىء الرأي العام لهذه المحكمة، فأقنعت الأمير عادل عمرو بتعيين صديقها سامي عبدالله سامي كاتب السيناريو محرراً في إدارة الشؤون العامة بمرتب مائة جنيه في الشهر، وطلبت أن يكلف سامي بكتابة القصة التي توزعها الإدارة عن القضية على الصحف، لأنه خبير بما يعجب الجماهير بحكم خبرته في كتابة قصص السينما الشعبية!

وكتب سامي القصة على طريقة السيناريو، وأسند إلى فوزي بك صلاح الدين دور البطل «الشجيع» الذي اعتاد أن يقوم به أنور وجدي ممثل أدوار الفتى الأول في الأفلام، وأسند إلى عبدالمنعم بيومي دور المجرم الشرير الذي اعتاد أن يقوم به محمود المليجي.. أما دور الفتاة البريئة، المظلومة، الشريفة التي اعتادت أن تقوم به الممثلة فاتن حمامة فقد أسنده إلى القيادة؟

وهكذا يجيء الفتى الأول فوزي بك، صلاح الدين وينقذ الفتاة البريئة القيادة، من طعنات المجرم الأثيم عبدالمنعم بيومي!

ووجد عبدالمنعم بيومي نفسه غارقاً في الضحك وهو يقرأ هذا السيناريو العجيب وخطر بباله وهو يقارن بينه وبين قصص الأفلام التي شاهدها، أن كل فيلم فيه ثلاثي مرح مثل سليمان نجيب وبشارة واكيم وحسن فايق أبطال الكوميديا في تلك الأيام، مهمتهم إضحاك الجماهير أثناء الفترات التي لا تمتلىء فيها الشاشة بدموع فاتن حمامة!

وفكر عبدالمنعم بمن يا ترى يقوم بدور الثلاثي المرح في قصته، وتذكر قضاته الثلاثة، فأغرق في الضحك!



قرأت بثينة في الصحف أنباء تقديم زوجها إلى المحاكمة بتهمة ارتكابه جريمة الخيانة العظمى.

أسرعت إلى السجن تحاول مقابلته لتتفق معه على توكيل محام. رفض مدير السجن أن يسمح لها بلقاء زوجها الذي لم تره منذ القبض عليه. قال مدير السجن إن الأوامر المشددة منعت السماح له بمقابلة أحد، ومنعت بأن يوكل محامياً، وقالت السلطات إنها ستنتدب محامياً للدفاع عنه!

وأسرعت بثينة إلى جريدة «آخر الأخبار» وطلبت مقابلة رئيس تحريرها الأستاذ درويش مخلص المحامي، وطلبت إليه أن يتولى الدفاع عن زوجها. وقال درويش لها: إن المحاكمة ستبدأ في اليوم التالي، ولا تكفيني ٢٤ ساعة لقراءة القضية، والاستعداد للمرافعة. وبكت بثينة وقالت له: إن القضية ملفقة، وإنها تقف وحدها أمام الدولة كلها!

وتأثر درويش من دموع بثينة وقبل أن يتولى الدفاع.

وعرضت بثينة عليه الأسوارة المرصعة التي في يدها. خلعتها والدموع في عينيها وقالت:

ـ هذه الأسوارة هي «شبكة» عبدالمنعم لي يوم زواجي.. أرجو أن تقبلها كمقدم أتعاب...

واغرورقت عينا الأستاذ درويش بالدموع ورد السوار وهو يقول:

ـ إن واجبي أن أدافع عن زوجك مجاناً. كان واجبي كصحافي أن أدافع عنه في جريدتي. ولكن الأمر صدر بحظر نشر أي شيء عن القضية إلا إذا جاء من إدارة الشؤون العامة. وما دمت لم أستطع أن أدافع عنه كصحافي، فواجبي أن أدافع عنه كمحام..

وأحست بثينة في هذه اللحظة، ولأول مرة منذ القبض على زوجها، أنها ليست وحدها، أن الله معها!

وأسرع الأستاذ درويش إلى مكتب حامد بك السيوفي ليتسلم منه ملف الدعوى. ولاحظ أن المدعي العسكري يتلكأ في استقباله.

وعندما دخل درويش إلى مكتب السيوفي بك صافحه السيوفي بك بحرارة ثم قال:

ـ إنك يا درويش بك لست محامياً عادياً، إنك عضو في مجلس النواب، ورئيس تحرير جريدة كبيرة، وتوليك الدفاع عن رجل خائن لبلاده يسيء إلى مركزك الكبير ويغضب جلالة الملك.

قال درويش:

ـ إن المتهم بريء حتى يصدر الحكم بإدانته. وواجب المحامي كواجب الطبيب يجب أن يسارع إلى إسعاف من يستغيث به مهما اختلف معه في الرأي.. إن الطبيب لا يسأل الرجل المصاب بالرصاص قبل أن يسعفه: هل أنت الجاني أم المجني عليه؟

قال السيوفي بك:

ـ إن الادعاء اختار المحامي المنتدب الذي سيترافع عن عبدالمنعم!

قال درويش:

ـ الإدعاء هو خصم الدفاع، فكيف يختار الخصم من يقوم بمهمة الدفاع؟ ألا يكفي الحكومة أنها اختارت المحكمة واختارت الادعاء، وتريد أيضاً أن تختار الدفاع؟

قال السيوفي بك:

ـ إن ملف القضية فيه أسرار خطيرة ومن حق الحكومة أن تختار من تأتمنه ليطلع على هذه الأسرار!

قال درويش:

ـ عجباً.. الحكومة تأتمن محامياً غير معروف ولا تأتمن نائباً وثق

به الشعب وانتخبه نائباً عنه في البرلمان؟ الحكومة هي التي تحصل على ثقة النواب، وليس النواب هم الذين يحصلون على ثقة الحكومة... إنك إذا رفضت أن تقبلني للدفاع عن عبدالمنعم فسأقدم استجواباً إلى الحكومة فوراً!

وما كاد السيوفي بك يسمع كلمة استجواب حتى اصفر وجهه. وقال إنه سيسمح له بالاطلاع على ملف الدعوى في مكتبه، ولكنه لا يستطيع أن يوافق على خروج ملف التحقيق، لأن فيه أسراراً عسكرية خطيرة. وإن الأمر صدر بأن لا يخرج الملف من بناء المحكمة العسكرية.

وتحمل الأستاذ درويش المضايقات والعراقيل التي وضعت في طريقه، ومضى يطلع على أوراق التحقيق، وبعد نصف ساعة فوجىء درويش بالمدعي العسكري يقول له:

ـ إن الوقت المخصص للاطلاع قد انتهى... وإني مضطر لمغادرة المكتب لأن لدي اجتماعاً هاماً مع سعادة اللواء سعدون باشا رئيس المحكمة العسكرية.

قال درويش محتجاً:

ـ ولكن لم أطلع على كل الأوراق!

قال السيوفي بك وهو يسحب منه الملف:

ـ من حقك أن تطلب إلى المحكمة تأجيل الجلسة....

وذهب درويش إلى مكتبه في الجريدة حانقاً، وكلف عدداً من زملائه المحررين بتحري بعض الوقائع التي وردت في التحقيق

الغريب.. وبقي درويش في مكتبه يستعد للقضية، بقي بغير نوم، وفي الصباح خرج من مكتبه في الجريدة إلى البناء الذي عقدت فيه المحكمة العسكرية.

فتح سعدون باشا الجلسة في الموعد المحدد تماماً، كان سعدون باشا يعتقد أن العدالة تتوفر بالمحافظة على موعد الجلسة وليس بالمحافظة على تطبيق القانون.. المهم أن يدخل سعدون باشا إلى مكتبه في ساعة محددة، ويخرج منها في ساعة محددة، وليس مهماً ماذا يفعل خلال هذه الساعات.. الانضباط هو أن تكون ساعاتنا مضبوطة، وليس في أن تكون تصرفاتنا مضبوطة!

وأمسك سعدون باشا بورقة، وتلا منها الأمر الملكي الكريم بتشكيل المحكمة، وكان يحرص أثناء تلاوة الأمر، على أن يتوقف قليلاً وينظر إلى الجمهور، ليتيح للمصورين أن يلتقطوا له صوراً مختلفة في أوضاع مختلفة. فكان يبتسم في موقف يقتضي التجهم، ويميل على حماد باشا تارة، وعلى الشمردلي باشا تارة، وكأنه يهتز طرباً من بلاغة الأمر الملكي بتشكيل المحكمة!

ولم يحرص القضاة الثلاثة على قراءة أوراق القضية قبل الجلسة، وإنما حرصوا على كي طرابيشهم الحمراء، وعلى كي بذلاتهم العسكرية، وعلى تلميع الأزرار النحاسية والشارات الذهبية فوق أكتافهم، حتى يطمئن الناس جميعاً إلى أن العدالة في البلاد بألف خير..

ثم وقف القضاة الثلاثة، ووضعوا أيديهم على كتاب الله، وأقسموا بالله العظيم أن يؤدوا مهمتهم بالذمة والصدق.

ووقف الأستاذ درويش مخلص وقال:

ـ أطلب من عدالة المحكمة تأجيل الجلسة ثلاثة أسابيع، لنطلع على الملف فإننا لم نطلع على ملف الدعوى.

ووقف حامد بك السيوفي بحركة عصبية، وقال:

ـ إن الأستاذ المحامي اطلع على الملف في مكتبي..

قال درويش:

ـ لم يسمح لي بسوى نصف ساعة.. ثلاثين دقيقة فقط، في قضية متهم يطلب الادعاء الحكم عليه بالإعدام!

قال سعدون باشا:

ـ نصف ساعة؟ إنني قرأت الملف كله في عشرين دقيقة!

قال درويش:

ـ إن سعادتك رجل عبقري.. وليس كل الناس عباقرة مثلك!

ولم يعرف سعدون باشا هل كان درويش يسخر منه أم أنه يقصد أنه عبقري فعلاً!

وتلفت سعدون باشا نحو عبدالمنعم فوجده يبتسم.. فاكتشف عندئذ أن المحامي يسخر منه، فقال في صرامة:

ـ المحكمة ترفض التأجيل:

ووقف حامد بك السيوفي وقال:

ـ الادعاء يطلب عقد الجلسة سرية، لأن الأسرار التي فيها يستفيد منها العدو.

وقال الأستاذ درويش:

ـ إن إحدى التهم الموجهة إلى المتهم أنه أبلغ العدو هذه الأسرار الخطيرة.. فما دام الادعاء يعتقد أن المتهم أبلغ فعلاً هذه الأسرار إلى العدو، فمعنى ذلك أن العدو يعرف هذه الأسرار، وبهذا لا داعي لأن تكون الجلسة سرية.. وأما أن الادعاء يعتقد أن هذه الأسرار لم تصل إلى العدو، وعندئذ تسقط التهمة ويصبح لا وجه لهذه المحكمة!

قال السيوفي بك:

ـ نحن الآن في زمن حرب.. ومصلحة الوطن أن لا يعرف العدو الأسرار.

وابتسم دوريش وقال:

ـ يبدو أن العدو الذي يقصده الادعاء هو الشعب المصري وليس إسرائيل.. إن ما يريده الادعاء أن يمنع شعب مصر من أن يعرف حقيقة ما يجري في مصر!

وتجهم وجه سعدون باشا، ومال على حامد باشا وقال له هامساً: هذا محام ابن كلب. ثم مال على حامد باشا هامساً وقال له: هذا محام ابن ستين كلب!

وبعد ذلك انتفخ سعدون باشا في مقعده وقال في وقار:

ـ قد أدلت هيئة المحكمة في طلب الادعاء، وفي رد الأستاذ المحترم محامي المتهم، وقررت أن تكون الجلسة سرية، حرصاً على مصلحة الوطن، ولهذا نرجو أن ينسحب الصحافيون والحضور ولا

يبقى أحد.. إلا محامي المتهم..

وحدثت همهمة ودمدمة في قاعة الجلسة، وانصرف الحاضرون، وتباطأت بثينة، وكانت آخر المنصرفين، وقبل أن تغادر التفتت برأسها إلى ناحية زوجها عبدالمنعم، وألقت عليه نظرة صامتة.

وهز عبدالمنعم رأسه وابتسم..

ومضت بثينة في طريقها مبتسمة، فقد شعرت أنها تبادلت رسائل مع زوجها بغير كلمات. كانت تقول له بعينها: تشجع يا عبدالمنعم!

فرد عليها بابتسامة يقول: أنا شجاع يا بثينة!

وما كادت القاعة تخلى من الجمهور، حتى وقف حامد السيوفي بك وقال:

- يا حضرات الضباط العظام!

واعتدل القضاة الثلاثة في مقاعدهم، فقد نسوا لعدة لحظات أنهم من العظماء.. كانوا قد سرحوا ثلاثتهم في السهرة الصاخبة التي أمضوها في الليلة السابقة يشربون مع ببا والأمير عادل نخب العدالة، وهم يريقون زجاجات الويسكي ويسكبون زجاجات الشامبانيا.. وعندما ناداهم زميلهم في السهرة حامد بك السيوفي بأنهم الضباط العظام استفاقوا فجأة من ذكرياتهم الحلوة، وحاول كل منهم أن يبدو عليه الجد والوقار، فجعلهم الانتقال السريع من بار ببا إلى منصة العدالة يبدون كالمهرولين إلى حضور طابور مفاجىء!

ورفع السيوفي بك صوته، ومد إصبعه إلى عبدالمنعم بيومي في

قفص الاتهام وقال بصوت متهدج:

- إنني أطلب رأس هذا المجرم الذي خان الملك وخان الوطن. هذا المجرم الذي تنكر لأمته وطعن قيادة هذا الجيش في ظهرها، في الوقت الذي تحارب في أشرف معركة، وتقاتل من أجل أعظم هدف. هذا المجرم الذي يوزع المنشورات ضد قادة هذا البلد الذين يواصلون الليل بالنهار ساهرين على الدفاع عن الأرض المقدسة، يسكبون عليها دماءهم الطاهرة.

وهز القضاة الثلاثة رؤوسهم فقد كانوا بالأمس فعلاً ساهرين، سهروا فعلاً حتى صباح اليوم، وصحيح أنهم لم يسكبوا دماءهم الطاهرة وإنما سكبوا زجاجات الشامبانيا والويسكي الطاهرة، إلا أنهم سهروا والسلام!

ورمى السيوفي بك الأوراق التي في يده بحركة مسرحية ثم قال:

- إن المجرم الذي ترونه أمامكم، أنكر أنه يعرف شيئاً عن هذه المنشورات لأنه جبان.. لو كان شجاعاً لاعترف بجريمته، وسوف أثبت للمحكمة أن الادعاء لا يقذف المتهم بالتهم. إن كل تهمة لها دليل وألف دليل.. لولا ضيق وقت المحكمة، وانشغالكم بالمسائل الكبرى الخاصة بالدفاع عن الوطن، لقدمت إليكم ألف دليل بالتفصيل.. ولكن أكتفي بأن أقدم لكم بعض الأدلة التي تعري لكم هذا المجرم، وتكشفه على حقيقته، وإنني أطلب استدعاء الأستاذ سلامة الاسكندراني الشاهد الأول.

وأمر سعدون باشا أحد الجنود باستدعاء سلامة الاسكندراني.. فدخل وقد بدت عليه أناقة واضحة.. البذلة جديدة والطربوش جديد، والحذاء يلمع ويزيزق أثناء مشيه في طريقه إلى المنصة.

وأقسم اليمين وأدى شهادته بأن عبدالمنعم بيومي سلمه منشورات فيها طعن في قواد جلالة الملك، وأدى شهادته بثبات، دون أن يتلعثم، دون أن يتوقف.. وما كاد ينتهي من شهادته حتى وقف الأستاذ درويش مخلص المحامي وسأل سلامة:

- ما هي صناعتك؟

وفوجىء سلامة بهذا السؤال فقال:

- تاجر لحوم..

فسأله درويش متهكماً:

- أي نوع من اللحوم.. لحوم الحيوانات أم اللحوم البشرية!؟

واعترض سعدون باشا على هذا السؤال وهو يقول:

- هذا سؤال لا علاقة له بموضوع القضية..

قال الأستاذ درويش وهو يضرب المنصة بيده:

- كلا.. بل له علاقة بصميم القضية.. إن سلامة الاسكندراني الذي جاء به الادعاء يشهد على عبدالمنعم بيومي هو تاجر لحوم بشرية.. هو قواد.. محكوم عليه بالسجن لمدة سنة في تهمة التحريض على الدعارة.. إنني أطلب من المحكمة أن تأمر بإحضار صحيفة سوابقه قبل أن تعتمد في حكمها على شهادة قواد يحرض على الدعارة.. ويريد أن يعهر العدالة كما عهر الضحايا اللاتي وقعن في يده!

وصرخ السيوفي بك:

- إنني أحتج على محاولة تلويث الشهود.. إن محامي المتهم يحاول أن يلوث الأشراف بالطين.. كما أراد المتهم أن يلوث الأشراف بالطين.. إن الاستاذ سلامة رجل وطني، مخلص، شريف، رأى جريمة ترتكب ضد الدولة فأدى واجبه الوطني وأبلغ عنها.. فهل إن جزاء وطنيته وبطولته واستهانته بالخطر وتحديه للإرهاب أن يطعنه الدفاع في شرفه؟ إنني أطلب من المحكمة أن تحمي الشهود.

وعندما سمع سلامة لأول مرة في حياته أحداً يصفه بأنه وطني وشريف وبطل، تنمر للأستاذ درويش المحامي والتفت إليه قائلاً في عصبية الرجل الشريف المجروح:

- إن شرفي هو رأس مالي.. إن حذائي أشرف من رأس المتهم الخائن الذي تدافع عنه.. ولولا احترامي لهيئة المحكمة لعرفت أن أرد عليك.. ولكني أتحمل هذه الإهانة في سبيل جلالة الملك وحكومته وقواده العظام..

وقال سعدون باشا:

- لا تغضب يا سلامة بك.. إن كرامتك من كرامة المحكمة وشرفك من شرف المحكمة.

وعندما سمع سلامة رئيس المحكمة يسميه سلامة «بك» ويقول إن شرفه من شرف المحكمة، اطمئن إلى شرف المحكمة..

وأراد الأستاذ دوريش أن يتكلم، فقال له سعدون باشا بعنف:

- إن المحكمة ترفض أن تسمع أي تجريح لأشخاص الشهود.. إن من حقك أن تناقش الوقائع وليس من حقك مناقشة

الأشخاص.. نشكرك يا سلامة بك على شهادتك القيمة، وتفضل بالخروج..

وطلب حامد بك السيوفي استدعاء الشاهد الثاني الأستاذ محمود حسن الأزميري فدخل وأقسم اليمين بأن يقول الحق، ولا شيء إلا الحق!

ثم قبل أن يسأله رئيس المحكمة بدأ يتكلم ويقول:

ـ إن الذي دفعني إلى تأدية الشهادة هو دافع وطني، وإخلاصي لقضية الكادحين المناضلين. وإنني أؤدي هذه الشهادة استمراراً في خدمة القضية التي آمنت بها، ومنحتها حياتي وشبابي. إنها شهادة أؤديها باسم الشرفاء، باسم أولئك اليتامى وأبناء السبيل والمشردين والمعذبين في الأرض.

وسأله سعدون باشا عن معلوماته عن المنشورات فقال:

ـ إن الصاغ عبدالمنعم بيومي سلمني المنشور ذات مرة، ثم جاء لي مرة ثانية وطلب مني أن أوزع ألف منشور، وقال إنه مستعد أن يعطيني جنيها عن كل منشور أوزعه، فرفضت الألف جنيه، وقلت له إنني لا أبيع وطني بألف جنيه.. إنني أرفض أن أخون مصر.. أن أخون شعبها وتربتها وهواءها إنني أفضل أن يفصل رأسي عن جسدي على أن أبيع بلدي لأعدائها أيها الوطنيون الشرفاء!

وهز سعدون باشا رأسه وقال:

ـ إن المحكمة تقدر دوافعك الخمسة النبيلة.

واضطرب الأزميري وهو يسمع رئيس المحكمة يذكر الدوافع

«الخمسة» النبيلة. تصور أنه يقصد الخمسة جنيهات التي اتفق مع سلامة الاسكندراني على أن يقبضها في مقابل شهادة الزور، بينما كان سعدون باشا يعني بالدوافع الخمسة، الشرفاء من اليتامى والأيامى وأبناء السبيل والمشردين والمعذبين في الأرض..

وأراد الأزميري أن يدافع عن نفسه ويؤكد أن الخمسة جنيهات ليست هي السبب. وخشي سعدون باشا أن ينزلق الأزميري في شهادته فأسرع يقول له:

نشكرك يا أزميري بك على هذه الشهادة الأمينة..

وقال الأستاذ درويش المحامي:

ـ ونحن نشكر الأزميري بك على شهادته الأمينة ونحب أن نسأله سؤالاً واحداً:

وسارع سعدون باشا يقول:

ـ سؤال شخصي؟ أم سؤال في موضوع القضية؟ المحكمة أصدرت قرارها بمنع سؤال الشهود أسئلة شخصية.

قال الأستاذ درويش المحامي:

ـ لا.. ليس سؤالاً شخصياً.. السؤال هو: هل أخذت يا أزميري بك المنشور من جيب عبدالمنعم بيومي أم من يده؟

قال سعدون باشا:

ـ ليس مهماً إن كان أخذ المنشور من يده أم جيبه.. المهم أنه أخذ منه المنشور!

قال الأستاذ درويش:

ـ بل هذا سؤال مهم جداً.. لأن الشاهد الذي أطلق عليه سعادة رئيس المحكمة اسم «الأزميري بك» هو رجل محكوم عليه بالسجن سنة في جرائم نشل!!

وضرب سعدون باشا المنصة بيده وقال:

ـ إن المحكمة سبق أن منعتك من تجريح الشهود.. يا أستاذ تكلم في صميم القضية. تكلم في صميم الدعوى!

قال الأستاد درويش:

ـ إن الذي أقوله هو في صميم القضية وصميم الدعوى. إن الادعاء لم يجد شريفاً واحداً من الملايين من سكان مصر ليشهد ضد المتهم سوى قواد ونشال!

ووقف حامد بك السيوفي وقال:

ـ إن المنشورات التي ضبطناها تقول إن قواد الجيش قوادون، وإنهم لصوص! فإذا كانت هذه الأكاذيب تقال عن قواد جيش جلالة الملك، فلا عجب أن تقال اليوم على رعاياها المخلصين، الأشراف، الوطنيين، الذين أبوا أن يتستروا على خيانة هذا المجرم!

وأحس القضاة الثلاثة بأن شيئاً في داخلهم يقول لهم أن سلامة والأزميري من زملائهم.. هما زميلان صغيران وهم زملاء كبار.. وأحسوا بأن الطعن على سلامة والأزميري هو طعن فيهم، وأن واجبهم أن يهبوا للدفاع عنهما، فانقلبت سحنات القضاة الثلاثة فجأة، وهمهموا ودمدموا وقال سعدون باشا بصوت حانق:

ـ إن المحكمة تأمر بحذف الكلمات النابية من محضر الجلسة!

وأراد الأستاذ درويش المحامي أن يتكلم، ولكن سعدون باشا قاطعه بعنف وهو يقول:

ـ لا.. لا.. أنت جئت هنا لتدافع عن مجرم، لا لتتهم أبرياء.. تفضل يا أزميري بك.. إن المحكمة أبدت أسفها لما قيل ضدك، وهذا اعتذار كافٍ لك.

وتردد محمود حسن الأزميري في الانصراف، كان يريد أن ينتقم من الأستاذ درويش مخلص المحامي الذي فضحه، وفكر في أن يحتك به وينشل محفظة نقوده، ولكنه تردد، ورأى أن يترك هذا الانتقام لفرصة أخرى... لجلسة أخرى في محاكمة أخرى تكون مزدحمة بالجمهور، فإن النشل في الزحام أسهل كثيراً من النشل في المكان الخالي من الناس!

وتذكر الأزميري أن زوج شقيقته سلامة في انتظاره خارج الجلسة، فأسرع في خطواته يخرج من القاعة، ليقبض الجنيهين والنصف قيمة ما تبقى من أتعابه عن شهادة الزور!

وعاد حامد بك السيوفي يستأنف مرافعته ويقول:

ـ إن هذا المتهم لم يكتف بأن يذيع الأسرار العسكرية على الشعب المصري، بل إنه أعطى هذه الأسرار العسكرية إلى العدو..

واعترض الأستاذ درويش المحامي وقال:

ـ نريد أن نعرف ما هي هذه الأسرار العسكرية التي جاءت في المنشور؟

قال حامد السيوفي بك:

ـ جاء في المنشور أننا خسرنا الحرب.. وهذا سر عسكري!

قال درويش:

ـ شيء ظريف جداً.. كلمة إننا خسرنا الحرب هي سر عسكري.. سر عسكري على من؟ على العدو الذي كسب الحرب؟ هل العدو ينتظر هذا المنشور ليعرف أنه كسب الحرب؟ ألم تحتل جيوشه نصف فلسطين؟ ألم تشرد مئات الألوف من الفلسطينيين في الصحراء؟ كل صحف العالم قالت إن سبع دول عربية خسرت الحرب.. الأمم المتحدة قالت إننا خسرنا الحرب!

قال سعدون باشا:

ـ فرق أن يقول الأعداء إننا خسرنا الحرب.. وأن نقول نحن إننا خسرنا الحرب!

قال درويش:

ـ ما الفرق؟! إن الذي يغضبكم ليس أن يعرف العدو أننا خسرنا الحرب.. الذي يغضبكم أن يعرف الشعب المصري أننا خسرنا الحرب!

قال سعدون باشا:

ـ وما رأيك في إرسال هذه الأسرار العسكرية الخطيرة بأننا خسرنا الحرب إلى العدو؟

قال درويش:

ـ إن المتهم ينكر أنه كتب هذا المنشور.. ولكن، لنفرض جدلاً أنه كتبه، فمن هو العدو الذي أرسل له المنشور؟

قال السيوفي بك:

ـ إننا ضبطنا منشوراً إلى سفير ايطاليا في القاهرة.

قال درويش:

ـ وهل أعلنا الحرب على ايطاليا؟

قال السيوفي بك:

ـ لدي تقرير سري جداً بأن إيطاليا وافقت على قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين.. ونحن نعتبر كل دولة وافقت على التقسيم هي من الأعداء!

قال درويش:

ـ وما رأيك أن لدى مصر سفيراً حتى الآن في روما، ولإيطاليا سفيراً حتى الآن في القاهرة؟ إن أول ما تفعله حكومة مع حكومة عدوة هو أن تقطع علاقتها الديبلوماسية معها وتسحب سفيرها.. والعرف الديبلوماسي حدد الدول الصديقة بأنها الدول التي تتبادل السفراء.. ثم لنفرض أن إيطاليا عدوتنا في السر، فمن الذي يثبت أن عبدالمنعم بيومي أرسل هذا المنشور إلى سفير إيطاليا؟ هل ضبطتم المظروف بخطه!

قال سعدون باشا وهو يبتسم بدهاء:

ـ ليس المفروض أن يكتب المظروف بخطه.. المفروض أن يكتبه أحد أعضاء العصابة!

قال درويش في استهزاء

ـ وأين هي العصابة؟! المفروض أنه توجد عصابة.. المفروض أن عبدالمنعم هو الذي كتب المنشور.. المفروض أن القواد رجل وطني.. المفروض أن النشال رجل ظريف.. هذه قضية الفروض.. إن العدالة تستند على أدلة ولا تستند على فروض.. أنتم لا تحاكمون رجلاً عادياً، إنما تحاكمون رجلاً ترك منصبه الوثير، المريح كياور الأمير عادل عمرو، ليذهب ويقاتل ويموت في ميدان القتال.. إن الأبطال الذين خدموا أوطانهم لا يحاكمون بهذه الطريقة!

قال السيوفي بك:

ـ إنه لم يذهب إلى ميدان القتال ليحارب ذهب لينفث سمومه.. إن لدي تقارير سرية من ميدان القتال بتوقيع الاميرالاي شعبان بك شعيب قائد المدفعية بالنيابة يقول فيها إن قيادة الجبهة أعدت طائرة وضعت فيها المدافع والذخائر والقنابل لنجدة كتيبة الصاغ عزيز علاء الدين المحاصرة والتي تقوم بعملية «ساموراي»، وإذا بالمتهم عبدالمنعم بيومي يأمر بإنزال هذه الذخائر من الطائرة، ويستقل الطائرة الوحيدة الصالحة لهذه العملية، ويسافر بها إلى القاهرة، ويستبقي هذه الطائرة سبعة أيام كاملة في القاهرة ويستغل نفوذه ومنصبه لتبقى تحت تصرفه ولا تذهب إلى ميدان القتال. وكان من نتيجة هذا العمل الجبان أن فقد الصاغ عزيز علاء الدين أصابعه العشرة.. واستشهد اليوزباشي محمد فهمي، والملازم أول رفيق توفيق، والملازم أحمد لطفي، والملازم كامل ميخائيل.. هذا المجرم مسؤول وحده عن أن الجيش فقد خمسة من أعظم أبطاله!

وبدا التأثر الشديد على سعدون باشا عندما سمع اسم الملازم كامل ميخائيل، فقد تذكر أنه حصل لصديقته السابقة الممثلة كاميليا كامل على سيارة من الحراسة باعتبارها والدة الضابط الشهيد.. وذكرته أصابع عزيز علاء الدين العشرة بزوجته شريفة التي رفضت حبه!

وأخرج الشمردلي باشا منديله من جيبه وتظاهر بأنه يمسح دموعه، فإن أسماء هؤلاء الشهداء ذكرته بزوجاتهم وأمهاتهم اللاتي استغل أسماءهن وحصل على سيارة فاخرة للأميرة ببا باعتبارها زوجة الشهيد محمد فهمي، وسيارات أخرى بأسماء عشيقات شلة الأمير!

وأعجب حماد باشا بشهادة الزور التي وقعها الأميرالاي شعبان بك شعيب وتوقع ترقيته إلى رتبة اللواء..

وأحس حامد بك السيوفي بأنه قام بالمهمة التي كلفته بها ببا خير قيام، فنسب جريمة الأمير عادل إلى الصاغ عبدالمنعم، وبذلك قطع عليه الطريق إذا أراد في يوم من الأيام أن يفضح قصة بيت الهرم المخصص لإنتاج القنبلة الذرية.

وأحس عبدالمنعم بيومي كأن صاعقة أصابته، أحس بأنه تجمد في مكانه، فقد الحركة، فقد النطق، فقد الشعور.. لم يتصور أن التلفيق يصل إلى هذا الحد من الضعة والحقارة والكذب والافتراء..

وتمالك نفسه، ونهض من مكانه، وكأنه آلة تتحرك، وقد اصفر وجهه وامتقع، وبدا أشبه بميت خرج من القبر فجأة وقال:

ـ إنني لم أصدر الأمر إلى الطائرة بإنزال الذخائر، ولم أصدر الأمر للطائرة بأن تحملني إلى القاهرة، ولم أصدر الأمر للطائرة بأن تبقى في

انتظاري. . إن الأمير عادل عمرو هو الذي أصدر هذه الأوامر؟

وانتفض السيوفي بك وقال:

ـ إننا لم نجد أي أمر بتوقيع الأمير عادل في مطار العريش.

قال عبدالمنعم:

ـ كان الأمر شفوياً. . وأصدره الأمير عادل أمامي إلى قائد الطيران.

قال السيوفي بك وهو يبتسم ساخراً:

ـ وهذا إقرار بتوقيع قائد الطيران أن الذي أبلغه الأمر هو الصاغ عبدالمنعم بيومي نفسه. .

وصرخ عبدالمنعم كأسد مجروح:

ـ هذا كذب. . هذا كذب!

وقال السيوفي بهدوء:

ـ ها أنتم يا حضرات الضباط العظام ترون بأعينكم. . المتهم يهاجم زملاءكم القواد ويقول إنهم كاذبون. . كلنا كاذبون وهو وحده الصادق. . كلنا خونة وهو وحده الوطني الأمين. . كلنا هربنا من ميدان القتال؟ وهو وحده الذي بقي في الميدان. . بقي ليطعن البلد والجيش والحكومة بالخناجر والسكاكين. . يطعنها من الخلف كما يفعل الجبناء. . إن هذا الخائن يعمل لحساب العدو ولا يعمل لحساب الوطن. . إنني أطلب إليكم أن تصدروا حكمكم العادل وتعيدوا للقادة كرامتهم التي هدرها، كلمة من أفواهكم تعيد للجيش

شرفه الذي مزقه هذا الجبان. . حكم صارم تصدرونه يعيد للوطن سمعته التي مرغها هذا المجرم في التراب. إن كلمتكم هي كلمة الله الذي توعد الخارجين عليه الكافرين به، بالويل والعذاب!

وجلس حامد بك السيوفي في مقعده، وتلفت حوله ليتلقى نظرات الإعجاب من عيون القضاة الثلاثة الذين كانوا يهزون رؤوسهم طرباً، وهو يستنزل اللعنات على المتهم الذي حاكموه وحكموا عليه قبل أن يسمعوا كلمة اتهام أو كلمة دفاع. .

ولم يبد على عبدالمنعم أي ضيق وهو يستمع إلى الشتائم تنهال عليه فقد كان طوال الوقت يتصور أن هذا الاتهام ليس موجهاً إليه. . إن كل كلمة فيه تنطبق على رجال آخرين خارج القفص، بعضهم في قاعة المحكمة وبعضهم خارجها. . بعضهم يجلس في منصة القضاة وبعضهم يقف في منصة الادعاء. . وبعضهم هو الذي عين القضاة واختار الادعاء. .

كان عبدالمنعم يسائل نفسه: ألا يشعر هؤلاء القضاة بأنهم ظالمون، أم أن شهوة الظالم تعميه فلا يرى ما يفعل، وتصم أذنيه فلا يتبين كلمة الحق من كلمات الضلال، وتقضي على ملكة السخرية في نفسه فلا يضحك وهو يسمع صفاته تخلع على آخرين، وجرائمه تنسب إلى أبرياء؟

والظلم نوع من أنواع الجنون، وكما أن المجنون لا يعرف أنه مجنون، فالظالم لا يعرف أنه ظالم. . يرتكب الحماقات وهو يتصور أنه أحكم الحكماء، ويسيء إلى نفسه وهو يتوهم أنه يحسن إليها. تختل موازينه وتتناقض تصرفاته ويقف على رأسه، ويظن أنه واقف على قدميه، ويرى الأوهام حقائق، والحقائق أوهاماً؟ إن الظالم يكرر كلمة

أنه عادل حتى يؤمن في نهاية الأمر بأن ظلمه هو العدل، وطغيانه هو الرحمة، واستبداده هو الحرية، كما يقول المجنون مليون مرة «أنا حمار. . أنا حمار». . وفي المرة الواحدة بعد المليون يضع يده وراء ظهره فيجد ذيلاً حقيقياً!

وابتسم عبدالمنعم وهو يرى قضاته الثلاثة ولهم ذيول وراء ظهورهم. .

وعندما نطق حامد السيوفي بجملة أن الكلمة التي ستخرج من أفواه القضاة الثلاثة هي كلمة الله اتسعت مساحة الابتسامة على شفتيه. أحس بأن الطاغية الذي يزيف إرادة الشعب لا يتردد في أن يزيف كلمة الله. فإن إرادة الشعوب من إرادة الله. والطاغية في جنونه يتوهم أنه أصبح إلهاً. ثم لا يلبث أن يرفع نفسه فوق الإله. يجلس في برج عاجي ويعتبر هذا البرج سماءه، ويتوهم أنه أصبح الوهاب المناع، المحيي والمميت، الرحمن الرحيم. يقسم حاشيته بين ملائكة يحملون وحيه وبين زبانية ينفذون عقابه.

ومن هنا تتغير حاشيته إلى الجرائم والمجرمين. فالذي يكفر بالله لا يرتكب معصية وإنما يبدي رأياً في عصر حرية الرأي، والذي يسيء إلى الوطن يرتكب مخالفة بسيطة، وإنما الذي ينتقد الطاغية فهو الكافر الزنديق الذي يجب أن تطبق عليه العقوبات المنصوص عليها في الكتب السماوية عن معاملة الملحدين!

واستيقظ عبدالمنعم من خواطره وأفكاره على صوت الأستاذ درويش مخلص المحامي يقف ويلقي دفاعه في صوت واضح النبرات ويقول:

ـ قبل أن أبدأ دفاعي، أشكر المدعي العسكري لأنه أدلى بتصريح

خطير. . لقد قال إن الصاغ عزيز علاء الدين الذي فقد أصابعه العشرة في معركة ساموراي هو من أعظم أبطال الجيش. . فهل هذا رأيه الشخصي أم رأي الدولة؟

فقال حامد السيوفي:

ـ طبعاً هو رأي الدولة. . ورأي الجيش، ورأي القيادة!

قال درويش:

ـ وماذا فعلت الدولة والجيش والقيادة لهذا البطل العظيم؟ إنني أعلم أنه تقدم منذ شهور يطلب تركيب أصابع صناعية، ولم تفعل له الدولة شيئاً. . وأظن أن سعادة اللواء سعدون باشا رئيس المحكمة يعرف هذه الواقعة تماماً. . فإن السيدة شريفة زوجة عزيز علاء الدين قدمت الطلب بنفسها إلى سعدون باشا.

واهتز سعدون باشا في مقعده. تصور أن المحامي يعرف أنه ساوم شريفة على عرضها في مقابل تركيب الأصابع الصناعية لزوجها، واضطرب واصفر وجهه وقال:

ـ إن القيادة تبحث باهتمام هذا الطلب. إن انشغالنا في الحرب هو السبب في تأخير البت فيه. . إن الدولة كلها تعرف وتقدر بطولة عزيز علاء الدين وإخلاصه.

قال الأستاذ درويش ساخراً:

ـ لا أظن أن الدولة تعرف ذلك. . بدليل أنها وضعت عزيز علاء الدين في السجن عدة أسابيع بتهمة التآمر على قلب نظام الدولة. . إن الادعاء جعل «البطولة» مثل جوكر الكوتشينة تضع لها

أرقاماً كما تشاء. بطل الأمس هو خائن اليوم.. وخائن الأمس هو بطل اليوم.. وقواد الأمس هو سلامة بك.. والمحكوم عليه في جرائم النشل هو الذي يحكم على أقدار الناس!

ومضى الأستاذ درويش مخلص ونسف مرافعة الادعاء.. أثبت أن كل كلمة فيها بغير دليل.. وأن التهم واهية لا تستطيع أن تقف على أقدامها.. وواجه المدعي بقرار منح الصاغ عبدالمنعم بيومي نجمة فؤاد العسكرية التي لا تمنح إلا للأبطال الذين قاموا بخدمات بطولية في ميدان القتال.. ولاحظ أن تاريخ إنعام الملك بهذه الميدالية على عبدالمنعم كان بعد رحلته بالطائرة بأسبوعين.. وبعد مصرع الضباط الأربعة بعشرة أيام.. فهل كان الملك يكافىء عبدالمنعم لأنه هرب من الميدان؟

ثم فاجأ المحكمة بأن طلب الإنعام على عبدالمنعم بيومي بنجمة فؤاد العسكرية، كان بتوقيع الأميرالاي شعبان بك شعيب قائد المدفعية في الميدان.. نفس القائد الذي كتب بعد ذلك التقارير التي يتهم فيها عبدالمنعم بأنه المسؤول عن نكبة معركة ساموراي.. بل الأدهى من ذلك أن جميع الضباط الذين استشهدوا كانوا من ضباط المدفعية التابعين لشعبان بك في نفس السلاح.. فكيف يكون الضابط الواحد بطلاً يستحق الوسام، وخائناً يستحق الإعدام في أسبوع واحد؟

وترك سعدون باشا الأستاذ درويش يترافع كما يشاء دون أن يقاطعه.. وبعد أن انتهى من مرافعته أعلن تأجيل الجلسة للمداولة في إصدار الحكم..

ولم تعقد الجلسة للمداولة في بناء المحكمة طبعاً..

وإنما عقدت الجلسة في المساء في بيت الهرم..

ولم يكن أمام القضاة ملفات القضية، وإنما كانت أمامهم زجاجات الويسكي..

ولم تكن المداولة قاصرة على القضاة الثلاثة، بل اشترك فيها الأمير عادل، وزوجته ببا، وشقيقتها كوكو زوجة سعدون باشا، وأمها زليخا هانم زوجة الشمردلي باشا، وفوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام، وحامد بك السيوفي المدعي العام..

وجلس سعدون باشا يصف لهم ما حدث في الجلسة، ولكنه لم يذكر أن الأستاذ درويش اكتشف حقيقة الشاهدين سلامة بك والأزميري بك مراعاة لصديقه العزيز فوزي بك صلاح الدين الذي ادعى أنه الذي توصل إلى الشاهدين بذكائه ودهائه وحيله البوليسية.. وروى سعدون باشا مرافعة الأستاذ درويش..

وما كادت زليخا هانم تسمع ملخص المرافعة حتى اقترحت الحكم بإعدام المحامي!

وأفهمتها ببا أن المحكمة لا تستطيع أن تحكم على المحامي، وإنما هي تحكم على المتهم فقط.. فنظرت إلى زوجها الشمردلي باشا باحتقار وقالت:

ـ هل هذه محكمة التي لا تستطيع أن تحكم على المحامي قليل الأدب بالإعدام؟

وعندما قال سعدون باشا إن عبدالمنعم قال إن الأمير عادل هو الذي أمره بركوب الطائرة، اقترحت زوجته كوكو أن تحكم المحكمة بقطع لسانه حتى لا يتحدث بعد الآن عن أسياده وأسياد أبيه!

وأفهم سعدون باشا زوجته أن قطع اللسان ليس من العقوبات التي ينص عليها قانون العقوبات!

وقالت كوكو:

ـ أنت باشا ولواء كبير في الجيش.. والقانون يحترمه الصعاليك لا الباشاوات.. إسمع كلامي، واحكم عليه بقطع لسانه!

وقال الأمير عادل:

ـ من رأيي أن يكون الحكم عليه بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة!

وضربت زليخا هانم يدها على صدرها وقالت:

ـ يشتم ابنتي ويحكم عليه بالسجن عشر سنوات فقط؟. لقد كنت أظن أنك تحب ببا.

ولوت ببا رأسها غضباً، فقد أحست بأن هذا الحكم البسيط لا يتفق مع الجريمة الخطيرة التي ارتكبها عبدالمنعم..

وقرأ فوزي بك صلاح الدين بسرعة ما في عين ببا من امتعاض، فسارع يقول:

ـ يجب الحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص!

قالت ببا وهي تميل على صدر الأمير عادل وتقرب كأسها من شفتيه ليشاركها في شربه:

ـ لا.. حرام... أنا أحب العدل.. يكفي الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة..

وقال سعدون باشا:

ـ يا سلام.. إنني لم أرَ في حياتي سيدة رقيقة، طيبة القلب، رحيمة، مثل الأميرة ببا.. إنك ملاك من السماء يا سمو الأميرة!

وقال حماد باشا في صوت متهدج:

ـ أخلاق ملوك!

وقال الشمردلي باشا وهو ينظر بإعجاب إلى صدر زليخا هانم العاري:

ـ إن ذمتي وضميري يقولان إن الحكم لا بد أن يكون الإعدام رمياً بالرصاص.. ولكنني لا أستطيع أن أخالف أوامر الأميرة..

ورفع سعدون باشا كأسه وقال:

ـ فلنشرب نخب الحكم على عبدالمنعم بيومي بالأشغال الشاقة المؤبدة!

رفع الجميع كؤوس الويسكي، وشربوا نخب حكم القضاء العادل..

ورفع فوزي بك صلاح الدين كأسه وقد سرح في موضوع مختلف.. كان يتساءل: هل زوجة عبدالمنعم بيومي جميلة؟ هل تصلح أن تكون عشيقته؟ إن هذه هي أهم مسألة يجب أن يبحثها عندما يذهب إلى مكتبه في اليوم التالي.

- ٢٧ -

انهمك الفرسان الثلاثة والفارسات الثلاث في طبع منشورهم الجديد في جرسونبيرة سعدون باشا.

كان المنشور الجديد يختلف عن منشوراتهم السابقة، كان يتألف من ثماني صفحات بدلاً من صفحة واحدة. فقد سمع عزيز علاء الدين بأنباء المرافعة الرائعة التي ألقاها الأستاذ درويش مخلص في المحكمة العسكرية، هذه المرافعة التي منعت الصحف من الإشارة إليها، باعتبار أن جلسة المحاكمة سرية.. أما شتائم المدعي العسكري في الصاغ عبدالمنعم بيومي فنشرت كاملة!

الاتهام ينشر والدفاع يمنع من النشر. الكذب مباح والحقيقة ممنوعة. كأن كلمة الظلم مشتقة من الظلام، ولهذا فعملاء النظام يحرصون على أن ينتشر الظلام ويحرصون على إطفاء الأنوار. اللص يخشى نور الشمعة لأنها تفضحه والظالم يرهب نور الحقيقة لأنها تفضحه.

ومن هنا حرص سعدون باشا رئيس المحكمة أن يصدر أمراً إلى الصحف بأن لا تنشر كلمة واحدة من كلمات الدفاع، وادعى أن الدفاع تعرض لأسرار عسكرية يجب كتمانها حتى لا تصل أنباؤها إلى الأعداء.

وذهبت شريفة من شقتها في الطابق السادس إلى شَقة الأستاذ درويش مخلص في نفس الطابق، وقابلت زوجته بهيجة، وقالت لها إنها سمعت مرافعة زوجها البليغة في قضية عبدالمنعم بيومي، وإن كل الناس يتحدثون عن هذه المرافعة، ويعجبون كيف يحكم على

عبدالمنعم بعدها بالأشغال الشاقة المؤبدة.

وأحست بهيجة بزهو وهي تسمع حديث الناس عن بلاغة زوجها كمحام، وكانت ساخطة في الوقت نفسه على الحكم الظالم الذي صدر على عبدالمنعم، فذهبت إلى غرفة مكتب زوجها في الشقة وأحضرت نص المرافعة. وقالت شريفة إنها ستقرأها لمدة نصف ساعة وتعيدها إلى بهيجة قبل أن يعود زوجها من عمله.

وعادت شريفة إلى شقتها حيث كانت كاميليا كامل وإحسان زوجة خالد، وتقاسم الثلاثة المرافعة ونقلنها بسرعة فائقة. ثم حملت شريفة المرافعة وأعادتها إلى بهيجة وهي تقول إنها خسارة أن الشعب المصري لا يقرأ مثل هذه الحقائق التي تضيء للشعب النور في الظلام الذي يعيش فيه.

وقالت بهيجة أن زوجها يفكر في تقديم استجواب عن هذه القضية إلى مجلس النواب، ولكنه يعرف مقدماً أن وزير الحربية سوف يصر على أن تكون مناقشة الاستجواب في جلسة سرية، وهكذا لن ترى هذه المرافعة النور.

وعندما اجتمعت شريفة بزوجها عزيز علاء الدين وبزميليه صبحي خالد وشامل شفيق اقترحت عليهم أن يطبعوا المرافعة الخطيرة في منشور. وتحمسوا للفكرة في أول الأمر، ثم اعترضوا بأن المرافعة طويلة، وإن المنشور سوف يستغرق ثماني صفحات، وإن هذا سيضاعف الوقت اللازم للطبع ثمانية أضعاف، بينما هم لا يستطيعون البقاء في جرسونبيرة سعدون باشا إلا ساعات قليلة كل يوم، خشية أن يفاجئهم سعدون باشا أو فوزي بك صلاح الدين في الشقة كما حدث لهم في منشورهم الأول.

وتحمست النساء لهذه المخاطرة، وانضمت إليهن الخادمة سعدية في الحماس، وعرضت أن تضم حبيبها الأسطى مرسي إلى «العصابة».. ولكن صبحي خالد لم يوافق أن ينضم طاهيه إلى المتآمرين وقال:

ـ لو انضم إلينا فسوف يكسر عيني.. ولن أستطيع يومئذ أن أصرخ فيه إذا حرق الفرخة على النار!

واتفق الفرسان والفارسات على ألا يضموا إليهم أعضاء جدداً في عملية الطبع، وأن يكتفوا بزيادة ساعات العمل، وأن تتولى الخادمة سعدية مهمة الديدبان أمام الشقة، فإذا رأت سعدون باشا أو فوزي بك صلاح الدين غنت أغنيتها المفضلة «صوابعك العشرة قولـلي يا روحي اشمعنى» فيعتبر هذا إنذاراً لهم بوقف الطبع والاختفاء من الشقة.

وأمضى الفرسان والفارسات أياماً في طبع المنشور الجديد، دون أن يحدث ما يعطلهم أو يزعجهم في عملهم المضني المثير.

وانتهى طبع المنشور، وتوقفت آلة الطباعة، وبدأوا يجمعون أوراق المنشور الثماني، ويشبكونها في دبوس، ويضعونها داخل المظاريف لتبدأ عملية كتابة العناوين..

وبينما هم ينهمكون في عملهم سمعوا صوت سعدية تصرخ.. كانت فعلاً تغني أغنية «صوابعك العشرة» ولكن غناءها كان أقرب إلى الصراخ والعويل.. وأسرعوا جميعاً يختفون في «صندرة» الشقة ويغلقون الباب، وحبسوا أنفاسهم، وبدت عليهم الدهشة، فإن صراخ سعدية كان يعني القادم ليس سعدون باشا ولا فوزي بك صلاح الدين، وإنما هو شيء أخطر منهما!

لقد فهموا من هذا الصراخ أن رجال البوليس في طريقهم إلى تفتيش الشقة. ثم سمعوا صوت باب الشقة يفتح بمفتاح، ثم سمعوا وقع قدمين، ثم الباب يغلق، ثم عاد صوت القدمين. وفهم الفرسان والفارسات على الفور أنها وقع أقدام امرأة!

وتنفسوا الصعداء، وزادت دهشتهم.. ما الذي يجعل الخادمة سعدية تفزع من هذه المرأة أكثر من فزعها من سعدون باشا أو فوزي بك صلاح الدين صاحبي الشقة؟

واستبد بهم الفضول أن يعرفوا من هي المرأة التي أحدثت في سعدية كل هذا الفزع والاضطراب. وكان فضول النساء أضعاف فضول الرجال، وفتحت شريفة باب الصندرة بهدوء، وخلعت حذاءها، ونزلت على السلم الحديدي على أطراف أصابعها، ثم مشت إلى الباب الذي يفصل المطبخ والحمام عن صالة الشقة، وانحنت على ثقب المفتاح، ونظرت من خلاله إلى الصالة، ثم عادت على أطراف أقدامها إلى السلم، ولكنها لم تصعد درجات السلم، بل عادت من جديد إلى الباب وحملقت من جديد في ثقب المفتاح. وبعد ذلك عادت شريفة وصعدت السلم وعلى شفتيها ابتسامة واسعة. وأغلقت باب الصندرة وقالت لهم همساً:

ـ إن سعدية معذورة.. إن السيدة الموجودة في الشقة لا يمكن أن تخطر لكم على بال.. إنها الدكتورة دوريس زوجة الدكتور العروسي الساكنة في الطابق الأول من العمارة!

قالت إحسان همساً:

ـ ربما جاءت للكشف على سعدون باشا!

قال صبحي خالد:

ـ إن الأطباء لا يكشفون على الناس في الجرسونيرات!

قال عزيز علاء الدين هامساً:

ـ ولكن ليس هذا سبباً كافياً لتفزع سعدية هذا الفزع!

قالت شريفة وهي تبتسم:

ـ إن سبب فزع سعدية أن الدكتورة دوريس رأت منذ شهور الأسطى مرسي يقبل سعدية. فأقامت الدنيا وأقعدتها، وذهبت إلى بهيجة زوجة الأستاذ درويش مخلص تطلب طرد سعدية من خدمتها، لأنه لا يليق أن يحدث هذا في عمارة يسكن فيها ناس شرفاء.. فعندما رأت سعدية السيدة الشريفة جداً الغيورة على الأخلاق هي التي تدخل الجرسونيرة وتخون زوجها في نفس العمارة التي يسكن فيها زوجها أصيبت بهذه الحالة العصبية.

ثم فجأة، سمعوا سعدية تغني من جديد أغنية «صوابعك العشرة.. قوللي يا روحي.. اشمعنى» ولكنها كانت تغنيها بلهجة كلها طرب وليس فيها أثر الفزع والذعر كما فعلت في المرة الأولى.. وكانت تردد كلمة «اشمعنى» عدة مرات!!

وصمتوا، وقد فهموا من هذه الإشارة أن قادماً جديداً في طريقه إلى الشقة..

وعادت شريفة تنزل درجات السلم الحديدي على أطراف أصابعها ووضعت عينها على ثقب المفتاح لترى القادم الجديد..

وبقيت مدة طويلة وعينها في ثقب الباب.. والفرسان الثلاثة

والفارستان ينتظرون على أحر من الجمر ليعرفوا من هو القادم الجديد..

ثم عادت اليهم شريفة وقالت لهم هامسة وهي تضحك:

ـ إنه فوزي بك صلاح الدين.. لقد قابلته الدكتورة دوريس على الباب وتعلقت فيه وراحت تقبله وتعانقه بحرارة!

وجلس الفرسان الستة صامتين، ينتظرون أن يخرج العاشقان من الشقة، ليستأنفوا العمل من جديد.

وفي صمتهم الذي فرض عليهم تحدثت أفكارهم. كأنهم حبسوا أنفاسهم فانطلقت خواطرهم.. كانت الممثلة كاميليا كامل تفكر هل هي تقوم بهذه المغامرات وتواجه هذه المخاطر لأنها تحب بلادها، أم لأنها تحب صديقها شامل شفيق؟ أيكون الحب هو الذي حولها من غانية إلى بطلة، من امرأة تحب حديث الجنس إلى امرأة تهوى حديث الوطن؟ هل كانت تحس بهذه المشاعر التي تحس بها الآن لو لم تحب شامل؟ أتكون المرأة مرآة تنعكس فيها صفات الرجل الذي تحبه، فإذا أحبت بطلاً عشقت البطولة، وإذا أحبت نذلاً تخلقت بطباعه. هل المرأة ترتفع إلى سماء رجلها أو تهبط إلى حضيضه أم أن الحب الحقيقي هو ارتفاع فوق الضعف الإنساني يقوي ضعفنا، ويطهر نفوسنا، ويظهر فضائلنا، ويمنحنا شجاعة لم تكن لنا؟

إن الله صنع العالم من اجتماع رجل وامرأة، فلا عجب إذا أحست المرأة وهي بجوار الرجل الذي تحبه بأنها قادرة على أن تخلق. أيكون الحب هو الذي أخرج من كاميليا فضائلها التي كانت تغوص في أعماقها، أم أن إحساسها بالظلم عندما قبض سعدون

باشا على حبيبها، لأنه حبيبها، هو الذي غيرها وبدلها، وجعل منها امرأة أخرى غير التي كانت، امرأة تفضل أن تجوع مع الرجل الذي تحبه على أن تستمتع بالثروة والرفاهية مع رجل لا تحبه؟

وكان عزيز علاء الدين يفكر في أصابعه العشرة.. لماذا لم يعد يشعر أنه فقد أصابعه؟ لماذا لم يعد يفتقدها كما كان يفعل قبل أن ينغمس في طباعة المنشورات؟ لماذا لم يعد يشعر بالضياع والضعف والهوان الذي كان يحس به في أول الأمر؟. أيكون سبب شقائه الحقيقي أنه كان يريد أن يفعل شيئاً بهذه الأصابع، فلما لم يجد أصابعه أحس بالضياع، ثم عندما بدأ يصنع شيئاً وجد هذه الأصابع في شريفة وفي إحسان، وفي شامل شفيق، وفي صبحي خالد وفي سعدية؟

في أول منشور أحس بأن كل واحد من هؤلاء إصبع جديد له. ستة أصابع جديدة في يديه.. أصابع من لحم ودم.. أصابع يحركها كما يريد.. تفعل ما كان يتمنى أن تصنع أصابعه..

ثم عندما توالت المنشورات أحس بأن الأصابع الستة قد أصبحت عشرة أصابع.. ثم أصبحت ستين إصبعاً!

لماذا كان يريد أصابعه العشرة؟ لكي يطلق مدفعه. وهذه المنشورات التي يشترك في طبعها هي ألوف الرصاص يطلقه من مدفعه. هي قنابل يلقيها في ميدان القتال!

لماذا كان يريد أصابعه العشرة.. ليطوق بها جسد شريفة، ليضمها إلى صدره؟ ولكنه الآن بعد أن اشترك مع شريفة في هذه العملية السرية أصبح يحس كأنها دائماً بين أحضانه.. فهذا العمل السري المشترك قربها إليه، جعله يفهمها أكثر مما فهمها، جعله

يحبها أضعاف ما أحبها من قبل.. أحس بأنها ليست زوجته فقط، إنها زوجته وعشيقته وحبيبته وكاتمة أسراره وقبل كل هذا رفيقته في المعركة.. إن قلوبنا تنبض بالحب ونحن نحارب، أكثر مما تنبض ونحن نسترخي على مقاعدنا في هدوء وسلام..



وكان صبحي خالد يفكر في المرأة المصرية. هؤلاء الفارسات الثائرات اللاتي يراهن أمامه من بنات جيل الحريم، حبيسات البيوت، المختفيات وراء حجاب سميك، ينظرن إلى الدنيا من خلال ثقوب المشربيات، لا يستطعن الخروج من بيوتهن إلا في حراسة الأغوات.

سلالة الجاريات اللواتي كن يبعن في الأسواق، ما الذي جعلهن يتحولن في يوم وليلة إلى بطلات فدائيات؟

ولكن من قال إنهن كن راضيات بحياة الحريم؟ أيكون المسجون الذي وضعناه في زنزانة، راضياً بقيوده لأننا كممنا فمه ومنعنا صوته أن ينطق بالصراخ؟ أنلومه أنه لم يحطم القضبان ونحن الذين وضعنا في يديه القيود؟

لقد قرأ صبحي في تاريخ حملة نابليون على مصر أول تقرير سري مرفوع من قيادة الاحتلال إلى حكومة فرنسا، وقد جاء فيه أن ثلاث فتيات من الاسكندرية كن يشتركن في إطلاق الرصاص على الغزاة. كانت إحداهن تمسك سيفاً وتقتحم صفوف الفرنسيين وتغمد سيفها في صدورهم غير عابئة بطلقات المدافع والرصاص.. وانهال عليها الرصاص إلى أن سقطت على الأرض وسيفها في يدها.. وتصور الفرنسيون عندما رأوا بياض وجهها أنها أحد فرسان المماليك، فلما كشفوا عن جسدها ليروا مواقع الرصاص

فوجئوا بأنها فتاة عربية!

وتذكر صبحي قصة فتاة من أهل رشيد كانت تخرج كل ليلة في الظلام، وتقترب من جندي أو ضابط فرنسي، ويعتقد الضابط الفرنسي أنها تغازله، وتشير إليه أن يتبعها، فيتوهم أنها تدعوه إلى موعد غرام.. ويمشي وراءها مبتعداً عن زملائه.. ثم ترتمي فتاة رشيد بن ذراعيه، ثم تغمد في صدره خنجرها.. وبعد ذلك تحمله على ظهرها وتدفنه في بئر بيتها!

واعترف الفرنسيون في وثائقهم الرسمية أنهم عثروا في بئر منزل الفتاة على جثث خمسة عشر جندياً فرنسياً من جنود الاحتلال!

وعندما دخلت جيوش نابليون القاهرة حملت الحملة أفكار الثورة الفرنسية عن المساواة بين المرأة والرجل، وأرادت أن تكسب قلوب النساء المصريات، فحرضتهن على السفور، وملأت الأسواق بمناديل ملونة من فرنسا وبأزياء أنيقة وروائح عطرية من باريس..

وتصور نابليون أنه كسب المرأة المصرية إلى جانبه.. وإذا به يفاجأ عندما قامت ثورة الشعب في بولاق بأن النساء المصريات كن يحاربن الفرنسيين إلى جوار الرجال.. كأنما المرأة المصرية رفضت أن تتساوى بالرجل المصري في العبودية، وأصرت أن تتساوى به في الحرية!

وفي ثورة سنة ١٩١٩ خرجت النساء المصريات ببراقعهن البيضاء في مظاهرة اقتحمت حصار الجيش البريطاني على دار الحماية، واقتحمت المظاهرة الكتيبة البريطانية التي كانت تحرس دار عبدالخالق ثروت باشا الذي دعاه الانجليز أن يخرج عن إجماع

الشعب برفض تأليف وزارة حتى بقيت مصر عدة شهور بغير وزارة.. وتقدمت إحدى السيدات من ثروت باشا وجذبته من رباط عنقه وقالت له:

ـ إذا قبلت أن تحكم مصر في ظل الحماية البريطانية فسوف تقتلك امرأة مصرية!

ورفض ثروت باشا أن يؤلف وزارة.. واضطر الانجليز أن يعلنوا إلغاء الحماية ليقبل ثروت باشا أن يؤلف الوزارة!

وتذكر صبحي صفية زغلول زوجة سعد زغلول، عندما ذهب سعد إليها قبل أن يقوم بالثورة وقال لها:

ـ سأضع رأسي على كفي اليمنى!

فقالت له:

ـ وضع رأسي على كفك اليسرى!

وعندما قبض الإنجليز على سعد ونفوه إلى جزيرة سيشيل، تحركت الزوجة صفية زغلول فطلبت أن تصاحب زوجها المسن المريض إلى منفاه، ورفض الإنجليز.

وقادت صفية زغلول الثورة. وأصبحت ترئس اجتماعات الوفد وتوقع بإمضائها المنشورات الثورية التي تدعو إلى قتال الإنجليز.. وتشترك في اجتماعات الجهاز السري للثورة!

وأحس الإنجليز بخطورتها، فاتصل بها اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني وقال لها: إن الحكومة البريطانية أجابت طلبها ووافقت على أن تلحق بسعد في منفاه.

قالت له:

- إنني قررت أن أبقى في بلدي لأقود الثورة ضدكم!

وهكذا كانت في مصر امرأة تتزعم ثورة، وترئس حزباً قبل أن تفعل هذا أي امرأة أخرى في العالم.. فالمرأة المصرية هي قنبلة، كل ما تحتاج إليه من يشعل الفتيل، وعندئذ تنطلق!

□ □ □

وكانت إحسان زوجة صبحي خالد تفكر في الدكتورة دوريس.

إنها الآن بين أحضان فوزي صلاح الدين كما كانت هي منذ شهور.

إنه يقول لها نفس الكلمات التي قالها لها.

إن السيدة زينب هي التي أنقذتها من هذا المصير. لقد قالت لها الدكتورة دوريس مرة إنها لا تؤمن بالله وإن الله خرافة.. أفيون خلقه الرجعيون لتخدير الشعوب. الله شيء نسمع به ولا نراه.. الإيمان عملية خداع النفس.. كل هذه الآراء سمعتها من الدكتورة الكافرة دوريس.

ولو كانت دوريس تؤمن بالله لرأت الله.. لأنقذها من هذه التضحية.. قد يكون الله هو الضمير.. الذين يفقدون الإيمان يفقدون ضمائرهم.. يتوهون. إن إحسان كلما تتجه إلى القبلة في كل صلاة تحس أنها لم تعد تتوه، أصبحت تعرف طريقها. كان اتجاهها هو اتجاه البوصلة إلى طريق الأمان. كأنها سفينة ضالة ووجدت البوصلة التي ترشدها إلى الميناء.

لقد سقطت مرة لأنها كانت تريد التغيير.. ظنت أنها لو غيرت

فراشها فكأنها تغير حياتها، ولكن تغيير الجسد ليس تغييراً. المرأة عندما تغير زوجها بعشيق كأنها تغير ثوبها بمايوه. ترتديه على الشاطىء ولا تستطيع أن تمشي به في الشارع. يصلح لفصل واحد في السنة ولا يصلح لباقي فصول السنة. المايوه قد يشجعنا على السباحة، ولكنه قد يؤدي إلى الغرق..

إنها أحست بالتغيير عندما أصبح لها هدف في الحياة.. فهذه المنشورات التي تشترك فيها هي عملية تغيير، غيرتها، وهي تريد أن تغير بها الفساد في بلادها. إنها أصبحت تحترم زوجها لأنه يشترك في هذه العملية. لأنه لم يعد فأراً. إنها أصبحت فخورة به.

لم تكن تستطيع أن تحب رجلاً تحتقره، فالحب نوع من العبادة. الرجل لكي نحبه يجب أن يكون إلٰهاً صغيراً.. فإذا فقد الرجل احترام المرأة فقد حبها، وكلما أحبته ارتفع في عينيها.. ولهذا فالمرأة تحب القوي، وترثي للرجل الضعيف. فالعين عندما تنظر إلى فوق تحب، وعندما تنظر إلى تحت تحتقر ما تراه، وألقت إحسان نظرة على زوجها فأحست كأنه أصبح أكبر مما كان!

□ □ □

وكان الطالب شامل شفيق يفكر في صديقته الممثلة كاميليا كامل. هذه المرأة التي خلبت لبه وملأت قلبه واستقرت في عقله وملكت حواسه.

إنه يفكر في أن يتزوجها. لم يعد يستطيع أن يعيش بعيداً عنها. أصبح يحب الحياة لأنها تعيش فيها. أصبح يقوم بمغامرات مذهلة في توزيع المنشورات ليرى نظرة الإعجاب في عينيها.

الرجل والمرأة عندما يعملان جنباً إلى جنب في قضية يؤمنان بها يشعران باندماج لذيذ كالتصاق جسدي العاشقين.

الكفاح المشترك فيه لذة لا تقل عن لذة الجنس. فيه إثارة ونشوة ومتعة.

التصاق العقل بين المرأة والرجل هو خطوة أعلى من التصاق القلب والتصاق الجسد، هو لذة حقيقية، هو الجنة الثالثة، إذا كان حب القلب هو الجنة الأولى، وحب الجسد هو الجنة الثانية!

لقد أحس شامل قبل ذلك بالجنة الأولى عندما أحب جارته فوزية، وأحس بالجنة الثانية في علاقاته ببعض السيدات المتزوجات، ولكن هذه الجنة الثالثة لم يحس بها إلا مع كاميليا. أحس بها ممزوجة بالجنتين الأخريين، ولهذا فيجب أن يتزوجها!

ولكن هل يوافق والده اللواء حسن باشا شفيق على أن يتزوج من ممثلة؟ إن والده رجل محافظ يعيش في القرن الماضي يعتقد أن كل الممثلات عاهرات، وكل السيدات المقيمات داخل البيوت شريفات، ولقد قال له مرة إنه يتمنى أن يتزوج فتاة مثقفة كالدكتورة دوريس.. الدكتورة دوريس التي يراها شامل الآن بين أحضان فوزي بك صلاح الدين..

الجيل القديم وضع يديه على عينيه حتى لا يرى الحقائق، وهو يطلب من الجيل الجديد أن يصاب بنفس العمى، فيرى الفضيلة في مظهر المرأة لا في حقيقتها.. في مهنتها وليس في تصرفاتها. المرأة التي تمارس الحب الأسود في الظلام ملاك من السماء.

هذا الجيل يحكم على كل شيء بمظاهره. ولهذا نطلي جدران بيوتنا من الخارج لنغطي قذارتها من الداخل. نلمع الأزرار النحاسية ليأخذ بريقها العيون فلا نرى أن خلفها نفوساً مريضة.. نحارب نور الشمس لأن الظلام يتستر على عيوبنا وجرائمنا!

إن شامل أصبح يؤمن بأن الفساد الذي يحاربه ليس فساد الدولة وحدها وإنما هو فساد المجتمع كله. هو يحارب سعدون باشا ويحارب أفكار والده حسن باشا شفيق في الوقت نفسه.. فالمجتمع يتأثر بحكامه.. النفاق يسقط من فوق إلى تحت.. الفساد يتسرب من الأرض العالية إلى الأراضي المنخفضة.. الناس دون تفكير يرقصون على أنغام الألحان التي يعزفها حكامهم. عندما يصبح الملك لصاً تتحول الدولة أوتوماتيكياً إلى عصابة لصوص. وعندما يؤدي الملك الصلاة في المسجد ويذهب في موكب رسمي من المسجد إلى نادي السيارات ليلعب القمار، يتحول كثير من الناس إلى قرود يقلدون الملك في نفاقه. يصلون العشاء ويسرقون في الفجر. يعبدون الله أمام الناس ويعبدون الشيطان في الجرسونيرات. يعتبرون الدكتورة دوريس سيدة محترمة والممثلة كاميليا كامل فاجرة تستحق الرجم بالطوب والأحجار.

ولهذا فإن شامل شفيق يشعر بأنه بهذه المنشورات لا يحتج على الظلم الذي وقع على عبدالمنعم بيومي فقط، بل هو يثور على كل حكم ظالم، على الحكم الظالم الذي أصدره المجتمع على كاميليا كامل!

□□□

أما شريفة فقد كانت تفكر في بثينة زوجة الصاغ عبدالمنعم بيومي. إنها تحس بعذابها لأنها تعذبت في الأسابيع الثلاثة التي أمضاها زوجها عزيز علاء الدين في سجن الاستئناف.

ولكن عذاب بثينة سيكون أضعاف عذابها.. إن زوجها محكوم عليه بالسجن المؤبد.. السجن مدى الحياة.. كأنه حكم عليها بأن تعيش أرملة، أرملة رجل حي مدفون في قبر، فما السجون إلا قبور الأحياء.

بل إن الأرامل أسعد حظاً من زوجات المحكوم عليهم بالسجن المؤبد. . الأرملة تستطيع أن تزور قبر زوجها كل يوم أو كل أسبوع، وتبقى إلى جوار القبر كما تشاء. . ولكن زوجة المحكوم عليه بالمؤبد تزوره مرة واحدة كل شهر، ثم لا تستمر الزيارة أكثر من دقائق. لا تسلم حتى تودع. لا تفتح عينيها على وجهه حتى تغمض عينيها على ذكراه. .

ترى كيف تعيش بثينة وأولادها؟ هل ستجد ما تأكله؟ هل سيساومها سعدون باشا على عرضها كما ساوم شريفة؟ هل تصمد كما صمدت شريفة، أم أن كارثتها الكبرى ستجعلها تنهار تحت أثقالها؟

الذين يصدرون أحكام المؤبد يتصورون أنهم سجنوا المتهم، ولا يعرفون أنهم شنقوا زوجته وذبحوا أولاده أيضاً. .

هل يكفي أن نصدر المنشورات لنعلن عن الذين ظلموا عبدالمنعم، ونترك أولاده يموتون من الجوع؟

إن صفية زغلول كانت تزور بيوت المحكوم عليهم أثناء ثورة سنة ١٩١٩ واحداً واحداً. كانت تحمل إليهم النقود سراً. كان سعد زغلول قد أصدر أوامره بأن تتقاضى أسرة المسجون ضعف المرتب الذي كانت تتقاضاه عائلته من الحكومة. كانت تستقبل صفية زغلول في بيت الأمة أبناء وزوجات الشهداء وتجلسهم إلى جانبها. . وكانت تلتفت إلى الباشوات من أعضاء الوفد وتقول:

ـ إن مركزكم في البروتوكول الوطني يجيء في الترتيب بعد أبناء وزوجات الشهداء!

ومن أجل هذا يتسابق الشعب إلى الموت تسابق الناس في هذه الأيام إلى المجد والسلطان. فمن سوف يزور بثينة؟ من سيعنى بأولادها؟ من سيقف بجوارها يدافع عن شرفها أمام الذئاب أمثال سعدون باشا!؟

وفجأة توقف الفرسان والفارسات عن تفكيرهم الذي غرقوا فيه. سمعوا صوت جرس باب الشقة يدق. . ثم يعود ويدق من جديد. . ثم يدق مرة ثالثة. . ثم يستأنف الجرس في الرنين بعد انقطاع. .

وسمعوا حركة داخل الشقة وأبواب تفتح في هدوء وتغلق في هدوء، وباب يغلق بالمفتاح.

ثم عاد الجرس إلى الرنين من جديد. .

ثم سمعوا باب الشقة يفتح. .

وسمعوا صوتاً عرفوه على الفور هو صوت الدكتور أحمد العروسي يقول: أين دوريس؟

وقال فوزي بك صلاح الدين بصوت متلعثم:

ـ الدكتورة دوريس ليست هنا!

قال الدكتور العروسي:

ـ غريبة. . إن دوريس قالت لي إنها ستحضر إلى هنا لعلاج حرم محمد بك سعيد. .

قال فوزي بك بصوت يرتجف:

ـ حرم محمد بك سعيد خرجت. . وأنا في انتظارها. . ثم تمالك فوزي بك نفسه وقال:

ـ ماذا حدث؟

قال الدكتور العروسي:

ـ إن دكتورة في مستشفى فؤاد للولادة طلبتني في التليفون الآن وقالت لي إن وزير الصحة اتصل بها وأبلغها رسالة هامة إلى الدكتورة دوريس، وطلبت مني أن أدعوها فوراً لتبلغها الحديث في التليفون. .

قال فوزي بك:

ـ لعلها في شقة زليخا هانم في الطابق الرابع.

قال الدكتور العروسي:

ـ لا، إنها قالت لي إنها في شقة حرم محمد بك سعيد في الطابق الخامس!

ثم سمع الفرسان صوت باب الشقة يغلق. . وصوت قدمي فوزي صلاح الدين وهي متجهة إلى غرفة النوم. . أسرعت شريفة تنزل السلم الحديدي على أطراف قدميها، ووضعت أذنها على ثقب الباب وسمعت الدكتورة دوريس تقول لفوزي في رعب:

ـ هل تظن أنه صدقك أنني لست هنا؟!

قال فوزي بك:

ـ لا أعرف. . لقد كانت نظراته غريبة!

قالت دوريس:

ـ وماذا أفعل؟. .

قال فوزي:

ـ إن الحل أن تدخلي إلى إحدى الشقق وتدعي أنك كنت هناك؟!

قالت دوريس:

ـ أي شقة؟ إنني أكرههم جميعاً. . ولا أستطيع أن أئتمن أحداً في العمارة على سري!

قال لها فوزي بك بغلظة:

ـ تصرفي! المهم أن أخرج أنا الآن فوراً. . لأنني يجب أن أحافظ على سمعتي ومركزي!؟!

قالت دوريس بصوت مخنوق:

ـ وسمعتي أنا؟

وفتح فوزي بك باب الشقة وخرج دون أن يرد على السؤال!

وانتظرت دوريس عشر دقائق، ثم فتحت باب الشقة، وخرجت متلصصة وأقفلت باب الشقة بهدوء. .

وانفجر الفرسان والفارسات بالضحك!

وكان السؤال الذي اختلفوا في الإجابة عليه: هل عرف الدكتور العروسي أن زوجته هي التي كانت في الشقة أم لم يعرف؟

وقال صبحي خالد إنه واثق أن الدكتور العروسي عرف، لأن الزوج يستطيع أن يشعر أكثر من سواه بأن زوجته تخونه!!

وسكتت زوجته إحسان، وهزت رأسها موافقة، وهي تعلم تماماً أن الزوج هو آخر من يعلم!

وقال عزيز علاء الدين إن من رأيه أن الدكتور العروسي يعرف طول الوقت أن زوجته تخونه، فمن غير المعقول أن لا يعرف أنه لا توجد في الشقة سيدة اسمها حرم محمد بك سعيد!

وقالت كاميليا كامل إن الدكتور العروسي قصد بهذه المفاجأة أن يفهم فوزي صلاح الدين بأنه يعرف كل شيء.. وأراد أن يقبض ثمن السكوت!

ثم سمعوا نقراً خفيفاً على باب الشقة الخلفي الموصل إلى سلم الخدم. وفهموا من نغمة الدق على الباب أنها نغمة أغنية «صوابعك العشرة» فعرفوا أن الخادمة سعدية تريد الدخول..

وأسرعوا يفتحون لها الباب..

ودخلت سعدية ضاحكة وهي تقول:

ـ ما رأيكم في هذا الانتقام الهائل؟!

قالت شريفة:

ـ ماذا فعلت.. هل أنت التي أخبرت الدكتور العروسي أن زوجته هنا؟

قالت سعدية وهي تضحك :

ـ عيب يا ستي.. لا يمكن أن أفتن.. إن الفتنة أشد من القتل.. لست أنا التي أخبرت الدكتور العروسي.. التي أخبرته دكتورة في مستشفى فؤاد..

قال صبحي خالد:

ـ ولكن من الذي أخبر الدكتورة؟

قالت سعدية وهي تغرق في الضحك:

ـ أنا الدكتورة.. أنا التي طلبت الدكتور العروسي من شقة درويش بك، وقلت له إنني طبيبة في مستشفى فؤاد، وإن الوزير يريد أن يبلغها رسالة هامة!

قالت شريفة:

ـ ولماذا فعلت هذا!؟

قالت سعدية:

ـ أردت أن أرد على الدكتورة دوريس عندما أخبرت الست بهيجة زوجة درويش بك بأن الأسطى مرسي كان يقبلني.. على الأقل أنا كنت أقبله فقط، على الأقل أنا لست متزوجة..

وضرب صبحي خالد كفاً على كف وقال:

ـ نحن الآن نقوم بعمل هام.. فكيف تشغلين نفسك بهذه المسائل الصغيرة.؟ لقد كنت أتصور أنك بطلة!

قالت شريفة وهي تبتسم:

ـ إنها بطلة نعم.. ولكنها امرأة أيضاً!

ـ ٢٨ ـ

سمع عبدالمنعم صفارة الشاويش تدعو المسجونين للذهاب إلى طابور الجبل، ليكسروا الأحجار، ليحملوا على ظهورهم الصخور، ليقفوا ساعات طويلة في الشمس المحرقة يقومون بما أطلق عليه القانون اسم الأشغال الشاقة!

وخرج عبدالمنعم من زنزانته في العنبر ٤ بسجن طرة، يتعثر في قيوده يكاد ينكفىء على وجهه كلما خطا خطوة. لقد وضعوا في قدميه قيدين غليظين من الحديد، متصلين بسلسلتين طويلتين ترتبطان بحلقتين من الجلد مثبتتين في حزام جلدي فوق بطنه. السلاسل تقيد خطوته، سلاسل الحديد تحتك بالأرض وبقدمه، وتحدث صوتاً مرعباً وألماً مبرحاً. كلما اهتز جسمه اهتزت السلاسل، وأحدثت صوتاً يمتزج فيه الرنين بالأنين.

وسمع صوت السجان الكريه يقول في لهجة آمرة متعالية:

ـ تحرك! أسرع!

وتأمل عبدالمنعم وجه السجان.. عرفه.. كان منذ سنوات أحد جنوده في المدفعية. كان يسارع كلما رآه ليرفع يده بالتحية العسكرية.. ترى هل عرفه العسكري في بذلة السجن الزرقاء؟ هل عرفه بعد أن حلقوا شعره الطويل إلى رقم واحد؟ هل عرفه بعد أن جردوه من التاج النحاسي على كتفيه ووضعوا بدلاً منه قيداً من الحديد في قدميه؟ ولم يلبث عبدالمنعم أن عرف الجواب، عندما أحس بيد السجان تدفعه من خلفه دفعة قوية فانكفأ على وجهه وسقط على الأرض وسمع السجان يقول له:

ـ أنت لم تعد صاغاً في الجيش.. تحرك يا مذنب.. أسرع!

وبذل عبدالمنعم مجهوداً حتى استطاع أن يقف على قدميه.. ثم حار كيف يتحرك، كيف يسرع.. إن قيوده تمنعه من الحركة.. أصفاده تحدد خطواته. إنه يجر في قدميه حديداً وزنه ثلاثة كيلو جرامات، ولكن قيوده جعلت هذه الكيلوجرامات ثقيلة، كأنها ثلاثمائة...

كأن قيودنا تضاعف ما نحمل من هموم ومن حديد.. إن العبقري الذي اخترع فكرة أن يجر السجين سلسلة من الحديد قصد أن يمنعه من الهرب، وقصد أيضاً أن يشعر السجين دائماً أنه يجر وراءه خطاياه، افترض أن ذنوبنا من الحديد.. لم يتصور أن ذنوبنا قد تكون جرائم رأي، ذبذبات تطير في الهواء.. ولكن قد يكون الطاغية معذوراً، قد تكون كلماتنا المصنوعة من هواء سقطت على رأسه كأنها قضبان ثقيلة من الحديد..

ومضى عبدالمنعم يجر ذنوبه الحديدية خلفه، وانضم إلى ألوف المسجونين الذين يتكون منهم طابور الجبل. وأجلسوهم على الأرض، ثم وقف حارس يحصيهم واحداً واحداً. ثم صدر إليهم الأمر بالتحرك. ومشت الألوف تجر سلاسلها وقيودها، فيحدث صوت السلاسل صوتاً رهيباً مدوياً.

ثم صرخ بهم ضابط أن يقفوا، فوقفوا. وبدأ حارس آخر يحصيهم من جديد. ثم استأنفوا موكب السلاسل. وأحس عبدالمنعم وهو يسمع صوت السلاسل المتلاطمة كأنه يسمع صوت مصر من بعيد.. إن السلاسل التي تقيد الملايين تحدث دوياً أكثر مما تحدثه السلاسل التي تقيد الألوف. ترى هل تسمع مصر صوت

سلاسلها كما يسمعه هو الآن، أم أن أغاني الإذاعة الراقصة العالية غطت على صوت السلاسل التي تشبه الأنين؟ أترى مصر سلاسلها، أم أن سلاسلها هي الأخرى خلفها فلا تراها وأبصارها مشغولة برؤية حُكامها المهزومين وهم يمشون في مواكب الفاتحين؟

أيكون كل هؤلاء في موكب العبيد من المجرمين، أم أن أغلبهم من المظلومين مثله، تهمهم ملفقة وقضاتهم سعدون باشا؟

لا بد أن في حياتنا أكثر من سعدون باشا.. سعدون كبير وسعدون صغير. في كل مدينة سعدون.. وفي كل قرية سعدون.. فالظلم يلد ظالمين والظلام يفرخ طغاة.. الذي يسرق الملايين في قصر والذي يسرق الملاليم في زنزانة.. الذي يقتل فرداً ينام على البلاط، والذي يقتل شعباً يعيش في بلاط فاروق.. الذي باع جراماً من المخدرات ليخدر بضعة أشخاص يحكم عليه بالمؤبد. والذي يخدر أمة بأكملها يحكم دولة إلى الأبد!

هل المجرم هو الذي يكتب اسمه في سجلات السجن الرسمية؟ هل ينقل التاريخ معلوماته من السجلات التي كتبتها الحقيقة أم من السجلات التي كتبها مجرمون؟ وماذا يفعل المؤرخون غداً إذا كانت الحقيقة نفسها مسجونة في زنزانة؟ سجلات الملفقين تقول إنه مجرم، وسجلات الوطنيين تقول إنه بطل. ولكنه يعرف أنه ليس مجرماً وليس بطلاً.. فالحقيقة لن تعرف سواء انتصر أعداؤها أم انتصر عشاقها. كأن الحقيقة مثله مقيدة بالسلاسل وتجر خلفها كرة من حديد!

الحقيقة تائهة. كأنها سفينة في بحر مظلم، الظالمون حطموا مجاذيفها عندما حطموا أقلام الكتاب الأحرار، سفينة بلا شراع..

لأن شراع الحقيقة هو الحرية. وأول ما يفعله الطغاة أن يمزقوا هذا الشراع لتسير السفينة على غير هدى.. سفينة ربانها أعمى. لأن الطغاة عندما يفرضون الرقابة على صحفهم يقصدون أن يعموا التاريخ، فلا يلمح نجماً أو منارة أو يرى بوصلة، يهتدي بها لترسو الحقيقة على شاطىء النور..

ولهذا فإن الحقيقة لن تجيء إلينا. يجب أن نبحث عنها لنجدها ونجيء بها فحربنا من أجل الحرية هي حرب من أجل الحقيقة. وعندما نقاوم الطغيان نقصد أن نعيد البصر إلى عيني الربان الأعمى فيهتدي، ونعني أن نعيد المجاذيف إلى السفينة فتتحرك، ونعيد إليها الشراع لتتجه بنا إلى شاطىء النور.

ووصل طابور العبيد إلى باب السجن، وأوقفوه مرة أخرى، وبدأوا يحصون المسجونين من جديد.

ثم خرج الطابور من باب السجن تحيط به الكلاب البوليسية، وكتيبة من الحرس تحمل البنادق والمدافع، وضابطان فوق حصانين يشرفان على الموكب الطويل.

ومشى الموكب عدة كيلومترات إلى أن وصل إلى الجبل. وهناك قسموا المسجونين إلى فرقتين للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة. فرقة ٥ جمالة وفرقة ٦ جمالة. وأطلق عليها اسم «جمالة» لأن المسجون يحمل الحجر على ظهره مثل الجمال!

ويقوم جزء من الفرقة بتكسير قطع الصخور الكبيرة إلى قطع يمكن حملها بمجهود مضن. وباقي الفرقة يحمل الأحجار من الحفرة إلى مكان التشوين. ومطلوب من كل مسجون أن يحمل على ظهره

مترًا مكعباً من الصخور في اليوم الواحد. ويسمون هذه الكمية «غمرة»!

وأمسك عبدالمنعم معولاً وراح يهوي به على صخور الجبل الصلبة، والعرق يتساقط من جسده، وأحس وهو يحطم صخور الجبل كأنه يحطم جبل الطغيان والفساد في وطنه. كان يتصور كل صخرة وكأنها رأس سعدون باشا أو رأس حماد باشا أو رأس الشمردلي باشا، القضاة الثلاثة الذين ظلموه.

وكان يهوي على الصخور بعنف وغيظ وقسوة. وكان يسائل نفسه كم من المعاول يحتاج إليها هذا الشعب ليهدم الجبل!

ونظر إلى الجبل فهالته ضخامته، ونظر إلى نفسه فأحس بضآلته إلى جوار الجبل الكبير!

تمنى عبدالمنعم في تلك اللحظة لو كان مجرماً حقيقياً. لو أنه فعلاً طبع المنشور الذي اتهموه ظلماً بطبعه. ندم على أنه بريء. ندم على أنه لم يطبع بعينيه عندما تبين أن القنبلة الذرية التي تنفق الدولة عليها ألوف الجنيهات هي الراقصة ببا. تصور يومها أنه يكفيه أن ينفض يديه من العمل في مكتب الأمير عادل عمرو، وأن يبتعد عن الجو الموبوء، وأن يذهب إلى الجبهة يدافع عن تراب الوطن!

تصور أنه وهو يصوب مدفعه إلى صدر العدو في أرض فلسطين أنه يحرر بلاده. مع أنه تعلم في الكلية الحربية أنه قبل أن يتقدم الجيش يجب أن ينظف الجيوب التي تركها خلفه. ولكنه لم يطبق ما تعلمه. ثم كانت النتيجة أن جاء إلى السجن يكسر الأحجار!

لقد أخطأ عندما اختار موقفاً سلبياً. لا يكفي أن تعتبر نفسك

شريفاً لأنك رأيت اللص يسرق ولم تسرق معه. الشريف هو الذي يغامر بحياته ويمسك اللص. أما الذي يكتفي بعدم الاشتراك في السرقة فليس شريفاً، إنما هو شريك صامت للص. . فنحن جميعاً بصمتنا عن الظلم، شركاء صامتون للظالمين.

ابتعادنا عن مواطن الفساد هو عملية إخلاء الطريق للفاسدين، كأننا نمهد لهم ونساعدهم لارتكاب جرائمهم. سكوتنا يشجعهم وصمتنا يطمئنهم. . سلبيتنا تشحذ سيوفهم التي يقطعون بها رقابنا. لو أن كل واحد منا همس بالحقيقة التي راها، لأضاء شمعة، ولصنعت ملايين الشموع ضوءاً يشبه أشعة الشمس، ولانقشع الظلام، واختفت الفئران والذئاب واللصوص في الجحور. . ولكن كل واحد خشي أن يلسع نور الشمعة إصبعه، فكانت النتيجة أن الظلام أحرقنا كلنا. .

ونظر عبدالمنعم حوله فرأى الكلاب البوليسية والحراس الذين يحملون المدافع، وتنهد، إن كل ظالم حوله عدد من الحراس والكلاب. . عدد قليل من الحراس يخيف بهم الملايين. . عدد صغير من الكلاب يطلقها لتنهش الناس، وتلطخهم بالطين، وتنشب أحكامها الظالمة في أجسادهم البريئة!

وهؤلاء الألوف من المسجونين الذي يخضعون هذه المدافع يخضعون لهذه الكلاب. لو أن عشرين منهم فقط ضحوا بحياتهم لانتزعوا المدافع من الحراس، ولقتلوا الكلاب، ولأطلقوا سراح هؤلاء الألوف!

ولكن كل واحد منهم لا يريد أن يكون واحداً من العشرين الذين يموتون، إنما يريد أن يكون واحداً من الألوف الذين

يستفيدون من تضحية العشرين. يفضلون أن يبقوا أحياء والقيود في أيديهم، على أن يموتوا بعد أن حرروا الألوف من زملائهم. ولهذا تبقى السلاسل ويبقى الكلاب!

ثم راجع عبدالمنعم نفسه. إنه هو الآخر حكم على أبناء بلده حكماً ظالماً كالحكم الذي أصدره سعدون باشا ضده. إنه نسي في غضبه وسخطه هؤلاء الشجعان الذين كتبوا المنشور الذي هاجموا فيه حكومة الملك وطغيانه وفساده. ترى من هم؟ كم عددهم؟ هل جبنوا وخافوا عندما حكم عليه بالسجن المؤبد، أم أنهم ثاروا على الظلم الذي وقع عليه؟ إنهم وحدهم الذين يعرفون أنه بريء. إنه لم يسمع عن هذا المنشور إلا عندما واجهه به حامد بك السيوفي في أثناء التحقيق.

إنه لا يحقد على هؤلاء الأبطال الذين قاموا بهذا العمل المجيد. كان يشعر أن حرب فلسطين لم تحدث الدوي الذي أحدثه هذا المنشور. لا بد أنهم ضباط في الجيش. لأنهم أشاروا إلى فقد الصاغ عزيز علاء الدين أصابعه العشرة، وأشاروا الضباط الأربعة الذين استشهدوا في معركة ساموراي..

ولكن من أين عرفوا حكاية الراقصة ببا وتسميتها القنبلة الذرية؟ ثم إنه لم يخبر أحداً بهذه التسمية إلا عزيز علاء الدين عندما زاره مواسياً. لا يمكن أن يكون عزيز علاء الدين هو الذي طبع المنشور. إن عملية الطبع في حاجة إلى أصابع، وعزيز فقد أصابعه العشرة. عزيز لا يمكن أن يطبع منشورات، فعندما رآه وجده يائساً من كل شيء، كافراً بكل شيء. إن هذه العمليات السرية لا يشترك فيها اليائسون الكافرون. فهي في حاجة إلى حالمين مؤمنين. شبان مؤمنون أنهم يستطيعون بدبابيس صغيرة أن

يهدموا الجبل الكبير.. اليائسون يرون الجبل فتروعهم ضخامته، والحالمون يرون الجبل فيتصورون أنه أتربة مغطاة بالأحجار! أنها قشرة فقط.

وانتهى عبدالمنعم من تكسير وجبته من الأحجار، فإن لكل سجين وجبة معينة من الصخور يجب أن يحطمها وإلا تعرض للعقاب. ودهش أنه انتهى من وجبته بسرعة، وتلفت إلى الذين يحملون الفؤوس. تذكر أنه يتمنى أن يكون واحداً منهم. قيودهم في داخلهم وليست في خارجهم. حتى أثوابهم الزرقاء من لون بذلة السجن التي يرتديها. بيوتهم تشبه الزنزانات. ديونهم هي كرات الحديد التي يجرونها وراءهم أينما ساروا. العمدة ضابطهم والخفير حارسهم. والصراف هو عسكري التأديب الذي يحمل السوط وينهال به عليهم بلا جريمة ولا سبب!

ثم سمع صراخاً، ورأى المسجونين يندفعون إلى ناحية بعيدة، فأسرع يجر سلاسله وراءهم فوجد أن الجبل انهار فوق عدد من المسجونين ودفنهم أحياء!

وسمع أن هذا روتيني، يحدث كل يوم. وفي أنحاء العالم عندما ينهار منجم على عاملين تقوم الدنيا وتقعد. وتنشر الصحف النبأ بالعناوين الضخمة. أما هنا فلا يسمع أحد بما حدث. الضباط أخصائيون في كتابة المحاضر وتلفيقها. سيخفون أنهم القتلة الحقيقيون. سيسجلون في المحضر أن القتيل هو المسؤول. نصحناه أن يبتعد عن المكان فلم ينتصح. أنذرناه فلم يرتدع. بينما الحقيقة أن الضابط هو الذي أصر أن يعمل المسجونون في هذا المكان الخطر بالذات.. وسيجد الضابط عدداً من شهود الزور من المسجونين يضطرون إلى الشهادة في المحضر بأن القتيل هو المسؤول، مقابل أن

يحصل الواحد منهم على قروانتين من الفول المدمس بدلاً من قروانة واحدة. . إن شهود الزور في كل مكان. . . بعضهم اسمه سلامة بك والأزميري بك، وبعضهم اسمه المذنب فلان!

والمسجونون يهربون من هذا العذاب اليومي. فيقطعون أصابعهم بالبلط نظير أجر يتقاضاه مسجون تخصص في وظيفة الجزار الآدمي. . ومن لا يستطيع أن يدفع ثمن قطع إصبعه يضع ذراعه تحت عجلات القطار الذي يمر في الجبل، فتقطع عجلات القطار يده، أو ذراعه وبذلك ينجو من العمل في الجبل!

لقد لاحظ وهو يسير في موكب الجبل أن فرقة موسيقية عسكرية كانت تمشي في مقدمة الموكب. وتذكر أن فرق الموسيقى كانت تمشي دائماً في مواكب الجنازات، فالموكب الذي يمشي فيه جنازة أيضاً، جنازة للآدمية، جنازة للإنسانية، جنازة للحرية. . وهذه الخطوات البطيئة الحزينة، ليست خطوات المشيعين، وإنما هي حركات النعوش. كل واحد من هؤلاء الألوف من المسجونين يمشي في جنازته، يجر كفنه وراءه، وهو يموت كل يوم وتشيع جنازته كل يوم على الأنغام العسكرية!

وهم عندما يقطعون الأحجار يحفرون قبورهم بأيديهم. فالعمل في الجبل هو عملية موت بالقطاعي، وعملية دفن بالقطاعي، كأن عملية التعذيب اقتضت أن يقتطع من جسد المسجون جزءاً كل يوم. ولهذا فإن عدد الذين يخرجون من السجن من باب الموتى أكثر ممن يخرجون من باب الأحياء. والذين يخرجون أحياء .بالإسم هم أموات بالفعل. إذا لم تمت أجسادهم ماتت مشاعرهم. وإذا لم يفقدوا أصابعهم أو أيديهم فقدوا عقولهم.

وتطلع عبدالمنعم حوله إلى وجوه زملائه في الجبل، الوجوه السمراء التي لوحتها الشمس، تتساقط منها قطرات العرق، وكأنها دموع المعذبين. وساءل نفسه: هل كل هذه الوجوه وجوه مجرمين أشقياء؟ هل القسوة التي يشهدها في ملامح هذا السجين الذي بجواره هي قسوة الرجل أم قسوة الجبل؟ ربما أن السجن هو الذي يشكل ملامحنا. الحرية ترخي عضلات الوجوه والظلم يشد هذه العضلات.

أيدهشنا أن نرى عيون المظلومين فيها قسوة الخناجر التي طعنوا بها؟ هل نتوقع من الذي ضرب بالسياط أن يبتسم؟ المفروض في السجن أنه مصحة والمسجون مريض. والسجان ممرض والضابط طبيب. . ولكن انقلب الوضع وأصبح الممرض جلاداً، والطبيب حانوتياً، والمريض جثة، والمصحة مقبرة!

أصبحت السجون مدرسة المجرمين. تحول البريء إلى مجرم، تجعل من مجرم الصدفة مجرماً معتاداً على الإجرام. الظلم يعلمه الجريمة. القوانين الجائرة تعلمه كيف يخالف القوانين. عندما نزرع القسوة نجني السخط. كل من أصبح صاحب سلطة تحول إلى فرعون. فرعون كبير وفراعنة صغار أهراماتهم هي جثث المظلومين. يريدون أن يجعلوا من كل الناس تماثيل خرساء كتمثال أبي الهول. صراخ المظلومين وأنين المهزومين هو النشيد القومي الذي يعزف لهم يومياً في الصباح والمساء يشجيهم الصراخ ويطربهم الأنين. فشلوا في أن يغلبوا العدو الأجنبي، ونجحوا في أن يغلبوا أبناء وطنهم. فهي عملية تعويض. يعوضون هزيمتهم أمام العدو الحقيقي بانتصار على شعبهم. . فتوحاتهم في داخل بلادهم وليس في خارجها. أسراهم هم أخوتهم وأبناؤهم. مواكبهم هي جنازات أمتهم؟

هذا الحارس الذي هوى بعصاه بقسوة فوق ذلك المسجون المقيد بالأغلال هو واحد منهم. هو فرعون صغير. هو سعدون باشا. هو الشمردلي باشا. هو حامد باشا. هو الملك. كلهم مثل هذا الحارس الجبار. فئران في المعارك وأسود أمام المجردين من السلاح والمقيدين بالسلاسل والأصفاد.. عقولهم في سياطهم. يتوهمون أن هذه السياط هي التي تحل مشاكلهم، وترفع أقدارهم، وتوطد سلطانهم. وينشرون الخوف بين الناس لأنهم خائفون كراكب الأسد يخيف به الناس، وهو أشد منهم ذعراً ورهبة وخوفاً!

ثم سمع عبدالمنعم صوت البروجي يعلن انتهاء العمل في الجبل، فاصطف مع المسجونين، ومضت قافلة العذاب في طريق عودتها إلى السجن بين أنغام الموسيقى وعواء الكلاب وصراخ الضباط والحراس!

وفي طريق العودة أحس عبدالمنعم بأن الثقل الذي يجره في قدميه قد تضاعف. فالضنى والتعب والإرهاق في الجبل جعلته لا يستطيع أن يحمل نفسه. لا أن يحمل معه أيضاً السلاسل والقيود والأغلال. واختلط في أذنه صوت الموسيقى والكلاب والضباط والجنود، فلم يعرف أيهم يعوي وأيهم يعزف وأيهم يصرخ ويصيح!

وعندما وصل إلى زنزانته ارتمى في أرض الغرفة يتحسس أثر الأغلال في قدميه. ورأى في قدميه جروحاً ودماً ينزف.. لم يحس بهذا طوال رحلة العذاب.. وسأل زميلاً له ألا توجد صبغة يود يضعها على جرحه، وقهقه زميله ضاحكاً كأنه يسمع نكتة.. وقال له إن جروح السجون كجروح القلوب لا يضمدها الأطباء وإنما تضمدها الأيام.. وأمسك زميله بحفنة من التراب وألقاها على الجروح. وأحس عبدالمنعم براحة!

وعندما هدأت جروح قدمه تحرك الألم في جروح قلبه. بدأ يفكر في زوجته بثينة. في ابنته سميرة. في عروسة سميرة التي ألقاها حامد بك السيوفي على الأرض وهشم رأسها وهو يفتش البيت. ترى هل تعرف ابنته سميرة أن السيوفي بك هشم رأس أبيها كما هشم رأس عروستها؟ ألقاه على الأرض كما ألقى عروستها؟ داس عليه بقدمه؟ وضع حذاءه في فمه؟

وأحس عبدالمنعم في أذنه بصوت سميرة الحلوة الصغيرة تنشد له الأغنية التي علموها إياها في دار الحضانة. كانت تردد هذا النشيد صباح ومساء. هذا النشيد الذي يقول:

مصر العزيزة لي وطن
وهي الفريدة في الزمن
وهي الحمى وهي السكن

هل يخطر ببال طفلته سميرة وهي تغني هذا النشيد أن حكومة مصر العزيزة تعتقل أباها وألوفاً مثل أبيها.. تلفق عليهم التهم.. تجلدهم بالسياط.. تقلع أظفارهم بالكماشات.. تسلط عليهم الكلاب المتوحشة لتأكل جلودهم.. تبقيهم أياماً بلا نوم وبلا شرب وبلا طعام.. تربطهم في أسلاك كهربائية.. تغرقهم في برك من الماء المثلج.. تجردهم من ثيابهم؟

أتكون مصر الفريدة في الزمن هي التي تعامل أبناءها هذه المعاملة القاسية أم أن التعذيب أصبح موضة فكأننا هزمنا النازيين وورثنا أساليبهم، أسقطنا فلسفتهم السادية لنعتنقها، حررنا بلادنا من الأجنبي لنستعبد نحن أهلها.. كأننا نثور على جنسية السلاسل لا على السلاسل نفسها؟!

وتطلع عبدالمنعم إلى نافذة الزنزانة فرأى عصفوراً يقف بجوار القضبان الحديدية. وحسد العصفور لأنه حر. له جناحان يطير بهما، بينما عبدالمنعم له قيدان يمنعانه من الحركة. إن الله فضل العصفور على الإنسان عندما أعطاه الجناحين..

وعاد عبدالمنعم يفكر في ابنته سميرة من جديد. يفكر في أنشودة العصفور التي تعلمتها في دار الحضانة. الانشودة التي تقول:

الحبس ليس مذهبي
وليس فيه طربي
ولست أرضى قفصاً
وإن يك من ذهب

لماذا يعلمون أطفالنا هذه الأنشودة في مدارس الحضانة؟ أيعلمونهم إياها ليخافوا من الحبس، أم يعلمونهم إياها ليحطموا الأقفاص؟.. هل يرددها أطفالنا كالببغاوات.. أم يفهمون معناها ومغزاها، بأن الحرية لا تقدر بثمن، بأن الحرية هي الحياة؟ لو علم الأطفال معنى ما ينشدون لما قام في بلادنا طاغية. لأحس كل واحد منا أن حريته مهددة إذا هددت حرية رجل واحد في بلادنا.

وانتقل عبدالمنعم من التفكير في طفلته سميرة إلى التفكير في أمه. وحمد الله على أن أمه قد ماتت قبل أن تراه مكبلاً بالقيود. كانت أمه ملهوفة عليه دائماً، لا تكف عن قلقها، تجزع إذا سافر، وتسعد إذا عاد.. تفزع إذا مرض، وتطمئن إذا شفي.. تبتئس إذا توهمت نظرة حزينة في عينيه.. كان يحاول دائماً أن يكون رأسمالياً في أحزانه فيحتفظ بها لنفسه أو اشتراكيًّا في أفراحه فيوزعها على من حوله من الناس.

وكان قادراً على أن يخدع كل الناس ما عدا أمه. كانت تقرأ مشاعره بقلبها لا بعينيها. تسمعه دون أن يتكلم. تحس به وهو بعيد عنها. ماذا كانت تفعل لو أنها لا زالت على قيد الحياة ورأت الظلم الذي وقع عليه؟ كانت ستصاب بالشلل، كانت ستموت.. كان عذابه في السجن سيصبح أضعاف ما هو اليوم.

وعاد عبدالمنعم بذاكرته إلى آخر مرة زار فيها قبر أمه. كان ذلك ليودعها قبل أن يذهب إلى جبهة القتال،. وتملكه يومها شعور غريب لم يحس به قبل ذلك وهو يقف أمام قبر أمه.. يومها تلفت حوله فرأى مئات القبور، وتطلع إلى شواهد القبور فتصور أنها أيدي الموتى مرفوعة إلى السماء تلعن الظالمين. تصور أن البلد كله مات وهذه هي قبوره، وان كل ما استطاع أن يفعله الناس في مقاومة الظالم أن وضعوه «شواهد» على قبورهم.. فعندما تموت مقاومتنا نحسب في عداد الموتى، وعندما نصمت نتحول إلى قبور.. بعضنا مدفون في حفرة، وبعضنا مدفون في ضريح، ولكن كلنا موتى، لأن الموتى لا يتحركون ولا يتكلمون.

وقد ذهب إلى جبهة القتال ليموت هو الآخر، أراد أن يختار الطريقة التي يموت بها. فضل أن يموت برصاص الأعداء. بدلاً من أن يموت من الخوف والجبن والاستسلام. ولكنه لم يمت برصاص الأعداء. وإنما أطلقت عليه رصاصة من الخلف. رصاصة كانت يجب أن توجه إلى أعداء الوطن لا إلى جنود الوطن. وسوف يعتبره الوطنيون شهيداً في معركة!

ما أغرب الحياة. يستشهد الإنسان في معركة لم يدخلها، ولا يستشهد في معركة دخلها. إنه لا يستحق قاعدة التمثال التي وضعه

فوقها الذين اعتبروه بطلاً، ولا يستحق الصليب الذي صلبه عليه الذين اعتبروه خائناً. . ما هو إلا واحد من المظلومين، والمظلومون لا تقام لهم التماثيل. . إنما التماثيل تقام للذين ظلموا بلادهم أو للذين خلصوا بلادهم من الظالمين. . ترى هل تحس أمه في قبرها بما هو فيه، هل تحس بحيرته وعذابه؟ وحمد الله، لأن الموتى لا يشعرون. .

وانتقل تفكيره إلى زوجته بثينة. . لماذا لم يفكر فيها قبل طفلته سميرة وقبل أمه؟ لأن الطفلة لا يمكن أن تقدر الكارثة التي نزلت بأبيها، فعذابها صغير كسنها، والموتى لا يتعذبون في قبورهم. ولكن زوجته هي التي تتعذب فعلاً في وحدتها وشقائها وحرمانها.

ماذا ستفعل عندما تجيء إلى زيارته في السجن، عندما تراه في ملابس السجن الزرقاء. عندما ترى في قدميه السلاسل والقيود، عندما تراه من خلال السلك الذي يفصل الزائر عن المسجون، فيبدو كالنسانيس والقرود في أقفاصهم بمدينة الحيوان؟

إنه في شوق لأن يراها ويرى طفلته سميرة. ولكنه يشفق عليها من هذا اللقاء المرير. لقاء كله ذل وعار. إنه سيرفض أن يلقاها وهو في هذا المنظر المخزي. يريد أن تبقى صورته في عيونها كما كانت. لا يريد أن تتغير صورته بثوبه العسكري فيبدو في صورة المجرم!

ولكن هل تتصور زوجته أنه مجرم حقاً؟ إن عينيها قالتا له أثناء المحاكمة إنها مؤمنة ببراءته. هل زلزل الحكم عليه بالسجن المؤبد إيمانها؟ أتصدق بثينة أنه خان هذا الوطن الذي منحه عقله ودمه وشبابه؟ إنها تعرف كم أحب هذا الوطن، كم تعذب من أجله،

كم حارب في سبيله. إنها وحدها تعرف. أما باقي الملايين فإنهم سوف يصدقون الأكاذيب التي فرضتها إدارة الشؤون العامة على الصحف. إن الشاعر شوقي وصف هذا الشعب بأنه شعب بريء، يضلله المضلل كيفما شاء. فهل استطاعوا بأكاذيبهم وتلفيقاتهم أن يضللوا الشعب؟ هل صدق زملاؤه وأصحابه هذه التهم الباطلة؟ لو أنهم قرأوا مرافعة الأستاذ درويش مخلص المحامي لعرفوا الحقيقة. وكيف يعرفون الحقيقة والصحف منعت نشر المرافعة؟

إنه أعد زوجته دائماً لتكون زوجة شهيد. ولم يعدها لتكون أرملة سجين حي. اعتقد دائماً أنه سيموت في معركة الشرف، ولم يتصور أنه سيعيش في العار. كان يرغمها أن تسمع حديثه عن المعاش الذي سوف تقبضه عندما يصبح شهيداً. كان ينصحها أن تتزوج بعد وفاته. وكانت بثينة تبكي وهي تسمعه يحدثها عن الموت الذي ينتظره في المعركة. كانت تصرخ فيه قائلة: لا تحدثني في هذا الموضوع. . لن تموت. . أنا واثقة أنك لن تموت. . ولو مت فلن أتزوج رجلاً بعدك!

ولكنه مات. . مات بحكم القانون. . مات بالحكم الذي أصدره سعدون باشا. . مات وحرمت زوجته وابنته من المعاش. .

كيف تستطيع أن تعيش بثينة بلا مورد؟ لا بد أن تتزوج. سوف ينصحها في أول لقاء أن تطلب الطلاق لتتزوج. . إنه يريد أن يحميها من التشرد. . يريد أن يحمي طفلته من الجوع. .

إنه يعرف أنها سترفض الآن هذا الاقتراح، ستثور عليه. . ولكن الزمن سيجعلها ترضخ لما تثور عليه اليوم. القلعة تصمد أمام مدافع الغزاة، ولكنها لا تستطيع الصمود أمام صرخات

الجوع. لماذا تنتظر بثينة لتتزوج وهي راكعة على قدميها؟ لماذا لا تسرع بالزواج من الآن وهي لا تزال تستطيع الوقوف على قدميها الجميلتين؟ إنه لا يريد أن يكون أنانياً. أن يشجع بثينة على أن تصمد في معركة خاسرة. معركة طويلة. معركة يحارب وحده فيها ضد جيوش لا قبل له بها، ضد السلطان والجبروت؟!

وأحس عبدالمنعم بقلبه يتقطع ويتمزق وينزف دماً وهو يتصور زوجته بثينة بين أحضان رجل آخر.. وهو يتصور طفلته سميرة تعيش في كنف رجل غريب.. تصور الرجل الغريب ينهرها فتبكي.. تصوره يلقي بعروستها إلى الأرض.. تصوره يصرخ فيها أن تصمت وهي تغني نشيد: «مصر العزيزة لي وطن»...

ولكنه يجب أن يعود نفسه على هذا العذاب، كما عود نفسه على عذاب القيد الذي يربط قدميه، وعلى عذاب السلاسل التي يجرها خلفه، وعلى عذاب الصخور التي يكسرها ويحملها على ظهره. إن تشرد زوجته وتيتم سميرة هو جزء من الأشغال الشاقة المؤبدة المحكوم بها عليه. الحكم الظالم لا ينفذ على المسجون وحده، إنه ينفذ أولاً على زوجة المسجون وأولاد المسجون!

وتساءل عبدالمنعم عمن يقف من أصدقائه وزملائه الكثيرين بجوار زوجته وطفلته.

واستعرض زملاءه واحداً واحداً. إن كل واحد منهم مدين له بشيء. كثيرون منهم خدمهم عندما كان ياوراً للأمير عادل. أنصفهم عندما ظلموا.. ساعدهم عندما تخلى عنهم رؤساؤهم.. وقف بجوارهم في محنهم.. فمن منهم سيقف بجواره في محنته، من سيمد يده إلى بثينة وسميرة؟ هل سيخافون أن يمدوا أيديهم إلى

الأسرة البائسة فيقطع الملك أيديهم؟ هل سيحاول كل واحد منهم أن يختلق عذراً ليبرر به نكوصه عن مساندة بثينة وسميرة؟

بعضهم سيتذكر فجأة أن عبدالمنعم لم يعزه في وفاة قريب بعيد.. بعضهم سيلوم عبدالمنعم لأنه لم يهنئه بولادة مولوده الأخير.. بعضهم سيتصور أن عبدالمنعم لم يرد تحيته في الشارع.. بعضهم سيغطي جبنه وتخاذله في نصرة صديقه.. فيتظاهر أنه مقتنع بإجرام عبدالمنعم، وأن وطنيته تأبى عليه أن يساعد المجرمين الذين خانوا جلالة الملك! عذراً للطبيعة البشرية.. إنه لا يلوم الخائفين من السوط، وإنما يلوم الذين يحملون السوط.. لا يلوم المرتعدين من الطغاة، وإنما يلوم طغيان الطغاة..

ما ذنب الذين يحنون رؤوسهم حتى لا يقطع السيف رؤوسهم، وقد رأوا السيف يقطع كل من رفع رأسه في مواجهة السياف؟

إننا نطلب من الأفراد كثيراً عندما ننتظر منهم أن يقاوموا الظلم متفرقين، فالظلم مؤسسة يجب أن تواجهه مؤسسة.. إن في قدرة العبيد إذا اجتمعوا أن يصبحوا مؤسسة.. تحول همساتهم إلى رعد.. تحول دموعهم إلى طوفان!

ولكن إذا قامت هذه المؤسسات استحال قيام إهرامات الظالمين، فأول ما يفعلونه لكي يوطدوا طغيانهم هو أن يفتتوا هذه المؤسسات، أن يدمروها، أن يفرقوها، أن يحولوا المؤسسات إلى أفراد متنازعين متنافرين.. وعندما يتفرق الأفراد يسهل استبعادهم فيعودون يهمسون فرادى ويبكون!

وتساءل عبدالمنعم عن ميثاق حقوق الإنسان. لماذا خلا من مادة تجعل من حق الأمم المتحدة أن تحضر كل محاكمة سياسية؟ أن

تنتدب مندوباً محايداً ليحضر المحاكمات السرية، لماذا لم يمنع الميثاق تأليف المحاكم الاستثنائية؟ لماذا لا تتدخل الأمم المتحدة لوقف عمليات التعذيب والتلفيق في المحاكمات؟ ما قيمة حقوق الإنسان إذا خلت هذه الحقوق من حقه في العدالة، حتى لا يكتب على الورق، وإنما ينفذ ويطبق وتشرف لجنة خاصة على كل دولة تعبث بالعدالة أو تدوس على القانون؟

إن عبدالمنعم تذكر أن بعض الكتاب اقترحوا أن يتضمن ميثاق حقوق الإنسان كل هذا. ولكن أغلبية الدول رفضت هذا النص لأنه تدخل في شؤونها الداخلية. وقد كان مفروضاً على الذين حاربوا هتلر وعرفوا مظالمه وذاقوا طغيانه أن يحرموا على أنفسهم هذا الظلم وهذا الطغيان، ولكن بعض الدول تريد أن تعتبر حرية الظلم إحدى الحريات التي تثبت أنها متمتعة بالاستقلال التام!

وبينما كان عبدالمنعم غارقاً في التفكير بالتعديلات التي يجب إدخالها على ميثاق حقوق الإنسان، سمع صوت أحد الحراس يصرخ:

ـ إنتباه!

ورأى كل من في العنبر يجري ويهرول في فزع.

واتجه عبدالمنعم إلى باب الزنزانة ليعرف ماذا جرى، فرأى أحد المسجونين يندفع في الممشى ويقول له هامساً:

ـ أدخل زنزانتك.. ضابط العنبر يقوم بالتفتيش!

وعاد عبدالمنعم إلى الزنزانة، وأسرع الحارس وأغلق عليه الباب.

وبعد دقائق دخل ضابط إلى الزنزانة تبدو على وجهه صرامة وغطرسة، وأراد الحراس أن يتبعوه في دخول الزنزانة فقال الضابط:

ـ لا، أنا الذي سأفتش هذه الزنزانة.. لأن هذا المجرم خطير!

وتضايق عبدالمنعم من وقاحة الضابط. وشعر برغبة في أن يرد على وقاحته. ولكن الأيام التي أمضاها في السجن علمته أن لا كرامة لمسجون. وأن يوم يفقد الإنسان حريته يفقد معها كرامته، فالعبيد لا كرامة لهم!

وقام الضابط بتفتيش الزنزانة تفتيشاً دقيقاً.. فتش الفراش والبطانيتين الممزقتين.. وفتش جردل المياه وجردل البول.. وفتش «قروانة» الطعام.. ثم راح يضرب الجدران وبلاط الغرفة ليبحث فيها عن مخابىء سرية.. وكان يفتش أحياناً بيده، وأحياناً بحذائه.. كان يقلب البطانية بحذائه، وكأنه أحس بقذارتها فلم يرد أن يلوث بها يده..

وأحس عبدالمنعم بكراهية غريبة لهذا الضابط. كأنه يتعمد إذلاله وتحقيره. ولما لم يجد الضابط شيئاً مخالفاً في الغرفة نظر إليه بوجه متجهم وقال له:

ـ والآن.. سأفتشك أنت!

ومد الضابط يده وفتش ملابسه الخارجية، وملابسه الداخلية.. ووضع يده في جيوبه ثم التفت إليه وفي عينيه شرر وقال بلهجة آمرة:

ـ اخلع حذاءك!

وخلع عبدالمنعم حذاءه، وفتشه الضابط، ثم فتش الجورب.

وشعر عبدالمنعم برغبة في أن يطبق يديه على خناق ذلك الضابط المتغطرس، الوقح، القاسي الملامح.. وإذا به يجد الضابط يدس في يده بضعة أوراق ثم يصيح بصوت عال وهو يخرج من الزنزانة:

ـ إذا وجدت مخالفة واحدة سأرسلك إلى التأديب لتجلد هناك!

ثم أغلق باب الزنزانة بعنف وهو يقول له:

ـ أقفل الباب.. وأمنه!

وفرد عبدالمنعم الأوراق المطوية فإذا به يجد منشوراً من ثماني صفحات فيه مرافعة الأستاذ درويش مخلص المحامي عنه في الجلسة السرية. وقرأ المنشور وهو لا يصدق عينيه. كان يتلفت حوله وهو يقرأ المنشور، فإذا سمع خطوات تقترب من باب الزنزانة طواه بسرعة وأخفاه في حذائه، حتى إذا ابتعدت الخطوات، أخرج المنشور وأكمل قراءته.

لا يمكن أن يكون الذي حدث حقيقة.. لا بد أنه يحلم.. إن دفاعه قد طبع.. إنه يوزع على الناس.. الناس ستعرف أنه بريء.. ستعرف أنه لم يخن وطنه.. ستعرف أن قضيته ملفقة.. ستعرف أن سلامة بك الذي شهد زوراً عليه قواد.. وأن الأزميري بك الذي شهد ضده نشال.. سيتخاطف الناس المنشور لأن كل ما هو ممنوع مرغوب.. ستظهر الحقيقة.. الحقيقة التي تآمرت الدولة على إخفائها!

لم يعد يهمه أن يخرج من السجن بعد أن خرجت الحقيقة عندما حكمت عليه المحكمة بالسجن المؤبد.. إنهم لم يطبعوا المنشور من

صفحة واحدة، إنما طبعوه من ثماني صفحات وهذا الضابط الذي كان يمقته أصبح يحبه.. كان منذ دقائق يتصور يده وهي تفتش جسمه أنها يد الشيطان، وإذا به يعرف الآن أنها كانت يد الملاك.. يد الملاك الذي حمل له الحياة.. هذا المنشور هو حياة جديدة له.

لم يعد عبدالمنعم يرغب في تغيير ميثاق حقوق الإنسان.. إن الميثاق موجود فعلاً.. إن هؤلاء المجهولين الذين طبعوا المنشور ووزعوه، وهذا الضابط الذي حمله إليه هم كلمات ميثاق حقوق الإنسان، كلمات من لحم ودم.. ما قيمة الكلمات بغير رجال يحملونها، ينطقون بها، يحولونها من حبر إلى دم؟!

لم يعد عبدالمنعم يبحث عن أصدقاء.. لقد وجد هؤلاء الأصدقاء.. الأصدقاء المجهولين.. لم يعرفهم من قبل، لم يقدم لهم مساعدة، لا يردون له جميلاً سابقاً، وإنما يقومون بتضحية فدائية.. لم تعد طفلته سميرة في حاجة إلى طعام.. هذا المنشور هو طعامها، سيكون الجهاز الذي تحمله إلى زوجها عندما تكبر وتتزوج. زوجته بثينة لم تعد في حاجة إلى رجل آخر ليحميها.. هذا المنشور سوف يحميها، إنه درع من ورق، ولكنه أكثر صموداً من الحديد.. فعندما تكتب الحقيقة على الورق تصمد أمام المدافع!

لم يعد عبدالمنعم يؤمن بأن هذا الشعب قد مات، وأن شواهد القبور حول قبر أمه هي أيدي الموتى مرفوعة إلى السماء تلعن الظالمين.. كأن هذه القبور قد فتحت، وبعث الأموات منها وتحولوا إلى أبطال.. أو أن هذه القبور لم تكن قبور موتى، وإنما مخابىء الفدائيين، يختارون الوقت المناسب ليحولوا الأكفان إلى أعلام!

ولكن ماذا قصد الضابط عندما قال له إنه إذا وجد مخالفة واحدة

سيرسله إلى التأديب ليجلد هناك؟ أيقصد أن يحذره بأن غرفته ستفتش فيما بعد؟ أيقصد أن يمزق المنشور بعد قراءته حتى لا يقع في يد من يجيء لتفتيش الغرفة فيرسله إلى التأديب ليجلد هناك؟

وكيف يمزق هذا المنشور؟ لو مزقه مزق حياته.. إنه أحس بأن هذا المنشور هو بساط الريح الذي حمله إلى خارج الجدران. هو الترياق الذي بعثه من الموت. إنه محتاج لأن يقرأ هذا المنشور كل صباح ليحتمل تكسير الأحجار ليستطيع أن ينام.. إنه الأحلام التي يريد أن يراها لينسى الكابوس الذي يعيش فيه.. إنه يريد أن يحتفظ بالمنشور ليعطيه لزوجته في الزيارة.

ولكن كيف يعطيها إياه خلسة؟ إن الحراس يراقبون المسجونين أثناء الزيارة.. لا يكتفون بالحراس العاديين، ويستعينون بعدد من مخبري المباحث. كيف يسلم لبثينة هذا المنشور خلسة دون أن تراه العيون المتلصصة، والعيون المفتوحة؟

سوف يبحث عن طريقة ليسلم لزوجته المنشور. هل يستطيع أن يطلب من هذا الضابط البطل أن يذهب إلى زوجته ويعطيها المنشور؟ إنه لا يريد أن يحرجه. إنه رأى من المسرحية إنه حريص على إخفاء عمله الفدائي.. فلعل من المصلحة أن لا يتصل به.. وأن يتظاهر بأنه يكره هذا الضابط، وأن هذا الضابط يضطهده. وبذلك يشترك في عملية التغطية التي تفيده في عمليات أكبر.. لا بد أن هذا الضابط عضو في عصابة المنشورات.. لا بد أنه يعرف هؤلاء الفدائيين المجهولين الذين يتحدون الطغاة، ويتحدون الخطر، ويستهينون بالسجون، ويستهينون بالمشانق وأحكام الإعدام.. ليس من المعقول أن يخبره هذا الضابط بأسماء هؤلاء الأبطال.. ترى هل سيجيء يوم يعرف أسماءهم؟ هل سوف

يصافحهم واحداً واحداً ويشكرهم على أنهم فعلوا ما تمنى أن يفعله ولم يفعله؟. ومع ذلك حكم عليه بالسجن المؤبد على جريمة لم يرتكبها.. بل على شرف لا يستحقه!

وعاد عبدالمنعم يقرأ المنشور من جديد..

وابتسم.. فقد خطر له خاطر غريب..

لماذا لا تغني أم كلثوم هذا المنشور؟!

كان المنشور أغنية حلوة في أذنيه فتمنى أن يسمعها كل الناس وأن يرددها كل الناس!

وعندما جاءت بثينة لزيارته نظر خلفها، يبحث عن طفلته سميرة.. لم يجدها.. وحار هل هو سعيد لأنها لم تره في ثوبه المهلهل، والقيود في يديه، أم هو تعيس لأنه حرم من رؤيتها؟

وحرص على أن يتطلع في عيني بثينة ليعرف هل صدمت برؤيته في الثوب المهلهل، وأدهشه أنه رآها تبتسم من خلال ثقوب الأسلاك وتقول له، وفي عينيها بريق مرح:

ـ إنك ازددت جمالاً في بذلة السجن!

قال لها عبدالمنعم وهو ينظر إلى شفتيها الجذابتين، إلى شعرها الأسود الفاحم، وإلى سحرها الأخاذ، وإلى فتنتها التي تنطق من مختلف أجزاء جسدها:

ـ إنني شعرت بخجل وأنا أحمل هذه الخرقة الرثة!

قالت بثينة كأنها تتحدى عدواً مجهولاً:

ـ هذه ليست خرقة ممزقة تحملها.. هذا علم ترفعه!

قال لها مشيراً إلى قدميه المقيدتين:

ـ وهذه السلاسل؟

قالت وهي تنظر إليه نظرة امتزج فيها الزهو بالحب:

ـ إنني فخورة بهذه السلاسل.. إنها أشرف من التاج الذي كان على كتفك، والأوسمة التي كانت على صدرك.. الظالم يمنح كلابه أوسمة ونياشين، ويمنح خصومه السلاسل والقيود.. إنني أفضل أن أراك عدواً للظالم في قيوده على أن أراك كلباً له متزيناً بأوسمته ونياشينه..

ودهش عبدالمنعم وهو يسمع بثينة. كأنها تتكلم لغة جديدة، لم يتصور من قبل أنها تعرفها، أو تجيد الكلام بها، فسألها ضاحكاً:

ـ أين تعلمت هذه اللغة؟

قالت هامسة وفي عينيها نظرة تعلن أن روحها لم تقهر:

ـ تعلمتها من المنشورات!

وتذكر عبدالمنعم المنشور الذي خبأه في دكة بنطلونه فقال لها هامساً:

ـ إن معي منشوراً عن دفاعي.. ولا أعرف كيف أعطيك إياه.. فإن الحراس والمخبرين يراقبوننا الآن.

ـ أبق المنشور معك.. لقد قرأته!

قال في دهشة وقد ظهرت في عينيه الحيرة والعجب:

ـ هل عندك منشور من هذه المنشورات؟

قالت وهي تتلفت حولها لتتأكد أن أحداً لا يسمعها:

ـ منشور واحد؟ كان عندي مائة منشور.. ووزعت ٩٨ منشوراً.. واحتفظت بمنشورين، واحد لي وواحد لسميرة.. سيكون هديتي لها عندما تتزوج!

واغرورقت عيناه بالدموع وقال لها:

ـ لقد كنت أريد أن تكون هديتي إليها.. غريبة، إننا فكرنا في نفس الشيء في وقت واحد.. ولكن كيف حصلت على هذه المنشورات؟ من الذي أعطاك هذه المنشورات؟ هل هو ضابط من زملائي؟

قالت هامسة:

ـ لا.. سيدة!

قال عبدالمنعم في دهشة!

ـ سيدة؟ سيدة؟!

قالت بثينة:

ـ نعم.. سيدة.. سيدة ترتدي الملاءة اللف!

وازدادت دهشة عبدالمنعم وقال وكأنه يحدث نفسه:

ـ ملاءة لف؟!

قالت بثينة:

ـ وسألتها عن اسمها. . فقالت إن اسمها «الفارسة نمرة سبعة»!

وأراد عبدالمنعم أن يروي كيف وقع في يده المنشور، ولكن يداً غليظة استقرت فوق كتفه وجذبته من ذراعه وسمع صوتاً يقول في تجهم:

ـ انتهت الزيارة؟!

قال عبدالمنعم:

ـ كيف حال سميرة؟

ولكن الحارس لم يمهله ليسمع الجواب، فدفعه خارج غرفة الزيارة. .

ومشى عبدالمنعم يتعثر في سلاسله وهو يسائل نفسه: لماذا لم يسأل عن طفلته سميرة في أول الزيارة؟ لعله اطمأن عليها في ابتسامة بثينة. . لا يمكن أن يرى الابتسامة في شفتي بثينة بهذه الحلاوة إذا كانت ابنتها مريضة. . لا بد أنها بخير. . لأن البلد بخير. . البلد الذي فيه نساء بملاءات لف يوزعن المنشورات. .

ـ ٢٩ ـ

بقيت قصة «صاحب الجلالة. . الحب» بغير ختام.

فشل المؤلف في أن يكتب نهايتها. حاول عدة مرات أن يقدح زناد فكره ليضع الختام. ولكنه كان دائماً يطوي أوراقه ويلقي قلمه بغير أن يخط الفصل الأخير.

ترك المؤلف القصة وقتاً طويلاً ثم عاد إليها، وكرر محاولاته في كتابة الختام بغير جدوى.

كانت مشكلته أن قصته ليس لها زمن. لا تبدأ في سنة ولا تنتهي في سنة. قد تكون قصة الأمس. وقد تكون قصة اليوم. وقد تكون قصة الغد. . ممكن أن تكون حكاية كل يوم وممكن أن تكون حكاية التاريخ. ربما يكون التاريخ فيها هو منظرها الخلفي الذي تمثل أمامه. وربما يكون التاريخ هو الستار الذي يسدل عليها ليخفي معالمها.

الشخصيات فيها أحياء وأموات من رجال ونساء. ولكنهم ليسوا دائماً من لحم ودم. إن سعدون باشا ليس رجلاً فقط، إنه طبقة بأكلمها!

وببا ليست راقصة فقط إنها تيار!

والأمير عادل عمرو ليس صاحب سمو فقط وإنما هو صاحب سلطة!

وشريفة ليست امرأة فقط، إنها فكرة أيضاً!

كل واحد من شخصيات القصة يرتدي ثوباً من لحم ودم، وفي داخل الثوب نوع من الناس أو نوع من التفكير، أو طبقات وفئات، أو مدارس وآراء. وهم لهذا يبدون في بعض الفصول غير واقعيين لأنهم ليسوا هم. لأنهم لم يعودوا أشخاصاً منفردين يتحركون كما يريد لهم المؤلف أن يتحركوا. فهم يحملون فوق ظهورهم ثقل طبقتهم أو أحمال بيئتهم، أو رواسب مجتمعهم. ولهذا فهم يمشون متثاقلين بين الفصول.

وفي بعض الأحيان يحاولون أن يقفزوا من فصل إلى فصل، فيجدون سدوداً تمنعهم من أن يخطوا بين الفصول فتطويهم

الأوراق. نراهم أحياناً غير منطقيين، يترددون عندما يجب الاندفاع، يصمتون عندما يستوجب الكلام، يتحركون في وقت يستلزم الإحجام.

ذلك أن المجتمع الذي يعيشون فيه غريب وغير منطقي. عواطف الناس فيه لا تخضع لجدول الضرب. ونظريات الناس لا تنطبق عليها النظريات الهندسية. علم الحساب يقول إن واحداً زائد واحد يساويان اثنين، ولكن علم الحياة يقول إنهما يساويان اثنين وقد يساويان أربعة، وقد لا يساويان شيئاً على الاطلاق!

علم الأخلاق يقول إن الاتحاد قوة، وعلم الرياضة يقول إن الانفصال هو القوة، فإن تقسيم الذرة هو الذي أحدث قوة انفجار القنبلة الذرية!

ومن أجل هذا لا يستطيع المؤلف أن يقتل سعدون باشا برصاصة. لأن رصاصة واحدة تقتل ظالماً ولكنها لا تقتل الظلم. فالظلم كالقطط له أرواح.. وإذا قضينا على الظلم في بلد واحد. فسيبقى الظلم حياً في بلاد أخرى!

وهو لا يستطيع أن يزوج الطالب شامل شفيق من الممثلة كاميليا ويقول: «وعاشا في ثبات ونبات وخلفا الصبيان والبنات»، لأننا نعبد الأبطال ولا نتزوجهم. الفدائي عادة لا يتزوج من فدائية. فالزواج نوع من الفدائية ولا يستطيع الفدائي أن يشترك في أكثر من عملية فدائية في وقت واحد!

والمؤلف لا يستطيع أن ينهي قصته بقوله إن الشعب انتصر، وانتزع الطغاة من مقاعدهم، وأطلق المظلومين من سجونهم. لأن المؤلفين لا يستطيعون بمداد أقلامهم أن يكتبوا انتصارات الشعوب،

لأن مداد الإنتصار ليس إلا دماء الشعوب.. أما الانتصارات التي تكتب الحبر، فهي انتصارات مزيفة. انتصارات سوداء بلون الحبر الذي كتبت به!

والمؤلف لا يستطيع أن يجيء بالطاعون فيفتك بأبطال قصته، فالطاعون لا يفرق بين الأشرار وبين الطيبين.. قد يحول الطيبين إلى مرضى، والمرضى إلى أموات.

وقد ينهي المؤلف قصته بصلب الأشراف وصلب المجرمين معاً. فإن الصليب الذي سمر فيه المسيح كان بجواره صليبان آخران صلب عليهما لصان في المدينة.. فما دمنا أقمنا الصليب فلا نعرف من يصلب عليه، لأن عدد الوطنيين الذي علقوا في المشانق كان دائماً أضعاف عدد الخونة الذين علقوا في أعوادها. فالمشانق لا تنهي القصص، إنها عادة بداية القصص الكبيرة!

وفكر المؤلف في أن يختم قصته بأن يترك أبطالها ضائعين، حائرين، وكلما أخرسوا صوتاً انبعثت مئات الأصوات.. يترك الجلادين يضعون الحبال حول أعناق المجاهدين، فإذا بهذه الجثث المعلقة تتحول إلى أعلام.. يترك الفاسدين يستمرون في فسادهم، وكلما أكلوا جاعوا وانفتحت شهيتهم لطعام جديد.. يترك الطغاة يمعنون في طغيانهم، فالطغيان كماء البحر كلما شربنا منه إزددنا عطشاً.

ولكن المؤلف بطبيعته رجل متفائل. فهو يشفق أن يسدل ستارة على شعب غارق في الظلم دون أن يرى حلقة نجاة، يعيش محنته ويقاسي آلامه ولا يجد حوله القيم الكبرى يستند إليها ليقف على قدميه، يستمتع بحقه في الكرامة والحرية، في الحب والزواج، في

إنه بدأ قصته والطغاة واقفين والأحرار راكعين، فلماذا لا ينهي قصته بالأحرار واقفين والطغاة راكعين؟ ولكنه لو فعل ذلك لناقض الحياة.. إن قصة المسيح انتهت بصلبه. وقصة جان دارك انتهت بحرقها، وقصة غاندي انتهت بقتله. كأن القدر توقع أن يحمل المسيح بندقية ليعيش. وأن تلقي جان دارك قنبلة ذرية لتنهي غزو الانجليز لبلادها، وأن يسير رسول عدم العنف في شوارع الهند تتقدمه الموتوسيكلات والسيارات المصفحة ليبقى على قيد الحياة.. فالحياة لا تنهي قصصها لمصلحة شباك التذاكر كما يفعل مؤلفو السينما. إنما تضع نهايات غير منطقية لأن الحياة لا منطق لها.

ولهذا رأى مؤلف القصة أن يلجأ إلى أسلوب ديمقراطي في وضع ختام لقصته. لماذا لا يستفتي أبطال قصته في الخاتمة؟

إنه المؤلف هو إله صغير يخلق أشخاص روايته، كما أن الله يخلق عالمه. ولكن الله يترك لنا حرية اختيار نهايتنا بأيدينا. فهو لا يفرض علينا نهاية معينة. نحن نخرج من بيوتنا لتدوسنا عربات الترام، ونحن نشترك في الحرب ليقتلنا رصاص الأعداء. ونحن نقاوم الطغاة لنعلق في مشانقهم، ونحن نركب الطائرات لتنفجر في الجو، ونحن نركب السفن لتغرق في المحيط، ونحن نأكل أكثر من طاقتنا لنموت.. فإذا لم نخرج من بيوتنا فلن تجيء عربات الترام وتدوسنا داخل البيوت، وإذا لم نذهب إلى الحرب فلا تجيء الحرب إلينا، وإذا لم نرفع رؤوسنا لما وصلت إلى أعناقنا سيوف الطغاة، وإذا لم نركب الطائرات فلا نموت فيها. فنحن إذن، الذين نذهب إلى الموت، نحن نختار بإرادتنا نهايتنا!

فلماذا يدعي مؤلف القصة لنفسه سلطات أكثر من سلطات الآلهة؟ لماذا يحارب الارغام والاستبداد والسيطرة في فصول قصته، ويزاول الارغام والاستبداد والسيطرة في ختام قصته، فيحيي ويميت، ويدخل المجرمين إلى السجون، يخرج الأبرياء من السجون، وينصر الحق على الباطل، ويحطم قيود الشعوب، ويكسر أغلال الأحرار؟ فليتجه المؤلف إذن، إلى أبطال قصته ليسألهم أن يكتبوا هم ختام القصة. يختار كل منهم الختام الذي يريده للقصة التي هو أحد أبطالها!

وذهب المؤلف إلى عمارة العجوزة. في هذه العمارة يقيم أبطال القصة جميعاً. الذي لا يقيم في العمارة، يقيم بدلاً منه ظله، أو ضحيته، أو عشيقته أو جلادهم كلهم.. الغائبون موجودون، والموجودون غائبون. إننا قد نرى الانسان في ظله أكثر مما نراه في حقيقته. نرى آثار ظلمه في ضحيته أكثر مما نراه على يديه. نراه في المرأة التي يحبها أكثر مما نراه في المرأة التي تحبه، فإن النساء هن إمضاءاتنا إذا كنا كتاباً، وهن قصائدنا إذا كنا شعراء!

بل إننا نرى صورة الجلاد في سوطه، أكثر مما نراه في ملامحه. فإن الجلاد قادر أن يبتسم، ولكن السوط لا يبتسم أبداً.. الجلاد قادر أن يجعل في صوته رقة تخدع العميان أو الذين يتعاملون، ولكن صوت السوط لا يمكن أن يخدع الظهور التي يلهبها. قد يكون للسوط ألوان مختلفة، ولكن أثر السوط على الظهور العارية له لون واحد!

وقابل المؤلف عند باب العمارة عم ابراهيم البواب. وطلب إليه أن يكتب هو ختام القصة. وكتب عم ابراهيم:

ـ «وأصبحت العمارة فوضى. انقسم السكان على بعضهم. كل فريق يريد أن يحتل العمارة، يحتكرها لنفسه ويطرد باقي السكان. كل فريق من السكان يقول إن الفريق الآخر هو المسؤول عما أصاب العمارة.

سكان يحبون الضوضاء على أنغامها، وسكان يريدون السكون والهدوء ليستغرقوا في النوم العميق.

الذين في الدور العلوي يرمون المياه القذرة على سكان الأدوار الأرضية، وسكان الأدوار الأرضية يريدون أن يسكنوا «الروف».

سكان الدور الأرضي يأبون أن يدفعوا نصيبهم في أجرة المصعد. وسكان الأدوار العليا يصرون أن يدفع سكان الدور الأرضي أجر المصعد الذي لا يستعملونه!

وكثرت القاذورات التي يلقيها سكان السطح فتسقط على رؤوس سكان الطوابق الأخرى. واتسخ السلم الذي يصعد عليه الناس وكثرت حوادث السرقة.. ولم يعد أحد يعرف هل اللصوص من خارج العمارة أم من داخلها، أم هم من الخارج والداخل معاً!

وضاق البوليس بكثرة الشكاوي التي يتلقاها. أصبح كل ساكن في العمارة شاكياً ومشكواً في حقه، وقرر ضابط قسم العجوزة أن الحل الوحيد هو أن يعطي السلطات كلها إلى الراقصة ببا صاحبة العمارة،. فإذا بها تحول العمارة كلها إلى كباريه!

وذهب سكان العمارة إلى ضابط البوليس وطلبوا عزل السيدة ببا، فعزلها، واختار اللواء حسن باشا شفيق الضابط المتقاعد والساكن في الطابق الثالث ومنحه كل السلطات.

وأصدر أمره بمنع الدخول أو الخروج من العمارة بعد الساعة الخامسة مساء. وإطفاء النور في الساعة الثامنة مساء. وأن يتحرك المصعد في ساعات محددة كقطارات السكة الحديد، وخصص المبالغ المقتصدة من منع الكهرباء ووقف المصعد لطلاء العمارة من الخارج!

وهاج سكان العمارة على الحكم العسكري، ففصله ضابط البوليس، وعين الاستاذ محمود أبو بكر المفتش بمصلحة الأموال المقررة، فهو رجل طيب ومتدين، فألغى الأوامر العسكرية التي أصدرها اللواء حسن باشا شفيق، وأباح حرية استعمال المصعد وحرية إضاءة الأنوار، ولكنه أمر بغلق جميع نوافذ العمارة بالمسامير. وأمر بإلغاء الصالون في كل شقة وتحويله إلى مصلى، وأمر بمنع فتح الراديو أثناء إذاعة الاغاني والتمثيليات، ومنع جميع المطابخ في الشقق من تقديم طعام قبل المغرب في شهور رجب وشعبان ورمضان، ومنع السيدات من ساكنات العمارة أن يدخلن أو يخرجن إليها إلا وعلى وجوههن الحجاب..

وثارت النساء على هذه القرارات، وذهبن إلى ضابط النقطة فأمر بتعيين عم ابراهيم البواب سلطاناً على العمارة ومنحه جميع السلطات..

ورأى عم ابراهيم أن أول ما تحتاج إليه العمارة هو التنظيف.. إن النظافة من الايمان وما دامت العمارة ليس فيها نظافة، فمعنى ذلك أن ليس فيها إيمان!

ولما كان أوسخ ما في العمارة هم سكانها الذين لا يدفعون بقشيشاً محترماً لعم ابراهيم، فكان من الطبيعي أن يكون أول ما يفكر فيه عم ابراهيم هو إخلاء العمارة من السكان!

ولكن تنفيذ هذا القرار قد يحدث ثورة بين السكان، فيطالبون بعزله كما فعلوا بالحكام السابقين. ولهذا لجأ إلى حيلة عبقرية، وهي أن لا يجعل ساكناً يستقر في مكانه. ينقل الساكن من الطابق السادس إلى الطابق الرابع، فلا يكاد يستقر في مكانه الجديد، حتى ينقله إلى الطابق الأول. فلا يكاد يتم النقل، حتى يأمر باعادته من جديد إلى الطابق السادس.

وخلال العمليات تحدث خلافات بين السكان. الذين صعدوا إلى فوق يريدون أن يحتفظوا بما كسبوه، والذي هبطوا إلى الأدوار السفلى يريدون العودة إلى الأدوار العليا وهكذا شغل السكان بأنفسهم.

ثم بدأ عم ابراهيم وطرد سكان الطابق السابع.. ففرح سكان الطوابق الستة التي تحتها، لأن كلاً منهم أمل أن يصعد ويحل مكان الساكن المطرود. وانضموا جميعاً إلى عم ابراهيم يؤيدونه في قراره الحكيم..

ثم بعد ذلك طرد عم ابراهيم سكان الطابق السادس ففرح سكان الطوابق الخمسة.. ثم طرد سكان الطابق الخامس.. وهكذا أخلى عم ابراهيم العمارة كلها من السكان.. وأصبح وحده ساكن العمارة يدخل ويخرج منها كما يشاء، يصعد في المصعد، ويهبط بالمصعد كما يريد!

ولولا الحب.. حب كل ساكن لنفسه.. لما أصبح عم ابراهيم هو صاحب الجلالة!



وترك المؤلف عم ابراهيم البواب وصعد على السلم بضع درجات واتجه إلى الشقة التي إلى اليسار ودق جرس الباب..

وفتح الدكتور أحمد العروسي الباب..

وسأل المؤلف عن زوجه الدكتورة دوريس..

فقال الدكتور العروسي وهو يبتسم إنها في الطابق الخامس تعطي حقنة لحرم محمد بك سعيد..

ولاحظ المؤلف الدكتور العروسي يحمل كتاباً في يده فسأله:

ـ هل هذا كتاب «رأس المال» لكارل ماركس؟

فقال الدكتور بتأفف:

ـ كتاب «رأس المال» مقرر على تلاميذ القسم الابتدائي.. إن هذا تقرير البنك الأهلى.. لقد اشتريت أخيراً بعض الأسهم في البنك الأهلي، لأنني أؤمن بضرورة تمصير البنوك!

فطلب منه المؤلف أن يكتب ختام قصة «صاحب الجلالة الحب»...

فقال الدكتور العروسي:

ـ بكم؟

قال المؤلف:

ـ هذه خدمة للأدب!

قال العروسي:

ـ ولكني، كما ترى، مشغول في خدمة الوطن، وخدمة الوطن أهم كثيراً من خدمة الأدب. فالأدب يجب أن يكون في خدمة

الوطن، وليس الوطن هو الذي يكون في خدمة الأدب. وهو هو الأدب الملتزم. . إنني أطلب مائة جنيه مقابل كتابة ختام القصة، على أن يكون لي نسبة أرباح من القصة عن طبعها، ونسبة عن تمثيلها على المسرح ونسبة عن تمثيلها في السينما. فأنا رجل طبيعتي ضد الاستغلال. . استغلال المؤلفين الكادحين. . وقد كنت أرغب في أن أساهم في عمل أدبي ملتزم، ولكن ذلك سيكون على حساب عمل وطني أكبر. . وهو أنني أرغب في شراء أسهم في بنك مصر. . لتمصيره أيضاً!

قال المؤلف:

ـ ولكن أسهم بنك مصر يملكها مصريون.

وهز الدكتور العروسي كتفه ساخراً:

ـ هل هؤلاء مصريون؟ هؤلاء مستغلون؟ هؤلاء خونة؟ هؤلاء برجوازيون. . المفروض أن يملك بنك مصر الشعب الكادح مثلي. .

وشعر المؤلف أن الدكتور العروسي هو من الذين يطلق عليهم بعض النقديين اسم «انتهازي وطني شريف» فوعده بأن يدفع ما يطلب إذا قرر أن يكون الختام الذي سيكتبه هو ختام القصة. .

وعندئذ أمسك العروسي قلمه وكتب:

ـ «وهكذا ثبت من الوثائق الدامغة والحقائق الأكيدة التي ظهرت في المحاكمة العادلة التي جرت للصاغ عبدالمنعم بيومي، ومن شهادة المواطن الشريف سلامة الاسكندراني والمواطن محمود حسني الأزميري، وهما من الشهود العدول الذين وصفتهم المحكمة

العسكرية بأن الشك لا يجيء إلى شهادتهم لا من وراء ولا من قدام، ثبت أن هناك عناصر معادية للشعب، تحاول استغلال الموقف والقضاء على مكاسب الشعب، وتمثل خطراً على أهدافه، فكان لا بد من تصفيتها بطريق القمع.

وقد تبين من تحليلات المنشورات التي وزعها الصاغ عبدالمنعم بيومي، أن هذه المنشورات أوحت بها البيروقراطية الجامدة من ناحية، واشتركت فيها عناصر تعتمد على قوى داخلية من رواسب الطبقات الرأسمالية، ومساعدات معنوية ومادية من الخارج، وخاصة من الدولة الاستعمارية من ناحية أخرى، وهو الأمر الذي يتطلب اتخاذ إجراءات معينة، لتطهير البلاد من العناصر المعادية التي تسلكها إليها، بأسرع وقت ممكن، وتشديد اليقظة لمنع أي تسلل تخريبي مشابه.

وثبت من المحاكمة العادلة كذلك، ومن اعترافات الصاغ عبدالمنعم بيومي، أن قوات الرجعية تمركزت في العصابة المخربة التي تطبع المنشورات ضد حكومة حضرة صاحب الجلالة الملك، وأنها ترغب في الاستيلاء على الحكم بتحالف مع القوى المنحرفة.

ولهذا قامت العناصر الوطنية الشريفة المخلصة بتحالف تاريخي مع المناضلين أمثال فوزي بك صلاح الدين وسعدون باشا والشمردلي باشا، وكل الطاقات الشريفة التي يمثلونها بحركة تطهير واسعة النطاق.

وأدت هذه العلاقات النضالية التي توثقت إلى درجة عميقة إلى إرساء تقاليد جماهيرية للعدالة، وبفضل هذه النشاطات في خدمة العدالة تم إعدام عزيز علاء الدين وزوجته شريفة وصبحي خالد

وزوجته إحسان والطالب شامل شفيق وعشيقته الممثلة كاميليا كامل، والخادمة سعدية والأسطى مرسي الذي ثبت بالأدلة والمستندات أنه على علاقة برجوازية غير شريفة بالخادمة سعدية.

وقد تم إعدام هؤلاء الثمانية علناً وسط تصفيق وتهليل وهتاف المنظمات الجماهيرية والمستويات القيادية.

وبعد ذلك رأت هذه الكيانات التنظيمية المتاخمة، والمنسوجة مع بعضها بشرياً وفكرياً أن تعبىء لعمارة العجوزة أكبر قدر متاح من طاقات الشعب في البناء والانتاج والتخطيط، بكفاية، ومعدل قياس للسرعة، في مناخ ديمقراطي، فاختارت الوطني المناضل الشريف الدكتور أحمد العروسي ليتولى صياغة تنظيمية جديدة وملائمة للعمارة مع منحه كل السلطات.

وبلور الدكتور العروسي المهمة في خط نضالي، وفي اتجاه معاد للاستعمار والامبريالية واستغلال الكادحين، فطرد من العمارة كل سكانها السابقين من الفاشستيين والمنحرفين والرجعيين. ولم يبق من سكان العمارة سوى الراقصة ببا ووالدتها زليخا هانم لتمثلا المثقفين.

والمعترف به أن الفن فرع هام من فروع الثقافة التي يجب أن تتمثل في أي عمارة جماهيرية. واحتفظ بشقة واحدة لتكون جرسونييرة لسعدون باشا باعتباره ممثلاً للجنود. ثم خصص شقة لفوزي بك صلاح الدين ليخصصها لتطبيق نظرية في الطرح الثوري لمسألة تحرر المرأة، حيث إن مفهوم الثورية مائع جداً في بلادنا، يسمح لكل إنسان بادعاء الثورية، حتى أن بعض الأوساط الرجعية تتحدث عن الثورة وتصف نفسها بالثورية كالخائنة شريفة

والخائنة كاميليا والخائنة الخادمة سعدية، بل إنه يجب أن يكون مفهوماً بأن الانسان لا يصبح ثورياً عندما ينعت نفسه بالثورية. فسعادة فوزي بك صلاح الدين لا ينعت نفسه بالثورية. بل إن بعض المنحرفين يسميه عدواً للثورة، ولكن ثورية فوزي بك تنعكس على تصرفاته اليومية كاملة، وبذلك فإن ثوريته نوع من الاستهلاك اللفظي..

وتوقف الدكتور العروسي ونظر إلى المؤلف وسأله:

ـ هل ستعرض ما كتبته أنا على سعادة فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام؟

ـ لا.. إنني لن أعرض عليه ما كتبته، فهو مثلك أحد أبطال القصة. ليس له حق أكثر من حقوقك!

وعندئذ أمسك الدكتور العروسي قلمه وشطب كل كلمات المديح في فوزي بك.. ثم سحب منه الشقة التي أعطاه إياها في العمارة.

وعاد الدكتور أحمد العروسي يكتب بقية ختام القصة:

ـ «وخصص الدكتور العروسي باقي الشقق الواقعة إلى يمين العمارة للفلاحين، وباقي الشقق إلى يسار العمارة إلى العمال.

وكان هذا العمل خطوة ثورية في حل أزمة المساكن. صحيح أن الفلاحين لم يسكنوا الشقق المخصصة لهم لأنهم يقيمون في الريف بجوار مزارعهم، وأن العمال لم يتقدموا لسكن الشقق المخصصة لهم لأنها كبيرة وغالية الايجار وبعيدة عن مصانعهم، إلا أن هذا لم يمنع أن يبقى هذا الشعار مرفوعاً على العمارة.

ونقص دخل العمارة بطبيعة الحال بسبب عدم شغل الشقق المخصصة للعمال والفلاحين، ولكن تحققت مكاسب ثورية عوضت

هذه الخسارة، فقد انتشر الهدوء في العمارة، وانهدم الضجيج، وقل اتساخ السلم بسبب قلة المترددين على العمارة، وبذلك نقصت ساعات عمل عم ابراهيم البواب من ثماني ساعات إلى ست ساعات، وهو مكسب شعبي ضخم..

أما «الروف» أي شقة الطابق السابع، المكونة من شقتين، والتي أنشأها المليونير الرأسمالي المستغل صادق عبدالعظيم، ثم سكنتها بعد ذلك زليخا هانم وسعدون باشا، فقد اقتضت مصلحة الوطن ومصلحة العمارة أن ينتقل إليها الدكتور العروسي وزوجته الشريفة الدكتورة دوريس ليشرف منها على إدارة العمارة ورفاهيتها وتقدمها.

وقد رأى المناضل الوطني الشريف الدكتور العروسي استجابة لمبدأ مراقبة السلوك الثوري الفردي اليومي، وتطبيقاً للقيم والمفاهيم والمبادىء الثورية، أن يرفض أن يتقاضى مليماً واحداً مقابل عمله المضني في إدارة العمارة لمصلحة الكادحين، واكتفى بأن يسكن مجاناً في شقة الطابق السابع التي كان إيجارها لا يتجاوز مائة وخمسين جنيهاً شهرياً يدفعها الرأسمالي الجشع صادق عبدالعظيم من دماء الشعب.



وهكذا انتصر صاحب الجلالة الحب.. حب القيم والمبادىء والمفاهيم»!

وخرج مؤلف القصة من شقة الدكتور أحمد العروسي، واتجه إلى الشقة المقابلة، شقة محمود أبو بكر المفتش بمصلحة الأموال المقررة. ودخل المؤلف الشقة، فوجد الأستاذ أبو بكر يؤدي الصلاة فانتظر حتى انتهى من صلاته، وعرض عليه أن يكتب ختام القصة.

واستعاذ أبو بكر بالله، واستغفر، وقال إنه لا يطلب إلا حسن ختام.. أما ختام القصص فهي مسألة بيد الله وليس بيد البشر. إن كل شيء مكتوب في السماء فلا يجوز أن نحاول كتابته على الأرض!

قال له المؤلف:

ـ ولكنك في صلاتك تدعو الله.. فمن حقك أن تجعل ختام القصة دعاء.. وقد تستجيب السماء لهذا الدعاء وتجعله خاتمة القصة الحقيقية، وقد لا تستجيب له وتجعل الخاتمة شيئاً لا يخطر على بالي!

قال الأستاذ محمود أبو بكر:

ـ إن خاتمتنا أشبه بخاتمة قوم نوح أصحاب الفيل.. عندما غضب الله عليهم فأغرقهم في الطوفان، أو أنزل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل!

وابتسم المؤلف وقال:

ـ ألا تظنن أن العقاب نزل بالبلد فعلاً؟ ألا تشعر بأن طوفان الظلم لا يقل تعذيباً عن طوفان الماء؟ غرقى المياه يموتون ويستريحون. وغرقى الظلم يموتون كل يوم مرة؟ غرقى الماء تأكل التماسيح جثتهم فلا يشعرون بأنيابهم لأن الموتى لا يتعذبون، وغرقى الظلم تأكل الكلاب لحومهم وهم أحياء؟!

قال الأستاذ أبو بكر:

ـ وهل تظن أن عذاب قوم نوح انتهى بغرقهم فقط؟ إنهم سوف يبعثون يوم القيامة ويعذبون مرة أخرى!

قال المؤلف:

ـ إن القصة لحسن الحظ، لا تمتد ليوم القيامة.. لأنني لا أظن أن يكون مصير جميع أبطال القصة والمؤلف والقصة نفسها في النار.. ولكن المطلوب منك أن تكتب نهاية القصة كما تتخيلها..

وبعد تردد جلس الأستاذ محمود أبو بكر وكتب:

ـ «وانتشر الفساد في الأرض.

كلما ارتفعت فساتين النساء انحنت رؤوس الرجال.

بعد أن كان الشبان يحفظون كلمات الله أصبحوا يحفظون كلمات الحب.

خلت المساجد من المصلحين وازدحمت الكباريهات بالراقصين.

لم يعد أحد يخاف الله. أصبحوا يخافون من السلطان الذي في يده العقاب والثواب.

أطلق سراح الجسد ووضعت الروح في زنزانة.

أصبح الجنس ديناً، الملائكة فيه أهم ملكات الجمال.

فقد الآباء هيبتهم، ونزلت الأمهات عن عروشهن، وانحلت رابطة الأسرة باسم الحرية، فتحرر الابن من احترام أبيه، وتحررت الإبنة من نصائح أمها، وأصبح الناس يمشون وكأنهم يرقصون، ويزنون وكأنهم يتعبدون.

ومضى الظالمون أكثر مما ظلموا، يملأون السجون بالأبرياء، ويعتبرون الدين أفيوناً وحشيشة وكوكايينا. وأصبح المؤمنون

المتمسكون بعقيدتهم، يصلون سراً، ويعبدون الله في المخابىء، ويزاولون طقوسهم في الظلام.

ووضع الظالمون على وجوههم أقنعة الجهل، وراحوا يوهمون الناس أنهم حرروهم من سلاسلهم وقيودهم. وحرروهم من التفكير فأصبحوا يفكرون لهم، وحرروهم من الكلام فأخرسوهم ونطقوا بأسمائهم، وحرروهم من الوفاء، يتنكر الصديق لصديقه، ويسيء الابن بأبيه، ويصعد الشاب على جثة أخيه..

وحرروهم من التواضع فأصيبوا بالغرور، فتحولوا إلى كرات منفوخة داخلها هواء. أو أجسام كبيرة يظنها الجهلاء ضخمة وهي متورمة.

وتحرروا من الحق، فبدأوا بالكذب على الناس، ثم انتهوا بالكذب على أنفسهم.

وأصبح الملك إلهاً، لا عمل للشعب إلا عبادته واستعطافه والهتاف باسمه، وأصبحت الراقصة بباسلطانا، تفتي بدخول من تحب إلى الجنة، وتفتي بدخول من تريد إلى جهنم الحمراء. سجون على هيئة جهنم، فيها زبانية وفيها نار!

وتحول سعدون باشا والشمردلي باشا وحماد باشا وفوزي بك صلاح الدين إلى كبار الكهنة.. ثم لم يكتفوا بذلك فقرروا أن يطلقوا على أنفسهم اسم الأئمة الأربعة!

واعتقد الإله الجديد وكهنته، أن الدنيا دانت لهم، لا صوت يرتفع إلا بالثناء عليهم، ولا كلمة تكتب إلا بالمديح فيهم، ولا أمر

يقع إلا بتوقيعهم، ولا إنسان يأكل إلا من كفهم. . هم آلهة اللذة والألم،آلهة الحياة والعدم، آلهة البطش والرحمة، آلهة الذل والنعمة.

ثم فجأة حدث زلزال كبيرا

وانزعج الظالمون وتصوروا أن الله عاد فجأة من الإجازة! وابتسم المؤمنون، ولم يقولوا شيئاً. لأنهم كانوا يعرفون أن الله كان دائماً موجوداً. . ولكنه يمهل ولا يهمل!

وهكذا انتصر الذين يحبون الله. .

وانهزم الذين يحبون الطغيان. .

ذلك أن الله وحده. . هو صاحب الجلالة»!!



وبينما كان المؤلف يغادر شقة الأستاذ محمود أبو بكر، رأى أمامه الآنسة وفية، وقد استطاع أن يعرفها، برغم الحجاب السميك الذي يغطي وجهها، وطلب إليها أن تكتب خاتمة القصة. .

وقالت له إنها تخشى أن يراها والدها المحافظ تتحدث إلى رجل غريب، ودعته ليقفز إلى نافذتها من الباب الخلفي. .

وتردد المؤلف أن يفعل ذلك. . فإنه لم يتعود في شبابه أن يقفز أسوار بيوت الجيران، ولكن عرض وفية الغريب أغراه بهذه المخاطرة التي أعادته إلى مغامرات الشباب. .

ودخل المؤلف من النافذة. فرأى وفية. . وتصور في أول الأمر أنه أخطأ في نافذة الغرفة، ودخل غرفة أخرى غير غرفة وفية. رآها بارعة الجمال، بدت بعد أن خلعت حجابها السميك ومعطفها الطويل إمرأة رائعة، تتألق فتنة وجمالاً في ثوب حريري أخضر بلون

عينيها الخضراوين، وكان ثوبها يكشف عن صدر بارز كأنه يريد أن يخترق الثوب ويطل منه، وكانت ذراعاها عاريتين بضتين، وكان فيها شيء مجهول يتلألأ، رآه المؤلف بعينيه ولكنه لم يستطع أن يحدد مكانه. . أكان فمها القرمزي يخيفه، أكانت نظراتها الحلوة تخبئه، أم أنه كان يختبىء ويختفي تحت ثوبها؟ إن عيني المؤلف لم تكن لهما أصابع لتكشف مكان هذا الشيء المجهول الذي يتلألأ!

شعر المؤلف أن وفية تخفي في جوانحها أكثر مما تقول بعينيها، وأكثر مما تقول بصدرها، وأكثر مما تقول بجيدها البديع وهي تميل برأسها عندما تتكلم. .

وأحس المؤلف وهو ينتقل بين الأب والابنة، إنه انتقل من السماء إلى الأرض. كان الأستاذ أبو بكر يتحدث بلغة السماء بما فيها من روحانيات. . كانت في جمله رائحة البخور. . أما وفية فقد كانت تتحدث بلغة الأرض. . كلماتها فيها رائحة اللحم والدم والعطور!

وعندما طلب المؤلف من وفية أن تكتب خاتمة القصة رحبت على الفور، وأخرجت قلم أحمر الشفايف لتكتب به!

ودهش المؤلف أن وفية التي لم يكن على شفتيها طلاء، تحتفظ في حقيبتها بقلم لأحمر الشفايف. .

فقالت وهي تضحك إنها اعتادت قبل عودتها إلى البيت أن تمر على صديقة وتغسل الطلاء عن وجهها، وتضع الحجاب، ثم تدخل إلى بيتها وهي ترتدي ملابس تشبه ملابس أعضاء جمعية كلاكسون كلان الإرهابية!

وكتبت وفية تقول:

ـ «كانت منشورات الفرسان الثلاثة والفارسات الأربع هي أعلام الحرية في يد الشعب.. أصبحت هذه الورقة البيضاء أشبه بحرية في يد أبناء الشعب يرفعونها في وجوه الطغاة، وكلما ازداد عدد المنشورات ازداد عدد الحراب..

وذات يوم استيقظ الملك الطاغية من نومه وأطل من نافذة قصره، فوجد الملايين يحملون في أيديهم الحراب البيضاء..

وذعر الملك واستنجد بالحراس، وإذا به يراهم وقد تخلوا عن مدافعهم التي كانوا يصوبونها إلى الشعب، وأصبحوا هم أيضاً يحملون حراباً بيضاء.. هي منشورات الفرسان السبعة!

وأسقط في يد الطاغية. بحث عن الأمير عادل عمرو فلم يجده. بحث عن سعدون فلم يجده. بحث عن فوزي بك صلاح الدين فلم يجده. عندما تغرق سفينة الطاغية الكبير، يتحول الطغاة الصغار إلى فئران!

وهوى الملك الطاغية..

وادعى كثيرون بأنهم هم الذين كتبوا منشورات الفرسان السبعة.. كل من قرأ المنشور اعتبر نفسه بطلاً.. كل من سمع بالمنشور طالب بحقه في ميراث الطاغية!

واختفى الفرسان السبعة، وتركوا الفئران تخرج من الجحور وتتسمى بأسماء الأسود.. وتركوا النصابين يدعمون البطولات المزيفة، وتركوا الأقزام يرتدون ملابس العمالقة ويدعون أنهم الذين صنعوا الحراب البيضاء!

وبدأ كل فريق يطالب بأن يكون الوريث لتركة الملك الذي

مات.. واشتد الصراع واحتدم الجدال..

وإذا بالفرسان السبعة يصدرون منشوراً جديداً يقولون فيه إن هذه التركة ليست تركة الملك الطاغية، وإنما هي ثروة الشعب، والشعب لم يمت، حتى يطالب أحد بحقه في الميراث فيه!

وإنهم وحدهم الذين طبعوا المنشورات، والذين وزعوها، وهم الذين حولوها إلى حراب بيضاء..

ووقع المنشور عزيز علاء الدين وصبحي خالد وشامل شفيق، وشريفة علاء الدين وإحسان خالد والممثلة كاميليا كامل، والخادمة سعدية!

وقامت التظاهرات تطالب أن يحكم مصر الفرسان السبعة!

ورفض الفرسان السبعة أن يحكموا، وطالبوا أن تحكم مصر كلمة واحدة هي كلمة «الحرية»!

وقالوا في منشور جديد إن مصر في حاجة إلى حرية أكثر مما هي في حاجة إلى أحرار! الرجال يتغيرون والمبادىء باقية. والأحرار قد يتحولون إلى طغاة، ولكن إذا بقيت الحرية خالدة ذهب الرجال وعاشت الحرية!

وأسرع المنافقون يقترحون إقامة تمثال للحرية!

واعترض الفرسان السبعة وقالوا إن التقاليد جرت بإقامة التماثيل للأموات.. وعندما تموت الحرية يقام لها تمثال!

وتولت الحرية الحكم..

فتحت السجون وخرج منها المسجونون.. فتحت المعتقلات وخرج المعتقلون.. الأقلام التي قصفت عادت تكتب من جديد.. الألسنة التي قطعت انطلقت تتكلم.. أضيئت الأنوار.. اختفى اللصوص.. دخل الطغاة الجحور.. اختفى الحقد والدس والكذب والنميمة والهمس.. وأصبح الشعب يحب بعضه.. الطوائف تحب بعضها.. الأمة تحب حكامها.. آمن الكافرون.. صلى الملحدون.. اهتدى الضالون..

ذلك أنه في ظل الحرية يصبح الحب هو صاحب الجلالة..!

وما كادت الآنسة وفية تنتهي من كتابة ختام القصة، حتى عرف مؤلف القصة سر الشيء المجهول الذي كان يتلألأ فيها.. الذي كان يبحث عن مكانه في صدرها وفي فمها وفي فستانها.. فلم يجده..

لقد وجده.. في قلبها!

كانت وفية تحب..

وكانت تريد أن يخرج حبها من الظلام إلى النور!

كانت تريد أن تخلع القناع!

وسمع المؤلف دقاً على الباب المغلق.. فانخلع قلبه!

وقالت وفية بهدوء:

ـ من؟

وسمع صوت والدها الأستاذ أبو بكر يقول لها في صوت صارم:

ـ ماذا تفعلين يا وفية؟

قالت وهي تخرج لسانها للمؤلف:

ـ كنت أصلي!

فقال والدها:

ـ بارك الله فيك.. بارك الله فيك.. إستمري في الصلاة!

وابتعدت أقدام الأب الصالح عن الباب.. وأحس المؤلف بأن وفية تكذب على أبيها لأنها تخاف منه، لأنها ليست حرة.. الأحرار لا يكذبون لأنهم لا يخافون.. والخوف والكذب من صفات العبيد..

وهمس المؤلف في أذن وفية قائلاً:

ـ لماذا تكذبين يا وفية؟

قالت وفية محتجة:

ـ إنني لا أكذب.. لقد كنت فعلاً أصلي.. أليس الحديث عن الحرية نوعاً من الصلاة؟

وسكت المؤلف وكأنه حائر هل يقتنع أم لا يقتنع؟

وإذا بوفية تقول له:

ـ وأنت لماذا تكذب؟

قال المؤلف في احتجاج أعنف من احتجاجها:

ـ أنا لم أكذب.. أنا لم أفتح فمي!

قالت له وهي تبتسم:

- إن الصمت أحد أنواع الكذب.. أنت الآخر لست حراً.. لأنك تركتني أكذب على أبي.. ذلك أنك كنت خائفاً.. ولأنك خائف تركتني أكذب.. ولأنك خائف دخلت إلى غرفتي من النافذة، ولم تدخل من الباب.. الخائفون وحدهم هم الذين يضعون على وجوههم القناع.. إنك جئت إلى هنا لا لترتكب جريمة، ولكن لتسألني سؤالاً بريئاً، ولأنني لا أتمتع بحريتي اضطررت أن تكذب، وأن تسكت عن الكذب، وأن تدخل من النافذة بدلاً من أن تدخل من الباب.. والشعب المحروم من الحرية مثلي ومثلك، يكذب لأنه يخاف، ويسكت عن الكذب لأنه يخاف، ويدخل من النوافذ بدلاً من الأبواب لأنه يخاف أيضاً.. وهكذا يبدو التصرف العادي كأنه خطيئة...

وشعر المؤلف بأن كرامته جرحت لأن وفية اتهمته بالخوف.. واتجه إلى الباب ليخرج منه.. ليقول للأستاذ محمود أبو بكر الحقيقة.. ليقول له إنه هو الذي ينشر الكذب في البيت بينما هو يريد أن ينشر الحقيقة.. إنه يتصور أن في إمكانه أن يرفع من في الأرض إلى السماء، وهو جالس في سمائه.. ولكن عليه أن ينزل إلى الأرض، ويفكر بعقلية أهل الأرض، ليستطيع أن يرفعهم معه إلى السماء..

وفجأة، سمع المؤلف خطوات الأستاذ محمود أبو بكر من جديد.. فأسرع وقفز من النافذة..

واتجه إلى الطابق الثاني..

- ٣٠ -

اتجه المؤلف إلى شقة الأستاذ صبحي خالد المفتش بديوان المحاسبة. طرق الباب. فتحت له زوجته السيدة إحسان. تأمل المؤلف الفارسة التي سقطت ثم وقفت على قدميها. إن الكثيرين إذا سقطوا مرة عاشوا بقية حياتهم راكعين. قليل منا عرف كيف يحول سقطته إلى بداية وثوب نحو قفزة جديدة. الفاشلون يعتبرون هزيمتهم الأولى نهاية حياتهم، والناجحون يعتبرون هزيمتهم بداية وثوبهم.

كان في إمكان إحسان أن تعتبر زلتها مع فوزي بك صلاح الدين هزيمة كاملة. سقطة لا قيام بعدها. زلة قدم يعقبها تدهور إلى الحضيض. خانت زوجها صبحي خالد مرة، فتبعتها بمرات، ثم تهوي أكثر وتعشق أكثر، وتغير العشاق، ويغيرها العشاق، وبعد أن يمتصوها رحيقاً، يلفظونها نواة!

كان في إمكانها أن تقنع نفسها بعد زلتها الأولى بمنطق المهزومين بأنها وصلت إلى الطريق المسدود، ولا تستطيع أن ترجع على أعقابها، وتبدأ حياة الشرف من جديد.

ولكن إحسان هزمت مرة ولم تستسلم بعد الهزيمة. إنها تقهقرت إلى النصر.. وهناك فرق بين أن أعترف بالهزيمة وأحاول أن أنتصر من جديد، وبين أن أكابر وأصور هزيمتي نصراً، وخذلاني مجداً، واندحاري فتحاً مبيناً.. فلكي أنتصر على الهزيمة يجب أن أعترف بها، ولكي أسير في طريق الصواب يجب أن لا أتشبث بالخطأ، وأبرره لنفسي وللناس. فالذين يخدعون أنفسهم لا ينتصرون. فخداع النفس هو القناع الذي تخفى به الهزيمة الدائمة.

وقال المؤلف لإحسان:

ـ لو أردت أن تكتبي نهاية القصة، فهل تكتبينها كفدائية قامت بأعمال بطولية في مقاومة الطغيان، أم تكتبين النهاية كامرأة..

قالت إحسان وهي تضحك:

ـ إن العمل السياسي لا يجرد المرأة من أنوثتها... ولو أن المرأة تصورت أنها تتنازل عن أنوثتها عندما تعمل في السياسة لما إشتغلت امرأة واحدة بالسياسة.. فالسياسة لها قلب. ويوم تتجرد السياسة من القلب، تتحول إلى طغيان.. الحب هو الذي يجعل للسياسة طابعها الانساني. وهذا هو الفرق بين السياسة والحرب. السياسي يكسب قلب الشعب كما يكسب الرجل قلب المرأة، بالكلمات الحلوة، بالوعود، بالحنان، بالإهتمام.. ولا يلجأ الرجل إلى العنف إلا إذا فشلت أسلحته في اجتذاب المرأة، كما تلجأ الدول إلى الحرب وإذا عجزت عن أن تصل إلى أغراضها بالسياسة. فالعنف وسيلة الفاشلين.. ولهذا اعتبر الطغاة نوعاً من أغوات السياسة.

وأذكر أن جدتي حدثتني عن سرور آغا الذي اختاره الشهبندر باشا مشرفاً على جواريه وحريمه في قصره بالحلمية، كان سرور آغا فظاً، غليظاً، قاسي القلب يجد لذة في جلد الجواري، وفي ضربهن، وفي تعذيبهن.. وكان يسعده أن ينشر بينهن الإرهاب، والبطش والجبروت.. وكانت جدتي إحدى هؤلاء الجواري، وكان لا يزال في جسدها بعد عشرات السنين علامات من أثر سياط سرور آغا..

وكان من رأي جدتي أن عجز سرور آغا هو سر طغيانه. فهو يعاقب الجارية على عاهته، وينتقم منها لعجزه، ويظن أن الكرباج

وحده هو القادر على إقناع الجواري..

ومن هنا أصبحت أعتقد أن الطغاة هم جماعة من العجزة وأصحاب العاهات.. يعوضون ضعفاً معيناً بالسوط.

قال المؤلف:

ـ ولكنني تصورت أن ثورتك على الطغاة سببها أن فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام غرر بك، حتى استسلمت له..

قالت إحسان:

ـ ليس فوزي وحده هو سبب ثورتي على الطغيان، فقد يكون أحد أسباب هذه الثورة.. فأنا لم أثر على شخص واحد، وإنما ثرت على جميع هذه الطبقة. ولو كانت المسألة شخصية لثرت عليه وحده، وإنما رأيت فيه نموذجاً لآخرين.. عينة من حكام هذا البلد.. فنحن عندما نمرض بمرض واحد نكره كل الأمراض.. وعندما يلدغنا ثعبان لا نخاف من الثعبان الذي لدغنا فقط، بل نخاف من كل الثعابين.. ولكن الفضل في كراهيتي للطغيان يرجع للسيدة زينب!

ـ لقد فهمت أن السيدة زينب هي صاحبة الفضل في توبتك.. ولكنني لم أعرف أنها هي التي علمتك كراهية الطغيان؟

قال المؤلف:

قالت إحسان:

ـ إن السيدة زينب غرست في قلبي الإيمان. والإيمان جعلني أقرأ القرآن لأول مرة في حياتي واكتشفت فيه شيئاً غريباً أذهلني.. إنه يعدد أنواعاً وأشكالاً للعقاب الذي ينزله على الشعوب التي تعبث

في الارض فساداً، والتي تكفر به. . فعندما عاقب الله قوم لوط قلب عليهم الأرض، فجعل عاليها سافلها. . وعندما غضب الله على قوم نوح أرسل إليهم الطوفان. . وعندما غضب على أصحاب الفيل أرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول. . وعندما غضب على قوم فرعون صب عليهم سوط عذاب. . وعندما غضب على قوم ثمود أهلكهم بالطاغية!

إن الله اعتبر حكم الطاغية كالزلزال، وكالطوفان، وكطير أبابيل، وكسوط العذاب. . بل إنني لاحظت من قراءة القرآن أن الله اعتبر الطغيان والظلم جريمة كالكفر بالله أو الإشراك به سواء بسواء. . ولهذا، عندما كنت أقوم بمقاومة الطاغية كنت أشعر بأن هذه المقاومة هي جزء لا يتجزأ من عبادة الله. . وهذا ما جعلني أقول لك إن السيدة زينب هي التي علمتني مقاومة الطغيان والطغاة!

ثم جلست إحسان تكتب ختام القصة:

ـ «نجحت منشورات الفرسان السبعة في أن توقظ الشعب من نومه، ولكنها فشلت في أن تجعل الشعب يقف على قدميه ويقاوم الملك الطاغية. كل ما استطاعت أن تفعله المنشورات أنها جعلت الشعب يفتح عينيه نصف فتحة، ثم يتثاءب، ثم يغلق فمه، ثم يعود إلى النوم من جديد. فالتثاؤب الوطني لا هو يقظة كاملة ولا استغراق في النوم. إنه مرحلة أقرب إلى الغفوة منه إلى الصحوة. هو نوع من الاسترخاء يدعو الناس إلى الاستلقاء في فراشهم أكثر مما يدعوهم إلى الوقوف على أقدامهم.

وشعر الفرسان السبعة أن صراخهم يذهب مع الريح، يضيع في

غطيط النائمين. واجتمعوا وقرروا أن يفعلوا شيئاً ليوقظوا النائمين، ليطلقوا صوتاً يدوي أكثر من صوت الغطيط.

وإذا بالخادمة سعدية تقول لهم بهدوء: لماذا لا نقتل الملك؟

وكانت سعدية إذا تحدثت في شؤون السياسة يبدو صوتها كضجيج الآلة، فيه من الضوضاء أكثر مما فيه من الأفكار. ولكنها في هذه المرة كانت جملتها مختصرة فبدت نغماتها أشبه بسقوط مطرقة هائلة!

وبهت الفرسان السبعة للاقتراح الغريب. كأنهم عصابة لصوص تفكر في سرقة بضعة قروش. . ثم إذا هي تسمع أصغر أعضائها شأناً يقترح أن يغيروا الخطة، وأن يسرقوا بدلاً من القروش مليون جنيه. . المجهود واحد. ولكن الغنيمة هائلة. . كانوا ينظرون إلى بعضهم دون أن ينبسوا ببنت شفة، واستمر سكوتهم لحظة، كأن ضخامة الفكرة وخطورتها ألجمت ألسنتهم.

ثم تكلم صبحي خالد وقال وقد أفاق من دهشته:

ـ هذه فكرة جنونية مستحيلة التنفيذ!

وهز عزيز علاء الدين رأسه موافقاً!

وصمت شامل شفيق ونظر إلى عيني صديقته كاميليا كامل ليقرأ فيها رأيها قبل أن يبدي رأيه. . وإذا بكاميليا تقول لصبحي:

ـ لقد كان رأيك في أول الأمر أن فكرة طبع المنشورات فكرة مستحيلة. . لكن ثبت أنها فكرة ممكنة.

قالت شريفة في حماس:

- لا يوجد شيء مستحيل.. إن الإيمان بالفكرة هو ثلاثة أرباع طريق النجاح إلى تنفيذها.. لا يهم أن نقتل الملك.. المهم أن نطلق رصاصة أمامه.. هذه الرصاصة إذا لم توقظ الشعب النائم، فستوقظ الحاكم الظالم!

قال صبحي خالد ساخراً:

- توقظه ليبطش بالشعب.. إن رصاصة لا تصيب الملك ستقتل الألوف.. سوف يخرج زبانيته لينتقموا من الأبرياء، وينكلوا بهم، ويلفقوا القضايا ويشنقوا كل الواقفين في طريق الملك!

قالت شريفة:

- هذا هو المطلوب.. البطش يولد الانفجار.. ربما لم يستيقظ الشعب على صوت السياط لأنه تعود عليها.. ولكنه سوف يستيقظ على صوت القمع الجماعي..

وتحمست إحسان لفكرة قتل الملك. إن النساء عندما يشتغلن بالسياسة يصبحن أكثر عنفاً من الرجال. الشاب الفدائي يكره بعقله. والمرأة الفدائية تكره بقلبها. والمرأة إذا أحبت عشقت، وإذا كرهت حقدت. الرجل يستطيع أن يحب بنصف قلبه، ولكن المرأة تحب بكل قلبها، وتكره بكل قلبها وبكل عقلها وبكل قطرة من دمها!

وقال عزيز علاء الدين إن مثل هذه العملية تحتاج إلى خطة، وإنه سيتولى دراستها لبحث إمكان تنفيذها، ووعد بأن يعرض نتيجة دراسته على الفرسان السبعة في اجتماعهم القادم.

وفي الاجتماع التالي قال عزيز إنه درس الفكرة فوجد أن الملك

ليس له مواعيد معينة في خروجه ودخوله. إنه ينام أحياناً في قصر عابدين، وينام في بعض الليالي في قصر القبة، ويخطر بباله في ليلة أن ينام في ركن فاروق بحلوان، أو ينام في استراحته بجوار الهرم الأكبر.. وفي ليال أخرى يقرر فجأة أن ينام في قصر القاهرة.. وهو يغير ويبدل الطريق الذي يجتازه. ولهذا فإن العملية مستحيلة، ويقترح أن يقتلوا فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام.. إن فوزي بك يمثل الطغيان والجبروت والتعذيب والاضطهاد والتلفيق.. إنه الفرعون الصغير في هذه الدولة.. وإنه من السهل قتله، فهو يتردد على عمارة العجوزة لمقابلة الدكتورة دوريس، وما دام لدى الفرسان مفتاح الشقة، فإنه من الممكن قتله في غرفة النوم، ويخرج القاتل بهدوء من السلم الخلفي.. على أن تتم الجريمة بعد خروج الدكتورة دوريس من الشقة!

ويمكن إحداث ضوضاء أثناء إطلاق الرصاص، فيفتح الراديو في شقة عزيز على آخره، وتفتح سعدية الراديو في شقة الأستاذ درويش مخلص على آخره، فلا يسمع صوت الرصاص، ولا تكتشف الجريمة إلا بعد حدوثها بعدة أيام.

وتحمس الفرسان والفارسات للفكرة..

وتطوع شامل شفيق أن يقوم بعملية الاغتيال..

وقال صبحي خالد إنه هو الذي يقوم بعملية الاغتيال.. ودهشت إحسان فقد كانت تتصور أن زوجها لا يستطيع أن يقتل فرخة.. ولكن صبحي الجديد تغير عن صبحي القديم. كان يبدو أكثر الفرسان حماساً لأن يتولى وحده القيام بالعملية!

وساءلت إحسان نفسها عن سر حقد صبحي على الرجل الذي

أغواها. . هل يشك فيه؟ هل قلوبنا تحس بأشياء فنكره الشخص دون أن نعرف لماذا نكرههم؟. إن العميان يعوضون عماهم بشعور خفي يجعلهم يرون بقلوبهم ما لا يرون بأعينهم؟

واستيقظت إحسان من خواطرها على صوت الخادمة سعدية تقول:

ـ لماذا يحتكر الرجال العملية؟. إنني مستعدة أن أقتله. . وأقتل عشيقته الدكتورة دوريس أيضاً؟

قال صبحي خالد:

ـ إن المرأة لا تصلح للإغتيال السياسي!

قالت كاميليا كامل:

ـ إن شارلوت كورداي قتلت الزعيم الفرنسي مارا في الثورة الفرنسية. . دخلت عليه في الحمام وطعنته بخنجر إنتقاماً لألوف الأبرياء الذين قتلهم!

قال صبحي خالد:

ـ إن المرأة المصرية تختلف عن المرأة الفرنسية!

قالت الخادمة سعدية:

إن الملكة شجرة الدر قتلت زوجها الملك بالقبقاب. .

إن الأسطى مرسي روى لي حكايتها. . وأنا مستعدة أن أضرب فوزي بك بالقبقاب حتى يموت. . ألم تقولوا لي إن فوزي بك هو القبقاب الذي يرتديه الملك في الحمام؟ إن القبقاب لا يقتل إلا بالقبقاب!

وضحك صبحي خالد وقال: إن قتل فوزي بك بالقبقاب فكرة وجيهة، ولكنها غير عملية. . لأن فوزي بك يحمل مسدساً ليدافع به عن نفسه!

قالت شريفة: إنني قرأت أن إحدى النساء قتلت أحد ملوك العباسيين بأن ضغطت على أنفاسه بوسادة في غرفة نومه حتى اختنق. . . فالمرأة المسلمة عرفت الاغتيال السياسي قبل أن تعرفه المرأة الفرنسية. . . ولهذا فإن من رأيي أن نعمل قرعة. . من منا نحن السبعة يقتل فوزي صلاح الدين؟

قالت كاميليا كامل: إننا ستة فقط. . . لأن عزيز علاء الدين فقد أصابعه ولا يستطيع إطلاق الرصاص. . ولكن ممكن أن يشترك في العملية بأن يدرب من تقع عليه القرعة لإطلاق الرصاص.

وأسرعت شريفة وأمسكت ورقة قسمتها إلى ستة أقسام متساوية وكتبت على ورقة واحدة اسم فوزي صلاح الدين. ثم طوت كل ورقة عدة مرات وأمسكت طربوش شامل شفيق ووضعت فيه الأوراق الست، ثم طلبت من كل من صبحي وشامل والفارسات الثلاث أن يلتقط ورقة مطوية. . .

وامتدت ست أيد إلى الطربوش. . .

وفتحت الخادمة سعدية ورقتها فوجدتها بيضاء. وفتح صبحي خالد ورقته فوجدها بيضاء، وفتحت كاميليا كامل ورقتها فوجدتها بيضاء، وفتحت شريفة ورقتها فوجدتها بيضاء، وفتح شامل شفيق ورقته فوجدها بيضاء. .

وفتحت إحسان خالد ورقتها فوجدت فيها اسم فوزي

صلاح الدين.. وارتعشت الورقة في يدها.. أحست بأن القدر اختارها دون سواها، لتتولى قتل الرجل الذي سلمته جسدها.

ولم تتردد إحسان. لمعت عيناها بنظرة غريبة. وكأن الورقة الصغيرة تحولت في يدها إلى مسدس تنطلق منه عدة رصاصات.. أحست في تلك اللحظة بأن توبتها لا تكفي لغسل عارها ولمحو خيانتها لزوجها. إنها لم تدفع بعد الثمن. كل ما فعلته لتمحو هذا العار لا يساوي الثلاث ساعات التي أمضتها عارية بين ذراعي هذا الرجل. لم تعتبر إحسان أن ما حدث هو حكم قرعة، بل اعتبرته حكم القدر. لم تعارض هذا الحكم، لم تناقشه بل بدت وكأنها تسمع وحياً، نداء مجهولاً يطلب إليها أن تقتل هذا الرجل.. كأنه لا يكفي أنها أنقذت نفسها من براثن الذئب، بل يجب عليها أن تقتل الذئب حتى لا ينشب مخالبه في بريئات مثلها!

هذا الرجل لم يهتك عرض امرأة واحدة. إنه هتك عرض أمة بأسرها.. فالعرض ليس جسد امرأة هنا، وإنما هو شرف أمة. فالذي يدوس على حرية أمة يدوس على شرفها. والذي يهدر كرامة أبنائها يدوس شرفها. إن الرجل الذي يعتدي على امرأة في شقة يرتكب جريمة اغتصاب، وإنما الرجل الذي يغتصب شرف أمة يرتكب جريمة فعل فاضح في الطريق العام... الشعوب التي تسلب حريتها هي مجموعة من رجال ونساء سلب الطاغية شرفهم، داس على كرامتهم بالأقدام، مرغ عرضهم الوطني في التراب!

وقالت إحسان في تصميم وهي تبتسم ابتسامة باردة كالصقيع:

ـ إن حظي أحسن من حظكم جميعاً.. أنا التي سأقتل فوزي صلاح الدين بيدي!

ونظر صبحي خالد إلى زوجته في ضراعة وقال:

ـ لا.. لا.. أنا سوف أقتله بدلاً منك!

قالت إحسان في احتجاج:

ـ لماذا تريد أن تحرمني من هذا الشرف؟.

ثم ضحكت وكأنها تريد أن تخرج الفرسان من الجو المكهرب الذي سيطر عليهم، فقالت موجهة حديثها لزوجها:

ـ أنا أعرفك جيداً.. إنك رجل أناني!

قال صبحي بصوت مخنوق، وقد تصلب وجهه واكتسى بطابع العبوس:

ـ أناني؟ أنا لا أعرض عليك أن أذهب بدلاً عنك إلى فرح.. أنا أعرض عليك أن أذهب بدلاً عنك إلى المشنقة.. هل تعلمين أن هناك احتمالاً في أن يقبض عليك ويحكم عليك بالإعدام؟

قالت إحسان في انفعال:

ـ إنك فعلاً تريد أن تذهب بدلاً مني إلى فرح.. ألا تعرف أن مصرع طاغية هو فرح أمة!

قال صبحي في توسل:

ـ فكري يا إحسان في أولادك!

قالت إحسان في تصميم:

ـ لقد فكرت فيهم.. وفكرت كذلك في أولاد الناس.. أولاد

وبنات الملايين الذين سيكبرون في هذا البلد ويذلهم ويستعبدهم فوزي صلاح الدين!

وفوجئت إحسان بعزيز علاء الدين يقول لها:

ـ إنني آسف أن أقول لك إن توليك هذه المهمة الخطيرة يقتضي أن يطلقك زوجك صبحي خالد.. وأن تغادري العمارة.. وأن تتخلي عن رؤية أولادك!

وفزعت إحسان وقالت وقلبها يتمزق:

ـ أطلق زوجي؟.. وأترك أولادي؟

لقد خطر ببال إحسان أن يحكم عليها بالإعدام.. وأحست بحبل المشنقة يضغط على عنقها، ولكنها لم يخطر ببالها لحظة أن يطلقها زوجها أو تفترق عن أولادها؟

قال عزيز علاء الدين وقد تكشفت شفتاه عن ابتسامة رجل يجيد التدبير والتخطيط:

ـ إن هذا في مصلحة أولادك وفي مصلحة حركتنا.. إذا بقيت متزوجة صبحي، سوف يقبض عليه معك، وسوف يحاكم معك، وسوف يعدم معك.

قال صبحي يقاطعه في صوت حزين كئيب وقد اكتسى وجهه بعلائم الجد:

ـ أنا مستعد أن أموت مع إحسان.

قال عزيز وهو يدخن سيجارته بعصبية:

ـ أنا لا أفكر فيك.. أفكر في أولادك.. من الذي يربي أولادك إذا شنقت أمهم وشنق أبوهم؟ ثم هناك خطر على الحركة نفسها.. سوف تتجه الأنظار إلى عمارة العجوزة.. وسوف تسقط عصابة الفرسان السبعة في يد البوليس.. بينما إذا تم الطلاق، سيتصور البوليس أن بينكما خلافاً وصل إلى الطلاق، وأن إحسان تقيم بعيدة عنك. ولهذا، لن يتبادر إلى ذهن المحققين أنكما عضوان في عصابة واحدة؟!

قالت إحسان وهي تحبس دموعها:

ـ إنني مقتنعة بهذه الفكرة تماماً.. متى يتم الطلاق؟!

قال عزيز بمرارة:

ـ كلما أسرعنا في الطلاق كان هذا أحسن!

قالت إحسان وقد عادت ابتسامتها تطل لأول مرة في وجهها المتجهم

ـ إنني مستعدة الآن..

وامتلأت عيون شريفة وكاميليا وسعدية بالدموع..

وصرخت سعدية وقالت:

ـ لا.. لا يمكن أن تقومي بهذه العملية.. أنا التي سأقوم بها.. أنا غير متزوجة وليس عندي أولاد.

وقالت كاميليا وهي تمسح دموعها بعينيها:

ـ أنا أيضاً غير متزوجة.. وليس عندي أولاد.. وأنا أجيد

إطلاق الرصاص.. إن هوايتي الصيد وبذلك أوفر عليكم المجهود في تعليم إحسان إطلاق الرصاص.. إن الفدائي يجب ألا يكون متزوجاً ويجب أن لا يكون له أولاد!

قال صبحي: ويجب ألا يكون امرأة!

قالت إحسان: إن أربعة من الستة الذين شنقوا في اغتيال السردار سنة ١٩٢٤ كانوا متزوجين وكان لهم أولاد!

قال صبحي: ولم يكن بينهم امرأة؟

قالت إحسان: ألم تطلب المرأة المساواة في الحقوق؟ إن عليها أن تشترك في الواجبات لتنال نفس الحقوق!

وعندما عادت إحسان مع زوجها إلى شقتها، اتجهت إحسان إلى غرفة نوم ولديها، وعانقت ابنها وابنتها وهما في الفراش وقبلتهما..

وعادت إلى زوجها فوجدته جالساً في الفراش يبكي..

وقبلته وهي تضحك وتقول:

ـ هل ستتزوج بعدي يا صبحي؟

وصرخ صبحي قائلاً:

ـ مستحيل.. مستحيل!

وأدت إحسان الصلاة، ثم دخلت غرفة النوم، واستلقت في فراشها، واستغرقت في النوم، وبعد ساعات سمعت صوت نحيب، وفتحت عينيها فوجدت زوجها صبحي لا يزال يبكي..

قالت له وهي تضحك:

ـ اعتادت النساء على البكاء عندما ذهب أزواجهن إلى ميدان القتال.. والآن جاء دور الرجل!

كانت إحسان في دهشة من أنها استقبلت المهمة التي ستقوم بها بهدوء أعصاب، كان نومها هادئاً، كانت شهيتها للطعام مفتوحة، وكأنها تريد أن تأكل كل شيء قبل أن تموت..

وكانت تشعر أن هذا هو قدرها. وكانت فخورة بأنها ستكون أول مصرية ستقتل طاغية. لقد نسيت مع الوقت أن هذا الطاغية كان في ساعة من الساعات عشيقها، وأن فراشاً واحداً ضمهما معاً، وأنها استمعت بين أحضانه، وأنها ستطلق رصاصة على الصدر الذي أحست بدفئه على صدرها.

انقطعت صلتها بماضيها. شعرت بأنها ستقتل رجلاً تراه لأول مرة. ستقتل وحشاً. لقد أعطت نفسها من قبل لفوزي بك صلاح الدين. وقد تصورته جندياً يتمتع بصفات الجنود الفرسان.. فيه القوة والرحمة.. فيه الإيمان والشجاعة.. فيه الذكاء والحب.. ولكن صفات جنود الوطن تختلف عن صفات جنود الطاغية. القوة في جنود الطغيان بطش، والرحمة فيهم قسوة، والإيمان فيهم غرور، والشجاعة فيهم حماقة، والذكاء فيهم خبث، والحب فيهم هوى مبرح في أشخاصهم.. الجندي الحقيقي غيور على الشرف. شرفه وشرف الآخرين، ولا يمزق شرف الناس ويدوسه بالأقدام.. الفارس ينجد المظلوم.. ولا يظلم البريء، صريح وليس وقحاً، مطيع وليس عبداً، خشن وليس جباراً، صارم في الحق وليس سوطاً على الحق..

الرجل الذي نامت معه هو الفارس الذي تخيلته، والرجل الذي

ستقتله هو السجان الذي عرفته، من الأبرياء الذين زجهم في السجون، من الشهداء الذين علقهم في المشانق، من الوطنيين الذين لفق لهم التهم، من الشرفاء الذين ألهب ظهورهم بالسياط..

إن نساء قبلها قتلن رجالاً خانوا هؤلاء النساء، ولكنها تقتل رجلاً خان أمة.. أراد أن يعهرها كما حاول أن يعهر إحسان.. أراد أن يجعل من الشعب جارية، بل غانية!

«وتم طلاق إحسان من زوجها صبحي خالد»..

وجاء مأذون حي العجوزة وحاول أن يصلح بينهما، قبل أن تتم إجراءات الطلاق..

وقالت إحسان للمأذون إنها تكره زوجها ولا تطيقه.. وإنها لم تعد تستطيع أن تعيش معه تحت سقف واحد، وإنها تفضل الموت على أن تبقى لمثل هذا الرجل..

وكالت المطاعن والسباب والتهم لزوجها أمام المأذون..

وعندما خرج المأذون بعد إتمام الطلاق ارتمت بين أحضان صبحي تقبله قبلات حارة طويلة بشفتين ملتهبتين جائعتين..

وأصرت إحسان أن تحتفل بطلاقها كأنها تحتفل بزفافها... فأخرجت من خزانتها ثوب زفافها، وارتدته، وتزينت كما فعلت ليلة زفافها..

ثم حرصت على أن تترك زوجها نائماً في نشوة زفافه الثاني، وخرجت من غرفة نومها على أطراف أصابعها، واتجهت إلى الغرفة

التي نام فيها ولدها وابنتها وقبلتهما، ثم ارتدت ملابس الخروج التي كانت خبأتها في غرفة مجاورة ومعها حقيبة فيها ملابسها.

وحملت الحقيبة وخرجت بهدوء من الشقة.

وأقامت في بنسيون روز بشارع الانتكخانة، وهو بنسيون اختارته لها الممثلة كاميليا، وقالت إن كل المقيمين فيه من الأجانب. وقيدت اسمها في البانسيون باسم مدام سامية سامي. وكانت شريفة تتصل بإحسان كل يوم، وتحدد لها مكاناً وزماناً، يلتقيان فيه بها في حلوان..

ثم يصحبانها إلى مكان بعيد في الصحراء حيث يدربها عزيز علاء الدين على إطلاق الرصاص..

وأدهشت إحسان بدقة تصويب أستاذها عزيز علاء الدين..

وبدأ الاستعداد للقيام بالعملية..

وفوجىء عزيز بإحسان تقول له إنها لا توافق على الخطة التي وضعها. فخطته تقتضي أن تدخل العمارة، وتصعد إلى شقة عزيز في الطابق السادس، ثم تنزل على سلم الخدم إلى الطابق الخامس وتدخل من باب الخدم، وتنتظر حتى يجيء فوزي صلاح الدين وتجيء الدكتورة دوريس. وبعد أن ينتهي الموعد الغرامي، وتخرج الدكتورة دوريس تتقدم إحسان وتدخل غرفة النوم وتقتل فوزي صلاح الدين.

قالت إحسان:

ـ إننا لا نعرف الموعد الذي يلتقي فيه فوزي بالدكتورة

دوريس.. ومعنى هذا أني مضطرة أن أبقى عدة أيام أنتظر ساعات طويلة، وقد يجيء فوزي أو لا يجيء.. ثم إذا حدث وجاء، ثم انصرف قبل دوريس كما حدث في المرة التي رأيناها فيها، فماذا أفعل؟ إن عملية الانتظار سوف تحطم أعصابي.. ثم إن ترددي باستمرار على العمارة، بعد أن عرف عم ابراهيم البواب بطلاقي من زوجي، وإنني لم أعد أقيم في الشقة، سوف يثير الشبهات.. ولهذا فإنني قررت أن أضع أنا الخطة بنفسي..

وقال لها عزيز وهو يضحك..

ـ إن من حقك أن تضعي الخطة التي تريحك.. ولكن يجب أن أعرفها حتى أدرسها لنضمن نجاحها..

وكانت إحسان قد وضعت خطتها.. ولكنها لم تخبر عزيز بما كانت تفكر فيه..

لقد خطر ببالها: ماذا يحدث لو أنه قبض عليها في الشقة.. إنها لا تريد أن يراها ابنها وابنتها وهي تخرج من العمارة مقبوضاً عليها.. لا تريد أن يراها البواب، لا تريد أن يراها الجيران في هذا المنظر. إنه موقف مشرف لمن يعرف دوافعها.. ولكن هؤلاء لن يعرفوا لماذا قتلته؟..

ثم إنها أصبحت تشعر بأنها عندما ستقتل هذا الرجل، فكأنها ستؤدي فريضة الصلاة.. وهي لا تريد أن تصلي صلاتها الأخيرة في نفس المكان الذي ارتكبت فيه خطيئتها الأولى.. إن الخطة التي وضعها عزيز تقضي بأن تقتل فوزي في غرفة النوم. إن عزيز لا يعرف ذكرياتها عن غرفة النوم. لا يعرف ماذا حدث في هذه الغرفة بالذات.. إنها لا تريد أن تقتل فوزي على نفس السرير الذي قتلها

فيه.. كأنها لا تريد أن تلوث الفراش بدمه.. بعد أن لوثته بدم شرفها المذبوح!

وكانت إحسان تحفظ الرقم السري لتليفون مكتب فوزي صلاح الدين. إنها لم تستطع أن تنسى هذا الرقم الذي طلبت فوزي فيه قبل أن تتوب...

وذات صباح ذهبت إلى تليفون البنسيون، وأدارت رقم تليفون مكتب فوزي:

وقالت إحسان: هل تذكر هذا الصوت؟

قال فوزي في ذهول: هذا غير معقول.. إحسان؟. إنني لم أنس صوتك أبداً.. إنني لم أنسك أبداً.. أين أنت؟

قالت وهي تتظاهر بالدلال:

ـ لا أستطيع أن أقول لك!

قال صوته في توسل وكأنه يركع:

أرجوك يا إحسان.. أريد أن أراك!

قالت:

ـ لماذا لم تسألني عن زوجي؟. إن آخر مرة رأيتني فيها قلت لي إنك مهتم بأمر زوجي.

قال متململاً:

ـ كيف حاله؟

قالت: مات!

قال وصوته يزغرد: ماذا؟! هذا أسعد خبر سمعته في حياتي!!

وتمالك نفسه وقال وهو يتصنع الحزن: آسف.. أقصد أن أقول إنه أسوأ خبر سمعته في حياتي.. متى مات؟

قالت وهي تضحك: مات في نظري.. طلقني!

قال فوزي: السافل! الدنيء! الكلب! هل تريدين أن أقبض لك عليه؟ هل تريدين أن أرفته من وظيفته في ديوان المحاسبة؟!

قالت وهي لا تزال تضحك: لا.. أريد أن أراك.. بشرط ألا تكون مشغولاً بامرأة أخرى!

قال وكأنه تذكر الدكتورة دوريس:

ـ إمرأة أخرى؟ أقسم لك بشرفي إنه لا يوجد امرأة أخرى.. أقسم لك بشرفي أنك منذ أن هجرتني لم أعرف امرأة سواك..

وابتسمت إحسان.. فقد رأته بنفسها في شقة سعدون باشا مع الدكتورة دوريس، وقالت:

ـ ما دمت أقسمت بشرفك فإنني أصدقك..

وانفرجت أسارير فوزي بك لأن إحسان تؤمن بشرفه، وعاد يقول لها في حماس وشوق ولهفة:

ـ متى أقابلك؟ الآن.. في الجرسونييرة..

قالت: لا أستطيع أن أذهب إلى هذه الجارسونيرة.. لأنها في نفس العمارة التي فيها زوجي والأولاد.. وأخشى أن يراني أحد!

وتذكر فوزي بك أن الدكتورة دوريس معها مفتاح للشقة، وممكن أن تضبطه بين أحضان إحسان، فقال:

ـ معك حق.. معك حق.. لا يجوز أن يراك أحد في العمارة.. إننا ممكن أن نلتقي في البيت الذي أخذته من الحراسة ليكون مكتباً خاصاً لي.. إنه في شارع حسن صبري باشا رقم ٧ بالزمالك.. إنني أنتظرك بعد نصف ساعة هناك..

قالت إحسان: لا أستطيع أن أحضر الآن.. يمكنني أن أحضر صباح غد الساعة الحادية عشرة صباحاً!

قال معترضاً: صباح غد!؟ معنى ذلك أن أنتظر ٢٤ ساعة كاملة؟ إنني لا أتصور أنني أستطيع أن أعيش ٢٤ دقيقة دون أن أراك!

قالت وهي تضحك: لقد انتظرت عدة شهور في الماضي ويمكن أن تنتظر ٢٤ ساعة الآن.

قال وهو يضحك: سأذهب إلى هناك من الآن.. وأنتظر حتى يجيء الغد!

ووضعت سماعة التليفون.

ثم اتصلت إحسان بشريفة وطلبت أن تلقاها..

وأخبرتها إحسان بأنها حصلت على موعد للقاء فوزي صلاح الدين، وخبرتها بالمكان. ولاحظت إحسان أنها تزينت وتكحلت وتعطرت قبل أن تذهب إلى موعدها مع الموت.. وإنها حرصت أن تضع في حقيبتها المشط ووعاء البودرة والأحمر قبل أن تضع فيها

المسدس. وساءلت نفسها: هل تتزين للقاء الموت.. أم للقاء عاشقها القديم.. أم للقاء الإثنين معاً... فلم تعرف جواباً!

وفي الموعد المحدد دخلت إحسان إلى باب حديقة البيت.

ودهشت أنها لم تر حارساً على الباب، ولا سيارة..

وصعدت على درجات السلم، ثم ما كادت تقترب من الباب الداخلي، حتى وجدته يفتح، ورأت فوزي صلاح الدين في الإنتظار..

وجذبها من يدها، وأغلق الباب، وأغرقها قبلات وعناقاً.. ولم تقاوم.. وإن كانت شعرت بطعم آخر في قبلاته غير القبلات ذاقتها من شفتيه في لقائها الأول.. قبلاته الأولى أسكرتها، وقبلاته الأخيرة أفاقتها.. كانت وهي بين ذراعيه تفكر في المسدس الذي وضعته في حقيبة يدها، ومتى تخرجه من الحقيبة؟!

ثم إذا فوزي يحملها بين ذراعيه، ويصعد بها درجات السلم الخشبي، وهو يستمر في تقبيلها، ثم يدخلها غرفة نوم في الدور العلوي، ويضعها على الفراش، ثم يبدأ يحاول نزع ملابسها..

وقالت له وهي تدفعه في رفق: سأخلع أنا ملابسي.. إذهب أنت واخلع ملابسك!

وجلست إحسان على الفراش، واتجه فوزي إلى خزانة ثياب ليفتحها ويخرج بيجاما..

وهنا أخرجت إحسان المسدس بسرعة وصوبته إلى ظهره وقالت:

ـ سوف تموت الآن يا فوزي.

واستدار فوزي صلاح الدين في فزع وقال لها:

ـ هل جننت يا إحسان؟

ولم ترد إحسان عليه.. وضغطت على زناد المسدس.. ولكن الرصاصة لم تنطلق!

وضغطت إحسان من جديد ولم تنطلق الرصاصة...

وقالت إحسان: يا سيدة زينب...

ولكن السيدة زينب التي استنجدت بها إحسان تساعد الناس على التوبة، ولكنها لم تساعدها على إطلاق الرصاص!

ولم يتبين فوزي في فزعه ورجفته وذعره أن الرصاصة لم تنطلق فتسمر في مكانه.. اصفر وجهه.. تضاءل العملاق فأصبح قزماً.. ماتت الكلمات على شفتيه.. سقط العرق من وجهه.. الطغاة أسود عندما يكون المسدس في أيديهم، ولكن عندما يتحول المسدس إلى يد أخرى يتحولون إلى فيران!

وأحست إحسان بالشفقة عليه، وهو يتهاوى أمامها ويتخاذل، ويرتعد وسمعت صوتاً في داخلها يقول لها:

ـ إن السيدة زينب أعطتك فرصة للتوبة... فلماذا لا تعطينه نفس الفرصة ليتوب؟

وأحست بقشعريرة وهي تسمع هذا الصوت.. وخيل إليها أنه ليس صوت بشر.. إنه صوت السيدة زينب نفسها.. السيدة الطاهرة التي طهرتها، وتريد أن تطهر كل الناس.. حتى فوزي بك صلاح الدين...

وقالت له والمسدس في يدها:

ـ لقد أردت أن أقتلك لا لأنك خنقتني.. بل، لأنك خنقت شعباً بأسره.. ولكنني أريد أن أعطيك فرصة للتوبة.. فرصة لتكفر بها عن سيئاتك وذنوبك وجرائمك.. إنني أعتبرك ضحية.. ضحية طمعك في النفوذ والسلطان.. ضحية جشعك.. فهل أنت مستعد للتوبة؟...

قال فوزي والدموع تنهمر من عينيه وهو يركع تحت قدميها:

ـ إنني مستعد أن أكون عبدك أفعل ما تشائين.. أنفذ أوامرك!

قالت إحسان:

ـ هل أنت مستعد أن تفرج عن كل الأبرياء الذين اعتقلتهم وسجنتهم؟

قال فوزي بصوت مرتعش، صوت المارد الذي تحول إلى قزم:

ـ مستعد..

قالت إحسان وقد رفعت ذقنه بإبهام راحتها:

ـ وهل أنت مستعد لأن تعترف بأن كل القضايا التي قدمتها ملفقة؟

قال فوزي بصوت مرتجف:

ـ مستعد أن أوقع على كل ما تريدين.. أكتبي على ورقة كل ما تريدينه وأنا سأوقع عليها.. هل معك ورقة وقلم لأكتب الاعتراف؟

قالت إحسان: لا.. هات ورقة من عندك!

وتناول فوزي ورقة من مائدة بقربه وقدمها إلى احسان:

ـ إنني مستعد أيضاً أن أوقع استقالة من منصبي.. أكتبي ما تشائين وأنا أوقعه..

ونقلت إحسان المسدس من يدها اليمنى إلى يدها اليسرى.. وأمسكت القلم وبدأت تكتب:

«أقر أنا فوزي صلاح الدين بأن جميع المسجونين السياسيين أبرياء وأنني لفقت لهم القضايا...».

وفجأة هجم فوزي عليها من الخلف، وحاول أن ينتزع المسدس، ولكنها بقيت متشبثة بالمسدس...

وإذا برصاصة تنطلق..

وأصابت الرصاصة فوزي صلاح الدين في كفه..

وما كادت إحسان ترى الدم يسقط من كف فوزي حتى أغمي عليها..

وأسرع فوزي صلاح الدين وقيدها، واتصل بالصاغ عبدالله شوقي وطلب إليه أن يحضر فوراً مع قوة إلى بيت الزمالك للقبض على امرأة حاولت اغتياله..

وأودعت إحسان السجن..

وألف فوزي صلاح الدين قصة وهمية عن محاولة اغتياله.

جمع مندوبي الصحف، وراح يروي تفاصيل بطولاته، وكيف أن هذه المجرمة أوهمته بأنها فقيرة مسكينة، فاستقبلها كما هي عادته

دائماً مع الثكالى والأرامل، ليساعدهم في السر. بغير أن تعرف اليمين ما تفعله اليسار. . وكيف فوجىء بها ترفع مسدساً وتحاول أن تقتله.

وكان قادراً أن يقتلها فوراً، ولكنه فارس، والفرسان لا يطلقون الرصاص على النساء الضعفاء، ومن هنا فضل أن يجرح برصاصتها، على أن يصيب امرأة بسوء. . .

وذكر أنه لا يريد أن يذكر معلوماته عن هذه المجرمة، فإن في إدارة الأمن العام ملفاً كاملاً عن نشاطها واتصالاتها المريبة بخصوم الدولة في الداخل والخارج، حرصاً منه على سلامة التحقيق.

وخرجت الصحف بالعناوين الكبرى عن محاولة اغتيال مدير الأمن العام.

وكان القبض على إحسان فرصة ذهبية للدولة فقبضت على كل خصومها وكتب كل صاحب نفوذ اسم خصمه الشخصي، أو منافسه على حب امرأة. أو قريبه الذي يختلف معه على ميراث، في قائمة المجرمين الخطرين الذين يجب القبض عليهم.

وامتلأت السجون بالأبرياء

ولكن صبحي خالد زوج إحسان لم يقبض عليه. فان ورقة الطلاق التي في يده كانت الدرع الواقية التي تحميه من السجن والاعتقال. ومع أن الدولة نشرت جواً من الإرهاب، إلا أن الفرسان الستة أحسوا كأن السياط ترتعش في أيدي الجلادين. كأن الرصاصة التي جرحت فوزي صلاح الدين في يده أصابتهم في قلوبهم. . هزت المقاعد تحتهم. . وأحسوا بأن الشعب فتح فمه لا

ليتثاءب بل ليصيح، ومد ذراعيه لا ليتململ وإنما ليضرب أعداءه.

وفي أول الأمر ظهر فوزي صلاح الدين في صورة البطل المغوار. أوفد الملك الفريق عمر فتحي باشا كبير الياوران مندوباً عنه ليهنىء البطل بنجاته من الإعتداء الغاشم. أنعم الملك على فوزي بك برتبة الباشوية تقديراً لبطولته في مقاومة المجرمة الأثيمة والقبض عليها.

ثم ما لبثت أن اختفت صورة البطل. وبدأ الناس يتندرون بجبن فوزي صلاح الدين أمام المرأة ويؤلفون النكت على فزعه أمام إحسان. . ولم تكن إحسان روت لأحد شيئاً عما حدث. وإنما هذا الشعب اشتهر بإحساس غريب أنه يتخيل الحقيقة دون أن يراها. . يشعر بها مهما أخفيت عليه. . يستطيع بقدرة غريبة أن يميز بين الصدق والضلال. . بين الذين يصارحونه والذين يخدعونه. .

وفوجئت الدولة بأن نساء مصر تحمسن لإحسان. أصبحت كل امرأة محامية لها. أصبحت النساء تنسب إليها كلمات مأثورة. المرأة تغار من المرأة إذا كانت قريبة منها، ولكنها تتحمس لها إذا كانت خلف القضبان.

وافترست النساء الحكام بألسنتهن. إن كلمات النساء لها أظافر ولها أنياب!

وفشلت محاولات الدولة لتشويه صورة إحسان أمام الرأي العام. إن للحبر الذي نكتب به الصحف رائحة مثل رائحة المسك. . من السهل وأنت تقرب أنفك من الكلمات أن تعرف الكلام الحقيقي والكلام المغشوش. . مقال المديح الذي يكتبه كاتب حر في وصف حاكم هو شهادة ميلاد للحاكم. ومقال المديح

الذي يضطر كاتب مقيد ليمدح به حاكماً ظالماً هو شهادة وفاة لهذا الحاكم الظالم!

وصدرت الأوامر بتعذيب إحسان في سجنها.. جردوها من ثيابها.. تركوها عارية أمام المحققين.. هددوها بذبح ابنها وابنتها.. هددوها بأن يقولوا في الصحف قصصاً وحكايات تمس شرفها وتسيء إلى عرضها.. ولكن إحسان صمدت أمام كل تهديد وتعذيب!

وأصرت الدولة بأن إحسان اعترفت.. في المجتمع المغلق يعترف كل المتهمين، المجرمون والأبرياء، الذين اعترفوا والذين لم يعترفوا.. المتهمون لا يدلون باعترافات إنما المحققون هم الذين يؤلفون الإعترافات!

وجاء في الإعترافات الملفقة بأن عميلاً أجنبياً قابلها في بنسيون دي روز وطلب منها أن تقتل فوزي صلاح الدين لأن الدولة الأجنبية التي يمثلها تخشى على مصالحها من تعصبه الوطني.. ومحاربته للاستغلال الأجنبي لخيرات البلاد.. وإن هذه الدولة الأجنبية تعمل لحساب مؤسسة صهيونية خطيرة تشعر أن فوزي صلاح الدين يقف عقبة أمام تحقيق انتصارها!

وقدمت إحسان للمحاكمة أمام محكمة عسكرية برئاسة سعدون باشا.

وكانت إحسان هادئة في زنزانتها في إنتظار محاكمتها. تمضي وقتها في الصلاة وكانت أحياناً تسائل نفسها: لماذا لم تقتل فوزي صلاح الدين؟ إن السبب ليس أن الرصاصة لم تنطلق. السبب أنها لم تحرك صمام الأمان.. وقد اكتشفت هذا بعد أن ضغطت على

الزناد في المرة الأولى.. وكان في إمكانها أن تحرك صمام الأمان ولكنها لم تفعل.. وكان في إمكانها أن تقتله وهو يحاول أن يأخذ هذا المسدس، فلم تفعل، بل اكتفت بإطلاق الرصاصة على يده..

فلماذا فعلت هذا؟

إنها فعلت هذا ليس بدافع الحب. إنها لم تعد تحبه.. لقد تحول الحب إلى مقت. لم تضعف أمام قبلاته. إنها أحست وهو يقبلها كأنه ينشب أنيابه في فمها ووجهها. إن شيئاً ما في داخلها جعلها تكتفي بأن تجرحه.. ولا تهرب.. لأنها أرادت أن تقتل الطاغية الصغير.. المهم أن يعلم كل الطغاة أن امرأة خرجت لتقاومهم.. إننا لا نريد أن نقتل رجالاً، نريد أن نقتل الفكرة، فكرة الطغيان. إننا نريد شعاراً جديداً هو «لا إله إلا الله».. الله وحده هو الذي يحيي ويميت.. فليس من حقنا أن نكون آلهة نحيي ونميت.. الله وحده هو الذي فوق الشكوك والإتهامات، فلماذا يريد قوم منا أن يجعلوا من مقاعدهم سماواتهم؟

إن إحسان أحست قبل أن تطلق النار بأن ليس من حقها أن تكون إلهاً يميت.. أحست بأنها تنتزع لنفسها حقاً من حقوق الله وحده. ولهذا لم تقتل فوزي صلاح الدين..

وهي سعيدة بأنها لم تقتله، لم تندم لأنها تركته يعيش.. لم تندم لأنها أعطته نفس فرصة التوبة التي أعطتها لها السيدة زينب.. إنها أحست براحة ضمير بأنها لم تقتل.. إنها جرحت الطاغية وأصابت الطغيان.. لم ترهبها الزنزانة بأبوابها الحديدية، ولا أصوات السجانات الغليظة. ولا رطوبة الزنزانة القاتلة.. كانت تشعر أنها تحلم!

وحكمت المحكمة العسكرية عليها بالإعدام شنقاً!

وفشلت احتجاجات الهيئات النسائية ومطالبتها بتعديل حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة مدى الحياة..

وجاء مأمور سجن النساء يقترح عليها أن تكتب التماساً إلى الملك تطلب العفو.. فرفضت إحسان وقالت أنا لا أطلب العفو إلا من الله!

وتحدد موعد تنفيذ حكم الإعدام..

وأرسل مأمور السجن إلى إحسان ضابطاً وثلاثة جنود، وكلفهم أن يسألوا «الشقية» إحسان عما تريد قبل تنفيذ حكم الإعدام..

واتجه الضابط والجنود إلى زنزانة إحسان.

ودخل الضابط إلى الزنزانة وبقي الجنود الثلاثة واقفين أمام الباب..

وبعد دقيقة خرج الضابط من الزنزانة وقد بدا على وجهه الذهول والاستغراب.

وسأله أحد الجنود: ماذا طلبت؟ هل طلبت أن ترى أولادها؟

قال الضابط: لا.. إنها قالت إن صورة ابنها وابنتها في قلبها وليست في حاجة إلى أن تراهما!

وسأل الجندي الثاني: لعلها طلبت المصحف الشريف؟

قال الضابط: لا.. أنها قالت إنها تحفظ القرآن كله.. وليست في حاجة إلى مصحف.

وسأل الجندي الثالث:

ـ لعلها طلبت طعاماً معيناً تذوقه قبل أن تموت؟

قال الضابط:

ـ لا.. إنها رفضت الطعام وقالت إنها صائمة.. وتريد أن تموت وهي صائمة.. وإنها ستفطر في الجنة!

ودهش الجنود الثلاثة لزهد هذه البطلة وتجردها وإيمانها العجيب. وسألوا في صوت واحد:

ـ إذن، ماذا طلبت؟

قال الضابط:

ـ طلبت مرآة ترى فيها وجهها قبل أن تذهب إلى المشنقة!

وتطلع المؤلف في وجه إحسان وهي تختم القصة.. تطلع في عينيها الناعستين وشفتيها الساحرتين، وبشرتها الناضرة.. وأحس كأنه تحول إلى مرآة، فيها صورة امرأة وخيال بطلة!

ومضى المؤلف يخرج من شقة إحسان، ليتجه إلى الشقة المقابلة في نفس الطابق...

ـ ٣١ ـ

على ردهة السلم الرخامي، في عمارة العجوزة، وأمام شقة إحسان خالد في الطابق الثاني، رأى المؤلف الخادمة سعدية تصعد

درجات السلم، وقد التفت بملاءة لف سوداء. وتحمل على رأسها صينية، وهي تدندن في صوت خافت أغنيتها المفضلة: «صوابعك العشرة قولي يا روحي اشمعنى؟ مخلوقة م الطين؟ م النار؟. . والا م الجنة».

واستوقفها المؤلف، فتوقفت عن الغناء، وسألته في دهشة عما يريد؟

وطلب إليها المؤلف أن تكتب ختام القصة. .

وضحكت سعدية ضحكة حلوة، لها رنين الخلخال الذي في ساقها، وقالت:

ـ أنا لا أكتب ولا أقرأ!

قال المؤلف:

ـ يمكنك أن تملي علي ختام القصة.

وابتسمت سعدية، ورفعت الصينية التي على رأسها، وجلست على إحدى درجات السلم، ووضعت الصينية على درجة أخرى، ثم قالت للمؤلف:

ـ تعال. . اجلس بجواري.

وجلس المؤلف على درجة السلم بجوارها، ولاحظت سعدية دهشته لأنها اختارت هذا المكان المتواضع لختام القصة فقالت:

ـ ما عيب السلم؟ إننا نمضي حياتنا فوق سلالم الحياة. نصعد ونهبط. نحرق دماءنا وأعصابنا وأنفسنا لنصعد. وتزل أقدامنا

فتنكسر أرجلنا أو تدق أعناقنا ونحن نهبط. . ولا نكف عن محاولة الصعود، مهما لهثت أنفاسنا وتعبت أقدامنا.

كل إنسان يريد أن يصعد درجة، أو يقفز درجات. الموظفون لا حديث لهم إلا عن الدرجات. . التلاميذ مشغولون بالدرجات. . الوزير يريد أن يصعد درجة ويصبح رئيس وزارة. . وكيل الوزارة يريد أن يصعد درجة ويصبح وزيراً. . الدول نفسها درجات. .

أهم أحداث الحياة تقع على السلم. . الطغاة يعتبرون ظهور الشعب هي السلالم التي يصعدون عليها إلى السلطان. .

وأنا أمضيت طفولتي كلها تحت السلم. كان أبي بواباً، وكانت غرفته تحت السلم. أمضيت شبابي أغسل السلم، أحببت الأسطى مرسي على السلم. . وأحب أن أجعل ختام القصة على السلم!

قال لها المؤلف وهو يخرج قلمه وأوراقه:

ـ إنني مقتنع الآن بأن درجة السلم التي نجلس فوقها هي أحسن مكان يمكن أن يلهمك لإملائي ختام القصة. .

وبدأت تملي عليه:

ـ «اجتمع الفرسان والفارسات السبعة ليبحثوا خطوتهم القادمة. . وبدأ الفرسان يحللون الموقف السياسي وما هو المنشور الجديد الذي يطبعونه في هذا الأسبوع.

وقالت الخادمة سعدية: إن كل مانفعله كلام فارغ. . إن الحل هو قتل الملك!

قال صبحي خالد وقد ضاق بها: أليس عندك كلمة سوى هذه

الكلمة تقولينها في كل اجتماع إننا لا نؤمن بالعنف. نحن نقاوم العنف. إننا إذا فتحنا حنفية الدم فسوف لا نعرف كيف نغلقها. القتل السياسي لم يحل مشكلة في تاريخ الشعوب، وإنما كان بداية مشاكل جديدة. لو قتلنا الملك فإننا لا نقتل الطغيان، وإنما سنفتح الطريق لطاغية أكبر!

قالت الخادمة سعدية: إن الحل هو مقتل الملك!

قال شامل شفيق: قد لا يكون ضرب الرأس دائماً هي الوسيلة لقتل صاحب الرأس.. فالطغيان ثور هائج. الطعنة في رأسه قد لا تقتله. ولكن الطعنة في عنقه، مركز الأعصاب تقتله، فإننا عندما نهاجم سعدون باشا وفوزي صلاح الدين والأمير عادل وببا، إنما نهاجم مجمع الأعصاب!

قالت الخادمة سعدية: أنتم توجهون الضربات إلى الظل وليس إلى صاحب الظل. يجب أن نقتل الملك!

وهز صبحي خالد رأسه باشفاق وقال: إن سعدية جنت!

وقالت شريفة هامسة: إنك لم تدخلي مدرسة يا سعدية. ولم تقرأي جريدة. ولم تحضري اجتماعاً سياسياً. فاتركي هذه المسائل لمن يفهمون فيها.. هل تعرفين نظرية المصارعة اليابانية؟ هناك حركة يمكن بها لقزم أن يصرع عملاقاً. إن هذه مسائل يا سعدية تحتاج إلى علم ودراسة. وقالت سعدية وهي تخرج من الغرفة:

- لا بد من قتل الملك!

وضحك الفرسان.. تصور بعضهم أنها مجنونة، وتصور الباقون أنها عنيدة، وقالت كاميليا إنها مسكينة.. جاهلة!

ومشت سعدية في شارع العجوزة تفكر في أقوال الفرسان الذين أحبتهم وشعرت أن كل واحد منهم قطعة منها..

وسألت نفسها هل هي عنيدة.. أم جاهلة.. أم مجنونة.. أم هي عنيدة وجاهلة ومجنونة؟

هل الوطنية تعلم في المدرسة؟ هل الوطنيون هم العلماء والجهلاء هم غير الوطنيين؟ هل لو كانت تعلمت القراءة والكتابة لأصبحت أكثر وطنية مما هي عليه، ولو كانت تحمل شهادة لأصبحت وطنيتها أضعاف ما هي الآن؟!

وحاولت سعدية أن تذكر أين تعلمت الوطنية؟

إنها ولدت في إحدى قرى مركز منيا القمح بمديرية الشرقية، من أسرة فقيرة، أفرادها تعساء، يعيشون في بؤس.. أسرة من العدم.. أسرة كبيرة العدد، ضئيلة الشأن تتكون من عشرة أشخاص، يحسبون في التعداد عندما تحصي الدولة السكان، يسقطون في الحساب عندما توزع الأرزاق.. عشرة أشخاص يعيشون في غرفة واحدة. وهم في هذه الغرفة الصغيرة ضائعون تائهون. كأنهم يتكلمون لغات مختلفة لا يجمعهم إلا السقف، ولا يتشابهون في شيء إلا أنهم من الجائعين المنبوذين.

وكأن هؤلاء السكان كلهم لا يكفون غرفة واحدة، فكان يشاركهم في نفس الغرفة حمارة، وعدد من الفراخ والأرانب. وكانوا لا يذوقون الفراخ والأرانب، لأنه لا يجوز لهم أن يأكلوا أفراد الأسرة.. كانت الفراخ والأرانب مخصصة للبيع في سوق الثلاثاء، لتستعين الأسرة بثمنها على إطعام الأفواه الجائعة.

وكانت سعدية تلاحظ أن جدها الشيخ صميدة يحترم الحمارة أكثر مما يحترم سعدية، يهتم بطعام الحمارة أكثر مما يهتم بطعام سعدية، يفزع إذا مرضت الحمارة ولا يفزع إذا مرضت سعدية.. وكانت وجهة نظر الشيخ صميدة أن الحمارة لها فائدة، بينما الطفلة سعدية لا فائدة منها على الإطلاق!

وكان لسعدية عشرة أخوة ماتوا جميعاً. ولم تقم لهم المآتم. كانت أمها وحدها هي التي تبكي أولادها الذين ثكلتهم.. أما أعمامها وعماتها الذين كانوا يقيمون معها في نفس الغرفة فكانوا يعتبرون وفاة أحد إخوتها فرجاً من الله وخيراً جاء من السماء. فقد خفقت وفاته عبء إطعام أحد أفراد الأسرة!

وكانت هذه الأسرة واحدة من ألوف الأسر المسحوقة. كأن التاريخ داس عليها بقدميه في مواكبه. وجوه جامدة حزينة، كأنهم يقفون جميعاً في محطة ينتظرون قطار الموت ليستقلوه، وكانوا يشعرون بأن هذا القطار وحده هو الذي سيحل مشاكلهم التي لا حل لها. سوف يستبدل ملابسهم المهترئة القذرة بأكفان جديدة نظيفة. فقد كانت تقاليد الأسرة أن لا يرتدي أفرادها الملابس الجديدة إلا قبل دخولهم إلى نعوشهم. وكانوا يؤمنون كذلك بأن الموت هو الحل الوحيد لأزمة السكن التي حشرتهم في غرفة واحدة. فعندما سيموتون سيسكنون في قصور بالجنة، لأنهم يؤدون فروض الصلاة بانتظام.

وكلما قالت سعدية لأمها أنها تتمنى أن تتذوق اللبن والعسل طلبت إليها أمها أن تنتظر حتى تدخل الجنة وعندئذ ستسبح في بحار من العسل واللبن وستأكل ما تشاء من الأرانب والفراخ!

وكان عميد الأسرة الشيخ صميدة رجلاً في الثمانين من عمره، يبدو في ثيابه البالية كأنه تمثال للبؤس والهزيمة والعذاب. لا يعرف وجهه الابتسام. يعيش حياته وكأنه يشيع جنازة لا تنتهي، يضع قلة الماء على شفتيه وكأنه يشرب دموع أشقياء ذهبوا وأشقياء قادمين. ويرفع أكمامه القذرة ويمسح بها عينيه، فلا تعرف هل هو يجفف دموعه، أو هو يمسح آثار الرمد في عينيه.

وكان حديثه دائماً عن الضياع. عن أن هذا الشعب شعب مقهور لن تقوم له قائمة. كتبت عليه الذلة والمسكنة. وأن الجلاليب الزرقاء التي يرتديها الفلاحون هي الأثواب الرسمية للعبيد. وأن واجب هؤلاء العبيد الطاعة والخضوع للحكام. وأن الله طلب منا أن نطيع الخفير وشيخ الخفراء والعمدة، عندما طلب أن نطيع أولي الأمر!

وكان عبد المجيد والد سعدية متمرداً على آراء أبيه. ولكنه لم يكن يستطيع أن يواجهه بالعصيان. كان لا يعجبه أن والده الشيخ صميدة يتمثل دائماً بأمثال تشجع على قبول الذل والهوان مثل «اللي يتجوز أمي أقول له يا عمي»!

وكان الشيخ صميدة يروي دائماً لأولاده قصة حدثت في شبابه. قصة يكررها في كل مناسبة كأنه أراد أن يطبعها في رؤوسهم ويحفرها على قلوبهم.

ذات يوم أرسل الخديو إلى القرية الصغيرة أحد جنوده الشراكسة، وجعله حاكماً على القرية، ومنحه كل السلطات: هو القاضي وهو الجلاد، هو العمدة وهو الصراف، هو الآمر الناهي الذي لا شريك له في هذا الملك والسلطان وكان الجندي يتنقل في

القرية فوق جمل. كأنه العرش المتحرك. وعندما ينتهي الجندي الشركسي من طوافه في القرية يطلق الجمل في الحقول. فيأكل محصول الفلاحين، ويدوس القمح الذي يزرعون بأقدامه. وكان الجمل جائعاً دائماً، لا يشبع أبداً!

وضاق أهل القرية بجمل الجندي الشركسي الذي يلتهم طعامهم ويدوس عرقهم. ويعبث بمزروعاتهم، فاجتمعوا وبينهم الشاب الصغير صميدة، غاضبين خائفين، ثائرين، متهددين ومتوعدين!

وقال الفلاحون: لا بد من قتل الجمل!

وصاح الشبان وفي مقدمتهم صميدة: لا بد من قتل الجندي الشركسي نفسه.. لا يمكن أن نسكت على هذا الظلم والطغيان والاستبداد.

وتدخل عقلاء القرية وقالوا إنه يحسن أولاً أن يذهب جميع الرجال والشبان من أهل القرية في مظاهرة صامتة إلى مقر الحاكم الشركسي. ويقدموا إليه احتجاج القرية على ما يفعله الجمل بزراعة السكان الفقراء المعدمين، ويطالبوه بأن يدفع للفلاحين تعويضاً على ما سرق الجمل منهم، أو أن يشتري الحاكم منهم الطعام الذي يأكله الجمل. فإذا أبى الحاكم ذبحوا الجمل ووزعوا لحمه على القرية تعويضاً لها على ما نهبه الجمل.. وإنما أراد الحاكم أن ينتقم منهم لأنهم ذبحوا جمله، فتجتمع القرية وتذبح الحاكم نفسه!

وتحمس الفلاحون للفكرة، وانتظموا في صفوف واتجهوا إلى مقر الحاكم.. وإذا الحاكم يخرج إليهم يحمل سوطاً كبيراً..

وكان الفلاحون على بعد مائة متر عندما رأوا السوط في يد الجندي الحاكم. وتوقف ربعهم عن السير رعباً. ولكن ثلاثة أرباعهم استمروا في المسير. وعلى بعد خمسين متراً رأوا الجندي الحاكم يرفع السوط ويلوح به فتوقف نصفهم وقد أخلعت قلوبهم.. وعلى بعد عشرة أمتار تسمر الباقون عندما سمعوا الحاكم يضرب الأرض بسوطه فيحدث السوط صراخاً مرعباً.

ولكن أربعة منهم وبينهم صميدة مضوا نحو الحاكم.

ولوح الحاكم بسوطه، وصرخ في وجههم وعيونه تتطاير منها الشرر:

ـ ماذا تريد... خرسيس... أدبسيس... فلاح!

وكان الفلاحون يعرفون معنى هذه الشتائم التركية. إن معناها: أيها الكلاب الفلاحون!

وتلعثم الشجعان الأربعة وقالوا:

ـ نريد.. نريد.. نريد أن نرجو سعادتك أن تشتري للجمل ناقة لتسلي الجمل في وحدته.. وبدل أن يأكل المزروعات جمل واحد.. يأكلها جملان!

ووعدهم الحاكم الجندي بأن ينظر في هذا الإلتماس بعين العطف!

وهكذا انقلبت الثورة على مصيبة جمل الحاكم إلى استرحام الحاكم بأن يجعل المصيبة مصيبتين، فيجيء الجندي الحاكم لجمله بناقة تسليه، وتأكل ما تبقى من زراعة الفلاحين!

وكان عبدالمجيد والد سعدية يثور على روح الخنوع والخضوع واليأس والهوان التي ينشرها الحاج صميدة في أسرته. ويقول إن الذين طلبوا أن يشتري الحاكم ناقة لجمله ليسوا هم كل أهل القرية. ليسوا كل المديرية.. ليسوا كل أهل مصر.. لا يمكن أن تحكم شجاعة الملايين بجبن أربعة منها!

وكان الشيخ صميدة يؤكد قصته ويقول:

ـ إن هؤلاء الأربعة كانوا أشجع أهل القرية.. أنا نفسي كنت واحداً من هؤلاء الأربعة!

كانت نظرية الشيخ صميدة جد سعدية أن الرعاع لا حق لهم في الحرية. واجب الفقراء أن يصمتوا ولا يفتحوا أفواههم. على المنبوذين أن يحنوا رؤوسهم ولا يرفعوها أبداً. جلابية الفلاح الزرقاء هي علمه المنكس، هي شعاره الذليل. هي الكفن الذي يلف به الموتى الأحياء أجسامهم في موكب الفقر والحرمان والجوع. كان من رأيه أنه يجب أن تكون في جيوبنا فلوس لنتكلم. الذهب هو وحده الذي يعطينا الحق في أن نفتح أفواهنا لنأكل ونتكلم. فإذا خلت جيوبنا من الذهب فليس لنا حق في الكلام ولا حق في الاعتراض. ولا حق في الحركة، ولا حق في الثورة. فيجب أن نقبل مصير المنبوذين صامتين حامدين شاكرين!

ثم جاءت ثورة ١٩١٩ وألف سعد زغلول الوفد للمطالبة بالاستقلال.

وجاء الفلاحون إلى الشيخ صميدة بصيغة توكيل كان يوقع عليه المصريون أو يضعون عليه أختامهم أو يبصمون بأصابعهم، يوكلون فيه سعد زغلول بالمطالبة بالاستقلال التام.

ورفض الشيخ صميدة أن يوقع التوكيل. ومنع ابنه عبدالمجيد أن يوقع التوكيل، وقال له:

ـ لا فائدة من الثورة. إنها ستفشل. إنّ سعد زغلول سيذهب إلى الانجليز ويطلب إليهم أن يجيئوا بناقة لتسلي الجمل!

وسمع عبدالمجيد أن سعد زغلول يقول على نفسه أنه زعيم الرعاع وأنه زعيم أصحاب الجلاليب الزرقاء. وأحس بأن المنبوذين استردوا كرامتهم، وأن الجلاليب الزرقاء لم تعد أكفاناً يدفن فيها الموتى. وإنما أصبحت أعلاماً يرفعها الثوار. وترك عبدالمجيد والده نائماً، وخرج واشترك في قطع قضبان السكك الحديدية تنفيذاً لتعليمات الثورة بقطع جميع المواصلات، وأخبر زوجته بما فعل، وأخفى النبأ عن أبيه..

ثم إذا بالثورة تشتد في مدينة فاقوس، ويخرج الفلاحون بقيادة شاب اسمه مصطفى خليل، ويهاجم الإنجليز، ويقتل عدداً من الضباط والجنود.

ألفت السلطات البريطانية على الفور محكمة عسكرية بريطانية برئاسة الماجور بيكر، وحكمت على مصطفى خليل وعدد من الفلاحين بالإعدام، ونفذت فيهم الحكم في مدينة فاقوس.

وأصيبت مديرية الشرقية برجفة من الرعب. ثم جاء العمدة يقول للشيخ صميدة أن مدير الشرقية قرر إقامة حفلة تكريم في الزقازيق تكريماً للماجور بيكر الذي حكم بالإعدام على الثوار المخربين وأعاد الهدوء للمديرية. وأن كل مركز سيدفع جزاء من مصاريف الحفلة، وأن نصيب الشيخ صميدة عشرة قروش من مصاريف حفلة التكريم.

وأخرج الشيخ صميدة من جيبه العشرة قروش. وكانت كل ما يملك. واعترض عبدالمجيد على والده أن يشترك في تكريم جلاديه. فنهره والده وقال له إنه عندما كان الخديو يصفع وزيراً على وجهه كان الوزير يقول له: «ضربك شرف يا أفندينا»!

واعترض عبدالمجيد وقال لأبيه: إن الوزراء الذين كانوا يقولون هذا للخديو كانوا الوزراء الأتراك. فإن منصب الوزارة كان محرماً على المصريين.

وطلب الشيخ صميدة من ابنه عبدالمجيد أن يخرس وأن ليس من حق الأولاد أن يعترضوا على كلام آبائهم.. إن المصريين جميعاً سيدخلون الجحور بعد مذبحة فاقوس!

وسكت عبدالمجيد على مضض. وفي ليلة الاحتفال بتكريم الماجور بيكر في الزقازيق، أخذ عبدالمجيد بندقية والده. وذهب إلى المدينة، وما كاد يرى الماجور بيكر في سيارته بعد نهاية حفلة التكريم حتى أطلق عليه رصاصة أصابته في قلبه ومات على الفور..

ثم جرى عبدالمجيد في الظلام، وفوجىء برصاص الحراس الانجليز ينهال عليه. وأصابته رصاصة في ساقه، ولكنه لم يتوقف، ومضى يجري، واختفى في أحد البيوت. ثم استأنف سيره والدم ينزف منه إلى قريته. وأيقظ حلاق الصحة وأسعفه بعلاج بسيط، ثم عاد إلى بيته، ووضع البندقية مكانها واستغرق في النوم.

ولم يدخل المصريون الجحور. اندلعت الثورة في كل مكان من الإسكندرية إلى أسوان. واشترك عبدالمجيد في كل الاضطرابات والمظاهرات من خلف ظهر أبيه.

ونفى الإنجليز سعد زغلول إلى جزيرة مالطا، ثم إلى جزيرة سيشيل في المحيط الهندي، ثم إلى جبل طارق.

وقام عدد من المعتدلين برئاسة عدلي يكن باشا يدعو إلى التفاهم مع الإنجليز، وبقيت الأغلبية الساحقة بزعامة سعد زغلول تدعو للإستمرار في الثورة. وانقسمت مصر إلى عدليين وسعديين.

وصدرت أوامر السلطات العسكرية إلى الصحف بأن تمتنع عن ذكر اسم سعد زغلول، وبأن كل من يذكر اسم سعد يقبض عليه في الحال..

وفي ذلك الوقت وضعت زوجة عبدالمجيد بنتاً، وأصر أن يسميها «سعدية» نسبة إلى سعد زغلول الذي أمر الإنجليز بعدم النطق باسمه!

وعارض الشيخ عبدالصمد في هذه التسمية وقال له:

ـ هذا تمرد على السلطة.. عندما يعرف الإنجليز أنك أطلقت اسم «سعدية» على ابنتك سيضربونك بالرصاص!

وأصر عبدالمجيد على اسم «سعدية»!

وهكذا أصبح اسم «سعدية» سعدية!

ثم حدث أن انتصرت الثورة على الانجليز، وأرغمتهم على الإفراج عن سعد زغلول.

وتولت الحكم وزارة برياسة يحيى باشا ابراهيم لإجراء أول انتخابات في مصر..

وكان يحيى باشا أغنى رجل في منيا القمح، وكانت أسرته تملك

أطياناً واسعة في المدينة.

ورشح رئيس الوزراء يحيى باشا ابراهيم نفسه نائباً عن دائرة منيا القمح، وكان واثقاً أن أحداً لن يجرؤ للتقدم لمنافسته في الانتخابات.. وإذا بسعد زغلول يرشح ضده محامياً شاباً مجهولاً في منيا القمح. هو الأستاذ كامل مرتجى.

وتحمس عبدالمجيد صميدة، وانضم إلى مؤيدي المحامي الشاب ضد رئيس الوزراء الغني الذي في يده الحكم والسلطات.. في يده سيف العز وماله.. في يده كل الذهب وكل السياط!

وتصور الشيخ صميدة أن ابنه عبدالمجيد قد جن. وراح يضرب كفاً على كف، لأنه مضطر أن يدخل ولده البكر في مستشفى المجانين..

وجرت الإنتخابات، وإذا برئيس الوزراء الذي أجرى الإنتخابات يسقط في دائرته الإنتخابية. الدائرة التي تملك فيها أسرته ألوف الأفدنة، وينتخب المحامي الصغير مرشح سعد زغلول الذي لا يملك قيراطاً واحداً في المدينة!

وذهل الشيخ صميدة من هذه النتيجة. وتصور أن البلد كلها قد جنت. المدينة التي طلب أهلها من الحاكم التركي أن يشتري ناقة مع الجمل.. لا يمكن أن يكون هؤلاء أنفسهم هم الذين أسقطوا رئيس الوزراء...

وقال الشيخ صميدة:

ـ غداً سيجيء الجيش والبوليس ويقتل جميع المجانين الذين أسقطوا رئيس الوزراء!

ولكن البوليس لم يجيء، والجيش لم يجيء، وإنما الذي جاء هو سعد زغلول، جاء وتولى رئاسة أول وزارة شعب في تاريخ مصر، وجاء باثنين من الأفندية وجعلهما وزراء. وكانت هذه أول مرة في تاريخ مصر يصبح الأفندية فيها وزراء.. فقد كان الباشوات وحدهم هم الذين يعينون وزراء!

وتصور عبدالمجيد أن والده سيقتنع بأن الدنيا تغيرت، وأن العبيد يموتون. ولكن الحرية لا تموت. وأن الذين تخاذلوا أمام الحاكم التركي أربعة من العبيد، وأن الذين قاوموا الامبراطورية هم أربعة عشر مليوناً من الأحرار!

ولكن الشيخ صميدة ضاق بأن الولد ابنه انتصر عليه. انتصر على جيل الهزيمة والإستسلام. جيل الناقة. فطرد الشيخ صميدة ابنه عبدالمجيد وزوجته وابنته سعدية من البيت!

ومشى عبدالمجيد وزوجته وابنته سعدية، هائمين على وجوههم، لا يعرفون أين يذهبون، أحسوا في حيرتهم أنهم طردوا من الجنة. الكوخ الحقير الذي كانوا يقيمون فيه بدا لمن يقيمون في العراء قصراً من قصور النعيم.

إن الجنة والجحيم مسائل نسبية في عيون الناس. رب ما نحسبه اليوم جحيماً يبدو غداً جنة بالقياس إلى نار أقسى نتحمل عذابها. كانوا وهم يمشون جائعين. يحلمون بالجبن المش وكسرات الخبز والسريس التي كانوا يكرهونها في غرفتهم القذرة في منيا القمح. كانوا يتصورونها مأدبة فاخرة حرموا إلى الأبد من أطايبها. كانت أم سعدية تبرم. وكانت سعدية تبكي. وكان عبدالمجيد يعرج، فقد كان أثر رصاصة يؤلمه في ساقه كلما مشى مسافات طويلة.

وكان يرفض اقتراح زوجته بأن يعود إلى أبيه يقبل يده ويتوسل إليه أن يسامحه ويعده بأنه لن يفتح فمه ويناقشه في آرائه. كان عبدالمجيد قد قرر أن يسافروا إلى القاهرة مشياً على الأقدام. كانوا يأكلون الحشائش لأنهم لا يملكون ثمن الطعام. ويناموں تحت الأشجار في الطريق لأنهم لا يملكون ثمن المبيت في الاستراحات والفنادق. وقطعوا المسافة التي يقطعها القطار في ساعتين في خمسة أيام.

ووصلوا إلى القاهرة جائعين. ولكنهم نسوا الجوع وهم يحملقون في شوارعها المزدحمة في ذهول.. تتعلق عيونهم بالسيارات وبعربات الترام كأن المدينة تحتفل بعيد لا يعرفون مناسبته.

وكان عبدالمجيد يتوكأ على كتف أم سعدية.. وهو يقول في ابتسامة رقيقة:

ـ أنا لا أملك مليماً في جيبي.. ولكن أشعر أنني أسعد رجل في العالم. أنا انتصرت على رئيس وزراء مصر.. أنا انتصرت على استسلام أبي. أنا انتصرت على جيل العبيد!

ثم فجأة سقط عبدالمجيد على الأرض..

وصرخت زوجته في رعب.. وانحنت سعدية على أبيها تناديه فلم يرد عليها. وأقبل الناس على عويل الزوجة وصراخ الطفلة. وهزوا عبدالمجيد فلم يتحرك.. ثم وضع أحدهم أذنه على قلبه وقال:

ـ إنه لا يزال يتنفس.. استدعوا الإسعاف!

جاءت سيارة الإسعاف، وحملوا إليها عبدالمجيد، وصحبوا

زوجته وسعدية في السيارة وكانت هذه أول مرة تركب فيها سعدية سيارة.. وعجبت سعدية أن يجمع الله أسعد لحظات حياتها وأتعس لحظات حياتها في دقيقة واحدة.. ودخلت السيارة مستشفى القصر العيني.. وحملوا عبدالمجيد في نقالة إلى غرفة.. ثم خرج طبيب يطلب إلى سعدية وأمها أن ينصرفا. ويعودا في الصباح، وذهلت أم سعدية وقالت للطبيب: أين أذهب؟ إنني من منيا القمح.. وليس معي مليم واحد!

وأخرج الطبيب خمسة قروش وأعطاها لأم سعدية.

وخرجت أم سعدية من مستشفى القصر العيني. وفي يدها اليسرى سعدية. ووقفت أمام باب المستشفى تنظر إلى عربات الترام والسيارات مشدوهة، لا تستطيع أن تحرك.. ورأت بائع سميط فاشترت منه بقرش واحد سميطة وجبناً وبيضاً، وجلست إلى جوار باب المستشفى، وتقاسمت هذا العشاء الفاخر مع ابنتها، ونامت وفي ذراعيها سعدية إلى الصباح.

وكانت تستيقظ في فزع كل بضع دقائق، لتتأكد أن القروش الأربعة لا تزال في يدها ثم تعود وتنام من جديد. وفي الصباح بذلت أم سعدية جهوداً مضنية حتى سمح الممرضون بأن تدخل إلى عنبر الجراحة لترى عبدالمجيد.

وعند الباب قال لها ممرض أن الأطباء قطعوا ساق زوجها عبدالمجيد لأنها مصابة بتسمم من أثر الرصاصة. وسقطت أم سعدية أمام الباب وهي تبكي وتنتحب. وجاء الطبيب الذي أعطاها بالأمس خمسة قروش فطيب خاطرها، وقال لها إنه سيركب لعبدالمجيد ساقاً خشبية، وإنه سيمكث في المستشفى عشرة أيام

فقط. وبعد ذلك سيسير على قدميه. وطلب إليها أن تتظاهر بأنها لا تعرف أن زوجها قطعت ساقه لأنه لا يعرف.

وتمالكت أم سعدية نفسها وجلست مع زوجها فإذا به يقول لها إنهم قدموا له طعاماً في الليلة السابقة، وإنه أكل نصفه، وأبقى نصفه لها ولسعدية ومد يده تحت السرير وأعطاها لفافة فيها بقية الطعام.

وعاشت أم سعدية وطفلتها العشرة أيام تبيتان على رصيف مستشفى قصر العيني، وتقاسمان عبدالمجيد طعامه، وأبت أم سعدية أن تنفق مليماً واحداً من الأربعة قروش!

وعندما حلت لحظة خروج عبدالمجيد من المستشفى قدمت أم سعدية إلى الطبيب الأربعة قروش التي بقيت معها. ودهش الطبيب. فقالت له إنها لم تنفق خلال العشرة أيام سوى عشرة مليمات!

ورفض الطبيب الشاب أن يأخذ الأربعة قروش..

وخرج عبدالمجيد يتوكأ على زوجته أم سعدية. وعندما وصلوا إلى الطريق توقف الثلاثة ولم يعرفوا أين يذهبون؟

وقالت أم سعدية:

لماذا لا تذهب إلى سعد زغلول وتطلب منه عملاً!؟

وصفع عبدالمجيد زوجته على وجهها وهو يقول:

- إنني أفضل أن نموت من الجوع.. ولا أطلب ثمن وطنيتي!

واختل توازن عبدالمجيد وسقط على الأرض.. وانحنت أم

سعدية عليه تساعده على النهوض.

وعاش الجائعون الثلاثة أياماً عصيبة في القاهرة. كان عبدالمجيد يبحث طول اليوم عن عمل. وكان الجواب الذي يسمعه دائماً:

- لا عمل لرجل بساق مقطوعة!

وأبى عبدالمجيد أن يقول للناس أن ساقه قطعت من أجلهم، من أجل تحريرهم، من أجل أن يصبح الأفندية وزراء!

وأخيراً وجد عبدالمجيد عملاً له في وظيفة بواب بمرتب خمسين قرشاً في الشهر، وله حجرة في العمارة يقيم فيها مع زوجته وابنته سعدية..

وكان عبد المجيد سعيداً بهذه الغرفة. شعر أنه لأول مرة في حياته يعيش مستقلاً. لا يسمع كل يوم قصة أبيه الشيخ عبدالصمد عن الفلاحين الذين طلبوا من الحاكم التركي أن يجيء للجمل بناقة تسليه!

وكان يشعر أن الخمسين قرشاً التي يتقاضاها كل شهر هي ثروة كبيرة، كان قانعاً بها. فإذا قالت له أم سعدية: ليتك سمعت كلام أبيك الشيخ صميدة ولم تشترك في الثورة.. ولم تفقد ساقك.. صاح بها: إنني على استعداد لأن أفقد رأسي من أجل مصر.. لو قامت الثورة مرة أخرى فسأشترك فيها.. في هذه المرة لن أجري بعد أن أطلق النار.. سأقف في مكاني وأقول لهم: لماذا قتلت القائد الإنجليزي!

وكبرت سعدية وهي تسمع من أبيها قصته مع الثورة. ولم تكن تشعر بخزي عندما تمشي بجوار أبيها بساقه المقطوعة، بل كانت

تشعر بزهو وفخر، كأنها تريد أن يعرف الناس جميعاً أنها ابنة بطل... ولكن الناس كانوا يمرون بأبيها ولا ينظرون إلى ساقه المقطوعة!

وأصبحت عادة سعدية أن تمشي في الشوارع ولا تنظر إلى وجوه الناس وإنما تنظر إلى سيقانهم. وكلما رأت ساقاً مقطوعة حملقت في صاحبها بإعجاب، واعتقدت أنه لا بد فقد ساقه هو الآخر في الثورة!

وكانت تتمنى أن تكبر لتحارب الإنجليز وتحارب الطغيان. وتصبح ساقها مقطوعة كساق أبيها.

وعندما كبرت سعدية عرفت أن ليس كل الذين قطعت سيقانهم اشتركوا في الثورة. إن بعضهم قطعت سيقانهم وهم يقفزون من عربات الترام.

وشعرت سعدية بخيبة أمل شديدة عندما اكتشفت هذه الحقيقة، ولكنها أحست دائماً برغبة في أن تحقق أمنية أبيها الذي كان يعيش دائماً على أمل أن يستأنف الشعب ثورته ويشترك فيها...

ثم مات أبوها. لكن الأمنية لم تمت في قلبها. بل ازدادت اشتعالاً.

وعندما اكتشفت أن الفرسان الثلاثة والفارسات الثلاث يقومون بعمل سري، قررت أن تنضم إليهم. لم تحاول أن تتأكد من صدق نواياهم. كانت أصابع عزيز علاء الدين العشرة المقطوعة هي التي جعلتها تطمئن إليهم وتثق بهم. إن الأصابع المقطوعة ذكرتها بساق أبيها المقطوعة!

ثم ما لبثت سعدية أن شعرت بأن المنشورات التي توزعت هي احتجاج على الأصابع المقطوعة لأمة لا تستطيع أن تشير إلى ظالميها.. هي احتجاج على الألسنة المقطوعة في شعب لا يستطيع أن يلعن جلاديه.. هي احتجاج على السيقان المقطوعة لوطن لا يستطيع أن يتحرك ويرفس غاصبيه.. ولهذا أرادت أن تكون أحد الأصابع وأحد الألسنة وأحد السيقان!

وامتلأ البلد بالمنشورات.. امتلأ بأصابع تشير، بألسنة تنطق، وبسيقان ترفس.. وفي الوقت نفسه امتلأ البلد بالظلم والظلام..

وأحست سعدية بأن الشعب ليس في حاجة إلى أصابع وألسنة وسيقان فقط، إنما هو في حاجة إلى روح، إما أن تولد روح فيه تجعله يقضي على الملك الظالم، وإما أن تزهق روح الملك الظالم..

ورأت أنه من الصعب أن نخلق روحاً، ولكن من السهل أن نزهق روحاً، ولهذا أصبحت تنادي بضرورة قتل الملك!

ورفض الفرسان الستة هذا الإقتراح..

واضطرت سعدية أن تخضع لرأي الأغلبية وتمضي في توزيع المنشورات، وكانت قبل ذلك تشعر أنها تحب الأسطى مرسي، ولكنها بعد أن اشتركت في عملية المشروعات عرفت أن حبها لمصر هو حبها الكبير»!

ـ ٣٢ ـ الأخيرة

ومضى المؤلف في جلسته على السلم الرخامي في عمارة العجوزة، أمام شقة إحسان خالد في الطابق الثاني، مع الخادمة سعدية. . كما مضت سعدية في املائها علية ختام القصة كما تتخيلها وهي تقول:

«و. . . ذات يوم، وكانت سعدية قد انتهت من توزيع المنشورات، ولم يبق معها إلا نسخة واحدة، قررت أن تدسها تحت باب شقة مخدومها الأستاذ درويش مخلص الصحافي والمحامي، كما كانت تفعل كل مرة توزع فيها منشوراً جديداً.

فقد كانت تجد لذة وهي ترقب الأستاذ درويش ينحني ويلتقط المنشور الجديد.

إن المنشور هذه المرة يشير إلى علاقة فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام بالدكتورة دوريس. . ويهاجم ترقية زوجها الدكتور العروسي ترقية استثنائية متخطياً المئات من زملائه الأطباء الأكفاء. . لا لسبب إلا لأن مدير الأمن العام يحب زوجة الطبيب. وهو يشير من بعيد إلى شقة سعدون باشا.

وتصورت سعدية مخدومها الأستاذ درويش وهو يمسك المنشور الجديد ويقرأه باهتمام. ثم يتلوه على زوجته بهيجة، ويعلق على فقراته. وكانت سعدية تحرص أن تستمع إلى تعليقات الأستاذ مخلص كأنها نشيد النصر يحيى الجهد الذي بذلته في توزيع المنشور.

وما كادت تقترب من باب العمارة حتى اقترب منها الصاغ عبدالله شوقي وقال لها:

ـ هل أنت سعدية. . الخادمة في منزل الأستاذ درويش مخلص؟

قالت سعدية:

ـ نعم. . هل تريد خدمة؟

قال الضابط وهو يشير إلى بعض الجنود:

ـ تعالي معنا!

وأركبوها في سيارة. ثم صحبوها إلى وزارة الداخلية، وأدخلوها إلى مكتب الصاغ عبدالله شوقي وأغلقوا عليها الباب.

وانتهزت سعدية فرصة انفرادها في الغرفة، وقررت أن تتخلص من نسخة المنشور الذي معها وتبتلعه.

ومدت يدها في صدرها لتخرج المنشور. فإذا بالباب يفتح. ويدخل الصاغ عبدالله شوقي.

وأخرجت سعدية يدها من صدرها تاركة المنشور في مكانه. وتأملت سعدية الضابط فوجدته شاباً متوسط الطول. . أسمر البشرة. . على عينيه نظارة أميركية. وطلب إليها في ابتسامة رقيقة أن تجلس.

واعتذر الضابط في أدب جم أنه اضطر إلى ازعاجها عندما صحبها إلى مكتبه في وزارة الداخلية.

ثم نظر إليها نظرة وقحة عرتها من ثوبها، وقال لها:

ـ خسارة. . امرأة جميلة مثلك تعمل خادمة. . . لو تعاونت معنا فسوف لا تحتاجين إلى الخدمة في البيوت. . .

قالت سعدية في تحد:

ـ إن العمل الذي أقوم به عمل شريف.

قال لها عبدالله شوقي وهو يتظاهر بأنه ينظر في بعض الأوراق أمامه.

ـ هل العمل الشريف هو التلصص على ما يحدث في شقق العمارة؟

قالت سعدية في دهشة:

ـ أنا؟ أنا ليس من طبعي أن أتلصص على سكان العمارة!

وهز الضابط كتفيه وقال:

ـ ألم يحدث أنك رأيت سيدة معينة تدخل إلى شقة في العمارة وأخبرت بعض الناس بما رأيت؟.

وفهمت سعدية على الفور بأن الدكتورة دوريس تتهمها بأن هي التي رأتها تدخل جرسونيرة سعدون باشا لمقابلة فوزي بك صلاح الدين. وأنها هي التي أذاعت السر الذي فضحته بالمنشورات، فقالت سعدية وهي تتظاهر بالبراءة:

ـ أنا لم أر سيدة معينة.. ولم أخبر أحداً بما رأيت.. من هي هذه السيدة؟.

وقام الضابط من مكتبه، واتجه نحو سعدية، وصفعها على وجهها وهو يقول في عنف:

ـ سأخرب بيتك إذا لم تقولي لي من هي هذه السيدة التي أخبرتها

بما رأيت في شقة الطابق الخامس.. والتي تكلمت في التليفون مع زوج السيدة. وأخبرته بوجودها في هذه الشقة. إنك تعرفين الذين يطبعون المنشورات!

قالت سعدية وقد أحست في جسمها بقشعريرة باردة:

ـ أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع.. يظهر أنك تقصد خادمة أخرى غيري!

ووضع الضابط يده على صدرها، ولكنه لم يمسك المنشور، وإنما أخرج يده وهو يقول:

ـ ومعك قطعة حشيش أيضاً!

ورأت سعدية في يد الضابط قطعة حجر سوداء.

فصرخت في وجهه:

ـ حشيش؟! إنني لم أر الحشيش في حياتي!

قال لها الضابط:

ـ إذا لم تقولي اسم السيدة التي أخبرتها بأنك رأيت الدكتورة دوريس في الشقة فسأقدمك إلى محكمة الجنايات بتهمة إحراز هذا الحشيش!

وهزت سعدية كتفها استهزاء وقالت:

ـ لقد سمعت عن الظلم كثيراً.. ولكن هذه أول مرة أراه بعيني!

قال الضابط ساخراً:

ـ ترين الظلم؟ أم ترين الحشيش؟

قالت سعدية:

ـ أرى الإثنين معاً.

قال الضابط وهو يتوعدها:

ـ إذا لم تبوحي باسم السيدة... ستذهبين إلى السجن.. ولو بحت لنا بأسماء الذين أخبرتهم بعلاقة فوزي بك بالدكتورة دوريس، فسنعطيك ألف جنيه!

وتظاهرت سعدية بأنها على وشك الإنهيار، وقالت له:

ـ أتركني وحدي خمس دقائق.. وأعطني كوب ماء.. وسوف أقول لك عما تريد...

وأمر الضابط لها بكوب ماء، ثم تركها وحدها في الغرفة، فأسرعت ودست يدها في صدرها وأخرجت نسخة المنشور بسرعة، وابتلعتها، وشربت كوب الماء..

ثم تنفست الصعداء.. كانت تخشى طوال الوقت أن يفتشها الضابط ويجد المنشور، فيكون هذا هو الخيط الذي يوصله إلى الفرسان الستة الذين تريد أن تحافظ على حياتهم، ولو ضحت بحياتها من أجلهم..

وعاد الضابط عبدالله شوقي وقال لها:

والآن تكلمي.. ولو قلت الحقيقة التي تؤدي إلى القبض على عصابة المنشورات فسنرفع مكافأتك من ألف جنيه إلى خمسة آلاف جنيه..

قالت سعدية في حزم:

ـ الآن أقول لك إنني لا أخاف السجن، ولا أخاف الضرب، ولا أخاف التعذيب!

ودق الضابط الجرس ودخل جندي عملاق فقال له:

ـ خذ هذه المرأة.. وعلمها كيف تتكلم.. لأنها نسيت الكلام!

وجرها الجندي العملاق على وجهها، وأدخلها غرفة وجردها من ملابسها وراح يضربها حتى سال منها الدم.. وأبت أن تتكلم..

وأرسلوها إلى السجن، وألقوها في غرفة باردة في الدور الأول من سجن النساء، وتركوها أياماً.. وجاء أحد الضباط وصورها عدة صور..

ثم استدعوها للتحقيق..

وفوجئت بوكيل النيابة يقول لها إنها متهمة بالتحريض على الفسق والفجور، وبإحراز مواد مخدرة..

وقالت لوكيل النيابة إنها بريئة من التهمتين، وإنها امرأة شريفة، ويمكن للنيابة أن تسأل عنها مخدومها الأستاذ دوريش مخلص الصحافي والمحامي ومخدومتها زوجته السيدة بهيجة.

وأخرج وكيل النيابة صورة من درج مكتبه وقال لها:

ـ هل هذه هي صورة السيدة بهيجة زوجة الأستاذ درويش مخلص التي تعملين عندها؟

قالت سعدية:

ـ نعم هي..

سألها وكيل النيابة:

ـ هل رأيت هذه الصورة من قبل؟

قالت:

ـ لا لم أرها..

قال لها وكيل النيابة في اشمئزاز:

ـ وما رأيك أن اثنين من الشهود شهدوا بأنك أعطيتهما هذه الصورة، وقلت لهما إنها صورة السيدة بهيجة زوجة الأستاذ درويش مخلص المحامي والصحافي وعضو مجلس النواب.. وإنك مستعدة أن تهيئي لهما موعداً غرامياً معها مقابل عشرة جنيهات!

وصرخت سعدية في فزع وقالت:

ـ مستحيل.. هذا كذب.. هذا حرام.. إنها أشرف سيدة عرفتها!

قال لها وكيل النيابة:

ـ وهل جزاء السيدة الشريفة التي ائتمنتك على بيتها، والتي تطعمك من أكلها وتأويك في دارها أن تستغلي اسمها في عملية الدعارة التي تقومين بها؟

قالت سعدية وهي تبكي:

ـ دعارة؟. أنا أشتغل بالدعارة؟. أنا امرأة شريفة!

قال لها وكيل النيابة:

ـ إن مكتب الآداب قدم للنيابة تقريراً عنك بأنك تحرضين على الفسق، وتوهمين السذج بأنك ستجيئين لهم بسيدات محترمات مقابل عشرة جنيهات!

ولطمت سعدية وجهها وقالت:

ـ هذا كذب.. إنني مستعدة أن أضع إصبعي في عين من يدعي هذا الافتراء!

وطلب وكيل النيابة من الكاتب أن يجيء بالنساء اللاتي سيشتركن في العرض..

ودخلت عدة نساء وطلب وكيل النيابة من سعدية أن تقف بينهن ووقفت وهي تمسح دموعها..

ثم طلب وكيل النيابة استدعاء الشهود..

ودخل شابان، أحدهما طويل القامة، والآخر قصير القامة..

وقال لهما وكيل النيابة: من بين هؤلاء النساء التي أعطتكما هذه الصورة؟

ومشى الشابان يستعرضان النساء.. ثم توقفا أمام سعدية وأخرجاها من الصف..

وسقطت سعدية مغمى عليها..

وأمر وكيل النيابة بحملها إلى خارج غرفة التحقيق لإسعافها.

وبدأ يكتب محضر العرض..

ثم طلب من الشاهدين أن يوقعا..

ووقع الأول محمود حسني الأزميري. .

ووقع الثاني سلامة الاسكندراني. .

وأعيدت سعدية إلى سجن النساء من جديد.

واستطاعت سعدية أن تجد سجانة طيبة القلب، قبلت أن تحمل رسالة منها إلى شريفة، وروت لها ما حدث، وطلبت منها أن تبلغ حبيبها الأسطى مرسي بما حدث ليحضر لزيارتها، وأن تبلغ الأستاذ درويش مخلص بالقضية الملفقة ضدها ليتولى المرافعة عنها. .

وأبلغت شريفة الرسالة إلى الأسطى مرسي الذي ثار على سعدية، وقال إنه يشك فيها، وإنه لاحظ في المدة الأخيرة أنها تخرج في مشاوير لا تخبره بتفاصيلها. . وإنه من غير المعقول أن تلفق الحكومة عليها مثل هذه القضية. .

وكان شريفة تعرف أن هذه المشاوير التي يشك فيها هي عملية توزيع المنشورات، فأكدت له أن سعدية بريئة، وأنها فتاة فاضلة، وأنها تعرف كل خطواتها وتثق بها.

ولكن الأسطى مرسي قال لها:

ـ إن سعدية خدعتك. . كما خدعتني. . إن قلبي يؤكد أنها خانتني. . إنها تخفي عني أشياء. . والمرأة التي تحب لا يمكن أن تخفي شيئاً عن الرجل الذي تهواه!

وعبثاً حاولت شريفة، ثم إحسان، ثم زوجها صبحي خالد، بأن يقنعوا الأسطى مرسي ببراءة حبيبته. .

وعندما اشتد ضغطهم عليه، هدد بالاستقالة من عمله في بيت

الأستاذ صبحي خالد. . ولا يذهب إلى زيارة امرأة بلا شرف!

وذهبت شريفة إلى مخلص لتطلب إليه أن يترافع عن سعدية. .

وثار الأستاذ درويش على شريفة وقال لها:

ـ كيف تطلبين مني أن أدافع عن هذه المجرمة؟!

قالت شريفة:

ـ إنها ليست مجرمة. القضية ملفقة عليها. إنك ترافعت بنفسك في قضية الضابط عبدالمنعم بيومي ولمست بنفسك التزوير والتلفيق.

قال درويش في عصبية:

ـ ولكني واثق من إجرامها. . إن النائب العام صديقي وزميلي في كلية الحقوق، وقد أبلغني بأنها كانت تتاجر باسم زوجتي، وأحضر لي صورة زوجتي، وقد سرقت هذه الصورة من بيتي. . والنائب العام، لأنه صديقي أمر بأن لا يذكر اسم زوجتي في التحقيق، وأعاد لي الصورة، وذلك حفظاً على كرامتي. . واسمي. . كيف يمكن أن أترافع عن امرأة شوهت اسمي وشرفي وكرامتي وعرضي؟. . إن القتيل لا يمكن أن يترافع عن قاتلته!

قالت شريفة:

ـ إنك صحافي ومحام وعضو مجلس نواب. . وأنا أطلب إليك أن تبحث القضية. . فإذا عرفت أن سعدية مظلومة فترافع عنها، وإلا فارفض المرافعة. .

وقاطعها الأستاذ درويش وقال في ضيق:

ـ آسف جداً يا شريفة هانم.. إنني رجل عام. وسمعة الرجل العام هي رأس ماله.. ولي خصوم كبار لن يرحموني. الطغاة الكبار والصغار الذين هاجمتهم في مرافعتي عن الضابط عبدالمنعم بيومي وكشفت المنشورات التي أذاعت مرافعتي سترهم وفضحت جرائمهم، هؤلاء سوف يستغلون ضدي مرافعتي عن سعدية في هذه التهمة الشائنة.. سوف يلوثونني بالطين.. سيقولون إنني أستر على زوجتي.. سيقولون إن زوجتي شريكة في الإثم.. وإنها كانت تعلم بما تقصد سعدية بصورتها.. ولهذا فإنني لا أستطيع أن ألوث اسمي وشرفي وسمعتي!

قالت شريفة:

ـ كانوا يقولون إن هناك قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بالعدل. ولكننا الآن نرى شرفاء يتخلون عن الدفاع عن شرفاء مظلومين، حتى لا يشك الناس بأنهم غير شرفاء.. إن أسوأ ما يصيب أمة أن يتخاذل شرفاؤها أمام الطغاة الظالمين الفاسدين حتى يحتفظوا بلقب شرفاء..

قال درويش وهو يودعها:

ـ إنني لست المحامي الوحيد في مصر. إن مصر مليئة بالمحامين. أنا لم أخف من الملك عندما ترافعت عن الضابط عبدالمنعم بيومي. ولا عندما وزع المنشور الذي يفضح رجال الملك. ولكن هذه قضية تمسني شخصياً، تمس شرفي، تمس زوجتي..

قالت شريفة:

ـ إن تهمة سعدية الحقيقية أنها وزعت المنشور الذي تضمن

مرافعتك.. الذي جعل اسمك على كل لسان.. إن هذه الخادمة الفقيرة، الجاهلة، دفعت سمعتها ثمناً للمنشور الذي يشيد بك.. وأنت لا تريد أن تعرض نفسك لنفس التهمة الباطلة دفاعاً عن هذه البطلة التي لوثوها بالطين..

وقال درويش إنه مستعد أن يساهم في نفقات الدفاع.. مستعد أن يشترك في إعداد الدفاع.. مستعد أن يختار محامياً كبيراً لتولي الدفاع عن سعدية.. ولكن لا يستطيع أن يدافع عن سعدية في قضية فيها اسم زوجته.

واقترح الأستاذ درويش اسم المحامي الكبير الأستاذ ابراهيم فتحي وأخرج مائة جنيه وأعطاها لشريفة.

ووكلت شريفة الأستاذ ابراهيم فتحي فتحمس للقضية، واشترك الفرسان الستة. في دفع باقي أتعاب المحامي الكبير.

وعرضت القضية أمام محكمة الجنايات.

وفوجئت سعدية وهي داخل القفص بأن الأستاذ إبراهيم فتحي المحامي الكبير لم يحضر الجلسة، وإنما أرسل بدلاً منه محامياً صغيراً مجهولاً.

وفوجئت سعدية بالمحامي الصغير يقف أمام القاضي ويقول متلعثماً في مرافعة من كلمتين إنه يرجو استعمال الرأفة مع المتهمة نظراً لصغر سنها، لأنها خالية من السوابق.

ثم جلس المحامي..

لم يفضح التلفيق.. لم يناقش الشهود.. لم يكشف الطغاة الذين لوثوا شرف امرأة بريئة..

ورفع رئيس المحكمة عينيه من الأوراق وقال مبتسماً:

- صغيرة السن؟. إن المتهمة عمرها ٢٧ سنة!

ثم نطق رئيس المحكمة بالحكم على سعدية عبدالمجيد صميدة بالسجن خمس سنوات مع الشغل بتهمة التحريض على الفسق والدعارة وإحراز المخدرات.

وبهتت سعدية عندما سمعت الحكم الظالم، ولكنها ابتسمت ساخرة.. لقد أصبح التحريض على الثورة وعلى الطغاة تحريضاً على الفسق والدعارة، وأصبح توزيع المنشورات على الشعب ليفيق من غفلته توزيعاً للمخدرات.. عندما تنتقل موازين العدالة من أيدي القضاة إلى أيدي الطغاة تصبح الفضائل هي الجرائم، والحسنات هي الجنايات!

وجاءت شريفة تزورها في السجن وتقول لها إن الفرسان الستة اكتشفوا أن فوزي بك صلاح الدين مدير الأمن العام اتصل بالأستاذ ابراهيم فتحي المحامي الكبير، وأبلغه أن جلالة الملك لا يرغب أن يراه يترافع في هذه القضية، لأن المتهمة كانت تقول لزبائنها أنها مستعدة أن تقدم لهم أميرات الأسرة المالكة لتمضية الليلة معهم مقابل خمسين جنيهاً.. وإن الملك يريد أن يقطع رقبة هذه المرأة الفاجرة التي أساءت إلى شرف أميرات أسرة محمد علي!

وكان الأستاذ ابراهيم فتحي يطمع في أن يكون وزيراً للعدل في الوزارة القادمة، فأرسل محامياً صغيراً مهمته أن يؤكد التهمة الظالمة بدلاً من أن يدافع عن المتهمة.

وجاءت تعليمات إلى مدير سجن النساء بالتشديد في معاملتها

لأنها أساءت إلى الوطن!

وألقاها مدير السجن في زنزانة بلا نوافذ. وصرف لها بطانيتين ممزقتين. وكان الحراس لا ينادونها إلا «يا عاهرة». وأصبح اسمها على شفتي زميلاتها المسجونات «سعدية العاهرة»!

ولم تتعذب سعدية من التهمة الظالمة، ولا من الحكم الظالم، ولا من دمغها بالعار والطين، حكم محكمة الجنايات لم يجعلها تنكس رأسها. سباب الضباط والسجانين والمسجونات لم يلطخها بالخزي. ولكن الذي عذبها هو أن حبيبها الأسطى مرسي ظلمها مع من ظلموها.. كانت تتمنى أن يظلمها الملايين وينصفها رجل واحد.. هو الرجل الذي تحبه.. وحتى هذا الطلب المتواضع لم يشأ القدر أن يمنحها إياه..

زاد في آلامها أن شريفة أخبرتها بأن الأسطى مرسي استقال من عمله واختفى، لأن إحسان زوجة صبحي خالد كانت تلح عليه كل يوم بأن يزور سعدية في السجن وتؤكد له براءتها..

وساءت صحة سعدية. القهر والاتهام الظالم، وسوء طعام السجن وبرودة الزنزانة، وعدم وجود نوافذ، وقلة الغطاء، وقسوة المعاملة، إن كل هذه تورث مرض السل اللعين!

وبدأ المرض ينهش فيها، ولم تكن سعدية تخاف الموت، وهي ترى نفسها تموت كل يوم. ترى الدم ينزف من صدرها. سعالها يمزق قلبها. كانت تفكر دائماً في ساق أبيها المقطوعة. إنها ستلتقي بأبيها عن قريب في السماء. ستقول له: أنت قدمت لمصر ساقاً، وأنا قدمت لمصر سمعتي وحياتي!

وتدهورت صحة سعدية. فقدت نضارتها. ذبلت عيناها. غابت سمرتها الحلوة وحل مكانها صفرة كصفرة الموت.

واستلفت نظر الدكتور عبدالقادر طبيب السجن بأن كل من في السجن يطلق على هذه المصدورة اسم «العاهرة»..

ولم يشعر الطبيب في ملامح سعدية ولا في حديثها ولا في تصرفاتها إنها العاهرة التي تصورها ألسنة السجن.

وحدث أن أغمي على سعدية إحدى المرات التي استبد بها سعال السل. وانتهز الطبيب فرصة إغمائها وكشف على جسدها، وفوجىء بأنها لا تزال بكراً!

وعندما أفاقت من إغمائها أخبرها الطبيب باكتشافه الغريب..

وابتسمت سعدية وقالت:

- نعم.. لم تلمسني يد.. إنني عذراء يا سيدي..

قال لها الطبيب في دهشة:

- ولكن المحكمة حكمت عليك بأنك تحرضين الناس على الدعارة.. كيف تسكتين على الذين ينادونك «يا عاهرة»؟ يجب أن يعرفوا الحقيقة ليدركوا بأنهم ظلموك!

قالت سعدية وهي تسعل:

- إنهم مجني عليهم مثلي.. إن الذين يصدقون كلام الظالمين مجني عليهم. إنهم ظلال الظلم.. خيال الظلم.. إنني لا أحقد أبداً على الخيال!

وتحمس الدكتور عبدالقادر للعاهرة بحكم المحكمة والشريفة بحكم الكشف الطبي، وكتب مذكرة يقترح فيها الإفراج عن سعدية إفراجاً صحياً..

وكان هذا الطلب قانونياً، فإن القانون يسمح بالإفراج عن المسجونين عندما تسوء حالتهم الصحية، فالسجون لا تريد أن تسجل في دفاترها الموتى. إنها تقتلهم تدريجياً.. ثم تفرج عنهم ليلفظوا أنفاسهم الأخيرة خارج السجون.

وأخيراً جاء رد بتوقيع فوزي باشا صلاح الدين وكيل الداخلية يرفض الموافقة على الإفراج الصحي عن سعدية!

واقتنع الأستاذ درويش المحامي بأن يقدم نقضاً عن الحكم، بعد أن قرأ الدوسيه واكتشف أن الشاهدين ضد سعدية هما نفس الشاهدين ضد الضابط عبدالمنعم بيومي الذي حكم عليه ظلماً بالأشغال الشاقة المؤبدة في قضية توزيع المنشورات.

ولكن النقض يتعثر طويلاً أمام محكمة النقض، وحكمت المحكمة برفض النقض وبقيت سعدية في السجن إلى أن انتهت مدة العقوبة وأصبحت هيكلاً عظمياً.. واستأجر الفرسان الستة لها غرفة في شارع القصر العيني، بجوار المستشفى الذي قطعت فيه ساق أبيها.

وكانت سعدية قد رفضت أن تقيم مع أحد منهم رغم إلحاحهم. لأنها لم ترد أن تلوث اسمهم بالإقامة معهم..

وكان من سوء حظها أن أحد ضباط سجن النساء كان يقيم في نفس العمارة، فروى للجيران بأن سعدية كانت مسجونة بتهمة

التحريض على الدعارة، وإحراز المخدارت.. وقاطع الجيران سعدية، وامتنعوا عن زيارتها حتى لا يلوثوا أنفسهم بعارها وطينها!

وكان الفرسان الستة يزورونها، ويدفعون مصاريف علاجها وطعامها.

وأخذت سعدية تذوي وتنطفىء يوماً بعد يوم.

وذات يوم ذهبت إحسان خالد وكاميليا كامل لعيادة سعدية وليقدما لها آخر منشور طبعه الفرسان الستة..

وأمسكت سعدية بأصابعها التي برز عظامها بالمنشور وقبضت عليه.. إنها لا تعرف ما فيه.. ولكنها كانت وهي تمسك به تشعر كأنها تقبض على المستقبل.. على الأمل.. على الغد!

ثم شهقت شهقة طويلة..

وسقط المنشور من أصابعها..

وارتعدت إحسان وكاميليا وهما ينظران إلى فكها الذي تدلى وإلى عينيها اللتين انطفأ فيهما النور.. وتحسست إحسان نبض سعدية فوجدتها قد أسلمت الروح.

وسار نعش سعدية في شارع القصر العيني.. ولم يكن وراء النعش سوى ستة مشيعين: ثلاث نساء وخلفهم ثلاثة رجال. الفرسان الستة يشيعون جنازة الفارسة السابعة!

وبدا منظر الجنازة غريباً في عيون الواقفين على الرصيف. إنهم لم يروا قبل الآن جنازة تسير فيها ثلاث نساء بملابس سوداء في خطوات بطيئة حزينة، متعثرة. كانوا وحدهم يعرفون أن في داخل

هذا النعش العدالة في بلادهم وضحايا الطغيان، والاستبداد، والملايين الذين قطعت ألسنتهم وقطعت رقابهم.. كل هؤلاء في امرأة واحدة هي سعدية!

أما الذين وقفوا على الرصيف فلم يكونوا يعرفون ماذا في داخل هذا النعش.. ولن يعرفوا أبداً.

ووقف رجلان من سكان شارع القصر العيني يرقبان النعش وخلفه المشيعون الستة.

وقال أحد الرجلين مشيراً إلى النعش:

ـ من هي؟

قال الرجل الثاني:

ـ إنها سعدية!

قال الرجل الأول:

ـ سعدية؟ سعدية من؟

قال الرجل الثاني في تأكيد العليم ببواطن الأمور:

ـ سعدية.. سعدية صاحبة أكبر بيت للدعارة السرية في مصر.. وقد حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنوات.. لقد كانت ملكة الحب في زمانها!

قال الرجل الأول في دهشة:

ـ ومن هم الستة الذين يمشون وراءها؟

قال العليم ببواطن الأمور وهو يضحك ضحكة عالية:

- زبائنها. . . زبائنها طبعاً!

وقهقهة الرجلان عالياً. .

وارتفع صوت غنـاء من ركن الهواة من جهـاز الراديـو في القهوة يغني أغنية سنباط:

صوابعك العشرة
قوللي يا روحي
اشمعنى
مخلوقة م الطين
م النار
والا م الجنة
تغطي شعري
تبقى أحلى م الجنة
تمسك في صدري
أغمض عيني، واتمنى
تمسك عصايا
أقول يا حبيبي اضربني
أصابع حبيبي
له شفة وله سنة
ضربك لذيذ يا حبيبي
والكلام بينا!

واقشعر الفرسان الستة وهم يسمعون هذه الأغنية. . كأنها كانت تخرج من نعش سعدية . لا من جهاز الإذاعة!

كـأنها تقـول إنها لا تحقـد عـلى عصـا الـظلم والافـتراء التي ضربتها. . فقد كـانت هذه العصـا في يد بعض من أبنـاء وطنها. . هذا المواطن الذي كان حبها الأول. . كان صاحب الجلالة الحب!

ومضى مؤلف القصـة يسأل كـل أبطال القصـة أن يكتبوا خـاتمـة القصة.

سألهم المؤلف واحداً واحداً.

وكتبوا الخاتمة التي يفترضونها واحداً واحداً.

بطل واحد من أبطال القصة لم يكتب خاتمة القصة بعد.

هذا البطل: هو أنت أيها القارىء!

أكتب أنت خاتمة القصة. . .

فقد تكون القصة التي تكتبها أنت بيدك، هي بداية الأسطورة!

كتب أخرى للمؤلف

● **أمريكا الضاحكة**

حياة طالب مفلس في أمريكا
الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ ـ (نفدت).
الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ ـ (نفدت).
الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ ـ (نفدت).
الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥ «**أمريكا الضاحكة.. زمان**»
الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة.

● **فاطمة**

مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدي سنة ١٩٤٧م.

● **عمالقة وأقزام**

ساسة مصر قبل الثورة
سنة ١٩٥١ ـ (نفدت).

● **ليالي فاروق**

قصة حياة الملك السابق
الجزء الأول سنة ١٩٥٤ ـ (نفدت).
الجزء الثاني سنة ١٩٥٤ ـ (نفدت).

● **معبودة الجماهير**

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ ـ (نفدت).
مثلها للسينما عبد الحليم حافظ وشادية.

● **صاحبة الجلالة في الزنزانة**

قصة الصحافة المصرية في الأغلال والصراع بين الصحافة والطغيان.
الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ ـ (نفدت).
الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ ـ (نفدت).
الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٥ ـ (نفدت).
الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥
[العصر الحديث للنشر والتوزيع ـ بيروت]

● **سنة أولى سجن**

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٧٤ ـ (نفدت).
الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ ـ (نفدت).
الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ ـ (نفدت).
الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ ـ (نفدت).
الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ ـ (نفدت).
الطبعة السادسة يناير ١٩٧٨.
الطبعة السابعة ابريل ١٩٨١.

● **الكتاب الممنوع**

أسرار ثورة ١٩١٩.
الطبعة الأولى ١٩٧٤ ـ (نفدت).
الطبعة الثانية ١٩٧٥.

● **سنة أولى حب**

الطبعة الأولى يناير ١٩٧٥.
الطبعة الثانية ١٩٨٥ **[العصر الحديث للنشر والتوزيع ـ بيروت]**
مثلها للسينما محمود ياسين ونجلاء فتحي.

● **ست الحسن**

الطبعة الأولى ١٩٧٦ ـ (نفدت).
الطبعة الثانية ١٩٨١.

- **من واحد إلى عشرة**

الطبعة الأولى ١٩٧٧

الطبعة الثانية ١٩٨١

- **سنة ثانية سجن**

الطبعة الأولى ١٩٧٧ .

- **سنة ثالثة سجن**

الطبعة الأولى ١٩٧٨ .

- **لا . . .**

الطبعة الأولى ١٩٧٧ (نفدت) .

الطبعة الثانية ١٩٨٥ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

- **لكل مقال أزمة**

الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

- **الـ ٢٠٠ فكرة**

الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

- **تحيا الديمقراطية**

الطبعة الأولى ١٩٨٠ .

- **من عشرة لعشرين**

الطبعة الأولى ١٩٨١

- **سنة رابعة سجن**

الطبعة الأولى ١٩٨١

- **صاحب الجلالة الحب**

الطبعة الأولى ١٩٨٢ .

الطبعة الثانية ١٩٨٥ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

- **من فكرة إلى فكرة**

الطبعة الأولى ١٩٨٣

- **من فكرة إلى فكرة**

الطبعة الأولى ١٩٨٤

- **الآنسة هيام**

الطبعة الأولى يناير ١٩٨٥

الطبعة الثانية يونيه ١٩٨٥ [منشورات العصر الحديث]

- **الآنسة كاف**

الطبعة الأولى ١٩٨٥

- **الفكرة المنوعة**

الطبعة الأولى ١٩٨٥